مكتبة الأسرة

علوم اجتماعية

٢٠١٥

ورثة محمد ﷺ

جذور الخلاف السُّنى الشيعى

برنابى روجرسون

ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

تعليق: أ.د. عبد المعطى بيومى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ورثة محمد ﷺ

جذور الخلاف السُّنى الشيعى

مكتبة الأسرة ٢٠١٥

اللجنة العليا

فـــوزى فهـــمى رئيسًا
أحمـد علـى عجيبـة
أحمـدزكـريا الشـلق
جرجـس شـكـرى
جمـال الغيطـانى
خالــد منتصـــر
خلف عبد العظيم الميرى
ســيد حجـــاب
فاطمـة المعـــدول
محمــــد بـــدوى
محمــــد شـــعير
محمــــد عنـــانى
مصطفـــى لبيـــب
نبيــل عبد الفتـاح
هالــــة خليــــل
أحمـــد مجاهـــد المشرف العام

الوزارات المشاركة:

وزارة الثقافة
وزارة التخطيط
وزارة التربية والتعليم
وزارة السياحة

تصميم الغلاف

وليـــد طاهـــر

الإشراف الفنى

علـى أبـو الخيـر
صبرى عبد الواحـد
هشام متولـى حامـد

تنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ورثة محمد ﷺ
جذور الخلاف السُّنى الشيعى

تأليف

برنابى روجرسون

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

تعليق

أ.د. عبد المعطى محمد بيومى

٢٠١٥

روجرسون، برنابى.
ورثة محمد صلى الله عليه وسلم: جذور الخلاف السُّنى الشيعى/
برنابى روجرسون، ترجمة: عبد الرحمن عبدالله الشيخ؛ تعليق:
عبد المعطى محمد بيومى . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠١٥.
٣٨٨ ص، ٢٤سم.
تدمك ٠ ـ ٢٥٨ ـ ٩١٠ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ الديانات المقارنة.
أ ـ الشيخ، عبد الرحمن عبد الله (مترجم).
ب ـ بيومى، عبد المعطى محمد (معلق).
ج ـ العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٥/٧٩٧٦
I.S.B.N 978- 977- 910-258-0
ديوى ٢٩١

توطئة

الحقيقة المؤكدة التى تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هى أن تجليات الارتقاء فى الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفى والفكرى والثقافى للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة فى استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة فى مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفى الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، فى حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته فى سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التى تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التى تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضًا أن لا شىء يتأبد فى الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام - بوصفه أداة الانتصار الإنسانى - يشكل إدراكًا معرفيًا عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التى تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابيًا فى مواجهة صورة الوجود الحقيقى أمام الممكنات المفتوحة التى ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحولها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلى لزمن اجتماعى، فالقراءة هى البداية الكبرى التى إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث فى غياب القراءة تتجلى

علامات العجز عن إحداث شيء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون ، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولهما، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقًا لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغيير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكاتف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبدد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكاتف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبى طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًا وثقافيًا فى ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

الفهرس

الملاحق

شكر وتقدير

الكتابة عن التاريخ الباكر للإسلام، ليست أمرًا سهلاً. فعندما كنت ألتقى بكتَّاب مسلمين يسمعون منِّى أننى كتبتُ كتابًا عن حياة النبى محمد وأعقبته بكتاب عن خلفائه الراشدين الأربعة، أجد الواحد منهم قد حرّك حاجبيه دهشة وشكًا، وقد اعتدت على هذا التقليل من قدراتى Used to Spotting. إننى أعرف تمامًا ما يشعرون به، ولكنهم كانوا مهذَّبين بدرجة تكفى لعدم تعبيرهم عمًّا فى مشاعرهم. وعلى هذا، فقد كنتُ أنا الذى أبدأ بالتعبير عمّا يودُّون قوله. لقد كنتُ أقول إنه لا بُدَّ أن أعيش سبع حيوات (جمع حياة) أقضيها فى الدراسة قبل أن أحاول كتابة فصل واحد، لا بدَّ فى البداية أن أقضى قرنًا لقراءة الثلاثين مجلدًا التى استغرقتها الكتابات التاريخية للواقدى والطبرى وابن سعد، ومائة سنة أخرى لدراسة شروح كتابات هؤلاء الأعلام والتعلقيات عليها، مسبوقة بالإلمام بمعلومات صحيحة ومهمة عن كلِّ مجلد من مجلَّدات الأحاديث (النبوية) البالغ عددها أربعة وثمانين مجلدًا، ولا بد أن أقرأ ابن إسحاق وأن أحفظ القرآن عن ظهر قلب؛ ومن ثَمَّ أعانى العذاب بالتدرب فى نصوص النَّحويِّين الأوائل لمعرفة الظِّلال الصحيحة لمعانى الأفعال Verbs العربية القديمة قبل أن أَخُط سطرًا واحدًا. وكُنتُ أزيدُ الطين بِلَّة بالقول بأننى لا أستطيع قراءة النصوص الأصلية إلاَّ من خلال الترجمة الإنجليزية. لذا فإننى مَدين أولاً وقبل كل شىء، بشكل دائم، للمترجمين الذين بذلوا الجَهْد المضنى بعناية لنقل النصوص العربية (الطويلة) إلى اللغة الإنجليزية، وغالبًا ما كانت جهودهم هذه لا تحظى بالإعلان عنها والاحتفاظ بها.

وإنى مدين فى المقام الثانى لصديقتى روز بارنج Rose Baring التى أتاحت لى وقتًا لأقرأ وأكتب وأفكّر وأكتب التعليقات وتنتابنى الأفكار المقلقة، بينما هى تحمل العبء الحقيقى لحياتنا؛ تُسيِّر أمور المنزل، وتهتم بأطفالنا وتعلمهم كيف يكتبون وكيف يعزفون الموسيقا، ولم أذكر مسئولياتها اليومية عن تشغيل إلاند Eland، وهى شركة النشر التى نمتلكها معًا.

وأود - بطبيعة الحال - أن أشكر أيضًا، وكيلى دائم البهجة ميْكل ألكوك، وستيف جيز Guise، ناشرى اليقظ فى مؤسسة ليتل براون Little Brown، اللذين مثّلا الآباء الطيبين الخبيرين بتتبعهما فكرة هذا الكتاب وكيف تطورت بصبر وتُؤدة، وأشكر كلاً من بروس وانل Wannel وروبرت هويلاند Hoyland من جامعة سانت أندروز، لتلطّفهما بقراءة المسوّدة (البروفة) الأولى لهذا الكتاب قراءةً دقيقة وتفصيلية (لم يفلتا منه شيئًا)، وقد استفدت عند إصدار هذا الكتاب بشكله النهائى من ملاحظاتهما واستفساراتهما واقتراحاتهما التى أثْرت الكتاب، إلاّ أنَّ كثيرًا مما ورد فى روايات التاريخ التى حاولت جمعها، ما كنا بقادرين على إقرارها أو الموافقة عليها إطلاقًا. لقد قدَّما لى ما لديهما من معلومات، لكننى أزعم الآن أنَّ أىّ أخطاء متبقّية فى المعلومات والتحليلات، إنما هى مسئوليتى وحدى. كما أشكر ريجنالد پيجوت Piggot لقيامه برسم إحدى عشرة خريطة، وكذلك جنى فراى Fry وكلارا وومرسلى Womersly فى قسم الدعاية فى مؤسسة ليتل براون، كما أودّ أن أثبت أننى استمتعت بصداقة هذه المجموعة الصغيرة ذات الفكر المستقل، من الناشرين والكتّاب، ونصائحها ومناقشاتها الحيوية، والتى لا تزال موجودة فى الشوارع الجانبية فى لندن. وكان روبرت إرْوِنْ Irwin وميكل هج Hagg ونيكولا بومان Beauman ومارك إلنجهام Ellingham ووليم فاسى Facey وشارلى بوكسر Boxer - يعرفون كل جوانب هذا العمل both sides of the counter.

توطئة

كنتُ أتطلَّع لمقابلتها طوال شهور، رغم أننى عندما فعلتُ، كان ذلك فى مساء، بدأت فيه القنابل تسقط على مدينتها فى وطنها الأم home town. وقضينا الساعة الأولى فى رفض مهذَّب (لما يحدث). ونحن نثرثر حول الفن والثقافة والتاريخ فى صالة الرسم الخاصة بهم، تلك الصالة الأنيقة الموجودة فى لندن، والمؤثَّثة بقطع أثاث حديثة من سوريا، بالإضافة إلى تحف ذات قيمة أكبر heavier relics تعود للماضى العثمانى مختلطة بلوحات الكانفاه (رسم بالإبرة على قماش من نوع خاص، أو لوحة زيتية مرسومة على النوع نفسه من القماش) الخاصة بها. لكن ـ فقط ـ عندما انتهينا من الحديث، ما إن دخلوا غرفة الاستقبال الصغيرة الخاصة بهم، حتى وجدوا شاشة التليفزيون العملاقة مليئة بأضواء برتقالية. إنّ بلادهم تُقْذف بالقنابل، وهذا ما بدأتُ أعلمه.

لم يكن واضحًا للوهلة الأولى أن بغداد تُقذف بالقنابل أمام عينيها، وراح زوجها يشير وهو منفعل مهتاج إلى بعض معالم المدينة (بغداد) مثل الوزارة التى سبق له الخدمة فيها مشتغلاً بعدة مشروعات زراعية مختلفة. إن هذه الوزارة تقع بجوار حظائر قصر عبَّاسى، ودعا زوجها الله ألاَّ يكون هدفًا للقصف، فهو الوحيد الذى تركه فرسان المغول، إلاّ أنه سرعان ما سيكون الدمار شاملاً فلا يبقى شىء من هذا الأثر الأخير من عظمة بغداد فى العصور الوسطى. «فمدينة السلام» لا تعرف الآن شيئًا سوى الحرب. وبين الحين والآخر يتفق الاثنان ـ باستخفاف ـ على غلق التليفزيون لينشغلا بإعداد الطعام لضيوفهما وملء كؤوسهم ولمواصلة نقاش بدا أكثر هدوءًا، على الصعيد الثقافى،

لقد تحدثنا عن إعجابنا المشترك بأشجار النخيل، وبعد ذلك أرانى بفخرٍ نسخةً من رحلات جدّه التى حرّرها هو نفسه، بعناية، وساعده إخوته فى عملية التحرير هذه، ولا يمكن مقارنة هذه الرحلة بأدب الرحلات فى الفترة نفسها، فقد كان جدّه بطلاً وطنيًا عراقيًا. كان رجلاً ناضل ضد السلطة العثمانية القديمة، وضد الحماية الاستعمارية البريطانية التى تلت الحكم العثمانى: وعنوان كتاب جدّه «الرحلات» لا يدل إلاّ على رواية أدبية مهذّبة تحوى تجربة محقّقة لشاب نُفى من وطنه وراح يبحث عن إجابات سياسية ممكنة من عرب آخرين فى الشرق الأوسط، لقد حان الآن ـ مرّة أخرى ـ حينُ تشغيل التليفزيون من أجل جولة أخرى من تقارير الـ CNN فى التفجيرات فى بغداد وحولها. «هذا ليس جديدًا، فقد كان لدينا نحن العراقيين مثل هذا دائمًا؛ لنعانى ونناضل، ونناضل ونعانى».

وبعد ذلك أخذتنا إلى خارج الكورّادور (مجاز الحجرات) وبدأت تستدير نحو لوحات الكانفاه التى تواجه الحائط؛ لوحة إثْر لوحة، كانت هذه اللوحات لا تزال رطبة... إننا إزاء جالرى (ممر) من الشخوص الكهنوتية hieratic مرسومة عن صور مُلهمة من حضارة بلاد الرافدين: رجال دين وملوك وربّات السّومريين والكلدانيين والبابليين، كل ذلك مختلط برموز وطواطم totems إسلاميّة، وكلُّها قد استخرقها (طغى عليها) اللهب والكرب العظيم. كانت اللوحات لا تزال رطبة، وتلك ضريبة لطاقتها الهائلة (طاقة راسمة اللوحات)، لكنها أبعدت توترها بضربةٍ خفيفة على عينها، وهى تمر متّئدة تحت ثقل لوحاتها الممتَدّة، لقد قالت: «أنا أرسم لأننى لا أستطيع النوم، والآن لقد أتى دور القنابل والقذائف، أتى مرّة أخرى. إننى لا أرى سواها».

وبعد ذلك بفترة غير قصيرة سمعنا من كانت هى who the "her" was. وسمعنا أيضًا عن أعوام من الشُّغل وعن معركة داخلية بين دَوْرها كأُم وزوجة من ناحية، ودورها كفنانة من ناحية أخرى. لقد دارت المعركة فى داخلها بين حريتها فى أن تعمل، تلك الحرية التى تتيحها لها لندن من ناحية وبين مصدر الرزق والارتباط اللذين يمكن أن يأتيا ـ فقط ـ من العيش فى بلادها من ناحية أخرى. وأخيرًا أتت ليلة الاعتراف: معرضها الناجح فى لندن حيّاه واحتفى به كل العالم العربى المقيم فى المنفى (المُبعَد عن وطنه). لكن فى هذه الليلة نفسها، وقد عادت لبيتها شاعرة بالنشاط والخفّة، شغَّلت التليفزيون لتسمع ـ وترى ـ أخبار منتصف الليل فسمعت أنّ صاروخًا ضلَّ هدفه. لقد

تم اختراق منطقة من المناطق العراقية التى حظرت قوات التحالف الطيران فوقها no-fly zones. وفجأة تحقّقت من أن شظايا هذا الصاروخ دمَّرت منزلاً بالعراق وأظهرت كاميرات التليفزيون أنه منزل أختها. لقد راحت الكاميرات تصور بقايا المنزل الذى تحطّم.

لقد دمّر صاروخ ضال كلّ أسرتها فى ليلة كانت - أخيرًا - قد تلقّت فيها التحية والتقدير لكونها فنّانة. لقد أزاح هذا الدمار أثر السعادة الكاملة التى حظيت بها لساعة أو ساعتين. والآن وبعد أعوام بدأت القنابل والقذائف تضرب بغداد مرّةً أخرى؛ فشعرت أنّ عشرات الآلاف يشاركونها أحزانها الشخصية. وكانت استجابتها للأحداث ممثلة فى أن ترسم.. ترسم نهارًا وليلاً مُبدعة عناصر وجه أختها (ملامحها) مُضافرةً إياها بكل ما شهده العراق من عظمة فى الماضى. لقد كانت لوحاتها رؤًى مفزعة إن لم تكن سوط عذاب. لكنها قالت: «هذا ما خُلقنا من أجله. **لقد وُلدنا لهذا القَدَر، هذا قدرنا نحن شعب علىّ the people of Ali الذى وُلد ليناضل ويناضل ثم ليعانى**».

وفى غرفة الاستقبال راح التليفزيون - مرَّة أخرى - يكرر، ومن ثَم عادت الانفجارات لتهيّمن على جو المناقشات. وعندما ألقينا تحية الوداع، عاد بى زوجها إلى مكتبته العزيزة بما فيها من صفوف كتب التاريخ الجليلة، والروايات التى تم تصفُّحها كثيرًا: روايات بالعربية والإنجليزية والفرنسية، ولوحات أنيقة لامعة وواضحة تبين عظمة الفن الإسلامى والعمارة الإسلامية وجمال الخط العربى. وكان الرف العلوى الأيمن يبدو فارغًا بلا كتب، ولم يكن الأمر كذلك. إنه مكان التشريف والتوقير حيث وُضع - منبسطًا على الرف - كتاب ذو غلاف جلّدى قديم. إنه نسخة جدّه من عظات علىّ. وقال لى: «إننى لا أُسلّم سطرًا واحدًا من هذا الكتاب مقابل كل ما فى هذه المكتبة من كتب». وكان يمكن للمرء أن يومئ بشكل مهذب موافقًا على معلّم مُلّتحٍ (ذى لحية) قال ما قال فى فصل دراسى خالٍ من الكتب (قاحل)، لكن كيف يصدر هذا من مثل هذا العراقى المُستّغرِب (الذى تثقف بثقافة الغرب).

(لقد كان صدور هذا القول منه أكثر قوّة وتأثيرًا مما لو صدر من غيره ممن هم ليسوا على هذا القدر من الثقافة). أما فترة المساء فكانت للتعليم: لقد كان الحديث عن طبيعة المعاناة Suffering التى لا مناص منها. وكيف أنه لا بد للصادق الطيب أن يعانى

دائمًا. ولقد بدأت أنا أيضًا أفهم شيئًا من الطبيعة العاطفية الكامنة وراء حكاية ورثة النبى Heirs of the Prophet .

إنها حكاية مأسويَّة، بل إنها يمكن أن تكون أيضًا معقّدة لوجود روايتين تاريخيتين مختلفتين؛ رواية شيعية، وأخرى سُنية، وهاتان الروايتان تم تقنينهما فى ظل تفسيرات أو تأويلات تنافسية للتاريخ، بعد حوالى مائتى سنة من وفاة النبى. وهذه هى وحدها الحقيقة التى لا مجال لإنكارها، **وليس حول النبى محمد نفسه أى خلاف - اللهم إلاّ القليل - بين التراثين: الشيعى والسنّى. فتفاصيل حياة النبى لا خلاف عليها بينهما اللهم إلاّ خلافًا رمزيًا متعلقًا باحتضار النبى، فالشيعة يعتقدون أنه مات بين ذراعَىْ علىّ، أما السنة فيعتقدون أنه مات بين سَحْر عائشة ونحرها (على حِجْرِها Lap)**. ومن الناحية النمطية، فإن المسلم المتدين سينشأ معتقدًا فى صحّة أحد هذين الخبرين. ومن خلال خبرتى، أقول إن سماع الرواية الأخرى ردًا على الرواية التى تكون قد ذكرتها، أمر طريف غالبًا ما يكون مدعاة للدهشة. **لذا فقد كان هدفى هو احترام كلتا الروايتين (التراثين؛ الشيعى والسنى) وأن أجلس لأكون خياطًا لأرتق (لأرفو) قطعتين من القماش لأجعل منهما قطعة واحدة مرتوقة (مرفوّة أو مَخيِطَة). فمن الممكن أن يكون كلا التراثين (الشيعى والسنّى) صحيحًا بمعنى الكلمة.**

مُقدِّمة الترجمة العربية

لا يجد هذا المؤرخ الأنثروبولوجى الرائع أية فوارق دينية بين السُّنة والشيعة أو بين من يُقال لهم سنة، ومن يقال لهم شيعة، وذلك بعد أن بَسط بين يديه كلّ ما تُرجم إلى اللغات الأوروبية من كتب التراث الإسلامى وهى كثيرة جدًا، وبعد أن أمعن النظر فى محتواها، متجاوزًا الظاهر الكاذب ليغوص فى المعنى والمبنى والفحوى. يقول برنابى روجرسون:

«وعندما نتفحّص الممارسات (العبادات) الدينية للمسلمين السنَّة والمسلمين الشيعة نجد أن الفروق ضئيلة لا تكاد تُذكر، فالشيعة يعترفون بالقرآن نفسه (النص عند كليهما واحد) وهم يصلّون الصلوات الخمس اليومية، ويتّبعون تقويمًا واحدًا، ويلتزمون فى صومهم بالالتزامات نفسها، وكلاهما يحج ملتزمًا بالطقوس (الشعائر) نفسها».

"When you examine the religious practice of a sunni and a shia Muslim for differences, the variations are very small. They acknowledge the Same koran, the same practice of the five daily prayers, the same Calendar, the same practice of fasts and the same rituals of the haj pilgrimage".

حتى الفروق الدينية أو العبادية التى يراها طفيفة جدًا، سرعان ما يجد لها مثيلاً عند الطرف الآخر، فالشيعة يوقرون قبور آل البيت ويزورونها ويطوفون بها، لكن هذا الأمر نفسه وجده المؤلف فى كلِّ البلاد الإسلامية الأخرى التى لا تعتنق رسميًا المذهب الشيعى، والتى إذا سألت أى واحد فيها لقال لك إنه سنّى مع أنه داخل ضريح الحسين أو السيدة نفيسة.. إلخ.

* * *

لكن إذا كانت الفروق الدينية بين المذهبين منعدمة تقريبًا كما توصّل مؤلفنا هذا، وكما توصل باحثون آخرون فلا بُد أن هناك أسبابًا أخرى كامنة وراء هذا الصَّدع، وهو ما حاول المؤلّف تبيّنه، ومن هذه الظروف غير الدينية ظهرت الخلافات التى اكتست بلبوس دينى، وهى أبعد ما تكون عن أن تكون خلافات دينية، فيما يرى المؤلف.

يرى مؤلفنا أن جماعة المسلمين فى المدينة المنوَّرة، كانت مكوّنة من (ثقافتين) أو (تراثين) مختلفين، ظلت الفروق واضحة بينهما رغم أن الإسلام أظلّهما معًا.

يرى المؤلف أن كلا التراثين؛ السنى والشيعى، هما فى الحقيقة يمثلان عقيدة واحدة أو دينًا واحدًا، وهو لا يدرى ما الذى جعلهما منفصليْن. إنهما قطعة قماش واحدة، فمن الذى شقّها. لذا؛ فقد قرر المؤلف أن يكون خيّاطًا ليرتق قطعتين من القماش أصلهما واحد، وكانتا فى الأساس قطعة واحدة.[P.XVI].

"It has been my aim to honour both traditions and to sit like a tailor darning together two pieces of Cloth into one. For in this instance if is possible that both traditional accounts are literally true".

ومن الواضح أن المؤلِّف (الخياط) يعتبر هذا الفصل بين الشيعة والسنّه إنما هو فصل وهمى، وإن كان له جذوره السياسية والاجتماعية المشروعة، أما الفروق الدينية فليس لها وجود حقيقى.

فأهل مكة كانوا تجارًا بشكل عام، وسماسرة على نحوٍ خاص، وجوَّابى آفاق. «مكة بجفافها الشديد وافتقارها وما حولها إلى البيئة الزراعية جعلها منطقة طاردة. فقريش مكة موجودون فى كل مكان فى الشرق الأوسط حيثما وُجد بصيص من التجارة. إنهم فى موانئ الحبشة، وفى المدن الجبلية فى اليمن وفى قلاع الشام أو بلاط الحاكم الفارسى فى العراق.. وكانوا حريصين فى كل هذه الأنحاء على الاحتفاظ بصلاتهم ببدو الصحراء ومع المشايخ الحضريين التجار، وكانوا حريصين على أن يعملوا حراسًا فى المخافر الحدودية المزعجة.

وكان زعماء مكة يمتلكون عقارات فى أماكن بعيدة واتفقوا على أن تحرسها لهم قبائل أخرى متحالفة معهم (أحابيشهم) (P.17-18). مثل هذه الظروف جعلت (قريش القبيلة) أو (قريش التحالف)، وهو الأقرب للصحة خبراء فى تشغيل غيرهم لحسابهم،

وخبراء فى إيقاع الخلاف أو الفُرقة بين العناصر أو القبائل المختلفة لضمان أمن الطرق التى تسلكها قوافلهم، وخبراء فى تقديم الأعطيات المالية التى يحصلون منها على ما هو أكثر منها بكثير ... إلخ».

***

كان وجود النبى ﷺ بشخصه العظيم قد هيمن على كل اختلاف، لكن بعد موت النبى ﷺ كان من الواضح أن طبيعة أهل المدينة مختلفة نوعًا ما، فقد وضحوا أنّ المهاجرين يمثلون (عشيرة) منفصلة وافدة. (p.129).

كان سعد بن عُبادة وأهل المدينة لا ينظرون ـ بشكل عام ـ خارج إطار مجتمعهم الزراعى فى المدينة، فذكَّرهم أبو بكر وجماعة المهاجرين أن الإسلام الآن قد أصبح ظاهرة تمتد لتشمل شبه الجزيرة العربية كلها، فليس من خيار أمام الأنصار إلاّ القبول بحاكم من قبيلة النبى (قريش). وكان هذا منطقًا سياسيًا لا يمكن ردّه، فلما تطورت الأمور بعد ذلك جنح معظم أهل المدينة وغيرهم إلى التشيُّع للفرع الهاشمى، لما لعلىٍّ من تراث ارتبط بحياتهم الزراعية شيئًا ما، ولأنه الأقرب إلى حياة (العمّال) إذ كان يعمل أجيرًا ونضّاحًا للماء فى مرحلة إقامته الأولى فى المدينة، ولجنوحه إلى روح المساواة، إلى آخر ما يجده القارئ فى هذا الكتاب .

«كانت ميزة أهل مكّة الكبيرة والوحيدة هى براعة قيادتها السياسية، فقريش مكّة رغم التنافس بين عشائرهم، نجحوا فى تقديم أنفسهم بوجه واحد موحَّد للعالم الخارجى (غير القُرشى). وهذا لم يحدث فى المدينة (الواحة) التى لم يستطع أهلها أن يتظاهروا بأن لهم سياسة واحدة ومتماسكة، فقد مزّقتهم الصراعات السياسية بين العشائر» (p.17).

ولنضرب مثلاً بقرشى صالح غير ثرى من قرشيِّى مكة، لنرى جانبًا من خبرته (ثقافته). إنه الخليفة الأول أبو بكر.

كان خبيرًا بالأنساب، وفاضًا للمنازعات، وخبيرًا بتفاصيل انتقال القافلة، ولم يكن فى الغالب تاجرًا يعمل لحساب نفسه، وإنما كان تاجرًا مرافقًا، ولم يكن من الأثرياء الرأسماليين، وإنما جمع مالاً من الأعمال الآنف ذكرها يجعله من أفراد الطبقة المتوسطة. وكان ينقصه السَّنَد العشائرى (كان من عشيرة ضعيفة) (pp.82-83).

وتعرّض أهل المدينة (الأنصار) للتجاهل بعد وفاة النبى ﷺ. وربما كان هذا الموقف غير قائم إلاّ على نظرة قبلية ظالمة tribal prejudice؛ إلاّ أنه من المؤكدّ أنّ المسلم المكّى الوحيد الذى مارس الزراعة والعمل الزراعى فى الواحة (المدينة) وظلّ ملتزمًا أخلاقيًا طوال حياته، لم يمارس أبدًا مثل هذا الظلم ـ فهو علىّ، الذى كان يدافع دائمًا عن حقوق أهل المدينة.

بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، ظل دخْل بيته قائمًا على العمل الشاق والتجارة فى الجلود، طوال ست سنوات (p.81).

وكان على بن أبى طالب هو قطب الرَّحَى فى هذا الميدان. وما زال الشيعة حتى يومنا هذا يعتبرون أنفسهم شعب علىّ، أو لنقل جانب كبير منهم على الأقل. وهذه كلمات شيعى عراقى التقى به المؤلف فى لندن:

«هذا هو قدرنا نحن شعب على الذى وُلد ليناضل ويُناضل ثم ليعانى».

“We are born to this fate, we who are the people of Ali, who were born to struggle, to struggle and then to suffer”. (P.XV).

نخلص من هذا بأن المؤلف، بعد أن بسط أمامه كتب السيرة النبوية وكتب الحوليات التى تعرضت لأحداث هذه الفترة (السيرة النبوية لابن هشام والطبقات الكبرى لابن سعد، وتاريخ الطبرى.. إلخ) وأزاح منها كل ما هو غير اجتماعى وغير اقتصادى وغير سياسى ـ خلص إلى أن أحد جذور ما يُسمى الخلاف السنّى الشيعى ليس ذا طابع دينى، وما يؤكّد رؤيته هذه هو أن معظم الشيعة الآن من أصول تعود للمدينة المنوَّرة (كما تدل على ذلك أسماؤهم: فلان الخزرجى.. مثلاً)، كما تعود إلى أصول شرق الجزيرة العربية (الذين لم يأخذوا نصيبًا كافيًا من الريع لأنهم ليسوا من قريش)، أو من الشعوب الزراعية التى إن لم تكن من الشيعة من الناحية الرسمية، إلاّ أن حبهم لآل البيت طاغٍ وجارف بسبب ارتباط تراث على بالعمل والإنتاج. ورغم أن المؤلّف لم يغرق فى الاستشهادات بنصوص كثيرة، إلاّ أن **كل** المفردات التاريخية التى أوردها ظاهرة واضحة فى كتب التراث التى أشرنا لبعضها فى هذه المقدمة (الدراسة). ولأن الواقع المعاش ـ حتى الآن على الأقل ـ يُبيِّن أنه فى كثير من الحالات، يكون حظّ المنتج من

العائد أقل، وربما أقل كثيرًا، من حظ تاجر الجملة وتاجر التجزئة وناهيك عن السمسار، فقد وجدنا من حوّل الإسلام إلى مجرد لحية قرشية، وثياب ذات طابع خاص، واتهام بالتكفير ليحلّل لنفسه نهب أموال (الكَفَرة) .

* * *

أساس آخر أو جذر آخر من جذور الخلاف السنّى الشيعى، ربما لا يحظى بقبول كافٍ من الباحثين والدارسين وربما عامة المسلمين، لكنه جذر لا يمكن التغاضى عنه ولا يمكن إنكاره إنكارًا كاملاً بأية حال من الأحوال. لقد ساق المؤلف أدلّة بعضها مقنع إلى حد كبير على أن الخلاف السنّى الشيعى، وهو خلاف ليس له أساس دينى، إنما هو نتيجة صراع بين زوجات النبى أمهات المؤمنين رضى الله عنهن وأرضاهن أجمعين. ومرّة أخرى لا نكاد نجد كلمة واحدة مما أورده المؤلف غير موجودة فى كتب التراث الإسلامى، وإنما الجديد هو أنه أعاد التحليل والتعليل ووضع المفردات التاريخية متجاورة ليخلص منها بنتائجه، وإن كان من حق القارئ أن يخلص بنتائج مغايرة.

لقد تزوج النبى صلى الله عليه وسلم من عائشة رضى الله عنها وأرضاها، بعد أن عرضت عليه امرأة مخلصة هى خولة أن يتزوج عائشة (لعذريتها)، وسوْدة بنت زمعة لأنها أرملة متوسطة العمر تعرف كيف تدبر البيت وكيف ترعى بناته (بنات النبى). (p.85) .

ويعجب المؤلف من تحديد عمر عائشة عند زواجها، ويعجب أكثر من اللغط الذى ثار حول هذه المسألة، فإذا كان المؤرخون العرب لم يستطيعوا تحديد تواريخ المعارك الحاسمة تحديدًا دقيقًا، فالخلافات بينهم تتراوح أحيانًا من سنة إلى أربع سنوات. وليحسم هذه المسألة ـ مسألة عمر عائشة ـ، قام بزيارة لمجتمع بدوى منعزل لا يزال أفراده يعتمدون فى حياتهم على قطعان الجمال والماعز. يقول المؤلف : «لم أجد منهم من يعرف تاريخ ميلاده، رغم أنهم يعرفون تمامًا نظام القرابة. لقد ضحكوا من غباء أسئلتى عندما سألتهم مثلاً: متى تتزوّج الفتاة؟ .. لقد كانت إجابتهم واضحة فى حد ذاتها: تتزوج الفتاة عندما تصبح امرأة (يقصدون عندما تكبر)» (p.88).

رغم أن عائشة رضى الله عنها كانت قد نضجت كامرأة فقد ظلت محتفظة بلعبها وصديقاتها، بل إن سودة **بنت زمعة** زوج النبى كانت تعتنى ببنات النبى وبعائشة أيضًا وكانت مصدر دخل للبيت؛ إذ كانت تُتقن عمل السيور الجلدية والمخدّات (الحشيات) والسروج المزيّنة. (p.88).

وتزوّج النبى ابنة عمر بن الخطاب **حفصة**، التى لم تكن موضع غَيْرة عائشة، لأنها كانت امرأة جادة تجيد القراءة والكتابة، وكانت كمتحدثة تنقصها الجاذبية كما كانت حادة الطبع، وكانت تحفظ بعناية ما أُوكل إليها من قرآن مكتوب على الرقاع واللخاف.. إلخ. وكانت تشارك أباها فى كل صفاته الشخصية، وقد سبق أن رفض أبو بكر أن يتزوجها، وكذلك عثمان، فتزوجها النبى فرأت عائشة أن حفصة لا تشكل تهديدًا لمكانتها عند النبى. (p.89).

أما **زينب بنت خزيمة**، فتزوجها النبى بعد سنة من زواجه بحفصة بنت عمر بن الخطاب. مات زوجها السابق فى غزوة بدر أو غزوة أُحُد، على خلاف بين الرواة. كانت كثيرة التصدق، عاشت فى منزل النبى عامًا واحدًا ثم ماتت، وكانت صالحة تقية **عَزُوفًا عن مباهج الحياة**، وهى ابنة أحد شيوخ البدو .

وأما **أم سَلَمة**، فتزوجها النبى بعد شهر واحد من وفاة زينب بنت خزيمة. كانت جميلة جدًا، امرأة فى منتصف العمر وذات وقار خاص، وبذا تَشكَّل محور خاص إنه:

محور عائشة ـ حفصة للتصدى لأم سلمة

ولم تكن أم سلمة لتقف مكتوفة الأيدى فكونت هى الأخرى محورًا:

محور أم سلمة ـ فاطمة بنت محمد فى مواجهة محور عائشة ـ حفصة

وكان التقارب بين أم سلمة وفاطمة بنت محمد ﷺ تقاربًا طبيعيًا، فكلتاهما مسئولتان عن تربية أطفال (أبناء) . وتطورت العلاقة بين أم سلمة وفاطمة بنت محمد لتكوّن محورًا منافسًا لمواجهة محور عائشة وحفصة، وسيتطور هذا المحور ليُلقى بظلاله فيما بعد على الصَّدْع التاريخى المشهور بين الشيعة والسنّة . (P.192).

وبعد أقل من عام من زواج النبى من أم سلمة، تزوّج زوجة أخرى هى زينب بنت جحش (ابنة عمَّته). ثم جويرية بنت الحارث بنت شيخ بنى المصطلق، تزوجها النبى بعد إطلاق سراحها.. **فى هذه الأثناء خاض الناس فى حديث الإفك بالنسبة لعائشة**. (p.100).

لقد أدّت نصيحة على بن أبى طالب للنبى «يا رسول الله، إنّ النساء لكثير وإنك قادر على أن تستخلف (تتزوج غيرها)» عند حدوث شائعة الإفك، إلى أثر كبير اتضح بعد ذلك.

لقد كان معنى هذا الكلام هو أن عليًا ينصح النبى بأن يطلّق عائشة وأن يختار زوجة أخرى أقل إثارة للمشاكل. كان رد على قطعًا للحبال، وكان هذا الرأى المحايد أو النزيه أو غير المتحيز محسوبًا ـ من وجهة نظر عائشة ـ ضدّه، وقد ظلّت طوال حياتها غير مسامحة لعلى موقفه هذا. وتطورت عداوتهما لتصبح أحد عوامل انقسام مجتمع المسلمين إلى سنّة وشيعة. (pp.101-102).

ثم تزوج النبى ريحانة بنت زيد، يهودية من بنى النضير كانت قد تزوجت فى بنى قريظة. وكانت وديعة خَنُوعًا تعيش فى الظل.

ثم تزوج النبى صَفيَّة بنت حُيى، التى صادقت عائشة، رغم جمال صفية الشديد، ورغم أن عائشة كانت تغار منها وقت أن تزوجها النبى.

أما زواج النبى من أم حبيبة بنت أبى سفيان، فكان زواجًا سياسيًا «لقد كان النبى يمهد الطريق لأساس تفاوضى بعقد تحالف مصاهرة مع زعيم مكة الوثنى» (p.107).

كانت ذات عقلية جادة.

انضمت أم حبيبة بعد زواجها من النبى إلى حزب أم سلمة

اتضحت أحزاب النساء أمهات المؤمنين رضى الله عنهن داخل بيت النبوة كالتالى:

حزب عائشة ـ حفصة ـ صفية ـ سودة

الحزب المواجه :

أم سلمة ـ أم حبيبة ـ فاطمة بنت النبى

وتزوج النبى من مارية القبطية، ورغم أن مارية قد أنجبت للنبى ولدًا هو إبراهيم الذى فرح به النبى أيما فرح، فإن عائشة رضى الله عنها وأرضاها وكذلك أمهات المؤمنين المتحالفات معها رفضن إقامتها فى المجمع السكنى لنساء بيت النبوّة، فأسكنها النبى فى «العالية» وهى مكان بعيد نسبيًا، رغم أن مؤلفنا هذا يعتبرها ببساطة زوجة للنبى، إلاّ أن المؤرخين العرب والمسلمين الذين فُرضت عليهم الرؤية القرشية لا يعتبرونها زوجة رسمية وإنما من «مِلْك اليمين»، وبالتالى فإن الفقهاء الذين فُرضت عليهم النظرة القرشية لا يعتبرونها ـ رغم إنجابها إبراهيم ابن النبى ـ أُمًا للمؤمنين. ولا يستطيع مؤلف كتابنا هذا أن يفهم مثل هذه الأمور. المهم أن السيدة عائشة رضى الله

عنها وأرضاها كانت تغار منها غيرة شديدة، فهى تقول: «ما غرتُ من امرأة إلاّ دون ما غرتُ من مارية، ذلك أنها كانت جميلة جَعْدة.. وكان رسول الله عامة الليل والنهار عندها حتى فزعنا..» (ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٦، ص ١٥٩). واضطُر النبى تحت ضغط زوجاته أن يعد بالابتعاد عن مارية فأنزل الله: ﴿**يا أيها النبى لم تحرِّم ما أحلَّ الله لك**﴾.. (سورة التحريم، الآية (١)). ها هى بنت النيل قد وصلت، وراح النبى عليه الصلاة والسلام «يستكثر منها». وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها دائمة القول أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصفها ـ أى يصف السيدة عائشة ـ بأنها «مثل زُبْد بتمر»، وأن «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»..

ومن الطبيعى ألا يكون لمارية دور فى التحالفات النسائية داخل بيت النبوّة.

من كل ما سبق يتضح أنّ ما كان يجرى فى بيت النبوّة كان ـ بشكل غير مقصود ـ أحد أُسس ما سمّى بعد ذلك بالخلاف السنّى الشيعى، خاصة ذلك الخلاف الحاد بين السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها والإمام على كريم الوجه، وآيات القرآن الكريم تؤكِّد ما يُعرف بحادثة الإفك، حيث كان موقف الإمام على أحد أسس الخلاف بينه وبين عائشة، ذلك الخلاف الذى تطور بعد ذلك إلى حرب فعْلية كما فى واقعة الجمل المشهورة.

* * *

ومؤلف كتابنا هذا ينظر لكل الخلفاء الراشدين نظرة ملؤها التوقير والاحترام خاصة عمر بن الخطاب الخليفة الثانى رضى الله عنه، لكن هذا لا يمنع من إيراده تحليلات غير مألوفة، لكنَّا نراها صحيحة. وقد عوّل المؤلف تعويلاً شديدًا على دور السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها، ويكاد يكون ربع كتابه عنها. حتى لقد جعلها مسئولة عما ورد فى كتب المؤرخين المسلمين إلى حد كبير. وهذا ما سنبينه.

كان عُروة بن الزبير الذى تمتلئ كتب الحوليات التى كتبها المؤرخون المسلمون بالرواية عنه، ناقلاً فى الأساس عن عائشة (رضى الله عنها)، بل إن الذين امتدحوه أثناء حياته لكثرة علمه لم يكونوا يسمعون منه سوى قوله: ماذا يكون علمى إذا قيس بعلم عائشة رضى الله عنها؟! (p.366). وكان عُروة يُفاخر بأن أمه هى أسماء بنت أبى بكر، وأن عائشة هى خالته.. وكانت معظم روايات عروة عن عائشة.. ودوّن عنه كتبة البلاط الأموى روايات تفصيلية.. وأوصى عُروة ـ فى وقت لاحق ـ أبناءه ـ؛ خاصة

الزهرى، بأن ينقلوا للأجيال القادمة رواياته الموثوقة التى نقلها هو بدوره عن عائشة.. وهكذا تحكمت عائشة رضى الله عنها وأرضاها فى توجيه الكتابات التاريخية عن الفترة التى عاشتها لأجيال طويلة، وربما إلى الآن عن طريق عُروة وأبناء عُروة.

ورغم أن المؤلف يقدر الخلفاء الراشدين الأربعة، إلاّ أنه اتخذ المنهج الذى يتبعه مُفَسِّرو الكتاب المقدس المسيحى الذين يُظْهرون عظمة الشخصيات الدينية المقدسة، ويوجهون لها الانتقادات فى مواقف معينة أحيانًا.. وكل هذا لا يمنع بأية حال أنها شخصيات عظيمة مصطفاة وذات طابَع روحى، ولو أن المسلمين اتخذوا الموقف نفسه من صحابة النبى لكان هذا خطوة واسعة جدًا للتقريب بين السنة والشيعة، خاصّة وأن هذا المنهج نفسه قائم فى كتب السنّة، فقد أقام النبىّ صلى الله عليه وسلم حدّ القذف على حسّان بن ثابت رضى الله عنه لخوضه فى حق عائشة رضى الله عنها مع الخائضين أثناء حادثة الإفك المشهورة، ومع هذا فهناك إجماع على أنه صحابى جليل لأنه تاب بعد ذلك. (السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٤، ص ٢٦٧ طبعة دار الجيل). وشىء قريب من هذا حدث مع زينب بنت جحش أم المؤمنين، لكنها تابت وأنابت رضى الله عنها، ومعروف أن السيدة زينب بنت جحش قد أنزل الله فيها قرآنًا يُتلى، بل إنّ نبىّ الله نفسه محمدًا ﷺ قد عاتبه ربّه فى بعض المواقف ـ فى قرآن نتلوه ـ عندما «عَبَس وتولّى» بدون مبرر مشروع «أن جاءه الأعمى»، فلِمَ يتركه النبى ولَمَ يهتم بغيره دونه فما يدريه «لعلّه يزكّى».. كل هذا مع أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن كان الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى ينتقد نبيه فليس الأمر كذلك بالنسبة للآخرين الذين تخضع أعمالهم للتحليل والتعليل، بل والانتقاد أحيانًا. وهذا لا يمنع أبدًا أنهم صحابة عظماء أتقياء، لكن الكمال لله وحده، وهذا ما انتهى إليه مؤلّف كتابنا هذا الذى ننقل عنه السطور التالية عن تقويمه النهائى للخلفاء الراشدين الأربعة «.. كل واحد منهم (من الخلفاء الراشدين) اكتشف أيضًا كيف أنّ ممارسته للسلطة لابد أن تكون من خلال شخصه؛ بمعنى أن هذه الممارسة لا بد أن تصطبغ بصبغته (وفقًا لطبيعة المرحلة) **فأبو بكر** الحليم المعتدل meek التّقى شديد الولاء للإسلام، أعاد تشكيل نفسه ليكون استراتيجيًا لامعًا فاق فى حيَله ودهائه كل زعماء الحرب التقليديين كبار السِّن المتّسمين بالخداع والمكر، أما **عمر بن الخطاب** الخليفة الثانى فهو النموذج الأصلى للإيمان. إنه النموذج الأيقونى Iconic (الأمثل) تحوّل إلى بشر من لحم ودم. إنّه التّقى النقى

(البيوريتانى) الذى بلغ الذروة قوةً وإيمانًا راسخًا، والذى حذا حذو النبى فى عدم قابليته للفساد، وفى الكمال المطلق، ومع هذا فقد فشل فى محاكاة النبى فى عطفه على النساء والرفق بهن.. أما **عثمان** الخليفة الثالث، فكان رفيقًا مسالمًا وكريمًا نشيطًا وبرهن على أنّه إدارى مُلهم، رغم سقطته الكبيرة الممثّلة فى حبه الشديد لعشيرته وعدم القدرة على انتقاد أفرادها، ومع هذا فهو يستحق التوقير باعتباره شهيدًا، ويستحق التحية لأنه كان حارسًا راسخًا على القرآن. أما **على** الخليفة الرابع، فهو محور الحكاية كلها. إنه رجل صيغ من مبادئ هى الأنقى على الإطلاق: الشرف والصدق والحقيقة والشجاعة والكمال والإيمان. إنه الفارس الشاب الذى يقف خلف كل حكاياتنا عن الفروسية والشهامة فى الشرق والغرب على سواء.. وهو مثل كل الرجال الذين هم من هذا النوع **لم يكن مقدّرًا له أن يزدهر فى عالمنا الفاسد القابل للرشوة..»**.

النصوص القرآنية واضحة تمام الوضوح، فى أن ذرية الأنبياء ترث آباءها (الأنبياء) فيما تركوه من أموال وعقارات وما إلى ذلك، أما النبوّة نفسها فهى لا تُورّث لأنها «اختيار» أو «تعيين» من الله. لذا فنحن لا نستطيع تكذيب نص قرآنى، لنأخذ بحديث ربما يكون موضوعًا أو منسوبًا خطأ إلى أبى بكر التّقى، ويفسّر المؤلف هذا الأمر تفسيرًا سياسيًا قد يكون مقبولاً.

لم تكن المسألة إذًا مسألة خلاف على ميراث آل البيت ـ خاصة فاطمة رضى الله عنها ـ فقد كان أبو بكر حريصًا على أن يصلها وغيرها «ريع» فدك، لكنه رفض توريثها الأرض نفسها، ويُلاحظ أن عائشة زوج النبى كان لها حق فى هذا الميراث لكن أبا بكر لم يورثها هى أيضًا الأرض، وإنما أتاها بجانب من الريع.. (p.132).

«والزعماء الشيعة المعاصرون ـ بمن فيهم آية الله الخمينى ـ قطعوا أشواطًا طوالاً، لإزالة سوء الفهم بين الشيعة والسنّة، فراحوا يمتدحون إنجازات أبى بكر، ولم يكن هذا هو موقف الشيعة فى ماضٍ أبعد..» (p. 134).

فى السياقات القرآنية كما أوردها المؤلف فى الفصل الخامس نجد أن الخليفة له دور بشرى، وهو ليس ـ أبدًا ـ نصف إله وليس له أية قداسة خاصة، ولم تظهر هذه الفكرة إلاّ فى عصور متأخرة من تاريخ الإسلام. وكان أبو بكر راغبًا فى التركيز على

هذه المعانى. لكنه كان أيضًا راغبًا فى التغاضى عن الحوار الذى دار بين موسى وهارون عندما قال موسى لأخيه «.. اخلفنى فى قومى..»، ذلك أن النبى محمدًا صلى الله عليه وسلم - على وفق الروايات المختلفة - شبَّه عليًا بأنه مثل هارون.. وكان معنى هذا على وفق ما يقول البعض، رغبة النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يخلفه على.. إلاّ أن أبابكر فضل اللجوء للخبرة وسانده فى هذا عمر.. وفرضا هذا النهج على جماعة المسلمين التى اعتراها الذهول.. «لا بد أن يتذكّر المرء أنه لم تكن هناك أيّة خلفيّة عقائدية **للانقلاب** Coup الذى أحدثاه، فقد كانا قد فشلا فى التشاور مع الصحابة الآخرين ذوى المكانة والنفوذ، وكانا قد فشلا فى الاعتراف بوضع علىّ الخاص special ولم يلجآ للتشاور مع جماعة المسلمين على نطاق أوسع إلاّ عندما كانت هذه الجماعة تمثل الشريك الضعيف. فكما افترضت آنفًا، لو أن زيدًا بن حارثة (ابن محمد بالتبنى والأكثر خبرة عسكرية) لم يُستشهد فى معركة مؤتة، لاتخذت قضية وراثة النبى (خلافته) مسارًا مختلفًا. فلو وقف زيد مع على فى المسجد لانكسف الثنائى: أبو بكر وعمر رغم براعتهما (p.138).

ليست المسألة مسألة سلالة تنتمى للنبى، وإنما الأمر أعمق من هذا بكثير، والدليل على ذلك أن عمر بن الخطاب بعد معركة اليرموك أصبح حاكمًا لكلّ الشرق الأوسط، لذا كان من الصعب على علىّ بن طالب أن يرفض طلب عمر بتزويجه ابنته أم كلثوم حفيدة النبى، وقد أنجبت أم كلثوم من عمر بن الخطاب ابنًا هو زيد بن عمر بن الخطاب ورقية بنت عمر بن الخطاب، وأمهما أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ابن عم النبى.

بهذا الزواج امتزجت سلالة النبى بسلالة الخليفة الثانى عمر. لقد كان لعمر سلالة من ابنة بنت رسول الله. فلماذا إذًا لم يكن لهذه السلالة بحكم انتمائها لبنت رسول الله حق فى الحكم (الخلافة)؟ (pp. 330-331).

* * *

والمؤلف يرى أن ترتيب الخلفاء الراشدين هو الترتيب الصحيح سياسيًا (أبو بكر فعمر فعثمان فعلى رضى الله عنهم، لأن على بن طالب رغم صلاحه وتقواه كان قليل الخبرة السياسية عند وفاة النبى).

- عند مولد على كان محمد قد بلغ عمره ٢٩ سنة (p.34).

ـ كان على عندما تردد على منزل محمد ليقيم فيه، تاركًا على نحو ما بيت أبيه قد بلغ من العمر خمس سنوات أو ثمانية أو أحد عشر عامًا، على خلاف (p.34).

ـ كان محمد النبى قد تعلّم ما يتعلق بتجارة القوافل بامتهانه إيّاها عند عمه أبى طالب، وجاء دور محمد بعد ذلك ليعلّم ابن عمه (على بن أبى طالب). ربما كان هذا هو الوقت الذى تعلم فيه علىّ القراءة والكتابة، تلك المهارة التى لم تكن متاحة إلاّ للطبقة الثرية. (pp.34-35).

ـ كان علىٌّ شاهدًا على تقوى محمد وصلاحه، وكان يحضر له الطعام والشراب إلى الغار الذى كان يتعبّد فيه. (pp.35).

ـ وعلى أية حال، فقد كان إلمام على بتفاصيل تجارة القوافل يمثل الحد الأدنى، فعندما تلقى محمد الوحى فى سنة ٦٠٠ **كان على لا يزال صبيًا**، وبعد خمس سنوات من تلقى النبى الوحى، أى فى سنة ٦١٥ وتخليه من آخر ارتباطاته بتجارة القوافل، وتفرغه للدعوة، كان على قد بلغ ١٣ عامًا، وقد وضع هذا على كاهل على عبئًا كبيرًا جدا شكَّل مستقبله وحدّد شخصيته. (p.36).

ـ كان ينقص عليًا ثقافة تجارة القوافل على مستوى شبه الجزيرة العربية طولاً وعرضًا، فلم تُتح له هذه الفرصة، فقد قضى وقته صغيرًا فى بيت النبى، يتعلم القراءة والكتابة ويراقب تقوى محمد وصلاحه قبل أن يهبط عليه الوحى، ويحمل طعامه وشرابه إلى غار حراء، ويعمل ليزود بيت النبوة وبيته بما يلزمه بعد أن تفرغ محمد النبى للدعوة بعد نزول الوحى عليه. لم تتح لعلى بن أبى طالب إذًا الفرصة لاكتشاف الأساليب الضرورية للبقاء وسط هذا العالم التنافسى الذى تشيع فيه السمسرة، والاتفاقات التحتية (المرشنتلية Merchantile World) والمساومة فى الأسواق والتعامل مع مرشدى القوافل وتأجير الجمَال وشراء الأعلاف، ناهيك عن مسئولى تحصيل عوائد المرور وضرائب التجار فى منافذ اليمن والعراق اللذين أحكم الفرس قبضتهم عليهما، وفى الشام البيزنطى وفى الحبشة وموانئ البحر الأحمر. «**لم ينشأ علىّ بن أبى طالب أبدًا، رجلاً متمرسًا بفهم فطرى (أصيل) ملازم يجعله يدرك أن الدنيا تحكمها العُملة (المال) جنبًا إلى جنب مع الدين**». (pp.35).

ـ لقد نشأ على فى ظروف استثنائية جعلته يتحلّى بكثير من الصفات الروحية النفيسة الكريمة، لكن هذه القيم لم تجعل منه سياسيًا بالفطرة، قادرًا على فهم الفساد والقابلية للرشوة الكامنين وراء الدوافع المحركة للبشر (35).

ـ ماتت خديجة رضى الله عنها، كما مات أبو طالب والد على فى عام واحد، وكان عُمر على وقتها ١٩ سنة (p.36).

ـ هاجر على سيرًا على الأقدام خارجًا من مكة، بعد أن كان النبى وصاحبه أبو بكر قد وصلا للمدينة. وعندما وصل على، لم يعهد به النبى لواحد من أهل المدينة (الأنصار) لينفق عليه على وفق نظام المؤاخاة الذى أحدثه النبى عند وصول المهاجرين إلى المدينة، وإنما آخاه النبى نفسه، وبذا أصبح على علىّ أن يعمل ليعول نفسه ويعول نبيّه ويدبّر له سائر أمره. لقد اختار النبى ابن عمه عليًا ليؤاخيه، ولم يختر أحدًا آخر من أهل المدينة، ربما لعدم رغبة النبى فى إحداث صراع بين أهل المدينة؛ إذ كان اختياره لواحد دون آخر أو عشيرة دون أخرى لا يخلو من مغزى سياسى (p.38).

ـ فى ظل هذه الظروف راح على يعمل ليكسب خبز يومه عند فوّهات الآبار يسحب قِرَب الماء مقابل التمر، وهو عمل كان يقع على عاتق العبيد أو دواب التحميل، وكان على فخورًا بأن يعود إلى محمد ليُشركه فى أجره وليتناول معه وجبة المساء، وكان على يشترى من السوق أسلاً (سمَّارًا) لينسج منه حُصرًا (حصيرًا) يبيعها بربح يسير.. وعمل على بنّاء مساعدًا يحمل الطوب ويقدمه للبنّائين المهرة (p.39).

«إنه شاهد قوى يبيّن كيف أنَّ عليًا سرعان ما أصبح مناصرًا لحقوق العمّال، ومؤمنًا مخلصًا، فى مواجهة الذين تحوّلوا للإسلام بنصف قلب..» (p.39).

ـ أرسل النبى عليًا على رأس ٥٠٠ محارب ليمر خلال نجران، ومن هناك يتقدّم جنوبًا ليدعو قبيلة مذحج إلى الإسلام.. وكانت هذه الحملة سلمية دعا فيها على إلى الإسلام وبين مزاياه.. وكان يتحتم على علىّ أن يعود سريعًا للقاء النبى الذى كان سيقود الحجيج إلى مكة.. فترك جنوده وعيّن عليهم من يحل محلّه، على أن يلحقوا به بعد ذلك.. فلما اقترب جنوده من مكة، سارع على ليستقبلهم، لكنه اندهش عندما وجدهم قد لبسوا حُللاً جديدة بيضاء لامعة من تيل اليمن ليبدو منظرهم متميزًا عندما يختلطون بالناس، فغضب على غضبًا شديدًا لأنهم فتحوا لفائف الكَتّان التى هى من أموال الأعشار، وكان على يشعر بالتشريف والفخر لأنه سيسلّمها جميعًا للنبى. فأمر الجنود أن يخلعوا ملابسهم الجديدة هذه وأن يلبسوا ملابسهم القديمة التى كانوا يلبسونها. وغضب الجنود وأبدوا امتعاضهم، وشكوا بعد ذلك للنبى، فقال النبى: «إن عليًا أخشن فى دين الله». لقد كان هذا شاهدًا على استقامة على، لكنّنا من ناحية

أخرى نجد فى هذا دليلاً على أنه لا يتآلف مع حقائق الحياة السياسية والقيادة العسكرية. (p.55).

هذا هو مجمل تحليل المؤلف لأصول الخلاف لم نتدخل فيه إلاّ بتعليقات وشروح يسيرة، حتى التواريخ الميلادية التى أوردها المؤلف فى سياق كتابه لم نفكر فى تحويلها إلى تواريخ هجرية، لسببين، أولهما ربط التاريخ الإسلامى بالتاريخ العام، وثانيهما أننا أوردنا عقب هذه المقدمة (الدراسة) مباشرة قائمة بالأعوام الميلادية وما يقابلها من أعوام هجرية؛ لمساعدة القارئ الذى لا يستطيع استيعاب تاريخ فجر الإسلام وضحاه إلا بالسنوات الهجرية.

وقد أعقبنا بعض فصول هذا الكتاب بحواشٍ تضم تعليقات وشروحًا ونصوصًا من كتب التراث تقريبًا للمعانى، لمن يريد الرجوع إليها بمصطلحها المتفق عليه، أما فى النص نفسه فقد فضلنا استخدام المصطلح كما فهمه المؤلف. لم نجد حرجًا مثلاً فى أن نطلق (چنرال) على أحد القادة ولا (سكرتير) على أحد الكتبة، وإن كان فى الأقواس متّسع لذكر اللفظ البديل.

* * *

وأخيرًا، فللمؤلف تفسيرات لبعض الوقائع التاريخية غير المتصلة بالخلاف السنى الشيعى، نراها جديدة تمامًا على الفكر التاريخى كما عهدناه، كما أنه مولع بإحداث إسقاطات معاصرة على بعض الوقائع التاريخية غير ذات الصلة بالخلاف السنى الشيعى. ولنورد على سبيل المثال ما ذكره فى سياق حديثه عن فتح مصر:

«كيف استطاع عمرو بهذه القوّة الصغيرة التخطيط للسيطرة على بلاد واسعة مثل مصر، كثيفة السكان إذ كان عدد قاطنيها يصل إلى الملايين، وكان بها حامية دائمة يصل عدد مقاتليها إلى ٢٥ ألفًا، وكانت عاصمة مصر هى الإسكندرية المحصنة تحصينًا جيدًا، وهى مدينة مسيحية ذات قداسة كان لها دور مهم فى مسيرة الرهبنة». (p. 209).

«ولاية مصر البيزنطية كانت تحظى بحماية جيدة، فكيف إذًا استطاعت مجموعة مكوّنة من ألفين من البدو خارجين من شبه الجزيرة العربية، أن تَشُنّ غارة على مصر، فتصيبها بالرعب، وتُفْقدها وعيها؟! لابد إذًا من بحث عن إجابة لهذا السؤال المُلغز. ماذا حدث؟!» (pp. 211-212).

لا تفسير لفتح مصر عند المؤلف سوى الخيانة، والضغط اللاهوتى على فكر قيرس (المقوقس) اللاهوتى. «لقد فهم معاصروه فى القسطنطينية تكتيكاته فاستُدعى ليواجه تهمة الخيانة العظمى»، إلاّ أن موت هرقل فى فبراير ٦٤١ وما حدث بعد ذلك من فوضى فى البلاط ونزاع على العرش، أدّى إلى نسيان قضية المقوقس (قيرس أو كيرس)» (p.211).

ارتاع الجيش العربى من كثرة عدد المصريين ، فذبح عددًا كبيرًا من الأقباط الفقراء دون سبب واضح، وذلك تحسبًا لأفعال لم يفعلوها فالإرهاب هو ابن الخوف State Terrorism Breeds From such Feers (p.212).

ومن أقوال قيرس لضباطه: «إن العرب لا يُقاومون وأراد الله أن يُعطيهم أرض مصر» (p.214).

وفى سياق الحديث عن عمر بن الخطاب:

«وكان عمر يرى أنه ليس هناك داعٍ لإرسال بعثات للدعوة وقد خلت قلوب دعاتها من الإيمان، فأفضل طريقة لجذب الناس للإسلام هى أن يظهر الإسلام من خلال طريقة حياة المسلمين المؤمنين وصوت القرآن.. هذا وإلاّ لا داعى للدعوة على الإطلاق، فالكل معترف بالله، وكلنا مؤمنون به وإن اختلفت الألفاظ التى نعبِّر بها عن ذلك» (p.226).

«عمر بن الخطاب هو الحاكم المسلم الوحيد عبر التاريخ كله الذى أُوتى قوّة داخلية جعلته ينجو من إلحاح أبنائه وزوجاته وأبناء عمومته وأقربائه عامة وعشيرته وقبيلته. فهذا النوع من الضعف هو الذى أسقط أجيالاً متتابعة من الزعماء العرب عجزت عن إصلاح أخطاء أسرهم؛ مما جعل كثيرين من الحكام العرب مجرد أصداف فارغة (بلا محتوى) وما عليك إلاَّ أن تنظر فى أحوال عالم الإسلام المعاصر» (pp.236-237).

وأخيرًا، فإن هذا الكتاب بتحليلاته وتفسيراته يُعد إضافة حقيقية للمكتبة العربية. وعلى الله قَصْد السبيل.

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

تنويه :

ذكرنا فى هذه المقدمة (الدراسة) كل عبارات التوقير الدينى عقب ذكر النبى عليه الصلاة والسلام، وعقب ذكر أمهات المؤمنين والصحابة رضوان الله عليهم، أما فى نص الكتاب فالتزمنا بما أورده المؤلف فقط، أما من ناحيتنا فإننا نترضّى على الصحابة والصحابيات وكل الصالحين والصالحات ونصلى ونسلِّم على محمد عليه الصلاة والسلام.

المترجم

الأعوام الهجرية وما يقابلها من أعوام ميلادية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١	٦٢٢ / ٦٢٣	٢٨	٦٤٨ / ٦٤٩
٢	٦٢٣ / ٦٢٤	٢٩	٦٤٩ / ٦٥٠
٣	٦٢٤ / ٦٢٥	٣٠	٦٥٠ / ٦٥١
٤	٦٢٥ / ٦٢٦	٣١	٦٥١ / ٦٥٢
٥	٦٢٦ / ٦٢٧	٣٢	٦٥٢ / ٦٥٣
٦	٦٢٧ / ٦٢٨	٣٣	٦٥٣ / ٦٥٤
٧	٦٢٨ / ٦٢٩	٣٤	٦٥٤ / ٦٥٥
٨	٦٢٩ / ٦٣٠	٣٥	٦٥٥ / ٦٥٦
٩	٦٣٠ / ٦٣١	٣٦	٦٥٦ / ٦٥٧
١٠	٦٣١ / ٦٣٢	٣٧	٦٥٧ / ٦٥٨
١١	٦٣٢ / ٦٣٣	٣٨	٦٥٨ / ٦٥٩
١٢	٦٣٣ / ٦٣٤	٣٩	٦٥٩ / ٦٦٠
١٣	٦٣٤ / ٦٣٥	٤٠	٦٦٠ / ٦٦١
١٤	٦٣٥ / ٦٣٦	٤١	٦٦١ / ٦٦٢
١٥	٦٣٦ / ٦٣٧	٤٢	٦٦٢ / ٦٦٣
١٦	٦٣٧ / ٦٣٨	٤٣	٦٦٣ / ٦٦٤
١٧	٦٣٨ / ٦٣٩	٤٤	٦٦٤ / ٦٦٥
١٨	٦٣٩ / ٦٤٠	٤٥	٦٦٥ / ٦٦٦
١٩	٦٣٩ / ٦٤٠	٤٦	٦٦٦ / ٦٦٧
٢٠	٦٤٠ / ٦٤١	٤٧	٦٦٧ / ٦٦٨
٢١	٦٤١ / ٦٤٢	٤٨	٦٦٨/ ٦٦٩
٢٢	٦٤٢ / ٦٤٣	٤٩	٦٦٩/ ٦٧٠
٢٣	٦٤٣ / ٦٤٤	٥٠	٦٧٠/ ٦٧١
٢٤	٦٤٤ / ٦٤٥	٥١	٦٧١/ ٦٧٢
٢٥	٦٤٥ / ٦٤٦	٥٢	٦٧٢
٢٦	٦٤٦ / ٦٤٧	٥٣	٦٧٢ / ٦٧٣
٢٧	٦٤٧ / ٦٤٨	٥٤	٦٧٣ / ٦٧٤

مقدمة المؤلف

«التراجيديات الحقيقية فى العالم ليست صراعًا بين الحق والباطل، أو بين ما هو صحيح وما هو خطأ، إنما هى صراع بين فضيلتين».

كريستيان فريدريش هبل

Christian F. Hebbel

«الله أعلم بما هو صالح».

قول تقليدى يردده المسلمون

«ورثة النبى محمد» حكاية مليئة بشخوص مرموقين راح كل منهم يأخذ دوره فى تحريك فيضان التاريخ قبل ارتفاع موجات الأحداث العاتية. إنها ملحمة استثنائية تمامًا. ملحمة غير عادية وانصهار رائع بين المأساة (التراجيديا) والحب والتضحية النبيلة بالنفس والحرب المدمّرة والفتوح التى يمكن تبريرها بصعوبة والثروات الطائلة والمعاناة والطموح والشجاعة والفروسية والخداع (★) ـ بطريقة لا يمكن أن يكون لها نظير.

إنها قصة جماعة مترابطة من المؤمنين اتبعوا النبى محمدًا عندما هاجر من مكة إلى المدينة، وحاربوا من أجله طوال عشر سنوات ثم ناضلوا بعد موته لتنظيم جماعة

(★) واضح من تاريخ هؤلاء أن ميراثهم من النبى محمد ﷺ لم يكن على درجة واحدة. وهذا طبيعى لأن لكل إنسان سماته الشخصية وسلوكه لكن المهم أن تركة الرسول ﷺ كانت كفيلة بأن تعبِّد طريق الإيمان النقىّ لكل أحد. (المعلق).

المسلمين وتوجيههم. لقد بدءوا زمرةً أو جماعة من حوالى ثمانين لاجئًا (مهاجرًا) مفلسًا ينتهى بهم الأمر وقد أصبحوا قوادًا على رأس مائة ألف مقاتل. إنها حكاية إنجاز مذهل، فكيف استطاعت قبائل عربيَّة متفرقة وبائسة انعدمت فيها الحكومات (فوضوية أو أنارشية) أن تفتح العالم المعروف وقتها تحت رايات الإسلام، وبتوجيه مجموعة من القادة الذين يشبه الواحد منهم ماردًا لا يُقهر، قادوهم للنصر على فيالق الإمبراطورية البيزنطية ثم على فيالق فارس السَّاسانية، بينما كان فى الواحة (المدينة المنوَّرة) سلسلة من الخلفاء الحكماء كبار السن، أسَّسوا مدنًا جديدة ونظّموا إمبراطورية استمرت ستمائة سنة. ورغم أنّ الفتوح العربية قد تبدو الآن أنها كانت قوّة لا يمكن صدّها لحتمية تاريخية لا سبيل للإفلات منها، وأنها كانت أمثلة مُلغزة للصدفة (★) حيث ارتبط النصر بتوازن رياح الصيف أو طبيعة الأرض، أو بمدى تحمُّل المقاتلين البدو بعد معركة استمرت أربعة أيام متواصلة. على مثل هذه الأسس تُبنى الإمبراطوريات وتضيع الممالك.

لقد هيمن كل من خلفاء الإسلام العظماء الأربعة ـ أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ـ على مرحلة تاريخية، كلّ فى دوره. وكان كل واحد من هؤلاء الخلفاء الأربعة **وارثًا** حقيقيًا لبعض جوانب شخصية نبيّه الموقّر رغم أنّ أحدًا منهم لم يكن ليأمل أن يصل إلى المدى الكامل لطبيعة محمد الفريدة، وكل واحد اكتشف أيضًا كيف أن ممارسته للسلطة **لابد أن تكون من خلال شخصه؛ بمعنى أن هذه الممارسة لا بد أن تصطبغ بصبغته. فأبو بكر** الحليم المعتدل the meek التقىّ شديد الولاء للإسلام، **أعاد تشكيل نفسه ليكون استراتيجيًا لامعًا فاق فى حيَله ودهائه كل زعماء الحرب القبليين كبار السن المتّسمين بالخداع والمكر. أما عمر بن الخطاب،** الخليفة الثانى، فلا نظير له فهو النموذج الأصلى للإيمان. إنه النموذج الأيقونى Iconic (الأمْثَل) تحوّل إلى بشر من لحم ودم. إنه التقى النقى (البيوريتانى) الذى بلغ الذروة قوّة وإيمانًا راسخًا والذى حذا حذو النبى فى فقره وعدم قابليته للفساد، وفى الكمال المطلق، **ومع هذا فقد فشل فى**

(★) لا يمكن رد الفتوح الإسلامية إلى الصدف أو إلى أسباب مادية، ولا يمكن عند التحقيق المنصف إلا ردها إلى وضوح وإنسانية المبادئ الإسلامية نفسها.

وعلى فكرة، فإن الإمبراطورية الإسلامية استمرت أكثر من ستمائة سنة ابتداء من بداية هذه الفتوح إلى سقوط الخلافة الإسلامية ١٩٢٤م. (المعلق).

محاكاة النبى فى عطفه على النساء والرفق بهن، فقد كان النبى يبتهج بصحبة زوجاته النشيطات البليغات اللائى كن يتحدثن بحرية، وكان هذا يبهجه أكثر من أىّ شىء آخر. أما **عثمان** الخليفة الثالث، فكان رفيقًا مسالمًا كريمًا نشيطًا، وبرهن على أنه إدارى مُلْهَم، **رغم سقطته الكبيرة الممثلة فى حبه الشديد لعشيرته وعدم القدرة على انتقاء أفرادها**، ومع هذا فهو يستحق التوقير باعتباره شهيدًا ويستحق التحيّة لأنه كان حارسًا راسخًا على القرآن. أمّا **علىٌّ**، الخليفة الرابع فهو محور الحكاية كلها. **إنّه رجل صيغَ من مبادئ، هى الأنقى على الإطلاق: الشرف والصدق والحقيقة والشجاعة والكمال والإيمان**. إنه الفارس الشاب الذى يقف خلف كل حكاياتنا عن الفروسية والشهامة، فى الشرق والغرب على سواء. وهو مثل كل الرجال الذين هم من هذا النوع ـ لم يكن مُقدَّرًا له أن يزدهر فى **عالمنا الفاسد القابل للرشوة** Venal، **ومن هنا تكون طموحات هؤلاء الرجال سريّة ومخاوفهم خاصّة مطوية، وغيرتهم تقيّة. وعندما قُتل على بسيف مغتال، انتهى عصر الخلفاء الراشدين فى الإسلام، إلى الأبد** (★).

لكن بصرف النظر عن هذه الشخصيات التاريخية العظيمة الأربع ظهرت أيضًا شخصيات يستحيل نسيانها، فخالد الجنرال (القائد) المتألق رغم قسوته فهو الذى فتح شبه الجزيرة العربية ومن ثمّ الشرق الأوسط البيزنطى لصالح سادته، **أضاع نفسه بسبب كبريائه**. لقد ساءت سمعته عندما ضاجع أسيرة عذراء (★★) فى ميدان المعركة؛ فاختلطت دماء عذريتها بدماء قبيلتها المهزومة. أما **عمرو** الذى قُدِّر له أن يغزو (يفتح) مصر ثلاث مرّات، فهو رغم الشك فى نسبه أو بتعبير آخر رغم **السرّ المخادع المتعلق بمولده، فهو مثال كامل لمواهب زعماء قريش مكّة التجار التقليديين**. وعلى الجبهة الشرقية مع فارس، لا أحد يستطيع مجاراة **ابن حارثة** Ibn Harith، الزعيم البدوى العربى نقى الدم الذى بدا وكأنه قد خرج من صفحات تاريخ ما قبل الإسلام. وهناك أيضًا مثال للخسّة والنذالة وهو ذلك السياسى الفاسق، ونعنى به المغيرة ذلك اللص الطريد ex-bandit. واستطاع المغيرة أخيرًا أن يضع مواهبه فى خدمة معاوية، ذلك الحَذِر الكُفء الحصيف، ورغم أن معاوية هو ابن أبى سفيان الذى كان أكثر أعداء النبى الوثنيين عداوة، إلاّ أنّ معاوية أسَّس الدولة الأموية. ولا يوجد نظير لمعاوية فى تراثنا

(★) كان لكل من هؤلاء الخلفاء الأربعة سمات شخصية حقًا، إلا أنهم جميعًا كانوا يشتركون فى تطبيق مبدأ الشورى ولذلك لم يقع الذنب فيما حدث فى عهد عثمان أو عهد علىّ على كل منهما وحده بل على مستشاريهما أيضًا. (المعلق).

(★★) أثات هذه المسألة لغطًا عند كثير من المستشرقين لكن الرجوع إلى قوانين الحرب المعمول بها فى ذلك الزمن يكشف الحقيقة، فقد كان الأعداء فى الحروب يسترقون الأسرى فى المجتمع الدولى كله. (المعلق).

الغربى سوى أوجسطس قيصر Caesar، فهو وحده الذى يمكن أن يقف بجانب معاوية مناظرًا إياه فى عبقريته السياسية منذ بداية حياته.

و «ورثة النبى» **تُعد أيضًا قصّة تتحلّق حول الحب. خاصة الصراع بين أكثر أتباع النبى محمد قربًا إلى نفسه والتصاقًا به**؛ إنه الصراع بين أول من اتبع النبى، وعائشة زوج النبى الأثيرة. **هذه العداوة القدرية المميتة** Fatal **مهّدت الطريق لأوّل انقسام فى الإسلام نتج عنه ظهور طريقين أو منهجين** paths، **وساعد - أخيرًا - على انتصار معاوية على صحابة النبى القدِّيسين** Saintly **(المقصود: الطيبين الصالحين)**.

ولنقوّم الصدى الحقيقى لهذه الحكاية لا بد - أولاً - أن نعايش أرض المدينة (المنوّرة) وأجواءها، تلك الواحة التى كانت عاصمة الخلافة، وأن نعرف قصة العلاقة الوثيقة غير العادية بين علىّ والنبى محمد. ولا بد أن نقوّم طبيعة المقاتلين العرب البدو الذين قاموا بالفتوح العربية، لكن لا بد أيضًا من فهم حياة النبى وكيف آزره حب عائشة وزوجاته الأُخريات. كل عنصر من العناصر المذكورة آنفًا يُشكل أربعة فصول تمهيدية فى هذا الكتاب، وهى فصول تناولنا فيها الأمور من خلال أكثر من منظور، لكنها جميعًا تخلص إلى أكثر اللحظات حسمًا فى هذه القصة كلها. وقد تُوفّى النبى فى المدينة (المنوّرة) يوم الأحد ٨ يونيو سنة ٦٣٢.

بعد ذلك يمكننا أن نبدأ فى رواية الأحداث التى تتابعت سراعًا بعد وفاة النبى، فما إن تولّى الخلافة أبو بكر حتى دخلت جماعة المسلمين فى طريق الصراع والتوسّع اللذين ما إن بدءا حتى كان لهما زخم غير عادى على صعيد الجبهة الداخلية. فظهر المجتمع المسلم الشاب على صفحات التاريخ وكأنه قذيفة منجنيق وسط وهج الدماء والعظمة والقوّة.

فعلى مستوًى، كان التقدم الانتصارى مضارعًا لغزوات الإسكندر الأكبر (★)، رغم أنه على المستوى الثانى وجدنا أيضًا أن الاختبار النهائى لأية دعوة دينية (عقيدة روحية Spiritual Faith) يتمثّل فى محاولة صرف أصحابها عنها بإغرائهم بالكِبر (الفخر) والثروة والشهرة والطموح والسيطرة (المُلك). وقد كان هذا كما لو أنه الإغراء (الإغواء) الذى قدّمه الشيطان للمسيح خلال الأربعين يومًا التى قضاها فى البريّة.

(★) لم تكن الفتوحات الإسلامية حروبًا توسعية كحروب الإسكندر، ويكفى دراسة كل معركة على حدة لنعرف أن هذه المعارك أو الفتوحات كانت كلها تتم دفاعًا عن النفس أو حفاظًا على عهد نقضته قبيلة من القبائل المعاهدة. (المعلق).

فبعد وفاة النبى بخمسين سنة كان المسلمون ـ حقيقة ـ قد أقاموا إمبراطورية، لكن حدث أيضًا أنّ ضرب مسلمون الكعبة (بيت الله) وأحرقوها وسوّوها بالأرض، وحدث أيضًا أن حفيد النبى الذى كان محبوبًا لديه قريبًا إلى نفسه ـ الحسين، قد استُهزئ به وديس بالأقدام، وغُرّر به، وقُطع رأسه.

تلك هى الفكرة، كيف استطاع الناس وبسرعة سريعة أن ينحرفوا عن نهج النبى محمد الذى يقع (أى هذا النَّهج) فى قلب هذه الملحمة، وهذا يفسّر أسباب انقسام المسلمين ـ إلى يومنا هذا ـ إلى سُنّة وشيعة، فهذا الانقسام، ما هو إلاّ نتيجة للأحداث التى جرت فى القرن السّابع. ويتفق كل المسلمين على أنّه باغتيال على بن أبى طالب فى سنة ٦٦١ انتهى عصر القداسة (الصلاح والتقوى) إلى الأبد the era of holiness is over . فخلال جيل واحد بعد وفاة النبى انتهى حكم المتنوّرين enlightened (الراشدين)، وعاد إلى مقاعد السلطة الجنرالات منغلقو الفكر والسياسيون الماكرون ورؤساء الشرطة Police Chiefs والزعماء القدامى the old dynasts. **لا أحد يشك فى هذا، فالمسلمون من سنّة وشيعة يقرّون هذا ويتفقون عليه.**

لكن الاختلاف هو فى الكيفية التى ينظر بها الطرفان لفترة «ورثة محمد»، فالسنَّة ـ نظرًا لتسرب الفساد إلى القيم الروحية ـ يوقّرون هذا الجيل الأول من المسلمين، ويعتبرون أن نهج أبى بكر وعمر وعثمان وعلى (وصحابة النبى الآخرين) نهج صالح لتدبير أمور الناس أو تدبير الناس لأمورهم فى هذه الدنيا، بل إنهم يعتبرون نهجهم هو أفضل نهج... والأبطال فى نظر السنّة هم الراشدون وعلماء الدين الذين استطاعوا بعد ذلك حماية التراث الإسلامى من أن يلحقه فساد الدنيا.

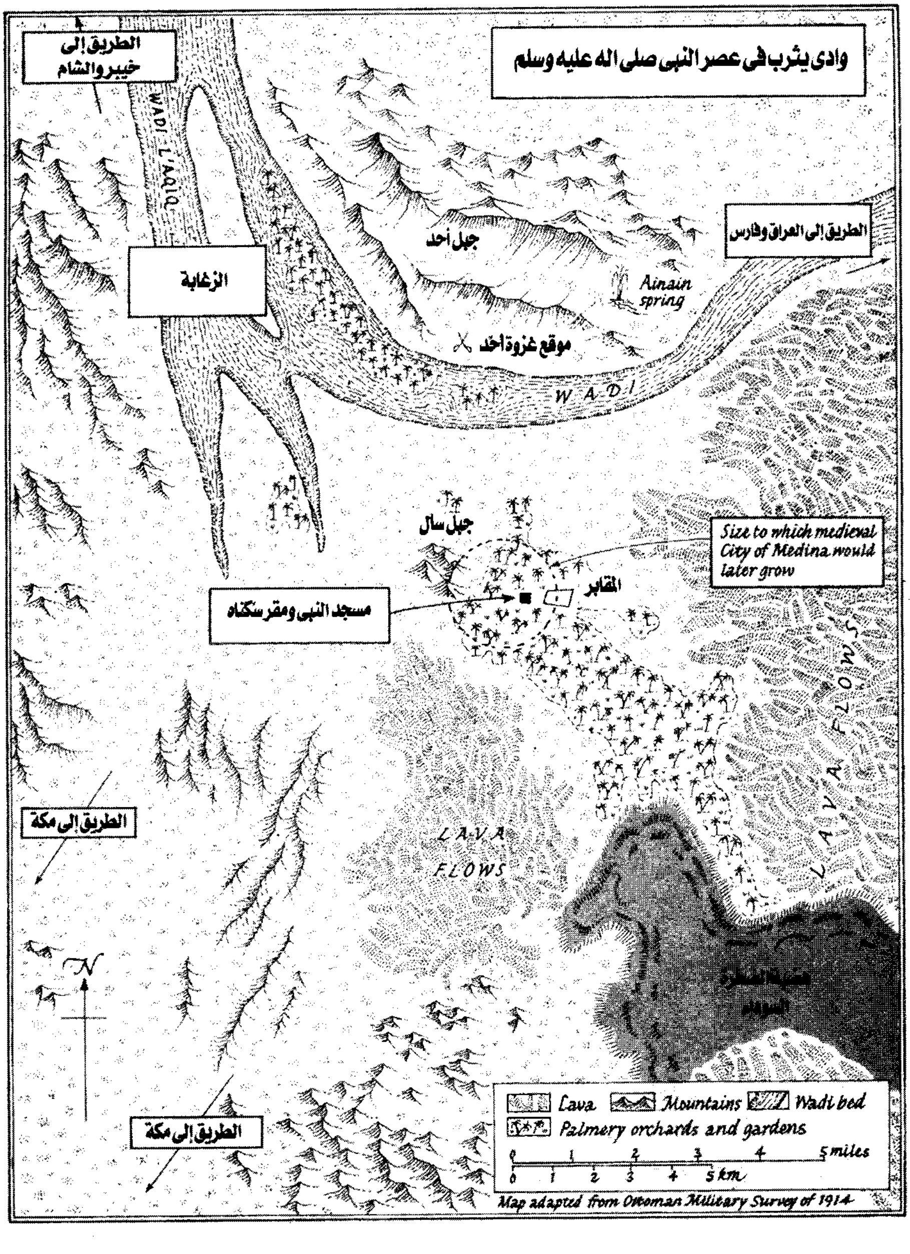
ويركّز الشيعة على معنى الخسارة العاجلة التى أضلّت المسلمين يوم وفاة النبى، فهم يسوقون الأدلّة على أن عليًا وحده هو الذى كان مؤهّلاً لحمل القيم الروحيّة التى تعزّز تمامًا اتجاه الإسلام المستقبلى. وعلى أحد المستويات نجد أنها رؤية مظلمة لا يمكن إنكارها، تلك الممثّلة فى خداع على ثلاث مرات (لادّعائه أن حقّه فى الحكم قد تمّ تجاوزه ثلاث مرّات بتولية الخلافة لأبى بكر فعمر فعثمان) ليتم تجاوز هذا الحق تمامًا، فيما بعد، بقتل ابنه الحسين. وعلى أية حال، فعلى المستوى الآخر فقد سمح هذا للشيعة أن يحاولوا الوصول للنجوم نفسها، وراحوا يفكرون فيما كان يمكن أن يحدث لو

أن عليًا وصل للحكم، وراحوا يطمحون فى إنشاء دولة قدسيّة holy state كالتى كان على يحاول تأسيسها على الأرض (فى هذه الدنيا). ولفهم بعض جوانب جاذبيتها، حاولوا وضعها (أى وضع هذه الدولة المُتَصوّرة) فى منظور بريطانى British Perspective باستدعاء حكاية القضية الضائعة أو القضية المفقودة Lost Case ـ فنتذكر متفكّرين فى الملك آرثر Arthur وارتباطه بآل ستيوارت Stuarts، ولنتفكر فى اليعاقبة ومناصرة الشيوعية المسيحية الإيڤانجيلية Evangelical Christian Communism.

وبعد أن أنهينا قصة ورثة محمد، أوردنا ملحقين، الأول تتبعنا فيه كيف أن أحداث القرن السابع مرتبطة بالحركة الإسلامية المعروفة جيداً والزعماء الإسلاميين فى هذه الأيام. وأعقبنا هذا بفقرات تحت عنوان : كيف نعرف؟ حيث تتبعنا معلوماتنا عن هذه الفترة راجعين إلى سلسلة الرواة فى الواحة القديمة (المدينة المنوَّرة)، وهذا يربطنا ربطًا مباشرًا بعائشة الأثيرة لدى النبى the beloved of the prophet.

وحتَّى نحتفظ ببنية الكتاب الأساسيَّة خالية من فيض من الأسماء العربية غير المألوفة، ركّزت الرواية حول اثنتى عشرة شخصية أساسيّة. وأخيرًا، فعندما يستطيع العالم الغربى أن يتجاوز عتبات الضَّجر والخوف لينظر بشىء من الاحترام لمحمد وعلى، كما يحترم العالم الإسلامى موسى وعيسى، ساعتها يصبح هذا العالم أكثر عدلاً وأمنًا.

الجزء الأول



وادى يثرب فى عصر النبى صلى اله عليه وسلم
الطريق إلى
خيبر والشام
WADI L'AAQIQ
الزغابة
جبل أحد
الطريق إلى العراق وفارس
Ainain
spring
موقع غزوة أحد
WADI
جبل سال
Size to which medieval
City of Medina would
later grow
المقابر
مسجد النبى ومقر سكناه
LAVA FLOWS
LAVA
FLOWS
الطريق إلى مكة
N
الطريق إلى مكة
Lava
Mountains
Wadi bed
Palmery orchards and gardens
0 1 2 3 4 5 miles
0 1 2 3 4 5 km
Map adapted from Ottoman Military Survey of 1914

الفصل الأول

المدينة

الواحة التى كانت عاصمة دولة المسلمين

فى صحراء غمرها نور القمر تلقَّى النبى محمد أوّل إعلان ولاء (مبايعة) من رجال المدينة. حدث هذا فى سنة ٦٢٢م. لقد قابلوه سرًا فى المُنبسطات العليا من وادى مِنًى عند العقبة التى تقع غير بعيد عن مكة إذ تكاد تكون خارجها بالكاد. فى ذلك الموضع أقسم النبى مؤكدًا للجمع الذى أتاه أنّه منهم وأنهم منه، وأنه عدو لعدوهم يحارب من حاربوه وأنه سِلْم على من سالموه (بل الدم الدم .. أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم...[1]) بهذه الكلمات وُلدت جماعة المسلمين، واتجه ولاؤه الجديد للمدينة بعد أن تخلخلت عُرى ارتباطاته الشخصية بمكّة.

وبعد عِقْد من الزمان نجده يعقد اجتماعًا آخر فى ضوء القمر مع أتباعه، إلاّ أنّه هذه المرّة كان خارج المدينة (المنوّرة) وأنه كان يتحدّث بوصفه نبيًا (مؤكَّدًا) وليس من صفة أخرى له سوى ذلك. لقد استيقظ ذات ليلة فى منتصف الصيف، مُذعنًا لوازع داخلى للتوجه إلى المقابر للدعاء للموتى. لقد ترك بقية أهل بيته نائمين فيما عدا صاحبه موضع ثقته: إذ أيقظه وخرجا معًا وراحا يسيران فى الممرَّات المتربة التى تغطيها ظلال النخيل. لقد تابعا المسير مسافة ميل متجهيْن نحو المقابر المعروفة باسم بقيع الغَرْقَد حيث يرقد بين الموتى الآخرين، بنتان له وابن كان قد مات فى مرحلة الطفولة وزوجات وأصدقاء مخلصون وأتباع أوفياء، فحياهم محمد ودعا لهم: «السلام

عليكم يا أهل المقابر، هنيئًا لكم ما أصبحتم فيه (فهو أفضل) مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى».

ثم دعا ربه بهدوء أن يُنَزِّل رحمته عليهم لأنه من بين أسماء الله الكُلّى القدرة أنه رحمن وأنه غفّار. وبعد برهة غادر الرجلان الكبيران عائدينْ إلى المنزل المسجد House-Mosque، وعندما استيقظ محمد قبل الفجر بقليل هاجمه صداع عنيف مصحوب بارتجاف. وسيموت محمد بعد ذلك بعشر سنوات، وفى هذه السنوات العشر بين بيعة العقبة الأولى التى جرت فى ضوء القمر، وتلك الصلاة التى صلاّها محمد على أهل القبور كانت الواحة (المدينة المنوّرة) قد ارتفع شأنها فى ظل حكم النبى لتصبح هى مقر الحكم لكل أنحاء شبه الجزيرة العربية.

كان محمد وكل صحابته الأساسيين من مكّة ـ تلك المدينة التجارية. لقد وُلدوا فى مكَّة ونشؤوا فى مكّة، وتحوّلت حياتهم جميعًا وأُعيد تشكيلها عندما تحولوا للإسلام فى مكة وكل الخلفاء الذين خلفوا محمداً النبى كانوا من مكة، وكذلك جنرالات (قادة) الفتوح وزوجاتهم الأثيرات المؤثِّرات Influenced كانوا ـ وكنّ ـ من مكة، حتى الأسرات الحاكمة الكبرى التى ستحكم طوال قرون إمبراطوريات الإسلام الباكرة والتى كانت على عداء شديد، كلها منحدرة من أسرات مكّية: الأمويون أو العباسيون أو الفاطميون. والحج إلى مكة أحد أركان الإسلام الخمسة، استمر حتى هذه الأيام، يركّز على الطبيعة المكية للإسلام الباكر. وبالمقارنة، فواحة المدينة (المنوّرة) لم تحظ إلاّ بنصيب أقل، رغم الاعتراف بها ـ فى كل مكان ـ بأنها مدينة الإسلام الثانية إلاّ أنها ظلَّت ـ أيضًا ـ لا تحظى بالتركيز عليها، وهذا أمر غريب، فهى تنسل فى السجلاّت التاريخية وخارجها، وكأنها ـ نوعًا ما ـ ستارة مسرح خلفية مرسومة رسمًا تمهيديًا (سكتش) بالنسبة للأحداث الرئيسة. (رغم أن كلتا المدينتين؛ مكة والمدينة، متضافرتان فى مسيرة تاريخ المسلمين، إلاّ أن المسافة بينهما تستغرق عشرة أيام للمسافر الرّاكب).

هذه الطبيعة المخفية Hidden للمدينة زادت فتنتها لأنها ـ أى المدينة المنورة ـ كانت ضد حقيقة مجتمع هذه الواحة، تلك الحقيقة التى تبدو واضحة كل يوم ـ ذلك أن نصف القرآن على الأقل قد أُوحى به فى المدينة (المنوّرة)؛ لأن آيات القرآن (أو سُوَره) تنقسم إلى قسمين تختلف فيهما طريقة الخطاب Different Tones، فالآيات المكّية نزلت طوال اثنى عشر عامًا من ٦١٠ إلى ٦٢٢، والآيات المدنية نزلت طوال عشرة أعوام

من ٦٢٢ إلى ٦٣٢. وتبدو الآيات المكية موجَّهة لأيَّة فئة عمرية ولأى نوع من البشر. إنها ـ أى الآيات المكية ـ دعوة عالمية قويّة وهى حجر المغناطيس Lodestone المركزى الذى انجذب إليه كل صوفيٍّ Mystics الإسلام العظماء مثل الرومى أو ابن عربى، وشادوا على أساسها تأملاتهم الروحية، وتعليقاتهم الشعرية. وعلى العكس من ذلك نجد أن الآيات المدنيَّة تميل كثيرًا لأن تكون أكثر تحديدًا وخصوصية وأكثر تفصيلاً، وتتعامل مع الحقائق المادية Physical والسياسية لواقع شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع. فكثير من الآيات المدنية يمكن اعتبارها إجابات إلهية عن مشكلة معينة أو قضية معينة فى مجتمع المسلمين فى المدينة، كما صاغها النبى عند مناجاته لربه ومناشدته إيّاه. هذه الإجابات الإلهية هى أساس القرآن المتين الذى لا يزال يَدْعم السلوك اليومى لكل مجتمع المسلمين على مستوى العالم كله. وعلى هذا فمن الأهمية بمكان، ليكون لدينا فهم صحيح للإسلام الحقيقى أن نعرف كيف كان يتصرف (يسلك) مجتمع المسلمين الأول فى المدينة، فقد كان مسلكهم الأخلاقى ـ غالبًا ـ تطبيقًا لإجابة أوْحى بها الله. بهذا النوع من الفهم الحاسم للقرآن، ليس هناك كثير حاجة للتركيز على أهمية النظر بعين اليقظة والاهتمام لكل ما يتعلق بالمدينة. فهى المكان الذى لجأ إليه النبى بصحبة جماعة من اللاجئين (المهاجرين) المفلسين الذين كان عليهم قبل وصولهم للمدينة أن يتعبّدوا سرًا وكانوا يعيشون فى ظل الاضطهاد والعداء الدائمين فى مكة. أما بعد وصولهم للمدينة، فقد أصبحوا ـ أخيرًا ـ أحرارًا فى أن يتعبدوا براحتهم. فكل العادات المحدَّدة فى الحضارة الإسلامية قد وُجدت فى جو الحرية الذى أتاحته المدينة. إنها المكان الذى بنى فيه النبى أوّل مسجد حيث عاش النبى بحرية وحيث طوّر طقوس (أركان) الصلاة، وشعائر الدفن، والسلوك والزواج والحج(★). وهنا (فى المدينة) أيضًا أسَّس النبىُّ التفاصيل الأساسية للممارسات الدينية اليومية. ليس هذا فحسب، بل هنا (فى المدينة) أيضًا تحدَّدت دورة الأعياد السنوية. وكانت المدينة أيضًا هى قاعدة (عاصمة) دولة الإسلام: هى المركز الذى انطلقت منه كل جيوش الفتوح الإسلامية. وإلى المدينة (المنوّرة) كان يأتى زعماء ـ ومشايخ ودبلوماسيو ـ القبائل العربية، ليساوموا على خضوعهم وليطلبوا الأمان Peace. وكانت المدينة هى المكان الذى أسّس فيه النبى

(★) الرسول ﷺ لم يكن يطور طقوس العبادة والشعائر من تلقاء نفسه بل بوحى من الله كما هو المفهوم الإسلامى، أما فى المسائل الدنيوية فربما كان يجتهد ويدعو إلى الاجتهاد العقلى ويعتمد على الخبرة البشرية فى دائرة القواعد الكلية والمبادئ العامة للإسلام وحيث يوجد نص قطعى الدلالة.. (المعلق).

تفاصيل كيفية الحكم والقضاء، وحدد فيه مقدار الزكوات والصدقات Tax، وبشكل عام كانت هى المكان الذى بيَّن فيه النبى : كيف تُحكم Govern دولة إسلامية؟ فى عشر سنوات، وبتوجيه من النبى نفسه نمت جماعة المسلمين من ثمانين لاجئًا مفلسًا (مهاجرًا فقيرًا) إلى حركة زاد عدد تابعيها إلى عشرات الألوف. فإذا كانت مكة هى البوتقة التى انصهرت فيها شخصية محمد فتحوّل من صبى يتيم إلى نبى، فإن المدينة (المنوّرة) هى المِصْهر (أو الكير) الذى حوّل منه محمد النبى شبه الجزيرة العربية من كيان قَبَلىّ إلى دولة ثيوقراطية Theocratic State.

والمدينة كلمة تعنى بالإنجليزية City، واسمها كاملاً هو «مدينة النبى» وهو اسم محبَّب رقيق، جرى اختصاره ليكون كلمة واحدة: المدينة، هذا رغم أنها خلال حياة النبى لم تكن مدينة (بالمعنى الحَضَرى) على الإطلاق وإنما كانت مجموعة من القرى الصغيرة Hamlets المتناثرة تمتد عبر واحة زراعية، هى واحدة من واحات أخرى متناثرة كالجُزُر فى صحراء نَجْد بشبه الجزيرة العربية الوسطى. وخلال عقود بعد وفاة النبى نمت المدينة بالتدريج حول مركزها وهو بيت النبى ومسجده House-Mosque، أما خلال حياة النبى فلم تكن المدينة مركزًا حضريًا. وعلى هذا، فالمدينة كانت تعنى مجتمع الواحة كله الذى كان يمتد عبر وادى يثرب. وثمة مؤرخ مسيحى معاصر لهذه الفترة الباكرة يسجل لنا هذين الاسمين ويقدم لنا شرحًا لهما، ذاكرًا أن يثرب سُمِّيت على اسم الابن الرابع لإبراهيم (الخليل)، أما المدينة فهى مشتقّة من مَدْين Midian، الاسم التوراتى الذى أُطلق على عرب الصحراء. **ليس فى هذا أى تعارض مع صلب العقيدة الإسلامية التى تقضى بأنّ محمداً ليس مؤسس دين جديد، وإنما هو مصلح لتراث التوحيد القديم** الذى وصلنا من خلال عيسى المسيح ومن قبله موسى ومن قبله إبراهيم ومن قبله أبونا جميعًا آدم، فالمسلمون يردّدون قولاً تقليديًا مُفاده :

سيدنا إبراهيم خليل الرحمن (الله)

وسيدنا موسى كليم الله (الذى كلمه الله)

وسيدنا عيسى روح الله

أما سيدنا محمد فهو نبى الله.

إذا ما اقتربتَ من مدينة القرن السَّابع من نقطة مناسبة فى التلال الواقعة إلى الجنوب منها، بدت لك من أول نظرة نهرًا أخضر طوله ثمانية أميال، ذلك لأنه فى هذه المسافة يختلط سعف النَّخل ذو اللون الأخضر المشوب باللون الرمادى ليكوّن غابة. وكلما تقدّمتَ على دابتك أكثر وأكثر من هذه الخضرة اتضحت لك التفاصيل، فبدا لك أن هذه الواحة ذات الخضرة المتصلة تتكوّن من مجموعة من القرى غير محدّدة الحدود والمعالم، مع الأماكن البارزة وكأنها جزر منفصلة عن الأرخبيل الرئيس. وإذا هطلت أمطار الربيع المتقطِّعة بقدر كافٍ، فإن كل المنطقة الواقعة حول النخيل تتم زراعتها بالشعير بين النطاقات التى نما فيها العشب فى بطون الأدوية. ويُحصد هذا الشعير فى شهر مايو بعد أن أنضجه حر الصيف فى هذه السهوب الصحراوية، فيتحول لون هذه المنطقة الهامشية ذات الزراعة الموسمية إلى اللون الأصفر المشوب باللون البنى.

فإذا ما اقتربت أكثر مررت بجانب مقابر قديمة: مساحات من أحجار مُهملَة بجانبها أرض طميّية مستديرة تبدو مستوية لكثرة العابرين. فإذا ما وجهت دابتك ـ أخيرًا ـ لقلب الواحة كشفت لك غابة النخيل من بساتين كثيفة صغيرة حيث تشكل النخيل ظُلَلاً تنمو تحتها محاصيل العلف والخضراوات، مستفيدة من الضوء المتسلل خَلل النخيل. وكثير من هذه البساتين المسوّرة تضم أكواخًا بسيطة معمولة من سعف النخيل (وجريده)؛ ليلجأ إليها الزراع نهارًا ولتلجأ إليها الكلاب ليلاً. ومنازل المدينة المتواضعة مُتضامّة معًا لأغراض دفاعية حول قصور محصّنة Manor Houses، تُسمّى «آطام» أو «أُطُم» (المفرد : أطَم). وكان هناك أكثر من سبعين من هذه الآطام متناثرة على طول وادى يثرب. وفى فترات اليأس حيث الحروب الداخلية، **قبل قدوم الإسلام**، كان امتلاك أحد الآطام مقياسًا لمدى قوة القبائل المتنافسة والعشائر والتحالفات المتناحرة. وأكثر المستوطنات كثافةً سكانية كانت هى تلك الكائنة على الحافة الجنوبية للوادى الأكثر ارتفاعًا حيث أنقى ماء وأفضل بساتين وأطول أطم. إنها منطقة العليَّا التى كانت هى أيضًا أقدم مناطق الاستقرار السكّانى، رغم أن النبى عندما قدم للمدينة لم يُقم بيته فيها. ففى يوم قدومه البهيج لوادى يثرب فكَّ عن رأس ناقته القصواء وسمح لها باختيار المكان الذى سيكون فيه منزله، فاختارت القصواء ساحة قديمة، لخزن التمور Date-Drying Yard تكاد تكون فى وسط الواحة.

ويقع تل ـ جبل سال Sal ـ على الحافة الشمالية للواحة. إنه كائن فى هذا المكان المنخفض لكنه ذو أهمية استراتيجية؛ حتى إنّ النبى قد نصب خيمته المعمولة من الجلد هنا لتكون مقرًا للمراقبة ومركزًا عسكريًا (مركزًا للقيادة) عندما كانت الواحة كلها تحت

الحصار. وعلى أية حال، فقد كانت المعالم الجغرافية الحقيقية للمدينة هى جبل أُحُد الذى يرتفع على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال. ولجبل أحد جُرفان Escarp Ments يتجهان جنوبًا نحو الواحة ليشكّلا تجويفًا Bowl، وهو المسرح الطبيعى الذى جرت فيه معركة (غزوة) أحد بين المسلمين ووثنيِّى مكة. هنا نجد شواهد قبور الأربعة والسبعين شهيدًا الذين سقطوا فى هذه المعركة (بمن فيهم حمزة عمّ النبى)، وهنا أيضًا مياه عينان الفاترة. والوجه الغربى لجبل أحد يُعد مرفأً للمدينة؛ فعنده تتجمع معًا الأودية الجافة الثلاثة التى تشكل وادى يثرب، فى الزغابة التى تتجمع فيها القوافل، والحملات (التجريدات) قبل انطلاقها، فهى ـ أى الزغابة ـ بمثابة معسكر طبيعى، فهى قريبة بما يكفى للتجار ليعدّوا دواب الركوب وليتاجروا فى مختلف أسواق العشائر وليودّعوا الوداع الأخير وليقوموا بالتغييرات الدقيقة الأخيرة لتلافى العيوب فى عدّة الركائب (جمع ركوبة)، وكل هذا من الأمور الضرورية عند بدء الرحلة. لكن الزغابة ليست قريبة من المدينة (الواحة) قربًا شديدًا؛ حتى لا تصبح جمال التحميل مزعجة لأصحاب البساتين بإتلافها لبساتينهم وحتى لا تنزعج القوافل بتردد الصغار الأشقياء والكلاب والفضوليين. وهنا أيضًا نجد أنَّ أرضية وادى العقيق الرملية الحصبائية تدل المسافرين تمامًا على طريقهم سواء شمالاً إلى واحة خيبر أو جنوبًا إلى مكّة. من هذا المنظور يمكنك أن تفهم كيف أن المدينة فى موقع جيد يجعلها مركزًا تجاريًا. وإلى الجنوب مباشرة من الواحة اللافا I ava (مقذوفات البراكين السابقة): كتل حمميّة ضخمة من بازلت متآكل تمتد إلى الجنوب لمئات من الأميال. والمسافرون ذوو العزيمة يمكنهم السّفر عبر هذه المنطقة؛ لكن أحجارها السوداء ذات الحواف الحادة تجعل المرور فيها مخاطرة حقيقية لتدميرها أخْفاف دواب التحميل وحوافرها. وعلى أية حال، فإلى الجنوب من المدينة مباشرة ينفتح الطريق المتجه شرقًا وغربًا عابرًا صحراء نجد، والطريق إلى العراق وفارس. حقيقةً أن مباهج المدينة ومزاياها واضحة وضوحًا تامًا لدرجة أنَّ مؤرخين كثيرين اندهشوا كيف استطاعت مكة الجرداء الجافة التى تطوقها الجبال أن تسيطر على تجارة شبة الجزيرة العربية، بينما لم تستطع المدينة هذا رغم مزاياها الجغرافية!

كانت ميزة مكّة، الكبيرة والوحيدة هى براعة قيادتها السياسية. فقريش مكّة ـ رغم التنافس بين عشائرهم ـ نجحوا فى تقديم أنفسهم بوجه واحد (موحّد) للعالم الخارجى (غير القُرشى). وهذا لم يحدث فى المدينة (الواحة) التى لم يستطع أهلها أن يتظاهروا بأن لهم سياسة واحدة متماسكة، فقد مزّقتهم الصراعات السياسية بين العشائر.

وفى مكة كان الفقر الزراعى السائد فى الأودية الصحراوية يؤدّى دائمًا إلى أنْ يسعى رجالها للبحث عن فُرص فى العالم الأوسع (فى الدنيا الواسعة)، فقريش مكة موجودون فى كل مكان فى الشرق الأوسط حيثما وُجد بصيص التجارة. إنهم فى موانئ الحبشة، وفى المدن الجبلية فى اليمن وفى قلاع الشام أو بلاط الحاكم الفارسى فى العراق. فى هذه الأماكن ستجدهم أشخاصًا مُؤْتمنين كانوا متساوين فى بلادهم مع بدو الصحراء ومع المشايخ الحضريين التجار وحراسًا للمخافر الأمامية على المناطق الحددوية المزعجة، وكان زعماء مكة الأثرياء يمتلكون على البُعد ـ بمستندات لديهم ـ بعض الممتلكات : ربما عقارًا صغيرًا فى فلسطين أو منزلاً فى مدينة مسوَّرة فى سوريا أو بعض أراضى الرعى فى بلاد الرافدين أو بستانًا فى اليمْن أو فى الطائف تلك المدينة الكائنة فوق تل، وكان لديهم قطعان يحتفظون بجانب منها عندهم، أما الباقى فيتركونه فى رعاية القبائل البدوية البعيدة. لقد كانت مكة ـ وزعامتها ـ تزدهر أو تنحدر ـ على وفق دورهم كتجّار مؤتمنين.

أما المدينة، فعلى العكس، فقد كانت من الثراء فى المنتجات الزراعية، بمكان يكفيها، لدرجة أن نجاح قوافلها التى تحمل تجارتها، أو فشلها، لم يكن ذا شأن حيوى كما هو الحال بالنسبة لأهل مكة. ورغم أنّ أهل المدينة كانوا هم أيضًا يعملون على طرق التجارة كما كانوا يرعون قطعانهم فى مراعى الصحراء المحيطة بالواحة (المدينة)، إلاَّ أن اهتمامهم الأساسى كان دائمًا ببساتينهم فى الواحة، مما يجعل أولوياتهم مختلفة تمامًا (عن أولويات أهل مكة) فالبساتين (والحقول) تحتاج دائمًا لحماية من البشر ومن الحيوانات: إنها تحتاج إلى أَسْوِجَة (جمع سياج) من الخوازيق والأوتاد من جريد النخل، وأسوار طينية عالية فى حاجة إلى صيانة مستمرة؛ لحماية البستان من غارات الماعز العابرة والبغال المندفعة والجمال الفضولية والجيران الحقودين، وفوق كل هذا فالبستان فى حاجة إلى رى، فهناك قول صحيح مؤدّاه أنه إذا أردت أن يزدهر نخيلك فاجعل رؤوسها فى الشمس وأقدامها فى الماء، وهذا يتطلب فى المدينة شهورًا من العمل الشاق (الذى يكسر الظهر) عند فوّهات الآبار. هذا الماء الجوفى كان هو الثروة الحقيقية للمدينة لكنه كان يحتاج لحراسة خوفًا من المغيرين. من الناحية النمطية سجل أحدهم أن نزاعًا بين المسلمين اللاجئين من مكة (المهاجرين) والمسلمين من أهل المدينة (الأنصار) تطور، وكان موضوع النزاع هو قربة ماء. وبعض الآبار كان يتولى صيانتها إحدى العشائر أو المجاورون لها، لكن معظم الآبار كانت ملْكيَّة خاصة Private Ven-

tures وتحتاج إلى مراقبة ـ ورعاية ـ مستمرة، وصيانتها تحتاج إلى تكاليف، كما أنها عمل ينطوى على خطورة. وكان المسلمون اللاجئون (المهاجرون) خلال سنوات إقامتهم الأولى فى المدينة مضطرين بحكم الضرورة للعمل أُجَراء (باليومية) فى بساتين مضيّفيهم (أهل المدينة أو الأنصار). وكان المهاجرون الأتقياء، قد هدّهم الاضطهاد الذى سبق أن لاقوه فى مكة كما هدّهم عدم تيسّر ممارستهم للتجارة فى هذه السنوات الأولى. **فعلىّ بن أبى طالب ـ على سبيل المثال ـ كان عليه أن يكسب ما يقيم أَودَه بسحب المياه من الآبار ونقلها** Hauling. وقد استحق عثمان بن عفّان الثّرى النشيط الشكر والامتنان الفائقين من جماعة المسلمين فى المدينة؛ لقيامه بدفع تكلفة إنشاء (حفر) بئر جديدة ووهبها لاستخدام اللاجئين (المهاجرين) المسلمين الفقراء القادمين من مكّة. كان الحرص على الحقوق وعلى المياه وأسوار البساتين محور كل النظام السياسى داخل المدينة، تمامًا كما كان الحرص على تسيير القوافل المكية فى الربيع والصيف، يعكس السياسات الجمعية (السياسات التى تحظى بإجماع الآراء) فى مكة، تلك السياسات التى تعكس بدورها عبقرية وطنية Native Genius.

وقبل وصول النبى كانت واحة المدينة فى حالة فوضى سياسية Political Mess. ورغم أنَّ السّجلات التاريخية الدقيقة لهذه الحرب العشائرية فى المدينة لم تعد متوافرة لدينا، إلاّ أن لدينا معلومات حقيقية عن أوضاع المدينة قبل الإسلام. والحقيقة أن لدينا فيضًا من المعلومات عن تاريخ أسرات مئات من المسلمين الأوائل فى المدينة سُجلت تواريخهم ـ بفخر ـ للأجيال القادمة (لذريّاتهم)، رغم أنهم ـ على عكس أهل مكة ـ لم يكن لديهم نظام قبلى قرشى Quraysh-like Supertribe يمكنه أن يربط كل العشائر معًا تحت مظلّة بنوّة العم فى شجرة النسب (شجرة الأسرة) لتُرجعها جميعًا إلى جد واحد مشترك هو أبوهم جميعًا One-Common Male Ancestor، ذلك لأن واحة المدينة قبل الإسلام كانت لا تزال ـ إلى حد ما ـ مجتمعًا أموميًا (تجرى النسبة فيه للأم Matrilineal Society)، لذا فحوالى نصف سكان الواحة كانوا يتتبّعون أنسابهم ليُرْجعوها إلى أمهاتهم أو جدّاتهم. وكانت المِلْكيّة (بكسر الميم) فى المدينة تُورّث بطريقة مختلفة عن مكة، فقد جرت العادة فى الواحة (المدينة) أن يرث أبناء الأخت (يرثون خالهم) وكان هذا النمط فى الوراثة أكثر من توريث الأبناء Children of Their

Own Wives. ولنُضف بعدًا أكثر تعقيدًا لهذه الأنساب الباكرة، فنذكر أنّ بعض النسوة فى الواحة (المدينة) بدا أنّ الواحدة منهن كانت تجمع بين ثلاثة أزواج فى وقت واحد(★). باختصار، فقد ثبت أنّه من المستحيل أن نستخدم كل هذه القصص المرتبطة بأسرات فردية، لنصيغ منها تاريخًا متماسكًا للصراع العشائرى فى الواحة (المدينة).

وربما نال آباء النبى وأجداده شيئًا من هذا التراث لأن جدته الكبير لأمّه Great-Grand Mother كانت من قبيلة بنى النجّار فى المدينة. وكان النبى ذا علاقات وارتباطات أخرى أسريّة قويّة فى المكان (المدينة)؛ لأن أمّه آمنة ماتت أثناء رحلة للمدينة وكانت (أثناء احتضارها) قد أخذت على عاتقها أن تقدّم طفلها (محمدًا) لأحد أخواله Uncles فى المدينة.

ولم يكن انقسام مجتمع الواحة (المدينة) قبل الإسلام إلى جماعتين متنافستين تنافسًا شديدًا هما الأوس والخزرج (The Capulets And The Montaques of Pre-Islamic Medina) يضمن أى حلف وثيق بين العشائر، فالعداوة الشهيرة بين الأوس والخزرج لم تكن تسمح إلاّ بأن يكونا طرفَىْ قتال. فالحياة السياسية الحقيقية للواحة كانت تغلى وتضطرب بين التعقيدات الناشئة بين ثمانى عشائر كبيرة (كان بعضها قد وصل إلى نقطة الاندماج، بينما كان بعضها الآخر منشغلاً بتمزيق نفسه لتكوين وحدات جديدة) تساعدها ثلاث وثلاثون مجموعة أصغر كلها منهمكة فى نقاشات وتدابير سياسية ضد بعضها البعض. كان فى إمكانهم الارتباط **بالجوار** (الحصول على حماية مؤقتة من الجار) **وبالحِلْف** (أن يحمى كل طرف الطرف الآخر)، وقد يتطور الحلف إلى نشوء حزبين أو جماعتين متحالفتين (تكوّنان كُنْفدرالية ConFederates)، ويجب أن نضيف إلى هذه الصورة المضطربة وجود تحالفات منفصلة (وليست جماعية) بين كل عشيرة من عشائر الواحة والقبائل البدوية المتنافسة فى الصحراء المحيطة.

وكان هناك أيضًا ثلاث عشائر يهودية مستقلة، هى: بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع، لا بد من وضعها فى الحسبان. كانت العشائر اليهودية فى المدينة قبل الإسلام على صلَة وثيقة بالعرب اليهود (العرب الذين اعتنقوا اليهودية) والذين كانوا يتزاوجون بحرية مع جيرانهم العرب الوثنيّين وكانوا يقيمون أحلافًا تقليدية - خاصة بهم - مع

(★) لم يتم ذلك فى الإسلام قط، وإنما كان فى العصر الجاهلى بعض أنواع الأنكحة التى ربما تسمح بهذا. (المعلق).

القبائل البدوية فى الصحراء. وتشير الروايات التقليدية القديمة عن المدينة إلى أن العشائر اليهودية الثلاث كانت ـ فى وقت من الأوقات ـ تحكم الواحة (المدينة) كلها، وأنها كانت تمتلك تسعة وخمسين أطمًا محصنًّا (أَطم والجمع أُطُم أو آطام) كان منها ثلاثة عشر أَطمًا فى أيدى الوثنيين العرب. كان هذا فى الفترة التى فرض فيها ملوك كِنْدة العرب السلام فى وسط شبه الجزيرة العربية وجنوبها، فى القرن الخامس، باعتبارهم حلفاء تابعين للإمبراطورية الفارسية. وكان يهود شبه الجزيرة العربية، دائمًا، هم الحلفاء الطبيعيين لفارس، وربما كان هذا هو الوقت الذى استطاع فيه بنو قريظة وبنو النضير إحكام ملكيتهم لمعظم أراضى العلِيَّا الأكثر خصوبة ـ والعلِيَّا هى الأقدم والأكثر تطرفًا نحو الجنوب فى الواحة (المدينة).

وكان بنو قينقاع على العكس من ذلك لا يكادون يمتلكون أرضًا وإنما كانوا يعيشون على استخراجهم للذهب والفضة من المناجم القريبة، وقد حقّقوا شهرة كحدّادين وعاملين فى المناجم والمجوهرات، وكانت سوقهم التى يعقدونها خارج آطامهم المحصّنة أحد أهم مراكز التجارة فى المعادن فى وسط شبه الجزيرة العربية كله. وتشير الدراسات الحديثة القائمة على استخدام الراديو كاربون فى التأريخ لبقايا الكربون المنحبس فى خَبَث المناجم فى منجم مهد الذهب، وهو أول منجم يُستخرج منه الذهب فى المدينة ـ إلى إعادة تشغيل هذا المنجم فى حوالى سنة ٤٥٠ للميلاد، وهذا ما يتوافق تمامًا مع هذا السيناريو المتعلق بازدهار العشائر اليهودية فى المدينة خلال فترة حكم ملوك كِنْدة الموالين للفرس. ولم تسكت المراجع التاريخية الباكرة التى كتبها المسلمون عن هذا، فابن سعد كتب عن منجمَى الفضة فى المدينة وكيف كان المال يأتى وافرًا من .. مناجم قبيلة جهينة، بينما جرى افتتاح منجم سُلَيْم خلال فترة خلافة أبى بكر (٦٣٢-٦٣٤)، وكان أبو بكر يتلقَّى أموال الصدقات (والزكوات) عن هذا المنجم ليودعها فى خزانة الدولة. ومن ثمّ يوزّعها على الناس، وثمّة رواية أخرى تفيد أنّ النبىَّ محمدًا اعتاد أن يعطى قطعتين صغيرتين Ounces من الفضة هدية لكل عضو من أعضاء وفد قَبَلى أتى للتفاوض، فى نهاية الاجتماع. وهذا يتفق مع كرمه المعروف، لكنه يجعلنا نفترض أيضًا أنه كان يسيطر على موردٍ منتظم من السبائك الفضية Sliver bullion.

من الواضح أن على المرء أن يكون حذرًا مهتمًا عند فهمه للمدينة فى هذه الفترة، ذلك أن هذه الواحة الزراعية لم تكن فى حالة ركود وإنما يبدو أنها كانت تمتلك ثروة كبيرة وكان متاحًا لها معلومات تقنيّة (تكنولوچية) ذات شأن. وربما يفسِّر وجود سبائك الذهب والفضة لدى بعض قاطنى مجتمع الواحة، دورة الحروب الحَقُود. هذه الحروب

التى بلغت ذروتها فى حرب حاطب قبل وصول النبى إلى المدينة بفترة قصيرة. لقد بدأت هذه الحرب بأربع عشائر متظالمة (تتهم كل منها الأخرى بإلحاق ضرر بها) لكن - بالتدريج - تصاعد الأمر ليكون حربًا شاملة فدخل الحلفاء البدو هذه الحرب. وكانت معركة بُعاث، تلك المعركة الضارية الدموية هى ذروة هذا الصراع المتصاعد. لقد شمل القتل فى يوم بُعاث عددًا كبيرًا من الزعماء (الشيوخ) المقاتلين Leading Warlords، وكان لهذا أثره فى عقد هدنة بين المتحاربين. وكان موت زعيم عشيرة بنى بياضة - على نحو خاص - قد أدّى بعشيرته المقاتلة شديدة البأس، رغم قلّة عددها إلى أن تبنى حاجزًا صلدًا مكونًا من تسعة عشر حصنًا (أطَمًا) على الحافة الغربية للواحة، مما أتاح للمدينة فرصة للراحة من مشاريعه ومكائده، إذ كان سلابًا نهابًا بحكم طبيعته. وهناك عشائر أخرى قوية وكثيرة العدد مثل بنى النجّار ابتعدت - بحكمة - عن جولة القتال الأخيرة هذه؛ إذ كان لديها عبد الله بن أُبّى (من بنى الحُبلى) الذى يشبه رجل الدولة Statemanlike الصالح لقيادة كل زعماء العشائر.

لقد بدا أنّ دعوة النبى محمد إلى المدينة والترحيب به قرار جماعىّ حقيقىّ Genuinely. كما كان - أيضًا - قرارًا اتّخذ تدريجيًا وبتروٍّ وجرى الاتفاق عليه فى إطار السلام، أى دون نزاع. لقد بدأ فى صيف سنة ٦٢٠ عندما تأثر ستة أفراد من المدينة تأثرًا عميقًا بفرصة مقابلتهم محمدًا وقت الحج إلى مكة، تلك الشعيرة ذات القدسية لدى العرب الوثنيِّين، ولدى المسلمين أيضًا. وبعد تفكير متأنٍّ عادوا مرة أخرى فى العام التالى ليسمعوا المزيد من هذا الرجل المميّز (محمد النبى)، وإن كان عددهم قد زاد فى هذه المرة فأصبحوا اثنى عشر رجلاً: عشرة من الخزرج واثنان من الأوس. وفى آخر اللقاء وعدوا باتّباع تعاليم النبى خاصة ألاّ يشركوا بالله، وألاّ يسرقوا وألاّ يزنوا وألاّ يقتلوا وألا يفتروا الكذب، وألا يقطعوا أرحامهم. وأرسل النبى محمد معهم مصعبًا ليواصل تقديم التعليم الروحى (الدينى) لهم وليعلِّمهم أداء الصلوات اليومية، ومصعب هذا هو واحد من أكثر أتباع (صحابة) النبى قربًا منه، وقد ركب مصعب مع هذه القافلة الصغيرة وسكن المدينة معهم طوال أحد عشر شهرًا. وقد أثمرت مهمة مصعب ثمارًا حسنة، فقد شهد العام التالى قدوم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين مع الحجاج القادمين من المدينة ليقابلوا محمدًا وليعلنوا إيمانهم بالإسلام. من الواضح أن بعض الزعامات

السياسية فى المدينة كانت قد تأثّرت تأثرًا شديدًا بطريقته التى استطاعت بها مجموعة المسلمين الصغيرة وعلى رأسها مُصعب أن توحّد الأوس والخزرج فى عبادة (صلاة) مشتركة، وكان ـ أيضًا ـ من بين هذه المجموعة البالغ عددها خمسة وستين مؤمنًا اثنا عشر نقيبًا (ممثّلاً أو نائبًا) Representative من أكثر عشائر المدينة قوّةً.

ومع هذا، فمن المفيد دائمًا أن نتذكّر أنَّ محمدًا لم تُسند إليه أية سلطة كاملة فَوْر هذا، ولا كان أهل المدينة ملتزمين باتباع تعاليمه الدينية. كل ما فى الأمر أنّ بيعة العقبة فى سنة ٦٢٢ كانت تتضمَّن بندين أساسيّين: أولاً الاعتراف بمحمد نبيًا، وثانيًا الاعتراف بأنهَّ الحَكَم الأساسى بين كل عشائر الواحة. ففى بيعة العقبة التى عُقدت فى ضوء القمر، تلك البيعة التى اتخذت طابعًا عاطفيًا Emotive، كان حاضرًا اثنا عشر فردًا من الذين تحوّلوا للإسلام عن قناعة وإخلاص، مع أنّ حضور النقباء (الممثلين) الاثنى عشر قد أعطى ـ أيضًا ـ الحدث بُعدًا سياسيًا قويًا جدًا.

وأيضًا كان على أهل المدينة أن يُعاملوا محمدًا باعتباره زعيم عشيرة موقَّرًا. ولم يكن هذا أحد شروط بيعة العقبة، وإنما كان راجعًا إلى زعامته التى لا جدال فيها للمسلمين المطرودين من مكة (المهاجرين) الذين كوّنوا عشيرة أخرى بين مجتمع المدينة المختلط ذى النسيج المعقّد. لقد كان عدد اللاجئين من مكة (المهاجرين) فى البداية، قليلاً: ثمانين رجلاً قادرين على حمل السِّلاح. وفى وقت لاحق، عندما نما سلطان محمد واتّسع، لم ينقُض أبدًا ما اتفق عليه مع نقباء المدينة واستمر مُحْترمًا له، إذ ظل يعمل من خلال زعماء عشائر المدينة (الواحة) ولا يمارس حكمًا مباشرًا على السكان (★) (أهل المدينة).

وعندما وصل محمد للمدينة لم يجبر أحدًا على التحول للإسلام ولم يُجبر أحدًا على الانضمام إليه فى أية معركة (غزوة). فكل ما كان أهل المدينة ملتزمين به على وفق بيعة العقبة هو الاعتراف بمحمد نبيًا أرسله الله، وأن يُحيلوا نزاعاتهم إليه وأن يتحدوا ليدافعوا عن النبى وعن المدينة ضد أى تهديد خارجى. وحتى عندما اعتنق أهل المدينة جميعهم الإسلامَ، ظلّ النبى يحترم ـ وبدقة والتزام ـ وضعه القانونى Legal (المتّفق عليه) فى المدينة. فإذا كانت هناك معركة (غزوة) خارج الواحة، كان النبى يحضُّ أهل

(★) كان ذلك قبل بيعة العقبة الثانية، أما بعدها فقد بويع على أن يكون له الأمر بمعنى السمع والطاعة أى الحاكم المباشر، صحيح أنه لم يكن حكمًا مطلقًا، وإنما كان حكمًا يقوم على الشورى. (المعلق).

المدينة على التطوع لكنه لم يكن يحاول إحراجهم أو إصدار أوامر لهم، فقد كان حكمه للمسلمين فى المدينة ذا نزعة روحية دينية، ولم يكن حكمًا مطلقًا بأية حال من الأحوال. وكان سلطان النبى يزداد لهذا السبب (وليس العكس)، **فقد كان أهل المدينة - على أية حال - عناصر فعَّالة تمامًا فى القوة العسكرية للإسلام، ففى غزوة بدر لم يكن هناك فى صفوف المسلمين سوى ٨٦ من المهاجرين** Exiles from Mecca، **بينما شهدها حوالى ٢٣٨ من رجال عشائر المدينة** .

لقد فاق التأييد - والدعمُ - للنبى والإسلام، الولاء العشائرى الذى ظل صلدًا. وإذا نظرنا للقوائم التى جرى الاحتفاظ بها لأنها مدعاة للفخر، والتى تضم أسماء المقاتلين الذين خاضوا حروب الإسلام الأولى (سرايا أو غزوات) - اتضح لنا أن هؤلاء الأبطال الأوائل لم يكونوا قصرًا على عشيرة دون عشيرة، وإنما كانوا من كل العشائر. إلاّ أنه كانت هناك عشائر قليلة أثبتت أنها مناصرة للإسلام أكثر من غيرها، فعشيرة بنى سلمة Salimah الصغيرة كانت دائمًا تقدم عددًا من المقاتلين أكثر مما هو مطلوب منها لشدَّة ولائها للنبى، بينما كان أفراد عشيرة بنى ساعدة Saidah وهى عشيرة صغيرة أخرى - فقد تبوّأت مكانًا عليًا نظرًا للدعم العميق والحماس الذى قدّمه زعيمها سعد ابن عُبادة للنبى محمد. وكانت عشيرة بنى ساعدة Saidah بالإضافة لذلك جيرانًا مجاورين للنبى، لأن باحة السّوق كانت قريبة من منزل محمد (المنزل - المسجد -House mousque) لكن حتى سعْد بن عبادة المهيب كانت له لحظات ضعفه. فمما يُذكر أنه لم يحارب حربًا حقيقية فى غزوة بدر نظرًا لإصابته بلدغة حيّة رغم الإشاعة الخبيثة التى مؤدّاها أنه كان يراقب مجريات الحرب (فى غزوة بدر) ليحدّد اتجاهه السياسى (أراد أن يعرف اتجاه الريح ليحدد على وفقها توجّهه السياسى). أما بنو النجّار فهم أيضًا قد اكتسبوا أهمية وتبوّءوا مكانة بارزة، وكان هذا نتيجة الحظ وحسن الطالع أكثر مما هو نتيجة لأمور أخرى، فقد كان منزل النبى قائمًا فى المنطقة المجاورة لزمامهم، ومن هنا فإن المستقبل العمرانى (الحضَرى) للمدينة قام فى إطار بساتينهم القديمة.

ولا يجب أن ننسى الأصوات المشاكسة المخالفة فى عشائر المدينة. فقد كانت عصماء بنت مروان شاعرة قوّالة وأُمًا كثيرة الإنجاب وكانت من أقوى الأصوات تحريضًا ضد المسلمين، وقد أورد لنا الواقدى المؤرخ المسلم جانبًا من تحريضاتها اللاذعة:

باست بنى مالك والنبيت
وعوْف وباست بنى الخزرج

أطعتم أتاوى (غريبًا) من غيركم

فلا مِن مراد ولا مذْحجِ

ترجونه (أى محمدًا) بعد قتل الرؤوس

كما يُرتجى مرق المُنّضجِ (الطبّاخ)

ألاَ أنفٌ يبتغى غرّة

فيقطعُ من أمل المُرتجى (ذو الأمل).

وبعد انتصار بدر (٦٢٤م) تسلّل أحد أفراد عشيرتها إلى بيتها وطعنها فى القلب، وفى اليوم التالى اعترف هذا القاتل بفعلته أمام جَمْع تجمَّع أمام بيتها مُعلنًا «.. أنا قتلتُ ابنة مروان فكيدونى جميعًا (أى انتقموا منّى) ولا تُنظرون (أى أسرعوا)» لكنّ أحدًا من الجمْع من عشيرتها لم يتحرك ليطالب بالثأر باسم أبنائها الخمسة، بل إن النبىّ نفسه استبعد فكرة عقاب هذا القاتل معلنًا: «لا ينتطحُ فيها عنزان»، أى لا جدال فى أنها مذنبة تستحق القتل.

وبعد ذلك بشهر كان لا بد من قتل أبى عفك، وهو قوّال ثانٍ معادٍ لوجود محمد فى المدينة. وقُتل أبو عفك غيلة وهو نائم. ومن أبياته الشّعرية:

لقد عشْتُ دهرًا (زمنًا) وما إنْ أرى :

من الناس دارًا ولا **مجْمعا**

أبرَّ عهودًا وأوفى لمن

يُعاقد فيهم إذا ما **دعا**

من أولاد قيْلة (أهل المدينة) فى جمعهم

يهدُّ الجبالَ ولم **يخضعا**

فصدَّعهم راكبٌ جاءهم

حلالٌ حرامٌ لشتّى **معا**

فلو أنَّ بالعزّ صدّقتم

أو المُلك تابعتم **تُبّعا** (أسرة حاكمة يمنيّة).

وثمّة مُعارِض آخر من داخل المدينة وهو أبو عمير المعروف بالرَّاهب، الذى كان من المتوقع أن يكون من أوائل المتحوّلين للإسلام، فقد كان ـ قبل الإسلام ـ مثالاً للحُنفاء

(الموحّدين من أهل البلاد). إذ كان ـ مثله فى هذا مثل محمد تمامًا ـ ينظر لدين إبراهيم (الخليل) باعتباره الدين الأصلى النّقى (الحنيفية سابقة على اليهودية والمسيحية)، واعتزل الراهب عزلة روحيّة (ومن هنا لُقّب بالراهب)، ولكنه رفض العزوبة (الامتناع عن الزواج) باعتبارها غير معمول بها فى البيئة البدوية لشبه الجزيرة العربية، وعلى أية حال، فبعد مناقشات قليلة مع النبى محمد بعد وصوله للمدينة امتعض الراهب وقرر ترك المدينة وصحب أتباعه معه واتجه إلى مكة حيث انضم للمعارضة الوثنية وكان عضوًا فعّالاً بها، قبل أن يترك شبه الجزيرة العربية كلها ويتجه شمالاً للشام. وظلّ غيورًا مستقل الفكر حُرّ الروح حتى النهاية.

هؤلاء الثلاثة : عصماء بنت مروان، وأبو عفك والرّاهب، كانوا يمثلون أقلية ضئيلة جدًا، أما الغالبية العظمى من سكان الواحة (المدينة) فكانوا ـ بحماس شديد ـ يؤيّدون السلام الداخلى الذى حلّ بحلول زعامة النبى محمد.. وكان هناك أيضًا كثيرون من المتحولين للإسلام تحولاً حقيقيًا واتّسم هؤلاء بالتقوى، وكانوا يُعدّون بالمئات وكانوا فخورين بأنهم من صحابة النبى. وكان هناك فى المدينة أيضًا عدد كبير أشار إليهم القرآن بالمنافقين، وأشار لهم المؤرخون الأوائل بالاسم نفسه. لقد تحوّلوا للإسلام ابتغاء حياة سهلة أكثر من تحولهم إليه ابتغاء عقيدة حيّة وابتغاء التزام أخلاقى وسمو روحى. وعلى وفق الصورة الشائعة لهؤلاء المنافقين فإنهم كانوا لا يصلّون كثيرًا وكانوا لا يؤدون الزكوات والصدقات إلاّ وهم كارهون، ولا يصومون إلاّ على مضض، وقد فشلوا فى حضور الجلسات التى يُرتّل فيها القرآن طوال الليل، والتى كانت ـ أى هذه الجلسات ـ ملمحًا لافتًا للنظر فى مجتمع المسلمين الباكر.

وربما كان المقصود بالمنافقين هو المعنى الحرفى. وبعض الباحثين يسوقون الأدلّة على أن التقاعس أو البطء فى المشاركة Slow To Contribute هى الترجمة الملائمة للمصطلح العربى (المنافقين) وهو أيضًا ـ أى هذا المصطلح ـ مرتبط بالجذر اللغوى ن ق ف Naqqf الذى يصف أنواعًا مختلفة من الثقوب والخروم أو الملاجئ وأماكن الاختباء. وربما كان من معانى المنافقين الإشارة لهؤلاء الذين لم يعارضوا المسلمين لكنهم ظلّوا مرتبطين بالطرق القديمة والتراث الزراعى للواحة وكانوا يتباطؤون فى تقديم العشور (الزكوات). وليس لدينا إلاّ القليل جدًا من الأدلّة عن العادات الوثنية القديمة فى المدينة (قبل الإسلام): خاصة عند مقارنتها بما لدينا من معلومات عن مكة

وما حولها من أصنام Shrines. وليس لدينا أيضًا أية معلومات أو روايات يُعوَّل عليها عن تحطيم الأصنام فى المدينة عند قدوم الإسلام ولا حتى عن اسم الربّة الحارسة للواحة (المدينة) Tutelary Goddess Of The Oasis، بينما نعرف هذا الأمر بالنسبة لمكة والطائف قبل الإسلام. ويبدو أنه من الممكن أن تكون الطقوس الزراعية القديمة فى المدينة لم يتم القضاء عليها تمامًا، وإنّما تم استيعابها بهدوء فى إطار الارتباط العام بالإسلام.

أما أهل مكة الذين كانوا ـ نظرًا لخلفياتهم ـ مرتبطين جميعًا بآليات الرعى وتجارة القوافل، فكانوا ـ جاهلين تمامًا ـ فى الغالب ـ بأساليب الزراعة والعادات المرتبطة بها. وربما كان هذا الجهل نفسه هو الذى جعلهم بدون ضرورة نُزّاعين للشك فى أهل المدينة المسلمين، لأنهم لم يستطيعوا أن يثقوا فيما يُعد بالفعل عملية فلاحيّة Farming وما تنطوى عليه من طقوس وثنية قديمة، فالأرض تتجدّد خصوبتها بتقديم الأضاحى، وهذا عنصر من عناصر توقير الخصوبة Fertility Cult على مستوى العالم كله.

وبالنسبة لغير الواعين بالدورة السنوية للأنشطة الزراعية، فإنّ مثل هذه المناسبات المبهجة (والضرورية بشكل حيوى) مثل تلقيح النخيل المؤنث باللقاح الذَّكَرى للنخيل (المذكّر)، قد يُساء فهمها باعتبارها إحدى الاحتفالات (الوثنية) بحلول الربيع A Spring Bacchanalia. بينما أولئك الذين لم يشاركوا فى معنى الاسترخاء البدنى بعد جمع (حصاد) محصول ناجح قد يخلطون بين العشاء الاحتفالى أمام نيران منتصف الليل فى منتصف فصل الصيف ـ يخلطون هذا العشاء الاحتفالى ببعض التَّقدِمات الوثنية لساتورن Saturn (خاصّة إذا كان تراث الطهى يتطلب طهى كلب صغير سمين فى فرن محفور على شكل خندق، أى تحت مستوى الأرض احتفاء بمثل هذا الحدث). وحتى عملية التسميد البسيطة قد تظهر بمظهر ممارسة وثنيّة غامضة أو ذات طابع سرّى بالنسبة لهؤلاء الذين لم يعتادوها، كتكويم أكوام من الرَّوث والعظام القديمة وإعداد مآوٍ للنار (كوانين) ومزج رمادها بكل هذا (المذكور آنفًا) وتوزيعه بعناية فى التربة (لتقوية) محصول السنة القادمة. كل هذا يبدو لمن لم يتعوَّده، نوعًا من الممارسات غير المفهومة.

وبالإضافة إلى الفرق بين العادات الزراعية لزرّاع الواحة (المدينة) من ناحية وطقوس (شعائر) العام الإسلامية، فهما يعتمدان على تقويميْن مختلفين. فالزراعة لابد أن تلتزم بالتقويم الشمسى، والإسلام ارتبط بدورة ثابتة هى الشهور القمرية (الهجرية)

غير المرتبطة بالفصول ولا يزال هذا التناقض الطفيف قائمًا حتى اليوم، إذ غالبًا ما يوصف إيمان الفلاحين بأنّه إيمان طفولى من قِبَل الزعماء الدينيين فى المجتمع الذى ارتبط أفراده ـ عادة ـ بأهل المدن وبالتجار والحرفيّين وبالمشتغلين بالتعليم. وهكذا كان الأمر بالنسبة للعلاقة بين مسلمى المدينة ومسلمى مكة، فقد كان ذوو الأصول الملكية متشككين فى مسلمى المدينة ولم يفهموهم تمام الفهم. وكان الكحول بالتأكيد موجودًا فى الواحة (المدينة) بكثرة وكان الحصول عليه فيها أكثر من فرصة الحصول عليه من الجبال المحيطة بمكة (نظرًا لحصول المدينة الوفير من التمور والشعير)، وهذا يفسّر لنا أيضًا صرامة الآيات القرآنية التى تنهى عن شرب الخمر خوفًا من تعرّض المهاجرين من مكة إلى المدينة لغواية أكبر.

وكانت عادة نساء المدينة باتخاذ أكثر من زوج ـ أيضًا ـ تتناقض تناقضًا حادًا مع التراث (النظام) الأبوى المكّى، فقد كان تراث أهل المدينة يقضى بإيجاد اسم للمولود راجع لاسم الجدَّة (أم الأم) وليس راجعًا للخط الأبوى (النسبة للأب Male Line). حقيقةً، إننا إذا نظرنا إلى كثير من الآيات القرآنية التى تتناول الزواج والطلاق، فى ضوء أحوال المدينة خاصّة، لما وجدناها تشكل قيودًا على حقوق المرأة إذ جعلت رجال المدينة الذين كانوا ضعافًا قبل الإسلام واعين لذريّتهم (نسلهم Offspring)؛ بالإضافة لمسئوليتهم المالية عنها (عن الذريّة). لقد سعى الإسلام خاصة فى المدينة إلى تقويّة الأسرة على حساب العشيرة. لقد كانت الحرية الجنسية فى مجتمع ما قبل الإسلام جاذبةً جدًا وبشكل واضح ـ خاصة بالنسبة للشباب الأثرياء والمتحلّين بالوسامة. وعلى أية حال، فقد اعترف النبى بالوجه الآخر لهذه الحرية: الأرامل المفلسات والأمهات المنبوذات والجماعات التى لا تجد من يعتنى بها، والأيتام الجوعى الذين لا يُلاقون حبًا ودفن الأطفال حديثى الولادة غير المرغوب فيهم، والمراهقين غير المهذَّبين مجهولى الآباء الذين يتجولون فى شوارع المدينة ـ وكان الثمن غاليًا جدًا.

كانت واحة المدينة مسرحًا شهد نظامًا أخلاقيًا جديدًا يُجرَّب لأول مرة فى شبه الجزيرة العربية. فالتأكيدات والسلالات التى وُجدت بين المهاجرين (مسلمى مكة) والأنصار (مسلمى المدينة)، وبين المتحولين المخلصين للإسلام والأغلبية الأقل حماسًا (للإسلام)، وأيضًا بين البدو وسكان المدن ـ كل هذا راح يشكّل دوّامة ظهرت على سطح السجلاّت التاريخية (الروايات التاريخية). وقد لعب هذا التناقض دورًا قويًا فى تغيير

شكل المجتمع المسلم الباكر. فمن المؤكّد أنّ مسلمى مكة كانوا مقتنعين أن مسلمى المدينة ليسوا مناسبين كى يكونوا ورثة للنبى (★) (لا يصلحون لوراثة النبى)، رغم أنهم من الناحية العددية ومن ناحية أدوارهم العسكرية كانوا هم العمود الفقرى للإسلام فى فجره (مرحلته الباكرة). **وربما كان هذا الموقف غير قائم إلاّ على موقف قبلى ظالم** Tribal Prejudice، **إلاّ أنه من المؤكّد أنّ المسلم المكّى الوحيد الذى مارس الزراعة والعمل الزراعى فى الواحة (المدينة) وظلّ معصومًا ملتزمًا أخلاقيًا طوال حياته، لم يمارس أبدًا مثل هذا الظلم، فعلىّ، الوارث الحقيقى للنبى كان - دائمًا - يدافع عن حقوق أهل المدينة،** وربما كان هذا سببًا آخر لإغفال ترشيحه (للخلافة). ومن المؤكَّد أن الخلفاء الثلاثة الآخرين: أبو بكر وعمر وعثمان، لم يُوكلوا مناصب مهمة تنطوى على مسئوليات كبيرة لأحد من المدينة، اللهمّ إلاّ نادرًا. حقًا، لقد طال أمد إحباط الطبيعة المساواتيّة Egalitarian Nature للإمام علىّ (أو بتعبير آخر فإن المساواة بين المسلمين، وهى الفكرة التى أخذ بها الإمام على، قد جرى إحباطها لفترة طويلة).

تعليقات المترجم

(١) من العبارات التى تردّدت فى بيعتى العقبة الأولى والثانية : «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم»، « .. كنتُ فيمن حضر العقبة الأولى.. فبايعنا رسول الله على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفرض الحرب، على ألاّ نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف..».

(★) لم يظهر ذلك إطلاقًا فى مجتمع المدينة رغم أن الخلفاء الأربعة كانوا من المهاجرين. (المعلق).

الفصل الثانى

عَلِىٌّ
الصّحَابى الأوّل للنبى

فى اللحظة نفسها التى تُوفّى فيها النبى محمد، ظهرت روايتان متنافستان وراء كلّ منهما تراث (مجموعة مرويّات)، فالسنّة يعتقدون أنَّ النبى مات وهو مستريح على حِجْر lap عائشة، أما الشيعة فيعتقدون أنّ النبى لفظ أنفاسه وهو إزاء كتف على بن أبى طالب. هذا الاختلاف ما هو إلاّ خلاف رمزى لكل ما اختلف عليه المسلمون، وهو أمر مألوف فى التراث العربى، فهناك تناول مألوف لدى المؤرخين المسلمين وهو أن يذكروا روايتين أو ثلاث روايات على الأقل - وكلها روايات مختلفة - عن أى حدث مهم أو حاسم ليتركوا القارئ يتخذ قراره بنفسه (على مسئوليته) مع إيراد عبارة إيمانية تدل على التقوى مفادها «أن الله وحده أعلم بما كان» أو أن الحقيقة كاملة لا يعلمها إلا الله.

وفى هذه الحالة المتعلقة بوفاة النبى يمكننا أن نعتقد أن الروايتين صحيحتان، فهذا أمر ممكن، ففى صباح اليوم الذى تُوفى فيه النبى ربما يكون على وعائشة قد نَحَّيا جانبًا خلافاتهما، فكلاهما أحب النبى، وكلاهما راح فى هذا اليوم يساند النبى فى مرضه. وفى وقت لاحق راح الآخرون (المشاركون المؤيدون) يروون الرواية لصالح على أو لصالح عائشة.

وسواء أكان على مع النبى لحظة وفاته أم لا، فالذى لا شك فيه أنه كان مخلصًا إخلاصًا حقيقيًا لمحمد النبى طوال حياته وحتى أيامه الأخيرة. لقد كان على مع عمه الكبير العباس هما اللذين رَعَيا النبى عندما تلبسته الحمى وهو يُنقل من غرفة room

زوجته ميمونة ليُمرَّض فى غرفة hut عائشة. وقد استند النبى أيضًا على كتف على عندما قام - أى النبى - بزيارته الأخيرة بعد أيام قليلة إلى المسجد ليطلب من أبى بكر أن يؤم الناس فى الصلاة بدلاً منه (أى ليحل محل النبى فى إمامة المسلمين فى صلواتهم الجامعة)، وكان على هو الذى تحمل مسئولية تغسيل جسد النبى فور وفاته والإعداد لدفنه. لا أحد يشك أبدًا فى إخلاص على للنبى، ولا أحد يشك فى الروابط العديدة التى تجمعهما: فعلى هو ابن عم النبى وزوج ابنته، وهناك مَنْ يسوق الأدلة على أن عليًا هو أول ذَكَر male تحول للإسلام، وهو والد أحفاد النبى الذكور وأكثر صحابة النبى حَدَبًا عليه وودًا له وأول مقاتل بطل مناصر للإسلام (مع حمزة عم النبى). وخدم على النبى بأن كان أحد قواد جيوشه وأحد مبعوثيه وكان بمثابة سكرتير (وزير) إدارى ودبلوماسى للنبى، ويُقال إنه بينما كان على يغسِّل جسد النبى بعد وفاته انفجرت أحزانه فقال أبياتًا شعرية مرتجلة وتلقائية:

بأبى أنت وأمى يا رسول الله
فبموتك وصلت الأمور لمنتهاها.
ولم تكن لتصل لمنتهاها بموت أى إنسان آخر
انقطعت سلسلة النبوة، فلا نبى بعدك
لن تأتينا بعد ذلك أخبار الغيب
ولن ينزل وحى من الجليل المتعالى
لقد بشَّرت الناس برسالة الأمل
وهديتهم سواء السبيل
ووضعت أسس نظام جديد
أنت المُخلِّص الذى خلصت البشرية saviour
جعلت الناس سواسية
بشرتنا بالثورة والتغيير
كنت مرشدنا عندما كنت حيًا بين ظهرانينا
وستظل مرشدنا حتى بعد مماتك
لولا أنك نصحتنا بالصبر عند المصائب

لذرفت عيناى دمًا. لقد أظلمت الدنيا بدونك

فذهابك عنا خسارة بغير حدود

لكن هذه هى إرادة الله

إنا لله وإنا إليه راجعون

لتستقر روحك آمنة بجوار خالقك.

حتى وفاة النبى لم تكن حياة علىّ ظاهرة ولا ممتلئة، أو بتعبير آخر لم يكن على ظاهرًا على مسرح الأحداث، وذلك لوجود النبى. لقد كانا - النبى وعلى - ابْنَى عم لأن والد على هو الأخ الأكبر لوالد محمد (عبد الله)، رغم أن الأسرتين كانتا متلاحمتين تلاحمًا شديدًا لدرجة اعتبارهما وحدة واحدة a single unit. لأن والد على (عبد المطلب) كان بمثابة والد لمحمد بعد أن تُوفِّى والد محمد وأمه وجده لأبيه، تباعًا، فتعرض لليُتم وعدم وجود من يرعاه، لذا فإن محمدًا كان معتمدًا اعتمادًا كليًا منذ سن الثامنة على أبى طالب (عمه) فهو الذى كان يطعمه ويأويه ويعلّمه. ولأن أبا طالب كان هو شيخ العشيرة (أو زعيمها)، فقد استمرت حمايته لمحمد حتى عندما كبر وصار رجلاً وتاجرًا. وفى وقت لاحق عندما صار محمد نبيًا، كان أبو طالب هو الوحيد الذى واصل حمايته له ولأتباعه. وكان أبناء عم محمد بمثابة إخوة له وأخوات: كان طالب فى سن محمد تقريبًا، وكان عقيل بمثابة الأخ الأصغر، أما فاختة الابنة الوحيدة لأبى طالب فكانت بمثابة أخت لمحمد. وكانت فاختة ومحمد فى سن واحدة (ما بين العاشرة والعشرين) فأحبها محمد، أما جعفر فكان هو عزيز الأسرة (القريب إلى قلوب كل أفرادها)، أما على فقد أتى ميلادهُ متأخّرًا وغير متوقَّع، فعند موْلد على كان محمد قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره، وكان قد تزوج خديجة بالفعل قبل مولد على بأربع سنين. وفى وقت لاحق دُبِّجت قصة حول مولده، مؤدّاها أنَّ أمّ على كانت تطوف حول الكعبة، ففاجأها المخاض، فاضطرت إلى الاحتماء ببيت الله لتضع وليدها عليًا. وهناك حكاية أخرى، مؤدّاها أنَّ الطفل على لم يستطع أن يفتح عينيه إلاّ بعد أن أجلوه فى حجر ابن عمه محمد ليكون وجه محمد هو أول ما يقع عليه بصره (بصر على) .

وعندما كان علىّ صبيًا ترك منزل والده وانتقل إلى منزل محمد. لقد كان على عند تردده على بيت محمد ليعيش فيه قد بلغ من العمر خمس سنوات أو ثمانى سنوات أو إحدى عشرة سنة، على خلاف بين المصادر الأولى، لذا فإن التتابع الزمنى الدقيق لحياة

على (كرونولوچيا على) يبقى مُحيرًا (غير دقيق) حتى لو كان نسق الأحداث وترتيبها غير عُرضة للشك إلاّ قليلاً. وبعض الحوْليِّين (الذين يؤرخون على وفق تتابع السنين) يذكرون أن إقامة على فى بيت محمد راجعة إلى الرغبة فى مساعدة والد على (أبى طالب) الذى كان يعانى كما قيل من تعثّر تجارته، بإنقاص عدد الأفواه التى يطعمها فمًا. ومن الصعب أن نصدّق تمامًا هذه الرواية، وربما كان فى هذا القول طعنٌ فى كفاءة بنى هاشم التجارية وجهه إليهم فى وقت لاحق الأسر المنافسة (الأسر الحاكمة dynastic rivals). من المؤكّد أنّ أبا طالب زعيم عشيرة بنى هاشم، ظلَّ واحدًا من أكثر شيوخ عشائر مكة وقارًا واحترامًا حتى يوم وفاته - وإذا طلب شيئًا بسيطًا كتقديم طعام، فإن محمدًا وزوجه خديجة الثرية الكريمة سيشرفهم أن يقدموه له، مثلهم فى هذا مثل بقية أفراد عشيرته (عشيرة بنى هاشم). لذا؛ فإن عليًا ربما كان ينتقل إلى منزل ابن عمه محمد لأسباب يرجع جانب منها إلى مواساة مَنْ فى هذا البيت وتسكين أحزانهم، فقد شهد بيت محمد وخديجة موت ثلاثة من أبنائهما، بينما كان على ينعم بوجود إخوته فى قيد الحياة. بل ربما كان هناك تفسير أكثر بساطة، وهو أنَّ محمدًا ربما كان يفضل أن يقضى وقته فى بيت عامر بأبناء العم ممَّن هم فى مثل عمره بدلاً من قضائه مع من هم أكبر منه سنًا فى بيت أبيه. وعلى أية حال، فقد كان البيتان غير بعيد أحدهما عن الآخر، بأيَّة حالٍ من الأحوال، فقد كان الوضع يسمح لمحمد بالانتقال بينهما بسعادة على وفق ما يريد، فما هى إلاّ لحظات حتى يعود للبيت الآخر. وكانت هناك سيمترية (تنسيق) مبهج متعلق بهذا الترتيب (انتقال على إلى بيت محمد) فكما أنَّ محمدًا كان قد تعلّم ما يتعلّق بتجارة القوافل بامتهانه إياها عند عمه أبى طالب، فقد جاء الآن دور محمد ليعلّم ابن عمه (على بن أبى طالب).

ربما كان هذا هو الوقت الذى تعلّم فيه على القراءة والكتابة - تلك المهارة التى لم تكن مُتاحة إلاّ للقلّة الثريّة. وهناك أيضًا حكايات (روايات) تبين كيف أنّ الصبىّ عليًا كان على علاقة حميمة بمحمد وكان شاهدًا على تقواه منذ وقت باكر جدًا، وكان يُحضر له الطعام والشراب إلى الكهف (الغار) الذى كان يتعبَّد فيه ويتأمل لسنوات طويلة قبل أن يصبح نبيًا. وعلى أيّة حال، **فقد كان إلمام على بتفاصيل تجارة القوافل وأسرارها يمثل الحد الأدنى**، فعندما تلقى محمد الوحى فى سنة ٦١٠ كان على لا يزال

صبيًا، وبعد خمس سنوات من تلقّى النبى الوحى، أى فى سنة ٦١٥ أى بعد أن أبلغ المَلَكُ (بفتح الميم واللام) محمدًا بضرورة التفرّغ للدعوة، وتخلّيه عن آخر ارتباطاته بتجارة القوافل المكية، كان على قد بلغ من العمر حوالى ثلاثة عشر عامًا.

وقد وضع هذا على كاهل على عبئًا كبيرًا جدًا، شكّل وضعيته المستقبليّة كقائد (أو زعيم) بين معاصريه. لا أحد يمكنه أن يشك فى سلسلة نسبه (فى سلالته أو أُرُومَته)، **لكن ما كان ينقصه هو أن يقضى فترة يتعامل فيها مع تجارة القوافل على مستوى شبه الجزيرة العربية طولاً وعرضًا، واكتشاف الأساليب الضرورية للبقاء وسط هذا العالم التنافسى الذى تشيع فيه السمسرة والاتفاقات التحتية**... (الميرشنتيلية mercantile world) والمساومة فى الأسواق، والتعامل مع مرشدى القوافل البدو، وتأجير الجمال وشراء الأعلاف، ناهيك عن مسئولى الجمارك Customs officials فى اليمن، وفى العراق الذى أحكم الفرس قبضتهم عليه وفى سوريا البيزنطية وفى الحبشة وموانئ البحر الأحمر. **لم ينشأ على بن أبى طالب**، أبدًا رجلاً متمرسًا بفهم فطرى ملازم يجعله يُدرك أن الدنيا تحكمها العُملة Coin (المال) جنبًا إلى جنب مع الدين Faith، وأنّه حتى الشيخ المحارب الأكثر نبالة له ثمنه الذى يمكن شراؤه به أو بتعبير آخر يمكن شراؤه بسبائك الفضة Silver bullion، وأنّ الحسد والغَيْرة والخيانة أكثر شيوعًا بين البشر من الرحمة والأمانة والصلاح. لقد تكوّنت طبيعة (شخصية) على فى أسرة (منزل) استثنائية (غير عادية) جعلته يتحلّى بكثير من الصفات الروحية النفيسة الكريمة procious؛ **لكن هذه القيم لم تجعل منه سياسيًا بالفطرة، قادرًا على فهم الفساد والقابلية للرشوة الكامنين وراء الدوافع المحركة للبشر**.

أما فيما يتعلق بالإيمان، فقد كان لدى على وفرة منه (كان شديد الإيمان) فلم يكن يخجل وهو ابن خمسة عشر عامًا ـ أى وهو لا يزال صغيرًا غير محنّك ـ من أن يعلن على الملأ تأييده لتعاليم محمد. وبعد كل هذا فقد كان أصحاب المقام الرَّفيع من بنى هاشم (بمن فيهم والده ـ أى والد على ـ وأعمامه الأقوياء مثل أبى لهب السّاخر الخبير بالحياة والناس، وحمزة القناص البطل الصّلب) قد جلسوا متحلّقين حول طعام الغداء، يستمعون إلى محمد وهو يعظ (يدعو للإسلام) دون أن يرتفع صوت مؤيِّد له سوى صوت واحد (صوت على). وتحوّل بعد ذلك جعفر أخو على الأكبر إلى الإسلام وأصبح شخصية مهمة فى جماعة المسلمين الصغيرة: لدرجة أنه أصبح قائدًا للاّجئين المسلمين

الذين لجؤوا لملكة الحبشة المسيحية فى سنة ٦١٦ (المهاجرين المسلمين إلى الحبشة). وبالنسبة لأولئك الذين بقوا فى مكة، فإن المقاطعة التجارية التى فرضتها الأغلبية الوثنية على المسلمين وعلى عشيرة بنى هاشم والتى استمرت لتحميهم، كانت وَقْتَ محنة كبيرة. وثروة خديجة زوج محمد، وكانت ثروتها كبيرة جدًا، قد تبدّدت تمامًا فى هذا الوقت (وقت المحنة) وتضاءلت ثروة أبى بكر من ٥٠ ألف درهم إلى ٦٠٠٠ درهم (ستة آلاف)، وكان عام ٦١٩ وهو العام الذى مات فيه أبو طالب وخديجة «عام حزن» بمعنى الكلمة، ولا بد أنه كان عام اختبار لعلى ذى التسعة عشر عامًا، وكذلك كان الحال أيضًا بالنسبة لسيّده المبجّل (محمد النبى): لقد فقد على أباه كما فقد خديجة (أمه بالتبنّى)، أما النبى فَفَقَد أباه بالتبنِّى (المقصود عمه الذى حلّ محل أبيه) وزوجه. ولاتزال الأبيات الشعرية التى نُسبت إلى على مرتبطة بهذه المناسبة موجودة (فى كتب التراث):

تفيض عيناى دمعا
على شيخ وادى البطحاء
على أبى طالب
وتفيض عيناى دمعا
على زهرة النساء
ومن تكون زهرة النساء سوى خديجة
إنها أول من أسلم من النساء
وأوّل من صلّى
لقد كان كلاهما: أبو طالب وخديجة
من ذوى الأرواح الطاهرة
رحيلهما ترك فراغًا كبيرًا
كان فراقهما صعبا
تقرّحت جُفونى من البكاء طوال الليل
فقد كانا لنبيِّنا المبارك عونًا
وكانا دعمًا للإسلام وسندا

اسودّت الدنيا يوم ماتا

إنا لله وإنا إليه راجعون

عسى أن تستقر روحاهما فى سلام (★).

والشّطر الشّعرى الأخير يعبّر عما هو أكثر من التمنيات القلبية من ابن محب، إنما هو تقرير حالة. فرغم أنّ أبا طالب ظل حاميًا متشددًا لابن أخيه محمد ولأتباعه البالغ عددهم مائة أو نحوها، فقد ظل يرفض - بعناد - اعتناق الإسلام حتى وهو على فراش الموت. ولا بد أنّ عليًا كان قلقًا من المصير الذى ينتظر والده غير المسلم مع أنه كان محبوبًا من النبى.

وكانت الأعوام التى تلت موت خديجة وأبى طالب أعوامًا مُفعمة باليأس بالنسبة لجماعة محاصَرة، لكل هذا ما إن بدت واحة يثرب مكانًا آمنًا لمسلمى مكة، حتى هاجروا بسرعة وهدوء. وكان على وأبو بكر هما آخر من هاجر من الرجال المسلمين القادرين بدنيًا، إذ ظلاّ مع محمد النبى. وفى هذا الوقت الحَرِج حيث أصبح كل أتباع النبى وصاحبيه خارج مكة قررت المعارضة الوثنية قتل محمد، فاختار الوثنيون شابًا من كل عشيرة (ليضيع دمه بين العشائر فلا يقدر بنو هاشم على الثأر لمحمد)، فحاصروا منزل محمد. والشرف العربى يقضى بعدم ضربه (قتله) داخل حَرَم بيته، خاصة إذا كان به نساء، لذا فقد انتظروه ليخرج من بيته بعد الفجر. وراحوا يراقبون - بصبر - أول إشارة لتحرك شخص راقد على حصيرة وقد تدثّر بعباءة محمد (وكانوا يظنونه محمدًا)، وعندما قام هذا المتدثِّر ونزع عباءته فى ضوء الصباح تبين أنه علىّ الشاب وليس محمدًا النبى ذا اللحية، وسرعان ما أدركت زمرة القتلة أنهم قد خُدعوا وأن محمدًا قد هرب (هاجر) مع أبى بكر فى جُنْح الليل، وكان على قادرًا على إخبارهم أن النبى اتخذ بالفعل طريقه إلى يثرب (الآن أصبحت تُعرف باسم المدينة). لقد كان ما ذكره لهم على هو نصف الحقيقة، وكان هذا بشكل محسوب، مما سهّل رحلة (هجرة) النبى إلى حد كبير، فالنبى لم يكن قد وصل للمدينة بعد وإنما كان مختبئًا فى كهف قريب.

(★) لم نجد نص القصيدة فى كتب التراث التى تناولت هذه الفترة، فترجمنا النص من الإنجليزية مباشرة. (المترجم).

وتُرِك على ليكون آخر مسلم معترف بإسلامه، يغادر مكة، وذلك ليرتّب ما تبقّى من أمور قليلة مرتبطة بالجماعة المهاجرة، قبل أن يهاجر هو نفسه إلى حيث الأمان فى يثرب. **لقد كانت رحلته (هجرته) وحيداً وسائراً على قدميه رحلة بطولية. وعندما وصل على أخيراً إلى واحة يثرب لم يطبق عليه النبى نظام المؤاخاة Pairing system الذى كان النبى يطبقه على المهاجرين المكّيين (اللاجئين) المفْلسين بأن يُوكل كلّ واحد منهم إلى واحد من أهل المدينة ليستضيفه ويرعاه فى البيئة الزراعية المدينية المختلفة جداً عن بيئة مكّة.** وفى بعض الحالات كان نظام المؤاخاة هذا pairing وكأنه حُلم: فهناك مسلم مخلص من أهل المدينة هو سعد بن الربيع عرض على خَويِّه (أخيه فى الإسلام أو أخيه على وفق نظام المؤاخاه بين المهاجرين والأنصار الذى وضعه النبى) المكّى نصف ثروته، بل وحتى إحدى زوجتيه. وفى هذه الحالة رفض المكّى المهاجر بأدب هذا العرض. وبدلاً من هذا طلب هذا المهاجر (عبد الرحمن بن عوف) من مُضيِّفه أن يدلّه على مكان السوق، فقد كان تاجرًا قرشيًا فتوقع أن يكسب باستخدام مواهبه التجارية، ما يتعيّش منه، وقد حدث هذا بالفعل ففى نهاية يوم قضاه فى السوق عاد إلى مُضيفهِ حاملاً قربة (وعاء جلديًا) مليئة بالسّمن والجبن أهداها إلى مضيّفه المدينى (الأنصارى).

واهتم رجال المدينة اهتمامًا شديدًا وراحوا يتطلّعون إلى من يختاره النبى ليؤاخيه (أى من منهم سيكون مسئولاً عن إطعام النبى وتدبير سائر أمره)؛ لكن النبى لم يرغب فى أن يصطفى أحدًا من أهل المدينة على حساب الآخرين أو لم يرغب فى أن يُفاقم المنافسة العشائرية الضارية والتى كانت موجودة بالفعل، لذا فقد اختار ابن عمه عَليًا - الذى وصل إلى المدينة متأخرًا ليكون أخاه his official "pair" (بالمعنى المذكور آنفًا). والنبى - بقراره هذا - **قد وضع نفسه ومعه ابن عمه على فى ظرف اقتصادى خالٍ من المزايا، فلم يكن لهما من يزودهما بالتمور والشعير. لقد اختارا الفقر باعتباره جزءاً ضرورياً لنضالهما من أجل الحرية الدينية. وراح على يعمل ليكسب خبزه اليومى عند فوّهات الآبار يسحب قِرَب المياه مقابل التمر، وهو عمل كان يقع على عاتق دواب التحميل أو العبيد. وكان على فخوراً بأن يعود إلى محمد ليُشركه فى أجره وليتناولا وجبة المساء معاً. وكان على يشترى من السوق أيضاً أَسَلاً (سمّارًا) لينسج منه حُصْرًا (حصيراً) يبيعها بربح يسير. وكان على هو أهم عامل (شغّال) فى بناء بيت النبى ومسجده (المسجد النبوى).** هذا المبنى المتواضع الذى يُعتقد أنه بلغ خمسين ياردة

مربّعة وقد شارك فى بنائه كل من المهاجرين والأنصار الذين عملوا جنبًا إلى جنب. وهناك حكايات (روايات) لا تزال تتردّد مؤدّاها أنّ عَلِيًا هو الذى حفر أساسات الجدران وبعد ذلك عمل بنّاء مساعدًا يحمل الطوب الطينى ويقدمه للبنائين المهرة (المحترفين)، وكان المسلمون يغنون وهم يعملون «اللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة». وقد ألَّف على أبياتًا شعرية أخرى ليُتغنى بها تحمل المعانى الآتية: من يبنى مسجدًا ويعمل جالسًا أو واقفًا متناسيًا الآلام التى يسبّبها العمل، بينما آخرون ينبذون العمل خوفًا على أنفسهم من التراب والتَّعب.. هاتان الفئتان لا تتساويان»، إنه شاهد قوى يبين **كيف أن عَلِيًا سرعان ما أصبح مناصرًا لحقوق العمّال ومؤمنًا مخلصًا، فى مواجهة الذين تحولّوا للإسلام بنصف قلب وهم الذين «خافوا التراب والتَّعب»**.

لم يكن لدى على مثل هذه المخاوف، **فقد كان يأكل من عرق جبينه**، وسُرعان ما اعتُرف به أيضًا كواحد من المقاتلين المهمين بين المسلمين.. وبعد الانتهاء من بناء المسجد وبيت النبى تمّ اختياره مع الزّبير بن العوّام (هو أيضًا من بين المسلمين الأوائل) كى يراقبوا الطرق الصحراوية التى قد تطرقها قافلة قرشيّة كبيرة وهى عائدة من الشام إلى مكة هذا الربيع (سنة ٦٢٤)، فلما علما أن هذه القافلة الكبيرة ستمر عند بئر بدر، أسرعا عائدَيْن إلى المدينة. وقرَّر المسلمون، بعد اجتماع عاجل، أن يحاولوا اعتراضها، ذلك لأنّ النبى كان يعلم أنه إذا تم الاستيلاء على قافلتهم الثرية العامرة بالبضائع، لأصبح صوْت دعوته مسموعًا ولأصبحت دعوته للسلام محلَّ اعتبار من سادة مكة الوثنيين الفخورين (بقوتهم). كانت المودَّة والأُلفة اللتان سادتا فى هذه الأيام الأولى للإسلام قد تجلَّت فى عدد المسلمين الذين انضموا للجيش – ٣١٣ لا أكثر، منهم عدد قليل من راكبى الجمال. وعندما تم تنظيم صفوف المقاتلين المسلمين كان ضمن الأبطال الثلاثة الذين تقدّموا للمنازلة الفردية (مقاتل مسلم فى مواجهة مقاتل مكىّ) عَلِىٌّ وعمّه حمزة. وكأبطال هوميروس Homeric heroes تقدّما ليتلاحما مع اثنين من الأعداء قبل أن تبدأ المعركة الشاملة (العامة) The General melee. لقد شهد هذا اليوم الأخ يحارب أخاه. ليس هناك أى مبالغة أو أى تعبير بلاغى فى هذا، فقد كان أَخَوا على، الأكبر منه سنًا وهما طالب وعقيل، يحاربان بالفعل فى صفوف الوثنيين القرشيّين ضد المسلمين. وتم التعرّف ـ بعد ذلك ـ على جثة الأول (طالب) بين القتلى السبعين فى هذا اليوم، بينما كان الثانى (عقيل) من بين الأسرى إلاّ أنه تمّ افتداؤه بعد ذلك (إطلاق

سراحه مقابل فدية)، وعندما تم توزيع الغنائم كان نصيب على جملاً وسيفًا ودرعًا ثمينًا. كما حقق على أيضًا شهرة عظيمة باعتباره رجل سيف وحيّاه النبى علنًا بقوله: إنه حيدر، خرّار، أى أسد يُعاود الحربَ دومًا. لقد كان هذا أوّل أختبار قتالى له، ولا بد أنه فى الفترة الماضية تعلّم جيدًا فن القتال وداوم على التدريب.

وشعر على ـ الآن ـ بثقة تكفى لأن يبوح بعواطفه العميقة التى كتمها طوال حياته أى حبّه لفاطمة أصغر بنات محمد النبى، والتى كان ـ أى على ـ يعاملها كأخت له. وفى هذه الحالة، كما فى حالات أخرى كثيرة، نجد أنّ حياة على سارت ـ بدون وعى منه ـ على نسق حياة محمد الذى سبق له أن أحب ابنة عمه فاختة، إلا أنه ـ أى محمد ـ كان فقيرًا فقرًا يجعله لا يطلب يدها. وكانت والدة على هى سفيرته إلى محمد النبى، ويالها من مهمة سامية دقيقة التى وقعت على كاهل هذه السفيرة، لأن النبى كان قد رفض بالفعل طلب أبى بكر وعمر للاقتران بابنته فاطمة. وقد استشار النبىُّ فاطمة وأخذ رأيها فى طلب علىٍّ ليدها. وكان النبى ـ غالبًا ـ يعرف رأى ابنته قبل أن تجيب. لقد أجابت بغضّ طرفها وصمتها. ولم تكن فاطمة كأخواتها الأخريات الأكبر سنًا. فمنذ طفولتها كانت مرتبطة ارتباطًا كاملاً بتعاليم والدها الروحيّة. ولم يكن هناك مسلم آخر فى مثل عمرها، قد فهم اندماجها الكامل فى الإسلام، سوى ابن عمها الشاب الذى نشأ فى بيتها (على بن أبى طالب)، وقد شارك على ـ أيضًا ـ فاطمة فى حبها لأمّها خديجة التى كانت هى الرابطة بينهما (بين على وفاطمة)، خاصة بعد أن اتخذ النبىّ زوجات أخريات بعد موت خديجة.

ما زال على ـ حتى الآن ـ بلا مال، فليس لديه ما يقدمه مهرًا، وليس لديه ما يقدم به هدايا الزواج من حلى وغير ذلك ولا حتى كان لديه تكاليف الزواج. ولحسن الحظ، فإن الأمير التاجر عثمان بن عفان تقدم فى هذه اللحظة عارضًا شراء درِّع على الذى كان من نصيبه من غنائم غزوة بدر، بثمن كبير إذ أصرَّ على أن يدفع مقابله ٥٠٠ درهم، فقدم على ٤٠٠ درهم مهرًا لفاطمة وأبقى مائة درهم لسائر المصروفات. وفى وقت لاحق أعاد عثمان الدرع لعلى هدية منه بمناسبة إتمام الزواج، لكن عليًا أُحرج بسبب هذا الكرم الفائق ورفض قبول هذه الهدية رغم أن عثمان (وهو أيضًا مثل على من المسلمين الأوائل وأصبح الآن عديله) أصر بصبر وحثّه باسم الله لقبوله. بعد أن شرحَ له عثمان أنه رجل تاجر وبقاء الدرع فى بيته (أى بيت عثمان) لا يُجدى، بينما وجوده

فى بيت على (المقاتل) سيكون ذا فائدة كبيرة للقضية التى تهم كليهما (الدفاع عن الإسلام).

لقد عقد النبى هذا الزواج بنفسه، وألقى عظة قصيرة ودعا لهما «اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى نسلهما» وذكر النبى بعد أن حمد الله وأثنى عليه، أنّه زوّج عليًا من فاطمة بعد أن أمهرها أربعمائة قطعة من الفضة، ودعا النبى أن تكون ذرية على من فاطمة منجم حكمة ومصدرًا لبركة الله.

ولم يكن لعلى وفاطمة نصيب كبير من هذه الدنيا، فقد ظلّ على يعمل أجيرًا بينما كانت فاطمة تطحن الشعير فى الرّحا اليدوية ليأكل كل قاطنى البيت. ولم يكن لديهما وقت كافٍ فى النهار لغسل ملابسهما بانتظام أو لجمع ما يجعل نيران التدفئة مستمرة. لقد بدا الفقر حتى على سريرهما، فلم يكن غطاء على المحارب يكفيه لقصَره فكان عليه أن يختار ما بين كشْف ساقيه أو كشف رأسه وكتفيه. أما فاطمة التى كانت لا بد أنّ طفولتها فى مكة مليئة بما هو مريح فى بيت قرشى ثرى، أصبحت الآن تذهب إلى مخدعها بكتفين مرهقتين. جرّاء حمل قِرَب الماء ويدين مقرّحتين من جرّاء تَدْوير الرَّحاء (جمع : رَحًى). وعندما طلبت من أبيها العوْن قدّم ما هو أغلى وأثمن: المزيد من الصلوات والدعوات.

إنّ خديجة وفاطمة هما المثل الأعلى للمرأة المسلمة، فالمسلمون السُّنة والمسلمون الشيعة، على سواء، يستهلمون منهما نموذج المرأة القريبة من الكمال. واسم فاطمة كان دائمًا الاسم الأكثر شيوعًا بين نساء العالم الإسلامى. وفى وقت لاحق، أرادوا أن يفترضوا للاسم أصلاً لغويًا سابقًا على الإسلام، فقالوا إن «فاطمة اسم مشتق من الفعل فطم (ف ط م) بمعنى تدريب الطفل على التخلِّى عن الرضاعة. واعتُبر هذا معجزة أو أمرًا لا يخلو من دلالة portent فنموذج فاطمة أو فاطمة المَثَل الأعلى، يساعد الناس على فَطْم أنفسهم بابتعادهم عن المادّيات فى هذه الدنيا ليتطلّعوا إلى الاهتمام بالعالم الآخر. وبدا التشريف والتوقير الشديدان، اللذان حظيت بهما ـ فى وقت من الأوقات ـ غير ملائميْن لعقيدة التوحيد الخالصة. وقد سُمّيت جامعة الأزهر وهى الجامعة الإسلامية الأكثر احترامًا، باسم مرتبط بها in her honour (الجامع الأزهر، وفاطمة الزهراء). ولقد أطلقت عليها عدة أسماء أو صفات، مثل : المباركة والزكيّة، والصدِّيقة، والرَّاضية، والمحدّثة، والزهراء، والطاهرة. إنه لمن السَّهل أن نرى

كيف أنَّ توقير (أو عبادة Cult) فاطمة، غالبًا ما يمكن مقارنته بتوقير (أو عبادة Cult) العذراء مريم، فهناك تشابه كثير بين الشخصيتين؛ ففاطمة ابنة أم موقّرة، وكذلك مريم العذراء (خديجة أم فاطمة وآنى Anne أم مريم)، وفاطمة ومريم أنجبت كل منهما طفلاً جميلاً كان مُعدًا لموت بطولى ينطوى على التضحية (الحسين والمسيح)، بينما أفلت الابن الآخر من القتل ليعيش ويُنجب أطفالاً (الحسن والقديس يعقوب James)(★).

لقد جرى تذكّر شجاعة على وبسالته فى غزوة بدر، فعندما أراد النبى أن يعزل عشيرة بنى قينقاع (إحدى ثلاث عشائر يهودية ثرية داخل واحة المدينة، وقد حقق بنو قينقاع شهرة فى صناعة المعادن) اختار عليًا لقيادة عملية الحصار. وكانت العملية تقتضى سرعة وعدم إراقة دماء مع ضرورة الفاعلية نظرًا لدور النبى محمد الذى حدده اتفاق العقبة، وهو أن يكون حَكَمًا داخل مجتمع الواحة (المدينة). لقد وضع على الشاب حصون بنى قينقاع تحت حصار محكم حتى إنهم وجدوا أنفسهم بعد أربعة عشر يومًا، مجبرين على الخضوع لشروط فكّ الحصار. لقد كان إنجازًا تكتيكيًا له أثره، كان يتطلّب نظامًا وقدرة إدارية، فرغم أن عليًا كان على رأس بعض الأنصار، فإنَّه ـ فى الأساس ـ قد أسقط إحدى أكثر العشائر قوة، وقد استعان على بقوة جيدة من اللاجئين (المهاجرين) كانوا قد قضوا فى الواحة (المدينة) ثلاث سنوات واكتسبوا خبرة فى شئونها. وبعد طرد بنى قينقاع تم توزيع أراضيهم المصادَرة على اللاجئين (المهاجرين) المفلسين فأصبحوا ـ أخيرًا ـ أصحاب حدائق وبساتين نخيل وأصبحوا من الآن فصاعدًا أقل اعتمادًا على مُضيّفيهم المسلمين من أهل المدينة.

ولم يكنْ على فى أى وقت من الأوقات عالةً على هؤلاء المضيّفين، ولا بد أنه ابتهج الآن لأنه أصبح قادرًا على نزح الماء ليروى بستانه هو، لا أن يعمل أجيرًا لرى بساتين الآخرين. وحان الآن وقت الطعام الجيد والأمان، فقد حملت فاطمة وأنجبت وليدها الأول؛ الحسن فى سنة ٦٢٥ والحسين بعد ذلك بعام ثم بنتين، هما: زينب وأم كلثوم. والحسن والحسين هما الرجلان الوحيدان من نسل محمد. وفى مجتمع شبه الجزيرة العربية التقليدى لا بد أن يزيد هذا النسل زيادة هائلة من التقدير الذى يحظى به والداهما، مع أن هذا التقدير (التبجيل) كان قائمًا بالفعل، ورغم أن زوجات النبى

(★) أحيانًا يكون هناك ما يقرب من الالتحام بين الشخصين: فعند ضريح سيدتنا our lady، فاتيما Fatima فى البرتغال الكاثوليكية التى تضم جوانب كثيرة من ماضى التراث الإسلامى ـ نجد لَن المرأة المقدسة أو الإلهية Divine Female ترتبط بنبوءات للرعاة عندما يتلبّسهم الرعب .

محمد اللاّئى لم يُنجبن كن يشاركن فى الفرح بهؤلاء المواليد الجدد لأنهم من سلالة النبى الذى يحبّونه، إلاّ أنه من الطبيعى أن يكون لديهم شىء من الغَيْرة الداخلية (الكامنة فى أعماق نفوسهن). **لقد كان ولدا فاطمة شوكة طوّرت العداوة بين عائشة وعلى.**

وفى غزوة أُحد التى أسفرت عن هزيمة المسلمين أمام وثنيّى مكة فى سنة ٦٢٥، لم يكن هناك ما يشين عليًا ولم يكن هناك لوم يمكن أن يُوجَّه إلى شَخْصه. فمرّة أخرى تمّ اختياره واحدًا من أبطال المسلمين الثلاثة الذين اشتبكوا مع مقاتلى الأعداء (اشتباكات فردية: مقاتل مسلم يقاتل أو يبارز مقاتلاً وثنيًا) قبل بدء المعركة الشاملة. لقد وقف علىٌّ صامدًا بينما انكسرت صفوف كثيرين من رفاقه عندما أجتاحهم فرسان قريش. لقد كان هذا يعنى حقًا أنه أصبح حاملاً للراية التى تَحلّق حولها المدافعون الجَسُورون. وإذا كنا نصدّق أن داود وشاول David & Saul قتلا الآلاف وعشرات الآلاف فى مثل هذا الموقف، فلنصدّق أن عليًا ـ وحده ـ على وفق مرويات متأخرة زمنًا، ذبح بمفرده، فى هذا اليوم مائتين من الأعداء، والأكثر إثارة من هذه الإحصاءات المبالغ فيها جدًا، هو الزعم بأن الممرِّضتين اللتين كانتا فى بيت النبى (أم سالم وأم عطية) لم تجسرا على تضميد الجروح البالغ عددها ثلاثًا وستين جرحًا والتى أُصيب بها على فى نهاية هذا اليوم (يوم غزوة أُحُد). بعد المعركة عاد النبىّ عليًا، وبينما كانت جروحه تُنظَّف سأل من بين أسنانه التى تصرّ من الألم: منحنى الله الصبر لتحمل هذه المعاناة لأنها حقًا فضل من الله أن وهبنى الشجاعة أن أصمد وأن أحارب رغمًا عنها (أى رغم هذه الجروح) وألاّ أترك ميدان المعركة، وأمَّن النبى على كلامه، وأطلق عليه لقب «أسد الله»، بينما راح أهل المدينة يتغنّون فى شوارعها:

لا فتًى إلاّ على

ولا سيفَ إلاّ سيف على

«لا سيف أفضل من سيف على، ولا فتًى أفضل من على».

وخلال حصار المدينة فى سنة ٦٢٧ من قِبَل تحالف مكّى مع القبائل البدوية الوثنية، لعب على ـ مرة أخرى ـ دورًا عسكريًا. لقد كان أحد المسئولين عن حفر خندق دفاعى، وبعد ذلك أصبح مسئولاً عن الإشراف على قدراته الدفاعية. وخلال هذا الحصار التجريبى ذى الدلالة المعنوية Mcrale-testing seige ، ظلّت قوات المسلمين ـ تكتيكيًا ـ

فى مواقف دفاعيّة. ولم يكن الحال هكذا بعد ذلك. فآخر من تبقى فى المدينة من اليهود (والذين كانوا على اتصال بالمحاصِرين، رغم أنهم لم ينضموا إليهم ليقاتلوا معهم)، أصبحوا الآن تحت حصار قوّات المسلمين. وتذكر الروايات أنّ عليًا هو الذى وجّه قوّة الحصار، فاستسلم المحاصَرون (بفتح الصاد) بعد خمسة وعشرين يومًا، وإن كان هذا فيما يبدو قد سبقه هجوم ناجح فى منتصف الليل ضد أحد آطامهم (حصونهم). لقد أصبح بنو قريظة الآن بدون وسائل دفاعية، فلا هم فاوضوا ولا هم قاتلوا، فصدر ضدهم الحُكم القاسى harsh الذى أصدره سعد بن معاذ (أحد زعماء العشائر فى المدينة والذى كان حليفًا لهم منذ القدم)، وكان هذا بتدبير من على. فقد كان علىّ والزبير بن العوّام (وهو أحد المسلمين الأوائل وسنسْمع عنه الكثير بعد ذلك) هما اللذان أشرفا على أسْر واسترقاق ٦٠٠ من النساء والأطفال، وهما اللذان رتَّبا أمر إعدام كل رجال بنى قريظة ـ إذ تمّ قطع رقاب حوالى مائتى رجل هذه الليلة، وتمَّ وضع جثثهم فى حفر سبق حفرها فى موضع سوقهم. ودبّر على والزبير أن يُقتل اثنان على الأقل من بنى قريظة على يد رجال عشائر المدينة الكبيرة والصغيرة؛ حتى تكون الواحة (المدينة) كلها قد شاركت فى إثم دمائهم (دماء بنى قريظة). ولا بُدّ أن هذه الليلة كانت اختبارًا لصدق العزيمة حتى بالنسبة للراسخ إيمانهم، رغم أن هؤلاء المسلمين قليلى العدد قد ربحوا من مصادرة ممتلكات اليهود وتوزيعها. ربما حصلت ـ أخيرًا ـ فاطمة على خادمة تساعدها فى عملها وفى رعاية الحسين، بعد تدمير بنى قريظة والاستيلاء على أموالهم. ولم تكن العادة القرشية القديمة بإرسال الأبناء إلى بدو الصحراء لرعايتهم، ممكنة الآن، فى ظل ظروف الحرب.

وخلال فترة السنوات الثمانى ، من ٦٢٢ إلى ٦٣٠ استمرت الغارات والغارات المضادّة بين واحة المدينة والعالم المحيط بها. ولا يبدو أن عليًا قام بدور كبير فى هذه الفترة. فالنبى هو الذى قاد بنفسه كثيرًا من الغزوات ووزّع القيادة على صحابته المقرَّبين. وقد أُوثر زيد أكثر من أىّ رجل آخر وكان زيد خارج إطار النظام القُرشى، ولم يكن له أن يرسو على طموح سياسى، أو بتعبير آخر لم يكن ممكنًا له أن يطمح طموحًا سياسيًا. فحقيقة الأمر أنّ وضعه كعتيق لمحمد النبى ex-slave كان وضعًا فى غير صالحه، من وجهة نظر بدو الصحراء (رغم أنّ النبى قد تبنَّى زيدًا بعد أن أعتقه) (كان زيد قد نشأ بين خيام قبيلة كلب فى مناطق سوريا الشمالية، وأسرته جماعة مغيرة من بنى قيْن Qayn وباعته فى مزاد فى سوق عكاظ بمكّة. ودخل بيت النبى كعبد فى

الخامسة عشرة من عمره هدية من محمد لزوجته خديجة). وكان زيد محلَّ ثقة النبى وزادت هذه الثقة بمرور الوقت، وعمد محمد نفسه إلى تدريب زيد عندما كانا يعملان معًا فى تجارة القوافل. ولم أجد فى المراجع ما يشير للمشاعر التى كان يكنُّها على لزيد، وزيد لعلى، رغم أنهما نشآ معًا فى بيت محمد الذى أحبّاه كسيّد وكأب تبنّاهما قبل أن يزيد حبهما له وتوقيرهما إياه بعد أن أصبح هو رسول الله.. وربما كانت الفروق بينهما فى السّن وخبرة زيد الأكبر فى أمور تجارة القوافل والإدارة، قد جرت موازنتها بمعرفة على القراءة والكتابة، وبراعته فى الشِّعر والخَطَابة والحديث الفصيح وجسارته كرجل سيف. وبينما كان على الشاب متحمسًا شديد الحماسة، كان زيد هو الأكثر حذرًا يفكر بعقل الأخ الأكبر سنًا. وكان زيد بحكم الضرورة متحفّظًا ليحمى نفسه من التلميح بأنه كان عبدًا فى فترة من الفترات قبل أن يتبنّاه محمد، لذا فقد كان يتكلّم بهدوء خاصة إذا قورن بالبدو سريعى الاهتياج الذين هم تحت إمرته. وكان أيضًا شخصًا يُعوّل عليه كما كان ذا تخطيط محكم. وقد يسأل المرء نفسه ماذا كان يمكن أن يحدث إذا لم يكن زيد قد قُتل فى معركة مؤتة قبل وفاة النبى بوقت غير طويل. لأنه إذا وقف «الأخوَان» زيد وعلى متلاحمين كتف أحدهما إزاء كتف الآخر، لصعب علينا أن نتصوّر أن يقف أى إنسان مطالبًا بالخلافة ناهيك عن أبى بكر وعمر.. (لو حدث هذا لما عرف الإسلام هذا الانشقاق بين سُنة وشيعة).. وحتى عائشة الفَخُور بأن أباها أصبح أول خليفة فى الإسلام، فكرت بهذه الطريقة لأنّها صرّحت بأنه لم يحدث أبدًا أن ضمَّ النبى عليه الصلاة والسلام زيدًا فى أى جيش متوجّه لخوض معركة.. (ولو كان زيد حيًا وقت وفاة النبى لاستخلفه (اختاره ليكون خليفة من بعده). ويبدو أنّ عمر بن الخطاب يتفق مع هذا الرأى لأنّه شرح لابنه بأمانة، بعد موت النبى بفترة ـ أن النبى كان يحب أسامة أكثر مما كان يحبه، وأن النبى كان يحب أبا أسامة (زيدًا) أكثر مما كان يحب أباه (أى عمر ابن الخطاب).

لكن لنعُدْ إلى الأحداث المعروفة، تاركين الاستنتاج: كان علىٌّ محل ثقة النبى فولاّه القيادة وحده (متفرِّدًا بها) فى سنة ٦٢٧: لكنه فى العام نفسه أوكل إلى زيد سبع بعثات Commissions. وفى شهور الشتاء، قاد على قوّة قوامها حوالى مائة مقاتل راكب خارج واحة المدينة، ولم تغادر هذه القوة المدينة بهدوء أو بشكل سرّى، وإنما غادرت بشكل

احتفالى تحت ستار أنها خارجة لحماية قافلة تجارة. وما إن توارت عن الأنظار حتى اندفعت شمالاً فى اتجاه فَدَك، وكانت مضطرة للمسير ليلاً.

ولم يكن هدفها هو الإغارة على هذه الواحة (فَدَك - التى سيتم فتحها فى العام التالى)، وإنما كسب حياد القبائل البدوية التى تقطن هذا الجزء من الصحراء. وما إن أسروا واحدًا من رجال قبيلة بنى سعد حتى استخدمه على ليقودهم إلى المضارب التى تضرب فيها هذه القبائل خيامها، فتمت الإغارة على بنى سعد وهم غير مستعدين، وبعد ذلك أبدى الشيوخ القبليون اعتراضهم على الإسلام، فساق على مائة جمل وألفين من الماعز فى طريق عودته للمدينة، وتم تسليم النبى خُمْسها واقتسم المقاتلون المشاركون فى الحملة ما تبقّى. ويشار إلى هذه الحملة فى السجل الرسمى لغزوات النبى باسم سريَّة فَدَك.

لا شك أن هذه عملية ناجحة لكنها ليست أكثر من حادث عرضى صغير إذا قيس بنضال أكبر. فقد كان قيام النبى بالحج إلى مكة فى هذه الظروف عملاً فروسيًا ينطوى على المجازفة Quixoptic، لقد توجه النبى قاصدًا الحج فى الربيع التالى (ولم يُرَاع أنه سيكون وسط أسلحة الوثنيين المعادين والذين كانوا لا يزالون يحكمون مكّة). لقد صحب محمد معه كثيرًا من صحابته المهمين ذوى المهارات القيادية؛ خاصة أثناء المفاوضات التى مهّدت لصلح الحديبية. لقد أبدى أبو بكر دعمًا بغير حدود، أما عمر فأبدى استعدادًا أكبر للقتال، إلاّ أنه تمّ اختيار عثمان بن عفان باعتباره هو الأكثر دبلوماسية بين جماعة المسلمين. أما على، فمثّل وجهًا آخر يتمشى مع طبيعته فقد عمل سكرتيرًا شخصيًا للنبى، فهو الذى كتب مسوّدة المعاهدة كما أرادها المسلمون، وغيَّر فقرات مختلفة أثناء المفاوضات، وهو الذى كان قريبًا قُربًا كافيًا من تفكير النبى يجعله يفهم أنَّ الاعتراف الضمنى بمسلمى المدينة الذى أبداه فى المعاهدة مشركو مكة، هو فى حد ذاته انتصار للمسلمين (إنه انتصار للسلام وللسياسة الواقعية realpolitik فى آنٍ واحد).

ولم يمر على توقيع صُلح الحديبية سوى شهرين حتى عاد على مرة أخرى لدور بطولى يستحق احتفاءً أكثر، كمقاتل بطل عظيم مدافع عن الإسلام حتى وإن سبقه زيد فى مراتب القيادة. ففى المعركة ضد خيبر اختاره النبى رسميًا ليحمل راية الإسلام (اللواء)، وكانت علمًا كبيرًا جديدًا - النَّسر الذى أُعِد على نمط إحدى عباءات عائشة زوجة النبى المحبوبة. أكان هذا صُدفة واتفاقًا، أم أنه كان محاولة من النبى لإذابة الجليد الذى تراكم بين عائشة وعلى؟!

وظلّ محمد هو القائد الأعلى لهذه الحملة (التجريدة) التى كانت مكونة من ألف وأربعمائة (١٤٠٠) مقاتل فقط، هم الذين سبق أن صحبوه إلى الحديبية. لقد كان فَتْح واحة خيبر لنشر العقيدة، لكنه كان أيضًا بمثابة مكافأة للذين برهنوا على إيمانهم بقيادة النبى. لم تكن هناك معركة عنيفة Set-piece فى واحة خيبر وإنما سلسلة من أعمال الحصار. بعض الحصون واجهت قوات مجتمعة من جيش المسلمين وبعضها الآخر واجه تجريدات أقل عددًا. لقد أبدى حصن؟ al watih وحصن؟ al Sulalim - على نحو خاص دفاعات طيبة وصمدا لعشرة أيام وصدًا بالفعل هجومًا قاده أبو بكر وهجومًا آخر قاده عمر. وعندما جاء دور على وتولّى القيادة كان هجومه هو الذى حسم أمر الحصن لصالح المسلمين، رغم أن عليًا كان يعانى حتى ذلك الوقت من مرض فى عينه. وبعد ذلك بأعوام راح واحد من الجنود المشاركين فى الحصار تحت إمْرة على بن أبى طالب يذكر ما حدث، فقال : لقد ذهبنا مع على عندما أرسله النبى حاملاً علمه (رايته أو لواءه)، وعندما اقترب من الحصن برزت حاميته فحاربهم وفاجأه يهودى فضربه وأسقط درعه فأمسك على بباب (الحصن) واستخدمه درعًا وظل ممسكًا بالباب وهو يحارب حتى كان نصر الله، فألقاه وقد حاولت مع سبعة آخرين أن نرفع الباب فلم نستطع. وهناك بعض الروايات عن يهودى قوى اسمه مرحب خرج من الحصن مُعلنًا بجسارة :

قد علمت خيبر أنّى مرحبٌ

شاكى السلاح بطل مجرّبٌ

أطعن أحيانًا وحينًا أضربُ

إذا اللّيوث أقبلت تَحَرّبُ

إنّ حِماى للحِمَى لا يُقَرَبُ

... وكان رجزه (شعره) هذا قبل أن يَنْحره مقاتل مسلم. لقد أنهى الفتح الناجح لواحة خيبر (واستسلام واحة فدك المجاورة) أيّام الفقر التى عانى منها المسلمون، فلم تكن الغنائم كثيرة جدًا فى الأشياء المادية (بمن فى ذلك عدد كبير من الجوارى) فحسب، وإنما من الآن فصاعدًا أصبح يتعيَّن أن تُرسل الواحتان نصف المحصول إلى المدينة as tribute to Madina وراح النبى يقسِّمه بعناية إلى ١٨٠٠ قسم، قسم لكل واحد من المقاتلين الذين صحبوه فى هذه الحملة وعددهم ١٤٠٠ وقسم (نصيب) زائد

لكل فارس منهم لينفق على فرسه (كان عدد الفرسان ٢٠٠). وبالإضافة لهذا فهناك حقول (مزارع) قد ادُّخرت لأعضاء أسرة النبى وكذلك لعائشة وفاطمة وعلى، فإنتاج واحة فدك التى استسلمت دون حرب، أو بتعبير آخر دون أن تطأها خيول المقاتلين المسلمين ولا ركائبهم أصبحت من نصيب النبى وأسرته (★) الممتدة expanding house hold ، فمن الآن فصاعداً يستطيع على وزوجته فاطمة الحصول على عائد سنوى من أجولة التمور والشعير بحلول الخريف، ويختلف هذا الدخل من عام لآخر على وفق ظروف المحصول ومدى اهتمام المحصِّل (جامع الريع أو الضرائب assessor). بل لقد كان العام التالى، ٦٢٩، عامًا أهم بالنسبة لتحول وضع على، ذلك أنّ جماعة المسلمين قد حولت نفسها بشكل مطَّرد من جماعة تتهيأ دومًا للقتال باعتبارها جماعة من اللاّجئين (المهاجرين Refugees) إلى قوّة صاعدة وسط شبه الجزيرة العربية. فتخلى بعض المقاتلين القادة من وثنيى مكة عن وثنيتهم وانضمامهم للمسلمين لا بد أنه ظهر كأنه توجه انتهازى (★★) من أولئك الذين عانى المسلمون طوال عقود، من الجروح والاضطهاد، على أيديهم. ونعنى بهؤلاء الذين انضموا مؤخرًا للمسلمين رجلاً مثل خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص. كانت المعركة فى هذا الخريف، تعنى توسّعًا طموحًا فى اتجاه الشمال داخل الحدود القديمة لمملكة الغساسنة وانتهت المعركة بالهزيمة. لقد حظى زيد، ابن محمد بالتبنّى، مرة أخرى، بالثقة، فأُوكلت له إمرة الجيش، لكنه قُتل فى هذه المعركة (معركة مؤتة) بعد أن نزف دماء كثيرة من جراء سهام العدو ، فحمل جعفر ابن أبى طالب، الأخ الأكبر لعلى، الراية (اللواء) بدلاً من زيد، وقاتل جعفر حتى هدّته المعركة عندما قفز ليمتطى حصانه الأحمر المشوب بالبياض وأجهده وظل جعفر يقاتل حتى قُتل. ولم يكن على من هؤلاء المقاتلين الذين بلغ عددهم ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) مقاتل الذين كان زيد قد قادهم شمالاً، لذا فقد تولّى القيادة خالد، وهو واحد ممَّن أسلموا مؤخرًا (واحد من بين المسلمين الجُدد)، فكون خالد سمعته بتدبير عودة آمنة لهذا الجيش، ومن ثَمَّ عاد خالد إلى المدينة حتى حيّاه النبى واصفًا إيّاه بأنه (سيف الله).

(★) هذا مما يحتاج إلى تدقيق وتصحيح، فلم يحدث أن انفرد النبى ﷺ وأُسرته دون بقية المسلمين بغنائم كاملة وتوزيعها على بيت الرسول فقط. (المعلق).

(★★) لم يكن إسلام خالد أو عمرو وغيرهما توجهًا انتهازيًا بقدر ما كان اقتناعًا منهم بسلامة الإسلام كعقيدة، وإلا فلم يكن الواحد يقيس مستقبله بمثل هذه المقاييس المادية. (المعلق).

وفى سنة ٦٣٠ عندما قاد النبى جيشه لفتح مكة، كان على هو حامل اللواء ـ لواء الإسلام ـ رغم أنّ هذا كان يعنى أنه لم يكن ليُسأل فى هذا اليوم من قِبَل واحد من القادة الأربعة، أو أن يكون واحدًا منهم. وعندما أتى وقت تطهير الكعبة وإخراج كل الأوثان من جوفها كان على هو الذى حاز شرف أن يكون الصحابى الوحيد الذى شارك النبى فى هذا العمل. وعلى وفق الروايات التقليدية فإن عليًا كان مضطرًا للوقوف على كتف النبى لإزاحة الأوثان عن الأرفف العلوية داخل الكعبة، وبعد أعوام من هذا تذكّر على أنه ـ فى تلك اللحظة ـ كانت لديه القوة للصعود إلى السماوات العُلى. وقد امتدت عملية التطهير من الأوثان (التخلّص من الأصنام) إلى المناطق المحيطة، فراحت جماعات صغيرة من الفرسان المسلمين تحطّم المزارات الوثنية المقدسة الصغيرة حول مكة وفى القرى القريبة منها. وكان خالد بن الوليد، أحد القادة الأربعة فى فتح مكة، هو الوحيد الذى أراق دمًا أثناء عملية الفتح. وأثبت مرّة أخرى أنهّ فعَّال بدقّة وحسم brutally عندما عُهِد إليه بتدمير المزارات الوثنية القديمة لبدو بنى جذيمة، لكنه تجاوز الحد بأن قتل بعض خصومه الذين كان يعاديهم قبل الإسلام حتى بعد أن كانوا قد أعلنوا إسلامهم علانية (رسميًا) وألقوا سلاحهم مستسلمين. ولإصلاح ما أفسده خالد، أرسل النبىُّ عليًا على الفور لدفع الدِّية blood money، ثم أقام بينهم داعيًا (إلى الله) وراح يشرح لهم بصبر التفاصيل العملية للدين الجديد ومعانيه الأعمق. وكان كرم على فائقًا لدرجة أنه عوّضهم عن خسائرهم مهما صغرت، فقد دفع مقابل الوعاء الذى يشرب فيه الكلب، بل ودفع لهم أكثر مما ادّعوه (طالبوا به).

وفى وقت لاحق من فصل (موسم) الحرب هذا، عاد على مرة أخرى للحرب. فى البداية كجندى فى معركة حُنَيْن التى زاد عدد المقاتلين المسلمين فيها زيادة كبيرة لانضمام كل المسلين الجُدد الذين تحولوا للإسلام بعد فتح مكة، ورغم كثرة عدد جيش المسلمين فى هذه المعركة، فقد كاد يُهزم هزيمة ماحقة بسبب هجوم بدوى مفاجئ. وبعد ذلك شارك على فى حصار الطائف تلك المدينة المحصّنة ذات الأسوار، التى دافع عنها أهلها ـ بعكس خيبر ـ دفاعًا جيدًا. لقد كان لدى أهل الطائف آلات يمكنهم بها إطلاق قذائف حديدية ساخنة على مهاجميهم كما كان لديهم رُماة مدرَّبون، لذا فقد كان لا بد أن يفكّ المسلمون حصارهم بعد أن وهن عزمهم بسبب عدد القتلى والجرحى بين صفوفهم. ورغم هذا التراجع فسرعان ما اتضح جليًا أنَّ واحة المدينة أصبحت الآن عاصمة لدولة وسط شبه الجزيرة العربية، وهى دولة دائمة الاتساع، فأتتها الوفود إثْر

الوفود من القبائل والممالك العربية لعقد اتفاقات سلام مع النبى. لقد كان وقتًا فعّالاً بشكل غير عادى، إذ خُصّص الصحابة المقربون للنبى لتعليم ممثلى القبائل هؤلاء، الإسلامَ. وكان أفراد أحد هذه الوفود (أو السفارات) قد اتخذوا زينتهم المبالغ فيها من حُلى ذهبية فائقة الجمال وارتدوا أثوابًا حريرية فاخرة، ومع هذا فلم يُحيهم النبى تحيّة فيها حفاوة وتكريم، فأشفق عليهم على (كان الوفد من الأسرة الحاكمة لكِندة) وشرح لهم أنّ النبى يربط ما بين مثل هذه الثروة المبالغ فيها والزينات المبهرجة من ناحية وسلطان الشيطان من ناحية أخرى، لأنه يُغوى (يفتن) ويحث بها على الحسد والبغضاء والجشع والخلاف (النزاع)، وفى اليوم التالى عاد أعضاء الوفد وقد ارتدوا أثوابًا بسيطة من قطن، فاستقبلهم النبى بحفاوة وعرض عليهم الجلوس إلى جواره.

وواظب النبى على تكتيكاته بإرسال من يشن غارات هدفها الدعوة missionary raids على القبائل الوثنية ليُسمعهم رسالته. ففى سنة ٦٣٠، جُعل علىٌّ على رأس مائة وخمسين فارسًا وصدرت إليه التعليمات بدخول مضارب قبيلة طىء وتحطيم مزاراتهم الوثنية pagan Shrines، وكانت قبيلة طىء لا تزال تنعم بشهرة زعيمها القديم ـ حاتم الطائى. لقد كان حاتم قد حقق شهرة طيبة فى أنحاء شبه الجزيرة العربية لكرمه غير المحدود الذى كان يلاقى به المسافرين، وقد أشاد بذكره النبى باعتباره مسلمًا بالفطرة رغم أنه مات قبل أن يُدرك رسالة محمد. وكان ابن حاتم الآن على رأس قبيلة طىء، لكنه تحاشى مواجهة القوّة المسلحة التى على رأسها على بأن تراجع محتميًا ببلاد الشام البيزنطية، وبذا أصبح علىٌّ قادرًا على جمع أفراد القبيلة وقطعانهم وسار بهم عائدًا إلى المدينة. فقام النبى إكرامًا لذكرى حاتم الطائى الذى كان رجلاً صالحًا بالفطرة رغم أنه لم يُدرك الإسلام ـ بإطلاق سراح كل هؤلاء الأسرى. وقد تملّكت هذه المبادرة الفروسيّة، قلوب أفراد قبيلة طىء وابتهجوا للتشريف الذى حازه زعيمهم طيب الذكر حاتم الطائى، فعادوا للمدينة بعد ذلك بمحض إرادتهم لسماع دعوة محمد.

وفى نهاية هذا العام نفسه ـ ٦٣٠، صمم النبى أن يقود جيشًا لغزو حدود الشام البيزنطية حيث لاقى زيد حتفه قبل ذلك بعام. وكان إعداد هذه القوة يقوم على كل موارد دولة المسلمين التى لم يشتد عودها بعد، حتى إن النبى ناشد أتباعه أن يقدموا ما يلزمها ـ وكان كثيرًا ـ إذ تطلب الأمر تجهيز ـ وإطعام وإعداد ركائب من خيول وجمال ـ لما يزيد على٢٠ ألف مقاتل. وقد ترك النبىّ عليًا فلم يضمه لهذا الجيش الذاهب

للشام، وذلك ليرعى أسرة النبى وأمور بيته، فقال القائلون إنّ النبى ما تركه إلاّ لأنه غير مفيد وأنه عبء وأن محمدًا يريد التخلّص منه، فركب على ـ فورًا ـ حاملاً درعه ذاهبًا إلى سيده (محمد) مقدمًا خدماته. وهذا يبيِّن لنا حساسية على الشديدة الذى كان يحب أن يعلو على هذا اللغو. إلاّ أنّ محمدًا النبى على أية حال قال له: «كذبوا (أى كذب من قال هذا) إنما خلّفتُك لما تركتُ ورائى، فارجع فاخلُفنى فى أهلى (ارْعَ أهلى) وأهلك، أفلا ترضى يا على أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنّه لا نبىّ بعدى». إن المقارنة هنا على عدة مستويات ليس أقلها أنّ موسى لم يكن له ولد بينما كان لهارون سلالة فى كل أنساب بنى إسرائيل، وكانت هذه العبارات تعنى لكثيرين أنّ عليًا قد عُيِّن وريثًا للنبى.

وفى الربيع التالى، تم اختيار أبى بكر ليقود المسلمين فى رحلة الحج السنوية، رغم أن النبى تلقّى وحيًا بعد مغادرة قافلة الحجاج، يفيد ضرورة اشتراك كل حجاج شبه الجزيرة العربية معًا received a revelation which he wanted all the pilgrims of Arabia to sahre. فأوكلت إلى على مهمّة أن يَلْحق بالقافلة (قافلة أبى بكر)، فاستعار ناقة النبى السريعة ولحق بها. وعندما لحق بأبى بكر، سألوه فور وصوله أجاء حاملاً أوامر أم جاء ليحل محلهم Convey them ، فقد جرت عادة الصحابة أن يقبلوا أى تغيير فى أوضاعهم الإدارية القيادية.. من مثل هذه الوقائع يمكن للمرء أن يرى بوضوح أنه ليس هناك نظام رُتبى ثابت بين الصحابة ـ فكلهم رهن إشارة سيدهم (نبيهم) إن أمره بالقيادة قاد، وإن أمره بالإمارة تأمّر وإن أمره بالطاعة أطاع. لقد أجاب على عن سؤالهم بأنه أُمِر أن يقرأ فى سهل منًى (وادى منًى) لجموع الحجّاج ما أوحاه الله لنبيّه بأن الحجّ ممنوع بدءًا من العام القادم على الوثنيين، كما يُمنع ممارسة الطواف حول الكعبة للعرايا، ويُمنع أيضا الطواف حول التلال المقدسة والمزارات لمن تجرّد من ملابسه.

وفى عام لاحق (٦٣١)، عاد مبعوثو محمد حاملين ما يفيد استسلام شعب عُمان وكثيرين من الأمراء وشيوخ القبائل الذين حكموا أودية اليمن وكذلك ممالكها الجبليّة. وبعد أن تأكد النبى من تعاطف الناس معه وتأييدهم إيّاه لم يعد يلجأ للجيوش إلاّ قليلاً، وكان لجوؤه للحرب أقل من ذى قبل، وأصدر التعليمات للدعاة الأوائل بأن يتعاملوا برفق وأن يتركوا الغلظة وأن يبشّروا ولا يُنفّروا. وقال لهم إنهم ذاهبون إلى «أهل كتاب

سيسألونكم عن مفاتيح السموات فقولوا لهم إنه «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له». وقد أرسل خالد على رأس أربعمائة فارس ليضم مدينة نجران اليمنية الشهيرة، وحمل معه أوامر محدّدة هى أن يدعوهم للإسلام ثلاثة أيّام قبل أن يهاجمهم. واتبع خالد تعليمات النبى، وأرسل تقريرًا يفيد أن أهل نجران استسلموا ولم يحاربوا، وأنه ـ أى خالد ـ مقيم معهم ليعلمهم تعاليم الإسلام ونُظم العبادة.

وبعد ذلك بخمسة أشهر، تمّ إرسال علىٍّ على رأس ٥٠٠ جندى ليمر خلال نجران، ومن هناك يتقدم جنوبًا ليدعو قبيلة مذحج إلى الإسلام. وتسكت المصادر عن تفاصيل هذه الحملة سكوتًا مثيرًا إلاّ أنها تؤكد أنها كانت حملة سلمية كالحملتين السّابقتين. وقد تم ملء هذا الفراغ بروايات تقليدية عن سلسلة من المناقشات استمرت ثلاثة أيام حوّل بعدها على أحد القُسس المسيحيين إلى الإسلام ثم حاخام (ربّى Rabbi) يهودى حوّله كذلك للإسلام، بفضل مهارته فى مناصرة المزايا الفائقة للإسلام. وفى نهاية هذه الشهور الأربعة، التى قضاها على فى الدعوة، كان هناك ترتيب مؤدّاه أن يقضى على وقتًا مع النبى الذى سيقود الحجيج إلى مكَّة. وليكون هذا اللقاء فى ميعاده دون تأخير، أسرع على لهذا اللقاء، ووضع على رأس قواته من يشرف عليها. وعندما اقترب جنوده أخيرًا من مكة سارع على فركب دابته ليحييهم ولكنه اندهش عندما وجدهم قد لبسوا حُلَلاً جديدة بيضاء لامعة من تيل اليمن ليبدو منظرهم متميزًا عندما يختلطون بالناس، فغضب على غضبًا شديدًا لأنهم فتحوا لفائف الكَتَّان التى هى من أموال الأعشار tithe، وكان على يشعر بالتشريف والفخر لأنه سيسلمها جميعًا للنبى. لذا، فقد أمر الجند بأن يخلعوا ملابسهم الجديدة هذه وأن يلبسوا ملابس السفر التى كانت عليهم، وغضب الجنود وأبدوا امتعاضهم بأن شكوا بعد ذلك للنبى الذى قال لهم : «أيها الناس، لا تشكوا عليًا، فوالله إنّه لأخْشن فى ذات الله أو فى سبيل الله من أن يُشتكى»، **لقد كان هذا شاهداً على استقامة على، لكن ـ من ناحية أخرى ـ نجده دليلاً على أنه لا يتآلف مع حقائق الحياة السياسية والقيادة العسكرية.**

وكانت حجة سنة ٦٣١ بالنسبة للنبى هى حجة الوداع، وقد صحب معه عددًا كبيرًا من أتباعه الأكثر قربًا إلى نفسه، ومنهم ابنته فاطمة وزوجته عائشة التى كانت قلقة مخافة حلول دورتها الشهرية مما يعوقها عن صحبة النبى فى حجته هذه. وبعد أن أنهى محمد كل شعائر الحج بطريقة واضحة ألقى خطبة لخَّص فيها واجبات المسلم،

وما يجب أن يكون عليه. وبعد تقديم (ذبح) الأضاحي وتوزيع لحومها والتناول منها في الفترة التي حدّدها الشرع، انطلقت قافلة الحج في طريقها الطويل عائدة إلى المدينة. وكانت هذه الرحلة ككُل عبور صحراوي تتخلّلها فترات تتوقف فيها بحكم الضرورة، لكن كان هناك توقف هذه المرة عند منتصف الطريق، حيث صدر أمر بإقامة مضارب على مسافة أطول ليتمكن أفراد القافلة من التجمع معًا متقاربين بعد أن كانوا ممتدين منتشرين لعدّة أميال. في هذا المعسكر (مضارب الخيام) أو في غدير خم حيث أُقيم عنده هذا المعسكر (وهو غدير في وادٍ يحمل الاسم نفسه : وادي خم) تلا النبي واحدة من آخر ما نزل عليه من القرآن بما تتضمنه من إشارة كامنة ذات دلالة : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة، الآية ٦٧).

وبعدها ألقى النبي خطبة (عظة) ليس لدينا لها نصٌّ محددٌ، وإن كان بعضها محفوظًا في عدد من أقواله (أحاديثه)، التي يدور إطارها العام حول ما ورد في حجة الوداع (خطبة في مكة) وما كان يقوله طوال حياته: حث البشر على ألاّ يخافوا سوى الله وألا يثقوا سوى في القرآن، لكنه حذّر أيضًا المسلمين المتجمِّعين من أنهم سيُبتلون في المستقبل بأوقات عصيبة وحروب غير عادلة واتهامات بعقائد زائفة لكن الحق سيفرض نفسه آخيرًا. وتلقّى محمد أيضًا من داخل حسّه الداخلي premonition ما يفيد أن موته صار وشيكًا، وقد صرح النبي عدة تصريحات لصالح علي؛ إذ دعا النبي لعلي بأن يصافي الله من صافاه وأن يعادي من عاداه، ولم يُمنع ترديد هذا القول إلا بتدخل مباشر من عمر.

which was prevented from being made into a clear oath of succession only by the direct intervention of Omar..

وبعض المصادر التاريخية التي تميل لموقف السُنّة لا تشير لهذا الحدث بالمرة، وآخرون ينكرون حدوثه بينما ظل آخرون يفترضون أن محمداً قد وضح أن علياً هو مولى (patron (mawla قرابته الأقربين عشيرة بني هاشم من قريش. وبالنسبة للشيعة فإن هذه اللحظة، لحظة محددة (واضحة) في مسيرة التاريخ. إنها مصدر اعتقادهم أن قوة روحية أو سلطانًا روحيًا هبط حاملاً التعيين الرسمي (نصًا بتعيين علي) وبدأ هذا التعيين عند غدير خم عندما اختار النبي علياً ليخلفه باعتباره الإمام التالي to

succeed him as the next Imam وراح على بمرور الوقت يمد إمامته إلى أولاده، وهم الذكور الوحيدون من نسل محمد الذين عاشوا، وتنتقل الولاية منهم إلى سلالتهم. لقد فعل على هذا لإيجاد زعامة وراثية ثيوقراطية (قائمة على الحكم الدينى) تتضمن أيضًا تعيينًا صريحًا ملزمًا explicit، كما تتضمن تكريسًا رسوليًا apostolic aonintment. وأجيال المستقبل من المسلمين الشيعة رأوا فى هذا الإمام ما هو أكثر بكثير من الزعيم (الرئيس) المنتخب: فهو عمود التوحيد God's Unity.. معصوم من الخطيئة Sin (الذنب) والخطأ error.. وهو الحُجَّة التى لا تُدحض.. وهو وحده الذى وُهِب الحكمة لتفسير القرآن لكل جيل.. وربما يُشبَّه بسفينة نوح من لاذ بها حصل على الخلاص ووصل لبوابة التوبة .

ما حدث أو لم يحدث عند غدير خم مسألة مهمة جدًا، لكنه لم يعد ممكنًا أن نجد لها حلاً كحقيقة تاريخية يقبلها السنة والشيعة، وبدلاً من هذا (الوصول إلى حل تاريخى) أصبحت المسألة إحدى وسائل تمييز السنى عن الشيعى. لقد أصبحت أداة من أدوات الفحص وكأنها ورقة عباد الشمس. لتكتشف أو لتميز السنى عن الشيعى أو الشيعى عن السنى. أما الحقيقة فالله أعلم بها!

وعندما عاد محمد إلى المدينة أصدر أوامره أن يكون أسامة بن زيد ذو الثمانية عشر عامًا على رأس جيش يغير على المناطق الحدودية الصحراوية لفلسطين فى نطاقات البلقاء والداروم Darum ، وكانت هناك همهمات معترضة داخل الجيش لتعيين شاب صغير قائدًا للجيش خاصة وأنهم سيواجهون مرة أخرى عدوًا خارجيًا هزم الجيش العربى المسلم منذ أيام. وربما كان النبى يشكو من هذه الهمهمة المتعضة عندما صلى داعيًا الله عند المقابر «السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى..».

وفى وقت لاحق كانت زيارة النبى للمسجد ـ وهى الزيارة التى كانت الحُمَّى المهلكة قد تملَّكته فيها ـ لحث رجاله على الاستعداد لمعركة فلسطين (بعث أسامة بن زيد)، وكان أسامة ـ فى حقيقة الأمر ـ قد قاد جيشًا وخرج به من المدينة، لكن الجميع اتفقوا على أن تعسكر هذه القوة أدنى الجُرْف Jurf على بعد نصف مرحلة لا أكثر من الواحة، ليروا ما سيفعله الله بمحمد النبى، فقد كانوا يعرفون أنه مريض (مرضًا شديدًا).

وكما سمعنا، فقد كان على موجودًا دائمًا مع النبى أثناء مرضه فى الأيام العشرة الأخيرة من حياته. وعندما كان النبى يفيق، كان العباس ـ ذلك العم الماكر ـ ينتحى بعلى جانبًا ليقول إنه عرف الموت فى وجه النبى كما كان يعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب (أعمام النبى): ليحث عليًا على معرفة ما إذا كان هذا الأمر (السلطة أو الخلافة) ستكون فيهم. لكن عليًا أجاب: «لا والله. لا أفعل. فإنها إن لم تكن فينا (أى الخلافة أو الحكم) ما أعطانا إياها أحد من بعده». «والله إن مُنعناه لا يؤتيناه أحد بعده» وهذه العبارة الرئيسة الجريئة تعكس اللون الحقيقى لشخصية على التى لا تقهر. ومات النبى فى ذلك اليوم فى وقت الظهيرة شديد الحرارة «تُوفّى حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم». وفى رواية عائشة عن الساعات الأخيرة من حياة النبى إشارة إلى وجود رجل آخر فى غرفتها (التى فيها النبى) فى هذا الصباح القدرى (المصيرى) قدم لمحمد النبى ـ عند احتضاره ـ سواكًا. إلا أنها ـ أى عائشة ـ لم تسم هذا الرجل. ويُروى عن عائشة أنها قالت إن النبى مات بين ذراعيها «بين سَحْرى ونحرى». فوضعت رأسه على الوسادة وقامت تضرب صدرها وتلطم وجهها مع النسوة الأخريات «وقمتُ ألتدمُ مع الناس وأضرب وجهى». ومن الواضح أن هذه الرواية لا تنفى حقيقة أن عليًا كان هو أيضًا إلى جوار فراش النبى عندما وافته منيته. وعَلَى وفق ما ذكرته بعض المصادر الشيعية، فإن عليًا عندما أحس بثقل جسد النبى على كتفه (دلالة على وفاته بالفعل) رثاه بجملة يودعه فيها «بأبى أنت وأمى يا رسول الله، طبْت حيًا وميتًا» وأعقب ذلك انبعاث روائح طيبة داخل الغرفة hut لم يشموا أطيب منها قبل ذلك ولا بعد ذلك.

ويتفق المؤرخون من سُنّة وشيعة، على أنّ عليًا والعبّاس هما اللذان تولّيا ترتيبات جنازة الرسول. وطلب على أن يحضر ابن عمّه الفضل (أحد أبناء العباس) لمساعدته وأن تُقبل طلبات أهل المدينة (الأنصار) بأن يسمح لهم بالمشاركة فى هذا التشريف: لأنهم كانوا يصيحون مناشدين عليًا بنصيبهم من رسول الله our share in the Messenger of God (بمعنى اشتراكهم فى إعداده للدفن) وعلى هذا سمح علىٌّ لواحد منهم هو أوس بن خَوْلى بالدخول فحمل إبريقًا مليئًا بماء إحدى الآبار.. ولم يكشف على جسد النبى بعد مماته وإنما راح يغسِّله ـ باحترام ـ بصب الماء فوق ثوب النبى الذى وافته منيّته وهو يلبسه. ولُف جسد النبى فى ثلاث عباءات، واحدة من عمان وأخرى من اليمن وثالثة هى الأكبر من البحرين. وتُرك جسد رسول الله على سرير موته من مغرب يوم الأحد حتى ليل يوم الأربعاء «دُفن رسول الله من وسط الليل ليلة الأربعاء». وكان

القرار بدفن محمد داخل غرفة عائشة أو بجوار فراشه الذى مات عليه، قرارًا لم يُشرح بشكل مُرْضٍ فهو لا يتفق مع كل أعراف العالم القديم الذى يخصص مدينة للأحياء وأخرى للموتى غير بعيدة عن الأولى إلاّ أنها منفصلة تمامًا عنها. وعائشة نفسها كانت تجهل تمامًا ميعاد دفن الرسول، فقد ذكرت أنها لم تعلم أن رسول الله يُدفن إلاّ بعدما سمعت صوت المجاريف (التى تجرف التراب فى وسط الليل).

ويسوق بعض المؤرخين الأدلّة على أنّ عليًا **وأسرته كانوا يقاومون بالفعل تولّى أبى بكر فعمر الخلافة (السلطة السياسية)، وكانوا مُصممين على أن القادة الجُدد (الخلفاء) لا ينبغى السماح لهم أن يستمدّوا شرعيتهم بقيادة الموكب الجنائزى للنبى محمد والصلاة على قبره.**

الصورة ذات طابع سياسى جدًا، بل هى قَصْر على الطابع السياسى. هذا بدلاً من أن نجد ثمار عشرين عامًا من دعوة النبى التى ركّز فيها على قُرْب السّاعة (يوم الحساب)، وعلى ضرب أمثلة من العقاب الإلهى الذى حاق بالناس فى الماضى (نتيجة جشعهم). وكان أتباع محمد يعلمون أيضًا علمًا كافيًا سِيَر الأنبياء السابقين (وكلهم كانوا موضع احترام النبى محمد) مما كان يجب أن يرسو بهم على شاطئ التوقعات الرائعة التى تملأ قلوبهم. إذا كان المسيح قد قام من بين الأموات، أو كما ورد واضحًا فى القرآن ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (آل عمران ، الآية ٥٥)، وإذا كان إلياه Elijah قد دُعى إلى السماء راكبًا مَرْكبه (عربة أو مركاباه)، وأن موسى كان عمره ١٢٠ سنة عندما وافته منيّته.. وأنّ بنى إسرائيل بكوا موسى فى سهول موآب طوال ثلاثين يومًا ـ فإن مسلمين كثيرين لا بد أنهم توقعوا نهاية كارزمية مماثلة لنبيهم محمد.

وهناك أيضًا روايات تفيد أنّ عليًا وطلحة والزبير وصحابة آخرين سهروا إلى جوار جسد النبى لمراقبته.. وهم يتوقعون ـ دون أن يبوحوا بتوقعاتهم ـ بعض التحوّلات الإعجازية بعد اليوم الثالث. وحتّى عمر شارك فى البداية فى هذه الآمال الألفية «المتعلقة بالألف عام السعيدة millenarian »، رغم أنه ـ فى أوّل الأمر ـ ظنّ أن محمدًا كان نائمًا sleeping، وسيقوم من بين الموتى بعد أربعين يومًا. وسواء كان الدفن السريع فى الليل تم بعد أن يئس الصحابة من حدوث معجزة بعد اليوم الثالث (يجب أن نتذكر أيضًا أنّ النبى مات فى عزّ الصيف حيث الحرارة الشديدة فى بلاد العرب). فإننا لا نستطيع أبدًا أن نعرف حقيقة الأمر. وعلى أية حال، فإن هذا يفسّر لنا لماذا تشوّشت

الأحداث بهذا القدر من التشوش، سراعًا بعد وفاة النبى. فبعض المؤمنين كانوا ينتظرون عودة محمد بشحمه ولحمه (ليحكمهم من جديد) بعد ثلاثة أيام أو ثلاثة عشر يومًا أو بعد أربعة عشر يومًا، أى على وفق فترات من موته، اتخذت دلالة باطنية.، وهناك آخرون أصابتهم الصّدمة لتأكدهم تأكدًا لا شك فيه أن نبيهم العظيم قد مات بالفعل. وراح كثيرون يعتقدون وقد تملكهم الخوف أن نهاية العالم (الدنيا) باتت وشيكة. عند هذه النقطة الحرجة (موت النبى) كانت هناك قلّة من المسلمين قادرة على التجمع لاتخاذ قرارات معقولة ورسمية بشأن المستقبل السياسى للجماعة.

هذه الفترة المضطربة اضطرابًا شديدًا تحدد لنا الشوكة الكبيرة الثانية فى الطريق بين المسار التاريخى للسنَّة والشيعة. ففى صلب المعتقد الشيعى أنَّ من حق على أن يكون الوريث الروحى للنبى. والسنة أيضًا يعترفون بهذا لكنهم لا يعتبرون عليًا هو الوارث الوحيد، وإنما مجرد واحد من بين أربعة من المسلمين المخلصين خلفوا النبى ـ الخلفاء الأربعة الراشدون ـ كما هو الحال تقريبًا بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الأنجليكانية، فهما تعترفان بأولوية القديس بطرس (بيتر) لكنهما تنظران للرُّسل apos-tles الآخرين باعتبارهم أعضاء متساوين فى مجمع الكنيسة وليسوا مجرد ممثلين أو وكلاء مطيعين.

وقبل أن نتفحّص قضية الخلافة، تلك القضية الحساسة التى دار حولها نقاش كثير، لا بد أن نتناول بالدرس جيوش شبه الجزيرة العربية التى كانت وراء النمو الهائل للإمبراطورية الإسلامية الأولى. ثم نتناول العلاقة بين النبى وعائشة وزوجاته الأخريات حتى نوسّع من إطار فهمنا لهذه الفترة التاريخية المؤثرة، وكيف ستسهم التفاعلات بين الشخصيتين (الطبيعتين) فى وضع فاصل آخر فى الانفصال القادم Schism (بين السنَّة والشيعة).

تعليقات المترجم

(١) بصرف النظر عن التحليلات الصائبة، فالمفردات التاريخية فى هذا الفصل موجودة فى السيرة النبوية لابن هشام والطبقات الكبرى لابن سعد وتاريخ الطبرى (وكلها من مصادر أهل السنّة)، فيما عدا ما يتعلّق بغدير خم.

الفصل الثالث

الجنود العرب فى القرن السابع

الفتح العربى للشرق الأوسط باسم الإسلام من الحوادث الأكثر حسمًا فى تاريخ منطقة البحر المتوسط وآسيا، ومن الغريب أنه لم يحظ بالدراسة والفهم الكافيين! فلنعد بالذاكرة إلى الوراء للحظة لنتأمل الخرائط التى تبين معارك هنيبعل، والإسكندر الأكبر، ودوق مارلبورو Marlborough وفريدريك الأكبر ونابليون. ولنفكر فى تلك الخطط التى تُظهر تنظيم المقاتلين فى الصباح فى أجينكورت Agincourt على رؤوس شواطئ الدردنيل المجتاحة، وفى كتائب پيكر Picker فى أنتيتام Antietam ، وفى هاستنج وبنوكبرن Bannockburn. إن المعلومات عنها تملأ كتابًا كاملاً. والآن فكِّر فى الفتوح العربية للإمبراطورية الفارسية وللشرق الأوسط البيزنطى، تلك الأحداث التى غيرت تاريخ العالم لتجد - فى معظم الحالات - أن الصفحة خالية blank.

وبدلاً من هذا حاول أن تتخيل جيشًا من الفاتحين العرب. إنها الصور التى تطرأ على العقل بسرعة وفورًا. على قمم الكثبان الرملية ينتظر الفرسان العرب موجة إثر موجة، وعَلَمُهم (رايتهم) الأخضر يرفرف بفعل الريح، متناقضًا مع ملابسهم المتقشفة (الپيوريتانية) وعباءاتهم السوداء التى تتموج فى الهواء بشكل رومانسى وقفاطينهم وعمائمهم البيض. وسيوفهم الحدباء وحيدة الحد المصنوعة من الصلب تعكس أشعة الشمس هنا وهناك بين الحين والحين، والجندى منهم يرفع ركابه كى يجرب المدى الذى يصل إليه سيفه. وتتحرك عيناك إلى أعلى لترى على الذروة صفوفًا من الجمال تبدو من الجانب (صورتها البروفيلية) وكأنها الصقور. وترتفع يد الزعيم (الشيخ) ببطء ثم تنزل فجاة إشارة إلى انقضاض آخر كانقضاض الطيور الكواسر. ذلك أن قوات

الفرسان العربية وراكبى الجمال الصحراوية ينقضُّون على الوديان والأرض المنزرعة وكأنهم موجة من موجات المد، فانتصارهم على ولايات الشرق الأوسط المنهكة كان يبدو مسألة لا مفر منها، أليس من بد أن يطلع الفجر؟! إنها صورة قوية يمكن للمرء أن يجدها فى أفلام كثيرة وفى السجلات التاريخية وفيما لا يُعد ولا يُحصى من الملصقات وفى الرسوم التوضيحية فى الكتب وفى المطبوعات الرخيصة. إن هذه الصورة هى أيضًا خاطئة. خطأ فى التفاصيل، وخطأ لا يمثل الواقع الفعلى ولا جوهر الأمور.. فالقصة الحقيقية أكثر تشويقًا بكثير، رغم أننا نحذرك قائلين إنه كلما نظرت فى التفاصيل أكثر وأكثر قل يقينك بصحة أية إجابات سهلة. **لقد خلص أحد المؤرخين بعد تكريس حياته للبحث، إلى أنه من المستحيل علينا تقريبًا أن نخلص بأية نتائج مؤكدة عن أسباب النجاحات العسكرية للجيوش الإسلامية الأولى**(★) early. **ولا يجب علينا أن نصل إلى هذا المدى (الحد) من الشك الأكاديمى الدائم**؛ إذ إنه من المؤكد أن الفتوح العربية لم تكن أبدًا نتائج سابقة. لقد كانت أمورًا موزونة بدقة بدت فى يوم من الأيام معلقة فى مَهبِّ الريح أو مرتبطة بظروف الأرض أو بمدى تحمل الجنود: لكنها لم تقم على أية حتمية تاريخية historical inevitability.

الأمر كما يفهمه العرب مسألة واضحة تمام الوضوح ولا تحتاج لأى تعليق؛ فأجدادهم الأبطال كانوا يحاربون لله (فى سبيل الله) ومع الله، مع علمهم أنهم إذا ماتوا فازوا بالجنة، وإذا عاشوا فتحوا كل العالم المعروف. هذه الفتوح سُجلت فى وقت لاحق فى عدد من الحوليات والكتب التاريخية بطريقة ملؤها الفخر. هذه الحكايات أساسية لشعور العرب بالفخر. لقد كان هذا هو زمن البطولة فى ذروتها. إنها فترة الشجاعة غير العادية، وكان الكُتَّاب الأوائل مصممين على إضفاء طابع البطولة كاملاً على الفتوح. كان مؤرخو الفتوح الأوائل هؤلاء مهتمين بالأعمال البطولية للأفراد، لا بخطوط الإمدادات وطبيعة مسيرة المعركة، فأعداء المسلمين هم أعداء الله وبالتالى فإنه يجرى تصويرهم بصورة الجبناء والأغبياء والخونة خالين من البطولة... بشكل كامل وبلا استثناء.

ولقد وجد المؤرخون الغربيون أن هذه الحوليات والكتب التاريخية (التراثية) مصادر أقل من أن تكون مرضية ومتناقضة ومن الواضح أنها كُتبت على نمط الحكايات القبلية،

(★) كان هؤلاء المجاهدون على ثقة كاملة بالله وبنصره، ومع ذلك لم تكن هذه الفتوح هى العامل الحاسم فى المعارك وتوسع الإمبراطورية، أو الخلافة الإسلامية، وإنما تعاليم الإسلام نفسها ومبادؤه هى العامل المهم فى انتشار الإسلام وانتصاره. (المعلق).

كما أنها كُتبت بعد وقوع الأحداث التى تصفها بحوالى مائة سنة. فهذه الفترة بالنسبة لأى مؤرخ يحاول إنشاء نسق تاريخى منضبط للأحداث (كرونولوچيا) أو حتى تتابع منتظم لها ـ تعد من الفترات التاريخية المربكة. وأولئك الذين حققوا شهرة أكاديمية عادة ما يتجاوزون هذه الفترة بتناولها تناولاً سريعًا غير لائق، مع أنها فترة دقيقة لكونها ذات أهمية محورية لفهم معنى الهُويَّة كما يدركه العرب. وهى أيضًا حكاية حيوية وإلزامية ولا يُعرف عنها إلا القليل فى الغرب: لذا سأخاطر بإعادة بناء الرواية حيثما التزم باحثون أفضل (منى) الصمت، لكن بادئ ذى بدء، لا بد أن نعيد فحص تصوراتنا عن جيوش العرب الأولى هذه والتى خرجت من الصحراء.

من الخطأ أن نتصور أن الجيوش العربية فى بواكير الإسلام كانت تختلف اختلافًا كبيرًا عن الجيوش الفارسية أو البيزنطية. فالمقاتل العربى كان يستخدم عُدَّة الحرب نفسها التى يستخدمها الجندى الفارسى أو البيزنطى state - of- the art - war gear ونعلم من خلال الأشعار الباقية أن الدرع كان ذا قيمة كبيرة وكان يُتوارث باعتباره شيئًا ثمينًا ذا قيمة، وقد يكون أول جالب له هو أحد الأجداد الذين كانوا يعملون فى جيوش الفرس أو البيزنطيين، وكان يتم توارث هذه الدروع جيلاً بعد جيل. لقد كان الدرع المتوارث كنزًا، وكانت الأسلحة والدروع هى حلية الرجال Jewellery of men، فهى أول ما يحصل عليه الجندى إن كان كيسه ممتلئًا.

وكان الدرع المفضل فى القرن السابع مصنوعًا من صفائح معدنية مخاطة به سترة جلدية طويلة بلا كمين. وهناك أيضًا درع الساق greaves أو وقاء الساق الذى يحمى عظم الساق shins، وهناك أيضًا الخوذة Helmet ويُطلق عليها الجندى العربى اسم البيضة، وهى أيضًا ذات قيمة كبيرة وأفضل الخوذات (البيضات) هى المزودة بحامٍ للأنف، وحتى هذه مكونة من صفائح معدنية مبرشَمة مثبتة بمسامير (أو برشام) أكثر من أن تكون قطعة معدنية واحدة (ونحن نسمع عن الترس العربى من المصادر التاريخية لكن العرب يميلون إلى كتمان المعلومات عن **تروسهم** their shields، وذلك ـ غالبًا لأن استخدامها يدل على الجبن، رغم أنهم إذا ووجهوا بعدد كبير من السهام، تحتم على كل واحد منهم أن يحمل ترسًا. وكانت هذه التروس عبارة عن أسطوانة أو قرص بسيط وخفيف لا يزيد قطره على ياردة، وهو من خشب أو جلد مع وجود قطعة معدنية فى وسطه لإضفاء زينة عليه تجعله محلاً للتفاخر.

والرمح spear كان سلاح حرب حيويًا . فالمشاة المسلحون بالرماح ثبت أنهم - إن كانوا من النوع المصمم - قادرون على مواجهة أى هجوم من الفرسان رغم أن الرماح قد لا تكون فعالة تمام الفاعلية فى مواجهة هجوم من الفرسان الخِفَاف Light Cavalry المزودين **بالأقواس** bow. وهناك ثلاث درجات grades من الرماح:

الرمح الأخف a lighter javelin الذى يُقذف ليصل لأهداف قريبة: ورمح الصيد الأثقل الذى يمكن أن يُستخدم لطعن slash العدو أو قذفه وإصابته، والرمح الذى يبلغ طوله عشرين قدمًا الذى يمكن تحويله إلى حامل لراية الجيش (العَلَم). والأقواس فى هذه الفترة مداها متوسط إلا أن القوس الذى يأخذ شكل حرف S يمكن أن يقتل على بعد ٢٥٠ ياردة، أو بتعبير آخر يمكن أن يصل مداه إلى ٢٥٠ ياردة. **والسهم** Arrow إما عربى وإما فارسى رغم أن الفرق بينهما طفيف. ويكمن هذا الفرق فى تصميم رأس السهم (مقدمته)، ولا نستطيع الآن وصف هذه السهام بدقة لأنها غير موجودة بين أيدينا lost to us.

أما السلاح الذى يحظى بالتقدير الأشد لدى العرب فهو السيف. ونجد الآن أن السيف المعقوف وحيد الحد Scimitar والخنجر المعقوف dagger مترادفان مع العربى (الجنتلمان) حسن الهندام، بمعنى أنه إذا ذُكر هذا العربى ذكر على الفور السيف المعقفوف والخنجر. إلاّ أن هذا الربط ما هو إلاّ ابتداع أتى فى قرون لاحقة. فالسيف الذى استخدمته الجيوش العربية الأولى كان قطعة مستقيمة ذات حدّين قاطعين ومقبض بسيط وعادة ما يُربط بحزام يتدلى من فوق كتف المقاتل، ويكون وراءه أو أمامه سكّين طويلة مغمودة Sheathed مربوطة بحزام إلى الفخذ. **وصدى هذه العادات لايزال قائمًا حتى الآن فى وسط الصحراء الأفريقية الكبرى Sahara**، حيث نجد المقاتل من الطوارق إذا ما أخذ لباسًا كاملاً (اتخذ عدّته) حمل سيفًا عريضًا ورمحًا وربط إلى ساقه نَصلاً أقصر. ولم يضع أبدًا رمزُ السيف، **فما زال قائمًا، فالحكام المسلمون لايزالون يُهادى بعضهم بعضًا بالسيوف المطلية فى الاحتفالات الرسمية**. بينما وجدنا أن العنصر الأساسى فى تتويج أى سلطان عثمانى هو قيام الشيخ بتعليق سيف عثمان على كتف الحاكم الجديد عند أيوب Eyup [١] (المقصود عند قبر أبى أيوب الأنصارى). **وفى وقت لاحق، أصبح ذو الفقار - الاسم الذى أُطلق على سيف النبى وسيف على ذى الحدّين، ذا دلالة باطنية أيقونية (Iconic) فى الإسلام، إذ يُرسم على الأعلام (الألوية)**

المرفوعة فى المعارك، وعلى المراسيم (جمع مرسوم) الملكية محاطا بكتابات جميلة بخط اليد. وفى القرن الأول للإسلام، كانت السيوف الهندية المصقولة والمزخرفة بشكل جيد، والمستوردة عبر سيلان، هى الأعلى قيمةً على الإطلاق. يليها من حيث القيمة تلك السيوف المعروفة باسم المشرفىّ والبَيلمان وهى من صناعة الحدادين فى سوريا (الشام) والسند واليمن. والسيف الجيد منها يمكن أن يصل سعره إلى مائة عُملة ذهبية، بينما السيف الشائع الذى تمتلئ به أسواق مصر أو العراق فيمكن الحصول عليه بأقل من ثلاث عملات ذهبية. وهذا لا يُعتبر سعرًا، فالدينار الذهبى عملة غير سميكة (لا تحول كمية مناسبة من الذهب)، أما قطرها فحوالى سنتيمتر، وكان يساوى حوالى عشرين درهمًا فضيًا (يبلغ وزنه ثلاثة جرامات أما قطره فاثنان من السنتيمترات)، وحتى فى المدن لا يمكن أن يتوقع العامل الماهر أجرًا يزيد على ١/١٢ درهم فى اليوم (جزء من اثنى عشر جزءًا من الدرهم).

إذًا، لم يكن لدى المسلمين أسلحة جديدة، ولا دروعٌ جديدة now new technical equipment **ـ تمكّننا من تفسير نجاحاتهم العسكرية**. فقد كانت كل جيوش الشرق الأوسط تستخدم الأسلحة نفسها والدروع نفسها، **وإذا كان هناك ما يمكن أن يُقال فإنّ المسلمين كانوا أقل تسليحًا من أعدائهم**. وحتى هذا النقص فى التسليح لم يظهر أثره بوضوح كافٍ فى ميادين المعارك. **ذلك لأنّه أثناء المعركتين الحاسمتين الحقيقيتين كان هناك مساعدون (أو معاونون) من الناطقين باللغة العربية فى صفوف الجيوش الفارسية والبيزنطية، كانوا بمثابة عرب فى جيوش المسلمين**، أو بتعبير آخر كان الناطقون بالعربية فى فارس والدولة البيزنطية بمثابة جيش إضافى عمل لصالح جيوش المسلمين (**هذا هو التفكير السائد الآن لمحاولة تفسير الانتصارات العربية**).

ماذا عن صورة الجيوش العربية باعتبارها قوة فرسان سريعة الانتشار؟ هذا يبقى صحيحًا على أحد المستويات: لكن هناك على المستوى الآخر مؤهلات (كفاءات) أخرى يجب وضعها فى الحسبان.

فجيوش المسلمين الأولى كانت **سريعة الحركة جدًا**، وهذا أمر حقيقى، **ولم تكن هناك مشاكل فى خطوط الإمدادات**: لأن جيش المسلمين كان مكونًا كليًا من رجال تحركوا عبر مسافات طويلة. لقد كان يمكنهم الانتقال سريعًا ومعهم معداتهم وإمداداتهم الضرورية من الحبوب millet والدقيق والتمر. **وفى العقود الأولى لم يكن**

المقاتلون يتقاضون أجرًا ولم يكونوا يتوقعون رواتب، ولم يكن الأمر يتطلب تقديم إعانة bouns نقدية in coin قبل المعركة ـ ولم **يكن هذا هو الحال فى جيوش أعدائهم.**

وفى الحروب القبلية الباكرة داخل شبه الجزيرة العربية كانت الجماعة كلها (القبيلة كلها) تخوض الحرب. فنساء القبيلة كن يحضرن المعركة ليطبخن لجمهور المقاتلين وليمرِّضن الجرحى، ولحث المقاتلين ليكونوا شجعانًا ليأتوا بالأعمال القتالية الجسورة، وليحيين المنتصرين بالزغاريد ululations. وليدفنَّ الموتى ولحماية القطعان، بل ليدافعن عند الضرورة عن الخيام (المضارب) بمساعدة كبار السن والصغار. **ولم يكن هذا هو الحال فى جيوش المسلمين.**

فلم يكونوا يحملون هَمَّ الحفاظ على مضاربهم فقد كانوا جميعًا رجالاً أعلنوا إسلامهم، وكانوا قد اجتمعوا قبل القدوم للمعركة فى العاصمة الجديدة (المدينة) وأمَّر عليهم الخليفة نفسه قائدًا (جنرالاً) وبعدها يُرسَل الجيش، وكان يمكن استدعاؤه أو إعادة توجيهه بناء على أوامر الخليفة. وكانت الغنائم تُقسم بين المنتصرين على أن يُرسل خُمْسها للخليفة فى العاصمة (المدينة).

ورغم أن المسافة بين الجبهة والعاصمة (المدينة) طويلة، فإنها لم تكن تستغرق **أكثر من أسبوع** للرسول أو المبعوث المجتهد ليصل من المدينة إلى معسكر جيش المسلمين فى الشام أو العراق. ويبدو أيضًا أنه فى الأعوام الأولى للحرب، قلَّما كان يتم تجنيد كل القبائل البدوية مرة واحدة وإلحاقها بالجيش، رغم أنه كان من الشائع بالنسبة للمقاتلين المقيمين فى مضارب (مجموعة خيام) واحدة وكذلك العشائر أن يتطوعوا معًا ويسيروا معًا ويقاتلوا معًا. كان جيش المسلمين فى العقد الأول للفتوح (السنوات العشر التى تلت وفاة النبى فى سنة ٦٣٧) كان مكونًا من عشائر من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، من اليمن والحجاز وبادية الشام بالإضافة إلى القلب الصلب المكون من مسلمى مكة والمدينة الأسبق فى التحول للإسلام.

فى العقد الأول للحروب لم يكن هناك سجلات لتدوين الجند، ولم يكن هناك محاربون مدرجون فى وحدات (عسكرية) بعينها أو كتائب أو فيالق أو فرق regiments. وبصرف النظر عن القائد العام (الجنرال) والقادة الآخرين، فليس لدينا سجلات بالمقاتلين الآخرين، ويُفترض أن هؤلاء القادة يجرى فرزهم (اختيارهم) أثناء مسير الجيش (حركته فى اتجاه ميدان المعركة) وربما نفترض أيضًا أنه ربما كانت جيوش

العرب الأولى لم تكن فى حاجة إلى ضباط أو رقباء (ضباط نظام Sergeants)، فقد كان كل واحد من المقاتلين يعرف عمله (دوره) ويعرف كيف يحارب. وكانوا جميعًا إخوة فى الإسلام أو إخوة تحت راية الإسلام. من المؤكد أنه حدث مرة ومرة ـ كما ورد فى الروايات عن المعارك ـ أنه مات جنرال (قائد) بعد جنرال أثناء سير القتال. ومع هذا فقد واصل الجيش الحرب من غير اعتبار للعوائق (لما حدث).. ولم يكن هذا الوضع موجودًا فى جيوش أعدائهم، تلك الجيوش المرتبة نظاميًا أو رُتَبيًا (هيراركيكال)، ذلك النظام الذى يمكن أن يصيب الجيش بالشلل عند موت قائده أو بالانكسار لفقدان الاتصال بين رُتَبه.

ولابد أن ثقة قوات المسلمين فى قيادتهم كانت مَزِيَّة كبيرة جدًا فى ظل الفوضى القاتلة (الأنارشية المهلكة) التى كانت تسود التلاحم المباشر (مقاتل إزاء مقاتل). ومن الروايات التى وصلتنا نفهم أن نظام المعركة (مسارها) كان عملية محددة (متفقًا عليها): الفرسان فى المقدمة ووراءهم صف أو صفان من رماة السهام، ثم جموع المقاتلين المشاة مقسَّمين إلى ثلاثة أقسام: الميْسَرة والميمنة والقلب. والجنود المنتشرون لم يكونوا متباعدين تباعدًا لا يتيح للمقاتل رؤية جنراله (قائده). وكان عدد أفراد الجيش ـ فى العادة ـ ٤٠٠٠ : لكن أكبر جيش من جيوش المسلمين قد شهدته معركة اليرموك فى سنة ٦٣٧؛ إذ بلغ ما بين ٢٠ ألف و ٤٠ ألف مقاتل. ولتجميع هذا العدد فى الميدان كان لا بد أن يسحب الخليفة كل العوائق stops ليتم تجميع هذا العدد (الكبير) ـ واستغرق هذا أكثر من ستة شهور.

وهناك أيضًا صورة ذهنية أخرى لا بد أن يكيفها المرء للوصول إلى صورة أصدق عن الغازى العربى وهو جالس على سَرْج فوق سنام جمله (أو ناقته)، إنها صورة قوية أن ينظر الشيخ البدوى الفخور (الشيخ الصحراوى) من مكانه المرتفع فوق سرج فوق سنام جمله. إنه لأمر حقيقى أن للجمل مزايا طبيعية **عند أى اشتباك مع راكبى الخيول؛ لأن الخيول غير المعتادة على الصحراء تمقت بشدة رائحة الجمال**. وكان الجيش البيزنطى قد تعلم هذا منذ قرن خلال كفاحه الطويل ضد القبائل البدوية فى الصحراء الأفريقية الكبرى Sahara. لقد اكتشفوا أن خيولهم لا يمكن إجبارها على مهاجمة سرب من الجمال، أو بتعبير آخر مجموعة جمال مصطفَّة. هذا التكتيك الدفاعى لم يُستخدم أبدًا فى شبه الجزيرة العربية لأن العرب كانوا دائمًا فى حالة هجوم، كما أن خيولهم

العربية عاشت مع الجمال وألفت رائحتها. ومن الغريب أن نتحقق من أن جيوش العرب المسلمين لم تستخدم أبدًا الجمال فى ميدان المعركة. لكن الجمال - رغم هذا - كانت حيوية: حقيقة إنها حيوانات ذات قيمة فائقة لا تقدر بثمن للتحميل، فهى مفيدة تمامًا عند استخدامها للنقل لا للهجوم فهى بمثابة اللوارى (عربات النقل) وحاملات الجنود، لكنها لا تقوم بدور الدبابات أو العربات المدرعة. لقد استُخدمت لنقل الجنود بسرعة لأرض المعركة ولا خوف عليها من طول المسير، وبذا فهى تريح الخيول (تحل محلها) وتعفى الرجال من السير على الأقدام. وفى إحدى القصائد نجد وصفًا لمقاتل وهو يقود فرسه ممسكًا لجامه، وقد سار جمله جنبًا إلى جنب مع الفرس.

وثمة حقيقة أخرى مثيرة يحسُن فهمها وهى أن الجيوش العربية، رغم أنها جيوش راكبة سريعة الحركة لا يمكن اعتبارها - حقيقة - جيوش فرسان على النحو الذى نفهمه الآن عن كتائب الخيَّالة، فقد كانت الجيوش العربية مرنة جدًا، فالقوة المكونة من الفرسان العرب تندفع إلى الجبهة، لكن الفرسان بمجرد وصولهم يترجلون ويتقدمون ليخوضوا المعركة مشاة، وعلى النحو نفسه نجد جندى المشاة يمكنه - فجأة - أن يقفز لينطلق راكبًا. وعلى أية حال، فلابد أن نركز على أن **معارك القرن السابع كانت هى معارك حياة أو موت** بين جنود مشاة يناضلون ضد جنود مشاة (أى أنها فى الأساس معارك مشاة). ويمكن أن تتحول مفارز (مجموعات) من الفرسان إلى الميمنة أو الميسرة إلى أحد جناحَى الجيش (Flanks) لمراقبة scout out تحركات العدو، ولتدافع عن معسكرات المشاة. **لكن الفرسان وحدهم لا يمكنهم تحقيق النصر فى المعارك، أو على الأقل لا يمكنهم تحقيق النصر حتى يترجلوا ويقاتلوا كمشاة** وسلاح الفرسان كما نعرفه لا بد أن يترقب تطور الرِّكاب stirrup، **فهذا التحسين البسيط فى إقرار السرج (جعله مستقرًا غير مهتز) مسألة ثار حولها جدال كبير بين المؤرخين العسكريين**. يبدو واضحًا ان هذا الركاب قد تم اختراعه فى حوالى هذه الفترة لكن يبدو أيضًا أن هذا الركاب (الجمع: ركائب) كان لايزال يُصنع من الجلد أو يُجدل من الحبال ولم يكن من الحديد. واستلزم الأمر قرنًا آخر حتى تم إتقان صنعه ليكون ملائمًا بقدر كافٍ لقدم الفارس. ليحفظ توازنه على السرج وعند تناول رمحه وسيفه. **وبعد هذا - فقط كان يمكن استخدام الفرسان أداة هجومية، تدميرية فى المعارك.**

وليس من حاجة لأن نشعر بالفطرة (شعورًا كأنه حقيقى لا يحتاج إلى نقاش) أن جيوش المسلمين كانت مكونة فى غالبها من بدو غلاظ مندفعين. حقيقة إن هؤلاء البدو

كانوا يشكلون الغالبية الكبرى من الجنود على الجبهة: لكن لا بد ـ أيضًا ـ أن نتذكر أن جيش المسلمين الوليد كان قائمًا على سكان المدينتين: مكة والمدينة. فقد أتى كل القادة المسلمين الرئيسين من هذين المجتمعين (مجتمع مكة ومجتمع المدينة) وقد أثبتوا أنهم رجال من العيار الثقيل highest Calibre. وكان فى إمكانهم فى بعض الأحيان استحضار معلومات مفصّلة بشكل غير عادى. فعلى سبيل المثال. فإن أحد حكام (ولاة) سوريا الأوائل كان يعرف ـ بشكل جوهرى ـ المنطقة. لأن أسرته كانت تمتلك عقارات فى البلقاء فى منطقة الأردن. بينما وجدنا الجنرال المسلم الذى فتح مصر لم يكن فى حاجة إلى خرائط أو استكشافات أو جواسيس. فقد كانت مصر كلها فى رأسه he had it all in his head من خلال خبرته طوال حياته كتاجر قوافل أقام أحيانًا فى غزة ومنها إلى مصر.

وماذا عن الضعف؟ كانت أوجه الضعف عند المسلمين متعددة. فلم تكن الخلافة بقادرة على مجاراة الجيوش العظمى لفارس والدولة البيزنطية. حتى لو كرست كل مواردها. ومرة أخرى نجد المؤرخين يُرجعون انتصارات المسلمين إلى المحاربين الذين خاضوا الحرب الميدانية فعلاً reliable battle- field figures. رغم أنه من المقبول بشكل عام أن الإمبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية) عندما كانتا فى عز قوتهما. كان فى مقدور أى منهما تجنيد عدد من المقاتلين المسلحين قد يصل إلى ١٠٠ ألف. فعلى سبيل المثال. لو أن المسلمين تعرضوا للهزيمة فى معركة اليرموك. **لكان موضع شك كبير أن تستطيع الخلافة إعادة الكرَّة بمحاولة غزو الشام مرة أخرى لافتقادها الموارد اللازمة لهذا الغزو الثانى**. لقد كان الخليفة فى حاجة للرجال (المقاتلين) فى ذلك الوقت. لدرجة أنه تراجع عن أقوى أحكامه المسبَّقة واضطر إلى تجنيد مقاتلين من القبائل العربية الوثنية التى كانت قد ثارت عند وفاة النبى (الذين عُرفوا بالمرتدين). وبعد هذا النصر المُدوِّى فى اليرموك. انتهت مشكلة نقص المقاتلين بتدفق فيض المجندين الجدد. وقررت القبائل البدوية المقيمة فى المناطق الحاجزة والعرب الذين تحولوا عن المسيحية، بل وحتى كتيبة كاملة من الحراس الذين كانوا يعملون لحساب الإمبراطورية الفارسية ـ قرروا جميعًا الانضمام لجيش المسلمين بمجرد أن أسفر القَدَر عن وجهه.

والجانب الثانى من جوانب الضعف الكامنة، معروف جيدًا وكان محل تعليق فى ذلك الوقت، وهو جهل العرب بالتحصينات fortifications. ففى العقد الأول للحروب، لم

يكن جنرالات (قادة) المسلمين يعرفون أبدًا كيف يحاصرون المدينة المحصنة أو القلاع والحصون. وكان من الممكن أن يسبب هذا مشكلة، لكن هذا قلَّما حدث. والحقيقة أن هذا الضعف بدا ميزة استراتيجية. فجيوش المسلمين كانت تتحاشى تعقيدات الحصار الطويل لتركِّز جهودها فى تدمير العدو فى الميدان. فالمدن المُسوَّرة إذا فقد العرب الأمل فى استسلامها، عمدوا إلى تكتيكهم البسيط بالبقاء فى قاعدة قريبة ليغيروا على ضواحى المدينة حتى إذا استغرق هذا عامًا أو أكثر، وكان هذا تكتيكًا مؤثرًا؛ إذ كان رجال الدين فى المدينة (آباء الكنيسة city fathers) مضطرين فى هذه الحالة لطلب شروط مزارع ضواحيهم وبساتينها وقوافلها التجارية، ومن المهم جدًا أن الجنرالات المسلمين كانوا موضع ثقة من حيث إيفائهم بعهودهم (التزامهم بكلمتهم). ولم تكن المفاوضات طول التسليم تتعدى دفع مبلغ من المال سنويًا، والتزام كل القوات بأحكام الشريعة.

وعلى هذا، فكيف أنجزت جيوش المسلمين فتوحاتها؟ لقد رأينا أن هذه الجيوش كانت هى الأقل تسليحًا، والأقل عددًا وأنها لا تعرف شيئًا عن فن الحصار وأن العرب لم يبتدعوا تقنيات حربية جديدة أو مناورات تكتيكية غير مسبوقة لإرهاق أعدائهم. حقيقة أنهم كانوا سريعى الحركة سريعى الاستجابة للأوامر العسكرية highly motivated، لكنهم ما إن يكونوا فى الميدان فإن حربهم فى الأساس كانت حرب مشاة واشتباكات مباشرة بين مقاتل مسلم وآخر غير مسلم ـ hand- to hand on the field. هنا يبدون وكأن لديهم الكثير مما هو مشترك مع الجنود النورمانديين Norman - جسد يكسوه درع، ورمح موضع ثقة، وسيف مستقيم، تلك هى الصورة المخالفة للصورة التى نحتفظ بها عن فارس الصحراء.

وأحد التفسيرات هو أن جيوش المسلمين هاجمت إمبراطوريتين أنهكتهما الحروب وأضعفهما الطاعون، والخلافات الدينية. هناك بعض الحقيقة فى هذا القول لكنه غير كافٍ ليكون تفسيرًا مقنعًا. فالطاعون الدَّبلى Bubonic plague كان قد اجتاح المناطق الواقعة إلى الشرق من البحر المتوسط وربما قضى على ثلث السكان. **لقد كانت الأوبئة الكبرى فى الجيل السابق بين عامَىْ ٥٤٠ و٥٦٠**، رغم أن بعض المؤرخين يسوقون الحجج على أن هذه الأوبئة قد أصابت المدن كثيفة السكان فى كل من الإمبراطوريتين: الفارسية والبيزنطية إصابة عنيفة على العكس من حال شبه الجزيرة العربية: إذ حالت

الصحراء الواسعة دون وصول الطاعون للعرب. والواقع، أن الجميع عانوا من الطواعين. **فالجيوش العربية التي فتحت الأرض المقدسة (الشام وفلسطين) أصيبت ـ على أية حال ـ بطاعون أهلك عشرها في سنة ٦٣٩.**

وفكرة أن الدولة البيزنطية أضعفتها الخلافات الدينية فكرة أخرى تعد من بين الخرافات التي تتردد بإصرار ـ فكل ثقافة بيزنطة الألفية الفاتنة عاشت ـ وتنفست ـ من خلال المناقشات الدينية منذ تأسيسها على يد قسطنطين الأول، **رغم أنه في ولاية مصر، كما سنرى، كان لسياسة الحكومة السياسية والدينية تأثير مضعف أوهن من عزم المقاومة البيزنطية.**

أما الاستدلال باقتصاديات هشمتها الحروب، فاستدلال أقوى من أن يقوض. فالإمبراطوريتان كانتا قد خاضتا منذ فترة يسيرة حربًا وحشية استمرت خمسة وعشرين عامًا؛ لكن هذه الحروب كانت تنشب بين الإمبراطوريتين بين الحين والحين طوال عدة مئات من السنين الماضية. ما الجديد إذًا؟ إن امتداد التدمير المصاحب لابد أنه ـ بالتأكيد ـ كان موازيًا ـ جزئيًا على الأقل ـ لوجود جيوش إمبراطورية حسنة التدريب متكيفة مع الحروب فقد خاضوا صراعات حربية لسنوات طوال (★).

وتشير الأدلة الأثرية في الشرق الأدنى، أيضًا، إلى أن الفترة البيزنطية الباكرة كانت فترة رخاء وازدهار غير عاديين، فقد كانت سوريا وفلسطين كثيفة السكان، إذ تراوح عدد سكانها ما بين ثلاثة ملايين وعشرة ملايين، على وفق التقديرات المختلفة. ورغم أن بعض المدن ـ خاصة القدس ـ قد اجتيحت في فترات الحروب الفارسية البيزنطية، إلا أن معظم الإقليم كان قادرًا على التكيف مع الرياح السائدة to bend with the prevailing wind أو بتعبير آخر يميل مع الريح، أو يجاري التيار السائد.

ذلك لأن فن السياسة الوحيد الذي برهن على صلاحيته، بالنسبة لبقاء المدن (عدم تدميرها) هو الحرص على عدم الانخراط (عدم التدخل في الصراع الدائر)، مع الفهم الواضح أنهم سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء (للجيوش الغازية) فكل الجيوش في نهاية الأمر نهابة سلابة وأن على سكان المدن إطعامها. ورغم أن الشرق الأدنى البيزنطي كان مقسمًا تقسيمًا إداريًا إلى مجموعة من الولايات، إلا أنه كان موحدًا عسكريًا (كانت

(★) كل هذه التبريرات أشرنا إلى أنها غير كافية في انهيار إمبراطوريتي الفرس والروم أمام العرب المسلمين، إنما التبرير الوحيد المقبول هو الإسلام نفسه ومبادؤه. (المعلق).

أقسامه الإدارية هى: سوريا/١، المناطق المطلة على الفرات، سوريا/٢، ثيودوريا، فينيقيا، لبنان الفينيقية، فلسطين /١، فلسطين /٢، فلسطين/٣. (وكان سيد جنود الشرق على رأس ٢٠ ألف مقاتل (سيد جنود الشرق: Magister Militum per Orientem) وكان أفضل هؤلاء الجنود متمركزين على الجبهة (الحدود) الصحراوية مع فارس. وكان الجيش البيزنطى مكونًا من وحدات (باندومات bandum)، كل وحدة مكونة من ٤٠٠ رجل، وكان لكل وحدة من هذه الوحدات تاريخها العسكرى وزى ملون موحد (يونيفورم)، وعلامات محددة badges. وكانت هناك أيضًا مرونة فى هذا التقسيم إلى وحدات، لأن كل پلاتون platoon (فصيلة) مكون من ستة عشر رجلاً، كان مسئولاً عن مُخيَّمهم وعن إمدادات الغذاء التى كانوا يحملونها معهم فى عربات صغيرة (كارتَّات Carts) وفى وقت الحرب تنضم ثلاث وحدات أو أربع لتكوِّن لواء (أو تشكيلاً عسكريًا أكبر brigade) الذى هو الوحدة الأساسية للمسير (التقدم نحو الهدف) وهو الوحدة الأساسية فى ميدان المعركة، وكان يُلحق به تشكيل للإسعاف ambulance.

لم تكن ـ إذًا ـ أول غارة (غزوة incursion) شنها المسلمون، موجهة ضد مواقع حدودية مهملة ومهجورة تحرسها حفنة من الحراس، بل لقد كانت غارة المسلمين الأولى هذه مزامنة لإعادة شغل المواقع الحدودية القديمة بطريقة تنطوى على تصميم من قبَل جيش بيزنطى قوى الشوكة. حقيقة إن غارة المسلمين الأولى تمت بعد شهرين فقط من عقد معاهدة سلام بين الإمبراطوريتين: الفارسية والبيزنطية. لقد كانت الاستراتيجية العسكرية المجربة جيدًا، للإمبراطوريتين: الرومانية والبيزنطية، هى **الدفاع فى العمق** ـ defence in- depth . فقد كانت القبائل العربية الموالية للدولة البيزنطية تخفر po- liced الصحراء، بينما كانت الحصون والمدن المسوَّرة محمية بعمق مائة ميل بعيدًا عنها، أى أن هناك منطقة عمقها مائة ميل تشكل حماية لهذه المدن والحصون، هذه الدفاعات لم تستطع أن تسد الطريق تمامًا أمام غارات دؤوبة، لكنها كانت تتيح وقتًا للجيش الميدانى ليتحرك ويواجه أى غازٍ على وفق ما يراه وعلى وفق الميدان الذى يحدده (أى يحدده هذا الجيش الإمبراطورى).

كل مكونات هذا النظام الدفاعى (الدفاع فى العمق) كانت حيوية ومفيدة، رغم أن هناك من يفكرون ـ بشكل متزايد ـ فى أن دور القبائل العربية المتحالفة أو الموالية للبيزنطيين زادت أهميتهم فى القرنين: السادس والسابع، فقد أصبحوا أهم بكثير من كونهم خفرًا صحراويين، فالقبائل العربية الموالية للبيزنطيين قد توغلت أكثر وأكثر داخل سوريا. حقيقية إنه يظهر أن كثيرًا من المدن تدعم بشكل مباشر معسكرًا عربيًا

a hira موجودًا خارج أسوارها. ومن خلال المصادر التى لا تزال متاحة، نعلم أن معسكرًا (مخيمًا) للعرب كان موجودًا خارج حمص Emessa ، كما كان هناك معسكر آخر يحرس الطرق المؤدية إلى مدينة غزة، وقد تصبح هذه المعسكرات خالية إذ ينتقل من فيها إلى موقع آخر بتغير الفصول وعلى وفق إمكانات الرعى. **وحتى منذ وقت قريب تعيه ذاكرتنا فإن هذه المعسكرات التى يقطنها فرسان بدو، كانت ملمحًا منتظمًا فى الحياة الزراعية للمناطق إلى الجنوب من البحر المتوسط (المقصود: المناطق الجنوبية لشرق البحر المتوسط)**. وقد يساعدون أثناء موسم عصر الزيتون ـ وهو موسم قصير إلا أن العمل فيه شاق وكثيف، ويُسمح لقطعانهم فى هذه الأثناء بأن تأكل من خَشَاش، ما تبقى فى حقول القمح (المحصودة) مقابل رَوَث قطعانهم الذى يخصِّب الأرض تمهيدًا للزراعة فى العام التالى. وكانت معسكرات العرب أيضًا، مجالاً للأعمال حيث يمكن استئجار المراسلين (المرسلين المكلفين لحمل رسائل وما إلى ذلك) أو مرشدين خبراء أو رجال مدربين على حراسة القوافل لتجار المدينة.

وفى الفترة البيزنطية، كانت المدينة تدفع رواتب (معاشات) سنوية للشيوخ (الزعماء) المحليين، تلك المدينة التى كانت تحوِّل هذه المعسكرات التى أقامها العرب إلى ميليشيات تستخدمها لبعض الوقت part- time لحراسة المزارع والطرق المؤدية للمدينة. وعلى وفق الكلمات الحكيمة التى قالها الباحث البيزنطى إيڤاجريوس Evagrius Scho- lasticus: لقد تحققت الإمبراطورية البيزنطية منذ زمن طويل **أن أفضل طريقة لمحاربة العرب هو استخدام عرب آخرين ليقفوا ضدهم (ليحاربوهم)، ولم يكن فى هذه السياسة سوى عيب واحد وهو افتراض أن فُرْقة العرب ستستمر. فإن ظهر ما يوحد العرب لأصبحوا عدوًا هائلاً لدودًا، لأنهم يعرفون الأرض والطرق السريعة والطرق التى لا يعرفها كثيرون** hidden roads **ومخاوف السكان وآمالهم**. يعرفون كل ذلك معرفة أفضل بكثير من معرفة الحاميات البيزنطية الرسمية. ولم يكن الإمبراطور البيزنطى موريس Maurice يدير شئون العرب بطريقة جيدة. ففى سنة ٥٨١ أسقط الرواتب السنوية التى كان يدفعها لهم بالعملة الذهبية الرومانية والتى كان يدعم بها قوة الغساسنة وهم الملوك العرب المسيحيون فى بادية الشام syrian desert، ثم ضاعف من أخطائه بالقبض على زعيمهم، المنذر، ونفيه. وفى سنة ٥٨٤، أغارت القبيلة الغسانية على العاصمة الحدودية بُصْرى Bostra مما أحنق الإمبراطور. وعلى أية حال، فرغم هذه المعاملة، فإن العلاقات البيزنطية بالغساسنة ظلت قائمة، فقد ظلوا شديدى الولاء

للإمبراطورية. حقيقة إن آخر ملوكهم ـ جبلة بن الأيهم ـ ظل يحارب إلى جانب الإمبراطورية، ضد المسلمين حتى عندما أصبح واضحًا أنها فقدت هيبتها when its couse was plainty lost.

وقبل أن نعود إلى ذلك اليوم القدرى فى واحة المدينة ـ الأحد ٨ يونيو سنة ٦٣٢، دعونا نتذكر الخلفية السياسية والعسكرية لدولة المسلمين الوليدة والإمبراطورية البيزنطية.

قبل ذلك بثلاث سنوات لا غير، أرسل النبى فى سنة ٦٢٩ عددًا من المبعوثين الدعاة للقبائل البدوية فى الشام فووجهوا بوابل من السهام. كان هذا من طبيعة السياسات القبلية العربية. أما المبعوث الذى تم إرساله للحاكم البيزنطى حاملاً خطابًا شخصيًا للإمبراطور هرقل فيه عرض عام مبسط لعقيدة المسلمين، فقد سلك الطريق المعتاد فاتجه من المدينة شمالاً إلى مدينة بُصّرى الحدودية. وهناك حدث أمر ما بشكل خاطئ، إذ إن أحد الضباط أو أحد المسئولين أو شيخًا من الغساسنة أو حتى الحاكم نفسه ـ أعدم المبعوث حامل الرسالة. هذه الإهانة أثارت المسلمين وربما كانت مدبرة لإشعال النزاع، فأرسل النبى جيشًا مكونًا من ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد لشن غارة ثأرية. وربما كانت هناك أجندة agenda تكتيكية لهذه البعثة للحصول على كمية من السيوف المرغوبة ـ السيوف المشرفية المصنوعة فى بادية الشام ـ لجيش المسلمين الذى بدأ عدده يزداد.

وكان البيزنطيون والعرب الموالون لهم يتوقعون وصول الجيش الذى أرسله النبى محمد ويترقبونه، فقامت القبائل العربية البيزنطية بالتحرش به والتصدى له، إلا أن جيش المسلمين استطاع شق طريقه بالقوة ورغم أن وقع المفاجأة قد زال الآن، إلا أن زيدًا قاد جيشه ذات اليمين إلى ساحل البحر الميت. وهنا هاجمتهم قوات الپاتريكوس ثيودوروس Patricus theodorus على رأس جيش نظامى يساعده حلفاؤه العرب. وكان القتال عنيفًا لدرجة أن زيدًا نفسه قُتل وكذلك قُتل قائدان مسلمان آخران، حلاًّ محله على التوالى فى القيادة. لقد هُزم جيش المسلمين فى مؤتة وتراجع عائدًا للمدينة.

لقد عملت الاستراتيچية البيزنطية ـ استراتيچية الدفاع فى العمق ـ بدقة شديدة (بآلية أشبه ما تكون بآلية الساعة). ولم يكن هناك أمام المسلمين وقت لاتخاذ إجراءات مضادة. فأرسل النبى واحدًا من أكثر قادته إخلاصًا وطموحًا وهو عمرو بن العاص

ليحرس هذه الحدود الصحراوية بما لا يزيد على ثلاثمائة رجل، بينما توجه النبى بجيشه الكبير لفتح مكة فى سنة ٦٣٠. وفى وقت لاحق من هذه السنة نفسها وفى ظل أسوأ ظروف ممكنة، وفى عز صيف شبه الجزيرة العربية، قاد هو شخصيًا جيشًا عائدًا إلى الشمال تجاه الحدود الشامية، إلا أن ذلك ـ غالبًا ـ كان مجرد استعراض عسكرى إذ تم صرف (تفريق) الجيش بعد ذلك، ولم تتغلغل قوات المسلمين داخل الحدود البيزنطية. لقد أُسيء فهم هذا التحرك. لم يكن الهدف أن يتخبط لتلحق به هزيمة أخرى فى مواجهة الجيش الإمبراطورى، وإنما كان يمهد الطريق لانتصارات أعظم فى المستقبل. لقد أعد النبى جيشه الكبير المثير للإعجاب لينتصر على القبائل العربية المسيحية فى بادية الشام، تلك القبائل التى قاومت غزوة سنة ٦٢٩. لقد أزعجت هذه القبائل جيش المسلمين بغاراتها المتكررة على الطريق المؤدى للشام وقدمت معلومات استخباراتية حيوية أتاحت لقوات الباتريكوس ثيودوروس أن تستعد استعدادًا كاملاً فانتصرت فى معركة مؤتة. لو أن النبى استطاع تحييد هذه القبائل العربية لأصبح ميدان الحرب مستويًا مهيئًا. لو أنه كسبهم إلى جانبه لحقق بذلك ميزة حاسمة. أما إذا لم يستطع فستُكرر هزيمة مؤتة مرات.

لا بد أن معركة منتصف الصيف هذه شهدت سلسلة من المفاوضات المكثفة جدًا. لقد كان النبى تواقًا لتحويل هذه القبائل العربية المسيحية للإسلام، لكنه كان حريصًا أيضًا على كسبهم كحلفاء سياسيين أو على الأقل لم يرد أن يدفعهم للارتماء فى أحضان الإمبراطورية البيزنطية أكثر وأكثر. لقد كانت هناك أوتاد (خوازيق) عالية فى هذه المفاوضات على الجبهة الصحراوية البيزنطية فى سنة ٦٣٠.

وعلى الجانب الآخر من الجبهة، كان هرقل، الإمبراطور البيزنطى قد استقر فى أنطاكية (فى الشمال السورى) التى جعل منها مقره الإمبراطورى. وراح هو نفسه يقود الحملات ليهزم الإمبراطورية الفارسية فى سلسلة من المعارك الباهرة التى لم يشهد التاريخ لها مثيلاً منذ الإسكندر الأكبر. ولا بد أن الإمبراطور هرقل ذا العمر البالغ خمسة وخمسين عامًا، قد بدا فى ذلك الوقت فى ذروة قوته وسلطانه. وترددت قصص كثيرة عنه شخصيًا ـ معظمها صحيح ـ كيف غير مسار معركة بأن قام هو شخصيًا بمراقبة جسر فارسى. لقد كان هذا عملاً مثيرًا للدهشة لفرط تهوره حتى إن جنرال جيش العدو قال لمجموعة من اليونانيين (البيزنطيين): «انظروا إلى إمبراطوركم. إنه سندان لا يخشى هذه السهام وتلك الرماح».

لقد شهدت ثمانى سنوات من الحرب هرقل وهو يقود جيوشه رائحًا غاديًا، عبر الأناضول وأرمينيا والشام وعمق الإمبراطورية الفارسية. لقد أثبت أنه قائد عسكرى غير عادى، ويجب ألا ننسى أنه ذو خبرة كاملة فى خوض المعارك فى السهوب الجرداء وفى أطراف الصحارى. فقد كان هرقل قد نشأ منذ طفولته فى خدمة الجيش البيزنطى فى الشمال الأفريقى، حيث كان أبوه حاكمًا بارزًا ذا نفوذ فى هذه الولاية (ولاية الشمال الأفريقى). حقيقة إن هرقل قد لفت أنظار الدنيا لأول مرة عندما قرر التصدى للطاغية الذى كان قد استولى على عرش الأباطرة، وانطلق من قرطاجنة عابرًا الصحراء الليبية وجنَّد ثلاثة آلاف من قبيلة لواتة أصحاب الجمال لصالح قضيته.

وفى سنة ٦٣٠، قام هذا الإمبراطور شديد البأس بحجِّه الظافر إلى القدس وأعاد الصليب المقدس True Cross إلى مكانه الصحيح بعد أن استرده من الفرس. وتقدم فى المدينة المقدسة لا راكبًا حصانًا أبيض، كغازٍ وإنما تقدم سيرًا على قدميه باعتباره حاجًا. لقد اقترب من القدس سالكًا الطريق من حمص لكن قدميه لم تمسا الأرض، فقد غطاها أهل الشام البيزنطى المبتهجين بالسجاجيد التى نثروا فوقها الأعشاب العطرية الفواحة. وعندما أصبح داخل المدينة حمل الصليب عاليًا فوق بوابة الأحزان إلى أبواب الضريح المقدس Holy Sepulchre الذى أُعيد بناؤه، وسلم أكثر الذخائر الدينية قداسةً فى العالم المسيحى (دولة المسيح Christiandom) للبطريارك (البطريق)، وبعدها عاد إلى أنطاكية .

ورغم الحضور القريب (غير البعيد) لهذا الإمبراطور البيزنطى ذى الشخصية المؤثرة (الكارزمية) ورغم جيشه المنتصر وحاشيته، فإن النبى محمدًا كان قادرًا فى سنة ٦٣٠ على كسب عدد من الحلفاء المحليين المهمين. وكثير منهم، مثل يوحنا بن رُبا Ruba أسقف العقبة، قبلوا الزعامة السياسية للنبى ولكنهم نجحوا فى الاحتفاظ بعقيدتهم المسيحية رغم موافقتهم على دفع الجزية. وقوى موقف النبى التفاوضى كثيرًا عندما أصبحت أخبار استسلام المناطق الجنوبية فى شبه الجزيرة العربية معروفة، إذ كان هذا يعنى السيطرة على كل الطرق التجارية. واستفاد النبى كثيرًا من الأحوال الاقتصادية للإمبراطور هرقل بعد انتصاراته التى اضطرته لقطع الإعانات السنوية، التى كانت تُدفع للقبائل العربية المسيحية مثل جذام وقداه لحراسة الصحراء السورية (بادية الشام).

وقد استمرت أكثر هذه المفاوضات حيوية طوال عامَىّ ٦٣١و ٦٣٢ وما بعدهما. وهذان العامان هما آخر عامين فى حياة محمد النبى. وربما تم تسليم خطاب النبى أخيرًا خلال هذين العامين للإمبراطور البيزنطى فى أنطاكية. ولهذه الواقعة أهمية كبيرة فى عقيدة المسلم التقليدية لتضمُّنها أن الإمبراطور سأل عن شخصية النبى محمد، واحدًا من قريش الوثنية كان شديد العداء لمحمد. وفى نهاية اللقاء الذى سمع ما دار فيه جمع من المحيطين بالإمبراطور، أعلن ـ أى هرقل: «أعلم أنه سيظهر (نبى) لكننى لم أكن أعرف أنه سيكون منكم، وإن كان ما قلته صحيحًا فسيملك (أى النبى محمد) الأرض التى أقف عليها الآن...». (هذا التعاطف ـ على المستوى الشخصى ـ مع الإسلام سرعان ما أثار معارضة صاخبة من الأساقفة والجنرالات ونبلاء الحاشية).

ومهما كانت الحقيقة الكامنة وراء هذه الرواية واسعة الانتشار، فقد ظل الإمبراطور هرقل فى مدينة أنطاكية، وسرعان ما انشغل بترأس سلسلة من الاجتماعات (المجالس)، حاول فيها التوفيق بين الكنائس المسيحية. وكان يود أيضًا أن يشرف على انسحاب سلمى لآخر حامية فارسية من الولايات (البيزنطية) الشرقية، أما حدود سوريا البيزنطية، فلا بد أن الشائعات غمرتها ولابد أن جامعى المعلومات (وكلاء الاستخبارات) راحوا يتنقلون فيها جيئة وذهابًا فى سنة ٦٣٢ وطوال صيف عام ٦٣٣.

فى ذاك الشتاء، احتلت قوة من المسلمين موآب (أريوپولس Areopolis) وهى موقع حدودى يقع إلى الشرق ـ مباشرة ـ من البحر الميت.

لقد استقر الوضع الآن، فالولايات المحلية ظلت تراوح مكانها. وكانت العناصر المؤثرة من القبائل العربية المسيحية فى بادية الشام (الصحراء السورية) قد أصبحت على الحياد، أو بتعبير آخر جرى تحييدها. فقد كان هناك اتفاق مؤداه أن تستسلم هذه القبائل المسيحية لدولة المسلمين مقابل السماح لها بالاحتفاظ بدينها (التسامح مع المسيحية). **إن النبى محمداً قد برهن على أنه تكتيكى ماهر ودبلوماسى لا يُشق له غبار، وإن كان ـ فى المقام الأول ـ نبيًا دعا شعبه إلى دين جديد هيأهم لتجربة فريدة وهى وحدة العرب (وحدة شبه الجزيرة العربية Arabian Unity).**

الفصل الرابع

عائشة وأمهات المؤمنين الأخريات

فى اليوم العاشر لإصابة النبى بالحمى المميتة، تمالك نفسه ونهض من فراش المرض الذى لم يكن يزيد على حشية محشوة بالقش فى غرفة عائشة، ليحضر صلاة الفجر التى أُذن لها فى الصحن المكشوف (غير المسقوف) خارج غرفة عائشة. ولم يكن النبى فى حالة صحية تمكنه من أن يؤمَّ المصلين، فعيَّن أبا عائشة، أبا بكر لينوب عنه، وعاد النبى إلى غرفة عائشة فور انتهاء الصلاة. وفى غرفة عائشة طرح رأسه على صدرها وأمسك بيدها قابضًا عليها بإحكام. وليخفف عن نفسه وطأة الحرارة ظل منطرحًا بهدوء طوال ذلك الصباح، فقد كانت الحرارة فى هذا اليوم قريبة من حرارة منتصف الصيف، وكان جسده مُرهقًا بفعل الحمَّى، وبعدها ثَقُل رأسه وسمعته عائشة يتمتم «اللهم اعفُ عنّى واغفر لى»(1) وأرخى يده فانفضَّت عن يد عائشة، فكانت آخر مرَّة يُمسك يدها.

كان عُمّر عائشة يوم مات الرسول ثمانية عشر عامًا وبموت النبى انتهت حياتها كزوجة، كما لم يعد ممكنًا أن تُنجب. لن تُحبَّ بعد ذلك أبدًا، إلاَّ أنه كان على كل المسلمين أن يحبوها ـ ويوقروها ـ باعتبارها أُمًا للمؤمنين، وهو لقب أُطلق أيضًا على كل زوجات النبى الأخريات. لكن عائشة كانت ـ بلا منازع ـ هى المبرَّزة بينهن. وعاشت عائشة بعد وفاة النبى ستًا وخمسين سنة. لقد عاشت عمرًا أطول من كلِّ صديقاتها her friends وأبناء عمومتها وأبناء خالاتها وصحابة النبى لتموت كامرأةٍ عجوز موقَّرة

عن عمرٍ ناهز أربعة وسبعين عامًا. وكانت ذكرياتها عن أعوامها مع محمد قد أصبحت درَّة ثمينة برَّاقة راحت عائشة تَصْقُلها وتُلقى عليها الضوء طوال حياتها.

وفى الثمانية عشر عامًا الأولى من حياتها، قلَّما كان هناك شىء عنها يستحق الذكر قبل أنْ يملأ النبى حياتها .

لقد عاشت حياة تنطوى على قدر كبير من المغامرة والبهجة. لقد كانت فى بعض الأحيان تسير مع الجيش حيث رائحة الجمال والسّروج الجلدية والخطر والحرب. كما عاشت أيضًا حول (داخل) المجمَّع السكنى المسوّر الذى يضم بيت محمد. لقد كان هذا المكان مسجدًا ومقرًا للاجتماعات وساحة، وفى هذا المكان تجرى كل الوقائع الكثيرة فى حياة الأسرة العربية: الوفيات والمواليد والخِطْبة betrothments والاحتفال بالزواج وممارسة الأعمال اليومية المعتادة، طَحْن الحبوب للحصول على الدقيق وغزل الصوف وجدل سعف النخيل وشغل الجلود والعناية بالأطفال وخياطة الملابس وتطريزها وإيقاد النيران ووضع القدور فوقها لطبخ الطعام والاحتفاظ بالحيوانات الأليفة، وتقديم التحية للمسافرين (عابرى السبيل) والعناية بالمرضى وتخزين التمور والحبوب بطريقة صحيحة (حتى لا تفسد) وإبعاد الحشرات عنها، وتقديم الطعام للفقراء، ناهيك عن الأمور التى تجرى خارج المنزل كالحلب وجلب مياه الآبار وجمع الحطب والمساومة فى الأسواق التى تُعقد أسبوعيًا. **وكان دخل هذا المجمع السكنى (الدار) طوال ست سنوات فى المدينة نتيجة العمل بمهارة ونتيجة بيع الجلود.**

وكانت هذه الدار الواسعة (بما فيها المسجد) هى المركز السياسى والدينى لواحة المدينة. وبعد وفاة النبى تلاشى تدريجيًا هذا الدَّور الرَّعوى، وتحول المكان تدريجيًا أيضًا ليكون أول مسجد جامع فى الإسلام له قيمة كبيرة، رغم الغرف التسع الصغيرة المبنيَّة بالطوب اللَّبِن والمسقوفة بجريد النخل والتى تؤدى إليها ممرَّات مستورة بستائر صوفيَّة ظلَّت قائمة بعد موته فترة طويلة لتكون شاهدًا ملموسًا على بساطة النبى وعلى أسلوب حياته المتقشف. وسيصبح للأعمال اليومية التى كانت تُمارس فى هذا البيت ـ الساحة، دورٌ حيوىٌّ احتذى المسلمون ـ فى مستقبل الأيام - حذوه. وبينما نجد أهل البيت قد عاشوا إلا أنَّ أرامل النبى كوَّنَّ مجلسًا مُرتجلاً (غير مخطط له impromptu Court) ذا قيمة سامية، إذ كنَّ يغترفن من ذكرياتهن الفردية والجمعية مع رسول الله، ومن فكره وأحاديثه وأفعاله، وبالتالى فعلى هذا المستوى وحده كان لا بد من اعتبارهن

كورثة للنبى، رغم أنَّ عائشة ـ كما سنرى ـ ستقوم أيضًا بالتدخل تدخلاً مباشرًا ومشئومًا فى الأحداث السياسية والعسكرية direct & disastrous، (عُمِّرت عائشة وأم سلمة(٢) فلم تموتا إلا بعد موت كل الرجال الأساسيين فى هذه القصَّة التى نرويها).

لقد كان إيمان عائشة إيمانًا خالصًا لا شية فيه، فهناك أدلة تشير إلى أنها من بين أوَّل المسلمين فقد **ولدت مسلمة**، ولم تمر بمرحلة الوثنية، لأن والديها كانا من بين أوائل المسلمين المكِّيين، كما كان والدها صديقًا حميمًا للنبى، وكانت أمها مؤمنة به. وكان والدا عائشة قد أرسلاها خارج مكة وهى طفلة لتنعم بجو الصحراء، الصحِّى بالمقارنة بجو مكة ولترعاها أم بدويّة، مثلها فى ذلك مثل كثيرين من أطفال قريش. وبعودة الطفلة عائشة من الصحراء إلى بيت أمها كان اضطهاد المكيّين الوثنيين لجماعة المسلمين الصغيرة قد بلغ مداه. لقد أصبح المسلمون منبوذين داخل مكة فتجمَّعوا حماية لأنفسهم داخل المجْمَع السكنى household لبنى هاشم (شِعْب بنى هاشم). وكان والد عائشة، أبو بكر، واحدًا من أقرب مستشارى النبى إليه، وكانا متجاورين فى الشِّعب، فكانا إذا ضاقت نفساهما (أصبحا مغيظين) زار أحدهما الآخر (تردد أحدهما على منزل الآخر) عدَّة مرَّات فى اليوم، خاصة وأنَّ النبى كان قد فقد زوجته خديجة وعمَّه العظيم- أبا طالب - وكانا يمثِّلان دعمًا عاطفيًا كبيرًا له، أو بتعبير آخر: كانا يُواسيانه إذا تعرَّض للاضطهاد أو انتابه الضِّيق.

وكانت أم عائشة، وهى أم رومان، قد عزلت نفسها شيئًا ما عن جو الثرثرة والنَّق والغَيْرة الذى كان مستمرًا بين العشائر المتنافسة فى قبيلة قريش فى pecking order مكّة. لقد كانت بدوية من الصحراء وهى ابنة عامر من قبيلة كنانة. وكان لوالد عائشة، أبى بكر، - أيضًا ـ وضعٌ ملتبسٌ equivocal (غير واضح أو غير محدد)، فقد كان من عشيرة تَيْم من قبيلة قريش فى مكّة وكان أبوه وأمه أولاد خالة Cousins. وكان والد عائشة أيضًا تاجرًا ناجحًا؛ إذ كان قد جمّع قبل الإسلام ثروة مقدارها ٤٠ ألف درهم، وهو مبلغ يمثل ثروة كبيرة على وفق أية حسابات فى شبه جزيرة العرب (نحن نعلم أنَّ مدينة كاملة كانت تفتدى نفسها من الهجوم طوال عام بدفع مثل هذا المبلغ)، إلاَّ أنَّ ثروة أبى بكر هذه كانت لا تضعه إلاَّ فى مصافِّ الطبقة الوسطى ـ فقط ـ إذا قيس بأرستقراطيِّى مكَّة الرأسماليِّين الأثرياء المغامرين. وكان والد عائشة، أبو بكر، تنقصه الاتِّصالات الحيوية التى تجعله رجلاً ذا هيْبة داخل مكَّة الوثنيّة. **فعلى سبيل المثال**

هناك حكاية مخزية مؤدّاها أنه قد رُبط، وجعلوا قدميه مربوطتين بيديه (وكأنه عنز فى طريقه للجزّار) وتُرك إلى جوار زميله المسلم وقريبه طلحة بن عبيد الله، ليسخر منه كلّ عابر. ومثل هذا لا يحدث أبداً لرجل تقف عشيرته مساندةً له تمام المساندة. لو كانت له عشيرة قوية لانتقمت له بالتأكيد مهما كانت عقيدة رجلهم (ابن عشيرتهم). وهناك أيضًا خداع أو ارتباك فيما يتعلّق بأسمائه (ألقابه أو كُناه): أمّا (الصدّيق) فمصدر فخرٍ له، وقد نعم بهذا اللقب فى أواخر حياته، رغم أن اسمه الذى كان معروفًا به قبل ذلك هو (عتيق) والكلمة تعنى العبْد المحرّر، فربما كان هذا الاسم مصدر إرباك فيما يتعلّق بوضعه الاجتماعى، خاصة إذا كان قد أُسر وهو فى صباه ثم جرى إعتاقه بعد ذلك على يد رجال عشيرته. هذه ليست أكثر من فروض. أما المفسّرون الأتقياء، فلا يجدون مشكلة فى اسمه عتيق أو معناه ولا ارتباطه بوضعه الاجتماعى، وإنما يروْن أنّه (عتيق) من النار أو أنه مُقدَّر له ألا يدخل جهنّم.

وكان أبو بكر تاجراً فى مكّة، وكان ـ أيضًا ـ خبيراً بالأنساب وتاريخ العشائر القبليّة. ولم يكن هذا مجرّد هواية أو حماسة هاوٍ، وإنما مهارة ضرورية، لتحدِّد القافلة أى الطرق تسلكها وأى مرشد تتّخذه، وأى شيخ من شيوخ القبائل المتنافسة لديه من السلطة والنفوذ ـ فعلياً ـ ما يكفى.. هذا النوع من العمل ـ كونه مفاوضاً ومُثبتًا للأمور أو فاضًا للمنازعات ـ ساعده فى إقرار تفاصيل انتقال القافلة، وكان هذا هو وضعه أكثر من كونه تاجراً يعمل لحساب نفسه. تلك هى خبرة أبى بكر قبل اعتناقه للإسلام. ولأنه تاجر مرافق فى مكّة، فقد كان يعرف صاحبَهُ محمداً تمام المعرفة فلم يكن الفارق بينهما فى العمر يتعدّى ثلاث سنوات. ولم يكن إيمانه بما أُوحى إلى محمد موضع شك أبدًا فى أى وقت من الأوقات، فالثروة التى جمّعها بحرص نتيجة عمله لم يبخل بها وإنما أنفقها بسخاء على إطعام إخوانه المسلمين خلال الأعوام التى تعرضوا فيها للاضطهاد، وعلى شراء حرية المسلمين المضطهدين ـ مثل بلال ـ وفكّهم من الرق الذى كانوا يعانونه عند الوثنيين، وعندما جاء وقت هجرته هو نفسه إلى المدينة لم يكن قد تبقّى من ثروته سوى ٦٠٠٠ درهم.

ورغم أنّ أبا بكر وزوجته أم رومان كانا يُوقران النبى ويؤمنان بنبوّته إيمانًا مطلقًا، فإن هذا لم يكن هو الحال بالنسبة لكل الأسرة، فى هذه الفترة، فزوجة أبى بكر الأولى؛ قُتيلة بنت عبد العُزَّى من عشيرة عامر Amir بدأت تبتعد عن زوجها، وعندما حان وقت

هجرته للمدينة اختارات أن تبقى فى مكة مع ولديها: عبد الله وأسماء. ويمكن للمرء ـ فقط ـ أن يُخَمِّن ـ من خلال الأحوال الأسرية ـ ما هو وراء هذا القرار، لكنه لم يكن قرارًا سهلاً على أية حال. لقد اتَّخذ الشاب عبد الله جانب أمّه فى هذه المسألة (البقاء فى مكَّة وعدم الهجرة للمدينة)، وأكثر من هذا فقد حارب إلى جانب الوثنيِّين ضد قوات المسلمين فى معركتَىْ (غزوتَىْ) بدر وأُحد. وقد سمعنا الحكاية الأولى عن عائشة: ففى إحدى الزيارات المتتالية التى كان يقوم بها النبى لبيت أبى بكر فى مكة، رأى عائشة الصغيرة تبكى بمرارة خارج باب البيت ذلك لأن أمها عاقبتها لأنها قصَّت على أبيها حكايات أزعجته، فراح النبى ـ بعد ذلك ـ يطلب من أم رومان أن تكون رفيقة بعائشة من أجل خاطره، وكانت هذه التوصية دون أن تعلم عائشة. «يا أم رومان، ألم أوصيك بعائشة أن تحفظينى فيها؟».

وفى سنوات طفولة عائشة الأخيرة فى مكة، كان النبى الذى فقد زوجته خديجة يتردّد كثيرًا على منزل أبى بكر ليتناول الطعام عنده، ومنذ تُوفيت خديجة كان منزل النبى ـ بين الحين والحين ـ تحت رعاية عدد من أقربائه. فكانت خالته خولة ـ على نحو خاص ـ مفيدة. لقد كانت خولة بنت حكيم (٣) أخت أم محمد، وكانت هى وزوجها من أوائل من تحوّل للإسلام لكن محمدًا ظل بالنسبة لها هو ابن الأخت الودود كما ظل مرشدًا روحيًا لها؛ بل لقد راح يشرح لزوجها (عمه بحكم زواجه منها) أنَّ الإسلام (على عكس المسيحية التى قال بها پولس) لا يوافق على امتناع الزوج عن زوجته بحجة التقشّف أو التبتل. (المترجم: الخلط هنا شديد الوضوح ومناقض تمامًا للحقائق التاريخية المعروفة، فلم تكن خَوْلة هى خالة النبى .. راجع السيرة النبوية لابن هشام، وراجع أيضًا الطبقات الكبرى لابن سعد، جـ ٦، وراجع الحاشية رقم ٣ التى ألحقناها بهذا الفصل) وربما كانت خولة خالة النبى (؟ ـ خطأ) هى التى اقترحت على النبى أن يتخذ زوجة بعد أن انتهت فترة الحداد على خديجة. ولما طلب منها النبى أن تزيده تفصيلاً اقترحت عليه أن يتزوَّج عائشة لعُذريتها أو سَوْدة (٤) الأرملة متوسطة العمر لأنها تعرف كيف تدير البيت، وقد تُثبت أنها قادرة على رعاية بناته (بنات النبى) رعاية أُمومية. وقَبِل النبى كلا الترشيحين. وكانت عائشة فى السادسة من عمرها وكانت مخطوبة betrothed (لغير النبى). وكانت مُقيمةً فى بيت أبويها وكانت تعى أنَّ تغيرًا حدث فى وضعها، فقد شجَّعها والداها بعد ذلك على أن تلعب داخل البيت فهذا أفضل من لعبها فى الشوارع وكأنها بنت تُحب اللعب مع الصبيان، وهذا عيْب وغير ملائم لها.

وبعد ذلك بثلاث سنوات اختار النبى أبا عائشة ليرافقه فى هجرته السرّية إلى المدينة، وهذا يدُل على الثقة المطلقة التى يُكنُّها النبى له، كما يدل أيضًا على معرفة أبى بكر ـ بعمق ـ بكل الطّرق (المدقّات tracks) فى الجبال المحيطة. وربما كانت عائشة فى ذلك الوقت فى رعاية أسماء أختها من أبيها والمتّسمة بشجاعة فائقة؛ إذ إنها لم تكتفِ بإنكار معرفتها بهجرة النبى وصاحبه، وإنمَّا دبَّرت أيضًا أن تتسلّل بعيدًا عن أعين الحراس والمراقبين لتزوّد أباها والنبى بالمؤن اللاَّزمة فى الكهف الذى تواريا فيه، بل إنها فى إحدى المرّات شقّت قطعة مما تلبسه (نطاقها) لتصنعَ حبلاً لتُدلّى السلّة التى وضعت فيها الطعام إلى الكهف.

وما إن وصل محمد وأبو بكر سالمَيْن إلى المدينة واستقرّت أمورهما، حتى أرسلا لأفراد أسرتيهما فى مكة ليلحقوا بهما ـ رغم أنَّ هذه العملية استغرقت شهورًا لا مجرَّد أسابيع. ورغم أنَّ محمدًا وصاحبه قد طاردهما ـ باعتبارهما هاربيْن ـ مئات من الفرسان الوثنيِّين والبدو الراغبين فى الحصول على الجوائز والهبات، إلاَّ أنَّ الشهامة العربيّة فى رعاية النساء كانت شهامة مُطْلقة، فابن أبى بكر الذى بقى وثنيًا معاديًا للإسلام، كان فخورًا برعاية أسرته وخدمتها. لقد حرس زوجة أبيه ـ أم رومان ، وأخته أسماء وأُخته من أبيه عائشة حتى وصلن بسلام إلى المدينة، وكان يعاونه فى هذا قريبه المسلم طلحة(٥).

وظلت عائشة فى بيت أبيها وأمها الصغير فى السنح فى واحة المدينة طوال عام. ولم ينسَ النبى خطيبَتَه، لكنه كان ينتظر إتمام بناء الغُرف حول باحة المسجد وفرصةً لتدبير أموال تكفى لتقديم المهر المعتاد لوالدىْ عائشة. وحتى بعد الانتصار فى غزوة بدر، بعد عام من الهجرة للمدينة، وبعد توزيع الغنائم وأموال افتداء الأسرى ransoms ـ وجد النبى أنَّه لا يزال فى حاجة إلى المال. وعلى وفق الروايات، فإنَّ أبا بكر قد أقرض النبى قيمة المهر حتى يتمّ الزواج. وكانت عائشة دائمًا تتذكّر بحيوية هذا اليوم: (كنت ألعب على الأرجوحة، ولى جُمّة) أى أن شعرها كان طويلاً مُتدلِّيًا(٦). (كل النصوص المتعلقة بزواج عائشة والواردة فى هذا الفصل مدرجة فى الحاشية السادسة فى آخر الفصل/ المترجم). ثم أتت أمّها وصديقاتها المقربات وجيرانها وأخذنها، بعيدًا عن لُعَبها وجهَّزنها ولبست ثيابًا جديدة من قماش جميل مخطَّط بخطوط حمراء (مستورد) من البحرين وقلادة من العقيق اليمانى Onyx، قبل أن تصحبها أمها إلى غرفتها جديدة

البناء والتى جلس حول بابها الخارجى جمع من الحضور. وأمام هؤلاء الشهود وضعتها أمها على فخذ النبى ودعت لهما بالبركة: تلك أسرتك، بارك الله لك فيها، وباركَك لها. وجرى تقديم آنية مليئة باللبن للنبى فشرب منها ثم قدمها لعائشة (كى تشرب). وفى البداية كانت عائشة مكْسوفة (اعتراها الخجل) لكن النبى أصرَّ أن تشرب بُلطف، فشربت قليلاً ثم مررتْها إلى أختها الأكبر، أسماء التى كانت تجلس إلى جوارها. وبعد ذلك مُررت الآنية إلى كل الضيوف الآخرين وبعدها نهضوا وغادروا، وبعدها صحب النبى عائشة إلى عُش الزوجية فتحوّلت إلى امرأة (سيّدة) and she became a woman.

وفى وقت لاحق من حياتها راحت عائشة تقارن بين بساطة ـ وتواضع ـ حفل زواجها، بالإسراف والتعقيدات التى شابت حفلات الزواج بعد ذلك. وككل الذين عرفوا الفقر والثراء الفاحش، وجدنا لذّة مختلطة بمرارة فى تأمّل هذا التناقض القوى بين حال وحال. وكانت عائشة ـ دائمًا ـ مفتونة بهذه الحفلات. لقد راحت تتذكَّر ـ بشكل حاد لاذع ـ التدريبات التى قام بها الجنود المسلمون الأحباش - تلك التدريبات الشبيهة بالرَّقص والتى قاموا بها فى ساحة المسجد، حيث صحبها النبى (أى صحب عائشة) وجعلها إلى جانبه حدِبًا عليها، وحماية لها، وهى تشاهد هذه التدريبات (الألعاب). وهناك أيضًا حكاية مسلّية، فقد رآها النبى وهى عروس صغيرة تشب على أطراف أصابع رجليها وتتقَلْقَل لتتطلَّع من فوق الجدار على حفل زواج صاخب أقامه أحد الجيران، لم يُوبِّخها النبى وإنما ساعدها لتُلقى نظرة بشكل أفضل دون أن تتعرَّض لخطر القَلقلة (دون أن تَقَع). واعتمادًا على هذه الحكايات اللطيفة أصبح عَزْف الموسيقا فى أفراح الزواج مباحًا، لكن النبى من ناحية أخرى كان ـ على وفق ما ورد من أحاديث ـ ضد الموسيقا الفاجرة (الفاحشة Lascivious). حقيقة، يمكن للمرء أنْ يقول إنَّ الحفل الوحيد المسموح به لدى المسلم التَّقى هو حفل الزواج. وفى المجتمعات التقليدية قد يمتد حفل العرس لأكثر من أسبوع ـ يوم الاستحمام (إعداد العروس) ويوم تَقْديم العروس هدية لحماتها.

ولا ترى عائشة ولا أىٌّ من المؤرخين المسلمين أن الفارق فى العمر بين العروس والعريس أمر يستحق التبرير، فقد يُعقد قران عروس فى العاشرة على عريس فى الرابعة والخمسين. لا مشكلة أبدًا، ومن غير الواضح أن هناك مشكلة ما أُثيرت، أو أنَّ

لغطًا ما، حدث يكون أكثر مما حدث لكبير أساقفة كانتربرى منذ قرن واحد فى بريطانيا فى عهد الملكة فكتوريا.. وعلى أية حال، ففى مجتمعنا البريطانى بعد الثورة الصناعية، سُمح لنا أن نصوّت وأن نتناول الخمور وأن نُجبر على الالتحاق بالمدارس على وفق صيغة (وصفة Formula) محسوبة فى سجلاَّت المواليد الحكومية، ومن المحال - غالبًا - أن نعود بذاكرتنا إلى الوراء لنعرف كيف كانت المجتمعات الأخرى ستتواءم مع هذه القضايا. كان لدىّ فكرة طفيفة عن البساطة فى العصور القديمة، **عندما ارتحلتُ عبر المجتمعات الصحراوية التى لا تزال تتّبع أسلوب الحياة البدوى معتمدين على قطعان الجمال والماعز. لا أجد منهم من يعرف تاريخ ميلاده، رغم أنهم يعرفون نظام القرابة** Cousinage **إلى أقصى درجة**. لقد ضحكوا من غباء أسئلتى عندما سألتهم مثلاً: متى يتحجّب (يتلثَّم) الصَّبى؟ أو متى **تتزوج الفتاة**؟ لقد كانت إجاباتهم واضحة فى حدّ ذاتها: الولد يتحجَّب عندما يصبح رجلا(٧) والبنت تتزوَّج عندما تصبح امرأة (عندما تكبر).

ورغم أن عائشة كانت قد نضجت كامرأة، فقد ظلت محتفظة بُلعَبها ورفيقاتها فى اللَّعب. لقد تذكَّرت أنّ صديقاتها كُن يختبئن بعيدًا عندما يدخل زوجها ذو الشخصية المؤثِّرة (النبى) غرفتها، لكن النبى كان يطلب منها أن تأتى بهن مرة أخرى ليلعبْن معها كما كُنَّ. وثمة حكاية أخرى كانت عائشة تحب تذكرها، وهى جلوسها راضية فى الغرفة بعد انتهائها من اللعب وحولها مجموعة لعبها الصغيرة (على هيئة أفراس صغيرة) التى كانت تراها وكأنها جُند سليمان خارجين من إسطبلاته. فى هذه السنوات الأولى من الزواج كانت ضرّتها Co-Wife أو الزوجة الأخرى للنبى سودة بنت زمعة هى التى تعتنى ببنات النبى، وتُدر دخلاً للبيت، الذى كان فى حاجة شديدة إليه، نتيجة عملها الذى كانت تُتقنهُ إذ كانت تصنع سيورًا جلدية جميلة ومخدات (حشيّات) وسروجًا للخيل مزيَّنة(٨).

مضت ثلاث سنوات من الزواج ولا تزال عائشة لم تنجب، ولا بد أن هذا كان ذا تأثير حيوى فى كل من عائشة والنبى محمد، رغم أن المؤرخين المسلمين الأوائل لم يشيروا لذلك كثيرًا. ولا شك أنّ صمتهمانعكاس لدعاية الوثنيين فى مكة الذين لم يتركوا بالتأكيد هذا الأمر، وراحوا يتساءلون بخبث: لماذا لم يهب الله ذرية (من الذكور) لمحمد وزوجته الشّابة عائشة، فكلمة أم فلان أو أبو فلان، تحظى بتوقير لدى العرب. إنها تعنى أنَّ فلانًا أو علاَّنًا قد أنجب وهذا أمر ثمين.

وفى شتاء سنة ٦٢٥، تزوّج النبى زوجة ثالثة، وكانت عائشة ـ دائمًا ـ تغار غيرة شديدة من أية زوجة جديدة تنافسها فى حبها لمحمد، رغم أن هذه الزوجة الثالثة ـ حفصة ـ تُعد استثناء من ذلك، فقد سبق أن ترملّت بعد أن مات عنها زوجها الشاب فى غزوة بدر، أو غزوة أُحُد، على خلاف بين الرواة، **وعُرِفت ـ أى حفصة، بأنها كمتحدّثة كانت تنقصها الجاذبية، بالإضافة لحدّة طبعها**[٩]. وكانت حفصة تعرف الكتابة والقراءة وكان هذا أمرًا نادرًا بين الرجال، ناهيك عن النساء، فى تلك الأيام، وقد أثبتت أنّها صعبة المراس تشارك أباها عمر بن الخطاب فى كل صفاته الشخصية. وقد عَرَض عمر بن الخطاب على عثمان بن عفان أن يتزوجها فرفض، وكان عثمان ثريًا محترمًا ذا مكانة وسابقًا للإسلام، وربما فهم عمر هذا الرفض على أنّ له بعدًا اجتماعيًا، فعرضها على أبى بكر الذى هو من الطبقة الاجتماعية نفسها فرفض بأدب، وأدرك النبى محمد الاضطراب الذى قد ينشأ بين صحابته المقرَّبين فطلب من عمر أن يزوّجه حفصة، وفى الوقت نفسه زوَّج عثمان بن عفان إحدى بناته (أى بنات النبى). إنّ هذا يمثل جانبًا رائعًا وكاملاً من الدبلوماسية الداخلية (فى نطاق البيت الواحد in-house diplomacy). **ورأت عائشة من ناحيتها ـ بهدوء أنّ حفصة لا تشكّل أبداً تهديداً لمكانتها** (★) **عند النبى**، وأظهرتهما روايات هذه الفترة، صديقتين، وقد أذْنبتا بإفطارهما معًا breaking a fast (فى نهار رمضان) على طبق من اللحم وقد اعترفتا بهذا بعد ذلك. وذات مرة أرسلتا ضرَّتهما سَوْدة بنت زمعة بما يُحطِّم الأعصاب وهو خبر مُفاده وصول الدجّال أو النبى الكذّاب، وكان وصوله المرتقب مَبْعث خوف شديد. وكانت حفصة فى غالب الأحيان مرفوضةً باعتبارها امرأة مثقّفة مولعة بالفكر ومرتبطة بأبيها ومجرّبة لزوجها trial to her husband، وكان إيمانها المطلق بالإسلام مرتبطًا بعقل منفتح لمّاح دائم السؤال. وعندما دخل النبى محمد غرفتها ذات يوم معلنًا أنه يأمل ألاّ يدخل أحد ممن بايعوه تحت الشجرة فى الحديبية، نار جهنّم اعترضت حفصة مستشهدة بآية قرآنية ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾(٧١) ﴾ (سورة مريم/الآية: ٧١) وقبل النبى التصحيح لكنه ردّ عليها مقتبسًا أيضًا من القرآن ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾(٧٢)﴾ (مريم/الآية: ٧٢).

هذا الحوار العرضى كانت له انعكاساته بعد ذلك، وجرى تذكّره ليكون أساس عقيدة المسلم فى الأعْراف (الحاجز بين الجنّة والنار)، فكل المؤمنين سيمرون من فوق جهنم

(★) لا يمكن تصديق هذه الرواية نظرًا لما عُرف من تديُّن حفصة وعائشة، وما آفة الأخبار إلا رواتها! (المعلق).

لكن الصالحين سيكونون فى حماية، بشكل أو بآخر، من الفزع الكامل الذى تُسبّبه هذه التجربة. وهناك اقتناع شائع أن الأعراف جسر من نار فوق جهنّم يمر فوقه المتجه إلى الجنّه.

ويبدو أيضًا أنَّ حفصة فى أواخر حياتها كانت مصدرًا أوّليًا لكثير من الأحاديث النبويّة التى رواها أخوها الشقيق عبد الله. وليس هذا هو كل شىء، فالروايات تشير إلى أن حفصة كانت تحتفظ بأقدم نص مكتوب للقرآن، فلم تكن هناك (نسخة كاملة) من القرآن إلاّ عندها، وهى ـ أى هذه النسخة سابقة لنسخة (النص : طبعة edition) عثمان المحدّدة، وهى التى عمّمها فى الأمصار (الأقطار) (النص Uthmans First def-inite edition). وعلى هذا، فقد كانت حفصة أبعد من أن تكون مصدر ارتباك فى منزل النبى وأبعد من أن تكون خرقاء غير لبقة، بل كانت شخصية ذكية جدًا ساعدت فى تَقْنين الإسلام (ضبط نصوصه Codification of Islam) . وعاشت حفصة بعد وفاة النبى خمسة وثلاثين عامًا ظلت خلالها معروفة بالصلاح والتقوى ومداومة الصلاة (كانت صوّامة قوّامة).

وبعد حوالى سنة من زواج النبى بحفصة، اتّخذ زوجة أخرى هى زينب بنت خزيمة وهى ابنة أحد الشيوخ البدو، وإن كان هناك بعض الاضطراب فيما يتعلق بتاريخها السابق. ربما تزوّجت مرتين قبل اقترانها بالنبى إذ كانت عند زواجها بالنبى أرملة، ولا نعرف ـ على سبيل اليقين ـ مرة أخرى ما إذا كان زوجها (أو أزواجها) قد مات فى غزوة بدر أم فى غزوة أحد. وقد عُرفت زينب بأنها امرأة صالحة تقيّة تُكثر من التّصدق على الفقراء، لكنها لم تترك أثرًا كبيرًا فى منزل النبى الذى عاشت فيه عامًا واحدًا لا غير قبل أن يُوافيها الأجل. على أية حال، سرعان ما غَمَر ذكراها الظل، فبعد شهر واحد من مماتها تزوج النبى بأم سَلَمة فى يناير سنة ٦٢٦. **وأدت العلاقة الأخوية بين عائشة وحفصة إلى قيامهما بالتحالف ضد هذه الزوجة الجديدة (الشريك الجديد new partner).**

تقول عائشة : «لما تزوّج رسول الله أم سلمة حزنتُ حزنًا شديدًا، لما ذكروا لنا من جمالها، فتلطَّفتُ لها حتى رأيتُها، فرأيتها ـ والله ـ أضعاف ما وُصفت لى فى الحُسن والجمال، قالت فذكرتُ ذلك لحفصة. **وكانتا يداً واحدة**. فقالت : لا والله إنّ هذه إلاّ الغيرة، ما هى كما يقولون، فتلطّفت لها حفصة حتى رأتها.. فقالت إنها لجميلة.. وكانت عائشة غَيْرى».

ولم تُهادنْها عائشة، فقد كانت أم سلمة امرأة مميَّزة فقد كان زواجها بزوجها الأول (أبو سلَمَة) نموذجًا لارتباط عميق، وكان زوجها من السابقين للإسلام، فهو رقم ١١ فى سلسلة معتنقى الإسلام. وقد رفضت أسرتها القُرشية الفخور فى مكة الوثنية السماح لها. فى بداية الأمر - بالهجرة إلى المدينة لتلحق بزوجها المسلم، بل لقد خطفوا طفلها، لكنهم تأثَّروا بحزنها الشديد، فلانوا أخيرًا، لكن أحدًا من عشيرتها لم يُرد أن يحرس أم سلمة وطفلها وهما فى طريقهما للمدينة فكانت مضطرة لشراء جمل، "ولحسن الحظ فبعد أربعة أميال لا غير، وعند إحدى محطَّات توقف القوافل التى يُقال لها التنعيم التقت بعربى يتحلَّى بأخلاق الفروسية، كان يحرس الطريق عبر صحارى شبه الجزيرة العربية القديمة (كان أحيانًا يحرسه وأحيانًا يقوم بعمليات سلْب ونهب). ورغم أن هذا الرجل (عثمان بن طلحة) كان لا يزال على وثنيَّته، إلاّ أنه حرسها طوال الطريق إلى المدينة، واعتاد - عند كل مرحلة من مراحل التوقّف - أن ينام بعيدًا عنها تحت بعض الشجيرات البعيدة عن الشجيرة التى تكون هى عندها. أما أثناء المسير، فكان دائم التعنيف لمطيَّته مُمسكًا باللّجام فى يده متعمِّدًا أن يسير فى المقدّمة أى أمام الجمل الذى تركبه أم سلمة. وكان هذا الرجل يعلم بالضبط أيضًا مكان زوج أُم سلمة فى المدينة، لكنّه - أدبًا منه - عاد بمجرّد توصيلها إلى قرية صغيرة hamlet لعمرو بن عوف، وكان حريصًا على ألاّ يقدّم له أحد شكرًا أو مكافأة فالرجل فى اعتقاده لم يفعل سوى «الواجب» على وفق ما تقتضيه أخلاق الفروسيَّة. وكان زوج أم سلمة واحدًا من المقاتلين الأبطال المسلمين الأوائل، حارب فى غزوتَىْ بدر وأُحد وأُصيب بجروح بالغة فى هذه الغزوة الأخيرة (أُحد) لم يُشف منها، وخلال بقائه فى المدينة أنجبت له أم سلمة بنتين.

وفى فترة ترمُّلها تقدم لها أبو بكر وعمر فرفضتهما كليهما، لكنها - أخيرًا - انضمّت لبيت النبى زوجةً له، وإن كانت قد اعترضت فى البداية قائلة إنها تقدّمت فى العمر وإنها تعُولُ أيتامًا، فأجابها النبى محمد بما معناه: أمّا قولك إنّى امرأة مُسنَّة، فأنا أسنّ منكِ (أكبر سنًا منك)، وأما قولك إنك أم أيتام، فإن كلّهم على الله وعلى رسوله، وأما قولك إنّك شديدة الغيرة فإنّى أدعو اللّه أن يذهبَ ذلك عنك. وهكذا أتت أم سلمة بيت النبى؛ امرأة فى منتصف العمر تتحمَّل مسئوليات وذات وقار خاص. **وسرعان ما وجدت أم سلمة فى صحبة فاطمة ابنة محمد الجادة حسنة التفكير شيئًا رائعًا، لقد كانت صداقتهما أقرب ما تكون فطرية وأثمرت صداقتهما وأثمرت، فمن ناحية كانت كلتاهما مسئولتين عن تربية أطفال.** وبعد ذلك بسنوات طوال تذكر عمر، ابن أم سلمة، الفترات

التى كان يجلس فيها على فخذَىْ زوجة أبيه ومشاركته فى تناول الوجبات البسيطة فى منزل النبى. **وتطورت العلاقة بين أم سلمة وفاطمة لتكوّن محوراً منافساً لمواجهة محور عائشة وحفصة، وسيتطور هذا المحور ليُلقى بظلاله ـ فيما بعد ـ على الصَّدْع التاريخى المشهور بين الشيعة والسنّة.**

وكانت فرصة الارتحال مع النبى سواء فى غزواته الحربية أم فى رحلاته التى يدعو فيها إلى الله، تتم بين زوجاته بالقُرعة by lot، رغم أنَّ كثيرات من زوجاته ـ فيما يبدو ـ كنَّ يُفضّلن البقاء فى البيت، فيما عدا **عائشة وأُم سلمة، فقد كانتا تفضلان الترحال مع النبى، ومن المؤكدّ أنّ أم سلمة كانت دائمًا مع النبى فى كل الرحلات والغزوات الحقيقية الحاسمة، مثل رحلة العُمْرة التى انتهت بصلح الحديبية (٦٢٨) كما كانت معه أيضًا فى مقر القيادة عند حصار المدينة ـ أى فى غزوة (معركة) الخندق (٦٢٧)، وكذلك أثناء غزو واحة خيبر (٦٢٨).**

وقد أثبتت أم سلمة أنها مستشارةٍ حكيمة للنبى، فالحقيقة أن نصيحتها للنبى فى الحديبية، بأن يُقدِّم أُضحيته أمام جيشه الذى اقترب من العصيان mutiny، أدّت إلى الحل السعيد الذى توصل إليه النبى فى هذا اليوم [١٠]، وقد أُوتيت أم سلمة ذاكرة مدهشة، فقد أصبحت هى ومنافستها عائشة ـ بعد وفاة النبى، أحد مصادر تعاليم الإسلام. فكما اعتاد مروان أن يقول معلنًا: طالما كانت إحدى زوجات النبى تعيش بيننا، فلا حاجة لنا فى استفتاء (استشارة) أحدٍ آخر. بل إنَّ ذاكرة أم سلمة لم تهتز حتى ولو بفعل الاحتشام فيما يتعلق بحياتها الجسدية physcial مع النبى. فالمسلم لا بد أن يغتسل بعد الجماع، لكن توقيت هذا الاغتسال ودرجته كانا محل اهتمام مستمر من المسلمين الأوائل، ذلك أنّ النجاسة (أو عدم الطهارة الطقسية) كانت ـ ولا تزال ـ تُبطل الصومَ والصلاة، لقد تذكَّرت أنها سألت النبى عما إذا كان يجب عليها أن تفُك (تُرسل) شعرها الطويل الذى كانت قد ضمته (أو ضَفَرته) جيدًا، كى تغسله جيدًا بعد أن جامَعَها (زوجها النبى)، فأجابها أنْ لا، وإنما يكفى تمامًا أن تدعكه بعناية وتخلِّل الماء حتى مَنْبته، وتصب عليه الماء ثلاث مرّات. وفى مناسبة لاحقة، أجابت عن بعض الاستفسارات، بعد وفاة النبى، من هذا القَبيل، إذ أفادت أنه ليس من الضرورى أن يقوم المرء من النوم بعد مباشرة الجماع كى يغتسل (يتطهّر من الجنابة) فى الليل، ذلك لأن النبى اعتاد بعد هذه المناسبة أن يظل نائمًا حتى الصباح دون أن يغتسل، بل إنه كان يتناول طعام الإفطار وهو لم يغتسل من الجنابة بعد. وواصلت حديثها شارحة أن الغُسل ليس بسبب القَذْف ejaculation ، وإنما بسب الجماع Cupulation. وعندما أكّدت

عائشة هذا أصبح هذا الأمر ممارسة مقبولة فى كل مجتمع المسلمين. وقد خطَّأ أحد المعاصرين الناقدين نفسه قائلاً: بالفعل إنَّهن أَدْرَى.

وفى الأوقات العصيبة، وأوقات الأحزان كانت أم سلمة تنصح المسلمين بأن يرددوا الآية الأثيرة لديها ﴿إنَّا للَّه وَإنَّا إلَيْه رَاجعُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٦) وقد أصبح هذا الترديد لمثل هذه الفقرات (الآيات) الدينية سائدًا حتى الآن عند موت أحد المسلمين. وكانت واثقة من نفسها شاعرة بالأمان بالقدر الذى جعلها تسأل النبى لمَ ترثُ المرأةُ نصف الرجل؟ هل لأنها لا تحارب أى لا تخوض الغزوات؟ وسألت مرةً لمَ لا يرد ذكر النساء فى القرآن، فكان الرد حاسمًا وسريعًا فى السورة (٣٣ : الأحزاب) ﴿إنَّ الْمُسْلمينَ وَالْمُسْلمَات وَالْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات﴾. لا نظير لأم سلمة من حيث دورها فى تفهيم البشرية كلها رسالة محمد. لقد عاشت حتى بلغت أربعة وثمانين عامًا، أى بعد وفاة عائشة بأشهر قلائل. وظلَّت مكتبةً حيَّة غاصّةً بالمعلومات حتّى أيّامها الأخيرة، وقد روت عن النبى ـ على الأقل ـ ٣٧٨ حديثًا، وهذه الأحاديث أُسندت إليها مباشرة، وذلك غير أحاديث أخرى روتها ولكنها لم تصلنا إلاّ من خلال رواة ثقات مثل عبد الله بن عبّاس.

وبعد أقل من عام بعد أن تزوّج النبى أمّ سلمة، زاد عدد الزوجات فى بيت النبوة. لقد تزوّج النبى من زينب بنت جَحْش، وكان زواجه منها ولا يزال محلّ جدال كثير لدى الباحثين الغربيين الذين تناولوا حياة محمد. لقد كانت جميلة وهى ابنة عمَّة النبى (أمها هى أميمة بنت عبد المطّلب بن هاشم)، وهاجرت من مكة إلى المدينة، ولم يكن لها فى بادئ الأمر بيت لتقيم فيه، وكان النبى قد دبّر تزويجها من ابنه بالتبنِّى ـ زيد الذى كان يثق فيه ثقة كبيرة؛ لكن أصحاب النبى ممّن هم أكثر تحفُّظًا ـ فى نظرتهم الاجتماعية ـ لم يكونوا ـ دائمًا ـ يشاركون النبىّ حبَّه لزيد. ولم يكن يمكن لزينب بنت جَحْش أن تتغاضى أبدًا عن حقيقة أنَّ زيدًا لم يكن قُرشيًا وإنما أتى مكة، أوّل ما أتى، رقيقًا أسيرًا، واشترته خديجة من سوق عكاظ، وقدمته هدية لمحمد بمناسبة زواجه منها، ولم تكن زينب بنت جحش الفَخُور المعتزة بنفسها لتنسى أنها حفيدة شيخ بنى هاشم. لذا، فعندما وقع النبىَ محمد فى حبّها بعد نَظْرة تمت فى مقابلة غير مقصودة(★) معها، فهتف مندهشًا: سبحان مقلّب القلوب! لقد استطاع زيد ـ أخيرًا ـ أن

(★) هذه ـ كما تعهد ـ رواية كثير من المستشرقين، وهى رواية تقوم على نسج الخيال. ألم يكن محمد ﷺ يرى زينب قبل ذلك حتى يحبها فجأة فى مقابلة غير مقصودة! إن الرواية الإسلامية الواردة فى القرآن الكريم أنه زواج بأمر الله حتى يشرع الله سبحانه الزواج من مطلقة المتبنَّى ويسقط ما كان فى الجاهلية من يحكم ذلك. (المعلق).

يتخلّص من هذه الزوجة المتعجرفة imperious التى لا يحبها (ولا تحبه unloving wife)؛ خاصة وهو يعلم الآن أنه سيعيش داخل المجمع السّكنى للنبى. ولقد رفض محمد فى بداية الأمر أن يطلّق زيد زوجته هذه قائلاً له: أمسِك عليك زوجك، أى لا تطلّقها، وكان زيد يُصغى باحترام لتوجيهات النبى، لكنه سرعان ما انفصل عنها.

ومضت فترة لم يحدث فيها شىء، فقد كان فى حوزة النبى ـ بالفعل ـ أربع زوجات، وكان عمره وقتئذ ستين عامًا وكان قد طلّق سودة وزينب الأولى first zaynab، وكان زيد أصغر من النبى بعشر سنوات لا غير، أما زينب بنت جحش، فكان عمرها أقل من الرابعة عشرة بقليل. وبعد شهرين، وبينما كان النبى يتحدّث مع عائشة، نزل عليه الوحى فجأة، ولما ملك زمام نفسه تساءل من ذا الذى سيخبر زينب بنت جحش بخبر طيب، ذلك أنّ الله زوّجنى إياها (زوّجناكها). فلما علمت زينب بنت جحش بالخبر شكرت الله، وأخذت حُليّها الفضّية وأهدتها للنبى، على وفق التقاليد المحكمة ex-travagant لتلك الأيّام. **وبعد ذلك أحسّت عائشة ببعض الاضطراب لتباهى زينب بنت جحش بأن الله هو الذى زوّجها**، وقد ردّت عائشة بعبارتها المشهورة التى معناها ما أسْرع ما زوّجك ربك. والغربيون يعتبرون هذه العبارة نوعًا من السخرية الصارخة، أما المسلمون الأتقياء فيفهمونها بارتياح يُفيد أن الله يرعى النبىّ رعاية خاصّة.

وبعد فترة يسيرة من هذا الحدث غير العادى، أنزل الله على محمد السورة رقم ٣٣ (الأحزاب) وبها ٧٣ آية. لقد نزلت بعد زواج النبى من زينب بنت جحش مباشرة، وقال آخرون إن هذه السورة مكوّنة من مجموعة آيات نزلت متفرّقة ولم تنزل جُملة واحدة، وإنما فى مختلف المراحل التاريخية التى نزل فيها الوحى. لقد وُجهت هذه الآيات الشهيرة لكل المؤمنين رغم أن عددًا من الآيات فى هذه السورة تركّز الاهتمام على نساء آل البيت، ومن بينها آية شديدة اللهجة **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾**. (الأحزاب، الآية: ٤٠) والمعنى أيضًا أن النبى ليس أبًا لواحد بعينه وإنما هو بمثابة أب لكل المؤمنين in a sense a fa-ther to all believers، وزوجات النبى حتّى اللائى لم يُنجبن هن أيضا أمّهات للمؤمنين. وهذه الآيات تنصح نساء بيت النبوة كالتالى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ

وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾ (الأحزاب ، الآيات: ٣٠ - ٣٣) . هذه الوصايا موجّهة ـ على نحو خاص ـ لزوجات النبى اللاتى لهن مكانة مُشرّفة، ويسكنَّ فى مكان عام، على نحو غير عادى، فغُرفهنّ الصغيرة قائمة داخل باحة مفتوحة يستخدمها النَّبى لعقد الاجتماعات وللصلاة.

وفى الآية ٥٣ من سورة الأحزاب نقرأ هذه التعليمات :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾. (الأحزاب، الآية:٥٣).

واعتُبرت هذه الآية توجيهًا انتقاديًا لما حدث فى تلك الليلة المشوّشة chaotic ـ ليلة الاحتفال بعُرس زينب بنت جحش عندما أطال المدعوون البقاء بغير مُبرّر.

وسواء أكان هذا هو سبب نزول الآية أم لا، فقط أصبح هذا التوجيه (القرآنى) الآن أحد أركان السلوك الاجتماعى للمسلمين (الإتيكيت عند المسلمين)، فعند تجمع المسلمين لتناول الطعام يؤخر المضيف تقديم الوجبة أطول وقت ممكن حتى يتيح للضيوف فرصة الحديث والمناقشات؛ لأنهم ـ أى الضيوف ـ يعلمون أنه عليهم المغادرة فور انتهائهم من تناول الطعام.

والنصائح الكثيرة الموجهة للمرأة المسلمة والواردة فى الآية رقم ٥٩ (من سورة الأحزاب) والتى يجرى الاستشهاد بها كثيرًا، هى أكثر التصاقًا بموقع جُغرافى بعينه، وببساطة منزل النبى فى المدينة، فهذا المنزل الباحة Courtyard house ببساطة الممرات المؤدّية إلى حجرات النوم لم يكن بها دورات مياه لقضاء الحاجة Lavatory ، مما يجعل قاطنيها مضطرين للخروج للتوارى خلف الشجيرات المحيطة (لقضاء الحاجة) وأثناء الليل، وعند العجلة (بسبب الرغبة فى قضاء الحاجة سريعًا، كانت زوجات النبى يخرجن غير ملتزمات دائمًا بحجابهن المتواضع كما يجب. وفى مثل هذه الحالة قد تختلط الأمور فتبدو زوجة النبى كامرأة عاديّة عابرة أو كجارية، فتتعرّض

بغير حشمة، لمن يراودها عن نفسها. ولذا؛ يمكن أن نقرأ هذه الآية ـ ببساطة ـ فى ظل هذه الظروف، إنها تنصح أهل بيت النبى بالاحتجاب الكامل حتى يُعرفن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)﴾. (الأحزاب، الآية: ٥٩). وكان عمر بن الخطاب، شديد التقوى، قد سبق له أن ناقش النبى فى هذا الموضوع، لأن عمر أخطأ سودة زوجة النبى (★) فى مكان منعزل فى ظلمة الليل فتعثَّر فى سودة القصيرة السمينة، فكان هذا مثار نفوره.

من مثل هذه التعليمات العملية أسست الأجيال اللاحقة من الفقهاء والعلماء المتشددين فى العصور الوسطى تقنيناتها بفرض القيود على المرأة المسلمة. ومازال كثير من هذه القيود قائمًا حتى اليوم. وهناك آيات قرآنية أخرى تتعرض للزى المناسب، ففى السورة رقم ٢٤ (النور) نقرأ الآية رقم ٣١:﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾. **وهذه التعليمات كفيلة بتشجيع التواضع الطبيعى، خاصّة عندما نتذكَّر أن النبى كان يخاطب أناسًا عاشوا فى بيئة واحة المدينة التى اتسمت بالتحرر الجنسى إلى أقصى درجة.**

عندما كان النبى يصطحب زوجاته فى غزواته وعند قيامه برحلات أو زيارات للدعوة إلى دينه، كانت الواحدة منهن تركب فى هَودج على ظهر جمل أو ناقة (الهودج مقعد خفيف مُتظلل، مصنوع من أعمدة مبسوط فوقها ـ أو حواليها، جلد). ولما كانت عائشة هى أصغر زوجات النبى وأخفّهن وزنًا وأكثرهن جُرأة (حبًا للمغامرة)، فقد كانت فى الغاية من الهمة والنشاط فى هذه الغزوات أو الرحلات.

(★) سبب نزول هذه الآية وآية الحجاب غير ذلك ولم يرد أن عمرًا أخطأ سودة، وليس هناك قيود على المرأة المسلمة مثل تلك القيود على نساء النبى ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: «يا نساء النبى لستُنَّ كأحدٍ من النساء» (الأحزاب: ٣٢). (المعلق).

وفى يناير سنة ٦٢٧، سمع النبى أن بنى المصطلق ـ وهم عشيرة فرعية قوية من قبيلة خزاعة، التى كانت تتحكم فى طريق القوافل على طول ساحل البحر الأحمر ـ يستعدون لشنّ غارة على المدينة فقرّر أن يُبادئ بضربهم، واستولى منهم على آلاف الأغنام والماعز والجمال بالإضافة إلى أسْر مائتين من رجالهم. وكانت عائشة وأم سلمة مصاحبتين لجيش المسلمين فى هذه الغزوة الناجحة ـ وكان كل المقاتلين واعين لوجودهما. ولم يكن لوجود عائشة الشابة أى تأثير على كفاءتهم العسكرية (المقصود أنّ النبى لم يصطحب عائشة الشابة لبث الحماسة فى الجنود، وإنما لأنها زوجته)، وبمجرد أن استعدت قوّات المسلمين للتحرك بعد فترة راحة قصيرة فى الغسق، أكتشفت عائشة أنّ قلادتها الأثيرة لديها قد انسلّت من رقبتها, لقد فزعت فزعًا شديدًا حزنًا على هذه السلسلة الثمينة المعمولة من العقيق اليمانى. ومع زيادة الظلمة لم تستطع أن تعثر عليها. لقد اعتراها يأس مصحوب بفزع بارد خرافى، ذلك لأنّ هذه القلادة كانت هى الهدية التى قدّمها لها النبى يوم عُرسها. وقد أصدر النبىّ أوامره لجيشه بأن يعسكر فى مكانه مراعاة لهذه الظروف، رغم أنهم كانوا يتوقون للانطلاق فى هذه الساعات الباردة من الليل لمفاجأة عدوّهم وقد غفل عن الحراسة. ولأنه لم يكن مع الجنود مياه ولم تكن هناك بئر قريبة يعرفونها فى هذا الليل، فقد راحوا يردّدون اسم عائشة مشفوعًا باللوم والتوبيخ، وعندما أتى الصباح بنوره لم تعثر عائشة على قلادتها، لكن عندما نهض جملها مستعدًا للمسير تم اكتشاف أن جملها كان باركًا على القلادة، ورغم أنّ أباها أبا بكر أنّبها إلاّ أنها ظلّت عزيزة غالية فى عيْن زوجها (النبى). وبعد أيّام قليلة راح الجيش يراقب بدهشة وابتهاج محمدًا وعائشة وقد برزا من خيمتهما وراحا يتسابقان فى وادٍ ذى رمال ذهبية، وكل منهما يتحدّى الآخر أن يكون هو الأسرع. وبعد أعوام تذكّرت عائشة هذا المشهد الرائع وكيف أنّها شمّرت عن ثوبها وكذلك فعل النبى وكيف راحا يتسابقان وكيف كان هو الفائز، وفى سباق آخر فازت هى، فقال لها: هذه بتلك، أى لقد سبقِتنى مرة وسبقتك مرّة، مذكّرِيْن أحدهما الآخر بذكريات سعيدة.

وبينما تقترب المسيرة من نهايتها ولم يكونوا قد ابتعدوا عن المدينة بأكثر من يومٍ ركوبًا، نزلت عائشة، فى إحدى محطات التوقف المعتادة، من هودجها وصعدت أحد الكثبان الرملية للتوارى خلفه بعيدًا عن عيون الرجال، وهى تُلبى نداء الطبيعة an-swered the call of nature (وهى تفعل كما يفعل الناس أو وهى تقضى حاجتها)، ولمّا انتهت وكادت تصل إلى هودجها مرّة أخرى، تحقَّقت من أن قلادتها الثمينة قد انسلّت ـ

مرّة أخرى ـ من رقبتها، فعادت راجعةً ببطء متتبّعة آثار أقدامها الواضحة على الرمال باحثة عن عقدها الثمين عند كل خطوة تخطوها. وفى هذه الأثناء كان الرَّكب (الجيش) قد واصل المسيرة بدونها. ولما عادت عائشة إلى مكان هودجها وجدت المكان خاليًا فتصرّفت بهدوء تصرفًا سليمًا بأن جلست فى موضع هَوْدجها منتظرةً بصبر من يأتى لنجدتها. لم يشعر أحد فى الجيش بغيبتها (ظنًا منهم أنها داخل هودجها) ولمّا مرّت عليها السّاعات غطّت نفسها بحجابها اتقاء الحرّ الشديد ونامت. وجاء من ينقذها، لكنها كانت نجدةً غير متوقَّعة. لقد أتى شاب بدوى من قبيلة بنى سُليم، هو صفوان بن المعطّل، مارًا عَبْر شبح عائشة النائمة (ذلك أنه لم يتبيّن أنها عائشة)، وتوقَّف صفوان إزاءها فلما فتحت عينيها واستيقظت من نومها فجأة، تبيّنها (عرف أنها عائشة) فخطا للخلف خطوات قائلاً: ﴿إِنَّا لِلَّه وَإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ﴾. إنها ظعينة (زوجة) رسول الله.

وهيّأ صفوان ـ بكياسة ـ جِلْسة فوق جمله وراح يحرسها فى الطريق إلى محطة العودة التالية. فلما برزا وجرى تبيّنهما، راح الجميع يتحدثون فى هذا الأمر خاصة أنّ أحدًا منهم لم يكن قد تبيّن حتى هذه اللحظة غياب عائشة أو أنها لم تكن فى هودجها.

وما إن عادوا للمدينة، بدا كأنَّ ما حدث قد جرى نسيانه لأن رجال الحملة المنتصرة انشغلوا بتقسيم الغنائم. وكان النبى فى غرفة عائشة عندما فتحت الباب لجويْرية الأسيرة ابنة شيخ بنى المصْطلق. وتذكرتها عائشة فيما بعد واصفةً إياها بأنها ذات جاذبية شديدة وجمال وما من رجل نظر إليها إلاّ أسرت روحه. وقالت عائشة إنها ما إن رأتها عند باب حجرتها (حجرة عائشة) حتى امتلأت ريبة وشكًا misgivings. «قالت عائشة: أصاب رسول الله من نساء بنى المصطلق.. وكانت جويرية امرأة حُلوة لا يكاد يراها أحدٌ إلاّ أخذت بنفسه، فبينما النبى عندى إذ دخلت عليه جويريّة تسأله فى كتابتها (إطلاق سراحها مقابل فدية)، فو الله ما إن رأيتها حتى كرهتُ دخولها على النبى، وعرفتُ أنّه سيرى منها مثل الذى رأيت. فقالت جويرية للنبى: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيّد قومه، وقد أصابنى من الأمرِ ما قد علمت... فأعنّى فى فِكاكى، فقال لها النبى: أوَخير من ذلك؟ قالت: ما هو؟ قال: أؤدى عنك كتابتك (أدفع المطلوب لإطلاق سراحك) وأتزوّجك. قالت: نعم يا رسول الله. قال النبى: قد فعلتُ» فلما علم الناس أطلقوا كل أسرى بنى المصطلق قائلين: لا يجوز أن يُسترقّ أصهار رسول الله. قالت عائشة: «لا أعلم امرأة أعظم بركةً على قومها منها ـ أى من جويريّة».

ثم أتت لحظة المحاكمة الكبرى لعائشة. فبعد أن جرى الترحيب بجويرية فى المجمّع السكنى للنبى وبعد أن تمّ بناء غرفة جديدة لها، رقدت عائشة مصابة بالحمّى، وشعرت عائشة بشىء من عدم اهتمام النبى بها، وكانت الغيرة تأكلها من الزوجة الجديدة (جويرية) فاتجهت إلى بيت أبويها لتقوم أمها بتمريضها وبعد ذلك بعشرين يومًا نهضت من مرضها، لكن كانت الواحة (المدينة) تغُصُّ ـ فى ذلك الوقت ـ بإشاعات عن صفوان وعنها. وأفادت هذه الشائعات أن صفوان هو عشيقها السرّى وأنها خدعت النبى. والمفسّرون المعاصرون يفسرون هذه الإشاعات تفسيرًا سياسيًا مُرجعينها إلى المنافقين فى المدينة (الذين أعلنوا إسلامهم نفاقًا) الذين ربما أرادوا هزَّ موقف النبى. وربما كان فى هذا التفسير شىءٌ من الصحّة، وإن كان من الواضح ـ بالدرجة نفسها ـ أن كثيرين من الذين خاضوا فى هذا الموضوع disseminators كانوا من المسلمين الصالحين الذين راحوا يتحدثون ـ ببساطة ـ عن إشاعات الحب، ومكائد العشّاق مثل حسّان بن ثابت الشاعر المُوالِى للنبى وأحد المقرَّبين إلى عائشة وحَمْنَة بنت جحش أخت زوجة النبى وابن عمته زينب بنت جحش.

ومهما كان المصدر، فقد اضطرب النبىّ اضطرابًا واضحًا، فهو لم يدَّعِ أبدًا قدرته على معرفة دفائن قلوب البشر، ولم يدَّعِ أبدًا أية قدرات إعجازية، ولما سُئل قال بصراحة كاملة إنه لا يُعلم إلاّ ما أعلمه الله إيّاه، أما أسامة بن زيد فهبّ للدفاع عن عائشة قائلاً: «يا رسول الله أهلُك! ولا نعلم منهم إلاّ خيرًا، وهذا هو الكذب والباطل» وكان لا بد أن يكون لرأى أسامة وزنه فهو حفيد النبى بالتبنّى (كان أبوه هو ابن النبى بالتبنِّى) لكن أسامة كان تقريبًا فى مثل سنّ عائشة؛ لذا لم يكن لرأيه جاذبية تجذب المستمعين له. وعندما سأل النبى بريرة، جارية عائشة، قالت بوضوح: «والله ما أعلم عنها (عن عائشة) إلاّ خيرًا، **وما كُنتُ أعيبُ على عائشة شيئًا، إلاّ أنّى كُنتُ أعجن عجْنتى، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشّاة فتأكله**».

وبعد أداء الصلاة فى المسجد، طلب النبى بشكل غير مباشر أن يجتمع حوله المصلون وأعلن «والله ما علمتُ منهم إلاّ خيرًا (يقصد عائشة) ويقولون ذلك لرجل (صفوان بن المعطل) والله ما علمتُ منه إلاّ خيرًا، وما يدخُل بيتًا من بيوتى إلاّ وهو معى». وأومأ المصلون بما يفيد موافقتهم على ما يقول، لكن سرعان ما عمّت الفوضى إذ دخل فى هذا الأمر من حاول تأجيج الصراع بين الحيَّيْن المتنافسيْن؛ الأوس والخزرج

فى المدينة. قالت عائشة: «وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيّين من الأوس والخزرج شر».

وجاء دوْر علىّ بن أبى طالب زوج فاطمة ابنة النبى. لم يكن علىٌّ ـ فى حقيقة الأمر ـ يشك فى براءة عائشة؛ لكنه قدم لسيّده (النبى) نصيحة واضحة صارخة قائلاً: «يارسول الله، إنّ النساء لكثير، وإنّك قادر على أن تَسْتَخْلف (تتزوّج غيرها)».

وقد كان معنى هذا الكلام هو أنّ عليًا ينصح النبى بأن يطلّق عائشة وأن يختار ـ بدلاً منها ـ زوجة (شريكة Partner) تكون أقل إثارة للمشاكل (Less Contentious). كان ردّ على قطْعًا للحبال off-the-Cuff، وكان هذا الرأى المحايد أو النزيه أو غير المتحيز Candid remark محسوبًا ـ من وجهة نظر عائشة ـ ضدّه، فقد ظلّت طوال ما بقى من حياتها غير مسامحةٍ لعلىّ موقفه هذا. وتطورت عداوتهما لتصبح أحد عوامل انقسام مجتمع المسلمين (جماعة الإسلام) إلى سُنَّة وشيعة.

وكان محمد ومعظم مَن فى المدينة يترقّبون فى كل يوم نزول الوحى ليجْلى هذا الأمر، لكن الأسابيع تمضى، ولا وحى نزل، وأخيرًا ذهب النبى بعد مرور شهر ليتحدث بنفسه مع عائشة، فوجدها فى غرفتها ومعها والداها الحزينان وجارةٌ واحدة متعاطفة (مع ظروفها)، وكانت عائشة طوال ليلتين ونهار تصرخ (متأوّهة)، وخاطبها النبى بشكل رسمى لا يخلو من الشَّفقة: «يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتّقى الله، وإن كُنت قد قارفتِ سوءًا (ارتكبت سوءًا) مما يقول الناس فاتّقى الله، فإنَّ الله يقبل التّوبة عن عباده» وما إن سمعت عائشة ذلك حتى انهمرت دموعها (قَلُصت دموعها) وكأنما صدر الحكم ضدّها بالفعل، ومما ضاعف من حزنها أنَّ أبويها لم يتقدّما للدفاع عنها، وإنما أجابا عن مناشدتها بخنوع: ما ندرى ماذا نقول.

لم تكن عائشة فى حاجة لأىّ متحدث يتحدّث باسمها (أو دفاعًا عنها) فجفّت دموعها فجأة ووجدت نفسها تعلن بهدوء: «والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ (يا رسول الله) أبدًا، والله إنّى لأعْلَمُ لئن أقررْتُ بما يقولُ الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، لأقولنَّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون لا تصدّقونى».

قالت عائشة «ثم التمستُ اسمَ يعقوب فما أذكره، فقلتُ: لكن أقول كما قال أبو يوسف: فصبرٌ جميل والله المستعانُ على ما تصفون». ثم تراجعت إلى آخر الغرفة وانطرحت على فراشها، وبعد قليل أُجيبت لطلبها (لمناشدتها الله) إذ غمر الغرفة صمت كامل فقد بدأ النبى يتلقّى الوحى الذى طال انتظاره، وعلى حدّ تعبير عائشة: «فَوَالله ما

بَرِح رسول الله مجلسه حتى تغشَّاه من الله ما كان يتغشَّاه ، فَسُجّى بثوبه، ووُضعت له وسادة من أَدَم تحت رأسه، فأمَّا أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعتُ ولا باليْتُ، قد عرفتُ أنّى بريئة، وأنّ الله عزَّ وجلّ غير ظالمى». ثمّ سُرّى عن رسول الله فجلس مبتسمًا وهو يقول: «أبشرى يا عائشة ، فقد أنزلَ الله براءتك». وكان والدا عائشة يقف كل منهما إلى جوار الآخر وقد بدا عليهما الارتياح، وسارعا بأن طلبا من عائشة، أن تنهض من فراشها لتشكر النبى. لقد كان القلق الذى اعتراهما قد عمّاهما عن طبيعة الوحى ـ فالوحى كلمة الله وليس كلمة محمد. أما عائشة فقد نحَّت جانبًا طلب هذين المؤمنيْن (والديها) بدقة تفيد فهمها الجيد للتوحيد، فهما لم يهبّا للدفاع عنها منذ نصف ساعة فقط، لقد قالت عائشة بوقار إنها لن تشكر النبى ولن تشكر أبويها فالذى برَّأها هو الله «فالحمد لله وحده».

لقد كبرت عائشة الآن، وقد عمّقت هذه التجربة الصدْع داخل بيت النبى. فمن الآن فصاعداً ستصبح عائشة صديقة مخلصة لأسامة بن زيد، ودفنت عداوتها القديمة لزينب بنت جحش لما قالته فى حقها من كلام طيب أثناء هذه المحنة. أما بالنسبة لعلى ابن أبى طالب، فقد ازدادت كراهيتها له ـ كراهية ضارية لا حدّ لها(★).

وسرعان ما اكتملت السورة التى نزلت على محمد فى غرفة عائشة بكل آياتها (السورة رقم ٢٤ - سورة النّور)، إنها سورة غير طويلة فى حدّ ذاتها، ولكنها خليط مهيب من الشريعة لطبيعة السلوك الأخلاقى فى المستقبل، وأوصاف ميتافيزيقية (لأمور متعلقة بما وراء الطبيعة)، وفقرات سامية رفيعة، فالآية رقم ٣٥ على سبيل المثال، هاك نصّها:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾. (النور، الآية: ٣٥). أما المشركون (غير المؤمنين) فيوصفون بأنهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا

(★) يبالغ البعض كثيرًا فى ادعاء كراهية بين على وعائشة، والحقيقة أنه لم تكن ثمة كراهية بينهما على الإطلاق لا من جانب علىّ ولا من جانب عائشة. وما خرجت عائشة يوم الجمل إلا للصلح بين على من ناحية وطلحة والزبير من ناحية أخرى، لكنها مشاعر الحرب عندما تبدأ قد لا يُستطاع إيقافها. (المعلق).

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)﴾. وفى هذه السورة نفسها فرض الله ثمانين جلدة على الذين يرمون المحصنات بالزنى ثم لم يأتوا بأربعة شهود، كما فرض مائة جلدة على الزانى والزانية. أما الزوج إذا اتهم زوجته بالزنى أو العكس، ولم يكن لهم شهداء إلاّ أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ويعفيها من العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. وكما هى العادة فى القرآن الكريم، فإن هذه العقوبات القاسية مشفوعة دائمًا برحمة الله، كما فى الآية الخامسة من السورة نفسها «إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم».

ولابُدّ أن عائشة ـ خاصّةً ـ قد ابتهجت للروح العامة فى هذه السّورة كلها. كما أن الآية التى برّأها الله فيها قد نزلت على النبى فى غرفتها (فى حضورها)، وهذا أمرٌ فريد كان مبعث فخرها، فلم يحدث هذا التشريف لأىّ زوجة من زوجاته الأخريات.

وفى السنوات التالية كان منزل النبى على استعداد دائمًا لاستقبال زوجة جديدة، وكانت عائشة ـ دائمًا ـ حريصة مخافة أن تزيحها زوجة جديدة عن مكان الصدارة الذى تشغله (فى قلب الرسول). لقد كانت الزوجة الجديدة شخصية عانت المآسى. إنها **ريحانة بنت زيد**. إنها يهودية من بنى النَّضير التى كانت قد هربت من النَّفى (الإبعاد) الذى فُرض على قبيلتها الثريّة بأن تزوّجت فى إحدى عشائر المدينة اليهودية الأخرى ـ بنى قريظة. وعندما هُزمت هذه العشيرة هى الأخرى أمام المسلمين بعد الحصار الفاشل الذى ضربه الوثنيون على المدينة فى سنة ٦٢٧، أصبحت ريحانة من نصيب محمد كجزء من نصيبه فى الغنائم، أما زوجها اليهودى فتم إعدامه مع كل أقربائها. وقد فضّلت ريحانة أن تبقى محظية للنبى لا أن تكون زوجة مسلمة حُرَّة، وربما كان هذا التفضيل نتيجة أحزانها للقَدَر الذى أصابها وأصاب عشيرتها، وربما أيضًا كان بسبب رغبة حكيمة فى ألاَّ تُعادى أيًا من زوجات النبى اللائى هُنّ فى عصمته فعلاً[١١]. وقد أتاح لها سلوكها الوديع الخَنُوع أن تعيش بهدوء فى بيت محمد وماتت بعد خمس سنوات، وكانت شخصية تعيش فى الظلّ فى بيت كانت فيه مثل هذه الشخصيات القوية.

أما المرأة اليهودية الأخرى فى حريم النبى فكانت هى **صفيّة بنت حُيَى** فلم تكن مثل سابقتها راغبة فى البُعد عن (الأضواء)، رغم أنها أتت بيت النبى بالطريقة نفسها ـ إذ كانت من ضمن غنائم الحرب. وقد قسّم أفراد أسرتها بين المسلمين أما أبوها وأخوها فقد أُعدما بعد هزيمة بنى قريظة، أما زوجها الثانى ـ كنانة، فكان أحد شيوخ اليهود البارزين فى واحة خيبر، وقد أمر النبى بقتله لأنه أخفى أمواله (كنزه) عن المسلمين(★). وكانت الأرملة ذات السبعة عشر عامًا قد أُعطيت مكافأة لمقاتلٍ مسلم هو دحية الكلبى الذى كان معروفًا بأنه أكثر رجال شبه الجزيرة العربيّة وسامة؛ لدرجة أن النبى قارن جماله بجمال المَلك (بفتح اللام) جبريل، لكن صفية نظرت للأمور من منظور آخر. لقد أعادت رواية حُلم مُقلق رأته فى منامها، إذ رأت «قمرًا أقبل من يثرب حتى وقع فى حجرها) وهى فى خيبر. وفُسِّر الحلم على الفور بأن المقصود بالقمر هو محمد النبى، فقدّموا لدحية أسيرة أخرى وأصبحت هى من نصيب النبى. وكان اسمها الأول هو زينب، لكن لدلالة حلمها النبوئية أُعيدت تسميتها فأصبح اسمها صفية أى المختارة se-lected one، للنبى لأنه احتفى بزواجه الجديد هذا بعد مغادرة الجيش خيبرَ بيوم واحد.. وعسكر جيش المسلمين فى سبهاء، وهى مرحلة من مراحل التوقف للراحة، فكلف اثنين من زوجاته لإعداد صفية لفراش الزوجية، (فَمَشّطنها وعطَّرنها) قبل أن تقودها إلى خيمة محمد، ويُقَال إنه لا العريس ولا العروس استطاع النوم هذه الليلة. وخلال رحلة العودة للمدينة بذل النبى جُهده لتكريمها وجعلها تُحس بالتشريف. لقد كان يُجْلسها خلفه (وهى فى الهودج) حتى يتمكن من توجيه النصائح لها فيما يتعلق بكيفية الرّكوب، بشكل صحيح. كما رتّب وليمة بمناسبة زواجه منها. وكان الجيش يعانى من نقص الإمدادات (التموين)؛ لكن الجنود أحضروا أنصبتهم من زبد وتمر وحليب ووضعوها معًا وأقاموا وليمة جماعيّة شاركهم فيها النبى وصفية (المضيّفيْن)، وكانت صفية إذا همت بالركوب «وضع رسول الله رجله لها لتضع قدمها على فخذه.. فسترها رسول الله وحملها وراءه..». وقد أثّرت كلّ هذه الكياسة فى صفية، فأعلنت أنها لم تر رجلاً آخر بمثل هذه الطباع الطيّبة.

وكانت عائشة تتميّز غيظًا وقد اعتراها القلق من هذه المنافسة الشّابة الجديدة؛ خاصة بعد أن كادتها أم سلمة قائلة: «إن الزوجة الجديدة جميلة حقًا وإن رسول الله يحبّها حبًا شديدًا. ولما اجْتلى النبىّ صفية، رأى عائشة منتقبة فى وسط الناس (أى متنكِّرة) فعرفها النبى فأدركها فأخذ بثوبها فقال : يا شقيراء كيف رأيت؟ قالت: رأيت

(★) لم يكن إخفاء أمواله السبب فى قتله. (المعلق).

يهوديّة بين يهوديّات، فقال لها النبى: «لا تقولى هذا يا عائشة فإنها قد أسلمت وحَسُن إسلامها». ومع هذا، فقد كان وضعها لا يزال ضعيفًا فى بيت النبى إذ كانت ضرائرها ينادينها: يا بنتَ حُيَىّ، لأن أباها كان عدوًا قديمًا للمسلمين، فعلّمها الرسول ردًا مفحمًا، إذ قال لها: «قولى لهن، إن أبى هو هارون أما عمّى فهو موسى».

ذلك أن النبيّين اليهوديين الكبيرين يحظيان أيضًا باحترام كل المسلمين. لقد ثبت أن النزاع المؤدى لمعاداة اليهود كان سحابة صيف عابرة، لأن عائشة سرعان ما وجدت فى صفية شابة وروحًا سامية تتمشّى مع طبيعتها، فأصبحت صفية صديقة لعائشة. ولم تجد صفية أبدًا أنّ ولاءها لقومها (اليهود) يتناقض مع عقيدتها كمسلمة، وفى أواخر حياتها كانت توقّر يوم الجمعة لكنها ـ أيضًا ـ كانت تكفّ عن السبت put a side the Sabbath**، إذ كانت تستقبل فيه أصدقاءها اليهود وتوزع فيه الصدقات على أقربائها الفقراء.**

ولم تكن الزوجة التالية لمحمد النبى، والتى أتت من الدائرة الداخلية لمجتمع مكة العشائرى، على الشاكله نفسها. فلقد كان زواج النبى من أم حبيبة ذات الخمسة والثلاثين عامًا بعد زواجه من صفيّة. حقيقة إن أم حبيبة كانت تنتظره عندما عاد جيش المسلمين من غزوة خيبر منتصرًا. لقد طال انتظارها وكان النبى قد بنى لها بالفعل غرفة جديدة لتكون مقرًا لها فى المجمع السكنى للنبى الذى يضم المسجد house mosque. وكان زواج النبى من أم حبيبة ـ فى الأساس ـ اتحادًا سياسيًا، ذلك أنه على الرغم من كونها أرملة مسلمة تستحق التكريم، وسابقة فى الإسلام وتحملت الاضطهاد فى مكة وهاجرت إلى الحبشة ـ فقد كانت أيضًا ابنة أبى سفيان (زعيم مكة الوثنية) وابنة عم النبيل عثمان بن عفان. لقد كان محمد يمهِّد الطريق لأساس تفاوضى بعقد تحالف مصاهرة مع زعيم مكة الوثنى. وعلى وفق ما ذهبت إليه كل الروايات فقد كانت أم حبيبة ذات عقلية جادة، فقد سألها النبى عن تفاصيل بعض الأمور الشرعية مثل الفترة الصحيحة لحداد المرأة المسلمة (ثلاثة أيام على غير الزوج، أما الزوج فحداد الزوجة عليه يمتد ثلاثة أشهر وعشرة أيام). وربما كانت هذه الاستشارات التى قدمتها مستقاة من الثقافة الحبشية التى عاينتها، لأن زوجها الأول، وإن كان قد هاجر للحبشة مسلمًا، إلاّ أنه تحول للمسيحية الأورثوذكسية (القبطية Coptic) خلال فترة النفى الطويلة فى الحبشة. وقد انضمّت أم حبيبة عندما أصبحت فى بيت النبى إلى (حزب) أم سلمة التى كانت تعرفها منذ كانت صغيرة. وبذا أصبحت أم حبيبة عدوّة لعائشة.

وماتت أم حبيبة بعد حوالى ثلاثين سنة من زواجها، وصالحت عائشة وهى على فراش الموت «تقول عائشة : دعتنى أم حبيبة زوج النبى عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا وبين الضرائر، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك. فقلتُ : غفر الله ذلك كله وتجاوز وَحَلَّلك من ذلك. فقالت: سَرَرْتنى سرّك الله». ولم يُكتب على شاهد قبرها اسم أبى سفيان (لم يُكتب أم حبيبة بنت أبى سفيان) ولم يُكتب أم حبيبة زوجة النبى، ولا حتى أم حبيبة أم المؤمنين، أو أم حبيبة قريبة الخليفة الثالث، وإنما نُقش على الشاهد اسم أمها (رملة بنت سفيان) (المترجم: الحقيقة أنّ رملة هو اسم أم حبيبة نفسها وليس اسم أمها)[١٢].

عائشة ومُؤيِّداتها ـ حفصة وصفية وسَوْدة ـ قد تضامن ـ الآن ـ مشكّلات عُصبة ـ عصبة الأربعة. كانت سودة بمثابة زوجة أبيها Stepmother. وكانت زينب بنت عمة النبى على سجيتها (غير دبلوماسية) تقول ما يخطر على بالها، وكان هناك على الجانب الآخر أم سلمة وأم حبيبة وابنة النبى؛ فاطمة.

لقد كان هذا التقسيم معروفًا، لكن كانت هناك لحظات تفور فيها المشاعر وتتأجج فتبلغ ذروتها. كان محمد يحبّ عسل النحل، واعتادت أم سلمة أن تحتفظ بشىء منه ليتناوله محمد النبى معها عندما يأتيها فى غرفتها، وخافت عائشة أن يؤدى هذا إلى طول مكوث النبى عند غريمتها؛ فدبّرت أن تقول كل زوجات النبى له إن هذا العسل تنبعث منه رائحة كريهة، وهن يعرفن تمام المعرفة أن النبى محب للنظافة والريح الطيبة حبًا شديدًا. وعملت هذه الحيلة (الخدعة) عملها، وإن كانت عائشة قد اعترفت فى وقت لاحق بخطئها لأنها خدعت محمدًا لدرجة أنه تجنّب أكل العسل بعد أن كان من بين الأطعمة القليلة المفضَّلة لديه.

(المترجم: كتب السيرة تروى هذه الواقعة نفسها مع تغيير فى الأسماء؛ إذ تذكر حفصة بدلاً من أم سلمة «عن عائشة قالت: كان رسول الله يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلّى العصر دار على نسائه فيدنو منهن، فدخل على حفصة فاحتبس **عندها أكثر مما كان يحتبس** (مكث عندها مدّة أطول من المعتاد) فسألتُ عن ذلك، فقيل لى: أهدت لها امرأة من قومها عُكّةً من عسل فسقت رسول الله منه شربة. فقُلت: أمَا والله لأحتالنَّ له، فذكرت ذلك لسودة وقلتُ: إذا دخل عليكِ فإنّه سيدنو منكِ فقولى له: أكلتَ مغافير.. وقولى له: ما هذا الريح . وكان رسول الله يشتدّ عليه أن يوجد منه الرّيح.. وقالت لصفية: قولى أنتِ مثل ذلك..».

وتتذكّر عائشة أيضًا حكاية أخرى من حكايات حربها الخفيّة ضد أم سلمة. لقد كانت عائشة فى انتظار زوجها النبى لكنها اكتشفت أنه كان مع أم سلمة، فقالت بصوت عالٍ: ألا تشبع من هذه المرأة (أم سلمة)؟ فلما لم تتلقّ إجابة سوى ابتسامة، راحت تضرب مثلاً مكنّية به عن نفسها «قالت: يا رسول الله ألا تُخبرْنى عنكَ، لو أنّك نزلتَ بعُدْوتين إحداهما لم تُرع والأخرى قد رُعيت، أيهما كنتَ ترعى؟ قال تلك التى لم تُرْعَ. قلتُ : فأنا ليس كأحدٍ من نسائك، كل امرأةٍ من نسائك كانت عند رجل غيرك. قالت: فتبسّم رسول الله)...».

وفى مناسبة أخرى قال لها رسول الله: «ما يخفى علىَّ حين تغضبين ولا حين ترضين» فقلتُ : بم تعرف ذلك بأبى أنت وأمى؟ قال: «أما حين ترضين فتقولين حين تحلفين: لا وربّ محمد، وأما حين تغضبين فتقولين: لا ورب إبراهيم. فقلتُ: صدقت يارسول الله». فقد كانت عائشة تخشى من فكرة تراودها وهى أن النبى يعرف ما فى نفسها، لكن إجابته الواردة فى النص الآنف ذكره تبين أنه ليس من قوّة سحرية ولا رجم بالغيب، وإنما الأمر لا يتعدّى الفِراسة والملاحظة البسيطة.

وغالبًا ما كان النبى يُسْأل أىُّ المؤمنين أحب إليه، فكان من بين من يذكرهم: زيد (ابنه بالتبنِّى)، وابن عمه وزوج ابنته على، وأقدم أصدقائه أبو بكر وأحفاده أبناء على من فاطمة، وأحيانًا أسامة بن زيد. أما من هن أحب إليه فكان يذكر دائمًا بناته، وحفيدته أُمامة ابنة ابنته زينب، لكن يُلاحظ أن عائشة هى التى يذكرها غالبًا أكثر من ذكره لزوجاته الأخريات الباقيات فى قيد الحياة. وكانت عائشة تعرف دائمًا أن هناك امرأة واحدة أقرب (أحب) إليه منها.

إنها خديجة التى كانت ذكراها تُهيج مشاعره، فذات صباح سمعت عائشة طَرْقًا متقطّعًا على باب غرفتها، وصيحة تحيّة صادرة من هالة. كان صوت هالة يترك صدًى كصدى صوت أختها خديجة (زوجة محمد الأولى)، وهنا لاحظت عائشة أن لون النبى قد شَحُب، وتملّكه الحزن عند تذكّره خديجه التى تعنى بالنسبة لحياته الكثير الكثير.

وبعد عقود راحت عائشة تذكر أنها لم تكن تغار من أىّ من زوجات النبى (الباقيات معها فى قيد الحياة) كغيرتها من خديجة (رغم وفاتها) لمداومة ذكر النبى لها، ولأنَّ الله قد وعد النبى بأن يهبها قصرًا فى الجنّة مبنيًا بأحجار نفيسة. وكان النبى كلما قدّم أضحية أو ذبح شاة أو ما إلى ذلك، أرسل جانبًا طيبًا منها لمن كُنَّ صديقاتها الحميمات.

وقالت عائشة للنبى مرَّات عديدة: كأنما لم يكن على الأرض من امرأة أخرى سوى خديجة. وربما كان ذكر النبى القصر فى الجنّة لخديجة قد ضاعف من غيظ عائشة، لأن النبى كان يعبر عن رغبته فى أن يكون مع خديجة فى غرفة hut من قَصَب reeds فى الفردوس، وكان يعبّر ـ ببساطة ـ عن رغبته فى ألا يكون معهما فى هذه الغرفة ثالث.

كانت غيرة عائشة من خديجة التى ماتت منذ فترة طويلة (والتى كان يُشار إليها أحيانًا على سبيل السخرية، بالقرشيّة العجوز) تشبه غيرة زوجات النبى الأخريات منها (من عائشة). فلم تكن زوجات النبى هن وحدهن اللأَّئى لاحظن أن محمدًا كان يبدو أكثر ما يكون سعادة واطمئنانًا بعد قضائه الليلة المخصصة لعائشة. ساعتها يمكن الاقتراب منه والتحدث إليه فيتقبَّل ما يُقَال له بقبول حسن most approachable after he had spent.. حقيقة لقد أصبح اليوم الذى قضى فيه النبى ليلته مع عائشة يومًا، متّفقًا عليه بشكل غير رسمى، أنه (اليوم) المناسب لتقديم الطلبات (الالتماسات) للنبى، وغالبًا ما يكون هذا مصحوبًا بتقديم هدية يتركها مقدّمها عند باب حجرة عائشة. وقد ازداد غضب زوجات النبى الأخريات من هذه العادة ومن ازدياد نفوذ عائشة بين المسلمين. وقد أثار هذا الموضوع مع النبى أم سلمة، فى بداية الأمر، وبعدها فاطمة ابنةُ النبى وأخيرًا زينب بنت جحش اللَّحُوح mischievous، رغم أن عائشة هى التى وضّحت ـ أخيرًا ـ الأمر وناقشته مع ضرائرها (الزوجات الأخريات) فالنبى يجب أن يكون عادلاً مع زوجاته وأن يعاملهن على قدم المساواة، وهن يعلمن أنّ هذا الحكم (التوحيد) لا يمكن أن يكون مؤثرًا على المسلمين الآخرين ما لم يلتزم هو نفسه، به.

وكان حب النبى لخديجة مغَلّفًا بغلاف تتردّد فحواه بأن هذه المرأة الثرية النشيطة القوية قد ضحّت بكل شىء فى سبيل تعاليم النبى التى دعا إليها (الإسلام)، وفى بعض الأحيان كان يبدو للنبى أن كل زوجاته اللائى تزوجهن بعد هجرته إلى المدينة الآمنة، كنّ على العكس من خديجة تمامًا. **فبعد فتح خيبر**، وما تلاه من عدد من الحملات الناجحة، انهالت الثروات على واحة المدينة. كان نصيب النبى هو الخُمس، لكن هذا الخمس سرعان **ما كان ـ دومًا ـ يتبدّد بتوزيعه على الفقراء والمساكين وعابرى السبيل والمرضى بالإضافة لأقربائه.**

فى إحدى هذه المناسبات راحت زوجاته يجادلنه بشدّة قائلات إن صدقاته هذه لا بد أن تمتد أيضًا إلى بيته (إليهن)، خاصة وأنه لم تُتح لهن فرصة الاختيار من

العباءات التى وصلت لتوّها بيت النبى. كان من رأيهن أن تكون لهن أولويّة الاختيار قبل أن يوزعها كلها على الغرباء. وكره النبىّ أن يرفض طلبهن لكن أثناء مفاوضته التفصيلية المشوبة بالتعاطف، دخل عمر بن الخطاب فسرعان ما صمتت النسوة بمجرد سماع صوته الصارم وهو يلقى التحية، لقد اندفعن ليختبئن وراء السواتر بعيدًا عن هذا المتقشّف (البيوريتانى puritan) المتعبّد الصارم.

وبعد ذلك بأعوام راحت عائشة تتذكّر الحوار الذى حدث فى هذا اليوم تذكّرًا يكاد يكون كاملاً. لقد روته كلمةً كلمةً تقريبًا. لقد كان النبى إذا وجد فى زوجاته تحوّلاً سريعًا، لا يزيد عن الصمت والابتسام. وذكرت عائشة كيف أنه كان من الغريب أنهن اختبأن عند سماع صوت عمر، وقد علّق عمر نفسه على هذا المسلك قائلاً بوقاره المعتاد للنبى: إنه كان ينبغى لهن «أن يخشينك» يا رسول الله لا أن يخشيننى، ثم توجه عمر بالحديث إلى النسوة المختبئات قائلاً: «يا عدوّات أنفسكن» لِمَ تخشيننى ولا تخشين رسول الله؟ فأجابه صوت من وراء ستار، لعله صوت عائشة قائلاً: لأنك أقسى وأكثر حِدّة من رسول الله. ووافق محمد النبى على هذا القول، ذاكرًا أن هذا حقيقى (فلو سلكت يا عمر سبيلاً لتنحّى الشيطان سالكًا سبيلاً (طريقًا) آخر». وفى وقت لاحق، عندما أصر عمر على سؤال الزوجات بشكل مستقل، وُوجه بجبهةٍ موحّدة. حتى أم سلمة التى كانت قد اعتادت على المسالمة ردعته قائلة: ما دخْلك أنتَ بين النبىّ وزوجاته؟ إن كان يسمح لنا بالحديث بحرية معه، فهذا شأنه، فما دخْلك أنت؟! ولا بد للمرء أن يتذكّر أيضًا أنه حتى هذه الفترة كان المجمّع السكنى للنبى يعيش كله تحت خطّ الفقر، على حد التعبير الذى نستخدمه اليوم. لقد راحت عائشة تتذكر فى وقت لاحق أنّه قبل فتح خيبر لم تكن تستطيع أن تأكل كفايتها من التمر، وقد أقامت أم سلمة وليمة عُرسها بقليل من الشعير طحنته وصنعت من دقيقه رغيفًا اشتركت فى تناوله مع زوجها الجديد (النبى).

وعلى أية حال، فإن الأزمة المنزلية (الأسرية) لم تصل لذروتها بعد، وإنما أتت بعد ذلك عندما أرسل حاكم مصر ـ المقوقس لمحمد ألف قطعة (مثقال) measures من الذهب وعشرين قطعة من القماش الجميل (اللّين) وبغلاً وبغلة وتاجًا Crown (المقوقس ـ كما نعتبر الآن ـ هو اسم ربما أطلقه العرب على نائب الإمبراطور البيزنطى سيريل Ciril فى مصر، وسنعلم عنه أكثر فيما بعد)، ومع هذه الهدايا الثمينة أتت أيضًا

جاريتان قبطيتان فى الغاية من الجمال، هما: مارية وسيرين، وقد وزّع محمد ـ بكرمه المعتاد ـ كل هذه الهدايا، فيما عدا مارية فقد احتفظ بها لنفسه. كان من الواضح أنّه أُولع بها فأسكنها فى منزل منفصل بالقرب من المسجد حتى يستطيع زيارتها (نهارًا وليلاً)؛ وتملّكت الغيرة زوجاته لكن الأزمة حُلّت عندما اكتشفت حفصة أنَّ النبى موجود فى غرفتها مع مارية، فى اليوم المخصَّص لعائشة. لقد التهبت حفصة غيرةً، ومما فاقم من غضبها أن مارية غريبة تمامًا (ليست منّا) وأنها غير مسلمة على الإطلاق، وأنها شابّة وَلُود. ورغم أن حفصة هدأت أخيرًا خاصة بعد أن وعدها النبى ألا يرى (يقرب) مارية بعد ذلك، إلاّ أن المشكلة عادت وتفاقمت بعد أن تدخّلت عائشة فى الأمر.

كان لدى النبى فى ذلك الوقت ما يكفيه فغادر مجمَّعه السكنى تمامًا واتخذ لنفسه ملجأ فى مكان فوق السطوح يتمكن منه ـ فقط ـ من النزول فوق سلَّم إلى المسجد. ولم يكن هذا المكان الضيق ليتلاءم مع حاكم نصف شبه الجزيرة العربية، فلم يكن ثمّة إلاّ حصيرة خشنة وثلاث قطع من الجلد غير الليّن، لكن هذا المكان كان هو المكان الوحيد الذى يمكن للنبى أن يسكن فيه. لقد رقد فى هذا المكان بهدوء (بلا حراك) حتى إن الحصير الخشن ترك آثاره على جنبه، وسرت الإشاعات فى المدينة (الواحة) أنَّ محمدًا طلّق كلّ زوجاته بعد أن رأته حفصة مع مارية. واهتمّ عمر والد حفصة ـ على نحوٍ خاص ـ بتأثير هذا على جماعة المسلمين المخلصين الصغيرة، وحقيقة الأمر أنه اهتم أيضًا بوضعه فى بؤرة هذه الجماعة، كما كانت هذه الفترة التى شهدت هذا الوضع داخل بيت النبى، فترةً حرجةً كان يُخشى فيها من هجوم مقاتلى مملكة الغساسنة العربية جيِّدى التسليح على المدينة.

ذهب عمر أولاً إلى ابنتة وسألها فِيمَ بكاؤها وتساءل أَلَم أحذّرك، «ها هو رسول الله قد طلّقك أخيرًا»، فأجابت إنها لا تعرف شيئًا ورسول الله موجود فى الغرفة العليا الآن، فتوجّه عمر نحو منبر المسجد وجلس مع مجموعة مهمومة من الرجال تجمّعت، وكان بعضهم يبكى. وطلب عمر ـ ثلاث مرّات ـ من الخادمة الحبشية التى كانت تحرس السلّم المؤدى إلى الغرفة العليا التى يقيم فيها النبى، أن يسمح النبى برؤيته (رؤية عمر)، وفى كل مرّة كان يعود ليجلس حول المنبر، إلاّ أنه على أية حال دُعى ـ أخيرًا ـ للقاء النبى فسارع صادعًا، وعندما وصل إلى الغرفة العلوية وجد النبى متّكئًا على كُوعه (مرفقه) مستندًا على حشيّة مخرّمة من جلد محشو بليف النخيل، فسأله عمر إن كان

قد طلّق زوجاته، فأجاب النبى رافعًا ناظريه: «لا». وظل عمر واقفًا، ثم حاول التّسرية عنه بثرثرة فارغة. **كيف أن رجال مكة يعرفون كيف يسيطرون على نسائهم، لكننا أتينا بين أناس (يقصد أهل المدينة) تسيطر عليهم نساؤهم**، واستمر فى الثرثرة حول مشاكله هو شخصيًا مع زوجته ـ وحتى مع ابنته، حتى ابتسم النبى، واعتبر عمر ابتسامة النبى ترحيبًا كافيًا فجلس، وتطلّع حوله ليرى هذا (الأثاث) الممزّق، فناشد النبى أن يهتم بنفسه، فالله أفاض الكثير على الفرس والروم (البيزنطيين)، فلمَ لا تنعم جماعة المسلمين كذلك؟! بهذا الكلام الذى جرى اتفاقًا ولم يُسمعه إلاّ للنبى، يكون عمر قد لفت انتباه النبى تمامًا، فتطلَّع النبىّ فى وجهه بتمعُّن وسأله فيما إذا كان لديه شك فى أن الله عجّل لهم (للفرس والروم) طيّبات الدنيا الفانية، وادّخر للمؤمنين الخير فى الآخرة، فتراجع عمر مغمغمًا طالبًا من النبى أن يطلب له المغفرة من الله.

وليحسم النبى كل هذه الأمور قرّر أن يظل منعزلاً عن زوجاته طوال شهر كامل. وكانت مارية ـ فى هذه الأثناء ـ قد نُقلت إلى منزل فى حى hamlet أبعد كثيراً داخل الواحة (المدينة)، على أن وضعها (المعنوى) قد تحسَّن كثيراً بعد أن أصبحت حاملاً، وتضاعفت قيمتها عندما وضعت طفلاً سُمّى إبراهيم. وبعد مولد إبراهيم رجعت مارية إلى المجمع السكنى للنبى ولاقت ترحيباً، رغم أنه كان من الواضح أنها لم تتحوّل أبداً إلى الإسلام ولم يتغير وضعها كمحظية (سريّة) ولم تُدرج أبداً فى قائمة أمّهات المؤمنين(١٣).

وبعد اعتزال محمد لنسائه لمدة شهر، عاد النبى لزوجاته رغم أنه ذكَّرهن باختيارهن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ (الأحزاب، الآيتان ٢٨، ٢٩) ولم يكن هذا العرض الذى عرضه على زوجاته ليزيد على ما عرضه على كل المسلمين. ووافقت عائشة ـ كسائر زوجاته ـ على الخيار الثانى: اختارت الله ورسوله والدار الآخرة ـ وربما عبرت أيضًا عن دهشتها لأن الشهر كان قد انقضى فعلاً. لقد كانت قد حسبت عدد الأيام ووجدت أنه قد انقضى ـ فقط ـ تسع وعشرون ليلة عاشها النبى منعزلاً (بلا نساء). ويضيف معظم المفسرين المسلمين الأتقياء تعليقات موجزة يشرحون فيها أن الشهر العربى (القمرى) تتراوح أيامه بين ٢٩ يومًا و٣٠ يومًا وهم يكونون بهذا جاهلين جهلاً

فاضحًا بمعنى الدعابة الكامنة وراء هذه الكلمات (التى قالتها عائشة): بالنسبة لعائشة فإن بهجتها بصحبة الرسول لم تخمد، لكنها أيضًا كانت واعية فاهمة بأن النبى محمدًا عانى بالقدر نفسه الذى عانت منه نساؤه، عندما ابتعد عنهن طوال هذه الليالى التى قضاها وحيدًا (بلا نساء)، لكنه استطاع أن يصبر على ما اعتراه من ضيق (بسبب بعده عن النساء فى هذه الفترة).

(المترجم: نظرًا لدقة السياق ونصوصه فى هذا الموضوع الحساس، نفضل إيراده بنصه كما ورد فى الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد ٦، نشر دار الفكر، بيروت: «.. فيم هجر (اعتزل) رسول الله نساءه؟.. تركنا رسول الله يومًا وليلة لم يخرج إلى الصلاة فأخذنا ما تقدم وما تأخر، فاجتمعنا ببابه نتكلم ليسمع كلامنا ويعلم مكاننا، فأطلنا الوقوف فلم يأذن لنا ولم يخرج إلينا. فقلنا: قد علم رسول الله مكانكم، ولو أراد أن يأذن لكم لأذن، فتفرقوا لا تؤذوه، فتفرق الناس غير عمر بن الخطاب يتنحنح ويتكلم ويستأذن حتى أذن له رسول الله.

قال عمر: فدخلت عليه وهو واضع يده على خده أعرف به الكآبة، فقلت: أى نبى الله، بأبى أنت وأمى، ما الذى رابك وما لقى الناس بعدك من فقدهم لرؤيتك! فقال: ياعمر، يسألننى أولاء ما ليس عندى، يعنى نساءه ، ذلك الذى بلغ منى ما ترى. فقلت (أى عمر): يا نبى الله، لقد صككتُ جميلة بنت ثابت (زوجته) صكة ألصقت خدها منها بالأرض، لأنها سألتنى ما لا أقدر عليه، وأنت يا رسول الله على موعد من ربك وهو جاعل بعد العسر يسرًا. قال (أى عمر): فلم أزل أكلمه حتى رأيت رسول الله قد تحلل عنه بعض ذلك، فخرجت فلقيت أبا بكر الصديق فحدثته الحديث، فدخل أبو بكر على عائشة فقال: لقد علمت أن رسول الله لا يدخر عنكن شيئًا فلا تسألنّه ما لا يجد. انظرى حاجتك فاطلبيها منى، وانطلق عمر إلى حفصة فذكر لها مثل ذلك، ثم أتبعها أمهات المؤمنين، فجعلا يذكران لهن مثل ذلك حتى دخلا على أم سلمة ساعة فذكرا لها مثل ذلك، فقالت لهما أم سلمة: ما لكما؟ هاهنا رسول الله أعلى (أعلم) بأمرنا عينًا، ولو أراد أن ينهانا لنهانا. فمن نسأل إذا لم نسأل رسول الله؟ هل يدخل بينكما وبين أهلكما أحد؟ فما تكلُّفكما هذا؟ فخرجا من عندها. فقال أزواج النبى لأم سلمة: جزاك الله خيرًا حين فعلت ما فعلت، وما قدرنا أن نردَّ عليهما (على أبى بكر وعمر) شيئًا.

.. فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ يعنى متعة الطلاق، ويعنى بتسريحهن تطليقهن طلاقًا جميلاً.. ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ تخترن الله ورسوله فلا تنكحن بعده أحدًا، فانطلق رسول الله فبدأ بعائشة فقال: إن الله قد أمرنى أن أخيركن بين أن تخترن الله ورسوله والدار الآخرة وبين أن تخترن الدنيا وزينتها، وقد بدأتُ بك فأنا أخيِّرك. قالت: أى نبى الله، وهل بدأت بأحد منهن قبلى؟ قال: لا. قالت: فإنى أختار الله ورسوله والدار الآخرة، فاكتم علىَّ ولا تخبر بذلك نساءك. قال النبى: بل أخبرهن، فأخبرهن جميعًا فاخترن الله»).

وفى سياق آخر نجد فى ابن سعد أيضًا: «استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكسينه عالية أصواتهن، فما دخل عمر تبادرن بالحجاب، فضحك النبى. فقال عمر: أضحك الله سنَّك يا رسول الله، فقال رسول الله: ضحكت من هؤلاء اللائى كن عندى، فلما سمعن صوتك بادرن بالحجاب. قال عمر لهن: يا عَدُوات أنفسهن، أتهبننى ولا تهبن رسول الله. قلن: أنت أغلظ وأفظ من رسول الله. قال النبى: والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا (طريقًا) إلا سلك فجًا غير فجك»).

وما زالت هناك زوجة أخرى لتُضاف لهذا المنزل الصاخب. فأثناء أول رحلة حج إلى مكة (كان هذا فى سنة ٦٢٩ على وفق ما سمحت به شروط صلح الحديبية) قابل النبى عمه الثرى الماكر العباس، الذى اقترح عليه عقد تحالف زواج، فقبل النبى أن يتزوج أخت زوجة العباس التى مات عنها زوجها (الأرملة) وهى **ميمونة**، مما أوجد - أيضًا - علاقة نسب بين النبى وخالد make him uncle - by - marriage to khalid، أحد مشاهير القادة الشبان الواعدين. ولم يكن مسموحًا أن تُقام وليمة بمناسبة هذا الزواج فى مكة التى كانت لا تزال على وثنيتها، ذلك أنه لم يكن مسموحًا للمسلمين بالبقاء فى الحرم المكى أكثر من ثلاثة أيام. وبمجرد خروج النبى ومن معه توقف هو ومن معه من الحجاج البالغ عددهم ٢٠٠٠ من المقاتلين الأشداء بمن فيهم النساء، فى موضع الصَّريف Sarif وهى إحدى محطات توقف القوافل. وهنا أُقيمت وليمة العُرْس. ويعترف الدارسون أن هذا الزواج **كان ارتباطًا سياسيًا** من الطراز الأول سرعان ما آتى ثمارًا مميزة، فخالد القائد الذى هزم المسلمين فى غزوة أُحُد، بل والذى حاول اعتراض سبيل

النبى وحصاره عندما كان يقود رجاله المسلحين فى طريقه لمكة عند الحديبية - خالد هذا تخلى عن القضية الوثنية pagan Cause، وتقرب من محمد فى المدينة، وقد روى خالد أن وجه النبى تألق نورًا وهو يرد تحيته (تحية خالد) التى ألقى فيها السلام عليه. لقد أصبح خالد مسلمًا الآن وشهد - أمام النبى - ألاَّ إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وإذا كان المسيحيون يحتفلون مبتهجين بتحول شاول Saul للمسيحية - تحول المُضْطهِد إلى القديس پولس، كذلك يمكن للمسلمين أن يبتهجوا بإسلام خالد الذى امتدحه النبى قائلاً له إن أمره كله سينتهى إلى الصلاح (والتقوى)، مؤكدًا له أن «الإسلام يَجُبُّ ما قبله» بمعنى أن آثامه قبل الإسلام قد مُحيت.

لكن هذا العام شهد أيضًا أحزانًا عاناها النبى؛ إذ ماتت فيه ابنته الكبرى زينب التى دُفنت بجوار أختها رُقيَّة. وحكاية زينب بنت النبى حكاية مأسوية، لكنها أيضًا تتضح من خلال الأخلاق الفروسية الحميمة والاحترام المتبادل اللذين يضيفان مثل هذه النبالة للمعاناة الفرضية التى يمر بها عرب الصحراء. لقد كانت زينب قد تزوجت ابن خالتها، أبا العاص بن الربيع الذى ارتبط بها ارتباطًا وثيقًا، وكان العاص ابن أخت خديجة، وكان مفضلاً أثيرًا لديها، فعاملته - حقيقة - كأنه ابنها. وكان ابنا زينب من العاص بن الربيع - أُمامة وعلىّ هما أول حفيدين للنبى. ولم يكن أبو العاص بن الربيع من بين من اعتنقوا الإسلام فى مرحلته الباكرة، لذا فلا هو ولا زوجته زينب (بنت النبى) انضمَّا إلى المهاجرين للمدينة. بل إنه كان فى صفوف جيش الوثنيين الذى خرج من مكة ليحمى قافلة أهلها المحملة بالبضائع العائدة من الشام، من قوات محمد التى كانت تنوى سلبها (الاستيلاء عليها). وتم أسر أبى العاص بن الربيع فى غزوة بدر، ولكن أثناء المفاوضات التى جرت لإطلاق سراحه، جرى تقديم قلادة (عقد نفيس) مقابل إطلاقه. وسرعان ما تعرَّف محمد على القلادة، إذ كانت واحدة من قلائد زوجته المحبوبة (المتوفاة) خديجة التى كانت قد قدمتها لابنتها زينب يوم عرسها. ولاحظ أتباع النبى أنه وَجَد وتأثر تأثرًا شديدًا عند رؤية هذه القلادة، فأطلقوا فورًا سراح أسيرهم (أبو العاص بن الربيع)، وأعادوه مع القلادة إلى زوجته زينب بنت النبى التى كانت لا تزال تعيش فى مكة. ووعد أبو العاص محمدًا - مقابل هذا - أن يعيد له ابنته وأحفاده الصغار (أبناءها). وفشلت المحاولة الأولى لإعادة زينب إلى أبيها فى المدينة، لكن أبا سفيان وضح الأمر - بشكل شخصى - لأبى العاص، قائلاً إن هجرتها إلى أبيها فى وضح النهار فيها إهانة كبيرة لكبرياء أهل مكة، ووعد بأنه يضمن ألا يعترضها أحد لو غادرت مكة تحت جُنْح الظلام. وما إن وصلت زينب - بأمان - إلى المدينة حتى انضمت للمجمع السكنى لأبيها (النبى).

وكان أمرًا مدهشًا بالنسبة لزينب أن تجتمع بزوجها البعيد عنها مرة أخرى، وذلك عندما تسلل إلى غرفتها، هاربًا لتوِّه من القدر الذى أصاب من تبقى من قافلة قريش الذين أسرهم زيد فى غارة شنها عليهم. وفى فجر هذا اليوم، وبعد انتهاء الصلاة، وقفت زينب من بين صفوف النساء وأعلنت أنها تجير (تحمى) أبا العاص بن الربيع (وكان هذا حقًا لأى مسلم) .

وفى وقت لاحق أعادوا إليه البضائع التى كانت فى حوزته وسمحوا له بالعودة ـ آمنًا ـ إلى مكة. وما إن وجد أنه وفَّى بكل التزاماته كتاجر قرشى شريف، بتسليم البضائع لأصحابها – حتى تخلى عن عقيدته (الوثنية) معلنًا ذلك لبنى بلده، مكة، الذين اعترتهم دهشة شديدة. عندها فقط أحس بأن له الحرية فى أن يركب عائدًا للمدينة فأعلن إسلامه ناطقًا بالصيغة المعهودة وضم إليه زوجته وأطفاله بعد ست سنوات من الانفصال المؤلم. ولم يمض مع زوجته سوى عام واحد، إذ مرضت زينب وماتت، فأمر محمد بتغسيلها – بعناية – بالماء أربع مرات، أما الخامسة فبماء ممزوج بالكافور Cam-phor. وقدم لدافنيها كسوة (غطاء) لتُدفن به «أى حَقْوة إزاره» وصلى النبى (ودعا) إلى جوار جسدها المسجَّى (الصلاة على الميت).

ومات بعد ذلك اثنتان من بنات الرسول، هما رقية وأم كلثوم ودُفنتا فى مقبرة المدينة إلى جوار أختهما زينب. ولم يكن موت زيد بهذه السرعة، وقد كان النبى يحب زيدًا حب الأب لابنه، مع أنه كان مُتبنّى. لقد مات زيد فى تلال الشام مع جعفر ابن عم النبى، فى غزوة مؤتة. ولم يستطع النبى أن يصلى على جثامين الذين ماتوا على هذا البعد البعيد.، لكنه سار خارجًا من المدينة ليلتقى بالمقاتلين العائدين من المعركة ويحييهم، مصطحبًا ابن جعفر الصغير مُجْلسًا إياه على بغل كان الرسول يفضله، يُقال له دلدل. وقبل ذلك بيوم كانت عائشة تنظر من خلال ستائر غرفتها ولاحظت النبى وهو يشارك أهل بيت جعفر أحزانهم. ورغم أن جعفر كان أخًا شقيقًا لعلىّ إلا أن عائشة لم تقلل من شأنه أبدًا، ولم ترد عنها أية إشارة تفيد ذلك. وما إن دخل النبى بيت جعفر (الشهيد) حتى دعا أبناءه ليحكى لهم بنفسه استشهاد أبيهم، لكنه عانقهم أولاً بينما كانت عيناه تفيضان بالدمع.. ولما عاد النبى إلى بيته الذى تجمع فيه كل أفراد أسرة زيد الحزينة، حتى أصدر أوامره بإعداد الطعام وطهيه وإرساله لأسرة جعفر طوال أيام قليلة قادمة.. وما إن وصل النبى إلى الباب الذى سيدخل منه إلى بيته، حتى رأته ابنة زيد الصغيرة

اليتيمة فاندفعت إليه فتلقاها بين ذراعيه. ربما تداعت إلى النبى فى هذه اللحظات طفولته ويُتْمه، لأنه عندما رفع الطفلة إليه، بكى بمرارة واهتز جسده اهتزازات متشنجة، فاندهش أحد المسلمين وهب واقفًا وهو يسأل: ما هذا؟ فأجابه النبى بأن تلك هى مشاعر رجل مشتاق لمن يحب. ومازال المسلمون حتى اليوم يفعلون ما فعله النبى عند فَقْده - بالموت - لبناته وابنه بالتبنِّى زيد.

ورغم موت زيد فى معركة مؤتة فى سنة ٦٢٩ والتى هُزم فيها جيش المسلمين، فقد شهد الاثنا عشر شهرًا التالية نموًا هائلاً فى سلطة النبى ونفوذه بسبب فتح مكة وانتصاره على البدو فى غزوة حُنين فى سنة ٦٣٠.

وانهالت الوفود قادمة من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية على واحة المدينة لفتح باب المفاوضات مع قوى الإسلام الصاعدة. وأحد هذه الوفود قدم عرضًا بزواج النبى من إحدى أميرات كِنْده (بكسر الكاف)، وأسرة كنده هى باختصار - الأسرة التى حكمت كل وسط شبه الجزيرة العربية قبل ذلك بمائة وخمسين سنة. وتنبهت عائشة وحفصة لهذا الخطر القادم الشديد على وضعيتهما، خاصة بعد أن شاهدتا الشباب وهذا الجمال مقرونًا بهذا المجد الأثيل الذى يعود إلى قرون خلت من البطولة العربية، ربما تفوق ما لقبيلة قريش نفسها[١٤]، وهى قبيلة عائشة وحفصة. وبدلاً من أن تبدى عائشة وحفصة عداوتهما فإنهما راحتا تشتركان فى الإعداد للزواج لمراقبة مسيرة الأمور: الاستحمام والتزين بالحناء ووضع العطور وإلباس هذه العروس الجديدة المتقدمة طالبة حب النبى. فعلمتاها (أى عائشة وحفصة) أن تبدو معه وَقُورًا وقارًا ملكيًا مع بعض التقوى، فهذا أفضل الأساليب ملاءمة للتعامل مع النبى فى أول ليلة، وعلمتاها أن تقول له: «أعوذ بالله منكَ» وقد قالت للنبى هذا القول بالفعل بمجرد اختلائه بها. حقيقة إنها عبارة مزعجة. وسواء شك النبى فى أنها وقعت فى شَرَك نصبه لها أحد أم لا، فقد التزم بكلمة الأميرة الكِنْدية التى استعاذت بالله منه فأعادها فورًا بكل مظاهر الاحترام إلى أبيها النعمان. لكن بعد أعوام وجدناها تندب حظها، وكيف أنها وقعت فى شرك أبعدها عن السعادة.

وفى وقت لاحق من العام نفسه، قاد النبى جيشًا يصل عدده إلى عشرات الألوف من المقاتلين البدو الأشداء إلى بادية الشام. وكانت عائشة - بوعيها الفطرى، تعرف أن زوجها الموقر، لم يفقد قوته، بل إن قوته تزداد يومًا بعد يوم، وأنه أصبح مرغوبًا من أية

امرأة فى هذه الدنيا. فقد كانت قلقة عليه لدرجة أنها كانت تتبعه (تراقبه) إذا خرج ليلا دون أن يراها، بما يشبه المغامرات. فذات ليلة تتبعت النبى عندما خرج، وراحت تراقبه طوال ساعات، وهو يصلى على الموتى ويدعو لهم. ثم انسلت مبتعدة بهدوء، وتظاهر النبى أنه لم يرها، وانسلّت بعد ذلك بأيام قليلة لتواصل المراقبة، بقصد حمايته. لقد كان توجه النبى للمقابر للصلاة طلبًا لإنزال الرحمة على الأموات يسبب للنبى معاناة روحية مرهقة. وقد وُجد النبى - بعد إحدى هذه الزيارات - مصابًا بالصداع، وتصادف أن أُصيبت عائشة أيضًا بالصداع بعد عودتها هى أيضًا من زيارة مقبرة أخرى. فقال النبى لها بما يشبه الدعابة إنه لن يكون أمرًا سيئًا أن تموت هى قبله حتى يغسّلها ويكفّنها فهى زوجته الحبيبة ثم يدفنها ويصلى عليها ويدعو لها، فأجابت عائشة بسرعة بما يشبه الدعابة - متهمة النبى بأنه خطّط بالفعل ليتزوج من امرأة أخرى ويُسْكنها فى غرفتها (غرفة عائشة).

وفى مناسبات أخرى كانت عائشة راضية بالتصريح بإعجابها العميق بصحبة هذا الرجل العظيم (زوجها النبى)، كانت مشاعرها تجاهه أعمق وأكثر من أن تُوزّع. فذات يوم، بينما كانت منشغلة فى عملها، تغزل بعض الخيوط الصوفية، راحت تنظر لترى محمدًا، وهو يتقلب إلى جوارها راضيًا، بل وكانت تتطلّع إليه (بإعجاب) حتى وهو جالس على الأرض يُصلح نعليه. وكانت عائشة تمتدحه مقتبسة أشعارًا، وعندها كان النبى ينهض ليقبّل جبهتها، فلم تكن تنقصه (ﷺ) الكياسة وفن التودُّد للنساء. وكان النبى يقول لها إنها مبعث سروره وسعادته أكثر مما هو مبعثه سرورها وسعادتها، ثم يدعو لها بخير.

وعندما أُصيب محمد بالحمّى التى مات فيها، توجّه مرة أخرى ليصلّى على الموتى ويدعو لهم، وكان هذا اليوم هو يوم زوجته ميمونة، فزارته زوجاته الأخريات فى غرفة ميمونة للاطمئنان عليه، فوجدنه وقد تملكته الحمّى وراح يتساءل أين سيقضى يومه التالى واليوم الذى بعده. وبدأت زوجاته يفهمن ويتحقّقن أنه يحاول أن يحسب الأيام ليعرف متى يستقر فى غرفة عائشة. لقد فهمن أنه يستثقل الأيام التى يقضيها بعيدًا عن غرفتها، وأخيرًا صرّح برغبته فطلب أن يُسمح له بالبقاء مع عائشة، فتم نقله حيث قضى أيامه العشرة الأخيرة ولفظ أنفاسه (صلى الله عليه وسلم) بين ذراعَىْ عائشة فى

١١ يونيو سنة ٦٣٢. فلما تأكدت أن روحه قد صعدت (لبارئها) وضعت رأسه برفق على وسادتها، وقامت لتنضم للنسوة الباكيات فى البيت. لقد جمعهُن الحزن لوفاة النبى.

تعليقات المترجم

(١) النص كما أورده ابن هشام (السيرة النبوية، جـ ٤، ص ٧٢ وما بعدها).

«ووجدت السيدة عائشة كما قالت: أن رسول الله يثقُل فى حِجْرى فذهبتُ أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شَخَص وهو يقول: (بل الرفيق الأعلى من الجنّة)».

(٢) أم سلمة زوج النبى من مخزوم. كانت تكتب وروت أحاديث كثيرة عن النبى. عمّرت طويلاً إذ ماتت فى سنة ٥٧هـ (٦٧٦م) وقيل ٦١ هـ ودُفنت بالبقيع. أما عائشة فتُوفيت فى سنة ٥٧هـ (٦٧٨م)، أى بعد أم سلمة بعام.

(٣) خولة بنت حكيم ليست خالة محمد صلى الله عليه وسلم وليست أخت أمه، وإنما هى من اللائى وهبن أنفسهن للنبى فأرجأها وكانت تخدم النبى (راجع نسبها ومزيدًا من المعلومات عنها فى الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد السادس، ص ١١٦- ١١٧، طبعة دار الفكر - بيروت).

(٤) من بنى النجّار من المدينة المنوّرة. أسلمت بمكة وبايعت وكانت ممن هاجر للحبشة. تُوفِّى زوجها بمكة بعد عودته من الحبشة. تزوجها النبى بعد وفاة زوجها. وهى أول امرأة تزوجها النبى بعد وفاة خديجة أى قبل أن يتزوج عائشة، تُوفيت فى عهد معاوية (الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد ٦، ص ٣٨ - ٤١، طبعة دار الفكر - بيروت).

(٥) المقصود هنا طلحة بن عبيد الله التيمى، أى من تيم عشيرة أبى بكر. تزوج من أم كلثوم بنت أبى بكر وأخت عائشة، فهو إذًا ليس ابن عم ولا ابن خالة Cousin ابن أبى بكر كما ذكر المؤلف. (راجع الأعلام لخير الدين الزركلى ومصادر أخرى كثيرة).

(٦) فى السطور التالية كل ما يتعلق بزواج عائشة رضى الله عنها كما ورد فى الطبقات الكبرى لابن سعد والسيرة النبوية لابن هشام، حاويًا بعض السياقات بنصها: «تزوجها رسول الله وكانت بكْرًا» «تزوجنى رسول الله وإنى لألعب مع الجوارى، فما دريتُ أنّ رسول الله تزوّجنى حتى أخذتنى أمى فحبستنى فى البيت عن الخروج، فوقع فى نفسى أنى تزوجت، فما سألتها حتى كانت أمى هى التى أخبرتنى» «ولقد دخلتُ عليه وإنّى لألعبُ بالبنات مع الجوارى فيدخل فينقمع منه صواحبى، فيخرجن..» «تزوجنى رسول الله فى شوال وبنى بى فى شوّال، فأى نساء رسول الله كان أحظى عنده منّى؟» «زوّج أبو بكر عائشة للنبى على متاع بيت قيمته خمسون أو نحو من خمسين، فأتتها حاضنتها وهى تلعب مع الصبيان فأخذت بيدها فانطلقت بها إلى البيت فأصلحتها وأخذت معها حجابًا فأدخلتها على رسول الله» «وكنت ألعب على المرجوحة ولى جُمّة» (ص ٤٢) «سُئلت عائشة: متى بنى بك رسول الله؟ (أى متى تزوجك). فقالت: لمّا هاجر.. إلى المدينة خَلَّفنا وخلّف بناته، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وبعث معه أبا رافع مولاه وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها

رسول الله من أبى بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظّهر، وبعث أبو بكر معهما عبدالله بن أريقط.. ببعيرين أو ثلاثة. وكتب إلى عبد الله بن أبى بكر يأمره أن يحمل أهله، أمى أم رومان وأنا وأختى أسماء امرأة الزبير فخرجوا مصطحبين، فلما انتهوا إلى قُديد اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمسمائة ثلاثة أبعرة ثم رحلوا من مكة جميعًا، وصادفوا طلحة بن عبيد الله يُريد الهجرة بآل أبى بكر فخرجنا جميعًا، وخرج زيد بن حارثة، وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة، وحمل زيد أم أيمن وأسامة بن زيد، وخرج عبدالله بن أبى بكر بأم رومان وأختيه.. حتى إذا كنا فى منى نفر بعيرى.. فجعلت أمى تقول: واعروساه.. ثم قدمنا المدينة فنزلتُ مع عيال أبى بكر، ونزل آل الرسول وهو يبنى يومئذ المسجد وأبياتًا حول المسجد.. ثم قال أبو بكر: يا رسول الله، ما يمنعك من أن تبنى بأهلك؟ قال الرسول: والصداق؟ فأعطاه أبو بكر الصداق اثنتى عشرة أوقية وَنشًّا فبعث بها رسول الله إلينا..» (جـ ٦، ص ٤٤ - ٤٥). ومن أقوال عائشة: «فُضِّلتُ على نساء النبى بعشر.. لم ينكح بِكرًا قط غيرى، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجرين غيرى» وأنزل الله براءتى من السماء وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة.. وكنت أغتسل أنا والنبى من إناء واحد، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه وكان ينزل إليه الوحى وهو معى، وقبضه الله وهو بين سحْرى ونحرى، ومات فى الليلة التى كان يدور علىّ فيها ودُفن فى بيتى» (جـ ٦، ص ٤٤ - ٤٥).

« .. أتاه (أى النبى) المَلَك بصورتى فى كفّه فنظر إليها.. ورأيت جبريل ولم تره امرأة غيرى وكنت أحبَّ نساء النبى إليه» « .. كانت تُكنّى بأم عبد الله» (جـ٦، ص ٤٧ - ٤٨). «كانت عائشة تلبسُ المعصفر.. وخواتم الذهب» «عن النبى أنه قال: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام» وقال أيضًا لعائشة: «لأنت أحبُّ إلىَّ من زبد بتمر» (ص ٥٧ - ٥٨، المجلد ٦).

(٧) يبدو أنَّ المؤلف يتحدث هنا عن جماعات الطوارق فى الصحراء الأفريقية الكبرى حيث حجاب الرجال، إلاّ إذا كان المقصود هو اللثام. وبطبيعة الحال فحجاب الرجال غير قائم فى مجتمعات المسلمين.

(٨) النصوص الحرفية فيما يتعلق بسودة بنت زمعة كما وردت فى ابن سعد وابن هشام: «قالت عائشة رضى الله عنها: كان النبى يستكثر منِّى ولا يستكثر من سودة» كانت سودة «امرأة فيها حسد» أى تغار من عائشة لأن النبى يستكثر منها - أى من عائشة. كانت أم سودة من بنى النجار من المدينة. ماتت فى عهد معاوية (ص ٣٧، المجلد ٦).

(٩) بعض «النصوص» التى وردت معلنيها فى هذا الكتاب، وبعض ما ذكره المؤلف عن السيدة حفصة لم يرد فى السيرة النبوية لابن هشام ولا فى الطبقات الكبرى لابن سعد، وهما أقدم كتابين فى الموضوع، وما لم يرد فيها فهو غير موثّق: «أمها زينب بنت مظعون، أخت عثمان بن مظعون» (ابن سعد، مج ٦، ٢٠ ٦٠) وكان آل مظعون معروفين بالتقشف الشديد. «لما تأيَّمت (ترمّلت) حفصة أتى عمر، عثمان بن عفّان، فعرضها عليه، فقال عثمان: ما لى فى النساء حاجة، فلقى أبا بكر فعرضها عليه فسكت، فغضب.. فإذا رسول الله قد خطبها فتزوّجها..» (ص ٦٠ - ٦١). «قال عمر للنبى: لقيت عثمان فرأيت من جزعه فعرضت عليه حفصة، فقال له النبى: ألا أدلّك على خَتَن (زوج ابنة) هو خير من عثمان وأدلُّ عثمان على ختن هو خير له منك؟ قال: بلى.. فتزوج النبى حفصة، وزوّج بنتًا له عثمان» (ص ٦١). طلق رسول الله حفصة ولكنه أعادها لعصمته «لأنها صوّامة قوّامة» (ص٦٢).

عن عائشة: «كان رسول الله يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن، فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألت عن ذلك، فقيل لى أهدت لها امرأة من قومها عُكّة من عسل فسقت رسول الله منه شربة، فقلت: أما والله لأحتالنّ له، فذكرتُ ذلك لسوْدة وقلت: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولى له: أكلْتَ مغافير، فإنه سيقول لكِ: لا، فقولى له: ما هذا الريح..» (ص ٦٢ - ٦٣).

ماتت بالمدينة سنة ٤٥ عن عمر يناهز ستين عامًا، فى عهد معاوية (ص ٦٤).

(١٠) مختصر النص الخاص بصلح الحديبية أو يوم الحديبية أو غزوة الحديبية كما ورد فى السيرة النبوية لابن هشام والطبقات الكبرى لابن سعد: «سنة ست من مهاجره»، ذهب النبى قاصدًا العمرة «وساق بُدنًا» و«صحبه ألف وستمائة» و«خرج معه زوجته أم سلمة» ولم تتم العمرة وعُقد صلح بدا فى ظاهره لصالح قريش، لكن هذا الصلح هو بداية فتح مكة (ابن سعد، جـ ١؛ ابن هشام، جـ ٤). ونجد فى تعليق محقق السيرة النبوية لابن هشام وهو طه عبد الرؤوف النص التالى: «وفى غير رواية ابن إسحاق من الصحيح أنه عليه السلام دخل على أم سلمة وشكا إليها ما لَقى من الناس حين أمرهم أن يحلقوا وينحروا، فلم يفعلوا لما بهم من الغيظ، فقالت له أم سلمة: يا رسول الله اخرج إليهم، فلا تكلّمهم، حتى تحلق وتنحر، فإنهم إذا رأوك قد فعلت ذلك لم يخالفوك، ففعل النبى وفعل الناس. انظر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى».

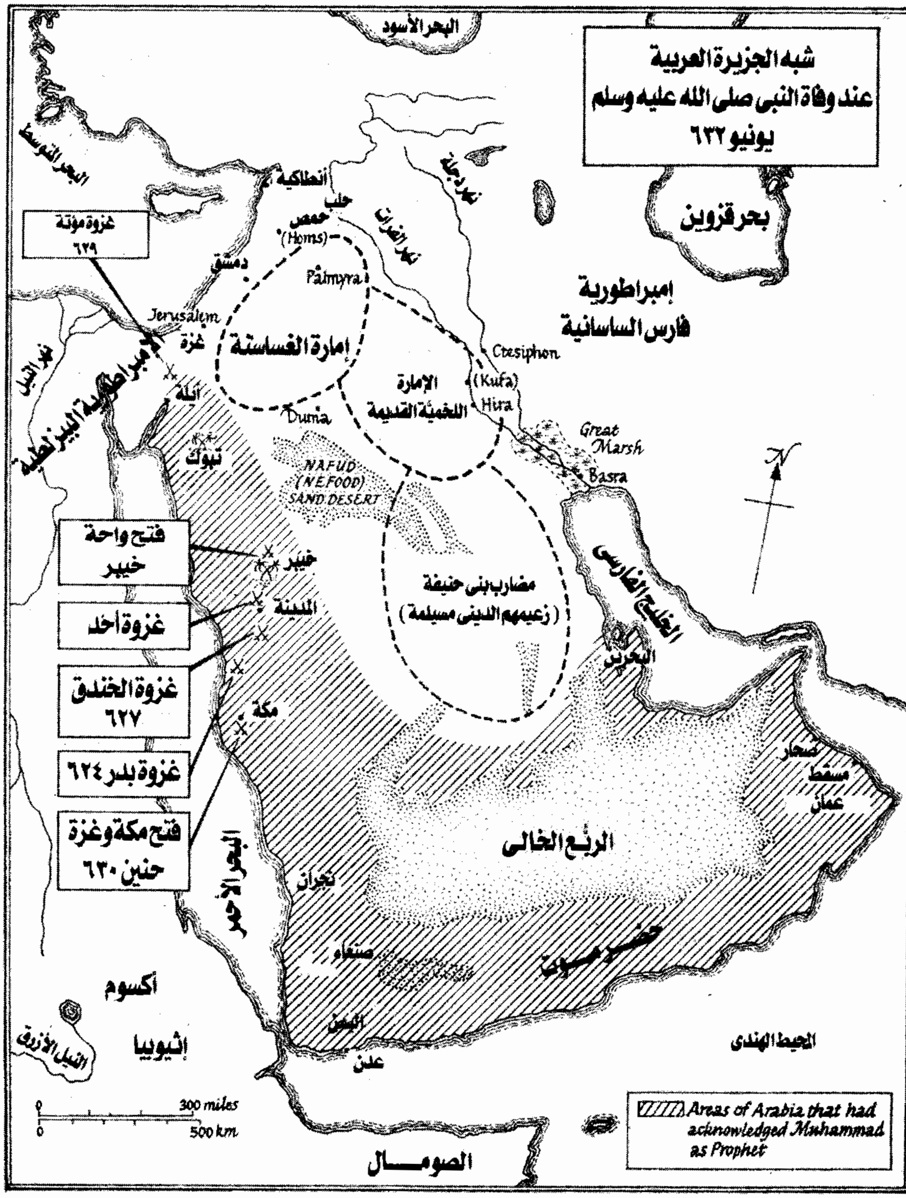
(١١) المصادر الإسلامية تؤكد أنها زوجة للنبى وليست محظية فى الطبقات الكبرى، مج ٦، ص ٩٦ - ٩٨ «هى من بنى النضير لكن تزوجت فى بنى قريظة، فلما وقع السبى على بنى قريظة سباها رسول الله فأعتقها وتزوجها وماتت عنده. . تقول ريحانة: «كان يقسم لى كما يقسم لنسائه، وضرب علىّ الحجاب.. وكان النبى يخلو بها ويستكثر منها.. ماتت بعد رجوعه من حجة الوداع فدفنها فى البقيع». وفى رواية أنه طلقها، وفى رواية أخرى أنه طلقها ثم ردها، وفى رواية ثالثة أنها «كانت عند رسول الله لم يعتقها، وكان يطؤها بملك اليمين حتى ماتت. وفى رواية أنها رغبت أن تكون ملك يمين النبى لا زوجة قائلة: «يا رسول الله أكون فى ملكك أخفّ علىّ وعليك»، فكانت فى ملك النبى يطؤها حتى ماتت.. وفى رواية أنها رفضت دخول الإسلام قائلة: «أنا على دين قومى».. وظل النبى يطؤها بملك اليمين حتى ماتت».

(١٢) فى السيرة النبوية لابن هشام جـ٦، ص ٥٩، طبعة دار الجبل، بيروت: «وتزوج رسول الله أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبى سفيان بن حرب.. وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش الأسدى» وفى المصادر الأخرى مثل ما ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق.

(١٣) الخلافات شديدة جدًا بين الروايات الإسلامية عن مارية، لكنها تؤكد أنها أسلمت، وقد تعرضت مارية لإساءات كثيرة من القرشيات فى منزل النبوّة وخارجه نستحى من ذكرها هنا مع أنها واردة فى الطبقات الكبرى لابن سعد، جـ٦، ص ١٦٠ - ١٦٢.

(١٤) نقلاً عن الطبقات الكبرى لابن سعد (المجلد السادس/ طبعة بيروت/ دار الفكر، ص ١٠٦ - ١٠٨) «قدم النعمان بن أبى الجَوْن الكِنْدى.. على رسول الله مسلمًا، وقال: ألا أزوجك أجمل أيمٍ فى العرب. كانت تحت ابن عم لها فتُوفِّى عنها.. وقد رغبت فيك، فتزوجها رسول الله. فلما قدمت دخل عليها نساء الحى فذكرن

من جمالها .. ودخل عليها داخل من النساء فقالت: إنك من الملوك فإن كنتِ تريدين أن تحظى عند رسول الله، فإذا جاءك فاستعيذى منه فإنك تحظين عنده ويرغب فيك». فلما اقترب منها النبى ليقبلها بعد «أن أقْعى» قالت: أعوذ بالله منك ، فقال لها : «عُذْتِ معاذًا» أو «لقد استعذت معاذًا» وبعد عنها وأمر بردّها إلى قومها. وقد علم النبى بعد ذلك أن هناك من حرّضها على هذا القول. وقد اتفقت عائشة وحفصة على إيقاعها فى هذا الخطأ «فقالت عائشة لحفصة أو حفصة لعائشة: اخضبيها أنتِ وأنا أمشّطها ففعلت، ثم قالت واحدة منهما : إنَّ النبى يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول: أعوذ بالله منك..».



شبه الجزيرة العربية
عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم
يونيو ٦٣٢
البحر الأسود
بحر قزوين
البحر المتوسط
غزوة مؤتة
٦٢٩
أنطاكية
حلب
حمص
(Homs)
Palmyra
دمشق
Jerusalem
غزة
أيلة
تبوك
الإمبراطورية البيزنطية
نهر النيل
نهر الفرات
نهر دجلة
إمبراطورية
فارس الساسانية
Ctesiphon
(Kufa)
Hira
Great Marsh
Basra
إمارة الغساسنة
الإمارة
اللخمية القديمة
Duma
NAFUD
(NEFOOD)
SAND DESERT
مضارب بنى حنيفة
(زعيمهم الدينى مسيلمة)
الخليج الفارسى
البحرين
فتح واحة
خيبر
خيبر
غزوة أحد
المدينة
غزوة الخندق
٦٢٧
مكة
غزوة بدر ٦٢٤
فتح مكة وغزوة
حنين ٦٣٠
صحار
مسقط
عمان
الربع الخالى
نجران
البحر الأحمر
صنعاء
حضرموت
اليمن
عدن
أكسوم
إثيوبيا
النيل الأزرق
المحيط الهندى
الصومال
300 miles
500 km
Areas of Arabia that had acknowledged Muhammad as Prophet

الجزء الثاني

الفصل الخامس

الخليفة أبو بكر وحروب الرِّدَّة

كان أبو بكر قد اطمأن برؤيته النبى وقد حضر صلاة الفجر فى ذلك اليوم الذى قضى الله فيه بقضائه ـ كان اليوم يوم إثنين. وبلغ من اطمئنانه أنه شعر أن نوبته فى رعاية النبى قد انتهت، فغادر مكان محمد ليزور إحدى زوجاته وهى حبيبة بنت خارجة التى كانت تقيم فى إحدى القرى التالية للمدينة (السِّنح al- Sunh). وقُبَيْل الظهر، علم هو وكل من كان فى الواحة أن شيئًا ما مفزعًا قد حدث.

لقد امتلأت أحياء المدينة المتناثرة بصرخات الرجال وولولة النساء (مع أن النبى كان قد نهى عن الصراخ والولولة فى مثل هذه المناسبات). وقُبَيْل أن يعود أبو بكر كان صحن المسجد يعج بالبشر عن آخره. ومر أبو بكر خلال كل مظاهر الحزن الهستيرى، ودخل غرفة ابنته عائشة. كانت هناك عباءة يمنية مطرزة تغطى الجسد الهامد still للنبى، فرفع العباءة ليقبل جبهة نبى الله الذى وافته منيته وتمتم: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذُقتها ثم لن تُصيبك بعدها موتة أبدًا» ثم اندفع مخترقًا طريقه بين الجموع، وحاول أن يقاطع عمر بن الخطاب الذى كان يصرخ فى الحشود فى الخارج مهددًا إياهم بأشد أنواع العقاب إذا سمع مزيدًا من اللغط عن موت النبى، بل لقد وعد بأن يقطع يدَىّ ـ وساقَىّ ـ أى واحد يجرؤ على الهمس بأن محمداً قد مات. وحاول عمر أن يشرح للجموع أن محمدًا قد ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى، واحتجب عن قومه أربعين يومًا ثم عاد إليهم بعدما قيل إن الله قد أماته. سيعود رسول الله كما عاد موسى.. وربما كان عمر قد تخيل أيضًا أن النبى العائد (المولود من جديد

reborn) يقودهم لنصر عسكرى شبيه بانتصار قبائل بنى إسرائيل ودخولها الأرض الموعودة، فذلك لم يحدث إلا بعد وفاة موسى، وفى وقت لاحق وجدناه - أى عمر - يعترف بعقيدة مستورة (باطنية) hidden أخرى مؤداها أن النبى ما كان ليموت إلا بعد أن يصلى على قبر آخر من يؤمن به last of the believers.

لم يكن أبو بكر ليستطيع شيئًا فى هذا الموقف سوى أن يشد ثيابه ولم يستطع أن يهمس فى أذنه ولا استطاع أن يوقف سيل الكلمات البليغة من فمه، فتوقف بعد فشل كل هذه المحاولات وتحرك بعيدًا إلى ركن آخر بحيث يمكنه - بصوته الهادئ - أن يُسمع الناس، وراح يرفع صوته شيئًا فشيئًا فأقبل بعض الناس يسمعونه. لقد قال لهم: «إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت». وذكَّر الناس بما ورد فى القرآن عن موت محمد﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ (١٤٤) (سورة آل عمران، الآية: ١٤٤).

وهنا توقف عمر، وقد تذكر الآية وكأنه لم يسمعها من قبل. يقول عمر: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعَقِرت (أى أصابنى الدُّوار والدهشة) حتى وقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله قد مات». إذا كان هذا هو رد فعل عمر القوى ذى الإرادة الحديدية، فماذا يكون حجم الذعر والأسى اللذين ملآ قلوب المسلمين الآخرين! لقد وصف أحدهم حال المسلمين فى هذا اليوم بأنهم كانوا كالخراف فى ليلة ممطرة وإنه لمن السخرية أن يكون أبو بكر كبير السن، والمعروف بحساسيته (رقَّته) الشديدة وبصوته الهادئ وقرب دموعه عندما يقرأ القرآن - ظهر قوىَّ الشخصية، بل كان هو الأقوى فى هذه اللحظة الحرجة.

ثم أتى رجل مسرعًا إلى أبى بكر وعمر ليخبرهما أن بعض زعماء عشائر المدينة قد دعوا لعقد اجتماع. **ورغم أن بعض المعلقين يحبون أن يعطوا طعم الخيانة لهذا الاجتماع، إلا أنه كان لهؤلاء المجتمعين الحق كل الحق فى اجتماعهم**. فأهل المدينة كانوا قد أقسموا للنبى أيمانًا مغلَّظة على الولاء له، فكان النبى هو قاضيهم والحكَم بينهم إذا اختلفوا، وبذا لم يُنْهِ الحروب الأهلية بينهم **فحسب** وإنما قادهم أيضًا من نصر إلى نصر. ولم يكن أهل المدينة راغبين فى أن يغرقوا مرة أخرى فى الحروب الأهلية، والآن وقد مات **زعيمهم المختار** (النبى) فقد كانوا فى حاجة إلى مرشد guide آخر

يرشدهم. ولا شك أن الرجل الذى دعاهم للاجتماع وهو **سعد بن عُبادة** من عشيرة بنى ساعدة كان له طموحات سياسية، ولكن هذه الطموحات ربما لم تكن تمتد خارج نطاق سياسات الواحة، بمعنى سعيه لوضع مميز ومعترف به فى الواحة (المدينة). وهنا تنبه عمر واسترد وعيه وتوازنه his poise، مُصرًا على أن يقود المفاوضات باسم المهاجرين (مسلمى مكة) فى هذا الاجتماع الحاسم المهم الذى عقده الأنصار (مسلمى المدينة). لقد التقيا بهدوء باثنين من أتباعهما المخلصين اللذين نصحا عمر أن يدعو لاجتماع منفصل للمهاجرين، وليترك أهل المدينة فى مداولاتهم البطيئة their own deliberation. إلا أن عمر لم يأخذ بهذه النصيحة وأقسم أنه سيذهب إليهم (أى سينضم لاجتماع أهل المدينة) ووصل عمر ومن معه إلى الاجتماع فى لُحظة حاسمة، وكان من الواضح أنهما متأثران بمضمون العقيدة الإسلامية التى حكمت تصرفات كل متحدث. لقد سخط عمر سخطًا شديدًا عندما سمع المهاجرين يوصفون بأنهم مجرد عشيرة وافدة رحب بهم الأنصار فى المدينة فاستعد لرد ينطوى على الفخر الشديد، وأعد ردًا يذم فيه من قال هذا، إلا أن أبا بكر تدخل ولمس بلطف ذراع عمر، وهمس له بلطف: «رفقًا يا عمر». لقد كان أبو بكر على حق فلو أن عمر تكلم كلامًا فظًا فى هذا السياق (فى هذه الظروف) لأدى هذا لعواقب وخيمة، وقد وصف عمر فى وقت لاحق هذا الموقف معترفًا بفضل أبى بكر، عندما حكم ـ أى عمر ـ إمبراطورية واسعة بوصفه خليفة «... فلما جلسنا تشهَّد خطيبهم (الأنصار) .. ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام .... وقد دفَّت دافة من قومكم (أى وفدت إلينا)... فلما سكت أردت أن أتكلم (أى أراد عمر) وكنت قد زورت (أعددت) فى نفسى مقالة قد أعجبتنى، أريد أن أقدمها بين يدَىْ أبى بكر، وكنت أدارى منه بعض الحد (الحِدَّة)، فقال أبو بكر: على رِسْلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم، وهو ـ أى أبو بكر ـ كان أعلم منى وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى إلا قال مثلها أو أفضل».

وهكذا أعاد أبو بكر بطريقة محسوبة وهادئة ولبقة وبارعة ثناء النبى على أهل المدينة (الأنصار)، لكنه أصر مركزًا على أن الإسلام الآن قد أصبح ظاهرة تمتد لتشمل شبه الجزيرة العربية كلها، فليس من خيار أمام الأنصار (أهل المدينة) إلا القبول بحاكم من قبيلة النبى (قريش) من مدينة مكة المقدسة (المكرَّمة sacred) إذا رغبوا (أى الأنصار) فى الاحتفاظ باحترام القبائل البدوية الكبيرة وملوك اليمن وزعماء قبائل بادية الشام وعُمان. وأنهى أبو بكر المهيب كبير السن كلامه بأن رشح للمجتمعين اثنين

ليختاروا واحدًا منهما. ولم يذكر نفسه. وسرعان ما علا الصخب فى مكان الاجتماع وعلت الأصوات التى تعبر عن الدهشة، وراح شيوخ عشائر المدينة المتنافسون يناقشون أفكار أبى بكر. وانطلق شيخ وقور قائلاً: إننى مجرب. إننى نخلة مثمرة «أنا جُذَيلها المحكّك وعُذَيقها المُرجَّب» وهى عبارة تقليدية تؤكد أن لحيته قد شابت وأن لديه نصائح طيبة ثبت أنها مثمرة طوال أعوام كثيرة مضت، ثم اقترح أن ينتخب أهل المدينة حاكمًا منهم وأن يختار أهل مكة حاكمًا آخر منهم «منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش» لكن عمر بن الخطاب حطم هذا الاقتراح المنطوى على مكيدة، فقد جهر بقوة معبرًا عن دهشته فى أن يجرؤ أحد على التقدم على رجل أمره النبى أن يؤمَّ المصلين. ولم يكن لهذا التساؤل إجابة. وانتهز عمر لحظة الصمت التى سادت فتقدم من أبى بكر قائلاً: «ابسط يدك يا أبا بكر»، فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر، وأعقب مبايعة عمر مبايعة العدد القليل من المهاجرين الذين كانوا قد صحبوهما (أى صحبوا أبا بكر وعمر). لقد أثر جلال الموقف فى رجال عشائر المدينة المجتمعين وأجَّج عواطفهم فسرعان ما قدموا البيعة لأبى بكر. وفى هذه الأثناء أُزيح سعد بن عُبادة عن الصدارة (وكان سعد مريضًا قد أوهنته الحمى).

وتم إحكام هذا الانقلاب العرَضى (الذى جرى بالصدفة accidental) فى اليوم التالى فى صلاة الفجر، فقد ملأ المصلون المسجد بينما كان أبو بكر جالسًا بالفعل فى موضع إمامة الصلاة pulpit وأمَّ المصلين. وما إن انتهت الصلاة حتى نهض عمر مواصلاً حديثه للمؤمنين المتجمعين. وقد كرر أمام المتجمعين قسمه (بيعته) لأبى بكر واصفًا إياه بما ورد فى القرآن الكريم (٩:٤٠) ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ (سورة التوبة) فهتفت جموع المصلين مجتمعة معلنة أن أبا بكر هو خليفة رسول الله، وانتقل اللفظ إلى اللغة الإنجليزية لكثرة تداوله ليصبح Caliph.

وهكذا تأسست الخلافة بإعلان جموع المؤمنين بعد انتهاء صلاة الفجر. وكان رد أبى بكر على جموع المبايعين هو قسمه بدوره (تقديمه تعهدات فى المقابل)، كما أجاب محمد النبى مؤمنى المدينة الذين اجتمعوا به فى منتصف الليل فى العقبة (بيعة

العقبة). **لا بد أن تُحفر كلمات أبى بكر هذه على حجر بوابات كل القصور الرئاسية، وكل صالات الاستقبال الملكية، ولابد أن تُطبع على كل بطاقة هُوِيَّة وكل جوازات السفر حتى تتذكر الشرطة وقوات الأمن فى العالم الإسلامى، كل يوم، هذا العهد العظيم بين الحاكم والمحكوم.** وتلك كلمات أبى بكر:

«.. أما بعد، أيها الناس، فإنى قد وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقوِّمونى. الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء (الله)، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا من from صلاتكم يرحمكم الله». (ملحوظة: النص فى السيرة النبوية لابن هشام هو: قوموا **إلى** صلاتكم يرحمكم الله).

وفى كل هذه الأثناء وقبلها كان علىٌّ مشغولاً بدفن النبى فلم يشارك فى مناقشة مسألة الخلافة.. ربما لم يكن على ـ باعتباره أبًا شابًا فى الثلاثين من عمره ـ غير راغب فى أن يرشحه أحد لخلافة النبى بما يعنيه هذا من مسئوليات سياسية ـ حقيقة إنه عندما لاقى تشجيعًا من عمه العباس ومن أبى سفيان زعيم مكة العجوز كى يتقدم لترشيح نفسه للخلافة، فإنه ـ أى على ـ رفض الاقتراح معبرًا عن نقمته (سخطه) he indignantly rejected the suggestion، لكن الذى يكاد يكون مؤكدًا هو أنه كان يتوقع أن يشركوه فى اللجنة الانتخابية (فى الجماعة المنوط بها اختيار خليفة النبى) أو أن يُستشار فى هذا الأمر. ومن المؤكد أن عليًا كان أكثر المسلمين وضوحًا بامتناعه عن مبايعة أبى بكر طوال الشهور القليلة الأولى من خلافته. فطوال هذه الشهور لزم على بيته حيث سمع بقلب مثقل بالحزن من فاطمة المناقشات الأخيرة الهامسة التى كانت قد جرت بين النبى وابنته فاطمة. فقد رُئيت تبكى ثم تضحك. إنها الآن تشرح لزوجها (على) أنها بكت عندما أخبرها أبوها النبى أنه على وشك أن يموت (فبكت)؛ لكن النبى سرعان ما قال لها إنها (أى فاطمة) ستكون أول أهل بيته لحوقًا به (فضحكت) هذا ما يتعلق بعلى فى هذا السياق كله: موت زوجته الحبيبة فى غضون أشهر قليلة من موت من كان له بمثابة أب (النبى محمد)، وليس هذا فحسب بل إنه ابن عمه ومعلمه ووالد زوجته محمد رسول الله.

ومما زاد الأمور سوءًا فى هذه الفترة العصيبة بالنسبة لعلى، تطور الخلاف بين فاطمة التى تعانى المرض وأبى بكر. وقد شرحت عائشة فيما بعد لأجيال المسلمين التالية أن محمدًا رسول الله مات ولم يترك دينارًا ولا درهمًا ولا ضأنًا ولا حَمَلاً ولا ناقة، بل لقد مات ودرعه مرهونة عند تاجر يهودى لقاء ثلاثين عيارًا من الشعير ,ولم تكن أسرة النبى تتوقع أى شىء من رجل (المقصود النبى) علمهم أن على المؤمن واجب رعاية الفقير وكبير السن والمريض واليتيم وعابر السبيل. وعلى أية حال، فإن أفراد أسرة النبى توقعوا أن تنتقل أراضى النبى، خاصة تلك الموجودة فى خيبر وفَدَك إلى ملكيتهم (يرثونها عن النبى). وقد رفض أبو بكر السماح بهذا مذكرًا بقول سمعه هو من النبى «نحن (الأنبياء) لا نُورَّث، ما تركناه صدقة» فنصيبُ النبى من هذه الأراضى المفتوحة قد أصبح جزءًا من أراضى الصدقة التى يشرف عليها الخليفة. فكل ما سمح به أبو بكر للباقيات من بنات النبى وأحفاده ليرثوه إرثًا مباشرًا فى الواحة (المدينة) هو سبع قطع صغيرة من الأراضى مزروعة بالأشجار كان قد أوصى بها يهودى من بنى النضير تَحوَّل للإسلام ومات فى غزوة أُحُد ولم يكن له ولد. وحتى هذه القطع الصغيرة من الأراضى اعتُبرت وقفًا، فكان يديرها إدارة مشتركة كل من العباس وعلى. وغضبت فاطمة غضبًا شديدًا لعدم تمكينها من إرث والدها، **وراح على يورد شواهد قرآنية تفيد بوضوح أن الأنبياء السابقين كانوا يُورِّثون؛ فقد ورث سليمان داود، وكان زكريا يتمنى أن يكون له أبناء يرثونه.** لكن هذه الشواهد القرآنية ذهبت هباء (فلم يأخذ بها أبو بكر).

وعندما تدخلت عائشة فى هذه المسألة الدينية لدعم والدها، اتسعت شُقَّة النزاع. وبالإضافة لهذا فهناك شك فى أن أبا بكر أراد أن يكون حاسمًا فى هذه القضية ـ على نحو استثنائى ـ ليمحق أى دعوى بأن عليًا وفاطمة هما بأى شكل أو آخر ورثة النبى، مما يضفى مصداقية أيضًا لفكرة أنهما ـ بالضرورة ـ ورثة سياسيون وروحيون للنبى (لقد أراد أبو بكر أن يقطع دابر الفكرة). فالحقيقة أننا وجدنا أنه فى أمور أخرى كان مبدأ التوريث قائمًا فقد دبر بنو هاشم الاحتفاظ بدعواهم فى نصيبهم من الخُمس الذى كان مخصصًا للنبى من كل غنائم الحرب، وكان هذا النصيب يوزع بين كل أفراد عشيرة بنى هاشم. ورغم هذا الحكم الصارم الذى اتخذه أبو بكر (المقصود عدم توريث فاطمة نصيبها فى أراضى فَدَك وخيبر): فإنه كان حريصًا على التأكد من أن الرواتب (المعاشات) التى اعتاد النبى أن يشرك فيها أسرته وعشيرته من العوائد السنوية لواحتَيّ خيبر وفدك ما زالت مستمرة وما زالت تدفع لهم. لم تكن المسألة مسألة فاطمة

وحدها، فزوجات النبى كن لايزلن يقمن فى المنازل the huts القائمة حول المسجد. وقد طلبن من عثمان أن يتشفع لدى أبى بكر ليأخذن شيئًا من ميراث النبى؛ لكن هذه الوساطة لم تنفع بسبب إصرار عائشة على أن **النبى محمداً كان راغبًا فى أن يكون كل ما تركه صدقة**. وفى وقت لاحق وجدنا أبا بكر يُسْكن عائشة ويمنحها أرضًا فى حى العالية فى الواحة (المدينة) وجملة ممتلكات مفيدة فى البحرين portfolio of property .in Bahrain

وبينما كانت فاطمة لا تزال فى قيد الحياة كان من المستحيل معالجة الموقف the row was impossible to heal لكن بعد موت فاطمة ـ وبعد موتها فحسب ـ كان علىٌّ قادرًا على شرح الموقف وجهًا لوجه لأبى بكر. لقد أعلن على صراحة: إننى أعرف جيداً مكانتك your preminenre وما أفاء الله به عليك. وإننى لا أحمل لك أى ضغينة (حقدًا) لما أفاء الله عليك من فضل؛ لكنك لم تواجهنا (لم تكن متوازنًا معنا Confront us) بشىء تم إنجازه، وتركتنا بلا قول (رأى) فى أى شىء (تركتنا وليس لنا من الأمر شىء)، وقد شعرنا بأن لنا بعض الحق فنحن الأقرب عرقًا لرسول الله (الأقرب إليه رحمًا)، فأجاب أبو بكر على الفور بأنه يفضل أن تسوء علاقته بأسرته ولا تسوء بأسرة النبى (آل بيت النبى). وبعدها أبديا (أبو بكر وعلى) الاتفاق علنًا بعد انتهاء صلاة الجمعة.

وتحاول بعض الحوليات أن تبين أن أبا بكر عمل بعد هذا اللقاء، طوال ما تبقى من فترة خلافته، على العمل بتنسيق مع كل صحابة النبى كما عمل على تأسيس نظام تُقسم السلطة الإدارية بمقتضاه بين أربعة مسئولين four ministries ليكون هذا التقسيم هو النموذج الإسلامى الأصلى الذى يجرى الاحتذاء به prototype. وفى إطار هذا السيناريو المسالم (الاتفاقى) يكون علىٌّ هو المستشار الأول (أمين السر chief of secretariat) وعمر (هو مسئول العدل embryo minister of justice) وأبو عبيدة مسئول (وزير) المالية، وعثمان مسئولاً عن المعلومات والاتصالات. ويبدو أن هذا غير مناسب، فلم تكن الظروف وتسارُع الأحداث لتتيح وقتًا لهذا التنظيم الرسمى. فما نعرفه هو أن أبا بكر لم يكن يعطى القيادة العسكرية لأى صحابى رئيس senior؛ لكنه كان يفضل أن يختار رجاله العسكريين من المسلمين الذين تحولوا حديثًا للإسلام وبرهنوا على كفاءاتهم. فقد كان أبو بكر يعرف أن دولة المسلمين الوليدة محاطة

بالأعداء وأن عليه أن يستخدم أكفأ الرجال وأكثرهم طموحًا لتبقى الجماعة Com-munity.

إن الإسلام مَدين كثيرًا لتواضع أبى بكر وبساطته، فقد كان مُصرًا على إقصاء قيادته (حكمه) عن الأبهة والخُيلاء pomp والطقوس المَلَكية (بفتح الميم)، واستمر مواصلاً للنسق الذى سار عليه النبى من حيث بساطة التناول والاهتمام الشّفُوق .

لقد كان أبو بكر مدركًا أن حقبة النبوّة قد انتهت بموت النبى، وأن على خليفته أن يقبض على زمام السلطة السياسية ليحكم الجماعة لكنه ـ أى أبو بكر ـ كان مُصرًا إصرارًا صَلْدًا على أنّ منصب الخليفة لا ينطوى على أى طاقات (قدرات) روحية. فلا شىء ولا أحد يمكن أن يقف حائلاً فى العلاقة المباشرة بين المسلم (المؤمن) والله الواحد. فالصلاة لله الواحد، والدعاء موجّه **لله** الذى لا إله سواه.

لقد كان أبو بكر قادرًا على تأسيس هذه الاتجاهات (الخطوط) السلوكية بفضل الثقة الاستثنائية التى اكتسبها بين مجتمع المسلمين. لقد كان أبو بكر يتمتع بوضع فريد: هو أول من أسلم من الرجال (رغم أن عليًا أسلم قبله إلاّ أنه كان حين إسلامه صبيًا boy)، ولم يرد فى القرآن إشارة إلاّ لعدد قليل جدًا من المؤمنين هو (أى أبو بكر) منهم. (السورة ٩، الآية ٤٠)، واختاره النبى ليقود الحج إلى مكة المفتوحة حديثًا جدًا، وذلك سنة ٦٣١، والأهم والأكثر تأثيرًا هو أمر النبى له أن يؤمَّ المصلين فى فترة مرضه (أى مرض النبى).

كما كان لديه ميزة متعلقة بعمره، فقد كان أصغر من النبى بثلاث سنوات فقط (ضعف عمر علىّ بالضبط)، كما كان ذا خبرة ثريّة بأمور الدنيا. وفى شبابه كوّن ثروة صغيرة من تجارة القوافل التى تعبر شبه الجزيرة العربية لكنه أنفقها وهو فى منتصف عمره فى خدمة الإسلام. وكان يطعم الفقير ويساعد من طردتهم أو قاطعتهم قبائلهم boy Cotted ويحرر المسلمين الذين كانوا يعانون الاضطهاد والعبودية، فقد اشترى بلالاً ودفع ثمنه نقدًا وفورًا ثم أعتقه. ولم يتبق من ثروته التى بلغت ٤٠ ألف درهم سوى ٦٠٠٠ درهم عندما صحب النبى فى هروبه الجَسُور (هجرته) من مكة إلى المدينة حيث الأمان. حتى هذا المبلغ المتبقى (٦٠٠٠درهم) سرعان ما وُضع تحت تصرف النبى محمد عند الوصول للمدينة لشراء قطعة أرض كان يمتلكها أيتام لتُخصص لبناء مسجد ومقر إقامة house mosque. وأُطلق على أبى بكر (الصدّيق) وهى كلمة تعنى الصادق truhful

أو المخلص sincere، وقد اكتسب هذا اللقب (الصديق) عن جدارة. ولم يؤدّ كبر سنّه إلى جعله أقل كرمًا فقد راح يعيد استثمار بعض مدَّخراته المالية فى المدينة، ومرة أخرى نجده يضع كل هذا تحت تصرّف النبى عندما دعا أتباعه للمساعدة فى إعداد غزوة تبوك. إنه ليُقال عن حق إن أحدًا لم يُضحِّ فى سبيل الإسلام بأكثر منه: لكن أبا بكر لم يحقق شهرة باعتباره مقاتلاً فى سبيل الإسلام (مجاهد أو محارب) أو باعتباره قائدًا عسكريًا. فلم يجعله النبى قائدًا عسكريًا يتحمل المسئولية العسكرية وحده فى أىّ وقت من الأوقات، رغم أننا نعرف أنه كان جنبًا إلى جنب مع عمر فى غزوة (حملة) فى سنة ٦٢٩ إلا أنه - أى أبو بكر - لم يشترك فى أىّ اشتباك. وكان يُعد من بين جماعة المؤمنين الأولى (الباكرة زمنًا) التى حاربت فى معركة بدر - فهناك رواية شهيرة عن القتال فى ذلك اليوم توحى بحماسه العميق الشديد للإسلام حتى لو أضعفت - أى هذه الحكاية - من مهارته كرجل من رجال السيف. وبعد مرور عام بعد هذه الواقعة (فى غزوة بدر) اعترف أحد أبناء أبى بكر الذى كان يقاتل فى صفوف الوثنيين فى غزوة بدر (لكن هذا الابن دخل الإسلام فى وقت لاحق) قائلاً لأبيه إنه لاقاه مرتين فى غزوة بدر، وكان - أى أبو بكر - فى مطال سيفه (أى سيف ابنه) لكنه - أى الابن لم يضرب أباه لفرط حبّه له، فرد أبو بكر وهو يحملق فى عينَىْ ابنه الأكبر بما يفيد أنَّه - أى أبو بكر - لو كان قد تمكَّن منه (من ابنه) يومها (يوم غزوة بدر) لقتله.

والزعماء الشيعة المعاصرون - بمن فيهم آية الله الخمينى - قطعوا أشواطًا طوالاً لإزاله سوء الفهم بين الشيعة والسنَّة، فراحوا يمتدحون إنجازات أبى بكر. ولم يكن هذا هو الحال بين الشيعة فى ماضٍ أبعد (مثل ما كان عليه الحال فى الإمبراطورية الصفوية الفارسية فى القرن السادس عشر) حيث كان يجرى تشجيع لَعْن الخلفاء الثلاثة الأوائل بشكل علنى، فالمناصرون لحق علىّ فى أن يكون هو الخليفة الأول صبوا حنقهم على أبى بكر الذى ظنوا أنه سلب عليًا الخلافة. لقد راحوا يتمعنون فى روايات الماضى التى توحى بمؤامرة سلبت عليًا دوره. لقد اعتبروا أن جزءًا كبيرًا من سلطة أبى بكر قائم على اتفاق سرى مع عمر، اعتمادًا على مؤامرات ماهرة حاكتها عائشة (وحفصة إلى حد ما) داخل بيت النبى.

من الواضح أن هناك - على الأقل - أساسًا حقيقيًا لهذا التحليل. لقد كان بينهما (أبو بكر وعمر) أساس حقيقى للتفاهم (رغم أن البعض رأى أن المسألة لا تعدو أن تكون صداقة) بالإضافة لوضعهما بين الصحابة الآخرين المقربين، فكلاهما تزوج النبى من

ابنته بما استدعاه هذا النسب من القرب من منزل النبى بمعنى إتاحة الفرصة للتردد عليه. حقيقة إن أبا بكر على نحو خاص كان انعكاسًا reflection للدور المحورى الذى لعبته ابنته عائشة فى خيال الجماعة imagination of the Community. ذلك أن الاسم (أبا بكر) يمكن ترجمته Father of the Virgin أى أبو العذراء (البِكْر بكسر الباء)[1]، وليس من شك فى أن هذا راجع إلى أن عائشة لم تدع أحدًا ينسى أنها وحدها من بين كل زوجات النبى، هى التى دخل بها وهى عذراء. فاسم أبى بكر هو عبدالله أبو عبد الله بن أبى قحافة، لكن هذا الاسم توارى ليظهر اسم استخدمه العامة يذكِّره قبل كل شىء أنه (أبو عائشة) أو أبو البكر. إنها حالة نادرة، فالشرف العربى المعتاد قائم على دعوة الأب باسم ابنه الذكر، أو باسم أبيه، أما هنا فقد وجدنا الإضافة قد تحولت لصالح ابنته (أبو عائشة أو أبو بكر[★]).

وكان لابد أن تخضع سلطة أبى بكر الجديدة ـ سريعًا ـ لمحك التجريب. ففى أواخر أيام النبى طلب أن يقود حفيده بالتبنى أسامة والبالغ من العمر ثمانية عشر عامًا جيشًا إلى بادية الشام. ولم يكن هذا القرار يحظى بقبول عام، رغم أن العرب اعترفوا أنه من الملائم أن تُتاح الفرصة لأسامة ليثأر لمقتل أبيه زيد فى معركة مؤتة (٦٢٩). ونظرًا لإصرار النبى، كان لابد أن يزيح الجيش مخاوفه من مواجهة جيش بيزنطى ميدانى مدرب، بينما على رأس قوات المسلمين شاب غير مدرب، فقد تقدم الجيش خارجًا من الواحة (المدينة)، وما إن وصلوا إلى أول مرحلة من مراحل التوقف خارج المدينة حتى وصلتهم الأخبار بأن حالة النبى الصحية قد ساءت، مما اضطرهم للعودة (للمدينة). وما إن وجدت الجماعة طريقها (استقرت) بعد ما عانته من يأس بعد وفاة النبى حتى أصدر أبو بكر الأمر مذكّرًا بأنه حان الوقت الآن لإرسال الحملة وتنفيذ التعليمات، وهنا تضاعف الاعتراض ضد إرسال الحملة لكن أبا بكر شرح لهم بتؤدة وصبر متسائلاً: هل يمكننى أن أطوى علمًا بسطه الرسول نفسه، «.. ثكلتك أمك يا بْنَ الخطاب، استعمله رسول الله وتريدنى أن أنزعه...».

وعندما وافق الجند طلبوا منه أن يغير القيادة، فراح أبو بكر يسألهم أتريدوننى أن أعزل قائدًا عيَّنه رسول الله «لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول

(★) رغم أننا يمكن أن نسمِّى أبا بكر منسوبًا لابنته ومنسوبًا لابنه (أبو عبد الله) ومنسوبًا لأبيه (ابن أبى قحافة). فإن الاسم عبد الله هو لقب كل الخلفاء الأوائل، ومن هنا فإننا لانزال نجهل الاسم الذى أطلقه عليه والداه عند ولادته. (المؤلف).

المعلق: هذه تهويمات حول اسم أبى بكر، أى أبو العذراء، وهى خيالات لتنقيص مكانة أبى بكر.

الله ـ الطبرى»، فلم يكن لدى الشاكين ـ هذه المرة أيضًا ـ بعد هذا القول ما يقولونه، ومع هذا فقد كان أبو بكر قد وضع بالفعل ترتيبات أخرى تهدئ من مخاوفهم. فقد ترك أسامة على رأس القوات من الناحية الرسمية؛ لكن أبا بكر جعل إلى جواره مستشارين مجربين وزوده بتعليمات هادئة دقيقة بأن تكون الحملة استعراضًا للقوة pa-rade in force وليست تلاحمًا مباشرًا مع الجيش البيزنطى أو جيش الغساسنة. ولم يكن أبو بكر جاهلاً بالإيماءات اللازمة لكسب موافقة رفاقه العرب. لذا؛ فعندما غادرت هذه الحملة المثيرة للجدل أخيرًا المدينة راح أبو بكر ـ زعيمهم ـ يمشى بتواضع على قدميه إزاء رجال الحملة الراكبين ليودعهم ويدعو لهم بالنصر والبركة. وفى الوقت نفسه، نجده أبقى فى المدينة عددًا كافيًا من المحاربين لمواجهة أى تهديد خارجى، وقد حدث بالفعل أن قام البدو بغارة فلحقت بها هزيمة مدوية فى ذى القَصة. وعقب عودة حملة أسامة للمدينة بعد أربعين يومًا، بأمان، وقد أرهبت أيضًا القبائل البدوية فى الشمال، كان رصيد النجاح السياسى لأبى بكر قد ازداد، أيضًا. وكان هذا مطلوبًا. **فلم يكن هناك تبرير قرآنى لما زعمه أبو بكر وعمر فى ذلك الاجتماع الحيوى مع شيوخ المدينة بعد وفاة النبى،** فقد كانت حججهما مجرد أدلة سياسية خالصة، فقد ذكرا أن بقية شبه الجزيرة العربية لن تخضع (أو لن تطيع) سوى زعيم من قريش مكة، ولم يكن هناك مجال مطلقًا للعمل على وفق تعليمات محمد النبى وحدها، كما اعترف عمر فى وقت لاحق بمحض إرادته. لقد اختلف الوضع عما كان أيام النبى، فقد كان النبى يؤكد على ضرورة ألا تكون هناك طبقية رُتَبية hierarchy بين المسلمين، وهناك آيات قرآنية فى مواضع مختلفة: (٨: ٧٢ ـ ٤ و٩: ١٠٠، ١١٧)، تؤكد على أن الأنصار (مسلمى المدينة) مساوون ولا يقلون مكانة. حقيقة إن المهاجرين لم يكونوا جميعًا من قريش، بأية حال من الأحوال، وإنما تم إطلاق الاسم (قُرشى) على كل المسلمين المهاجرين الذين لجؤوا إلى المدينة وكانوا يتكونون من بدو من قبائل مختلفة ومن أحباش وغير أحباش(٢)، وكان تعداد هؤلاء يساوى تعداد المكيين. لم يشر القرآن إلى أية رُتَب تفرق بين المسلمين، فالإشارة الوحيدة لمثل هذه الرُّتَبيَّة نجدها فى السورة ٥٦، الآيات ١٠ -١٢: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)**﴾ وبناء على هذه الآيات تتحدد الأفضلية بالأسبقية للإسلام. ومن الواضح من هذه الآيات أن المسألة متعلقة بالإيمان ولا علاقة لها بأمور الدنيا. وبالنسبة لأولئك الذين يعرفون (يفهمون) القرآن جيدًا هناك ثلاث إشارات سطحية **لخليفة** متناثرة بين آياته الكثيرة. ففى السورة (٣٨: ٢٦) يحدثنا القرآن عن الملك داود ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى**

الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾. وفى آية أخرى نجد أن الله يحذر الملائكة ذاكرًا لهم أنه سيجعل آدم خليفة فى الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (سورة البقرة، الآية: ٣٠).

فى كلا هذين السياقين القرآنيين نجد واضحًا أن دور الخليفة إنما هو دور بشرى وليس أبدًا نصف إله أو أن له نصف قداسة؛ لكن هذه الفكرة ستظهر فى عصور متأخرة زمنًا عندما ادعى الحاكم أنه «ظلُّ الله فى الأرض». إذا أمعن أبو بكر النظر طويلا فى هذه الآيات المذكورة آنفًا لما كان راغبًا فى التركيز كثيرًا على الإشارة القرآنية الثالثة (٧ : ١٤٢)، حيث جرى حوار على وفق النص القرآنى ـ بين موسى وهارون ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ ذلك أن الحوار العلنى المشهور بين النبى محمد وعلى بن أبى طالب، عندما شبه النبى نفسه وعليًا بموسى وهارون، يشير بوضوح إلى أن النبى محمدًا كان يقصد أن يخلفه على. إلا أن أبا بكر فضل اللجوء للخبرة. وتأجيج العاطفة الدينية، وكان عمر يسانده فى هذا، ولابد أن هذا النهج قد فرض نفسه على جماعة المسلمين التى اعتراها الذهول. لابد أن يتذكر المرء دائمًا أنه لم تكن هناك أبدًا خلفية عقائدية للانقلاب Coup الذى أحدثاه، فقد كانا قد فشلا فى التشاور مع الصحابة الآخرين ذوى المكانة والنفوذ، وكانا قد فشلا فى الاعتراف بوضع علىٍّ الخاص Special ولم يلجآ للتشاور مع جماعة المسلمين على نطاق أوسع إلا عندما كانت هذه الجماعة تمثل الشريك الضعيف. فكما افترضت آنفًا، لو أن زيدًا بن حارثة (ابن محمد بالتبنى والأكثر خبرة حربية)[٢] لم يسقط فى سنة ٦٢٩ فى معركة (غزوة) مؤتة لاتخذت مسألة وراثة النبى (خلافته) مسارًا مختلفًا بالتأكيد. فلو أن زيدًا (ابن حارثة) وعليًا (ابن أبى طالب) وهما رجلان من بيت النبى وقفا معًا فى المسجد، لانكسف الثانى أبو بكر رغم براعتهما[*].

(*) هذا افتراض أو تهويم لا تؤكده الوقائع، وإلا فقد كان هناك أناس أشد تأثيرًا من زيد وعلى مع صغر سنهما. (المعلق).

تطلعوا إلى السنوات الماضية حيث سنوات محمد النبى الأخيرة فى المدينة، لقد كانت هناك عدة سوابق لأبى بكر فى اتباع أنساق تبين كيف يحكم المسلم إخوانه، لقد كان النبى قد عين قادة للحملات (الغزوات)، وكان أحيانًا يُعيّن من ينبغى أن يتولى الحملة (الغزوة) إذا مات قائدها الأصلى (المعيّن منذ البداية)، لكن بدلاً من هذا كان من المتوقع أن يرضى كل المسلمين (مهما كانت مراتبهم القيادية السابقة) بالضرورة، أن يكونوا جنودًا مشاة (محاربين بلا خيول). وفى ميدان المعركة كان محمد النبى نفسه يعيّن دائمًا مندوبًا عنه لرعاية المدينة فى غيبته. وعيّن أيضًا رجالاً للإشراف على أسلاب الحرب وغنائمها ولرعاية الأسرى. ولم يفرض النبى ـ أبدًا ـ حاكمًا على قبيلة حرّة تحوّلت للإسلام وإنما كان يستخدم الزعيم القبلى القائم بالفعل سواء كان (أى النبى) راغبًا فى أن يجمع له المقاتلين أو يجبى له الزكاة، رغم أنه فى حالة المناطق الزراعية المفتوحة (مثل خيبر أو مناطق قبيلة تم إخضاعها لأول مرّة) كان يتم إرسال محصِّل assessor فى البداية لتقدير المحصول وتحصيل النسبة الصحيحة. وبعد فتح مكة عيّن محمد حاكمًا لها، كما أكد الحاجة إلى مسئولين أصغر مثل مفتشى الأسواق (المحتسب) ومسئولين لرعاية الأماكن المقدسة. وكان محمد يتقاضى الخُمّس من غنائم الحرب، أما أربعة الأخماس المتبقية فكانت تُقسم بالتساوى بين الجنود، إلاّ أن قائد الجيش (أو الغزوة) كان يتمتع بحق قبلى قديم وهو أن يختار لنفسه نصيبه من الغنائم أولاً وقد يقع اختياره على ناقة جميلة أو حصان أو سيف أو جارية. وما اختاره يكون صافيًا له وعند تقييم القطعان التى تم الاستيلاء عليها يجرى حساب عشرة خراف بجمل صحيح البدن، وهذا الحساب يجرى العمل به بوضع كل نصيب إزاء النصيب الآخر. وعند تقسيم البضائع تكون هناك محاولات لجعل القِسَم ذات قيَم متساوية وإن كان هذا لا يمنع وجود مبادلات بعد التقسيم، كما يجرى أحيانًا مبادلتها بأموال نقدية.

وخلال الأربعين يومًا التى كان فيها أسامة وجيش المسلمين الأساسى بعيدًا فى معركة فى الصحراء الشمالية، كان لدى أبى بكر الوقت اللازم للتفكر فى خياراته السياسية. وقد كان المبعوثون إلى القبائل للتذكير بتسليم الزكوات (جمع زكاة) قد تم إرسالهم بالفعل حتى قبل وفاة الرسول بشهرين، ومن هنا فقد كانت عجلة السياسات القبلية قد بدأت تدور بالفعل.

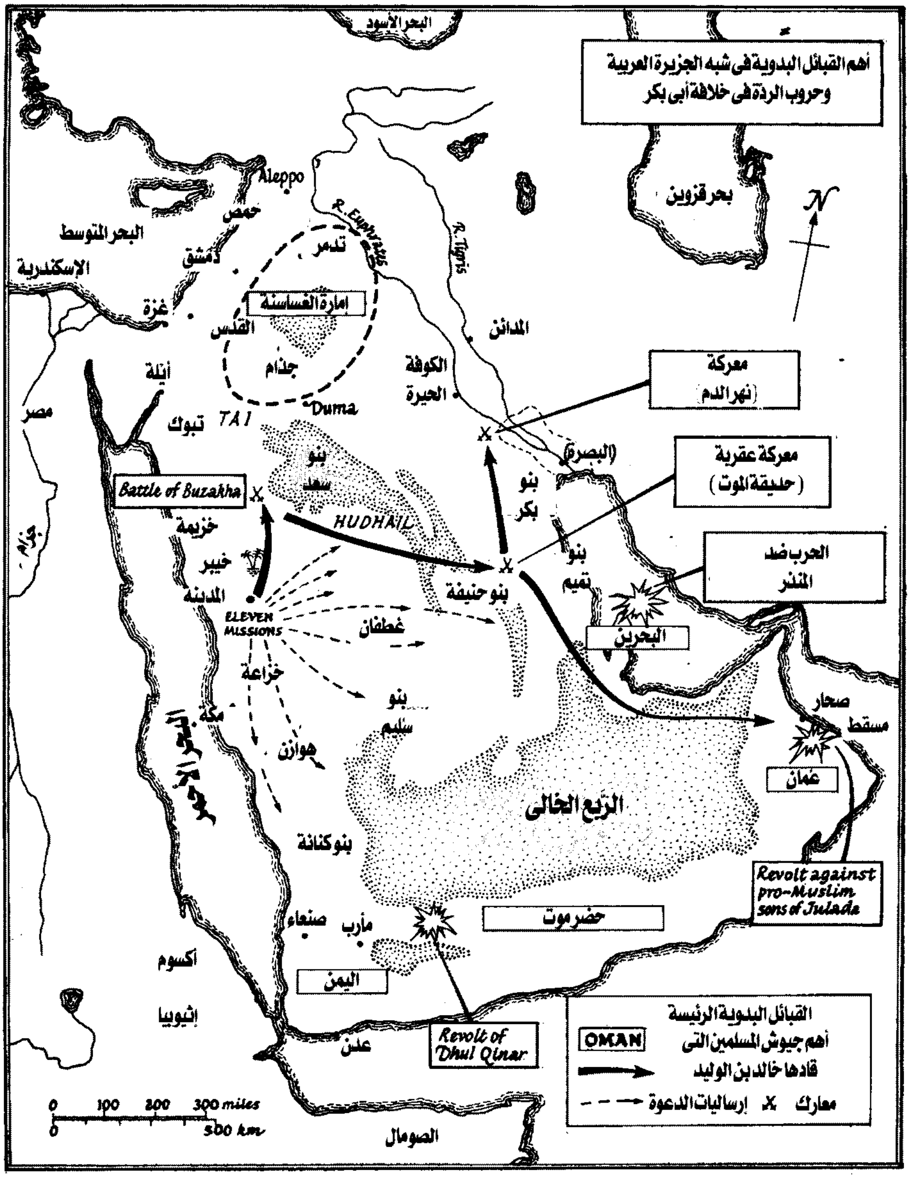
لقد كان كثير من القبائل البدوية الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية قد عادت سيرتها الأولى بعد وفاة النبى: نعنى أنها - بهدوء - رجعت لوضعها الاستقلالى الذى كانت قد اعتادته منذ فترة طويلة. ورغم أن هذه الفترة تُعرف بالرِّدة apostacy ، فإن عددًا قليلاً جدًا **من القبائل هى التى أنكرت تعاليم محمد أو تخلت عن الصلوات اليومية الخمس التى واظبوا عليها منذ فترة غير بعيدة** (منذ دخولهم الإسلام)، فكل ما رفضته القبائل التى يُقال إنها ارتدت هو دفع الزكاة التى كانت تعنى دفع عُشْر قطعانهم سنويًا، بينما كان أهل المناطق الحضرية المستقرون يدفعونها على هيئة جلود مشغولة وسلال تمور وأجولة شعير أو أثواب كَتَّان.. فكل هذه كانت تُنقل عبر الصحراء إلى واحة المدينة(★). وعلى أية حال، فإن معظم القبائل كانت تشعر أن بيعتها their Qath of loyalty كانت تعاقدًا شخصيًا ـ إلى حد بعيد ـ بينها وبين رسول الله. والآن فقد مات النبى محمد، فلم يعد هناك دافع لجمع الزكوات وتدبير نقلها، خاصة وأن عادة تسليم الزكوات (الضرائب) لم تكن قد تجذَّرت فلم تكن للمسلمين سلطة فى وسط شبه الجزيرة العربية إلا منذ ثلاث سنوات، وهى فترة يسيرة. وقد أرسلت كثير من القبائل مندوبيها (رسلها) للمدينة للتعبير عن احترامها وللاعتراف بأبى بكر خليفة لرسول الله، لكنها فى الوقت نفسه رفضت ـ بمداهنة ـ دفع الزكوات أو طلبت إبطالها. وفضل عمر بن الخطاب ومعظم الصحابة المقربين سياسة اللين بعدم الإصرار على دفع الزكاة وعدم اعتبار دفعها معيارًا للولاء للإسلام.. إننا إزاء انقلاب طريف فى المواقف وانعكاس فى الأدوار، فعمر بن الخطاب فى مواقف أخرى كان معروفًا بالتشدد إلى أقصى حد، فقد كان هو (أى عمر) الذى أراد قتل أسرى بدر رافضًا افتداءهم (إطلاق سراحهم مقابل فدية مالية)، وكان هو الذى عارض النبى عند توقيعه صلح الحديبية، ولم يكن عمر يريد أن يمنح النبى عفوًا عامًا لأعدائه السياسيين القدماء بعد فتح مكة ـ **أما الآن** فإننا نجد أبا بكر هو الذى يتخذ الموقف المتشدد وليس عمر، فقد أعلن أبو بكر أنهم لو منعوه عقالاً (رباطًا للجمل أو الناقة) كانوا يؤدونه (يدفعونه) لرسول الله لحاربهم عليه (حتى يأخذه منهم). لقد كان أبو بكر فى هذا الموقف وفى مواقف أخرى كثيرة يتبع خطى النبى بالضبط، فقد كان النبى دائمًا ذا واقعية سياسية بحيث يدرك أنه فى تعامله مع القبائل الحرة free tribes هناك خط لابد من سحبه فى مكان ما، أو بتعبير آخر هناك حد لا ينبغى السماح بتجاوزه. وكان النبى يرى أن انتقال الدواب لدفع الزكاة يُعد دليلاً على الاحترام حتى لو دفع النبى ما يزيد على قيمتها لمقدميها على هيئة منح وهدايا،

(★) تُسمَّى العُشْر أو الخُمْس، أما العشر فعلى الضأن والدواب، وأما الخمس فعلى منتجات الحقول. وكلاهما يُسمى الزكاة. (المؤلف).

وكان النبى غالبًا ما يفعل هذا. لقد كان أبو بكر خبيرًا فى السياسات القبلية؛ إذ كان النبى يستدعيه ليوضح بعض جوانب السياسات القبلية أو الولاءات السلالية (المرتبطة بشجرات الأنساب) أو الثارات القديمة (العداوات القائمة على ثأر قديم). ورغم أن خريطة العشائر فى شبه الجزيرة العربية فى بواكير الإسلام، يمكن رسمها بحيث تبدو وكأنها تقسيمات كل قسم منها يشكل دولة country- like divisions ، يوضع على كل قسم منها لافتة تحمل اسم القبيلة ـ إلا أن الوضع على أرض الواقع كان أكثر مرونة بكثير بل كان مخادعًا لا يدركه إلا خبير. فقد كانت هناك دائمًا منافسة حول أى العشائر تكون لها الزعامة، أما بين العشائر فكانت هناك دائمًا مكائد بين الأسرات ذات المكانة، فقد كانت هناك دائمًا وحدات صغيرة شاردة انفصلت عن العشيرة الأبوية الأصلية parent body . وكان أبو بكر يعرف أنه إذا جرى التعامل مع تعاليم الإسلام بأى قدر من الاحترام لأمكن فرض قدر ملموس من الطاعة يضمن بقاء القبيلة كلها فى إطار واحد.

لم يكن هناك فى شبه الجزيرة العربية كلها من يعرف هذه الشبكة القبلية بخيوطها وفتحاتها أفضل من أبى بكر الذى كان قد درسها طوال فترة امتدت حوالى خمسين عامًا، وتعلم كيف يستفيد من معلوماته عنها. فرغم أن أبا بكر قد ووجه بأن عليه أن يعيد فتح شبه الجزيرة العربية كلها إذا أصر على حقه فى جمع الزكاة، بينما ربما لم يكن لديه سوى آلاف قليلة من الرجال المتمركزين فى المدينة، إلا أنه كان يعلم أيضًا طرقًا عديدة لشن الحرب والفوز فيها فى أنحاء شبه الجزيرة العربية (من خلال إلمامه بشبكة العلاقات القبلية الآنف ذكرها).

لقد تطلع أبو بكر من المدينة إلى الأفق **الغربى** فعلم أن هذه الأنحاء مستقرة وتحت السيطرة. فقبيلة خزاعة التى تشغل الصحراء من غرب المدينة إلى سواحل البحر الأحمر (وتحرس جار Jar ميناء المدينة) كانت موالية لأبى بكر شديدة الإخلاص له. وكان هذا ينطبق بشكل خاص على عشيرة أَسْلَمَ التى تولت زعامة خزاعة. ومن نواحٍ أخرى، فإن العلاقات المكية القديمة يمكنها أيضًا أن تلعب دورًا لأن عشائر أخرى من خزاعة (كنانة) كانت تحكم مكة فى وقت من الأوقات قبل أن تزيحها قريش. ونتيجة لدعوة أفراد ذوى مكانة من خزاعة ليعيشوا فى المدينة أو ليقيموا مقرات Camps شبه دائمة للتجارة، فقد أصبحت كل القبيلة بالتدريج أعضاء فى جماعة المسلمين. وعلى



أهم القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية
وحروب الردة فى خلافة أبى بكر
البحر الأسود
بحر قزوين
Aleppo
حمص
البحر المتوسط
دمشق
تدمر
الإسكندرية
R. Euphrates
R. Tigris
امارة الغساسنة
غزة
القدس
المدائن
جذام
الكوفة
الحيرة
أيلة
Duma
مصر
تبوك
TAI
معركة
(نهر الدم)
بنو
سعد
(البصرة)
معركة عقربة
(حليقة الموت)
Battle of Buzakha
بنو
بكر
خزيمة
HUDHAIL
بنو
تميم
الحرب ضد
المنذر
خيبر
المدينة
بنو حنيفة
ELEVEN MISSIONS
غطفان
البحرين
خزاعة
مكة
بنو
سليم
صحار
مسقط
هوازن
عمان
البحر الأحمر
الربع الخالى
بنو كنانة
Revolt against pro-Muslim sons of Julada
مأرب
صنعاء
حضرموت
أكسوم
اليمن
إثيوبيا
القبائل البدوية الرئيسة
OMAN
أهم جيوش المسلمين التى
قادها خالد بن الوليد
Revolt of Dhul Qinar
عدن
إرساليات الدعوة
معارك
0 100 200 300 miles
0 500 km
الصومال

هذا، فإذا نظرت لجيش المسلمين فى هذه الفترة لوجدت أن خزاعة وكأنها تشكل القسم الثالث داخل الإسلام فى مراحله الأولى. بجانب الأنصار أهل المدينة والمهاجرين أهل مكة.

وإذا تطلع أبو بكر إلى الشمال من الواحة (المدينة) علم أن الموقف أصعب بكثير (أكثر ظلمة)، فهنا توجد أسد العشيرة القائدة لتحالف خزيمة القَبَلىّ الكبير الذى كان عدوًا صلدًا مصممًا على مقاومة توسع الإسلام. لكن كان إلى الشمال من عشيرة أسد مضارب Camps أعدائهم القدامى بنى طَيِّء. وكان أبو بكر يعلم أن «طىء» يمكن التعويل عليها بانضمامها لأى هجوم يُضّعف قوة عشيرة أسد، فقبيلة طىء رغم صراعاتها الباكرة مع المسلمين إلا أن محمدًا النبى قد كسبها إلى جانبه بكرمه المدهش، لدرجة أن عَدِىّ ابن الشيخ حاتم الطائى المشهور بالكرم قد استُدعى من منفاه فى الشام التابعة للدولة البيزنطية وقتها، وتحول للإسلام، وهو الآن يعيش فى المدينة بوصفه شيخًا مبجلاً، ولم تكن قبيلة طىء - أيضًا - بمعتادة على مضاربها، فرغم أنها تقيم على حافة الشام المسيحية إلا أنها من الناحية الثقافية كانت تدور فى الإطار sphere الثقافى الفارسى. وكل القبائل العربية المسيحية الأخرى فى الشمال والشمال الشرقى كان يمكن التعويل عليها لتكون حلفاء متحمسين للإسلام إذا اتخذ شكل غارات على الفرس الذين يحكمون العراق؛ خاصة عند الوعد بتوزيع غنائم كثيرة وأسرى. لقد كان من الممكن استثمار المنافسة القديمة بين عرب الحدود البيزنطية وعرب الحدود الفارسية واستغلالها سياسيًا مرات عديدة. وقد قيل إنهم حتى عندما كانوا يتقابلون كتجار فى جزيرة سيلان البعيدة فإنهم كانوا يتجادلون حول أى الإمبراطوريتين المتعاديتين أجدر بالاحترام؛ مشيرين إلى الصور الإمبراطورية على عملة كل منهما، وكأنما انتقل التنافس إلى العملات وما عليها من صور.

ورغم أن قبيلة جُذام Judham فى بادية الشام Syrian borderlands بدا أنها كانت تدفع الزكاة لاثنين كان النبى يرسلهما لهذا الغرض، فإن قبائل قُده Qudah وبالى Bali وبحرة Bahra وقبيلة غسان المعتزة بنفسها، لم تكن تدفع. وفى هذه الفترة لابد أن أبابكر كان يعتبر هذه القبائل جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية. ولم يكن محتملاً استدراج أى منها إلى حرب قبلية فى وسط شبه الجزيرة العربية. ومع هذا كانت هناك

نوافذ يمكن للدبلوماسى الماهر أن يفتحها، فعلى سبيل المثال وجدنا أن عشيرة؟ Hadas قد تحولت للإسلام مع أنها إحدى عشائر قبيلة لخم المسيحية الخالصة، بينما كانت أم القائد المسلم عمرو بن العاص من قبيلة بالى Bali . مثل هذه الأعمدة الراسخة التى قامت عليها الإمبراطورية مثل الزعيم العربى فروة بن عمرو من قبيلة جذام الذى كان يحكم باعتباره واليًا بيزنطيًا على مدينتَىْ عُمان ومعان ـ كان لابد أن يتحول للإسلام فى الوقت المناسب.

وفى مواضع أخرى فى الصحراء الشمالية كانت هناك تهديدات أخرى كامنة، فقد كان أبو بكر يعلم أن التحالف القبلى لهذيل لابد من التعامل معه بعناية شديدة. لقد كانوا قد أثبتوا (هذيل) أنهم حلفاء جيدون لقيادات قريش الوثنية عندما كانت شديدة العداوة للمسلمين، إلا أنهم منذ سقوط مكة (فى أيدى المسلمين) أذعنوا كما أذعن حلفاؤهم القدماء (قريش). ربما كان من الممكن للمسلمين كسب ودهم بأن يطلبوا منهم العمل بجانب أصدقائهم القدامى من سادة قريش، وإن كان لابد من إبعادهم عن أى جيش مسلم يكون تحت قيادة خزاعة أو واحد منها (خاصة عشيرة كنانة)؛ نظرًا لوجود ثارات دموية بينهما استمرت قرونًا.

وكان أبو بكر يعرف أن قبيلة غَطَفان الكبيرة ـ مثلها مثل أسد ـ لا يوثق بها. فلم يكن من السهل على شيوخ غطفان أن ينسوا أن المسلمين أفقدوهم حدودهم القبلية القديمة ذات القيمة كواحتَىْ خيبر وفدك الخصيبتين. فمن المؤكد أن يكونوا هم وراء أى تمرد ضد الإسلام. لقد تقدم ألفا مقاتل من غطفان لمساعدة مهاجمى المدينة فى سنة ٦٢٧ أثناء غزوة الخندق، وفى وقت لاحق كسب محمد النبى عشيرة أشجع وهى إحدى عشائر غطفان القوية، وقدمت أشجع للنبى ثلاثمائة مقاتل عند فتحه مكة. وأثناء فتح خيبر انصرفت غطفان عن مقاومة جيش محمد بسبب حروب داخلية بين عشائرها، ويُعتقد أن هذه النزاعات الداخلية بين عشائر غطفان والتى أدت إلى حروب بينهم كانت من تدبير وكلاء agents للمسلمين.

وعلى هذا فرغم أنه كان على أبى بكر أن يعدَّهم (غطفان) من بين أعدائه، إلا أنه كان يعرف أيضًا أن ماضيهم شهد انقسامات عميقة بين عشائرهم المتنافسة، وهذا يمكن استغلاله بفاعلية لضمان حياد هذه القبيلة (غطفان).

وإذا لم يكن أبو بكر يعرف أنه يستطيع الاعتماد على قبيلة بنى سليم لمساعدته فى الهجوم على أعدائهم القدامى (غطفان) ـ رغم أن الدبلوماسى الماهر يمكنه التأكيد أنهم لم يُدعوا للقتال جنبًا إلى جنب مع منافسيهم القدامى الآخرين ونعنى بهم قبيلة هوازن. وكان أبو بكر يعرف أيضًا أنه لا ينبغى عليه أن يثق ثقة كبيرة فى التحول الداخلى لشيوخ سليم القبليين فهم أناس مشدودون للدنيا (الأمور المادية) أكثر من انجذابهم للآخرة. لقد وجدت مناجم الذهب فى زمام مضاربهم واستخرجوا منها الذهب بمساعدة قريش، فكون شيوخهم ثروات كبيرة. ورغم أن عشيرة واحدة منهم كانت تفضل محمدًا دائمًا؛ إلا أن سبعمائة مقاتل من بنى سليم حاربوا إلى جانب الوثنيين فى معركة الخندق، على أنه ـ فى وقت لاحق عندما اتضح أن المسلمين فى صعود، قيل إن ألف محارب من قبيلة سليم ركبوا دواب قتالهم وساروا خلف راية النبى لفتح مكة.

وعندما قلَّب أبو بكر فكره ناظرًا إلى الصحراء إلى جنوب المدينة، كان عليه ـ بادئ ذى بدء ـ أن يضع فى اعتباره ماذا سيكون رد فعل قبيلة هوازن. حقيقة إن هوازن واضحة المعالم فى الدبلوماسية القبلية التى انتهجها المسلمون فى الأعوام الباكرة ربما لعداوتها القديمة لقريش، مما جعل محمدًا يشعر أن التحالف معهم (معها) ربما يؤخر إبرام سلام نهائى مع مكة. وقد أدى إبرام النبى لاتفاق كريم مع القبيلة بعد انتصاره فى حُنَين إلى وقوف عدد كبير من أفراد القبيلة إلى جانبه، خاصة مالك الذى أصبح زعيمًا (شيخًا) للقسم الذى تحول للإسلام من قبيلته، لكن أبا بكر افترض أن هوازن أقرب لأن تكون محايدة منها حليفة يُعتد بخدماتها بشكل فعال.

وإذا ما تطلع المرء إلى أبعد من هوازن فى اتجاه الجنوب والجنوب الشرقى وجد نفسه يدخل عالمًا مختلفًا من الناحية السياسية. إنه عالم المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، أى عالم الممالك القديمة: اليمن وعمان. وحتى سقوط مكة (فتحها) فى سنة ٦٣. كانت العلاقات المباشرة بين المسلمين وشعوب المناطق الجنوبية فى شبه الجزيرة العربية، قليلة، لكن بمرور الوقت تغلغلت بعثات المسلمين الأوائل جنوبًا فى مرتفعات اليمن وكان هذا مزامنًا لحسن الحظ لانهيار يكاد يكون تامًا للنفوذ الفارسى.

أما قبل سنة ٦٢٨، فقد كانت الحامية الفارسية فى جنوب شبه الجزيرة العربية من القوة بحيث يمكنها صد أى جيش إلا إذا كان جيشًا قويًا جدًا ومصممًا إلى أقصى

درجة، وكانت هذه المنطقة أيضًا ناجحة سياسيًا وبها حاكم فارسى (المرزبان الأصغر) يؤدى عمله وبجانبه قادة محليون. وفى البحرين، على الخليج الفارسى،كان الزعيم المحلى المنذر بن سَوَّره Saura قد تلقى توجيهات (نصائح) من الحاكم الفارسى بأن يقيم ترتيبات مشابهة فى عمان. وفى اليمن كان سيف بن ذى يزن هو الحاكم المحلى، وكان يُعينه (يساعده) فى الحكم حاكم فارسى تحت سلطانه ١٨٠٠ مقاتل وقد زيدت هذه القوة بعد ذلك ليُضاف إليها ٤٠٠٠ فرقة Troops، وهو مثال كلاسيكى للقبضة الحديدية فى قفاز مخملى. وبعد هزيمة الجيش الفارسى فى معركة نينوى Nineveh فى سنة ٦٢٧ على يد الإمبراطور البيزنطى سرعان ما انفكت هذه القبضة الحديدية فى اليمن لتنسحب القوات الفارسية للدفاع عن الوطن الأم (فارس)، ولم تخلف وراءها فى اليمن سوى بقايا قفازات مخملية فى جبال وصحارى المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية. وعندما وصلت بعثات المسلمين (الدعاة) إلى اليمن، لم يكن يدعم المسئولين الفرس القليلين هناك سوى حفنة من الجنود الذين لا يتقاضون رواتب، يعيشون بين جماعات شبه منغلقة تُسمى (الأبناء) ويُقصد بهم أبناء فرس من أمهات يمنيات.

وكانت هذه الجماعات من الأبناء أول من أسلم مفضلين ذلك على مقاومة المسلمين، واعترفوا بدولة المسلمين التى كانت تسيطر بالفعل على المدن التجارية المهمة مثل خيبر والمدينة ومكة والطائف، على أمل أن يعيشوا من جديد فى ظل سلطة مركزية. تلك كانت الحال بالنسبة للحاكم الفارسى لصنعاء وباذام Badham ، بينما الحكام اليمنيون المتوطنون (الأصليون الذين يحمل الواحد منهم لقب ملك (والجمع ملوك) أو قَيْل (والجمع أقيال) أو ذو (dhu والجمع ذاوا)) قد تمت طمأنتهم على أوضاعهم وألقابهم بعد تحولهم للإسلام وبذا دخلت الوحدات الإدارية لليمن، كصنعاء وهمدان ومأرب ونجران وحضرموت متتابعة فى المرحلة الإسلامية.

وكانت المدن اليمنية قد اعتادت دفع الضرائب للحكومة المركزية طوال قرون، ووجد ساكنوها (وكان غالبهم من اليهود أو المسيحيين) أن نظام الزكاة الذى يطالب به محمد (العُشْر) أيسر (أخف) وأبسط من الضرائب التى كانوا يُجبرون على دفعها سابقًا (قبل الإسلام). وقد رضى هؤلاء اليمنيون أيضًا بأن يُطْعِموا ويدبروا سكنًا لمبعوثى النبى لمدة ثلاثة أيام وهم غير مجبرين على الخدمة فى جيوش المسلمين (إلا إذا تحولوا للإسلام)،

ووافقوا أيضًا على تقديم دروع وركائب (دواب ركوب) إذا طُلب منهم. وحملات المسلمين على اليمن والتى قادها خالد بن الوليد وعلى بن أبى طالب كانت بمثابة رحلات حقيقية للدعوة وليست غزوات عسكرية أو فتوحًا حربية. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لعُمان وعلى طول الخليج الفارسى حيث كان أبناء حاكم عمان السابق (الجلندة Julanda) الذى تدعمه فارس، قد أصبح حليفًا متحمسًا للمسلمين وكذلك الملك العربى القديم على البحرين المنذر بن ساوا Sawa.

وعلى هذا، فقد كان فى وسع أبى بكر أن يكون متأكدًا لأسباب معقولة عند تطلعه للخريطة السياسية للمناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية من أن هذه المنطقة ستبقى صادقة مع الإسلام، إذا استمر المسلمون قادرين على إثبات أنهم الحكام الأقوياء للمناطق **الوسطى** لشبه الجزيرة العربية. أما إذا قُهِر جيش المسلمين فى معركة وبدأ يفقد السيطرة على الطرق التجارية والمدن والواحات، فإن سيطرته على الجنوب ستتلاشى كسحابة صيف تقشعت تحت وهج شمس الظهيرة.

فإذا كانت قبائل غرب المدينة مصادقة متعاونة وقبائل شمال المدينة معادية وممالك الجنوب محايدة فى الأساس، فإن أبا بكر ـ وقد أدرك هذا ـ أصبح يعلم يقينًا أين يكمن التهديد الحقيقى. إلى الشرق من المدينة تمتد الهضبة الصحراوية على طول الطريق إلى العراق وأراضى دجلة والفرات الخصبة. وهذه الأراضى الصحراوية الشاسعة تُعرف باليمامة (نَجْد) وكان يحكمها قبيلة بنى حنيفة. ورغم أن هذه الحرب (حروب الرِّدَّة فى وسط شبه الجزيرة العربية) لم تكن تلفت نظر أىٍّ من سكان الهلال الخصيب، فإن اليمامة كان يمكن أن تكون ثرية من وجهة نظر بدو وسط شبه الجزيرة. ففى اليمامة واحات كثيرة مليئة ببساتين النخيل، والأمطار الموسمية فى الأعوام الطيبة كانت تسمح بمحاصيل غلال وفيرة سريعة النمو فى كثير من أراضى هذه السهوب الجرداء. وكان بنو حنيفة منظمين تنظيمًا جيدًا واعتادوا حكم أنفسهم. وسبق أن تعاون شيخهم هوذة ابن على Hawdha مع الإمبراطورية الفارسية وبدا وكأنه قدم دعمه للقديس المحلى، مسيلمة. وبعد وفاة الشيخ الهرم old فى سنة ٦٣٠، جرى الاعتراف بمسيلمة نبيًا لبنى حنيفة، وفى هذا الوقت حاول مسيلمة مراسلة النبى محمد فى المدينة واقترح فى مراسلاته تقسيم شبه الجزيرة العربية إلى قسم شرقى وآخر غربى، لكن اقتراحه رُفض رفضًا صريحًا، رغم أنه من الناحية العملية لم يكن المسلمون قد أرسلوا قوات إلى

اليمامة خلال العامين الأخيرين من وفاة النبى محمد. وعلى هذا، فرغم أن بنى حنيفة لا يمكن اتهامهم اتهامًا دقيقًا بالثورة ضد المسلمين إلا أنهم كانوا بلا شك المناوئين الوحيدين للمسلمين فى السيطرة على وسط شبه الجزيرة العربية. ولم يكن بنو حنيفة فى أى وقت من الأوقات يدفعون الزكاة ولم يعلنوا أبدًا تبعيتهم للمسلمين، لذا قلنا إنهم وإن كانوا مناوئين إلا أنه لا يمكن اتهامهم بأنهم تمردوا أو ثاروا. وكانوا هم وحدهم الذين لديهم بنية سياسية واعتزاز بقدراتهم ووجدوا فى مسيلمة مصدرًا للسلطة الدينية والسياسية من المحتمل أن تبرهن على منافستها لوحى النبى محمد. لم يبق شىء من تعاليم مسيلمة وإن بدا أنه علم أتباعه عبادة الله الواحد The one God وعلمهم أداء صلوات طقسية يومية، وتلقى مسيلمة وحيًا مُزامنًا لكثير من عقائد مانى وعقائد الكنيسة النسطورية. وربما كانت الآية ٩٣ فى السورة السادسة (٦:٩٣) تشير إلى مسيلمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾ (الأنعام، الآية: ٩٣).

فى الفترة قُبيل عودة أسامة وجيش المسلمين بأمان إلى المدينة كان أبو بكر يُعمل عقله لحل هذه المشكلات والتفكر فى كل هذا. لابد من إلحاق الفوضى والاضطراب فى أعدائه وإلا هجموا على كل الجبهات ولم يكن لديه سوى قوات مسلمة قليلة، كان عليه أن يكسب القبائل الشمالية أو ينتصر عليها win over، ثم يتقوى بتحالفات جديدة، ليتقدم مع هؤلاء المتحالفين معه لشن حملة ضد عدو واحد هو مسيلمة وبنى حنيفة، فهؤلاء هم الأعداء الحقيقيون. أو كما نجد فى الروايات التقليدية ما ردده بعض المسلمين: لقد قوَّى الله قلب أبى بكر الذى قدم للمؤمنين حلاً، فلا مكان للحظة واحدة للمرتدين فليس من رد عليهم سوى الاستسلام أو النفى أو السيف Submission exiler or Sword.

كان أول ما تعين على أبى بكر مواجهته هو عشيرة صغيرة غطفانية، لقد واجهها بجيش من المحاربين المسلمين بقيادته هو شخصيًا فألحق بهم الهزيمة فى (ذو القَصَّة). هنا وجدنا أبا بكر يقدم لغيرهم من غير الخاضعين لدولته عينة من العقاب المتوقع. لقد صادر بعضًا من أفضل مراعيهم وضمها - بشكل دائم - إلى أراضى الدولة. وفى

طريق عودته للمدينة أصدر تعليمات متتابعة باهرة، لقد قدم لكل قائد راية ودعا له بالبركة. لقد أرسل إحدى عشرة بعثة missions كلها مصحوبة بفرق خيَّالة قبلية، إلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة، وتلك أن تكون متأكدًا أن هذه البعثات كانت على وعى دقيق بأى النقاط التى يجب أن يتوقفوا عندها طلبًا لتجنيد حلفاء يضمونهم، وبأى النقاط التى لا يقتربون منها إلا وهم على أهبة الاستعداد للقتال. لقد حملت هذه البعثات رسائل رسمية من الخليفة مضمونها ثوبوا وأعلنوا الولاء نعفوا عنكم وتكونوا قد عدتم إلى الإسلام. والذين يعصون سنهاجمهم ونسحق محاصيلهم تحت حوافر خيول المسلمين وسنقطع أبدان مقاتليهم إربًا وسنسبى نساءهم وأطفالهم. وعلى وفق توجيهات النبى نفسه يُعتبر رفع أذان الصبح دليلاً على الإسلام. وكانت التعليمات تقضى ألا يتيح المسلمون المهاجرون أية فرصة (للعدو) وإنما ينقضُّون فجأة على خيام (العدو) مع أول خيط من نور الفجر، فإن سمعوا الأذان حيوا قاطنى الخيام وعاملوهم معاملة الإخوان، وإذا لم يسمعوا الأذان عاملوهم معاملة الأعداء.

وكان من القادة الذين اختارهم أبو بكر، عكرمة بن أبى جهل، ولابد أن بعض من سبقوا للإسلام قد ساءتهم فكرة أن ابن الوثنى أعدى أعداء النبى قد أصبح الآن مبعوثًا أساسيًا للإيمان. لكن إن نظرنا للمسألة كقرار تكتيكى وجدنا قرار أبى بكر حكيمًا لا خطأ فيه. فعكرمة (ابن أبى جهل) شاب نبيل من إحدى عشائر قريش المهمة، أرسله أبوبكر على رأس إحدى البعثات الآنف ذكرها إلى قبيلة هوازن - والمعنى فى هذه الحال فى الحقيقة أنه أرسله على رأس بعثة تخصه. لقد عمد عكرمة بن أبى جهل إلى مجاملة هوازن وأزاح جانبًا مسألة دفع الأعشار (الزكاة) طالما كان قادرًا على تجنيد فرسانهم ليكونوا معه فى المرحلة التالية من بعثته، وليتجه إلى عمان ليقدم دعمًا للحلفاء المحاصرين (حلفاء المسلمين) - أبناء الجلندة. وهكذا بخبطة واحدة تحولت هوازن من موقف حيادى إلى شركاء للمسلمين فى الحرب.

وثمة بعثة أخرى كان على رأسها نبيل قرشى محترم وشاب كان من أسرة وثنية قديمة، ونعنى به مهاجر بن أبى أمية لم يبدد أى جنود معه، وإنما كانت لديه تعليمات أن يجند رجال قبيلة بجيلة (جنوب مكة) ثم يجنِّد عددًا آخر من المؤيدين وكميات من الذخائر من مدينة نجران ليستكمل مستلزمات بعثته إلى اليمن.

وهكذا، تحت هذا الستار الدخانى (خطة الخداع) من النشاط المكثف الذى ضمن تحالفات قبلية بأكثر ما يمكن، استعد أبو بكر لمعركته الحقيقية. أما غالبية كتائب

المسلمين شديدة البأس والمدربة على القتال، خاصة من المدينة، فلم يرسل أبو بكر منها أحدًا لهذه البعثات الإحدى عشرة، فقد جعل هذه المجموعة الرئيسة تحت قيادة أكثر القادة العسكريين كفاءة، ونعنى به خالد بن الوليد (رغم معارضة كثيرين من الصحابة المهمين، بمن فيهم عمر). وكانت حجتهم هى حماية خيبر من الغارات البسيطة التى تشنها غطفان. وكانت هذه المعلومات غير صحيحة؛ لأن بعثة خالد (الحربية) مهمتها الحقيقية كانت هى أن يضرب بسرعة تحالف القبائل الشمالية التى تتضاعف تضاعفًا خطيرًا تحت قيادة مقاتل صلد من قبيلة أسد، يحظى باحترام جنوده وهو ابن خويلد. وكما توقع أبو بكر، كانت عشيرة أسد وقبيلة غطفان فى قلب الائتلاف المُعادى، لكن مما يدعو لدهشة البعض، وجدناهم قد جذبوا إلى صفوفهم جْانبًا من طىء وكذلك قطاعات من القبائل الشمالية.

وقبل المعركة الحاسمة ـ معركة بُزاخَة Buzakha انسحب معظم جنود طىء لينضموا لجيش المسلمين، وقدموا معلومات محلية مفصلة مما أتاح لخالد بن الوليد نصرًا سريعًا وحاسمًا (ربما مهدت دبلوماسية أبى بكر السرية مع قبيلة طىء لهذا النصر)، لقد كانت معركة هذا اليوم (معركة بزاخة) واحدة من بين معركتين حاسمتين فى حروب الردة. ولكى يُعطى هذا التحالف القبلى الشمالى لمقاومتهم للمسلمين مصداقية أكثر، تآزروا خلف نبى منهم. لقد جعلوا من طليحة ـ وهو شاعر وكاهن قائدًا دينيًا لهم (نبيًا).

وعلى أية حال، فإن طليحة كان يُنظر إليه باعتباره ألعوبة سياسية (دمية puppet) وجامع أعشار مفيدًا لشيوخه his bosses (شيوخ أسد) أكثر من اعتباره ممثلاً لسلطة دينية. لقد عاش بعد المعركة وفر بحثًا عن الأمان مصطحبًا زوجته إلى الشام، وأتاحت له ظروفه بعد ذلك أن يتحول ـ باختياره ـ للإسلام. وبعد ذلك بعدة أعوام تقابل مع عمر بن الخطاب الذى سأله ما إذا كان لا يزال محتفظًا بنفحاته الإعجازية، فأجاب طليحة بأن الأمر لم يكن يعدو نفحة أو نفحتين أو نفثة أو نفثتين. وهذه إجابة متواضعة لكنها مخادعة أيضًا، فهى تعنى أنه كان يشعر صادقًا أن عنصرًا إلهيًا قد مسه. وقد مكث خالد بن الوليد فى مناطق الصحراء الشمالية لمدة شهر بعد معركة بُزاخة لأن مقاومة غطفان كانت عنيفة بقيادة أُم سِمْل Umm Siml ، التى قادت رجالها من جمل أمها المقدس وهو جمل كان مخصصًا للحرب. وما إن قتلها خالد بن الوليد ونحر جملها الشهير حتى أصبح خالد مستعدًا للتحرك نحو الشرق.

وفى هذه الأثناء كان أبو بكر يمزج فى سياسته ما بين كثير من الاعتدال والشدة. لقد أرسل خالد بن الوليد أحد الشيوخ الأسرى وهو عُيَيْنة إلى المدينة فى نهاية المعركة، فتعرض لسخرية الأطفال باعتباره مرتدًا خائنًا، واقتيد مقيدًا بالسلاسل ليراه جمهور المدينة وكان أبو بكر بين هذا الجمهور، ولكن ما إن أعلن صراحة للخليفة أنه ليس مرتدًا لأنه لم يكن مسلمًا فى أى وقت من الأوقات، بل وأعلن أنه حتى تلك اللحظة التى سيتحدث فيها مع أبى بكر لم يدخل الإسلام قلبه ومع هذا فقد سامحه أبو بكر وتقدم ليفك قيوده. وحتى المرتدون الحقيقيون مثل أسرة كِنْده الحاكمة العريقة تم قبولهم بترحاب فى دولة الإسلام بمجرد استسلامهم من جديد (كنده هم الحكام الذين طُردوا من وسط شبه الجزيرة العربية وجنوبها وكانوا قد رفضوا دفع الزكاة وليس هذا فحسب، بل لقد رفضوا أيضًا الخضوع للإسلام). ودعا أبو بكر شيخ كنده المهم ليتخذ له مقرًا فى المدينة وزوَّجه أخته، واعتُبر عضوًا فى بنية السلطة.

وقد سمحت هذه التكتيكات نفسها لجيش المسلمين الأساسى فى الصحراء الشمالية أن يكسب إلى جانبه كثيرين من خصومه المبعدين ليصبحوا حلفاء جددًا. وراح أبو بكر ومبعوثوه يختبرون القوى المحلية المتنافسة فى منطقة اليمامة فقد كان بنو حنيفة يتنافسون مع بنى تميم، وعلى هذا فهذه القبيلة الأخيرة تُعد حليفًا محتملاً. لقد كان بنو تميم الذين يسكنون المناطق الساحلية ذوى ثقافة مسيحية فى الأساس، وكانوا وقتها تحت التأثير الروحى لسجاح التى وإن نسبت إليها المصادر ادعاء النبوة إلا أنها كانت مجرد شاعرة مسيحية ذات قوى روحية، بل شخصية كارزمية (مؤثرة). وقد حقق المبعوثون المسلمون نجاحًا محدودًا فى تجنيد حلفاء من بين عشائر بنى تميم؛ إذ إن غالبية القبيلة قررت اتباع سجاح فى تحالفها الدفاعى مع مسيلمة. وقيل إنهما معًا كان يمكنهما أن يحشدا فى الميدان ٤٠ ألف مقاتل، لكن ربما كان هذا الرقم يشير إلى العدد الإجمالى للسكان.

وهذا الجيش الآنف ذكره أثبت أنه الأشد عداء (للمسلمين) فى حروب الردة. لقد حارب بنو تميم وبنو حنيفة وكأنهم شعب واحد متحد ومصمم على الاستقلال ومصمم على الحفاظ على أراضيه والاحتفاظ بنبيه (مسيلمة) والدفاع عن النساء خاصة. لقد كان قد جرى صد التجريدتين العسكريتين الأصغر اللتين أرسلهما المسلمون؛ مما جعل (المرتدين) يثقون فى نصر مرتقب. وتلاقى جيش (المرتدين) وجيش المسلمين فى ١٢

مايو على سهل عقربة الرملى، وهتف بنو حنيفة «حاربوا من أجل حبيبيكم (مسيلمة وسجاح) اجتاحوا معسكر المسلمين عند الفجر»، وقد تم هذا بالفعل فحتى خيمة خالد ابن الوليد تقطعت حبالها، إلا أن خالدًا استطاع فى وقت لاحق من هذا الصباح أن يعيد تجميع جنوده ويبث فيهم العزم وينظم أمور القيام بهجوم مضاد. كان جيش المسلمين منظمًا فى ثلاثة أقسام: عسكر المدينة فى الوسط وإلى جوارهم حلفاؤهم من البدو. وتوقف هجوم المسلمين المضاد بسبب عاصفة رملية مفاجئة هبت من الجنوب، وبعدها تحولت المعركة إلى مواجهة وحشية وتلاحم ـ يدًا إزاء يد ـ بين الجيشين. وأخيرًا أُجبر بنو حنيفة على الانسحاب من ميدان المعركة متقهقرين ليحتموا فى أحد بساتين النخيل المسورة. وكان الفرسان المسلمون قد أحكموا سد كل الطرق التى يمكن لعدوهم أن يهرب من خلالها، وهكذا تحولت بساتين النخيل التى احتمى فيها (المرتدون) إلى شَرَك بدلاً من أن تكون ملاذًا للأمان. لقد جرت مذبحة لبنى حنيفة، رغم أن جيش المسلمين شهد أيضًا قتل عدد من المقاتلين فيه ممن شقوا طريقهم داخل بساتين النخيل الكثيفة.

لقد كان عدد الضحايا فى نهاية يوم المعركة يفوق عددهم فى أية معركة سبق أن شهدتها شبه الجزيرة العربية. لقد مات سبعمائة مسلم فى معركة عقربة (منهم ٣٩ من صحابة النبى) بالإضافة إلى ألف ومائتين من المسلمين الذين أسلموا مؤخرًا "new-Muslims" من البدو المتحالفين. وعندما تبين بنو حنيفة أن قتلاهم كانوا كثيرين جدًا أطلقوا على معركة عقربة اسم (يوم بستان الموت). وعلى النحو نفسه وجدنا كثيرين من المتحولين الأوائل للإسلام قد قُتلوا فى ذلك اليوم (يوم معركة عقربة)، فقررت جماعة المسلمين ألا تخاطر بعد ذلك بالذاكرة الجماعية Collective memory لحُفَّاظ القرآن والحديث، بهذا الشكل الخطير. لقد جرى هذا قبل أعوام من تدوين القرآن، أما قبل التدوين فقد دعته الذاكرة الشفاهية الخالصة (٤) . واستغرق التعرف على الجثث فى بستان الموت وقتًا طويلاً وقد جرى التعرف أخيرًا على جثة مسيلمة، والروايات التقليدية تذهب إلى أن قاتله هو وحشى وهو رامٍ متمرس سبق له أن قتل حمزة عم النبى فى غزوة أُحُد. وبعد ذلك بأعوام قال وحشى الذى كان قد أصبح محاربًا قديمًا بلغ من العمر عتيًا مشيرًا إلى رمحه: لقد قتلت بهذا (رمحه) أفضل الرجال (حمزة) وأسوأ الرجال (مسيلمة)، وكان وحشى لا يكف عن شرب الجعة المسكرة التى كان قد اعتادها

فى وطنه الإثيوبى القديم مما يتناقض مع التعاليم الإسلامية. وكان عمر بن الخطاب ـ بدوره ـ حانقًا لمقتل أخيه زيد فى هذا اليوم، رغم أن ابنه عبد الله ظل فى قيد الحياة، وكان رد فعل الأب (عمر) قاسيًا، فعندما عاد ابنه إلى المدينة منتصرًا سأله: « لمَ عدت سالمًا صحيحًا بينما عمك زيد كان من بين القتلى؟ لِمَ لم تُقتل أثناء الدفاع؟ اغرب عن وجهى»، فأجابه ابنه (عبد الله): «يا أبى، لقد طلب عمى الشهادة، فمنحه الله إياها. وكنت أتمنى أن يمنحنى الله إياها لكن الله لم يستجب لأمنيتى».

وقيل إنه بعد معركة عقربة احتفل خالد بانتصاره على بنى حنيفة باغتصاب الابنة العذراء لأسير من بنى حنيفة كان أحد زعماء القوم. لقد أعرس بهذه المحظية الجديدة بينما الأرض من حوله لا تزال رطبة بدماء الآلاف. وأبقى خالد الجيش فى اليمامة ليستكمل إخضاع هذه الولاية الجديدة وضمها لبلاد المسلمين ـ شبه الجزيرة العربية، لكن نظرًا لكثرة الضحايا على الجانبين لم يكن من السهل الوصول إلى اتفاق ذى شروط مريحة. هناك الآن تحت سيطرة خالد ما يكفى من الجند ليرسل مددًا للمساعدة فى تقوية المسلمين على طول الخليج الفارسى وفى جبال عمان، ومن ثَم اتجه شمالاً على رأس جيشه فى اتجاه الحدود مع العراق مكتسحًا ـ ومجتازًا ـ مزارع بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) ومستنقعاتها marshes الجنوبية.

وتلقى خالد دعمًا وافرًا من تحالف القبائل الموالى لأبى بكر فى هذه الأنحاء، وكان هذا التحالف القبلى قد هيمن على هذه المنطقة منذ فترة طويلة، حتى منذ أن خلع الإمبراطور الفارسى[٥] آخر ملك لخمى (من قبيلة لخم) فى سنة ٦٠٥. كان بنو بكر Bekr فى وضع ثورى مبدئى (على شفا تمرد أو ثورة)، فقد أثبتوا ولاءهم للأسرة الحاكمة العربية القديمة (لخم) لأنهم كانوا يثقون فى حالة الأمن التى فرضها الملوك اللخميون، والتى فى ظلها كانوا آمنين على حريمهم وأموالهم ـ لذا قاوموا ببسالة محاولات الفرس حكمهم حكمًا (مباشرًا). وكان لمعركة ذى قار فى سنة ٦٠٦ معنى يكاد يكون أسطوريًا فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، فلأول مرة وجدنا مجرد قبيلة عربية تنتصر فى معركة ضد جيش فارسى نظامى. حقيقة إن ابن حارث الزعيم الذى كان قد حث قبيلته على الانضمام لجيش المسلمين بقيادة خالد، كان أول من أحرز نصرًا فى يوم ذى قار.

الآن ركب خالد وابن حارث وتقدما خلال المناطق الحدودية مكتسحين القوات الفارسية الصغيرة (الميليشيات) فى Kahdima (بالقرب من مدينة الكويت الحالية)؛ لكنهم سمحوا لميناء الأُبلَّة (بالقرب من الموضع الذى ستُقام فيه البصرة فيما بعد) بدفع خمسين ألف درهم لقاء الحماية. وسرعان ما أوقف خالد غاراته عبر الفرات فى ولاية السواد ذات الأرض الزراعية الخصبة، عندما وصلته معلومات بأن الجيش الفارسى الميدانى كان يقترب منهم. وفى معركة أُليَّس Ullais التى جرت على حافة الصحراء وصل القتال إلى ذروة دموية، عندما حاربت القبائل البدوية التى كانت لاتزال مُوالية للإمبراطورية الفارسية ضد قوات خالد بن الوليد، فأعاقتها عن التقدم تمامًا. لقد كان من نوع الجيوش التى يجب أن يخشاها المسلمون بالضرورة، فقد كان يتكون من عرب صحراويين قُساة مزودين بمعدات الإمبراطورية الفارسية وقادة فرس ذوى خبرة. وهذا يفسر إلى حد ما قسوة خالد بن الوليد، وكانت فى الحقيقة قسوة تفوق الوصف، فبعد معركة الفرسان القاسية تلك، تم ذبح كل أسرى العدو وكل جرحاه. لقد كانت مجزرة تذكِّر بنهر الدم. كانت معاهدتهم تتناقض تناقضًا واضحًا مع الشروط المحترمة التى قدموها للمواطنين داخل الحيرة المسورة (العاصمة اللخمية القديمة)، حيث قبل خالد عوائد مالية تُدفع سنويًا مقابل ضمان عقيدتهم المسيحية وحريتهم فى ممارسة التجارة.

وفى البحرين وجدنا الزعيم المحلى (المنذر) - الذى كان قد اعتنق الإسلام خلال حياة النبى - يزيحه منافسوه عندما وصلت الأخبار بموت محمد. وفى هذه الفترة لم تكن البحرين مساوية بالضبط لدولة البحرين (الجزيرة) الحالية، وإنما كانت تشمل كل الساحل الناطق ساكنوه باللغة العربية (البحرين The two seas لا تعنى أى تقسيم للخليج الفارسى إلى زمام مائى داخلى وآخر خارجى لكن لوجود ينابيع ماء عذب وافرة المياه؛ مما يعنى وجود ماء مالح (ماء الخليج) وآخر عذب (ماء الينابيع)). وبعد انتصار خالد بن الوليد الدموى فى «يوم بستان الموت» كان وصول أحد أرتال المسلمين المنتصرين قد قلب بشكل حاسم التوازن فى العداء بين قبائل بنى بكر Bekr وبنى عبد القيس للسيطرة على المنطقة region. لقد دفع المسلمون المنتصرون آنئذ القبيلة المهزومة إلى جزيرة دارين Darin طلبًا للحماية، حيث قتلوا (أى قتل المسلمون) كل رجالها واستولوا على غنائم كثيرة وأسروا عددًا كبيرًا. هذه المكاسب المادية لهذه الحملة

حفَّزت بشكل كبير القبائل المحلية الأخرى فراحت الآن تضغط بشدة على حدود الإمبراطوية الفارسية القديمة، سواء كان لها ـ أى لهذه القبائل ـ زعامة أو قيادة أم لا.

عندما وصلت أخبار موت النبى إلى عمان لأول وهلة كان على ولدَى الجلندة ـ مؤيِّدَى الإسلام الرئيسين فى المنطقة ـ أن يلتمسا الحماية مع قبائل التلال فى جبال هَجَر Hgjar بعد أن أطاح بهما أعداؤهما الكثيرون. وحاولت كتيبتان صغيرتان من كتائب المسلمين تقديم الدعم لهما، إلا أنه لم يكن هناك من القوات ما يكفى لاختراق المقاومة القبلية، إلا بعد انتصار المسلمين فى موقعة «بستان الموت». واستطاعت فرق المسلمين العسكرية هذه بعد أن توغلت فى سلاسل جبال هجر أن تحصد مكاسب مادية كثيرة بعد أن نهبت الموانئ التجارية على طول الساحل العمانى التى اتسمت بالثراء الشديد نتيجة التجارة مع الهند. وعلى هذا كانت الروابط القائمة على التوجه الشرقى فى هذا الركن القصىّ من شبه الجزيرة العربية، قوية جدًا، حتى إن قوات المسلمين بقيادة عكرمة استولت على حوالى ألفَىْ (٢٠٠٠) (جمل بكتيرى Bactrian) (من ذوات السنامين وتتسم بكثافة الوبر، وهى جمال معروفة فى آسيا الوسطى) قبل أن تواصل ـ أى قوات المسلمين ـ مسيرتها على طول ساحل شبه الجزيرة إلى اليمن.

وفى اليمن كان الوضع قد أصبح أكثر تعقيدًا، فحتى قبل أن يمرض النبى مات الحاكم الفارسى العجوز فى صنعاء (وكان قد تحول للإسلام) وحاول ابنه شهر Shahr أن يأخذ موقع أبيه لكن أحد المحاربين هزمه. إنه الأسود الذى استطاع أن يحصل على لقب ذى القناع Dhul Quna بفضل دعمه الحماسى لممارسات السحرية التقليدية والقداسة الغامضة اللتين استخدمهما ضد الإسلام. لقد كانت دعوة ذى القناع قد انتشرت انتشارًا كبيرًا فى اليمن عندما وصلته أخبار موت النبى محمد. وكان ذو القناع قادرًا أيضًا على أن يضع نفسه على رأس حركة محلية ضد الحكم السابق على الفرس old pro- Persian regime. وبمجرد أن تبين أبو بكر استقرار وضعه خليفة للمسلمين وبدء إحراز خالد لانتصاراته العسكرية، حتى ظهر له أن ذا القناع مضر لليمن وليس مصدر نفع له. وتم اغتيال ذى القناع على يد المسلمين المحليين فى اليمن وأعقب ذلك هزيمة خليفته (خليفة ذى القناع) حتى قبل وصول جيشين من جيوش المسلمين قادمين من وسط شبه الجزيرة العربية، وما إن وصل الجيشان أخيرًا حتى دخلا اليمن بأمان.

لقد كان إخضاع من يُسمَّون بالمرتدين نصرًا شاملاً لا نظير له. فدبلوماسية أبى بكر، وتكتيكات خالد القتالية الميدانية كانتا متلاحمتين تلاحمًا أتاح فتح شبه الجزيرة العربية بكل قبائلها فى أقل من عامين. وفى أثناء هذه العملية استطاع أبو بكر أن يضاعف حجم (مساحة) دولة المسلمين. لقد أصبحت اليمامة والمناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية جزءًا من دولة الإسلام ولم يكن الأمر كذلك أبدًا فى عهد النبى. فعندما سأل أبو بكر عددًا من أسرى بنى حنيفة عن أقوال نبيهم مسيلمة، أجاب أحدهم: «أى نوع من الكلمات هذه؟ إنها كلمات لا معنى لها فهى لا تنفع ولا تضر. إنها أوهام غريبة لا هدف لها إلا خداعك» وبذا سامحهم وأعادهم إلى بلادهم.

ولم يكن الخليفة مستقرًا معتمدًا على ما حققه من نجاحات، فقبل اكتمال العمليات الأخيرة فى حروب الردة كان قد بدأ بالفعل الاستعداد للمرحلة التالية لصياغة شبه جزيرة عربية إسلامية جديدة، فقد كان يدرك أن الانتصار الكامل للإسلام داخل شبه الجزيرة العربية كان سيشكل ضغطًا لا يُحتمل على الديناميات الاجتماعية للقبائل. فالغارات والثارات والنزاعات حول المراعى، كل هذا كان هو دم الحياة ـ من الناحية العملية ـ لكل القبائل البدوية. لقد كان تغيير هذا يستغرق وقتًا بل وقتًا طويلاً. **ذلك لأن «السلام أو الأمان peace» الموجود فى قلب رسالة الإسلام** يستلزم **كى** يدخل فى أرواح هؤلاء البدو **ولكى** يتحققوا أنه من الإثم Sin أن يشن المرء غارات على جيرانه المسلمين ـ جهدًا كبيرًا. أما بالنسبة للعدو الخارجى، فالأمر يحتاج لمكان يمكن أن توضع فيه طاقات البدو المرعبة فى سياق قضية مناسبة good Cause. ولحسن الحظ، فإن مثل هذا العدو كان موجودًا بالفعل وينتظر. كان فى إمكان رجال القبائل أن يحوزوا الشرف والشهرة وربما بعض الغنائم بمهاجمة أراضى الإمبراطورية البيزنطية باجتياح العرب الشوام Syrian Arabs حتى يتيحوا الفرصة لكل إخوانهم العرب لاعتناق الإسلام، فتم إرسال دفعات جديدة من المبعوثين (الدعاة) من المدينة حاملين خطابات من الخليفة أبى بكر الذى كتب ـ وعلى وفق ما ذكره البلاذرى ـ لأهل مكة والطائف واليمن وكل عرب نجد (اليمامة) والحجاز يحثهم لشن «حرب مقدسة Holy War» (جهاد)، مثيرًا فيهم الرغبة فى الاستيلاء عليها والرغبة فى غنائم الحرب.

إنه موسم القضاء والقدر، فبينما كانت جيوش الإمبراطورية البيزنطية تحرس الأراضى المقدسة كانت كل قوات المسلمين فى شبه الجزيرة العربية تحتشد لشن الحرب. **لقد بدأت حركة الفتوح.**

تعليقات المترجم

(١) أبو بكر اسم غير شائع سواء فى عصر النبوة أو قبل ذلك، والعرب والمسلمون ينطقون الاسم بفتح الباء لا كسرها، لذا فاستنتاج المؤلف هنا غير صحيح، فأبو بكر اسم والأسماء فى هذه الحالة على الأقل لا تُعلل.

(٢) المؤلف هنا، مثله مثل بعض الباحثين والمؤلفين العرب، فهم كلمة «الأحابيش» الواردة فى كتب السيرة فهمًا خاطئًا. فالعبارة «قريش وأحابيشها» تعنى قريشًا والقبائل التى تحالفت معها أو عملت لحسابها، ولا تعنى بالضرورة أنها قبائل حبشية أى من الحبشة، أو إثيوبيا المعروفة (راجع حقيقة حروب دولة الرسول. القاهرة، دار الصابونى، تأليف د. عبد الرحمن الشيخ).

(٣) فيما يلى ما اتفقت عليه مصادر المسلمين عن زيد بن حارثة:

- هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى (من قبيلة كلب) مولى النبى محمد ﷺ.

- سُبى فى الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لخديجة بنت خويلد، فوهبته للرسول. وكان يدعى زيد ابن محمد حتى نزلت الآية « ..... ادعوهم لآبائهم» فأصبح اسمه زيد بن حارثة.

- زوَّجه الرسول مولاته أم أيمن فولدت له أسامة.

- تزوج زينب بنت جحش بنت عمة الرسول ثم طلقها فتزوجها النبى.

- قُتل فى وقعة مؤتة سنة ٨ هـ - وكان هو أمير الجيش فى هذه الوقعة.

(٤) مفهوم أن القرآن الكريم كان يُدوَّن وقت نزوله، أما جمعه فى إمام «مصحف» فتم فى عهد عثمان، لكن القرآن كان مُدونًا (مكتوبًا) بالفعل فى عهد الرسول ﷺ.

(٥) فى السياق التاريخى للعلاقات الفارسية البيزنطية بالقبائل العربية فى بادية الشام، نوجز ما يلى نقلاً عن أزمنة التاريخ الإسلامى لعبد السلام الترمانينى، جـ١: فى سنة ٦٠٢ يغتال القائد البيزنطى فوكاس الإمبراطور موريس ويستولى على الحكم وينصِّب نفسه إمبراطورًا ويقتل أبناء موريس إلا واحدًا منهم استطاع النجاة والهرب، فلجأ إلى كسرى أبرويز يستنصره على فوكاس كما نصره أبوه على بهرام من قبل، فيطلب كسرى من الروم تنصيبه ملكًا خلفًا لأبيه ويهددهم بالحرب إذا لم يفعلوا، فيرفضون. ويشن كسرى أبرويز حربًا على الروم يستولى فيها على بلاد الشام ومصر والنوبة. ويحمل خشبة الصليب من بيت المقدس إلى المدائن - عاصمة الفرس - ثم يوجه جيشًا كثيفًا إلى القسطنطينية فيحاصرها.. ويتمكن هرقل قائد الجيش البيزنطى من فك الحصار عن القسطنطينية، واستطاع بمحالفة الترك أعداء الفرس طرد جيوش كسرى من بلاد الروم.

الفصل السادس

فتح الأراضى المقدسة
وموت الخليفة الأوّل

أرسل الخليفة أبو بكر خطابات (كُتبًا) إلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية. وخطابات (كتب) الخليفة هذه اتخذ الواحد منها شكل قطعة صغيرة من الرَّق المصقول (الجلد المُرَقق)، ومكتوبة بخط اليد المحسَّن وغالبًا بالحبر الأسود، وبالخط العربى المعروف فى ذلك الوقت. ويُطوى الخطاب (الكتاب) ليصبح لفافة، ولا يوضع فى ظرف، فبمجرد أن يُطوى يشكل هو نفسه ظَرْفًا (ظاهر لفافة الرّق تصبح بمثابة ظرف). وكانت هذه الكُتب (الخطابات) تحمل خاتم النبى وبه حَلْقة من العقيق الأحمر منقوش عليها (الله خير الحاكمين)(١).

وهذه الحلقة (الخاتم) واحدة من الأشياء المادية القليلة التى تركها محمد النبى على الأرض (بعد أن وافته منيّته). وما إن كُلِّلت حروب الردَّة بالنجاح حتى أصبح المبعوثون من المدينة إلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية يُعاملون باحترام شديد ويلقون اهتمامًا كُلّيًا. كان لابُد أن تُسلَّم خطابات (كتب) أبى بكر للحكام المسلمين فى المدن والقرى والأسواق العامة، وهم مسلمون ذوو مكانة مثل أبى سفيان (الذى كان فى وقت من الأوقات أول سيِّد Warlord لمكَّة الوثنية)، الذى يعمل الآن (زمن أبى بكر) واحدًا من مندوبى الخليفة فى ولاية اليمن. وبعد تقبيل الخاتم الموجود على الخطاب (الكتاب) بإخلاص شديد ومحبة، يجرى فضُّ الخطاب ليُقرأ بعد الصلاة ليصل محتواه لكل السكان المسلمين.

وفى الصحراء تنتقل الأخبار غالبًا بالسرعة نفسها. ويجرى تقديم التحية للرّسل (المبعوثين Heralds) من قِبَلِ رعاة القطعان على البُعد، وما إن يصلوا إلى أراضى المراعى حتى يرافقهم المستقبلون، وغالبًا ما يكون مشايخ القبيلة موجودين فى أراضى المراعى تلك. وهنا يلقى المبعوثون ترحيبًا لائقًا وتتم استضافتهم فى خيام سوداء واسعة مخصصة لمشايخ القبيلة؛ حيث يتبوؤون مكان الصدارة عن يمين مضيّفهم وبعد أن يتقبلوا التحية المعتادة: قرعة gourol مجوّفة مملوءة حتى حافتها بالحليب الطازَج، لابد من الإسراع فى إعداد وليمة، بذبح عِجْل، وفى هذه الأثناء وبينما يجرى إعداد الوليمة يُسْرِع آخرون بدعوة الشيوخ الآخرين المتحالفين حتى يشارك الجميع، على قدم المساواة، فى معرفة الأخبار. فالأخبار تحظى بالعناية لأن ناقلى الأخبار (الرواة) فى الصحراء لا يضيعون وقتًا، فهم ينتهزون كل فرصة لإعادة رواية واقعة انتصار المسلمين الدموى على بنى حنيفة فى «يوم بستان الموت» وما جمعوه من غنائم كثيرة هائلة عقب انتصارهم هذا من المدن التجارية الثرية على طول الخليج الفارسى وساحل عمان، ومازالت انتصارات المسلمين مروية حتى هذه اللحظة (خلافة أبى بكر) فجيش خالد (ابن الوليد) يغير على الأطراف الصحراوية للإمبراطورية الفارسية. لقد كانت دعوة أبى بكر للانضمام إلى نضال عسكرى «لَصالح روحك For your soul's good» لتكسب حُسن الذِّكر فى الحرب (ذيوع الصيت من حيث الشجاعة) (★) ولتعود لديارك ومضاربك محمّلاً بالغنائم - كان لهذه الدعوة نتائج فورية إذ حظيت بالقبول.

لقد تجمع المحاربون الشباب فى شبه الجزيرة العربية تحت رايته (لوائه)، حتى رغم أن معلوماتهم عن تعاليم محمد ربما لم تكن حتى الآن قد وصلت لأكثر من أداء الصلوات اليومية بشكل روتينى. هؤلاء المقاتلون الذين رغبوا فى الحرب تحت لواء الإسلام، كان عليهم بادئ ذى بدء أن يزوروا الواحة (المدينة). لقد كانوا يصلون إليها بثبات عبر مسارات آمنة لكن لا يمكن التنبؤ بما سيلاقونه، فقد كانوا يرتحلون على طول الطرق التجارية القديمة، وفى المدينة كانوا يُستقبلون استقبالاً حسنًا ثم يتجمعون فى هدوء فى المعسكرات التى جرت العادة أن تستخدمها القوافل، فى بطون الأودية الجافة التى تمتد حول جبل أُحُد. وكان يتم تزويد الذين تنقصهم الأدوات (سواء أدوات

(★) لم يكن هذا الخاطر ليخطر إطلاقًا على المجاهدين، فقد كانوا يجاهدون فى سبيل الله لا ليقال إنه شجاع أو يقاتل لمغنم دنيوى. وتفسير المؤلف «لصالح روحك» بمعنى تكسب حسن الذكر تفسير خطأ فى الإسلام بل لصالح روحك عند الله عز وجل، فقد كانت الأغراض الدنيوية تفسد الجهاد. (المعلق).

القتال أم أدوات المعيشة) بمنَح وهِبات كريمة من بيت المال الذى يشرف عليه الخليفة الذى تسلّم خُمْس الغنائم التى استولى عليها المسلمون فى حروب الردّة، والتى كان يصرف منها الهبات للفقراء والمعوزين والذين تنقصهم أدوات القتال ill equipped. وخزانة الدولة (بيت المال) فى هذه الفترة لم تكن سوى مخزن قديم له باب. إن أبا بكر الآن يقترب أجله فلم يبق فى حياته سوى عام، ومع هذا لم يكن يغص بالثروة ويتقلّب فى النعيم مع أن المدينة كانت قد بدأت بالفعل تطفح بالرخاء. لقد كان أبو بكر لا يزال يلبس بفخر ثوبًا قطنيًا وعباءة من صوف اللذين كانا هما لباسه المعتاد من قبل، وواصل ما كان يفعله النبى بالسؤال عن أحوال الرعية بعد صلاة الصبح واتخاذ السبل التى تضمن رفاهية الجماعة، واضعًا فى اعتباره أنّ هذا هو واجبه الأوّل. وكان أيضًا يمشى مساء فى حارات المدينة ليتفقد بنفسه أحوالها وليتأكد ما إذا كانَ هناك فقير أو يتيم أو أرملة.. لم يتدبّر طعامه أو مأواه or a roof هذه الليلة.

وإذا عدنا لسنة ٦٢٢ وجدنا أن أبا بكر عندما هرب (هاجر) مع النبى إلى المدينة كان عليه أن يترك زوجته فى مكة. وكانت زوجته الأولى قُتيلة وأبناؤها قد بقوا على الوثنية فى مكة، رغم أن زوجته الثانية البدوية وهى أم رومان (أم عائشة) اعتنقت الإسلام بعد ذلك. وما إن استقر أبو بكر فى المدينة حتى اتخذ له زوجتين أخريَيْن: أسماء بنت عميس من قبيلة بنى خذام البدوية، وحبيبة وهى من بنات المدينة حقًا إذ كانت تتبع فى حياتها تقاليد نسوة المدينة، وكانت معروفة من خلال نسبها الأمومى ma-triarchal descent ، فهى ابنة خارجة من عشيرة الحارث بن خَزْرج. وقد أنجب أبو بكر من الزوجتين الأخيرتين. فمن أسماء أنجب محمدًا بن أبى بكر (سنسمع عنه كثيرًا بعد ذلك)، وأنجب من حبيبة ابنته أم كلثوم.

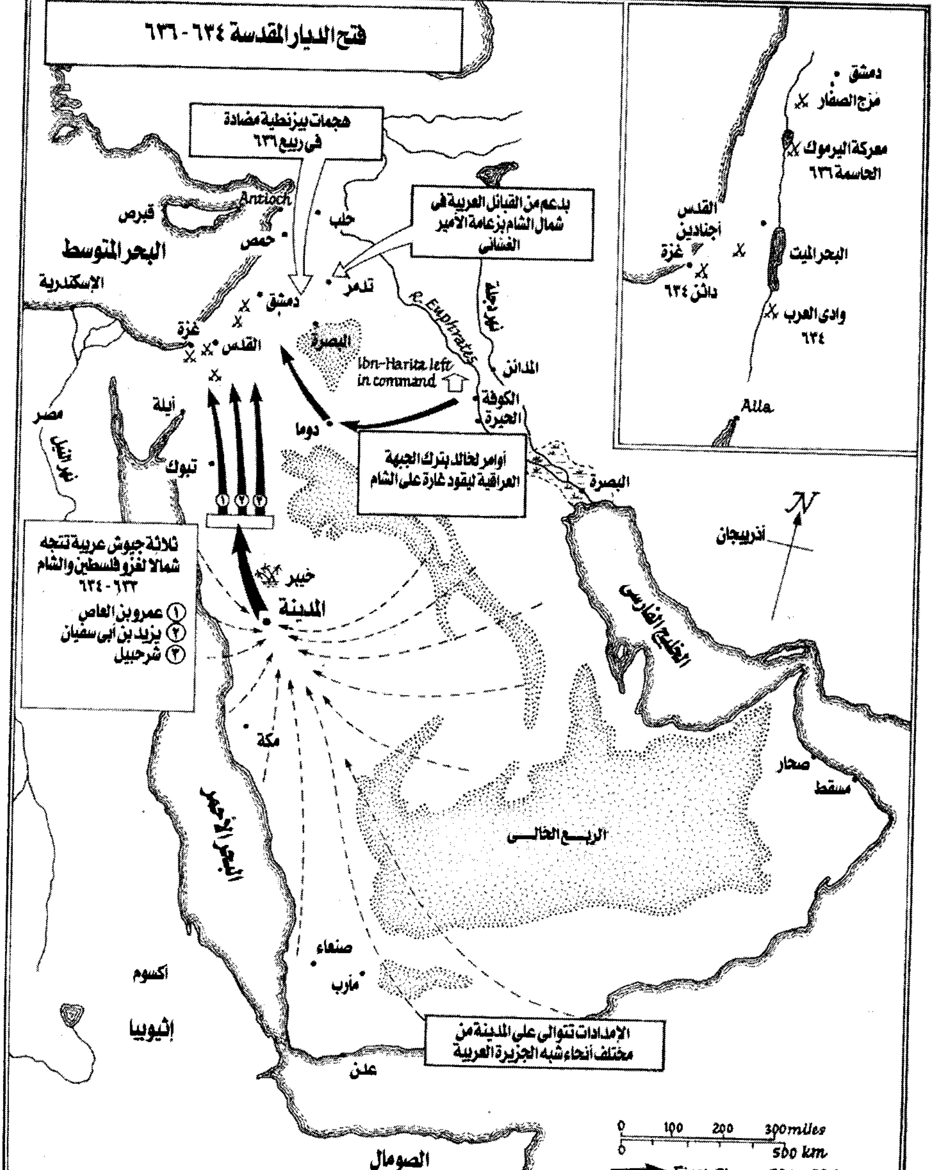
من الواضح أنه كان يتمتع بالحيوية حتى الآن. ورأس شخصيًا الحجيج، بعد أن كان قد تخلّى عن هذه المهمة أثناء حروب الردّة لانشغاله بمتابعة أمورها يومًا بيوم.

ويُقال إنه لم يكن ليهمل شيئًا، فعندما وصل عدد المقاتلين المتطوّعين الشباب حوالى ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) قام بتكوين فرقة عسكرية منهم وجعل على رأسهم قائدًا ودلّهم على طريقهم ودعا لهم بالبركة. وبهذه الطريقة تأكد أبو بكر أنّ إمدادات المدينة بالماء والمراعى لن تُستنفد، وأن شباب البدو لن يترعرعوا فى ظل الكسل والخمول (البطالة) وأن ندوب الجروح القديمة ممثلة فى الثارات القبلية لن تُفتح من جديد. ولأن وصول البدو (للمدينة وزمامها) لا يمكن التنبؤ به بدقة، فإن كل هذه القوى الميدانية تنطوى على فرص للاحتكاك بين القبائل ومن هنا كان التركيز على طبيعة التوحّد فى الإسلام،

فالولاء للإسلام يفوق الولاءات القوية الأخرى سواء كانت قبلية أو إقليمية. وهناك مرويات لا تزال قائمة عن قبيلة بنى فزارة؛ إذ عندما وصل أبو بكر إلى مضاربهم فى الجرف، نهض الشباب تحية له وتوقيرًا وهو يدعو لهم بالبركة وهتفوا قائلين: يا خليفة رسول الله، لقد أحضرنا معنا خيولاً قوية ونحن فرسان لا يُشق لنا غبار، فأعطنا لواء كبيرًا (راية نغزو فى ظلالها).

وراح أبو بكر يلقى تعليماته لجيوش المسلمين، مبينًا لهم كيف يتصرفون إن رغبوا فى أن يكونوا جندًا مسلمين: «لا تخونوا ولا تَغْلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيرًا إلاّ لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم.. اندفعوا باسم الله».

وتولى قيادة الجيوش الثلاثة الأولى قوّاد عرب شباب من ذوى الشخصيات الفعّالة (الكارزمية): يزيد بن أبى سفيان (وهو ابن القائد المكّى العجوز الخبير بالحرب) وعمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة، وكانوا جميعًا من الذين برهنوا على مهاراتهم العسكرية. قاد عمرو جيشه فى «الطريق الأكثر انتحاء نحو الغرب يكاد يكون مساحلاً للبحر الأحمر وقاد جيشه مباشرة إلى غزة وجنوب فلسطين. أما يزيد بن أبى سفيان فاتخذ الطريق الوسطى التى تمر عبر تبوك لتقترب من الساحل الشرقى للبحر الميت. أما شرحبيل فسار بقواته باستخفاف Slightly (؟) نحو بُصرى Bosra والجبال البركانية السوداء التى نعرفها اليوم باسم جبل الدروز. هذه الطرق المتعددة المتشابكة قد صُممت فيما يبدو لتربك أى جيش بيزنطى يحاول تجميع قواته. وكانت جيوش المسلمين الثلاثة قد تلقّت تعليمات بعبور الصحراء بسرعات متساوية ليكون أبو بكر قادرًا على تزويد كل جيش بمزيد من المحاربين منطلقين من المدينة. ربما يكون عمر فى ذلك الوقت هو الذى نبَّه أبا بكر إلى أنه رغم أن اختياره لقادة الجيوش كان اختيارًا صائبًا جدًا من الناحية التكتيكية، إلاّ أنَّ من وقع اختياره عليهم كانوا جميعًا من (المسلمين الجُدد) أو بتعبير آخر (من حديثى الإسلام)؛ وبالتالى فإن دوافعهم الأقوى تتمثّل فى طموحهم ومصالحهم الشخصية، أكثر من تمثلها فى تقواهم. لذا، فقد أرسل أبو بكر صحابيًا راسخ الإيمان (النص: معصوم الإيمان impeccable faith) هو أبو عُبيْدة إلى منطقة القتال على رأس فرقة من المحاربين. وكانت مكانته بين المسلمين وأسبقيته فى الإسلام تسمح بأن يكون ما يشير به مسموعًا محترمًا حتى لو لم يعينه أبو بكر قائدًا عامًا، من الناحية الرسمية.



فتح الديار المقدسة ٦٣٤ - ٦٣٦
هجمات بيزنطية مضادة
فى ربيع ٦٣٦
بدعم من القبائل العربية فى
شمال الشام بزعامة الأمير
الغسانى
Antioch
قبرص
حلب
حمص
البحر المتوسط
الإسكندرية
تدمر
دمشق
R. Euphrates
نهر دجلة
غزة
القدس
البصرة
المدائن
Ibn-Harita left
in command
الكوفة
الحيرة
مصر
أيلة
دوما
نهر النيل
تبوك
أوامر لخالد بترك الجبهة
العراقية ليقود غارة على الشام
البصرة
N
أذربيجان
ثلاثة جيوش عربية تتجه
شمالا لغزو فلسطين والشام
٦٣٣ - ٦٣٤
① عمرو بن العاص
② يزيد بن أبى سفيان
③ شرحبيل
خيبر
المدينة
الخليج الفارسى
مكة
صحار
مسقط
البحر الأحمر
الربع الخالى
صنعاء
مأرب
أكسوم
إثيوبيا
الإمدادات تتوالى على المدينة من
مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية
عدن
الصومال
0 100 200 300 miles
500 km
First Phase 634, 635
دمشق
مرج الصفار
معركة اليرموك
الحاسمة ٦٣٦
القدس
أجنادين
غزة
البحر الميت
داثن ٦٣٤
وادى العرب
٦٣٤
Alla

وعلى هذا، فإن أبا بكر ترك خياراته الأخيرة فيما يتعلق بالحرب، خيارات (تعليمات) مرنة. لقد أرسل رسولاً مؤتمنًا على عَجَل ليتجه شرقًا حاملاً خطابًا (كتابًا) آخر حاويًا أوامر (الرسالة مكتوبة على الرَّق أى الجلد المرقّق). ومن بين هذه الأوامر أن يتخلَّى خالد بن الوليد عن قيادة هجماته الناجحة على الجبهة العراقية، وأن يتجه عبر الصحراء ليساعد فى الهجوم العام على الشام البيزنطية. وتحرّك خالد بكل سرعته المعتادة وحَسْمه المعهود، على رأس جيش يتراوح عدد قواته ما بين ٩٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف). وكان حليفه القبلى ابن حارث قد تُرِك ليكون على رأس المحاربين معه وهم من قبيلة من بنى بكر Bekr. وقاد خالد قواته الراكبة عبر الصحراء الشامية مارًا عبر الأجزاء الشمالية من شبه الجزيرة العربية التى كانت قد ظلّت ـ تقليديًا ـ موالية للإمبراطورية البيزنطية (والتى لم يتعامل معها ـ إلى حد كبير جدًا ـ النبى ولا أبو بكر). وترك خالد أثر الدمار فى ركابه، فقد استسلم له الدير المحصَّن فى عين تمر، وكان مع جماعة مسيحية على المذهب النسطورى على حافة الصحراء بالغرب من الفرات، وسوَّى خالد هذا الدير المحصَّن بالأرض واسترقّ من كانوا به وهم أربعون راهبًا شابًا كانوا قد كرسوا حياتهم لدراسة دينهم. وسيتحول بعد ذلك أحد هؤلاء الأسرى الشباب إلى الإسلام وانتهى به الأمر لأن يصبح كاتبًا clerk فى المدينة، ونعنى به نُصَير، وفى وقت لاحق أصبح ابنه موسى بن نصير ذا شهرة بفتحه إسپانيا والمغرب الأقصى. أما الأسرى الآخرون فلم يكونوا محظوظين بهذه الدرجة؛ لأن خالد بن الوليد قتل ـ بل وصلب فى حالة واحدة مشهورة ـ مشايخ العرب الموالين للدولة البيزنطية أثناء مسيرته الملحمية عبر دوما Duma (تَدْمُر) وهو يقترب من حدود الشام. وكان خالد قد أخذ حِذْره بإحضار جمال كثيرة، أكثر مما يحتاجه عادة بثلاث مرّات وذلك حتى ينحرها (ليأكل لحومها جنوده) ويتم نزع كروشها لاستخدامها فى حمل الماء لتشرب خيوله التى جعل جانبًا كبيرًا منها رصيدًا غير مستخدم (غير مركوب): لتبقى مستريحة لاستخدامها فى القتال إذا حان الحين. وفى قسم من أقسام ملحمة الفرسان هذه حدث أن أُصيب دليله his guide وهو من قبيلة طىء بالعمى بسبب الشمس، وبالتالى فلم يستطع أن يقودهم إلى مورد الماء المختفى (المُعمّى عليه). ولحسن الحظ، فقد انتعشت ذاكرة هذا الدليل الذى أصابه العمى فتذكّر ـ فيما تقول المرويات ـ أن مورد الماء السّرى هذا توجد بالقرب منه شجرة عوسج ضخمة Awsaj a box thorn، وما إن

اكتشف الفرسان المرافقون (الاحتياطى) هذه الشجرة ظلوا يحفرون زهاء ساعة قبل أن يُحسُّوا الرطوبة فى التربة مما يوحى بوجود الماء أساس الحياة life-giving.

وقابل خالد على بعد خمسين ميلاً من دمشق خصومًا أشدّاء: قوات عربية صحراوية يقودها أمير غسَّانى. وبعد مناوشات بين فرسان الطرفين المتقاتلين فى مَرْج راهط، ربما كان المقصود منها محاولة متقنة لتضليل البيزنطيين وصرفهم عن اتجاه هجوم المسلمين. لقد تفجر بركان العداء فى نفس خالد فتحرك جنوبًا ليتصل بالجيوش العربية الأخرى. وكان أبو بكر قد رأى مسبَّقًا بثاقب نظره ما قد تؤدى له هذه المناورات من منافسات بين قادة الجيوش العربية، لذا كان قد أخبر القادة الآخرين بقراره فقد أرسل إلى عمرو هذه التعليمات: لقد أرسلت تعليمات لخالد بن الوليد أن يضم قواته إلى قواتك فورًا، فإن انضم إليك فأطع أمره ولا تحاول أن تفرض قيادتك عليه ولا تحاول أن تنفرد بحل مشكلاتك دونه، شاوره فى الأمر ولا تُعارضه.

ركب خالد عبر الصحراء وبدا أنّ مناوشاته خارج دمشق كان المقصود منها هو جذب انتباه الجيش البيزنطى الرئيس إلى سوريا Syria؛ حتى تتمكن الجيوش العربية الثلاثة الخارجة من المدينة من التوجه مباشرة إلى فلسطين Byzantine Palestine. كان الاشتباك الأول فى وادى عربة إلى الجنوب من البحر الميت مباشرة، حيث قاد يزيد الهجوم على قوات بيزنطية يقودها سرجيوس Sergios بطريارك فلسطين فأجبره يزيد على التراجع إلى الساحل. ففى داثنDattin (ربما كانت هى دوثان Dothan الواردة فى الكتاب المقدّس) التى لا تبعد سوى ١٢ ميلاً عن غزّة، خاض عمرو معركة ثانية مع قوات سرجيوس المتراجعة. لقد خاض سرجيوس المعركة وهو يرتدى ثيابه الكهنوتية البيضاء الرائعة الدالة على أنه عضو فى مجموعة حراس الإمبراطور التى تحظى بالتشريف Candidates، وكان العرب يمقتونه لأنهم تذكروا مواقفه السابقة، رغم أنه أصبح كبير السن الآن. ففى مرحلة باكرة من تولّيه منصبه أغلق أسواق دمشق فى وجوه التجار العرب كى يغتصب عشرين جنيهًا ذهبيًا. وبعد معركة داثن التى نحن بصددها جرى التعرّف على جثته فوُضعت فى معدة جمل، كبرهان أخير على جشعه.

لقد تأكد الآن تفوق الجيوش العربية، ففى شهر يوليو جرت المعركة الثالثة داخل فلسطين، إنها معركة أجنادين. لقد أصبحت القُدس مقطوعة الصلة بساحل البحر المتوسط وموانئه العظيمة مثل قيسارية Caesarea وغزّة، مهدّدة ـ أى القُدس ـ

بالجيوش العربية الرابضة وراء أسوارها. أما بُصرى Bostra التى كانت - فى وقت من الأوقات - العاصمة الإدارية لسوريا الداخلية inner syria ، فقد أصبحت الآن منعزلة وراحت تستجدى شروطًا ملائمة to sue for terms. هذه النجاحات الباكرة للعرب قد تأكدت عندما لاقى الجيش البيزنطى فى الشام هزيمة على أيديهم فى معركة جرت فى مرج الصفَّار Scythopolis الذى لا يبعد أكثر من عشرين ميلاً عن أسوار دمشق. ويرجع الفضل فى هذا الانتصار إلى خالد الذى وثق كل إخوانه القادة فى قدراته واعترفوا بعبقرية تكتيكاته.

وفى المدينة، شعر أبو بكر بالثقة الكافية فى اختياره لقادة المعارك، لدرجة أنه حقق رغبة كان يتوق إليها توقًا شديدًا، وهى أن يكون هو شخصيًا على رأس الحجيج إلى مكة. جلس أبو بكر بعد نهاية أسبوع من الشعائر الطويلة، فى ظل الكعبة الكائنة وسط الحرم، تلك الكعبة التى هى المركز الجغرافى (لعالم) الإسلام، ودعا أى مسلم يكون قد واجه ظلمًا أن يتقدم منه ليأخذ حقه، لكن أحدًا من المسلمين لم يتقدم ليعرض مظلمة.

وعندما عاد الخليفة العجوز إلى مكة بعد عشرة أيام قضاها راكبًا عبر الصحراء، استقبل مبعوثين (رُسلاً) أخبروه بالانتصارات الثلاثة التى حقَّقها المسلمون فى فلسطين هذا الصيف: انتصار وادى عربة وهو الانتصار الأول، يليه انتصار داثن، ثم انتصار أجنادين. حتى على صعيد الجبهة العراقية الخطرة كانت هناك أخبار طيبة؛ لأن قبيلة بنى بكر بقيادة ابن حارث قد أبطلت محاولات فارسية لإعادة الاستيلاء على الحيرة. وعلى كل حال، فإن ابن حارث سمع أيضًا بعض الأخبار غير المريحة. والحقيقة أنه منذ سنة ٦٢٨ عندما قُتل كسرى أنوشروان (عدو هرقل القديم) على يد أحد أبنائه والإمبراطورية الفارسية تنهار تدريجيًا (والأسرة الحاكمة فيها تذوى indynastic melfdown)؛ لأن المذابح التى تلت ذلك والتى جرى فيها قتل ثمانية عشر أميرًا من الأسرة المالكة على يد شرنيا Shirnya أخيهم غير الشقيق half-brother (يسميه المؤرخون اليونانيون البيزنطيون: سيروز Siroes) لم توسع الطريق لنظام بسيط لتوارث الحكم فى فارس، بل على العكس من ذلك فقد أدت إلى إحداث فوضى وتشويش لأن الزعماء المحليين قدّموا مُدَّعين مختلفين للعرش الساسانى، بل وقدموا أقرباء بعيدين للأسرة الساسانية ليطالبوا بعرش ملك الملوك (الشاه شاه). وبحلول صيف سنة ٦٣٤، وجدنا الأمير الشاب يزّدجرد ينجح أخيرًا فى إعادة توحيد الإمبراطورية وأصبح هدفه - الآن - هو تكريس

كل موارده لصد غزوات العرب المسلمين. وليتأكد ابن حارث أن الخليفة أبا بكر يعى تمامًا خطورة الموقف، فقد قرر أن يذهب هو شخصيًا إليه فركب إلى المدينة ليحادث أبا بكر مباشرة دون رسول يُرسله، طالبًا منه دعمًا عسكريًا. ووصل ابن حارث للمدينة ليجد الخليفة ملازمًا الفراش.

فى صيف الانتصارات هذا، كان أبو بكر البالغ من العمر ثلاثة وستين عامًا قد أُصيب بالحمّى، وكان سيده (النبى) قد أصيب قبل ذلك بالمرض نفسه، وهو مرض شائع فى الواحة (المدينة) التى تتوافر فيها المياه. وكان المكّيون الذين نشؤوا فى ظروف أكثر جفافًا بكثير، أكثر عُرضة للإصابة بالحمّى. لقد أحكمت الحمى قبضتها على أبى بكر فقرر ألاّ يترك شيئًا للصدفة، فاستدعى ستة من الصحابة (بمن فيهم على) واقترح أن يكون عمر بن الخطاب هو خليفته، ولم يكن هذا اعتمادًا على أى آية قرآنية أو حديث نبوى وإنما كان هذا مجرد تعبير عن رأى أبى بكر. وفى عصور لاحقة اعتُبرت مثل هذه القرارات (اجتهادًا) قنّنه الفقهاء. وقد عبّر الصحابة المجتمعون عن خشيتهم من قسوة عمر واستقامته الشديدة وخشونة شخصيته؛ إلاّ أنّ أبا بكر كان مقتنعًا بأن عبء الحكم (الخلافة) يمكن أن يجعل عُمر ذا طباع أكثر لينًا وصرامة، وبذا تم قبول اقتراح أبى بكر (عن استخلاف عمر) وفى وقت لاحق جرت البيعة العامة، بمعنى أن جمعًا من المؤمنين أيدوا خلافة عمر. وقضى أبو بكر أيامه الأخيرة بين زوجاته وابنته عائشة التى اعتنت به حتى لفظ أنفاسه. واعترافًا من أبى بكر بقوة شخصية ابنته عائشة، فقد طلب منها أن تعتنى بأسرته وأن تشركهم معها فى الأرض الخاصة التى أعطاها لها (أى لعائشة). وكان حريصًا أيضًا على أن تعود أى ممتلكات للدولة يكون قد استخدمها فى حياته بحكم منصبه ـ أن تعود للدولة لتكون فى خدمة الصالح العام.

وطلب أبو بكر أيضًا من ابنته عائشة ألا تستخدم قماشًا جديدًا لتكفينه، وإنما تكتفى بغسل ملابسه التى استخدمها أثناء حياته وتلف جسده بها. وبعد أسبوعين من معاناة الحمى غادر أبو بكر الدنيا فى ٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤. ودُفن حيث يستحق ـ رأسه إزاء كتف سيده (محمد النبى) فى الغرفة التى تزوجت فيها ابنته عائشة. كانت فترة حكم أبى بكر قصيرة (لم تتعد عامين وثلاثة أشهر)، **لكن أمور العقيدة لم تكن أبداً عزيزة غالية عند أحد كما هى عند أبى بكر، اللهم إلاً عند سيده محمد النبى**. لقد كان يحذو حذو النبى، فقد كان مشغولاً انشغالاً عميقًا ومستمرًا بالخلود (العالم

الآخر). لقد كان مثل كيتس Keats (الشاعر الإنجليزى الرومانسى) يتنهد عند رؤية طائر العندليب معبرًا عن (حسده) لطائر حر رآه ذات مرة فى حديقته فى قرية السنح (وهى قرية واحة): «آه أيها الطائر، إنّك محظوظ حقًا، فأنت تأكل وتشرب كما تحب، وتحلق طائرًا غير واضع فى اعتبارك حسابًا يوم القيامة كنت أتمنى أن أكون مثلك». وفى مناسبة أخرى وجدناه يغار حتى من الجماد فاقد التمييز insensate: «لَكَمْ كنتُ أتمنى أن أكون ورقة نبات أو نبتة عُشب تنتهى حياتها عندما تلتهمها دابة ترعى، أو شجرة يمكن قطعها فينتهى أمرها».

ونفذت عائشة وصايا (تعليمات) والدها الأخيرة بدقة، حتى إنها تأكدت من عودة البقرتين الحلوبتين اللتين كان أبوها قد استعارهما إلى بيت المال. كما أعادت البستان الصغير الذى كان أبوها قد حصل عليه من راتب (أجرة) salary قوامه ستة آلاف درهم فى السنة كان يتقاضاها لقاء عمله (كخليفة للمسلمين)، وقد سُلِّم إلى عمر (الخليفة الثانى). وبينما كان عمر يتسلم مفتاح هذا البستان المسوّر الصغير ليستخدمه هو بوصفه خليفة (جزءًا من أجره)، رفع يديه إلى السماء وهو يقول: «ليباركه الله (يقصد أبا بكر). إنه لم يترك أى فرصة لأى أحد لينبس ضده بنت شفة». وعندما تم فتح الخزانة العامة (بيت المال) لتفقُّدها (التفتيش عليها) وُجدت خاوية، فيما عدا قطعة عملة ذهبية واحدة كانت قد انزلقت من صُرّتها فوقعت على الأرض فغطّاها التراب.

تعليقات المترجم

(١) كان خاتم النبى فى البداية من الذهب (ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ١ ، ص ٣٢٣) ثم نزعه، ولبس خاتمًا من فضّة، وكان نقشه (محمد رسول الله). وقيل (بسم الله محمد رسول الله) (ص٣٢٠).

الفصل السابع

عمر والانتصارات العظيمة

سيبرهن عمر على أنّه قائد بارز واستراتيچى ملهم وإدارى عبقرى، كما كان **نموذجًا لإنسان غير عادى. فليس من مثيل له أبدًا فى قرون التاريخ الغربى**Western history، رغم أن جوسيب غاريبالدى وأبراهام لنكولن وكاتو Cato كانوا يكادون يقتربون منه فى جوانب معينة من شخصيَّته. وكان عمر واعيًا بمدى الكرامة التى حازها سلفه أبو بكر، فأطلق على نفسه: خليفة خليفة رسول الله، لكنه فى أوقات أخرى تخيَّر لنفسه لقبًا أكثر تواضعًا وهو «أمير المؤمنين».

ولكل هذا التواضع الذى تبدّى فى شخصية عمر بعد أن أصبح خليفة، لم يكن أحد من بين مجموعة المسلمين المقرّبة يشك فى أن عمر كان أيضًا يمثل قوّة وراء حكم أبى بكر Abu Bakr throne، فقد كان مستشاره الرئيس، ولعب فى عهده أكثر الأدوار حسمًا فى السيطرة على الجماعة بعد موت النبى. ولم يكن دوره هذا تطفلاً منه وإنما كان باعتراف وإقرار مباشرين من أبى بكر نفسه. فقد كان بعض المسلمين يَشْكُون لأبى بكر قائلين له إن عمر يتصرف كما لو كان خليفة، فكان رد أبى بكر أنّ هذا طبيعى. إنه الأصلح للخلافة. «إننى عبد الله أُجبرت على تولّى الخلافة ... أقسم بالله أننى لم أكن راغبًا فى أن أكون خليفة: بل إننى لم أفكر أبدًا فى هذا ولم أكن راغبًا فى هذا لا علنًا ولا فى قرارة نفسى. لقد وضعوا عبء الخلافة على رأسى قسرًا». أما عمر، فلم يكن بمستطيع أن يقول مثل هذا أو يدّعيه. ولا يسعُ المرء إلاّ أن يحترم عُمر وإن كان من الصعب أن يحبه فلم يكن يستطيع أن يقبل من تابعيه (مرؤوسيه) بأقل من النموذج

الأمثل؛ لأنه لم يكن ليقبل بأقل مما يُلْزِم به نفسه. ومع أن عمر بن الخطاب كان خليفة اعترف الجميع أنه قائد كوَّن إمبراطورية واسعة، إلاّ أنه كان يكتفى بعباءتين فى السنة، واحدة يرتديها صيفًا وأخرى يرتديها شتاء، وبمال يكفى لأداء فريضة الحج ولإطعام نفسه وأسرته وضيوفه، بالإضافة للطعام الجاف الذى كان يقدمه للبدو.

وكان يرى ما رآه النبى وأبو بكر من قبله، أن شيئًا أكثر من هذا لا يجعل الإنسان على علاقة طيبة حقيقية بالله (سبحانه). لقد ظل طوال فترة حكمه تطهريًا (تقيًا) (پيوريتان puritan) بشكل أسطورى، كما كان صارمًا يعاقب بشدة على السُّكر والمَيْسر (القِمَار) واللباس غير الملائم، وعلى إساة استخدام أموال الدولة أو السلطات المفوّضة delegated power. وكان يتوقّع من الذين وثق فيهم بتوليتهم مناصب (مسئوليات) كبيرة أن يؤدوا مسئولياتهم بأمانة ودقّة. لقد أراد ـ وكأنه عم مسيطر ـ من ممثليه سواء أكانوا ولاة على ولايات شاسعة أم قادة لعشرات الآلاف من المقاتلين، ألا تلهيَهم أمورهم الشخصية بلبس ثياب فاخرة أو تناول أطعمة غير مألوفة للعامة، ولم يُرِدْهم أن يغلقوا بيوتهم (خاصة مطابخهم) فى وجوه الناس. وبينما كان النبى يحب الطيب والنساء لا نجد شيئًا من هذا فى شخصية عمر الإنسان. وحتى أثناء حياة النبى، يُقال إن ظلّ عمر خلف الباب، كان كفيلاً بأن يفرض الصمت على غرفة مليئة بالنساء والأطفال، **بينما لا تنقطع الضحكات والثرثرة عند دخول محمد النبى**. وقد تأثرت كثيرًا بحكاية تفيد أن عمر لم يذرف الدموع إلاّ مرّة واحدة فى حياته عندما وأدَ ابنته وهو شاب كان لا يزال وثنيًا. وقد ارتحت للاكتشاف الأخير الذى يفيد أنّ هذه الحكاية قد وضعها (دسّها) مؤرخو العصور الوسطى لتشويه شخصية عمر. فهذه الحكاية تُعتبر الآن مجرد تلفيق. وكان عمر ذا منظر مهيب (من ناحية تركيبه البدنى)، فكما تذكّر أحد معاصريه أنه كان يبدو طويلاً شاهقًا وسط الجموع وكأنه راكبٌ حصانًا. أما عن أمانته فحدّث ولا حرج، وكانت أمانته واستقامته مؤيَّدة بقول النبى: «**إن الله قد وضع الحق على لسان عمر بن الخطاب وعلى قلبه**».

وعندما تولّى عمر التوجيه الرسمى للأمور من أبى بكر فى أغسطس سنة ٦٣٤ ، كان أحد قراراته الأولى هو عزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة Supreme Command، رغم سماحه له بأن يبقى قائدًا للجيش الذى قاده خارج العراق. ففى ذلك الشتاء كانت الجيوش العربية المسلمة الأربعة تنتشر على أراضى الشام وفلسطين تؤمِّن

خضوع كثير من المدن الصغيرة المسوّرة مثل بيلاًّ Pella بين البحر الميت وبحر الجليل قبل أن تتجمع هذه الجيوش من جديد خارج أسوار دمشق فى الربيع... وبحلول مارس كانت جيوش العرب المسلمين قد أحكمت تطويقها للمدينة الشامية العظيمة دمشق. كانت معلومات العرب المسلمين عن حرب الحصار غير وافرة منذ فشل حصار الطائف على عهد النبى، لكنهم كانوا يعرفون ما يكفى للتحقق من أن أسلحتهم الأقوى فى هذا الاشتباك تتمثّل فى القدرة على منع إمدادات الطعام والماء، والصبر والتفاوض، وشهرتهم بالوفاء بالعهود والالتزام بكلمتهم، وبعد ستة شهور سعى آباء المدينة للحصول على شروط طيبة لدى القائد أبى عبيدة، وفى الوقت نفسه بالضبط شنَّ خالد بن الوليد هجومًا على البوّابة الشرقية East Gate (مستعينًا بخائن من الداخل) وشق طريقه بالقوة داخل المدينة (دمشق). وما دامت سلطة (اختصاصات) أبى عبيدة قد تأكدت بشكل مطلق منذ تولّى عمر، وما دامت المدينة (دمشق) كان لديها بالفعل شروط للاستسلام وافقت عليها، وأكَّدها أبو عبيدة بكلمات الشرف ـ إلا أنها من الناحية الفنية (مصطلحات الحرب) تُعتبر قد سقطت (فتحت عُنوة) وعلى هذا صارت تحت رحمة الفاتحين تمامًا.

وسار الفاتحون على نهج النبى محمد فى معاملة أهل الكتاب فى اليمن، فأقروا يهود دمشق ومسيحيِّيها فى بيوتهم وأماكن عبادتهم وإن كان على كل واحد منهم (أن يدفع ضريبة رأس Poll tax (جزية) مقدارها دينار وكَيْلاً من القمح. وبعد هذا النصر العظيم (فَتْح دمشق) راحت الجيوش العربية الأربعة مرّة أخرى تتوجه نحو أهداف محلية أخرى أصغر، فسار أبو عبيدة شمالاً لتستسلم له مدن مثل حمص، وبعلبك، بينما اتجه يزيد جنوبًا ليُكمل إخضاع المملكتين القديمتين أدوم وموآب (إلى الجنوب من الأردن تقريبًا)، أما شرحبيل بن حَسَنة فأجبر طيبيريا Tiberias على الاستسلام وكذلك المناطق الواقعة إلى الشمال من الأردن، وتقدم عمرو بن العاص فى تلال الأردن وبدأ يمهد لحصار القدس حصارًا محكمًا.

وكان الإمبراطور هرقل فى كل هذه الأثناء واعيًا بالغزو العربى (مدركًا لخطورته) لأنه لم يكن قابعًا وراء الأسوار الثلاثية الهائلة للقسطنطينية منهمكًا فى الحياة الطقسية (الغاصة بالبروتوكولات)، وإنما اتخذ له مقرًا فى المناطق الشمالية للشام، فى أنطاكية التى كانت وقتها رابع أعظم المدن فى عالم البحر المتوسط. لقد كان منهمكًا

بعمق فى مفاوضات negotiation لاهوتية معقدة تحاول الوصول إلى عقيدة توفيقية حول المسألة التى طال النقاش حولها والمتعلقة بطبيعة المسيح (رغم أن التوفيق العملى (البرجماتى) الذى صاغه thrashed out سيساعد فيما بعد على ظهور كنيسة أخرى منافسة ما زالت موجودة، ونعنى بها الكنيسة المارونية فى لبنان المعاصرة) وكان هرقل مشغولاً أيضًا بالإشراف على الانسحاب المتبادل للحاميات البيزنطية والفارسية طالما أن الإمبراطوريتين راحتا ـ بالتدريج ـ تنظمان حدودهما بناء على سلام سنة ٦٢٩. أما الانتصارات الثلاثة التى حققها العرب فى فلسطين فى سنة ٦٣٤ (وادى عربة وداثن وأجنادين)، فيمكن تجاهلها باعتبارها غارات مؤقتة قام بها برابرة (اعتادت عليها الإمبراطورية البيزنطية بحدودها الطويلة المعرضة للخطر) لكن استراتيچية المسلمين المنهجية فى معاركها خاصة بعد استسلام دمشق (بعد حصارهم لها)، كل هذا أجبر هرقل على تركيز انتباهه دون أن يشغله شاغل آخر، فبنهاية عام ٦٣٥ كرس كل موارد أوروبا لصد غزو العرب المسلمين للشام Syria وفلسطين.

فحشد هرقل جيشًا مهولاً من صفوة جنود الإمبراطورية البيزنطية، من جنود جنَّدهم من أرمينيا والأناضول، وكان هو نفسه قد سبق وقاد هذا الجيش إلى النصر فى معركته ضد الفرس فى سنة ٦٢٩، وجعل على رأسه هذه المرة أخاه تيودور وعين له مساعدًا هو ڤاهان Vahan (يُكتب أحيانًا Baanes) وهو چنرال أرمينى مجرب. وتزعم بعض المصادر أن الإمبراطور هرقل استدعى جيشًا قوامه ٨٠ ألفًا فى فصل الشتاء. قد يكون هذا التقدير مبالغًا فيه لكن المؤكد أنه بحلول عام ٦٣٦، الذى يمثل بداية المعركة التى نحن بصددها كان الجيش البيزنطى الميدانى يفوق عدده فعليًا عدد الجيوش العربية الأربعة. لقد كان لدى العرب فى عامَىْ ٦٣٤ ، ٦٣٥ مزايا، ليس فقط من حيث حريتهم الباهرة فى الحركة، وإنما أيضًا تفوقهم العددى الذين راحوا يؤكدونه بتكتيكاتهم المتقنة. والآن، فى ربيع سنة ٦٣٦، تغير المد فقد راحت الفرق، فرقة إثر فرقة، تنساب هابطة من هضبة الأناضول لتغص بها أودية جبال طوروس لتلحق بالمعسكرات الواسعة التى تضاعف عددها خارج مدينة أنطاكية. ولم يكن ينقص هذه الجحافل حتى قوات الخيَّالة (كتائب الفرسان)؛ لأن الأمير الغسانى جَبَلة بن الأيهم كان هو نفسه على رأس قوات الفرسان العربية الشامية التى راحت تتجمع تحت الرايات الإمبراطورية (البيزنطية)، وأمام هذه الحشود العسكرية الكثيفة قرر قادة الجيوش العربية المسلمة الأربعة الانسحاب. لقد أُزيحت جانبًا كل انتصاراتهم التى خاضوا فيها حروبًا قاسية وحاصروا فيها لُمَدَد طويلة مدنًا ومواقع عسكرية، فالمدن المسورة التى

استولوا عليها والقلاع التى احتلوها، أصبح عليهم الآن إخلاؤها بسرعة، حتى دمشق ـ جائزة الجوائز ـ كان عليهم التخلى عنها دون أية مقاومة دفاعية. فالذى حدث هو انسحاب قوات المسلمين إلى الصحراء والسهوب الجرداء التى كانوا قد برزوا فيها فجأة فى ربيع سنة ٦٣٤.

وبحلول شهر مايو سنة ٦٣٦، كانت جيوش المسلمين قد أخلت تمامًا الأراضى المقدسة، وعاد المسئولون البيزنطيون مرة أخرى ليمارسوا سلطتهم على كل القرى والمدن فى الشام وفلسطين، وبنهاية الشهر كان الجيش الإمبراطورى يتقدم شرقًا بقدر ما وسعه التقدم وهو آمن، فاستولى على حوران تلك الهضبة الاستراتيچية الخصبة ذات المزارع التى تطل على سهول وممرات سوريا وفلسطين، والتى تتناثر فيها المدن المزدهرة وبساتين الزيتون والأماكن الأثرية. وإلى الشرق مباشرة يوجد جبل الدروز البركانى الذى يمثل الحد الأخير للأراضى المنزرعة قبل أن يبدأ الامتداد الصحراوى، بينما إلى الغرب تشمخ مرتفعات الجولان. هنا ـ أى فى هضبة حوران ـ عسكر الجيش الإمبراطورى بقصد البقاء فترة الصيف. ورغم التفوق العددى الكبير، لم نجد تحركًا هجوميًا فى الصحراء سواء لتهديد المدينة أو بعض الواحات الاستراتيچية. لكن كانت هناك أسباب استراتيچية معقولة لإبقاء الوضع على ما هو عليه، فقد استعادت الإمبراطورية ولاياتها الضائعة دون أن تخسر جنديًا واحدًا، فوجود قواتها المهيمنة المتفوقة تلك ستؤدى بالتدريج إلى تفكيك التحالفات الحدودية الصحراوية (البوادى)، وربما كان هرقل واعيًا أيضًا بأن الإمبراطورية الفارسية سرعان ما ستمارس ضغطًا مشابهًا على الجبهة العراقية إن لم يكن فى هذا العام ففى العام الذى يليه بالتأكيد. وعلى أية حال، فشهور الربيع أو الصيف كانت هى الوقت الوحيد المناسب لأى جيش أجنبى (خارجى) يود التقدم فى وسط شبه الجزيرة العربية .

وبينما كانت جيوش المسلمين تتراجع محتمية بالصحراء كان المبعوثون يتم إرسالهم إلى عمر بن الخطاب فى المدينة لإخباره بهذا التحول السريع فى مسيرة الأحداث. وقد حمل هؤلاء المبعوثون أيضًا طلبات بدعم عسكرى كبير، إذ كان مطلوبًا من العرب أن يواجهوا ـ مواجهة مباشرة ـ جيش الإمبراطورية البيزنطية الرئيس. **وإذا فشلوا فى الاشتباك مع هذا الجيش (البيزنطى) لبدأ فى الانحلال ولاء القبائل البدوية التى أسلمت حديثًا فى شبه الجزيرة العربية.** وراح الخليفة عمر بن الخطاب يرسل مبعوثًا

إثر مبعوث طالبًا من كل القبائل إرسال مزيد من شبابها المقاتلين. وراح خالد بن الوليد يشاغل الجيش البيزنطى فى هذا الصيف. لقد راح خالد طوال هذه الشهور الطويلة الجافة الحارة يشاغل - ويناوش - بفرسانه القليلين الجيش الإمبراطورى البيزنطى الأكثر عددًا بكثير، لكنه - أى خالد - لم يسمح لقواته بالدخول فى معركة حاسمة ضارية مع الجيش البيزنطى. لقد كانت الحاجة ماسَّة لإرسال مقاتلين كثيرين؛ مما جعل عمر بن الخطاب ينقض قرارًا كان قد اتخذه مع أبى بكر، باستثناء القبائل التى سبق لها أن حاربت ضد المسلمين فى حروب الردة وإبعادها. لقد استدعى هذه القبائل التى كانت قد ارتدت منذ فترة غير طويلة ليلتحق مقاتلوها بالجيوش العربية.

وبحلول بداية شهر أغسطس كان خالد قد تلقى هذا الدعم. لقد تراوح عدد جيش المسلمين - الآن - ما بين ٢٠ ألف و ٤٠ ألف مقاتل. لقد جمَّع عمر هذه القوات معًا واضعًا كل موارد الدولة الإسلامية Islamie الشابة لمواجهة هذه المرحلة الحاسمة، لدرجة أنه يُقال إن أبا سفيان الذى شارف على العمى وبلغ من العمر ثمانين عامًا كان هو وزوجته هند المشاكسة hell- cat ، بين صفوف الذاهبين لدعم خالد. لم يكن هناك بديل لهذا الجيش (لم يكن هناك غيره) فإذا لحقته الهزيمة تحطمت بتحطمه كل القوى المقاتلة ذوات الخبرة لدى مسلمى شبه الجزيرة العربية، ومهما كانت رُتَبهم (مكانتهم) فى الإسلام، فليس هناك أبدًا الآن بين القادة الرئيسين أى تساؤل حول أحقية خالد فى تولى أمر إصدار الأوامر التكتيكية يومًا بيوم، وبعد شهور من المسيرة والغارات والانسحابات أصبح خالد وجيشه، أيضًا - متآلفين بعمق مع طبيعة الأرض، أو بتعبير آخر كان انسحاب خالد وشنه للغارات سببًا فى إدراكه الطبيعة الاستراتيجية لميدان المعارك القادمة. ففى ٩ أغسطس، هبت عاصفة رملية عاتية من الصحراء وهى من النوع الذى يستمر ثلاثة أيام وتهب من مختلف الاتجاهات وقد اعتادها العرب فى مثل هذا الوقت من كل عام. إنها عاصفة متعبة مرهقة بالنسبة للذين اعتادوها. إنها عاصفة رملية غالبًا ما يصاحبها ارتفاع ملحوظ وسريع فى درجة حرارة الهواء، وتسبب الخمول ويمتلئ الجو بذرَّات الغبار الدقيقة ويصبح من الصعب أن يتناول المرء طعامه دون أن يمتلئ فمه بحبات الرمال والغبار الدقيقة، وهذه العاصفة تجعل عملية طهى الطعام صعبة، وكذلك سحب المياه، بل وإيقاد النار. حتى النوم لا يمكن إلا أن يكون متقطعًا مصحوبًا بتشنجات، فالخيام إما أن الريح تقتلعها أو تُسوَّى بالأرض بفعل الرمال التى تنقلها الرياح مع هبوبها. وكانت هذه العاصفة (بصفاتها المذكورة آنفًا) هى

الفرصة التى انتهزها خالد. وذلك لأن أراضى حوران الخصبة المنبسطة كانت مناسبة تمامًا للحركة العسكرية المنظمة للجيش الإمبراطورى، إلا أنه - أى الجيش البيزنطى - قد انتقل فجأة وبسرعة (دون أن يتكيف بشكلٍ كافٍ) إلى بيئة غريبة بالنسبة له - بيئة صحراء شبه الجزيرة العربية.

وأرسل خالد بعضًا من أكثر المغيرين (البارعين فى شن الغارات) خبرة على طول الممرات التى لا يعرفها سواهم والتى تمر عبر الهضبة البركانية الوعرة، ومن ثَم التفوا حول المعسكر الإمبراطورى، فحاصروا (العدو) بهدوء وشغلوا بعض المواقع الاستراتيجية عند جسر فوق وادى رُقَّادة Ruqqada . وفى منتصف أغسطس، كانت كل بواطن الأودية جافة مثل أراضى السهوب المحيطة بها، لكن خالدًا كان يعرف أنها لكونها تجرى نحو الغرب فإن بواطنها الحصبائية التى تبدو غير مضرة ستصبح بالتدريج أكثر عمقًا وهى تشق طريقها هابطة خلال تلال الجليل Galilean hills، فتصبح - أى بواطن الأودية هذه - شَرَكًا خطيرًا يؤدى للموت.

وقبل فجر ٢٠ أغسطس، **دعا خالد كل المقاتلين ذوى الأسبقية فى الإسلام، الذين سبق أن حاربوا فى بدر وأُحد والذين سبق أن كانوا حاضرين فى صلح الحديبية، ليكوِّنوا تشكيلات ذات طابع روحى (دينى)، كما كان يفعل الأنبياء القدماء فى العهد القديم (التوراة وملاحقها) والذين كان عليهم أن يصلوا ويدعوا بالنصر طوال اليوم، لكنهم لا يشاركون مشاركة فعلية فى القتال. هذا التركيز الشديد على قوة الصلاة والدعاء وتأثيرهما ربما كان رد فعل لتُهَم كانت دائمًا ملتصقة بحياة خالد.** كان خالد يعرف أن المقاتل المسلم حديث الإسلام (الذى أسلم متأخرًا) مسلم دُعى لخوض معركة تشير كل الشواهد أنها ستكون معركة دموية على نحو غير مألوف، فأراد - بعد تروٍّ - استبعاد هؤلاء الموقرين من خوض المعركة لأنهم يمثلون الذاكرة الجماعية للإسلام، ويحفظون القرآن الذى لم يكن قد كُتب unwritten ويعرفون أقوال النبى (أحاديثه) وأفعاله.

فخالد يذكر أنه أثناء حروب الردة، فى حربه ضد بنى حنيفة، فقد تسعة وثلاثين من هؤلاء الحُفَّاظ القراء الذين لا يمكن تعويضهم irreplaceable libraries.

وبعد صلاة الفجر أصدر خالد أوامره بالهجوم. الأخبار عن المعركة مضطربة إلا فيما يتعلق بالمذبحة المرعبة فى هذين اليومين. كان لدى العرب الميزات الحاسمة

المستمدة من خبراتهم طوال حياتهم فى التعامل مع تلك الظروف المرعبة (العاصفة الآنف ذكرها) كما كانت الرياح تهب من وراء ظهورهم فتزيد من سرعة سهامهم ورماحهم، بينما كان مقاتلو الجيش البيزنطى يواجهون العاصفة بوجوههم فتسببت هذه الرياح العاتية فى تشتيت شملهم والتعمية على رؤيتهم (أصابتهم الرياح المحملة بذرات الرمال والأتربة بالعمى) فلم يعد أمامهم فرصة للاتصال بعضهم ببعضهم الآخر فى ظروف هذه العاصفة الصحراوية، ولم تعد أمامهم فرصة لاستدعاء فصيلهم الأقوى ولا إنجاز مناوراتهم، فقد كانت معركة **اليرموك** سلسلة من الاشتباكات العنيفة، وجهًا لوجه hand to hand engagements، مما أتاح للعرب تحقيق الانتصار لاتصاف قيادتهم بالمرونة ولحماسهم (الدينى). وقبل الظهر كان خالد متأكدًا من أن جنوده قد دقوا إسفينًا بين معسكرات المشاة البيزنطيين من ناحية والخيَّالة الغسانيين من ناحية أخرى. وخلال هذا اليوم واليوم الذى تلاه راحت تشكيلات المشاة البيزنطية تنسحب متراجعة إلى شعاب الوادى. حتى لو كانت العاصفة قد توقفت بشكل إعجازى، فالحقيقة أنه عند هذه المرحلة من القتال كان الجيش الإمبراطورى قد تمزق إلى اثنتى عشرة مجموعة (وحدة) منفصلة، كل مجموعة منها غير قادرة على مساعدة أية مجموعة من المجموعات الأخرى أو الاتصال بها. ورغم أن قوات الإمبراطورية قد عُوِّقت ووقعت فى شراك ولحقها الاضطراب وانفصل بعضها عن بعضها الآخر، إلا أنها (حتى الآن) لم تُهزم هزيمة ماحقة لأن الكتائب البيزنطية من الأناضول ومن أرمينيا لم تتكسر وإنما واصلت القتال، فتم تدميرها وتمزيقها إربًا إربًا. لقد أجهز عليها الرماة العرب الذين لم يكونوا يرونهم فعلاً (بسبب العاصفة)، أولئك الرماة الذين شقوا طريقهم خلال شعاب المرتفعات. وجاء دور السيوف، فقاع نهر اليرموك الجاف والذى زاد من جفافه شمس أغسطس كان مليئًا بزهور نبات الدِّفْلى (نبتة سامة ذات زهور عطرة). شهد اليرموك تلك الليلة فيضًا من الدماء اختلطت بالزهور القرنفلية فى بحر الجليل. إن الجيش البيزنطى لم يُهزم فى معركة اليرموك فحسب وإنما تحطم it was destroyed.

وعندما وصل بعض الجنود البيزنطيين الشاردين إلى أنطاكية أدرك الإمبراطور هرقل أن الشرق الأدنى قد ضاع من الإمبراطورية. لقد كان قد وضع كل شىء فى هذا الجيش الذى تحطم - الآن - تمامًا. إن كان محظوظًا لأمكنه بالكاد إنقاذ بقية الإمبراطورية، لكن حتى هذا أصبح - الآن - موضع شك. فقوات بيزنطة قد تحطمت فى اليرموك فلم يبق لديه جيش هجومى، وحتى الشاردون من كتائبه الثانوية ارتبطوا

بحاميات صغيرة تناثرت عبر الشمال الأفريقى والبلقان والأناضول. فأصدر أوامره لكل من فى سوريا (الشام) بالالتحاق بالتشكيلات المغادرة معلنًا: «وداعًا» (إلى اللقاء) ياسوريا (الشام)» لقد أصبحت هذه البلاد الرائعة للعدو وكان لابد من إنشاء خط دفاعى جديد، ليس فى الرمال هذه المرة، وإنما فى جبال طوروس فى الأناضول. وسيبقى هذا الخط هو ميدان المعارك بين الثقافتين المتنافستين ـ بيزنطة العصور الوسطى، وخلافة المسلمين ـ طوال القرون الأربعة التالية.

معركة اليرموك واحدة من أكثر المعارك حسمًا فى تاريخ العالم، مع أنها لم توحِ بتكتيكات جديدة ولم تشهد أسلحة جديدة. وعلى أية حال، فهناك شىء ارتبط بها ـ شىء عن الرياح الصحراوية التى حطمت ثقة الإمبراطور. لقد شعر العرب أن الله كان يحارب إلى جوارهم فى هذه المعركة، وبدأ الإمبراطور البيزنطى يخشى من أن ذلك قد يكون أمرًا حقيقيًا. انغمس هرقل فى إحباط مرعب بالتفكير فيما جرى فى اليرموك أثناء مسيرته الطويلة عائدًا إلى عاصمته عبر الأناضول. لقد كان هرقل بالنسبة لشعبه لايزال بطلاً مرهوب الجانب، فقد كان هو الذى أنقذهم من طغيان Phocas، وهو الذى أنقذهم من الفرس وهو الذى كان قد أعاد للذاكرة فتوح الإسكندر وأعاد الصليب الحقيقى إلى القدس the true Cross to Jerusalem؛ لكن هرقل البطل كان أيضًا فى مرحلة انهيار عصبى. فزواجه من ابنة أخته (أو ابنة أخيه) يُعد من سفاح المحارم، بدأ يزعجه وأصبح يُصاب بالرعب من فكرة عبور الماء Crossing Water، فاستقر فى القصر الإمبراطورى فى هيرام Hieram على الجانب الآسيوى للبسفور، لكنه كان عاجزًا عن إصدار الأوامر بالرسو للتجديف مسافة قصيرة عبر القنال نحو الأسدين (التمثالين) اللذين يطلان على پورتا ليونيز Porta Leonis ـ البوابة التى تحمى المدخل المؤدى إلى المرسى الخاص بالأباطرة ويقع فى موقع آمن أدنى الأسوار العظيمة المطلة على البحر لقصر باكوليان فى القسطنطينية Constantinpole's Bucoleon Palace. وأخيرًا دبرت حاشيته أمر خداعه بأن جعلوه يستقل قاربًا مموهًا، حتى يستطيع الإمبراطور (المكسور) broken Emperor العودة إلى القصر الذى كان قد شيده قسطنطين الكبير.

كانت المعركة قد انتهت فى الشام فى اليوم الذى توقفت فيه العاصفة نهائيًا، وكان الامتداد الحقيقى لانتصار المسلمين قد غدا واضحًا فى أودية نهر اليرموك ووهاده. ووُجد ثيودور Theodorus أخو الإمبراطور من بين القتلى. وأعادت الجيوش العربية

احتلال دمشق وبعلبك وحمص بسرعة، وظلت هذه المدن من قلاع الإسلام حتى هذا الوقت لم تفتحها قوى غير مسلمة. ويُقال إن جيش المسلمين استُقبل فى بعض المدن البيزنطية فى الشام عند عودته إليها بالترحاب والأغانى والرقص والإطراء، وعبَّر الأهالى عن تفضيلهم لعدالة العرب وشرفهم (التزامهم بوعودهم) على ظلم الإمبراطورية البيزنطية وطغيانها. وكان هذا متوقعًا لأن هذه المدن، فى كل مكان بالشام، كانت مصممة على تجديد شروط التسليم الأولى وهى شروط كانت فى غالبها متهاودة متساهلة. كما كانت هذه المدن راغبة فى أن تزيح عن ذاكرة ساكنيها أنها رحّبت بالبيزنطيين لإقناعهم لهم بأنهم أتوا لتحريرهم من البرابرة العرب، منذ شهور قليلة مضت.

كما أن القادة العرب ـ من جانبهم ـ كانوا مقتنعين بالاعتراف أنهم هم أنفسهم الذين سحبوا حامياتهم، وليس من داعٍ لمعاملة هذه المدن وتلك القرى بالقسوة المعتادة باعتبار أهلها من المرتدّين.

أما المدن القليلة التى قاومت المسلمين، مثل قِنَّسرين Chalcihs (Qinnasrin)، فقد أصبحت تحت وطأة هجوم خالد ولحقها دمار كامل. وقبل انتهاء الخريف، اندفع فرسان خالد فى أراضى سهوب الشمال السورى وأسسوا القواعد العسكرية الأمامية للخلافة ـ مَرْسَه Marsah وأورفه Urfa وسَمْسَات Samsat. **وهذا الخط (خط المواقع العسكرية الأمامية) ما زال يميز الحدود اللغوية للعرب**، فإلى الشمال من هذه المدن (المواقع أو المخافر الأمامية الآنف ذكرها) تبدأ سفوح جبال الأناضول ـ حيث المنطقة التى أعاقت فيها الممرات الجبلية والقلاع الحجرية والغابات والبرودة الشديدة فى شهور الشتاء ـ تقدم فرسان الجيوش العربية.

وقد جرت معركة من هذا النوع خارج أنطاكية لكن الحامية البيزنطية أعفت نفسها وأنقذت شرفها (العسكرى) شيئًا ما، بهجران المدينة واحتمت بالجبال. وقد أتاح هذا لآباء المدينة (المسئولين الدينيين فيها) الفرصة لتلمُّس شروط مشرفة للتسليم من القائد العربى المبجل ـ أبو عبيدة، الذى أصبح يتلقى ـ الآن ـ التحية فى كل مكان باعتباره قائدًا أعلى. وبصرف النظر عن قلة من المدن الساحلية المحمية جيدًا مثل قيسارية، لم تبق إلا مدينة القدس المسورة بقيادة بطرياركها الجليل، سوفرونيوس، إذ صمدت هذه المدينة واستمرت فى مقاومة غزو المسلمين. وفى الخريف (لا أحد يستطيع أن يجزم إن

كان هذا فى خريف سنة ٦٣٦ أم ٦٣٧) بدأ البطريارك سوفرونيوس يتحقق من مدى عزلته وبدأ يسعى مضطرًا للسلام، لكن أسوار القدس كانت لا تزال قادرة على الصمود فدبر أمر الإصرار على ألا يسلم المدينة إلا للخليفة عمر بن الخطاب نفسه. **وقد لا يكون هذا سوى مجرد خُدْعة لكسب مزيد من الوقت يعكف خلاله على الصلاة والدعاء بحرارة، طالبًا من الرب إحياء الإمبراطورية (البيزنطية)، وقد كان هذا البطريارك معروفًا ـ وبأدلة ـ لدى اليونانيين** Greeks **(البيزنطيين) أنه مدافع متحمس عن الكنيسة وأنه ذو لسان يقطر عسلاً.** على كل حال، فقد وصلت الرسالة بسرعة إلى المدينة فركب الخليفة عمر فى ذلك الشتاء متجهًا شمالاً قاطعًا الصحراء، فوصل إلى تلال الجابية Jubaean hills فى فبراير سنة ٦٣٨.

وكان عمر قد أمر كل قادة جيشه الرئيسين بالالتقاء به فى معسكر الجابية. وعلى طول طريق قوافل التجارة القديمة التى ألفها لكثرة ما قطعها أثناء رحلاته التجارية كتاجر فرنسى، سار عمر، لكنه هذه المرة كان يحظى بترحيب وكلاء القبائل العربية من بادية الشام (السهوب السورية) باعتباره خليفة المسلمين القوى. لقد راحوا يحيُّونه على وفق طريقتهم المعتادة: التغنى بقصائد المديح، والعرضة (اللعب بالسيوف) والطبول والنسوة الخليعات الداعرات وهن يرقصن ويضربن الدفوف. واستاء عمر من هذا العرض وأمر حرسه بإيقافهم وإيقافهن فورًا ولو أدى هذا عند الضرورة لجلدهم ـ لكن جرى تنبيه عمر ـ بأدب ـ بأن هذا العرض الترحيبى إنما هو «عادة» اعتادوها وأن السكان إذا مُنعوا من الترحيب بالمنتصر، فإن معنى هذا أنه لم يقبل استسلامهم وأنه سيأمر حالاً بذبحهم. فاضطر عمر لركوب دابته وهو محاط بهذا الصخب المبهج الذى أحدثه هؤلاء المداحون المحترفون، ولا شك أنه كان ساخطًا متوترًا. وعندما اقترب عمر من معسكر الجابية خرج الجنرالات (القادة) الأربعة العظماء لاستقبال الخليفة العظيم الذى كان لايزال مرتديًا عباءته القديمة الرثة نفسها التى كان يرتديها بعد ترميمها (رَفْوها) بعناية طوال أكثر من عقد مضى. لقد كان المسلمون بقيادة الخليفة عمر قد دمروا الجيش البيزنطى وفتحوا كل الشام وفلسطين، والقدس ذاتها على شفا الاستسلام. لقد كان مقاتلو جيش المسلمين يتوقعون من عمر ثناء لا يزيد على كلمة أو كلمتين. يبدو أنهم نسوا عمر. لقد ألقى نظرة واحدة على عباءاتهم الشامية الفخمة وعلى خيولهم المزدانة بالسروج الجلدية الحمراء وغيرها من المشغولات الجلدية: فاستُثير تمامًا قائلاً: أتستقبلوننى وأنتم تلبسون مثل هذا؟! لم يمض سوى عامين. هل

تغيرتم فى هذه الفترة اليسيرة إلى هذا الحد! كلكم يستحق أن يلحق به العار. ويُقال إن خالدًا أجاب بأن خلع ملابسه العسكرية ليظهر درعه بما فيها من شقوق أحدثتها سيوف العدو طوال أربع سنوات من الحرب المتواصلة فى سبيل العقيدة. لابد أن هذا كان شاهدًا بليغًا أبلغ من أية كلمات على خدماته المخلصة، ولكن عمر بن الخطاب ظل ساخطًا غير راغب فى التسامح إزاء فسادهم وابتعادهم عن المثل الذى ضربه نبى الله. وما إن استقر عمر فى معسكر الجابية كانت سفارة من القدس المسيحية فى انتظار وصول الخليفة الذى وافق على شروط التسليم. وعلى وفق بعض الروايات فقد خلع الخليفة ملابسه الرثة المتقشفة وترك درعه - درع الفاتح الغازى، وارتدى لباسًا من الكَتَّان الأبيض، ذلك اللباس الذى يرتديه الحجاج. واقترب من بوابات القدس راكبًا جملاً أبيض كان قد ركبه وهو يعبر وادى الأردن. لقد جرى تخليد ذكرى مشهد بوابات القدس حيث تسلم الخليفة ذو الرداء الأبيض مفاتيح القدس من البطريارك ذى الرداء الأسود - فى آلاف من الرسوم المحفورة على الخشب واللوحات (البوسترات) والرسوم على المرايا. إن هذا رمز لانتقال السلطة. ذلك الانتقال الذى تغلغل بعمق فى الوعى الشعبى العربى.

واصطحب البطريارك هذا الحاج - الفاتح فى جولة داخل القدس مشيرًا لمواقعها الشهيرة، وبينما كانا يتفقدان الضريح المقدس Holy Seputure سمع عمر أذان الظهر، فرفض بوقار شديد دعوة البطريارك للصلاة فى المكان نفسه الذى هو واقف فيه وخرج فبسط سجادته وصلى فى مدخل الكنيسة Porch of the Church.وقد شرح موقفه هذا فى وقت لاحق بأنه خشى أن يحول المسلمون هذا المكان إلى مسجد فيما بعد بحجة أن عمر صلى فيه. لقد كان عمر على حق، فبعد أيام قليلة حول أتباعه مدخل الكنيسة إلى مسجد. لقد استمر المثال الذى ضربه الخليفة عمر والبطريارك حيًا طوال القرون. فالوالى المسلم الحاكم - باشا القدس - تشرف بحراسة البطريارك فى مذبح القبر المقدس فى كل سبت فى عيد الفصح (عيد بيساخ). وكانا يعاودان الظهور معًا وسط الجموع حاملين الشمعة المنيرة بشكل إعجازى، حيث توقد منها كل الشموع ونيران التدفئة أو الطهى فى كل المدينة (القدس) حتى يتم إطفاؤها قبل حلول عيد الفصح التالى.

وفى نهاية اليوم صحب البطريارك الخليفة عمر إلى الشُّرَف الخربة لمعبد سليمان القديم بوضعه الذى هو عليه بعد إعادة هيرود Herod بناءه. وهنا أشاروا لعمر إلى الصخرة المعروفة باسم «مركز العالم Navel of the earth» واعتُقد أنها كانت مكان ميلاد آدم وأنها المكان الذى رتل فيه داود مزاميره التى يسبح فيها الله ويحمده، ومن هذا المكان عُرج بالنبى محمد إلى السماء (خرج محمد النبى فى رحلته الإعجازية mystical إلى السماء). ووقف عمر ثابتًا (متحيرًا) وهو يتأمل هذا المركز غير العادى للقوة الروحية. وبعد ذلك بستين عامًا ـ فى سنة ٦٩٥ ـ جرى بناء قبة فوق الصخرة (قبة الصخرة). إنها بناء تذكارى وليست مسجدًا وهى ثانى الأماكن الدينية shrine قداسةً عند المسلمين، بعد الكعبة الكائنة فى مكّة. وبينما كان عمر واقفًا فى ردائه الوقور رغم بساطته متطلعًا مشرفًا على المدينة (القدس)، همس البطريارك باللغة اليونانية إلى أحد مساعديه الواقفين إلى جواره «لاحظ، ما قاله النبى دانيال عن رجس (مقت) الخراب الواقف فى المكان المقدس».

"Behold, the **Abomination of Desolation** spoken of by the prophet Daniel that Standeth in the Holy place".

هذه الفقرة التى يكثر الاستشهاد بها والتى همس بها البطريارك فقرة أثيرة لدى المؤرخين الغربيين والمرشدين السياحيين والتى يكثر ترديدها والاستشهاد بها، **تبدو لى دائمًا مثالاً غير عادى لازدواجية التفكير. لنترك جانبًا العقوق (نكران الجميل) الذى ينطوى عليه هذا الاستشهاد من قبَل سفرونيوس تجاه عمر بن الخطاب الذى أبدى احترامًا غير عادى للقدس وبطريركها وأماكنها المقدسة، ولدوره المتواضع بوصفه حاجًا**. وعبارة دانيال هذه، استُخدمت دائمًا لتطبيقها على الغزو الرومانى وتدنيسه للقدس بالصور المحفورة Graven والتى أدّت فى النهاية إلى تدمير المدينة والمعبد (الهياكل). **فعمر لا يستحق أن يكون رجس الخراب لأنه أزاح الورثة المباشرين للرومان وجلب معه عبادة دينية بلا صور (أو تماثيل)، لقد جلب معه عبادة الله، الإله الواحد مرسخًا إياها فى الأماكن المقدسة رافعًا من شأن سليمان، فهناك شك قليل فيما يبدو، فيمن يقصده دانيال برجس الخراب.**

ولما حلّ الغسق (أول الليل) على المدينة (القدس)، صلّى الخليفة عمر فى الطرف الجنوبى لحرم المعبد (الهيكل) القديم. وفى الشهور التالية قام هو ومقاتلوه بتطهير هذا

المكان من أكوام القمامة التى سبق أن وضعها المسيحيون فى مكان معبد (هيكل) اليهود المحطّم (★). فهذا المكان - من وجهة نظر المسلمين، يجب أن يحظى بالقداسة لأنه موضع المسجد الأقصى. وطوال سنوات عديدة شمخ المسجد هنا وظلّ واسعًا ممتدًا رغم بساطة بنيانه بناءً على رغبة سبق أن أبداها النبى ، ورغبة الخليفة. وبعد ذلك بثلاثين عامًا بالتمام كانت زيارة حاج مسيحى هو الأسقف (المطران Bishop) أركولف Arculf قادرة على إثارة السخط على عمارة المسجد المتواضعة جدًا إذ كان مشيدًا من جذوع النخل، رغم أن ٣٠٠٠ متعبد يمكن أن يتعبدوا فيه معًا. لم يأت بعد وقت الأسف الحقيقى على هذه الحال، لكن عندما أزال الأمويون إحساس المسلمين بالفخر لفقرهم، أو بتعبير آخر عندما أزاح الأمويون فكرة التقشّف باعتبارها مُثار فخر عند المسلمين - جرى التشييد بالحجر. وكان المسجد الذى شيدوه هنا ذا تاريخ مشئوم. لقد جرت إعادة بنائه سبع مرّات، رغم أن المبنى الحالى الذى لا يزال قائمًا بناه سلطان مملوكى فى منتصف القرن الرابع عشر.

وغالبًا ما يزعم الزاعمون أنّ الكنائس المسيحية المختلفة فى الشرق الأدنى قد رحبت بالفتح الإسلامى. أو أنهم كوّنوا طابورًا خامسًا ساميًا Semitic fifth Column. إنّ هذا، على أفضل الاحتمالات، مرفوض جدًا فى الوضع الحالى (الوقت الراهن). كان من المستحيل بالنسبة لأىٍّ من المدن العظيمة فى سوريا وفلسطين أن تتصدّى للجيش المسلم المنتصر. لقد كانت كل أسس الاستراتيجية العسكرية البيزنطية قائمة على أنّ المدن المسوّرة ستحاول الصمود فى وجه جيوش المسلمين حتى يصل الجيش الإمبراطورى (البيزنطى) لإنقاذها، لكن الذى حدث هو أنَّ الجيش الإمبراطورى قد تحطَّم: فى البداية وجدنا أنَّ الفيالق المحلية المتمركزة فى الشرق الأدنى قد لحقتها الهزيمة خارج غزّة وفى أجنادين ومن ثَمّ خارج دمشق، ما بين سنة ٦٣٤ و ٦٣٥ لكن المعركة الأكثر حسمًا والتى أدت لإبادة كامل الجيش البيزنطى كانت هى معركة اليرموك فى سنة ٦٣٦، فأخلى الإمبراطور أنطاكية وعاد إلى عاصمته، فلم يكن أمامه شىء يمكنه عمله إلاّ أن يحاول الوصول إلى شروط طيبة، فكما كتب حكيم مصرى منذ أجيال كثيرة مضت «فن المدن ليس أن تأخذ جوانبها» The art of towns is not to take sides.

(★) هى ذات الخرافة التى يروِّجها الصهاينة اليوم بخصوص هذا الهيكل المزعوم، وليس هناك هيكل فى الحقيقة، وإلا فقد مكثوا سنوات طويلة من الحفر فى هذا المكان بحثًا عنه دون جدوى، والغرض الحقيقى هو ما بات واضحًا من أنهم يريدون هدم المسجد الأقصى. (المعلق).

والأكثر مدعاة للخوف فيما يتعلق بمستقبل الإمبراطورية البيزنطية هو فقدانها المتوالى للمدن السّاحلية الكبيرة المسوّرة التى كان يمكن ـ نظريًا ـ إكمال ما ينقصها وتقديم الدعم لها بواسطة أساطيل يمكن أن تتردّد عليها لعقود. كانت الإمبراطورية (البيزنطية) فى هذه المرحلة تحارب على أربع جبهات؛ كل جبهة منها كانت تدعو لليأس كجبهة الشرق الأدنى. ففى البلقان وبلاد السلاف Slav والآفار Avars كان هناك اليونان التى تم اجتياحها، واللومبارديون Lombards اجتاحوا المواقع البيزنطية الحصينة فى إيطاليا، ومدن جنوب إسبانيا الثرية سقطت مرة أخرى فى أيدى القيسيقوط Visigoths، وقبيلة لواته فى الصحراء الأفريقية الكبرى كانت تُغِير على الشمال الأفريقى. وقلّما كان لدى الإمبراطورية البيزنطية ما يكفى من القوات لحماية القسطنطينية. وكان على كلّ ولاية أن تعيش من مواردها، أما بقية الإمبراطورية فتُركت لتصمد أو لتسقط. وأفضل الأحوال كان حال قيسارية التى صمدت أربع سنوات ـ بعد هزيمة الجيوش البيزنطية فى معركة اليرموك ـ فى وجه الحصار المستمر.

كان خالد ضروريًا طالما كانت جيوش الإمبراطورية البيزنطية باقية، لكن بعد انتصار المسلمين فى اليرموك شعر عمر أنه يمكن الاستغناء عنه. ربما شك عمر فى أن المقاتلين المسلمين شعروا بالثقة فى قيادة خالد أكثر من شعورهم بالثقة فى صلواتهم ودعواتهم. لقد كانت شهرة خالد باعتباره قائدًا عسكريًا قد فاقت بعد معركة اليرموك شهرة الخليفة نفسه. لقد جُرِّد خالد من رتبته وحل محله ـ مرة أخرى ـ أبو عبيدة الذى أصبح هو القائد العام وأصبح يزيد هو نائبه. وكان قبول خالد ـ بتواضع ـ لوضعه الجديد ـ مجرَّد مقاتل بين آلاف من المقاتلين العرب الفرسان ـ تصرفًا يدل على إيمانه بتصاريف القدر، مما أكمل صفاته الشخصية وجعله جديرًا بأن يكون فى زمرة أبطال العرب. وفى الأعوام التالية خدم فى الجبهة الشمالية بالتميز نفسه، وبالولاء نفسه لدرجة أنّ عمر بن الخطاب بدأ يندهش ويُحس أنه ربّما ارتكب خطأ فى حقه (حق خالد) فقال أمام الناس: «رحم الله أبا بكر. لقد كان يعرف معادن الناس أكثر منى. لقد وضع خالدًا فى المكان الصحيح» لكن ما لبثت الأخبار المخادعة تصل إلى عمر عن سلوك خالد وأنه يتصرف تمامًا مثل زعيم حرب فى العصر الوثنى (الجاهلى) وليس ـ أبدًا ـ كمقاتل أساسى من مقاتلى الإسلام. وهناك حكايتان أثارتا الخليفة ـ حكاية لَهْو خالد وعربدته فى حمّام بيزنطى كانت أحواضه مليئة بنبيذ مسخَّن heated، (★)وأكثر

(★) هذا مما يحتاج إلى تدقيق وما يقال من أن شهرته فاقت شهرة الخليفة نفسه مما أغاظ عمر، فعمر لم يكن على هذه الشاكلة من الرجال الضعفاء، إنما كان يصون قُوَّاده من أن يتملكهم الغرور. (المعلق).

من هدية أميرية مقدارها ألف قطعة من العملات الذهبية منحها لشاعر امتدحه بقصيدة يشيد فيها بأعماله. لقد جرى استدعاء خالد للمدينة ليُحاكم أمام عمر الذى طلب أن يعرف مصدر ثروته الطائلة هذه. وعاد خالد بعد ذلك للجبهة الشامية رجلاً مكسورًا، ليموت بعد ذلك بعامين مطوىّ الذكر فى وباء طاعون وصل معسكرات البدو الدائمة. ويمكن أن يكون قبره لا يزال قائمًا فى حمص حيث ووری الثَّرى إلى جوار زوجته فضة Fada. **وفى قرون متأخّرة جرى إحياء توقير Cult خالد وتبيان مزاياه الشخصية خاصة على يد بيبرس السلطان المملوكى، فى القرن الثالث عشر (الذى كان فيه الكثير من صفات خالد) وجرى اعتباره قدِّيسًا Saint (وليًا) صانع معجزات، يُطلق عليه بحماس وعاطفة دينية سيف الله، وهو اللقب الذى منحه النبى إياه لأوّل مرّة. والمسجد ـ الضريح الذى شُيد فوق قبره يرجع إلى العقد الأخير من الخلافة العثمانية، فى سنة ١٩٠٨ رغم أن النقش الجميل المنحوت على طراز نحت العصور الوسطى، قد تمّ نقله إلى متحف دمشق.**

وكان على أحد أعداء خالد فى ميدان المعركة أن يُعانى هو الآخر من عدالة عمر الصارمة غير المتحيّزة، ونعنى به جَبَلة بن الأيهم وهو أمير شديد الاعتزاز بنفسه من الغساسنة، وكان يحارب بولاء إلى جانب الإمبراطورية البيزنطية (ضد المسلمين) إلى أن كانت الهزيمة الماحقة فى معركة اليرموك، وبعد ذلك لم يجد جبلة ـ مع أعداد متزايدة من المسيحيين العرب فى الشام ـ خيارًا سوى اعتناق الإسلام. فركب جبلة إلى المدينة ليُعلن إسلامه أمام الخليفة عمر نفسه، مع أنه لم يكن يعرف عن تعاليم النبى محمد شيئًا، لم يكن يفهم معنى الأخوَّة الإسلامية وأنه قد أصبح مسلمًا بين مسلمين، لذلك فقد ثار عندما احتك به بدوى فى المسجد وكان رده عنيفًا على هذا البدوى البسيط، فضربه وأصاب عينه put out his eye، فاستدعاه عمر الذى لم يضع فى اعتباره أية اعتبارات دبلوماسية، وعرض على البدوى البسيط أن يلكم الأمير الغسّانى كما لكمه (أن يلكمه اللكمة نفسها التى لكمه إيّاها). وفى اليوم التالى ركب الملك الطريد ex-monrach (المقصود الأمير السابق) النّاقم خارجًا من الواحة (المدينة) مصطحبًا معه عدّة آلاف من أقربائه (الغساسنة) وتابعيه retainers ورجال القبائل الغسّانية. وتعرّض عمر بن الخطّاب للنقد لأنّه ضيّع هذا المتحوّل للإسلام ذا المكانة السامية وممثّل أسرة كان لها دور كبير جدًا فى السياسات العربية والتجارة والشّعر قرابة أربعمائة سنة. قاد جبلة بن الأيهم شعبه خارجًا من شبه الجزيرة العربية ليعيش فى منفًى دائم داخل

حدود الإمبراطورية البيزنطية ، ولما بلغ به العمر مبلغًا وهو يعيش لاجئًا فى محيط البلاط البيزنطى، تذكّر بأسى ما كان عليه من سؤدد فى أيامه الخوالى، فقال:

إنه الغضب الذى ملأ قلبى،
هذا الغضب هو الذى جعلنا مسيحيين مرة أخرى،
لقد امتعضتُ من هذه اللكمة فى الوجه،
فقد شعرت أننى لن أستعيد كرامتى بعدها،
آه، ليت أمى لم تلدنى،
ليتنى كنتُ نسيًا منسيًا،
كيف أشتاق لأرض آبائى،
كيف أتوق لدمشق بلاد جِنْسى (العربى).

وبعد ثلاث سنوات من فتح القدس، ركب عمر بن الخطاب مرّة أخرى خارجًا من المدينة ليزور معكسر الجابية للمرّة الثانية. وكان قد دعا للاجتماع به كل القادة الرئيسين فيما عُرف (بيوم الجابية)، رغم أن هذا الاجتماع استمر ثلاثة أيام انتهى بالقسم على ما عُرف بالعهد العمرى ahd Omar. ورغم أنَّ العبارات الفعلية للعهد قد فقدت الآن القوة التى كانت تساندها سلطة عمر ووضوح رؤيته، إلاّ أنها وضعت أساس نظام سياسى وعسكرى استمر لقرون ـ حقيقة إنه يشكل المجتمع العربى والمسلم حتى أيامنا هذه.

وكان هناك أيضًا أسباب أخرى ضاغطة وعاجلة وراء عودة عمر لزيارة الجابية. ففى سنة ٦٢٨ عادت الإمبراطورية البيزنطية أخيرًا لتهاجم. لقد بدأت فى شنٍّ غارات بحرية وسرعان ما احتلت أنطاكية **فى الوقت نفسه الذى قامت فيه القبائل المسيحية بتمرد فى بادية الشام**، فقاتلها المسلمون لكن هذا كان يعنى اتساع الجبهة الصحراوية مما يهدّد بقطع الاتصالات وعزل جيش المسلمين . وكان الوضع فى العام التالى (٦٣٩) أسوأ . لقد أشرف وسط شبه الجزيرة العربية على المجاعة إذ أُصيب بجفاف شديد قاسٍ وتعقدت الأزمة أكثر فأكثر: لأن عددًا كبيرًا من الرجال بالإضافة لجِمالهم وخيولهم كانوا بعيدين بسبب وجودهم على جبهات القتال، لذلك لم تكن هناك وسائل لتوزيع الإمدادات (المؤن) العاجلة، وفى المدينة، يروى الرواة كيف أن عمر نفسه كان

يحمل أجولة الغلال (الحبوب) لتوزيعها على الفقراء، وكيف أنه حرّم على نفسه ـ أثناء المجاعة ـ تناول الزبد والعسل حتى يشارك شعبه بعض ما يعانونه.

وفى سنة ٦٣٩ أيضًا، ضرب وباء الطاعون بشدّة معكسرات الجيش البدوى العربى الكثيف والمعوّل عليها خارج حمص التى كانت هى القاعدة المركزية للحملات العسكرية التى جرت مؤخّرًا. لقد حصد الطاعون من الحاميات العربية عشرات الآلاف فى غضون أشهر قلائل، أى أكثر مما فقده العرب فى ساحات القتال. وكان من بين من ماتوا أبو عبيدة الذى كان موضع ثقة عمر طوال حياته، وسرعان ما مات أيضًا يزيد، القائد الثانى (بعد أبى عبيدة) . أما معاوية الماهر، أخو يزيد الأصغر، فكان قائدًا رائعًا Superb Commander يتحلى بصفات الزعامة التقليدية (زعامة المدرسة القديمة old School). كان ودودًا وصبورًا ومتفهمًا، لقد كان يعلم أن جنوده العرب لابد من استشارتهم ثم حثّهم (دفعهم) وإلاّ استحالت قيادتهم قيادة ناجحة. لقد عبّر معاوية عن نفسه (سياسته) شارحًا إيّاها بقوله إنه لا يستخدم سيفه طالما كان سوطه يكفى، ولا يستخدم سوطه طالما كان لسانه يكفى، وإذا كان بينه وبين أحد شعرة ما قطعها، فإن شدّها أرخاها، وإن أرخاها شدّها. وكانت يد معاوية ممتلئة he had his hands full. لم يكن على معاوية أن يحرس (يحمى) الحدود الجديدة مع بيزنطية فحسب بل كان عليه أيضًا أن يكون حَكَمًا ويفصل فى النزاعات، (فتسيَّد وربح فى النهاية) بين القبائل فى الأمور الطارئة التى جرت فى سنة ٦٣٨. لقد كانت القبائل البدوية التى سبق أن طال مقامها وترسّخت أوضاعها فى بادية الشام مثل جذام وكلب تغار بشدَّة من فيالق جيش المسلمين التى توغلت فى الشام. وكانت هناك أيضًا قبيلة بدوية قوية هى قبيلة بنى تغلب، رفضت التحوّل من المسيحية إلى الإسلام، ورفضت أيضًا أن تدفع الجزية poll tax التى يعنى دفعها أنهم شعب (مفتوح) (أو مهزوم Conquered) وكان عمر قد رفض تمامًا أن يقدّم لهم أية شروط خاصّة، **لكن معاوية كان واعيًا تمامًا بالوضع الاستراتيجى الذى يتمتع به بنو تغلب (خاصة بعد بداية الهجوم البيزنطى المضاد) فراح ـ أى معاوية ـ يوفق ليصل إلى حل وسط يحفظ لبنى تغلب مكانتهم بأن سمح لهم بدفع عُشرين (أى ضعف ما يدفعه المسلم (العُشر) دون أن يطلق على ما يدفعونه لفظ جزية أو ضريبة رأس)**. ولم يكن عمر وحده الذى يعتقد أنّ أخا يزيد الأصغر قد أثبت بالفعل جدارته فى أن يكون قائدًا ممتازًا، وعلى هذا فقد تم تعيين معاوية مكان أبى عبيدة، أى أنه (أى معاوية) أصبح هو القائد الأعلى فى الشام.

لقد أثبتت الحرب الأخيرة ـ أيضًا أنّ معسكر الجابية الجاثم فوق الجبهة بين الأراضى المنزرعة وأراضى الرعى (التى كانت هى القاعدة التاريخية لملوك الغساسنة) لم تكن مفيدة كل الفائدة لأغراض الدفاع. لقد بقيت ـ نظريًا ـ مركزًا محوريًا للقيادة؛ لكن هناك أربع حاميات مساعدة (إضافية) تمركزت فى مواقع استراتيجية حول الشام وفلسطين.. أحد المعسكرات جرت إقامته بجانب دمشق لتهيمن على جنوب سوريا (الشام)، ومعسكر آخر بجوار حمص (الاسم القديم هو إمسًّا Emessa) لتهيمن على سوريا الشمالية، مع قاعدة أخرى عند طبريّة لتشرف على نهر الأردن، بينما تحرس الحامية الرابعة فلسطين من موقع اللد Lysdda القديم، رغم أن هذا الموقع الأخير قد تم إلغاؤه لتحل الرّملة محلّه.

لكن فوق هذه الترتيبات التكتيكية العاجلة ووراءها، رغب الخليفة عمر فى وضع مخطط لكيفية التصرف فى المستقبل. كان المبدأ الأول **الذى أخذ به عمر مرتبطًا بالفصل Separation. فجيش الفتح العربى لابد أن يبقى منعزلاً عن الشعوب المفتوحة فى منطقة الشرق الأدنى، فلا يساكنهم مقاتلوه فى مدن أو قرى ، ولا يشاركونهم فى زراعة الأرض إذا أدّى هذا لأن يُسمح لهم (أى لأهل البلاد) بالاندماج مع قرويّى فلسطين وسوريا والأردن. ولابد أن يبقى مقاتلو الجيش العربى بمنأى عن الفساد بابتعادهم عن شرب المُسْكرات والغناء والرقص مما يمثل تراثًا لأهل البلاد (المحلّيين Locals)، وإنما عليهم أن يشكلوا نخبة عسكرية فعّالة مخلصة لعقيدة الإسلام ومخلصة لارتباطها بتراث البداوة العربية، ومستعدة للانطلاق فورًا عند أية إشارة.**

أما سكان سوريا وفلسطين ـ وكان معظمهم من المسيحيين، مع وجود تجمعات يهودية قديمة بينهم، فقد أصبحوا من دافعى الضرائب مع إعفائهم من الخدمة العسكرية demilitarized tax payers . لقد كان على أهل الذّمة (أى الذين تشملهم حماية العرب بناء على اتفاقات بينهما) أن يدفعوا ضرائب سنوية وفى أعوام لاحقة قُنّنت (قُيّمت) كعُشْر tithe عوائد الأرض (خَرَاج) بالإضافة لضريبة الرأس (الجزية) السنوية، ورغم هذا الأساس النظرى الواضح فقد كانت هناك اختلافات محلية كثيرة. فضريبة الرأس (الجزية) عادة ما كانت تقوم على أساس تنازلى (على أسس كفة ميزان منزلقة): أربع عملات ذهبية (دنانير ذهبية، وكان الدينار يزن وقتها أربعة جرامات) تُفرض على كل تاجر ثرى. وديناران على أصحاب المحلاّت Shopkeeper، ودينار على العامل الفقير. ورغم الصورة الشائعة والتى ثبتت فى التصور العام عن أن الفاتحين

العرب قد وصلوا إلى البلاد التى فتحوها وقد حمل الواحد منهم السيف فى يد والقرآن فى اليـد الأخـرى، فإن هـذا لا ينـطبق إلاّ بـاعتبـاره مجـازًا أو استعارة أو تعبيـرًا بلاغيًا، لا يمكن استـخدامه إلاّ فى إطار الحـديث عن حـروب الـردّة، **فلم يـكن هـذا هـو الحـال بـالنسبة لفتح سوريـا وفلسطين. فلم تكن هنـاك محـاولة لتحويل أهل الكتاب للإسلام فقد تم تقويمهم منذ البداية كمصدر من مصادر الضرائب، وكان هنـاك تعمّد لإبعادهم عن المسلمين (جعلهم منفصلين عن المسلمين)** (★).

والمبدأ العظيم الثانى الذى أخذ به عمر هو أن تبقى كل أراضى البلاد المفتوحة فى أيدى أصحابها (★★) باعتبارها موردًا لدولة المسلمين غير قابل لنقل ملكيته in ali-enable. ورغم أن الممتلكات المنقولة ـ كالبشر والمواشى ـ التى استولى عليها مقاتلو الإسلام المنتصرون اعتُبـرت غنائم حرب لهم حقوق عليهـا، لكن عمـر لم يجعل لهم الحقوق نفسها على أرض البلاد المفتوحة. **فالحقول والبساتين وأراضى المراعى إنما هى لـدول المسلمين الجماعيـة (دولة جماعة المسلمين the collective Muslim state) ويستحيل أن يُسمح باستقطاعها لخلق أرستقراطية جديدة من مُلاّك الأراضى العرب،** بالطريقة التى حدثت (بعد ذلك) عند فتح النورمان إنجلترا أو عند إقامة المستوطنة الإنجليزية فى فيرجينيا Virginia. بدلاً من هـذا، فإن ثروة هذه الأراضى تُحسب بالقيمة النقدية لعوائدها السنوية من أعشار وإيجارات وضرائب، ليُعد هذا العائد السنوى وقفًا دائمًا (منحةً دائمةً) perpetual endowment أو فَيْئًا يخص كل جماعة المسلمين، ويتم الإنفاق منه على الفقراء والمسنّين والأرامل ـ ناهيك عن المقاتلين المسلحين، بمعنى أن هذا الفىء لا يخص المقاتلين وحدهم.

وبعبارات عملية، فإنَّ كل هذا يعنى أن جيوش المسلمين العرب كان عليها أن تقيم كتائبها أو فيالقها معا بوصفها جيوش الإيمان (الإسلام) مقيمة (متجمّعة) فى معسكرات، وليس لها (لأفرادها المقاتلين) أن يتناثروا عبر الأراضى (المفتوحة متجوّلين

(★) الصورة السائدة : «السيف فى يد والقرآن فى اليد الأخرى» لا يمكن أن تكون صورة صحيحة حرفيًا. فالقرآن لم يكن قد كتب حتى الآن، وحتى لو كان قد كتب فلا يمكن أن يكون هناك عدد كافٍ من النسخ ليحمله كل واحد من هؤلاء المقاتلين الكثيرين. وهناك ملحوظة أخرى، فالقرآن لا يمكن حمله فى يد غير طاهرة (غير نظيفة) وباليد اليسرى، وفى حالة حمل السيف باليد اليمنى فلا مناص من أن يكون المصحف محمولاً باليد اليسرى، إلاّ إذا كان هناك عدد كبير من المقاتلين العرب يستخدمون فى الأساس أيديهم اليسرى.

(★★) هنا يبرز المؤلف مشكورًا إنصاف الإسلام والمسلمين فى عدم مصادرة الأراضى ونقلها إلى الفاتحين، ثم إنه لم يفرض جزية كبيرة وهنا رحمة الإسلام وعدالته بأنه لم يبن مدنه على ثروات الغير المنهوبة بالحرب كما فعلت دول استعمارية كثيرة. (المعلق).

كمحدثِى النعمة. فالموارد الجديدة العائدة من الأراضى المفتوحة ستُسلم لخزانة الدولة المركزية ومن ثَمّ يتم توزيعها لدعم جماعة المسلمين. وكانت النتيجة الملازمة لهذه السياسة الآنف ذكرها أن يُصمم عمر بن الخطاب، أيضًا، على أن يُبقى على الصحابة متمركزين فى المدينة وألاّ يسمح لهم بأن يصبحوا طبقة حاكمة فى أماكن مشتّتة فى البلاد الجديدة المفتوحة. لقد شرح موقفه هذا علنًا بقوله إنه لن يُعين الأشخاص المبرّزين (الصحابة) فى مناصب عليًا بسبب ما يتحلون به من قيم وفضائل... مخافة أن يقعوا فى زلاّت أو هنات Lapse فيفقدوا مكانتهم (لدى المسلمين).

وسرعان ما أثبت معاوية جدارته فأحكم الحصار على ميناء قيسارية المُسوَّر فاستسلم فى العام التالى أى فى سنة ٦٤٠، بعد أن طال الحصار عدة سنوات. وقد علّمته التجربة التى اكتسبها من حصار قيسارية الطويل بسبب تلقّيها مددًا ودعمًا من جهة البحر، أن البيزنطيين لن يُهزموا هزيمة نهائية إلاّ إذا تعلّم العرب أن يخوضوا ضدهم حروبًا بحرية. لم تكن الخبرات البحرية الكبيرة للعرب الذين عاشوا على طول سواحل اليمن والخليج العربى Persian Gulf قد شاركت بفاعلية مع قريش مكة. وعلى حد قول واحد من معاصرى معاوية، فقد كانت السفينة إذا رست خلعت قلب العربى (الذى لم يألف البحر) وإذا تحركت ألهبت الخيال. فوق ظهرها تتضاءل قوة الرجل ويزداد سكونه، فالناس فوق السفينة يبدون كالدود على فرع شجرة، فإن دارت واهتزت بشدة سقطوا من فوقها، وقد منع عمر بن الخطاب واليه الشاب (معاوية) على سوريا من التخطيط لأية فتوحات عن طريق البحر رغم أنه سمح له بأن يبنى ـ بالتدريج ـ أسطولاً دفاعيًا خاصة بعد الاستيلاء على Acre، مما أتاح له موضعًا مزودًا بشكل جيد تمامًا لبناء السفن وإصلاحها. **واعتمد معاوية على الحرفيين وخبراء بناء السفن وإصلاحها من القوى العاملة المسيحية فى سوريا. ولم يعتمد معاوية على أهل سوريا وفلسطين فى الأمور البحرية فحسب، فقد كان طبيبه الخاص وشاعره من المسيحيين، كما كان مسئول الأمور المالية لديه هو منصور بن سرجون الذى حوّل مواهبه والعاملين المهرة الذين كانوا معه من خدمة بيزنطة إلى خدمة الخلافة الإسلامية. واختار معاوية أيضًا مسيحية لتكون زوجة له، ونشأ ابنه يزيد (من زوجته ميسون) فى هذا البلاط العالمى (متعدد الأديان والأعراق) وقد نشأ بين أصدقاء طفولته. وكان القديس يوحنا الدمشقى هو حفيد منصور المسئول المالى الرئيس فى بلاط معاوية.** ورغم أن معاوية تطلّع طويلاً لفرص تُتاح لشن غارات بحرية فى النطاق الشرقى للبحر المتوسط، إلاّ أنه

ألزم نفسه بتعليمات عمر بن الخطاب، وبدلاً من هذا رتب هـجومًا سنويًا ضد المواقع البيزنطية على الجبهة السورية الشمالية فى بلاد الرومان (الروم). لقد اندفعت جيوشه ضد الجبهتين القديمتين لكل من الإمبراطوريتين؛ الفارسية والبيزنطية.. وعلى شاطئ الفرات الأعلى كانت القلاع القديمة والمدن المدمّرة والأسوار المنهارة نتيجة لواحدة من أقدم المعارك الأرضية فى العالم.

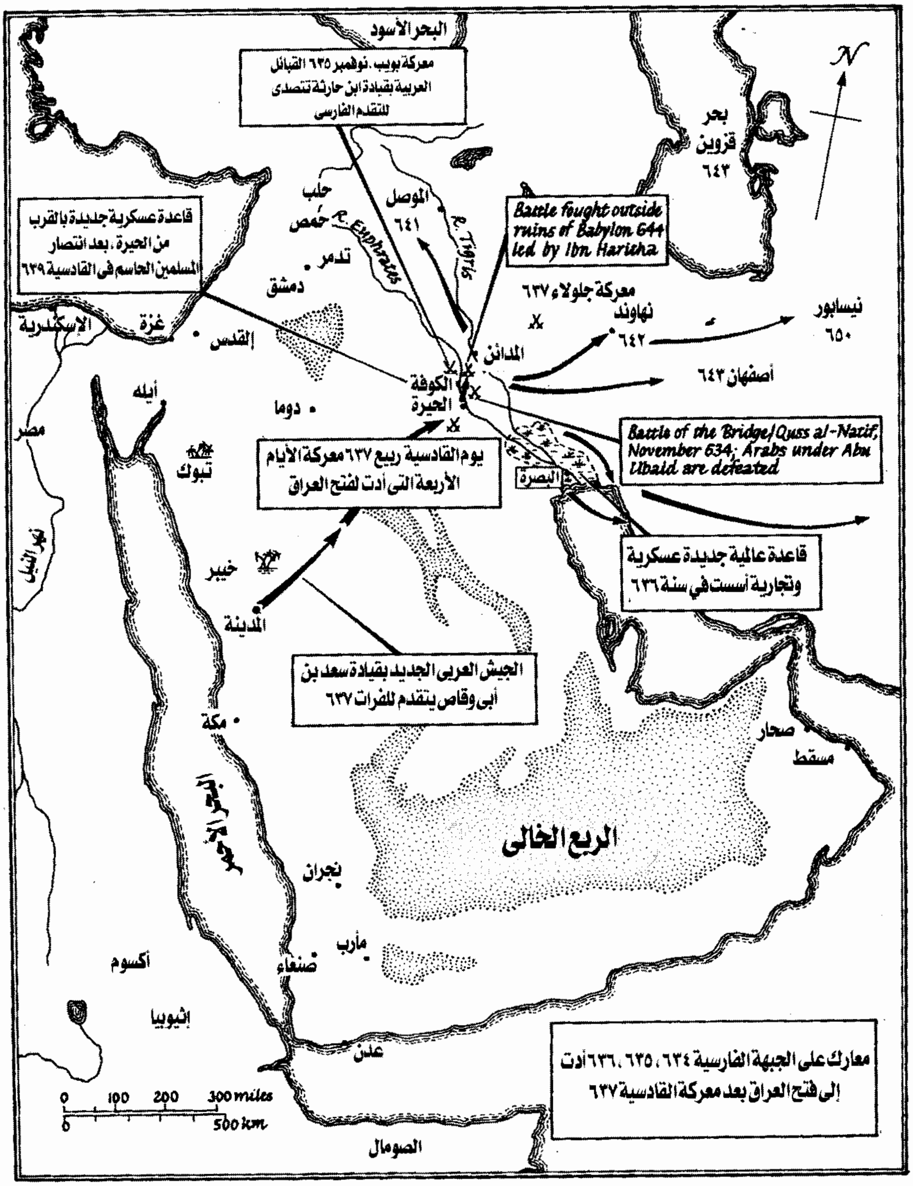
ولابد ـ الآن ـ أن نركز اهتمامنا مرة أخرى على الجبهة الشرقية لشبه الجزيرة العربية لنبيّن كيف أنّ جيوش الخليفة قد حقّقت معجزة ثانية بغزو الجبهة الفارسية. سنترك الآن معاوية على رأس القيادة فى الشرق الأدنى فى سنة ٦٤٠ لنعود إلى أحداث العراق بين سنَتىْ ٦٣٤ و ٦٤٠ .

كان النبى محمد وقبيلته قريش ومدينة مكّة تعنى دائمًا الكثير بالنسبة لأمور سوريا البيزنطية أكثر مما تعنى بالنسبة لولاية العراق التى كان الفرس يقبضون على زمامها. فقد كان التوجّه العام لقريش وأهل مكة هو طَرْق الطرق المؤدية للشمال حيث بُصرى Bostra وغزّة ودمشق أكثر من طرْق الطرق المؤدية للعراق، وقُل الشىء نفسه بالنسبة للتحالفات القبلية القديمة. فالعراق بتربته السوداء الكثيفة ونهريه العظيمين والبنية القديمة لشعوبه وما به من مزيج معقّد من المعتقدات الدينية ونظم الرّى ـ كل هذا بقى بالنسبة للمسلمين الأوائل مفعمًا بالأسرار والغموض الباطنى. لقد حقّقت غارة خالد الناجحة على الأراضى العراقية الحدودية بعد النهاية الموفقة التى وصل إليها المسلمون بعد حروب الردّة، تحالفًا محليًا بينهم وبين قبيلة بنى بكر. وما إن اشتعل الموقف العسكرى فى سوريا وفلسطين فى سنة ٦٣٤ حتى أمر أبو بكر بوقف الحرب فى العراق. وفى فترة غياب خالد، أُلقيت مسئولية القيادة (فى هذه الأنحاء) على عاتق المُثنّى بن حارثة وهو زعيم عشيرة من قبيلة بنى بكر، وكان المثنّى واحدًا من الشخصيات غير العادية أبدى كل صنوف الشجاعة والنّبل بأكثر مما كان العالم يتوقّعه من عربى بدوى. ذلك لأن كل طبيعته البطولية لابد أن تذكّرنا بأن اختياره كممثّل للإسلام كان اختيارًا غريبًا وشاذًا، فإن حارثة قد تأخر إسلامه كثيرًا (لقد أسلم بعد فترة من حروب الردّة) ولم يكن تحوله للإسلام إلاّ لإعجابه بقيادة خالد بن الوليد، ولعداوته (عداوة المثنّى) القديمة للإمبراطورية الفارسية. وكان ابن حارثة ـ كما عرفنا فعلاً ـ هو الذى سبق أن ربح جوائزه (مكافآته) بوصفه محاربًا شابًا عندما دافعت قبيلته ـ بشهامة ـ عن حريم

وأموال ملوك لخْم (الملوك اللخْميين) الذين وثقوا فى حمايتهم. ورغم أن ما قامت به قبيلته تحت ألوية (رايات) اليرموك لم يكن كثيرًا، إذ لم يتعدَّ المناوشات إلاّ أن معركة يوم ذى قار التى تعود لسنة ٦٠٦ استدعاها كل العرب لذاكرتهم بفخر باعتبارها معركة صدَّ فيها العرب لأول مرّة جيشًا إمبراطوريًا فارسيًا. ورغم هذا التراث المروى، فإن رجال القبائل العرب الذين تطوّعوا للحرب تحت راية الإسلام كانوا غير راغبين فى الذهاب إلى الجبهة الشرقية (الفارسية)، مفضِّلين التطوع لخوض الحرب فى سوريا (الشام).

وبعد مغادرة خالد وجيشه متجهين إلى الجبهة السورية، فى ملحمة عبورهم الصحراء راكبين فى سنة ٦٣٤ أُوكل أمر صد أية هجمات فارسية لابن حارثة وقبيلته. وقد أنجز هذه المهمة القتالية بأن خاض معركة خارج خرائب بابليون، وحدث أن استخدم الفرس فيلاً من أفيال الحرب، مما أثار الرعب فى نفوس المقاتلين البدو عند رؤيته، فما كان من ابن حارثة نفسه إلاّ أن قاد فرقة من المقاتلين الفرسان وقذف هذا الحيوان المخيف برمح أصاب عينه فأرداه. وأتاح الانتصار فى بابليون للعرب الاستيلاء على قلعة الحيرة والسيطرة على شاطئ الفرات. وبعد هذا النصر الصغير سمع ابن حارثة معلومات مقلقة من العاصمة الفارسية، ذلك أنَّ الإمبراطورية الفارسية وقد أنهكتها الحروب المتواصلة طوال عشر سنوات، قد أعادت توحّدها أخيرًا تحت حكم الملك الصبى يزدجرد والوصى على عرشه رُستم الذى خطّط للاحتفاء بهذه الوحدة الجديدة بالهجوم على العدو الخارجى ـ العرب. وليُظهر ابن حارثة خطورة التهديد اتجه على عَجَل إلى المدينة لمناشدة أبى بكر الغَوْث، وتمكن من مقابلة الخليفة رغم أنه ـ أى الخليفة أبا بكر ـ كان بحلول شهر أغسطس سنة ٦٣٤ صائمًا، وكانت أخبار انتصارات المسلمين فى الأراضى المقدسة (الشام) تسيطر على خيال كل الناس. ودعا عمر بن الخطاب القائد ابن حارثة لمخاطبة المسلمين بعد الصلاة : وركز ابن حارثة فى حديثه على وفرة الغنائم والأسلاب لأولئك الذين يسيرون فى طريق الله وحاربوا ضد عبّاد النيران، ولتشجيع هؤلاء المتحمسين للإسلام أعطى عمر قيادة هذه الحملة لأول متطوّع وهو أبو عُبيْد ـ من قبيلة ثقيف من الطائف.

وأثبت أبو عُبيْد شدّة حماسه، وقاد جيش المتطوعين شرقًا فوصل إلى حافة الصحراء وشواطئ الفرات فى أكتوبر سنة ٦٣٤. وسمح القائد الفارسى ـ قاصدًا ـ لأبى



معارك على الجبهة الفارسية ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦ أدت إلى فتح العراق بعد معركة القادسية ٦٣٧

عُبَيْد (الثقفى) أن يقود جيش المسلمين دون أن يعترضه عبر النهر عبر جسر من القوارب. وتلاقى الجيشان: العربى والفارسى، فى أراضٍ زراعية غمرتها المياه فى وسط العراق. وهنا كان العرب فى وضع سيئ أو بتعبير آخر فى ميدان غير ذى مزايا بالنسبة لخيولهم وصعب على العرب المناورة، فكان لابد من التراجع لتفادى العدو، ولكنهم ـ بدلاً من ذلك ـ غاصوا فى المستنقعات وعجزوا عن التقدم فى أرض (ميدان) مناسبة لكتائب المشاة الفارسية. ومرة أخرى وجدنا مع الفرس أفيالاً، ومرة أخرى وجدنا شجاعة القائد العربى تلعب دورًا، فقد كان أبو عبيد (الثقفى) على رأس قوة هاجمت هذه الحيوانات (الأفيال) الرائعة كثيفة التسليح. وأصدر تعليماته للرجال بأن خرطوم الفيل هو نقطة الضعف فيه، وليثبت هذا عدا بفرسه بخفة عَدْوًا خفيفًا وراء أحد الأفيال وحاذاه مقتربًا منه ليضرب خرطومه ضربة قوية بسيفه العريض، لكن الشاب أبا عبيد وجد نفسه وقد أُطيح به خارج سرجه، وارتفع عاليًا فى الهواء ليسقط على الأرض قبل أن يلفظ أنفاسه على هذه التربة السوداء. وتحمّس المشاة الفرس، فبدءوا فى دفع المقاتلين العرب للخلف (أجبروهم على التراجع) إلى المستنقعات المجاورة لنهر الفرات. وتمركزت المعركة ـ الآن حول السيطرة على الجسر المكون من قوارب عبر النهر. فى المرحلة الأولى قطع الفرس هذا الجسر، لكن المسلمين أعادوا السيطرة عليه، وسرعان ما أصلحوه. وقام ابن حارثة (الذى تولّى القيادة مرة أخرى بدلاً من أبى عبيد، بحكم الظروف) بالصمود ـ آخر صمود ـ بتصميم شديد أمام الهجمات الفارسية المتجدّدة، مما أتاح الفرصة للجيش العربى بالانسحاب بأمان إلى الصحراء رغم أن العرب خسروا ثلث قواتهم أى حوالى ثلاثة آلاف مقاتل فى هذه المعركة ـ معركة الجسر التى تُعرف أيضًا بمعركة قِس النَّاطِف ـ فى ٢٠ نوفمبر سنة ٦٣٤.

ورغم هذا الانسحاب الدموى كان ابن حارث قادرًا على التشبث بالجبهة الصحراوية التى انسحب إليها مع جيش المسلمين طوال فصل الشتاء وطوال فصل الربيع التالى. كانت الأخبار القادمة من الجبهة السورية مشجّعة جدًا (كان هذا قبل معركة اليرموك وإنما فى عام الانتصارات الثلاثة: وادى عربة وداثن وأجنادين) حتى إن المتطوعين بدءوا يتوافدون بكثرة على معسكر ابن حارثة. انتهى الصيف دون مناورات مجدية، فقد حاول القائد الفارسى جَرْجرَة العرب مرّة أخرى ليعبروا الفرات، بينما كان ابن حارث مُصرًا على أن يكون ميدان معركته مع الفُرس هو الصحراء. كانت العاصمة اللخميّة القديمة (عاصمة قبيلة لخْم) ونعنى بها الحيرة، هى محور العجلة التى يدور حولها كلا

الجيشين. وأخيرًا فى نوفمبر سنة ٦٣٥ التقى الجيشان فى ميدان البُويب (الكلمة تعنى تصغير باب) حيث أُغرى الجيش الفارسى إلى الشرق من الفرات وتقدم فى الصحراء (كذا بالأصل الإنجليزى) كان الجيشان متكافئين بشكل ملحوظ، لكن جيش المسلمين هنا كان على عكس جيش المسلمين فى الشام إذ كان يحارب كقبائل، كل قبيلة تحت قيادة قائد منها (تحت قيادة شيخ قبلى) أى بالطريقة التنظيمية القبلية التقليدية. وفى مرحلة حاسمة من مراحل هذا اليوم، عندما بدا أنَّ ثلاثة فيالق فارسية متقدمة قد تقطع الطريق على الجيش العربى، وضع ابن حارث نفسه على رأس بنى نمير وبنى تغلب، وهما قبيلتان بدويتان مسيحيتان معتزتان بمسيحيتهما وعروبتهما، ودعاهما للانتماء لعروبتهما حتى لو لم يكونا من المسلمين، فقاد بهما هجومًا مضادًا عنيفًا ضد فيالق الفرس المتقدمة. وفى هذه المهمة كان من بين القتلى أخو ابن حارث وشيخ قبيلة بنى نمير، لكن موتهما لم يكن عبثًا إذ حقق ابن حارث الهدف؛ إذ كسر بسرعة مقدمة الجيش الفارسى وحاصر الجسر عند مؤخرته.

وكما توقع ابن حارث، فقد تشتت الفرس أولاً ثم بدءوا فى الانسحاب المنظم ليعيدوا الاستيلا على الجسر، لكن فى هذه الأثناء حدث تعطيل مرعب وفوضى فى خطوطهم. وبحلول الغَسَق (ظُلمة أوّل الليل) كان القتلى الفرس المكوّمون على زمام الجسر وعلى طول شاطئ الفرات والمتناثرون عَبْر السهوب المحيطة، يُعدّون خير شاهد على أنّ العرب قد ثأروا ثأرًا مناسبًا لهزيمتهم السابقة فى معركة الجسر (والتى سبق أن تحدثنا عنها آنفًا).

وفى صبيحة اليوم التالى، جلس ابن حارث على كليم (سجادة) بسيطة كانت نسوة عشيرته قد نسجنها، ليتلقَّى التهانى من زعماء القبائل الحليفة، على أرض المعركة. لقد كانوا جميعًا، طوال السنوات الماضية، يشكون بمرارة يودون أن يحاربوا (يخدموا to serve) إلى جوار زعيم (شيخ) قبلى من بنى بكر، أما الآن فهناك الزعيم الجليل (الشيخ الوقور) لبجيلة وبنى تغلب والأزد والزعيم (الشيخ) الجديد لبنى نمير ـ كل أولئك يتزاحمون متقدمين نحوه لتقبيل يده ومباركة قيادته المُلْهَمَة. وأثناء الليل، ضمّدت سَلْمى، زوجته البدوية، جروحه الجديدة، ولاحظت بفزع أن جروحه التى أصابته منذ عام مضى قد فُتحت من جديد ـ تلك الجروح التى أصابته بينما كان يدافع عن جسر القوارب فى الفرات. إنها جروح غير قابلة للشفاء. وبعد الانتصار لم يكن أمام ابن

حارث سوى تدبر المواجهة التى كانت بين الجيشين، وأرسل مرة أخرى وهو على فراش الموت إلى عمر بن الخطاب يطلب منه إرسال مزيد من المقاتلين. وأصدر ـ أيضًا ـ تعليماته لأحد إخوته الباقين فى قيد الحياة ليحمل لواء (راية) المعركة، وتلك كانت وصيته لمن حمل الراية بعده: لا تحارب العدو إلاّ فى الصحراء. ففى الصحراء ستحقق الانتصار، وحتى لو لحقت بك الهزيمة فستجد أصدقاء وأُسرًا وعوائل (عشائر وقبائل) وراء ظهرك، فلا يستطيع الفرس تعقُّبك هناك، ومن هناك يمكنك أن تعود لتهاجم مرّة إثْر مرّة. ذلك هو تفسير ابن حارث للنجاحات المدهشة لفتوح المسلمين فى القرن السابع.

وبحلول شتاء سنة ٦٣٦ بعد انتصار المسلمين الحاسم فى اليرموك، شرع الخليفة عمر فى البدء فى تحريك قوّات من سوريا وفلسطين ـ تلك المناطق المفتوحة حديثًا ـ إلى العراق. وفى لحظة اقترح أن يقود هو نفسه الجيش التالى خارجًا به من المدينة، إلاّ أنَّ مستشاريه سرعان ما أثْنوه عن ذلك، ومن ثَمّ تم اختيار سعد بن أبى وقاص البالغ من العمر أربعين عامًا. وكان سعد من المتقدّمين فى الإسلام، وكان قريبًا للنبى محمد، وكان أول من رمى (فى سبيل الله) وقد ضمنت أسبقيته فى الإسلام ألاّ يحس أحد من مشايخ القبائل المحليين، بغضاضة فى أن يعمل تحت قيادته. وبحلول ربيع سنة ٦٣٧ تجمع ـ ببطء ـ جيش للمسلمين قوامه حوالى ١٠ آلاف مقاتل، بقيادة سعد بن أبى وقّاص فى أراضى مراعٍ غير متواصلة المرعى فى الصحراء إلى الجنوب من الفرات (فى المنطقة التى تُعرف الآن باسم الكويت). هذا الجيش غلبت عليه عناصر من القبائل اليمنية الكبرى التى تجمعت بأعداد كبيرة فى المدينة تحت زعاماتها القبلية التقليدية. واستمر عمر فى اتباع التقليد الذى سنّه النبى بتقديم نفحات مالية tipping للقادة الكبار وهدايا من فضة، رغم أنه فى هذه الأيام التى شهدت الانتصار والتضخّم (المالى) كان مبلغ ٢٠٠٠ درهم مبلغًا مقبولاً.

وحالما بدأت المناوشات بين الجيشين مرّة أخرى، يمكننا التغاضى عن الخلط بين المعركتين فى العراق، لأن نهر الفرات ظل مرّة أخرى هو الجبهة، ومرة أخرى أيضًا كانت الحيرة (ڤيردون Verdun) فى بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا ـ فى القرن السابع) هى المحور الذى تمحورت حوله المناورات المعقدة للقادة (الچنرالات) المتنافسين. لكن هذا الوقت كان وقتًا خطرًا عصيبًا أكثر مما سبق، فقد أصبح الجيش الفارسى الميدانى كله

الآن تحت قيادة الجنرال (القائد الفارسى) رُسْتُم. لقد اتّسم كلا القائدين دائمًا بالتصميم (المشاكسة)، وقد وضع كلا الطرفين كلَّ ما لديهما من طاقة لخدمة هذه الجولة القتالية التالية والتى ربما كانت تعنى بالنسبة للفرس حوالى ٣٠ ألف جندى على الجبهة تساعدهم ميليشيات تبلغ ١٠ آلاف . التشابه مع معركة اليرموك يمكن إيجازه، لكن ليس أقلها أن المعسكر الإمبراطورى يمكنه أن ينتصر لمجرد تمسكه بالأرض (عدم الانسحاب)، فالجنرال القديم رستم كان يفهم هذا الوضع تمامًا، رغم أن سيّده الشاب، الملك يزدجرد، اندفع اندفاعًا مستمرًا، لتحقيق نصر حاسم وتكتيكات هجومية. ودبّر رستم أمر عدم التقدم طوال فترة القتال أثناء فصل الربيع، مع إحداث تعويقات واضطرابات، بل وأرسل مندوبين ـ لكنه أخيرًا خضع لأوامر الملك (يزدجرد) وعبر الفرات فى شهر يونيو، ضد رغبته وضد تدابيره الأكثر إحكامًا.

واستغل سعد هذا الوقت أحسن استغلال وكان جيشه مكونًا فى الأساس من اليمنيِّين الذين ألِفوا التضاريس المختلفة لهذه الأنحاء من شبه الجزيرة العربية، ونظم القبائل وجعل منها وحدات ألِفت تلقّى الأوامر. لقد كان نموذجًا لميجور جنرال معاصر، أو بتعبير آخر لقد كان مثالاً لقائد عام فى عصرنا الحديث، لكنه فى يوم المعركة فقد معظم وقاره الشخصى بين العرب باتخاذه مكانًا لنفسه فى قلعة القادسية القديمة. لقد كان منظرًا رائعًا ذلك الذى تبدّى من هذه القلعة التى اختارها لمتابعة ميدان المعركة، كما كانت هذه القلعة مركزًا طيبًا للاتصالات، لكن لم تكن هذه الطريقة هى التى قاد بها ابن حارث جيشه. وقد زعم سعد فى وقت لاحق أنه كان يُعانى من آلام مرض عرق النّسا (العصب الوركى) ، لكن لا رجاله ولا زوجته سلمى كانوا مقتنعين بهذا، فراح جنوده البدو يتغنّون بأغنية قصيرة تحوى هذه المعانى:

إنا نحارب صابرين

آملين من الله النصر

بينما سعد ينعم بالأمان

بين أسوار قلعة القادسيّة.

وبينما كانت سلمى (أرملة ابن حارث) تُحنق (تعيّر) زوجها الجديد بأن راحت تعلن مندهشة مكررة قولها: أين أنت يا ابن حارث؟! ساعة منك تكفى يا ابن حارث! آه..

وأسفاه لقد غاب المثنَّى! وغضب سعد فصفعها على وجهها فى نوبة غضب وغيرة، ودفع بها بعيدًا.

لقد كانت معركة القادسية معركة لا ينساها التاريخ العربى، إذ مثَّلت اشتباكات حربية عنيفة ـ إنها بالنسبة للمسلمين كمعركة بورودينو ومعركة واترلو. لقد أثبت كل من سعد ورُستم براعتهما فى السيطرة على أعداد هائلة من المحاربين. فقد شهد اليوم الأول من القتال أحداثًا جسامًا لكن صفوف المقاتلين، سواء على الجانب الفارسى أو العربى لم يُلاحظ فيها ضعفٌ. وفى صباح اليوم التالى كان الجيشان العملاقان يتصادمان مرّة أخرى بعد أن أخليا ساحة الميدان من قتلى الأمس وجرحاه. وفى منتصف اليوم الثانى للمعركة انضم للجيش العربى مدد قوامه ستة آلاف رجل قادمين من جبهة سوريا (الشام)؛ مما أضفى حيوية على الهجمات العربية، لكن بحلول الليل كان من الواضح مرة أخرى أن أيًا من الجيشين؛ العربى والفارسى، لن يتخلّى عن ميدان المعركة. وتكرر هذا فى اليوم الثالث للقتال رغم أن كلاً من الجيشين قد خسر حوالى ثلاثة آلاف قتيل فى أيام القتال الثلاثة هذه، ولم يكن العرب بقادرين على تحمل هذه الاحتكاكات (الاشتباكات المتواصلة) ولا الصبر عليها رغم ما كان يأتيهم من مدد.

إلاَّ أنَّ الاشتباك الحاسم كان فيما أُطلق عليه ليلة الرعب night of fury مع أنَّ هذا لم يكن بتخطيط من أىٍّ من القائدين. لقد كان هجومًا تلقائيًا شنّه المقاتلون البدو بالروح التى سادت شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فقد تنادى المقاتلون البدو ودعا بعضهم بعضًا للثأر لمن قُتل من إخوانهم. لقد قام هؤلاء البدو بهجوم مرعب إثر هجوم مرعب آخر وهاجموا المعسكر الفارسى فى ضوء القمر، بل ألهمتهم هذه الهجمات (الناجحة) بدرجة كانت كافية لمعاودة الهجوم مع ضوء الفجر، وعلى كل حال فالظن أنه قد سقط بالفعل حوالى ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) عربى. وفى إحدى هذه الهجمات العنيفة التى جرت بعد حوالى أربعة أيام من القتال المستمر فى حرارة لا تُطاق ـ حرارة الصحراء العربية ، فتحت هذه الهجمة فجأة ثغرة فى مركز Center القوّات الفارسية وتم التعرّف على رُستم ـ ذلك الجنرال القديم ـ وتمّ قتله، ونجح العرب عندئذ فى أن يشقّوا طريقهم إلى النهر وراء الجيش الفارسى وتمكن جناحا القوات الفارسية من الانسحاب بنظام طيب على نحو معقول، لكن الخسائر الفارسية فى يوم القادسية كانت كبيرة مذهلة. وإن كان الحال بالنسبة للجيش الفارسى فى معركة القادسية مختلفًا عن

الحال بالنسبة للجيش البيزنطى فى اليرموك. لقد تحطّم الجيش البيزنطى ولم ينهزم فقط، أما الجيش الفارسى فقد انهزم ولم يتحطّم. وكان الملك يزدجرد قد قرَّر أن يحرّك الجزء الأكبر من جيشه الباقى فى قيد الحياة، وأسرته وأمواله التى يستطيع حملها - إلى منطقة آمنة فى فارس نفسها. وكان لابد من إعداد جبهة قتالية جديدة عند سفوح جبال زاجروس؛ فهى تشرف على سهول بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) الطمييَّة (تشكل هذه الجبهة الجديدة خطًا قريبًا على نحو أو آخر من الحدود الحالية بين إيران والعراق)، أما العراق فقد أصبح يتعيّن على الفرس إخلاؤه الآن.

وقد اضطر العرب، حتى بعد انسحاب الفرس، للبقاء فى مُواقعهم دون تقدم، فلم يستطع سعد أن يصدر أوامره بالتقدم، حتى للاستيلاء على مدينة الحيرة القريبة.

وراح سعد - من جانبه - يتقدم بحذر شديد مبالَغ فيه داخل أرض العراق كثيرة المياه، وحتى طوال هذه المسافة القصيرة يشعر المرء بمدى الخشية التى تلبّست المقاتلين العرب وهم يتقدمون شرقًا فى أرض زراعية كثيفة السكان كثيرة النخيل والخيام التى أقامها آلاف المشتغلين بالزراعة والذين ألفوا العمل الشاق. لقد تحقّقوا - لكن ببطء - أنهم - وهم بدو الصحراء الفقراء - قد أصبحوا الآن سادة هذه البلاد الزراعية الواسعة التى هى سلّة خبز العالم القديم، وأنهم أصبحوا الآن ورثة أكثر الابتهالات (والصلوات) التى أخذت بها الإمبراطوريات؛ سومر والكلدانيون Chaldea وبابل وأشور وفارس و Se-leucia وپارثيا (بلاد البارثيين) والساسانيّون.

لقد اقتربوا بتردد (يقدمون رِجْلاً ويؤخرون أخرى) من أسوار مدينة Seleucia الهائلة ذات الألف عام (تلك المدينة الناطقة باليونانية والآرامية) ذات المركزى التجارى الواقعة على الضفة الأخرى قبالة العاصمة الفارسية الساسانية الرسمية - كتيسيفون أو طيسفون Ctesiphon (المدائن) التى تشغل الضفة الغربية لنهر دجلة وتقع على بعد حوالى عشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقى من مدينة بغداد الحالية. وبينما كان سعد يُعْمِل عقله فيما يجب عليه عمله إزاء أسوار Seleucia ، وصلته تقارير بأن المدينة قد تم إخلاؤها من سكانها الذين استخدموا قوارب للعبور إلى الجانب الآخر، وبعد ذلك بعام، وعلى الضفة الشرقية لنهر دجلة حاصر العرب بشكل فعّال طيسفون (المدائن) العاصمة الإمبراطورية الإدارية العظيمة، ليجدوا مرّة أخرى الأسوار المنهارة (ومن بداخلها) تستسلم لهم. كانت كنوز هاتين المدينتين (عادة ما كان يعرفها عرب هذا الوقت

باسم المدائن) تفوق الوصف وتتعدّى حدود خيال الجيش العربى، ولما كانت ولاية إثر ولاية تخضع للعرب، فإنهم ـ أى العرب ـ وجدوا من المستحيل أن يطبقوا مبدأ الفتوح الإسلامى: التحول للإسلام أو القتل، على هذا العدد الهائل من السكان الوثنيين، فتم الاعتراف بالزرادشتيين (عبدة النار) باعتبارهم أهل كتاب (نظريًا وليس عمليًا، فالقرآن لم يذكر أنهم أهل كتاب) وتم السماح لهم بدفع جزية سنوية annual tribute مقابل احتفاظهم بدينهم، تمامًا مثل جيرانهم من المسيحيين واليهود.

وفى هذا الخريف وجدنا الجيش الفارسى ـ الذى كان قد انسحب إلى جبل زاجروس ـ يبدأ فى شنّ هجوم مضاد. أمّا وقد اتبع سعد الأوامر التى تلقّاها من عمر ابن الخطاب، فقد أرسل جيشًا من المسلمين متواضع العدد قوامه ١٢ ألف رجل، للتصدّى للهجوم الفارسى (المضاد) وقد نجح هذا الجيش فى إيقاف الهجوم الفارسى لكن بعد أن تكبّد خسائر فادحة، وعلى هذا كان لابد من إرسال تعزيزات لدعمه. وانتصر هذا الجيش العربى انتصارًا حاسمًا فى تلال جلولاء، وبعدها طارد القوات الفارسية صاعدًا وراءها فى الممرّات الجبلية فى فارس ذاتها. لقد ثبت أن انتصار العرب فى جلولاء كان قادسيّة ثانية، إذ فتحت الطريق للمسلمين كى يحتلوا (يفتحوا) الهضبة الفارسية ذاتها. ولم يكن تقدّم العرب سهلاً بمعنى أنهم لقوا مقاومة من الفرس أثناء تقدّمهم، فقد بقى عشرون عامًا أخرى أمام العرب، من الحروب المتواصلة قبل أن يتمكن جيش المسلمين من الاستيلاء على العاصمة الفارسية القديمة پارسيا (پيرسيپولس Persepolis)، وبعدها لم يعد أمام الملك يزدجرد سوى أن يقاوم طوال أيام حياته.

لقد كان الانتصاران الحاسمان ضد الإمبراطوريتين: الانتصار الأول على بيزنطة فى معركة اليرموك فى الشام، ثم الانتصار على فارس فى القادسيّة فى العراق، قد أعادا صياغة شبه الجزيرة العربية صياغة كاملة. لقد كانت تلك الأيام، أيام مجد وعظمة حقًا، فأعظم إمبراطوريتين فى العالم القديم قد هُزمتا فى ميدان المعركة.. وأثبت الإسلام وجوده ليس فقط فى قلوب الناس، وإنما على صفحات التاريخ أيضًا. ولم يعد المتشككون يتشككون. لقد حان وقت التحوّل الجماعى للإسلام عندما حارب تحت رايات الإسلام آخر البدو الوثنيين بعد تحولهم نصف تحوّل للإسلام، وكذلك القبائل المسيحية التى كانت قبل ذلك معادية للمسلمين.. بل إن أحد فيالق الحراسة فى الجيش

الفارسى، يبلغ عدده ٤٠٠٠ رجل أعلنوا ولاءهم - بشكل جماعى - للخليفة. ووجدنا فى الفترة نفسها قسمًا آخر من ٤٠٠٠ مقاتل يهبطون - راكبين - من تلال العراق الشمالية للتعهّد بالولاء (السمع والطاعة). ومن المناسب أن نذكر أن هؤلاء الرجال كانوا هم أول أكراد يعتنقون الإسلام بناء على رغبتهم دون أن يجبرهم أحد (ظهر منهم بعد ذلك أبطال مسلمون مثل صلاح الدين). وكان العرب يطلقون على هؤلاء الحلفاء الجدد اسم «الحُمر» أو الناس ذوى اللون الأحمر، وقد ضُمّوا إلى جيش المسلمين كمَوَالٍ تكفُلهم إحدى القبائل العربية. وفى هذه المرحلة كان من المبكر جدًا بالنسبة لهؤلاء المسلمين الأوائل، أن يفهموا الإسلام كما أنهم لم يكتسبوا الهُوية العربية تمامًا (حقيقة إن هذه المشكلة لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه).

وفى البداية، حَوَّل سعد صالة الاستقبال الكبرى التى كان يستخدمها الملوك الساسانيون فى طيسفون (المدائن) إلى مسجد جامع وأسَّس مقرًا إداريًا ومعسكرًا لجيشه فى قصور الساسانيين نصف المنهوبة، وكلها تقع حول الصالة الكبرى (التى لاتزال باقية حتى أيامنا هذه). وراح عمر بن الخطاب يُصدر التعليمات - تباعًا - لسعد، بضرورة ألا يقيم جيش المسلمين الفاتح فى طيسفون (المدائن) بين الأثرياء وبين أهل العراق المتعدِّدى الأعراق مما يشغلهم - أى العرب - ويُلهيهم. لقد أراد عمر أن يؤسس قاعدة جديدة لجيش المسلمين عند الجبهة الصحراوية القديمة لشبه الجزيرة العربية، وعلى وجه التحديد فى الكوفة، التى لا تبعد سوى ميلين ونصف عن الحيرة عاصمة اللَّخميين القديمة ذات الأسوار الصخرية. وبالقرب من هذه المدينة الجاذبة (التى تشبه فى جذبها للمقيمين العرب حجر المغناطيس فى جذبه للحديد) أقامت الحامية الرسمية، فتمت الاستعاضة عن الخيام المصنوعة من الوبر الأسود - تدريجيًا - بأكواخ البوص والتى ستُستبدل بها بعد ذلك بيوت من قوالب الطوب الطينى، على وفق ما تردّد من تراث نبوئى (ألْفى) متعلق ببلاد الرافدين (ميزوبوتاميا).

وكان لابدَّ أن تكون الكوفة أيضًا مؤسسة إسلامية واضحة المعالم، على العكس من الحيرة المليئة بالكنائس. وشغل المسجد الجامع الذى يمكن أن يستوعب المصلين من الجيش كله قلب الكوفة (وسطها)، وقام أحد المحاربين بتحديد محيط المسجد بأن راح يقذف سهمه على وفق اتجاهات البوصلة (الأربعة) ومن هذه النقاط الأربع التى حددها السهم المقذوف حدد المسلمون مربَّعًا وأحاطوه بخندق ملىء بالمياه، وأصبحت الأرض

داخل هذا الخندق مخصصة للعبادة. وفى الأعوام التالية جرى نزع أعمدة الرخام المناسبة من قصور الحيرة وكنائسها وأديرتها ونقلها لإكمال بناء مسجد الكوفة. لقد رفعت (أُقيمت) هذه الأعمدة مرة أخرى لدعم القسم المسقوف على طول جانب واحد بعرض المسجد (٢٠٠ ذراع). وهذا الجزء المسقوف يتيح ظلاً يقى من حرارة شمس الظهيرة، ويتيح مكانًا لتعليم القرآن والاجتماعات. وكان من حق المتعبّد أن يدخل هذا المسجد من أىّ جانب رغم أنَّ دار الإمارة سرعان ما أُقيمت فى الجانب الجنوبى الشرقى من المسجد. وكان هذا محاكاة لما فعله النبى الذى كان يسكن إلى جوار المسجد فى المدينة، ذلك المسجد (النبوى) الذى كان مكانًا للصلاة ومكانًا للاجتماعات ومكانًا للضيافة .. وبعد أن سرق اللصوص من خزانة الدولة العامة (بيت المال) فى الكوفة، أصدر الخليفة عمر مرسومًا (قرارًا) أن يكون بيت المال من الآن فصاعدًا تحت مراقبة المسلمين the faithful. فى الأعوام الأولى للإسلام، كان بيت المال مُقامًا فيما يشبه المقصورة (أو السرادق pavilion) فى وسط صحن المسجد الجامع (ما زال هذا التقليد معمولاً به فى المسجد الأموى بدمشق) وهذا رمز كامل يدل على انفتاح المجتمع الإسلامى الأول، وإمكانية المحاسبة فيه.

وأُقيم أيضًا معكسر جنوبى بديل آخر للعرب المسلمين فى البصرة، نظرًا لأنه قد صاحبت نشوة الانتصارات الأولى قدر كبير من الفوضى. فالقبائل العربية البدوية غير المنضبطة كانت غير منحازة للإسلام تمام الانحياز وإنما كانت عواطفها موجّهة نحو الغارات المستمرة التى تدر غنائم كثيرة، على الأراضى الزراعية فى العراق. وفى حالات أخرى بدأت جيوش صغيرة مكوّنة من مسلمين سلفيين Orthodox Muslims حقيقيين (غير زائفين) بفتوح على مسئوليتهم، غير عابئين بالتأخير الحتمى من قِبَل السلطة المركزية فى المدينة ـ الخليفة. وبسبب احتلال مركز العراق (وسطه) وجدنا أن موجات الفتوح العسكرية تخرج من هذا المركز نحو المرتفعات الشمالية ونحو المستنقعات الجنوبية. وكانت البصرة ذات موقع جيد كقاعدة للفتوح فى هذه المناطق الأخيرة (المستنقعية)، كما كانت قاعدة جيدة لشن الغارات على طول السّاحل الفارسى. لقد ظهرت البصرة فى البداية باعتبارها مركزًا بديلاً للإسلام، لكن سرعان ما شملتها رعاية عمر واهتمامه رغم أن تنافسها مع الكوفة ظل قائمًا وحيًا. وانتعشت البصرة بسبب الحروب، لكن أيضًا بسبب علاقاتها التجارية الطيبة بالخليج العربى Persian Gulf والمحيط الهندى؛ مما ساعد على استمرار طبيعتها المعقدة متغايرة الخواص. لقد

ظهرت البصرة فى فجر الإسلام باعتبارها المدينة الخامسة من حيث الأهمية السياسيَّة والروحية، جنبًا إلى جنب مع المدينة ومكة ودمشق والكوفة.

وظهرت مراكز حَضَرية urban عظيمة أخرى فى هذه الفترة سيكون لها دور حاسم فى سياسات بواكير الإسلام. فالفسطاط (التى منها تطورت ـ ونمت ـ القاهرة الحديثة) هى سادس مدن الخلفاء. أمَا وقد تناولنا فتح العرب للشرق الأدنى البيزنطى ومن ثَم العراق الفارسى، فلابد أن نتناول بعد ذلك الفتوح فى اتجاه الغرب تناولنا فتح العرب لمصر، لنعود مرة أخرى لتلك السنوات الأولى الباهرة العامرة بالإنجازات بين عامَىْ ٦٣٦ و ٦٤٥ .

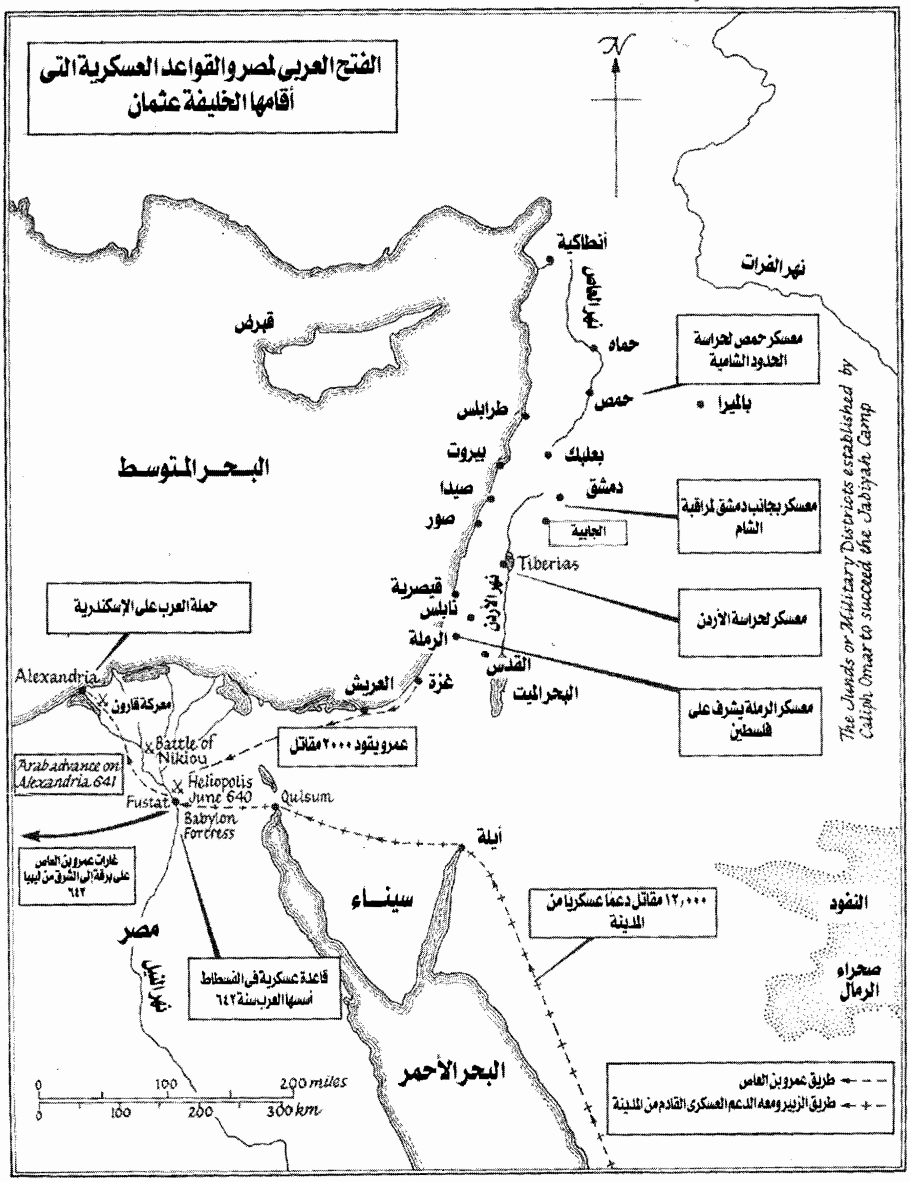
ففى سنة ٦٣٦ كان حاكم مصر البيزنطى، يسعى لدى الخليفة عمر للتوصل إلى هدنة لمدة ثلاث سنوات حتى لا يكون مصيره كمصير فلسطين وسوريا ـ المجاورتين له ـ اللتين سقطتا وأصبحتا تحت الحكم العربى بعد معركة اليرموك. لقد دفع ضريبة trib-ute كبيرة لتحقيق هذا السلام، لكن لابد أن نتصور أنه ـ بلا شك ـ كان يأمل أن تتفكك جيوش المسلمين وتخوض فيما بينها حروبًا أهلية قبلية أو أن تلقى الهزيمة على أيدى الفرس. لكن أيًا من هذين الأملين لم يتحقّق رغم الهجوم البيزنطى المضاد فى سنة ٦٣٨ ورغم ما شهده عام ٦٣٩ من طاعون ومجاعة. وفى سنة ٦٤٠، انتهى ميعاد هدنة الأعوام الثلاثة بين الخليفة وحاكم مصر البيزنطى، فأعطى عمر الإشارة بالتقدم لشن غارة استكشافية (غارة لجسّ النبض) ضد مصر، تقوم بها حامية المسلمين فى فلسطين، لكن عمر عاد فغيّر رأيه مفضلاً القيام بهجوم منظّم فى الجبهة الشمالية، فأصدر التعليمات بتقدم جيشين منفصلين من جيوش المسلمين لمهاجمة الأناضول البيزنطية، وكان على أحد الجيشين أن يصل إلى ولاية سيليسا Cilica (إلى الجنوب الشرقى من تركيا) .

وكان على الجيش الآخر أن يغزو جبال أرمينيا (إلى الشمال الشرقى من تركيا)، وبالتالى لم يعد غزو مصر محل نظر من الناحية الرسمية (لم يكن على الأچندة الرسمية)، رغم أنه كان من الواضح الآن أنَّ هناك تفكيرًا غير واضح المعالم عن مقاصد عمر بن الخطاب من الغارة (على مصر). وكان عمرو بن العاص الذى كان على رأس جيش المسلمين فى فلسطين قد صمَّم أن يضغط ويحث لإتمام هذه الغارة على مصر،

فقد كان عمرو بن العاص يخشى أن يُستبعد من هذه المهمة ليحل محله معاوية القائد الأكثر شعبية فى الشمال السورى، كما كان عمرو يخشى ـ أيضًا ـ أن يمتد سخط dis-approval عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد إليه (أى إلى عمرو بن العاص) لأن كليهما ليسا من المتقدّمين فى الإسلام، كما كان من الزعامات القبلية الوثنية فى مكّة قبل الإسلام. وكان هناك شىء صارخ ووثنى ـ يتعذر إصلاحه أو إنكاره ـ عن عمرو الذى كان له بنيان ـ وكاريزما ـ الأخيليين Achilles أو الـ Alcibiades والتصق به نسب غامض باعتباره مجلوبًا. **وكانت أم عمرو فتاة مشهورة بجاذبيتها لدى بدو عنِزه، وكان قد تمّ استرقاقها، واشتراها من سوق عكاظ شيخ (زعيم) قرشى تاجر، بثمن باهظ. وعملت محظية فى المنطقة التى تُقيم فيها، وكانت تتقاضى أجرًا عاليًا، وأخيرًا حصلت على حريتها (تم عتقها) رغم أنها يوم حملت بعمرو كانت عشيقة ـ فيما يُشاع ـ لستّة من رجالات مكة المهمّين (نُبلاء مكة).**

وعلى هذا، فعمرو بن العاص قبل أن يتلقّى الأوامر التى كان يتوقعها والتى تمنعه من التقدم لفتح مصر منعًا تامًا، تقدم بالفعل (دون تلقّى أية أوامر) على رأس ألفين من المقاتلين البدو، معظمهم من قبيلة عك Akk من جنوب الحجاز. وحتى لو وضعنا فى اعتبارنا انتصارات المسلمين السابقة المدوّية، فيبدو أن هناك شيئًا غامضًا (سرًا) **فكيف استطاع عمرو بهذه القوّة الصغيرة التخطيط للسيطرة على بلاد واسعة كمصر؛ كثيفة السكان إذ كان عدد سكانها يصل إلى الملايين،** وبها حامية قائمة دائمة **يصل عدد مقاتليها إلى ٢٥ ألفًا**. وكانت عاصمة مصر هى الإسكندرية المحصّنة تحصينًا جيدًا، إذ كانت تقبع آمنة خلف أسوارها والخندق المحيط بها، وهى محروسة (محمية) أيضًا بالبحيرات الداخلية والبحر وأسطول بحرى مقيم. وكان فى مقدور الإسكندرية بأسطولها ومراسيها الثلاث الاتصال دون عوائق ببقية أنحاء الإمبراطورية البيزنطية. وكانت الإسكندرية أيضًا مدينة مسيحية ذات قداسة كان لها دور مشترك فى الرهبانية.

فسقوط مصر غالبًا ما يوصف على وفق بعض الرؤى الأولى لنظرية الدومينو dom-ino التى اخترعها الاستراتيجيون الأمريكيون للهند الصينية ـ Indo - China. ففى البداية سقطت سوريا (الشام) وفلسطين، ومن ثمّ جاء دور مصر. وهذا يفسّر كيف أن الغربى (الأوروبى) قد يظن أن قابلية مصر للسقوط راجع لأنها (جزء) من صحراء شبه الجزيرة العربية. إنها إذًا ـ على وفق هذا التفكير ليست مصر (التى نعرفها)، فمملكة



الفتح العربى لمصر والقواعد العسكرية التى أقامها الخليفة عثمان
N
أنطاكية
نهر الفرات
نهر العاصى
قبرص
حماه
معسكر حمص لحراسة الحدود الشامية
حمص
بالميرا
طرابلس
بيروت
بعلبك
البحر المتوسط
صيدا
دمشق
معسكر بجانب دمشق لمراقبة الشام
صور
الجابية
Tiberias
قيصرية
نهر الأردن
معسكر لحراسة الأردن
حملة العرب على الإسكندرية
نابلس
الرملة
القدس
Alexandria
العريش
غزة
البحر الميت
معسكر الرملة يشرف على فلسطين
معركة قارون
Battle of Nikiou
عمرو يقود ٤٠٠٠ مقاتل
Arab advance on Alexandria 641
Heliopolis June 640
Fustat
Quisum
Babylon Fortress
أيلة
غارات عمرو بن العاص على برقة إلى الشرق من ليبيا ٦٤٢
سيناء
١٢,٠٠٠ مقاتل دعما عسكريا من المدينة
النفود
مصر
صحراء الرمال
قاعدة عسكرية فى الفسطاط أسسها العرب سنة ٦٤٢
نهر النيل
البحر الأحمر
0 100 200 miles
0 100 200 300 km
طريق عمرو بن العاص
طريق الزبير ومعه الدعم العسكرى القادم من المدينة
The Junds or Military Districts established by Caliph Omar to succeed the Jabiyah Camp

النيل القديمة كانت تعرف كل ما تحتاج إلى معرفته عن البدو وعن الغارات التى يشنّها قاطنو الصحراء. حقيقة إن هذه الغارات الصحراوية كانت إحدى الحقائق الأساسية فى الحياة العسكرية المصرية طوال آلاف السنين. فليست هناك أية منطقة سهلة للانتقال بين زمام الزراعة الكثيفة على طول النيل والصحراء المحيطة به. ليس هناك فى أى مكان آخر على الأرض مثل هذا التناقض الحاد بين الأرض المزروعة، وأرض الرعى، فغالبًا ما يكون الفاصل بينهما لا يزيد على خطوة واسعة. وغالبًا ما لا تكون هناك جبهة طويلة مفتوحة للدفاع بتركيز تفصيلى. **فلابد أن يكون الدفاع دائمًا فى العمق (أى انطلاقًا من المناطق ذات العمق فى الداخل). كانت مصر تحتاج دائمًا للسيطرة على الصحراء المحيطة بها لحماية النيل، لذا فقد شيّدت حصونها للسيطرة على الطرق المعتادة للاقتراب من النيل،** وكذلك على الآبار والأسواق الصحراوية والمحاجر والمناجم الواقعة فى كل من الصحراء الليبية (الغربية) والصحراء الشرقية. **ولم تتغير المتطلبات العسكرية اللازمة لذلك إلاّ قليلاً. فالأسوار التى بناها جيش رمسيس الثانى هى التى حدّدت ـ بعد ذلك ـ مسيرة الفرس، والعسكر المقدونيين فى جيش بطلميوس والمعسكرات الناطقة باللاتينية التى أنشأتها الفيالق الرومانية والتى أنشأها القادة البيزنطيون. فولاية مصر البيزنطية كانت تحظى بحماية جيدة. فكيف إذًا استطاعت مجموعة مكونة من ألفين من البدو خارجين من شبه الجزيرة العربية أن تشن غارة على مصر فتصيبها بالرعب وتُفقدها وعيها؟ وعلى هذا لابد من التساؤل: ماذا حدث؟**

لقد دخل عمرو أراضى مصر بالقرب من موقع مدينة بورسعيد الحالية (طبعًا من المفهوم أن الأراضى المصرية تمتد شرقًا حتى رفح / المترجم). ولم يكن هذا غريبًا لأنه الطريق الوحيد المؤدّى لمصر بالنسبة لقوّة راكبة a mounted force . ثم ركب عمرو متجهًا غربًا نحو النيل، وهنا مرّة أخرى ـ لا نجده يناور مناورة غير مألوفة لأنه اتّبع الطريق القديم المألوف فى العالم القديم والذى يسير مسار **قناة السويس القديمة**، ذلك العمل الهندسى الباهر الذى أدى إلى قدوم السفن من النيل مارة بقناة (ترعة) حتى تصل إلى البحر الأحمر. هذه القناة (الترعة) قد أتاحت لتجار الإسكندرية التعامل مباشرة مع تجارة البهار والطرق المؤدّية إلى الهند. وقد طوّر أوغسطس Au-gustus هذه التجارة المربحة وأضاف إليها لصالح عوائد الإمبراطورية. أما تايبيريوس Tiberius ـ بعد أوغسطس ـ فشيد حصنًا رومانيًا قويًا عُرف باسم بابليون عند نقطة

استراتيچية هى مكان اتصال هذه القناة (الترعة) بالنيل. ويمكنك أن ترى - حتى الآن - أسوارها وقد غاصت قليلاً فى الأرض نظرًا لارتفاع مستوى الأرض حولها، لكنها لاتزال قوية على المستوى المعمارى بدرجة كافية. والبوّابة الرومانية المنحوتة بشكل جميل، من السَّهل تحديدها باعتبارها واحدة من أقدم الكنائس القبطية فى القاهرة القديمة (المقصود حى مصر القديمة)، جاثمة فوقها، مثل أحد أعشاش اللَّقلق القديمة من حجر جليل.. وفى أيام عمرو كانت ترتفع ستين قدمًا فوق الخندق المحيط - مستطيل عظيم يبلغ طوله ألف قدم مكوَّن من جدران بسماكة ثمانى أقدام من طوب وأحجار مثبتة بالمِلاط mortered.

وعند بابليون تلقّى عمرو مساعدة غير متوقَّعة، فقد كان عمر بن الخطاب قد علم بأعماله الثانوية فأرسل إليه مزيدًا من الدعم من مقاتلى القبائل بقيادة الزبير، فتضخّم عدد الجيش ليصبح ١٢ ألف رجل ، وتجاوز عمرو الأسوار الحصينة لبابليون واندفع إلى حيث الجيش البيزنطى الذى كان يتقدم نحو هليوپولس (الآن حى جميل غرب القاهرة) التى تبعد مسافة تستغرق أقل من يوم (فى حالة ركوب الدواب). وفى ١٩ يونيو سنة ٦٤٠، قاد جيشه للنصر فى معركة هليوپولس.

وبحلول شهر سبتمبر كان حصن بابليون البيزنطى معزولاً محاصرًا بمحاربى جيش عمرو، رغم أنه من المبالغة القول أنه كان هناك حصار فعلى، وذلك لأن هذا الجيش البدوى غير المتحضر unsophisticated لم يكن لديه أسلحة حصار وليس لديه خبرة فى هجوم مباشر على مواقع ثابتة. لا يبدو أن شيئًا من هذا حدث لأنه فى هذا الشتاء بدأ قيرس Cyrus (المقوقس) حاكم مصر وبطرياركها فى التفاوض طلبًا للهدنة. وفى أبريل سنة ٦٤١، سلَّم بابليون التى كان تسليمها يعنى تسليم كل مصر الوسطى للعرب، وكان هذا فى مقابل انسحاب الحامية البيزنطية (وقيرس Cyrus نفسه) بأمان إلى الإسكندرية . وربما راح قيرس لفترة يسعى لطلب المَدَد من هرقل ولم يأته ما طلب وقد **فهم معاصروه تكتيكاته، فاستُدعى للقسطنطينية ليواجه تهمة الخيانة العظمى.** وعلى كل حال، فإن الأحداث الآن تتوالى سراعًا - خارج السيطرة - فى بلاط القياصرة. فالإمبراطور هرقل - ذلك المحارب القديم - مات فى ١١ فبراير سنة ٦٤١. وخَلَفه ابنه قسطنطين الثالث الذى مات بعد فترة قصيرة فتولَّى بعده أمير صغير السن بدعم من زوجة هرقل الثانية، وأُزيح الاثنان على يد المنافسين داخل البلاط، بعد ذلك استقرت

السلطة فى يدى الأوصياء على حفيد هرقل ـ كونستاس الثانى البالغ من العمر أحد عشر عامًا. يمكننا أن نقول ـ ببساطة ـ إنه فى ظل هذه الأحوال المضطربة لم يعد هناك مجال لإصدار قرارات متعلّقة بمصر وقيرس Cyrus.

وعلى هذا، ففى شهر مايو كان عمرو قد احتل مفتاح مصر الوسطى ـ وهو حصن بابليون، وأصبح الآن قادرًا على التوجه بجيشه إلى الشمال. وعندما حان حين فكّ خيام الجيش العربى المحاصر لبابليون، وجدوا حمامة قد عشّشَت فى خيمة عمرو وكانت راقدة فوق بيضها لتفقّسه، وكان قد فقس بالفعل، ولم يزعج عمرو هذا الطائر الذى لجأ لحماه وترك خيمته قائمة(★).

وعبر جيشه النيل وسار راكبًا عبر خرائب العاصمة الفرعونية القديمة ممفيس (منف) التى كانت لا تزال مدينةً عامرة حتى هذه الفترة. إنهم الآن قادرون على التوجه للصحراء الخالصة فى الجانب الغربى من وادى النيل، متجنبين أخطار خوض الحرب فى دلتا النيل كثيفة الزروع والسكان. بعد مغادرة حصن بابليون بأسبوع اجتاحوا قوة اعترضتهم عند ترّانا Terrana قبل أن يشنوا هجومًا على المدينة المحصنة نكيو Ni-kiou. ولما قاوم أهلها جرى ذبحهم على وفق العادات المتبعة فى الحرب، لكن هذه العادات الحربية لا تفسِّر سلْب قرى الدلتا وتعذيب أهلها ولا يفسر المذابح البشعة التى جرت للفلاحين الأقباط الفقراء، تلك المذابح التى أعقبت سقوط نكيو Nikiou. كان هذا مخالفًا لوصايا سبق أن توجه بها أبو بكر للمقاتلين المسلمين بضرورة أن تكون حروبهم عادلة Just. لقد كان هذا طعنة لشهرة العرب بالتزامهم بالشرف؛ ذلك الشرف الذى صاحَب جيش العرب المسلمين فى مواضع أخرى عندما كانوا ملتزمين بوصايا أبى بكر. ربما كانت ضخامة مصر وكثافة سكانها الذين يضمون ملايين من الفلاحين قد جعلت الجيش البدوى الصغير يُحس بالعزلة والعصبية، **فالإرهاب هو ابن الخوف State terrorism breeds from such fears.**

وكلما اقترب عمرو من الإسكندرية اشتدّت المقاومة البيزنطية، فاشتباكات كوم شرق kom Sharik ودمنهور فى الدلتا ومعركة قارون التى استمرت عشرة أيام، كلها كانت قبل أن تتمكن القوات البيزنطية من الانسحاب آمنة خلف أسوار الإسكندرية، فى شهر يوليو. وكان أول هجوم جَسُور لعمرو وجيشه جرى صدّه، كما تلقى جيش المسلمين

(★) لابد أن نشكر إنصاف المؤلف هنا لعمرو بن العاص وإحساسه بوصفه إنسانًا ومسلمًا مسئولاً عن رعاية كل ذات كبد رطبة فى ولايته حتى هذه الحمامة. فالروح العسكرية لا تلغى الروح الإنسانية. (المعلق).

قذائف من المجانيق المقامة على أسوار الإسكندرية، أصابت أهدافها. وبذا اضطر العرب للانسحاب خارج الدائرة المصيبة لهذه المجانيق وأقاموا معسكرًا محصنًا إلى الجنوب الشرقى من المدينة (الإسكندرية)، ومن هذا المعسكر كان العرب قادرين على شنِّ الغارات المتكررة المزعجة على الأحياء (المتطرفة) وعلى السيطرة على قرى الدلتا التى فتحوها مؤخرًا، بينما انطلق عمرو على رأس الجزء الأساسى من الجيش متجهًا ـ بسرعة ـ جنوبًا قبل أن يحل الفيضان السنوى للنيل فيغرق الأراضى، وعندما وصل بجيشه إلى معسكرهم السابق خارج حصن بابليون، كانت خيمة (فسطاط) عمرو لاتزال قائمة وإن كانت الحمامة قد فقّست ـ بأمان ـ كل البيض الذى رقدت عليه (احتضنته). واتخذ عمرو من هذا المكان سوقًا مركزية، وراح جنود الجيش العربى يقيمون ـ من جديد ـ خيامهم السّود.

وعاد البطريارك قيرس Cyrus إلى الإسكندرية ـ إنه لم يُحْىِ دور الخائن وسياسات بلاط القسطنطينية المميتة، فحسب، وإنما دبّر أمر عودته لمنصبه كنائب للإمبراطور viceroy (فى مصر). وفى مشهد مثير للسخرية إلى أقصى درجة جمع قيرس أهل الإسكندرية لسماع مواعظه الدينية لرفع الروح المعنوية فى مسرح القياصرة الضخم فى الإسكندرية، ولابد أنه كان متحدّثًا بائسًا.

كان من بين سقطاته الشخصية والمعنوية والتكتيكية والاستراتيجية أنه كان مكروهًا أكثر من أىّ شخص آخر فى مصر. لقد وصل قيرس إلى الإسكندرية فى سنة ٦٣١، وعلى نحو استثنائى أصبح هو بطريارك الأورثوذكس، ونائب الإمبراطور viceroy. لقد جمع المَنْصِبَيْن معًا ـ رغم أنه ازدرى ما ينطوى عليه هذان المنصبان الساميان، مفضّلاً أسلوب البوليس السرّى. وكان قيرس قد تلقى تعليمات الإمبراطور بأن يحاول إنهاء الخلاف اللاّهوتى الذى تفاقم بين الأقباط المسيحيين المحلّيين من ناحية والأورثوذكس من ناحية أخرى. وكان قيرس قد أطلق العنان ـ طوال عشر سنوات ـ لحركة اضطهاد ضد رجال الدين من أهل البلاد native وضد القُسُس الأقباط (كان هذا الاضطهاد قد طال منذ سلبهم عوائدهم وعقاراتهم وكاتدرائياتهم) ووصل الأمر إلى محاولة اغتيال البطريارك القبطى البطل، فقد دبّر قيرس أمر هذا الاغتيال من خلال الإكليروس (رجال الدين) الناطقين باليونانية والتابعين له وكذلك العسكر الإمبراطوريين، لكن محاولة اغتيال البطريارك القبطى بنيامين فشلت؛ ذلك أنَّ قاطع الطريق (السفَّاح) التابع لقيرس والمكلف بمهمة اغتيال البطريارك بنيامين، قتل ـ بدلاً منه ـ أخاه ميناس Menas، وقبل قتله تعرّض للتعذيب فى محاولة لإجباره على قبول السياسة الرسمية

والإقرار بذلك علنًا. لم يفعل ميناس أبدًا ما طُلب منه فشوهوه وعذبوه وعرّضوه للنار حتى إنهم بدءوا يشعرون بالعار لما ارتكبوه، فأخرجوه لبذل محاولة أخيرة معه لإقناعه وربطوه ووضعوه داخل كيس على قارب صغير. ولا يزال استشهاد القديس ميناس محل تقدير بين الأقباط فى مختلف أنحاء مصر.

وعلى هذا، فقد كان هذا القيرس (المتوحش) هو نفسه الذى يحث أهل الإسكندرية لمقاومة عمرو، ولو أن قيرس كان غائبًا عن المسرح لقاوم أقباط مصر، عمرو بن العاص محققّين بعض النجاح. وبعد شهر بدأ قيرس مفاوضات سرِّية مع عمرو. لقد أبدى موافقته فى نوفمبر سنة ٦٤١ على هدنة لمدة سنة، وبعدها خطّط لتسليم مصر كلها ومدينة الإسكندرية للعرب. وراح قيرس يشرح الأمر بصبر وتؤدة لضباطه المصدومين. «فالعرب لا يُقاومون وأراد الله أن يعطيهم أرض مصر». لقد كانت أفعال قيرس قاسية إلى الأعماق، رغم أن هناك رواية عربية تقليدية توضح كيف أن قيرس تأثر كثيرًا بتقرير قدمه له أحد مبعوثيه الذى قضى يومين فى معسكر المسلمين خلال إحدى جولات المفاوضات. لقد أخبر هذا المبعوث سيده قيرس أن المسلمين يحبون الموت أكثر من حبهم للحياة، ويحبون التواضع أكثر من حبهم للكِبْر. وأنّ الجشع غير معروف لديهم، ولا يجدون غضاضة فى الجلوس على الأرض، ويأكلون دون جلوس إلى مائدة، وقائدهم كواحد منهم. وليس بينهم رُتَب خاصة (فهم سواء) فهم لا يجدون فاصلاً بين عالى المكانة ووضيعها ولا بين سيد وخادم، فإذا حان وقت الصلاة توضَّؤوا جميعًا واصطفوا جميعًا كتف هذا ملاصق لكتف ذاك بتواضع شديد أمام الله، فكان رد قيرس على هذا التقرير، فيما تقول الرواية العربية التقليدية: «مثل هؤلاء الناس سيجتاحون أى قوة تواجههم، فمن الأفضل أن نعقد معهم سلامًا».

والتزم عمرو بكلمته، فانتظر اثنى عشر شهرًا قبل أن يعبر بوّابة الإسكندرية (بوابة الشمس) على حصان أبيض، رخلفه ستة آلاف فارس، وفى ذلك اليوم، وباسم الخليفة، تسلّم عمرو بوقار مفاتيح الإسكندرية التى أمر الإسكندر بعملها، والتى زيّنتها كليوپاترا بعد ذلك. وفى المدينة (المنوّرة) حيَّا عمر بن الخطاب المبعوث القادم من الإسكندرية حاملاً معه هذه الأخبار، وأكرمه بأن قدّم له وجبة من التمر والحليب، وقرأ معه خطاب عمرو وبه: لقد فتحت مدينة بها ٤٠٠٠ قصر و ٥٠٠٠ حمّام و ٤٠٠٠ مسرح و ١٢٠٠ محل لبيع الخضر والفاكهة، و ٤٠ ألف يهودى. وكان الأثران العظيمان، منارة فاروس وضريح الإسكندر، لا يزالان قائمين متسيدين هذه المدينة (الإسكندرية) ذات المليون نَفْس. والكانوپس (السهيل Canopus) الشارع المركزى العظيم يمتد بين بوابة الشمس

فى الشرق وبوابة القمر فى الغرب، ومن الآن فصاعدًا سنجد طريق الكانوپس العام مظلّلاً اتقاء وهج الشمس بأعلام من حرير أخضر. وقد ذهب حاج مسلم ـ إعجابًا منه بجمال الإسكندرية ـ إلى حدّ زعمه أنه أدّى فريضة الحج إلى مكة ستين مرة، لكن إن أراد الله أن يعذّبنى بإبقائى شهرًا فى الإسكندرية.. فإن هذا الشهر سيكون أفضل لى وأعزّ علىّ (وربما كان هذا ـ غالبًا ـ نوعًا من التجديف). أما بالنسبة للآثار الرخامية (المرمرية) القائمة، فسرعان ما استخدمها المسلمون بأن أضافوا مسجدًا به ألف من الأعمدة هو مسجد الرحمة ومسجدًا آخر هو مسجد (النبى) دانيال. وسرعان ما تبنّت الثقافة الإسلامية الجديدة ـ بحماس ـ شخصية الإسكندر وبرج (منارة) فاروس، وسرعان ما أفرخا أساسًا لحكايات إضافية، وغالبًا ما يُعزى للفتح العربى ما لحق بالإسكندرية من خراب، فهناك أعداد متزايدة تتفجّع على حَرْق مكتبة الإسكندرية (أثمن كنوز عالم البحر المتوسط) مُوقعين اللوم فى ذلك على العرب. لكن حَرْق مكتبة الإسكندرية كان من عمل الأصوليين المسيحيين قبل ٢٥٠ سنة من قدوم عمر(★) ودخوله بوّابة المدينة (الإسكندرية) دون أن يُقاومه أحد. وفى سنة ٢٩١، قام جماعة من القُسُس ذوى القلانس بحرق الكتب التى تضم تعاليم وثنية التى كانت مخزونة فى مكان منعزل بمعبد سيراپيس Serapis ونهبوا المعبد، وذلك بتحريض من بطريارك الإسكندرية ثيوفيلوس Theophilus. وكان ثمّة دير أُقيم فوق رماد محترق يتصاعد منه دخان بلا نار، وبعد عقد من الزمان تطور فعل هؤلاء من حرق الكتب إلى سفك الدماء، إذ أعدموا هيپاتيا Hypatia دون محاكمة قانونية، وهى أستاذة رياضيات فى منتصف العمر، كانت فى ذلك الوقت تشق طريقها من خلال دراسة أعمال أبيها الفلسفية. وعلى أية حال، فقد شاعت الحكاية الدعائية التى تنسب حرق مكتبة الإسكندرية إلى العرب، لا لشىء إلاّ لأنَّ العالم السكندرى فورستر Lore E.M. Forster كرّر هذه الحكاية الخاطئة. وهناك معلقون آخرون واصلوا إيراد رواية مخادعة تقود للعصور الوسطى، مفادها أن عمر بن خطاب قال إنه إذا كانت هذه الكتب (التى فى مكتبة الإسكندرية) إن كان ما فيها موافقًا للقرآن ففى القرآن عنها غنى، وإن كانت مخالفة لما ورد فى القرآن ففيها خطر، وعلى هذا ففى كلتا الحالتين ينبغى تدميرها.

(★) مرة أخرى، نشكر المؤلف على إنصافه فى تبرئة عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب من اتهام بعض المستشرقين الآخرين لهما بحرق مكتبة الإسكندرية، التى أحرقها الأصوليون المسيحيون المتطرفون قبل ٢٥٠ سنة من قدوم عمر بن العاص إلى مصر. (المعلق).

وبمرور الوقت لعبت الزلازل دورًا فى تدمير آثار سكندرية أخرى من بين عجائب الدنيا الثمانى - برج منارة فاروس المتناغم المنتظم. من جزيرة يرتفع هذا الأثر فوق قاعدة مربّعة plinth ومن ثَمَّ بُرج مثمّن الأضلاع والزوايا فوقه برج أسطوانى، وسقط الفنار الدائرى الأساسى فى سنة ٧٠٠، وسقط البرج المثمّن الأضلاع فى سنة ١١٠٠، بما فى ذلك الأعمال الترميمية التى قام بها العرب فى عامَىْ ٨٨٠ و ٩٨٠ . وحدث زلزال أعنف فى القرن الرابع عشر لم يُبق سوى الأساس المربَّع، وهدّم أيضًا المسجد الذى كان داخلاً فى زمام البرج. وقد أثار هذا الخيال الشعرى - نور يهدى (يُرشد) التجّار، ونور الإيمان الحقيقى منبعثًا من المسجد. وقد أسعد هذا الرجّالة والمسلمين الأوائل، وقد كتب الديراوى Derawi كيف أن هذا البرج يُرشد المسافر ليلاً، ويرشده بنوره إذا حلّ الظلام. إلى هنا لو أنى حملتُ ثوبًا فائق الجمال بين أثواب أصدقائى، لبدونا فى ضوئه كأننا نجوم. لقد ظننتُ أن البحر من تحتى سحاب، وأننى أقيم خيمتى فى وسط السماء.

ولابد أنّ عَمْرًا كان واعيًا بمدى الإلهاء (اللهو) الذى تقدمه الإسكندرية لجنوده، بينما الدلتا التى تُروى مياهها جيدًا ليست هى المكان المناسب لإسطبلات آلاف الخيول العربية الأصيلة بالإضافة للجمال، وكلاهما - الخيول والجمال - لازمان للجيش. والأعلاف متوافرة بكثرة وغنية، وفى موسم الفيضان تكون الجمال المُسْتَولَدة فى الصحراء وكذلك الخيول عُرضة لتعفن أخفافها وحوافرها its foot. كما أن عمر بن الخطاب قد قرر بشكل واضح فى مؤتمر (اجتماع) الجابية فى سنة ٦٤٠ الشروط التى يجب توافرها فى الأماكن التى يشغلها جيش المسلمين فى البلاد المفتوحة. لذا، فقد قرَّر عمرو أن يؤسس مركزًا (عاصمة) جديدًا للمسلمين فى مصر فى معسكره الأثير القديم خارج الحصن الرومانى Roman بابليون (المقصود البيزنطى) حيث فضَّلت الحمامة (أن ترقد على بيضها) فى خيمته وأن يجعل من هذه الخيمة دليلاً على اتجاه القبلة فى مسجده الجديد to be the marker for the direction in new mosque، الذى جعله مستطيلاً، بعداه ٥٧ × ٩٥ قدمًا. وتم جمع الأعمدة الكلاسية والهيلنيستية من الخرائب المحيطة لدعم سقف المسجد المعمول من جذوع النخل المشقوقة المغطاة بالجريد. وكانت هناك بقع هزيلة من الضوء تتسرب من السقف إلى إيوانات الصلاة وكذلك من خلال الأبواب الستة التى فُتحت فى كل الجدران الجانبية. ورغم أن هذا

المسجد قد أُعيد بناؤه اثنتى عشرة مرّة، فإنه لا يزال - حتى الآن - قائمًا، وعُرفت المدينة التى أُقيمت حوله بالفسطاط، وستُقام حولها - وتتطور - مدن القاهرة الوسيطة والحديثة medieval & modern Citiesy Cairo would grow.

ورفض عمر بن الخطاب طلب عمرو بن العاص لإضافة منبر فى هذا المسجد الجديد فى الفساط. وبدلاً من إجابته لطلبه، فإن عمر بعد أن سمع بالفعل أقاويل عن تضخّم ثروة عمرو، أرسل ممثلاً شخصيًا له لدراسة الوضع على الطبيعة (أرض الواقع)؛ فكتب له ما يفيد أنه - أى عمر - لديه خبرة كافية بالولاة والمسئولين غير الأمناء «وإن الشّك قد ملأنى من ناحيتك، وإنّى مُرسل محمد بن مسلمة ليقسم معك كل ما تملك».

ورغم استسلام الإسكندرية، فإن كثيرًا من المدن المصرية الأصغر منها فى الدلتا رفضت - بعناد - أن تستسلم، لذا فإن الجيش العربى قضى طوال موسم الحرب فى سنة ٦٤٢ منزعجًا بعمليات ضم القلاع المصرية البعيدة (المنعزلة)، ولم يصبح عمرو فى وضع هجومى إلاّ بعد ذلك بعام أى فى سنة ٦٤٣، فاتجه غربًا، بادئًا عمليات فتح الشمال الأفريقى التى دامت طويلاً إذ استمرت مائة عام - باستيلائه على مدن الصحراء الليبية الخرافية fablod، مثل برقة Cyrene الواقعة على قمة جبل، و Appollonia ذات الأسوار بمينائها الواسع، والمساحة الممتدة لـ Prolemais المطلّة على البحر (المتوسط). وعلى كلّ حال، فإن هذه المواقع التى لا تزال موضع إعجاب بهندستها المعمارية الإغريقية، لم تستلفت نظره ولم يرمقها بإعجاب وإنما ما استلفت نظره - وأعجبه - هو المرتفعات الآهلة بسكانها البربر. لقد كتب من بين ما كتب أنّه لولا أن ممتلكاته موجودة بالحجاز لودّ أن يعيش فى Barca بشكل دائم وألاّ يغادرها؛ لأنه يعلم أنه ليس من أرض أكثر أمانًا منها no land more peaceful.

وقد اعترف عمرو بنوع من القرابة مع البربر، فسمح لهم أن يقدّروا بأنفسهم «الضرائب» التى عليهم دفعها وأن يسلّموها بأنفسهم دون أن يُفرض عليهم جامع ضرائب tax Collector. ويبدو واضحًا أيضًا من مراسلاته مع الخليفة أن عددًا منهم أسلم فى وقت باكر من الفتح. وولاية ليبيا الشرقية التى تُعرف باسم برقة Cyrenaica أو Pentapolis كانت منذ قرون ملحقة بحكومة مصر attached to. لذا كان عمرو

يستطيع الزعم أنّه يُكمل فتح مصر (ولا يفتح بلادًا جديدة) وقد فتحت هذه المعركة شهيته للفتح، ففى العام التالى بدأ ضربات أكثر طموحًا فاتجه صوب اليمين عابرًا صحراء سرت Sirtic ليغير على بساتين الزيتون الغنية فى طرابلس Tripolitana. وهنا ضم عمرو مدنًا مسوّرة، هى طرابلس Tripolis وسابراثا Sabratha و Leptis Magna التى لا يزال رخامها الذى يعود للعصر الذهبى للرومان فى الشمال الأفريقى ـ يُذهل الخيال.

وفى هذه الأثناء، كلّف عمرو ابن خالته الشاب ـ عقبة بن نافع (الفهرى)، بأن يصطحب جانبًا من المقاتلين منفصلاً عن الجيش الرئيس، وأن يضرب نحو الجنوب فى الصحراء الأفريقية الكبرى حيث لم يصل فاتح آخر قبله، فتلك أنحاء لم يجسر القرطاچنيون ولا الهيلينيون ولا الرومان ولا البيرنطيون ـ على التوجّه إليها. لقد احتل عقبة مستقرّات منيعة مثل واحة زويلة Zuwaya ستتطوّر بعد ذلك لتصبح مدينة مزدهرة نتيجة نقل البضائع عبْر الصحراء الكبير، لدرجة أن بوّابة القاهرة الرئيسة ستُعرف باسم باب زويلة Bab Zuwaya. بل إنه توغّل فى الأودية المخفية لمملكة جارامانت Garamantian kingdom فى فزّان ـ رغم أنه ما كان يستطيع أن يحقق كل هذا دون تحالفات مع قبائل البربر التى تستخدم الجمال فى الصحراء الكبرى مثل قبيلة لَوَاتَه Luwata.

وفى سنة ٦٤٤، عادت فيالق الجيش المنتصر ـ فيالق عمرو وعقبة بن نافع ـ لتنضم من جديد فى بارسا Barca ، ومن هناك عاد الجيش إلى مصر محملاً بالأسلاب والعبيد وقدر كبير من حكايات المغامرات البطولية وأخبار بلاد جديدة، أقرب للأساطير. وظل جزء من خطاب ألقاه عمرو على جنوده فى هذا العام فى جامع الفسطاط ـ باقيًا : «الخمول والاستهتار هما أهم مصادر الخطيئة والنَّقص» لكن ملاحظات أكثر رقة وردت أيضًا فى خطابه : انْحسر فيضان النيل ومراعى الربيع طيّبة لكم فهناك ألبان للحملان والولدان. اذهبوا يرعاكم الله بالأرض والألبان والقطعان، وراعوا جيرانكم القبط لأن رسول الله نفسه أوصانا بهم. وفى مناسبة أخرى وصف أرض مصر وصفًا مفعمًا بالعواطف والذكريات، فقال إنها فى أحد الفصول لؤلؤة بيضاء ثم تصبح عنبرًا ذهبيًا ثم زمرّدة خضراء ثم بساطًا مطرزًا متعدد الألوان. وفى سنة ٦٤٥، وصل مبعوث من الخليفة حاملاً أمرًا بعزله من ولاية مصر واستدعائه إلى المدينة.

كان عمر مُصرًا على أن يكون فى يده السُّلطة المطلقة(★) فى دولة المسلمين، فقبل ثلاث سنوات من عزْل عمرو، عزل سعدًا عن قيادة الجيش فى الكوفة وعن منصب ولاية العراق. وفى هذه المناسبة فإن عمر بن الخطاب قد أزعجه أن يسمع أنّ سعدًا قد أقام مانعًا خارج بيته إلى جانب المسجد الجامع حتى يضبط تدفّق الجموع التى كانت تقاطعه أثناء عقده للاجتماعات، وتزعجه بالالتماسات والاستشارات. وقد عيّن عمر بدلاً منه عمّار بن ياسر، وكان عمّار ـ وقتها ـ مُسنًا لكنه كان تقيًا، وكان قد بدأ حياته رقيقًا فى مكة، من بين أوائل من اعترفوا بنبوّة محمد رسول الله، وقد حرّره أبو بكر بشرائه ثم إعتاقه، وظل من بين أكثر المسلمين الأوائل تواضعًا لم يمسسه كِبْر ولا حسد ولا تطلّع أو طموح. وكان عمر والمسلمون المخلصون يروْن فيه مسْلمًا مثاليًا. وقد ثبت ـ على الصعيد العملى ـ أن عمّار بن ياسر لم يكن يستطيع ممارسة أية سلطة على آلاف المقاتلين البدو النزّاعين للخلاف والمحشورين فى مدينة الكوفة العسكرية، فقد كانت معلوماتهم عن الإسلام واهنة، وكانوا ممتلئين فخرًا بما أحرزوه من انتصارات وأسلاب وعبيد فى حروبهم الأخيرة، لذا فقد استعاض عمر بن الخطاب عن عمّار بن ياسر، بالمغيرة بن شعبة المحارب القديم الأعور القاسى. وبدلاً من أن يضع عمر ثقته فى شخص واحد بدأ فى تطوير نظام إدارى محكم وراح يُعين من قِبَله مباشرة مسئولاً للخزانة (بيت المال) وجامعًا للضرائب (جابى الزكاة والعشور) ومسَّاحًا للأراضى، وقاضيًا، ليعملوا جميعًا بجانب الوالى.

وكان على كل هؤلاء المسئولين أن يقيموا فى داخل المعسكر المركزى للحامية: الكوفة والبصرة فى العراق، والفسطاط فى مصر ـ أو الأربعة التى انبثقت عن معسكر (اجتماع أو مؤتمر) الجابية: سوريا ـ فلسطين ـ دمشق ـ حمص ـ طَبَرِيَّة والرملة. وأصبحت هذه تُعرف بالأمصار (المفرد: مَصر بفتح الميم masr) من الكلمة العربية التى تعنى مدينة. وكان كل مَصر (بفتح الميم) يتمركز فى مسجد جامع حيث يمكن لكل الجنود أن يصلُّوا معًا (جماعة). ورغبة فى الاحتذاء حذْو النبى بالمدينة (المنوّرة) جعلوا منزل القائد المسلم يلى باب المسجد الجامع، وفى وقت لاحق كانت توضع الخزانة (خزانة بيت المال) داخل صَحْن المسجد حتى يمكن للمؤمنين مراقبتها. وبعد ذلك امتدت الفتوح شرقًا وغربًا وتم إنشاء أمصار أخرى على الشاكلة نفسها: القيروان فى وسط تونس،

(★) لم يكن عمر فى تاريخه كله حريصًا على سلطة مطلقة، وإنما كان حريصًا على الشورى بوصفها دُعامة أساسية من دعامات النظام الإسلامى. وإنما كانت له ملحوظات بزيادة ثراء عمرو وبعض الولاة: فكان يعزلهم من أجلها خاصة عَمْرًا. (المعلق).

وسِجِلْماسة على أطراف الصحراء الأفريقية الكبرى فى المناطق الجنوبية من بلاد المغرب (مراكش)، وكذلك العواصم التى شُيّدت بعد ذلك فى العراق: بغداد والرقة وسامرّاء.

ولأن العوائد المالية من البلاد المفتوحة قد زادت زيادة كبيرة، فقد كان لا بد لعمر بن الخطاب أن يفكر فى كيفية إنفاق هذه العوائد. وحتى بعد تجربة مأساة عام الطاعون والجفاف كان عمر يرفض بشدّة بناء مبنى للخزانة العامة رغم نُصح الناصحين العمليين (البرجماتيين) الذين كان يجيبهم بأنه يثق فى الله ورسوله، فالله خير حافظًا. فى البداية كان الفائض يوزّع يدًا بيد على المحاربين الذين هم فى الخدمة فى اللحظة نفسها، أو يُعطى للزعماء القبليين لتوزيعه على رجالهم إذا ما وصلوا للمدينة أولاً (قبل غيرهم) وقدّموا أنفسهم متطوّعين لخوض الحروب. وظل هذا (النظام) كافيًا فى الأعوام الأولى للفتوح، لكن بعد الانتصارات الحاسمة فى اليرموك والقادسية كانت إمبراطورية المسلمين كلها فى حاجة إلى تنظيم (جديد)، وأصبح إيجاد نظام أكثر انضباطًا ووضوحًا، مطلوبًا بشكل متزايد.

ولهذا أنشأ عمر سجلات (رولاّت) للرواتب السنوية عُرِفت باسم الديوان. وبالتدريج كان التوزيع قائمًا على الأسبقية فى التحوّل للإسلام، والخدمة فى ظلال الإسلام، وهذا يشمل آل بيت محمد أو بتعبير آخر أقرباءه الأقربين، بالإضافة إلى الذين أدّوا خدمات حربية متميزة. وقائمة الأسبقية بين جماعة المسلمين هذه والتى قنّنها عمر أصبحت تُعرف بالسابقة. وكان عمر مصممًا على أن تبقى هذه (السابقة) غير متأثّرة البتّة بأية رُتب وراثية. لذا، فإن الزعيم القبلى الفخور المنحدر من سلالة قديمة من واحدة من الكونفدراليات القبلية الكبيرة، قد يكون أقل رتبة أو بتعبير آخر أخفّ فى الميزان من عبد مُحرر (مُعتق) أسبق منه فى الإسلام (كان له فى الإسلام سابقة). ولا يزال لدينا بعض أرقام الرواتب السنوية. فالمجنَّدون الجُدد من العرب يتلقى الواحد منهم ٢٠٠ درهم فى السنة ترتفع إلى ٥٠٠ على وفق خبرته. ومَنْ حارب فى معركة اليرموك أو القادسية كان راتبه السنوى ٢٠٠٠ درهم، ومن خاض حروب الردّة إلى جانب الدولة يتلقى ٣٠٠٠ درهم. والمسلمون البالغ عددهم ١٥٠٠ الذين ساروا إلى جانب النبى لأداء الحج وانتهت مسيرتهم بصلح الحديبية ارتفع الراتب السنوى للواحد منهم إلى ٤٠٠٠، ومن بقى فى قيد الحياة ممن حاربوا فى بدر يتلقى الواحد منهم ٥٠٠٠ مما يجعلهم على قدم المساواة مع أبناء عمومة النبى، على أنّ أمّهات المؤمنين (زوجات النبى) كنّ هُنّ الأعلى راتبًا إذ كانت الواحدة منهن تتلقّى ١٠ آلاف درهم ما عدا عائشة التى كانت

تتلقى ١٢ ألف درهم اعترافًا بأولويتها primacy. وكان عمر يحكم إمبراطوريته الجديدة الواسعة من المدينة. ورغم أن الشواهد كلها تؤكد أنه كان صارمًا ruthless مع قادة جيشه، فإن هذا كان راجعًا إلى أنه اعتقد بشدّة فى جدوى الأمانة العامة، واحترام الشعب، وتيسير طرقه للوصول إلى الحكام. ورغم أنه كان قاسيًا severe، بلا شك، فقد كان دائمًا متصلاً بالناس، ويمكن أن يجده أى واحد منهم إما فى المسجد، أو فى الطرقات يشترى قوت بيته، أو فى الأسواق أو الباحات المتربة فى المدينة. وكان عمر أيضًا متحدثًا متحمسًا، وكان يخطب فى المسلمين بعد أداء الصلوات وفى الاجتماعات العامة. ورغم أن هذا بعيد عن الديمقراطية، فليس ثمة أصوات تُحصى (أصوات انتخابية) وليس هناك مسئولون يُنتخبون، إلاّ أن الخليفة كان يدعو الناس للحديث كما يشاءون كما كان يشجّع النَّقد، فقد حدث ذات مرة - حقًا - أن جموع الجالسين حاولوا تهدئة رجل معروف بانتقاداته، وكان هذا الرجل قد هبّ واقفًا ليتحدث، لكن عمر لم يرض عن موقفهم هذا وأصرَّ أن يعبّر الرجل (الناقد) عن رأيه، فإذا لم يُبد الناس آراءهم هنا فلا فائدة منهم وإذا لم نسمعهم فلا خير فينا. وقد شجع عمر المسلمين مرارًا وتكرارًا على أن يكونوا فعَّالين مشاركين، قائلاً على سبيل الاعتراض إنه ليس إلاّ واحدًا منهم وليس له إلاّ أن يطلب منهم التعاون لإنجاز العمل الذى وثق فى صحَّته وعهد إليهم إنجازه. وعلى الصعيد العملى كان أقوى الاعتراضات ممثلاً فى عبارات هى الأكثر اختصارًا «خَفِ اللهَ يا عمر». ذلك التحذير الذى صدر من امرأة محجَّبة من بين الجموع المحتشدة معترضة على اقتراح عمر الجديد بشأن (عدم المغالاة فى المهور)، ذاكرة له أن اقتراحه مخالف لصريح آية قرآنية معروفة(★).

والمرأة فى الإسلام فى حاجة دائمة إلى حماية من ابتداعات عمر بن الخطاب لأنه بذل عديدًا من المحاولات لتقليص حرّيتهن، سالبًا منهن حقوقًا كن يتمتّعن بها فى عهد النبى. لقد أوقف الزواج المؤقت temporary marriage على مسئوليته، وحاول منع النساء من أداء فريضة الحج، وحاول تشجيع النساء على الصلاة فى منازلهن وعدم الذهاب للمساجد - وكل هذا مخالف لما أقرّه النبى. وقد امتدّ ارتياب عمر فى جنسانية المرأة female sexuality إلى أسرته وأهل بيته، فعندما حاول صحابى موقّر كبير السن

(★) ماذا تكون الديمقراطية وحرية التعبير أفضل من هذا؟ الرسول ﷺ نفسه كان قد أوقف أو نسخ الزواج المؤقت، وحبَّب النساء فى صلاتهن فى بيوتهن مع عدم منعهن إذا صممن على ذلك وزوج عمر نفسها فعلت ذلك. (المعلق).

هو أبو موسى أن يقدم قطعة سَجَّاد صغيرة لواحدة من زوجات عمر (عاتكة بنت زيد)، قذف بها عمر على رأس أبى موسى وهو يوبخه لتجاسره على تقديم هدية لإحدى زوجاته (زوجات عمر). وكانت عائشة دائمة المديح لعمر بن الخطاب باعتباره قائدًا leader (خليفة) ـ فهو فى رأيها يُحسن الإدارة، وهو فريد فى نوعه، وهو صالح ومناسب لمختلف المواقف، ويتردد كثيرًا من قَبيل المديح أن عمر كان إذا تكلَّم أَسْمع (من يُحدّثه) وإذا مشى أسْرع وإذا ضرب أوجع، لقد كان عُمر يسير على هَدْى النبى فى مواضع كثيرة إلاّ فى معاملته للنساء. وقد قدم عمر ذخيرة من النصوص بالإضافة لأمثلة واضحة، استخدمتها الأجيال التالية لكراهية النساء من منطلق دينى clerical misogynist.

وكان واعيًا ـ على نحو خاص ـ بالفساد الأكيد الناتج عن الثروات الكبيرة. فبعد سقوط المدائن (طيسفون) أرسلوا له خُمس الغنائم والأسلاب التى غنموها من البلاط الفارسى. واندهش أتباعه عندما وجدوه غارقًا فى دموعه أمام الأكوام المكتَظَّة من الدروع الجميلة والشارات الذهبية والأدوات والأوانى الفضية، ورفع عمر وجهه صوب الوجوه المندهشة ليقول إنه يبكى لأن الأموال تولّد العداوة والإحساس بالمرارة تجاه الآخرين. وفى مناسبة مشهورة أخرى وجدنا عمر ـ الذى كان قد لجأ شخصيًا للقضاء ليشكو خصمًا له ـ محنقًا عندما وجد أن القاضى يعامله كحاكم (خليفة) بوقوفه إكرامًا له، بعكس ما يفعله مع المواطن العادى. لقد جَأر عمر: هذا أول ما فعلته ظلمًا وخروجًا عن جادّة العدل، وبعدها جلس عمر إلى جوار خصمه فى القضية. وربما كان من الصعب الحصول على معلومات صحيحة ومنضبطة تمامًا بالنسبة لعمر، ذلك أنه هو نفسه غالبًا ما كان يناشد الله فى صلواته ودعواته بعدما تولّى الخلافة: اللهم إنى صارم فاجعلنى رفيقًا، وإنى ضعيف فهبنى القوّة.

وكان عمر ـ بالتأكيد ـ فى حاجة للقوَّة، ذلك لأنه طوال فترة التغيُّرات غير العادية تمامًا، التى سببتها حركة الفتوح كانت الحاجة مستمرة لتكيّف المجتمع المسلم داخل شبه الجزيرة العربية مع ضغط الظروف المعاصرة. فلم تكن كل قرارات عمر لتحظى بشعبية قوية أو بفهم من قِبل جمهور المسلمين. وكان عمر يقود الحجيج كل عام من المدينة إلى مكة فلاحظ أن عدد الحجاج يزداد عامًا بعد عام، وتحقق من أن مواضع تأدية الشعائر حول الكعبة تضيق بالحجاج وستزداد ضيقًا فيما بعد، فوقر فى عقله أن يشترى كل البيوت والأسواق (باحات البيع والشراء) فى وسط مكة والتى كانت ـ باختصار ـ مهدّمة

بالفعل، وذلك ليوسِّع الحرم. وتم تسوير هذا المكان المقدس فى أول الأمر بسور دائرى تتخلّله بوابات.

وتم تغيير كسوة الكعبة القديمة بكسوة من كَتَّان مصرى. ومن بين مستحدثاته إقامة سجن Jail فى مكة ولم تكن مكة قد عرفت شيئًا كهذا من قبل. وفى المدينة (المنوّرة)، قام أيضًا بشراء كل الممتلكات المجاورة للمسجد النبوى مباشرة لتوسيع هذا المكان (المسجد) الذى يرد إليه ـ للصلاة وعقد الاجتماعات ـ عرب من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية. وكانت قلاع ـ وحصون ـ حاميات الأمصار، تحتاج إلى مراقبة دائمة، خاصة وأنّ المحاربين البدو لم يعتادوا البتّة الاقتصار على الإقامة فى مكان واحد. وكانت العادة قد جرت منذ أيام النبى على مخاطبة رجال القُبائل من خلال شيوخ عشائرهم، لتسليمهم رواتبهم. أما بالنسبة للجيوش المكونة من مئات القبائل المختلفة وهم قد أصبحوا يقيمون على جبهات بعيدة ـ مما جعل هذا غير ممكن، لذا فقد عَمَد عمر إلى إيجاد رتبة وسطى هى رتبة العريف Arif لتسهيل عملية دفع رواتب الجنود. وكان يمكن للأسر البدوية أن تنتقل إلى المدن التى بها حاميات لتكون قريبة من الأسرات القريبة لها، وإذا كان هذا متعذّرًا سُمِح للمحارب بالتغيب كل أربعة أشهر.

وثمة إصلاح آخر أوجده عمر، وكان له أثر بعيد المدى، ونعنى به إيجاد تقويم إسلامى (التقويم الهجرى). ولا بد أن هذا بَدَا فى بداية الأمر شاذًا جدًا بالنسبة للمسلمين الغيورين الذين يعرفون أن عمر وكذلك النبى (ومعظم المسيحيين الأوائل) كانوا يعيشون غالبًا فى ظل توقع دائم للقرب الوشيك لنهاية العالم (قيام الساعة). ولابد أن ضبط التواريخ كان بالنسبة لهم أمرًا لا مبرِّر له. لكنَّ التفاصيل العملية كانت فى حاجة لضبط، وكان لا بد من ضبطها. وكلما تطورت سجلات الديوان الخاصة بالرواتب وتعقّدت، أصبح من الأهمية بمكان ضبط عام صحيح لتحوّل المقاتل المسلم للإسلام، والأعمال التى أنجزها نتيجة أسبقيته فى الإسلام.. لقد كانت فكرة عمر أن يتخذ من الهجرة من مكة إلى المدينة (٦٢٢) بداية للتاريخ الإسلامى (السنة الأولى فى التقويم الإسلامى ـ التقويم الهجرى) وليس بداية تلقّى محمد النبى للوحى. لقد فضَّل بدء الهجرة إلى المدينة ليكون بداية حقبة جديدة. وكانت هناك أسباب معقولة لاختياره هذا، فهجرة المئات من مكة إلى المدينة حدثٌ لا يمكن أن يُقابَل برفض جماعى بين المسلمين بمختلف مكاناتهم، لكن فى حالة اختيار أحد الأحداث فى المرحلة المكية، لكان الوصول إلى تاريخ دقيق للحدث أمرًا غير قائم، فلم يكن هناك فى أى وقت قوائم زمنية (كرونولوچيا) دقيقة بالنسبة لوقائع المرحلة المكية، وحتى الآن، وبعد مرور ١٤٠٠ سنة

جرت فيها دراسات مفرطة ومرهقة. وانعكس هذا الاضطراب أيضًا فى تواريخ معارك الفتوحات الأولى. حقيقة أنه لا يوجد سوى القليل من الخلاف حول مواقع هذه المعارك، لكن تواريخها الدقيقة أو حتى تتابعها يتراوح الاختلاف حولها ما بين عامين وأربعة أعوام. هذا هو هامش الخطأ حتى بالنسبة لأحداث مهمة وحيوية، كمعركة اليرموك، ومعركة القادسية وفتح مصر. أما تتابع الاثنى عشر شهرًا، وأسماؤها (مع وجود بديل أو بديلين) والأساس القمرى للتقويم الهجرى، فكل ذلك كان امتدادًا للتراث الذى كان قائمًا فى وسط شبه الجزير العربية قبل الإسلام، كل ما فى الأمر أن النبى محمدًا قد أقرّه.

وفى الوقت الذى كان فيه عمر مبتهجًا بانتصار الإسلام، فإنه كان أيضًا واعيًا بأن استمرار النجاحات العسكرية يمكن أن يُدمر روح دين سيّده (الإسلام). لقد كان مُصرًا على أن يقوم قادته (قادة الجيوش الإسلامية) بدعوة أعدائهم للإسلام، دعوة نافية للجهالة، دعوة كاملة، أو الخضوع للشروط التفاوضية، فلا يمكن أن تكون هناك حرب عادلة just war دون أن يكون هناك مثل هذا التبادل الرسمى formal exchange، وكان عمر - أيضًا - ضد إكراه أهل الكتاب على الدخول فى الإسلام، فلا يجب أن يترك واحد من أهل الكتاب دينه تحت تهديدٍ باستخدام العنف ضدّه، **وكان عمر يرى أيضاً أنه ليس هناك داعٍ لإرسال بعثات للدعوة، وقد خلت قلوب دعاتها من الإيمان** empty-hearted missionaries. **فأفضل طريقة لجذب الناس للإسلام هى أن يظهر الإسلام من خلال طريقة حياة المسلمين المؤمنين، وصوت القرآن ... هذا وإلاّ لا داعى للدعوة على الإطلاق. فعلى حد ما قاله النبى. أتجادلوننا فى الله؟ إنه ربنا** our lord **وربكم، وكلنا مخلصون له مؤمنون به وإن اختلفت كلماتنا** (أى **اختلفت لغة التعبير عن هذا المعنى**).

ونظرت أجيال المسلمين فى عصور لاحقة طويلاً لحقبة الحكم هذه وقنَّنت إنجازات عمر فيما عُرف بأولويّات عمر، وهى تضم مبادرات عمر البالغ عددها إحدى وأربعين مبادرة مثل تأسيس الأمصار، وسجلات الرواتب أو الديوان والتقويم الهجرى والإصلاحات الإدارية الأخرى التى أدركناها بالفعل.

وبالنسبة لغالبية أهل السنّة، فإن هذه الإنجازات التى أنجزها عمر والتى أشرنا لبعضها آنفًا، تشبه شريعة إصلاح إضافية تُضاف للشريعة الأصلية additional law code . إلاّ أنّ الشيعة لا يوقرون عمر مثل هذا التوقير. وكذلك فإن ما يُروى عن النبى

أنه قال : «لو كان نبى بعدى لكان عمر» ويصدق السُّنَّة هذا، أما الشيعة فلا يصدقون هذا، رغم أنهم الآن يعتبرونه رجلاً فاضلاً إلاّ أنهم يعتبرونه قد اغتصب مقعد (منصب) على.

والمدهش ـ على نحو ـ خاص ـ بالنسبة لعمر، هو تكامله الشخصى. فهو ـ وهو وحده غالبًا ـ الذى أوتى قوّة داخلية لتجاهل إلحاح أبنائه وزوجاته وأبناء عمومته وأقربائه عامة وعشيرته وقبيلته. وهذا النوع من الضعف هو الذى أسقط أجيالاً متتابعة من الزعماء العرب. هذا العجز الكامل من قِبل الزعماء العرب، عن تصويب أخطاء أُسَرِهم، وهذا ضعف إن لم يتم تداركه استنزف معظم جهد رجل الدولة الذكى ليجعله صَدَفة فارغة (بلا محتوى). **ما عليك إلاّ أن تنظر فى أحوال عالم الإسلام المعاصر لترى أن عُمر بن الخطاب كان حالة استثنائية، فنصف عالم الإسلام تحكمه ملكيات وراثية، بينما نصفه الثانى تحكمه جمهوريات ثورية اشتراكية منذ ثلاثين عامًا (مثل ليبيا ومصر وسوريا) حوَّلت نظم الحكم فيها إلى حكم أسرات families مُهيمنة.**

وقد دفع عمر ثمنًا باهظًا لهذا الكمال integrity ، فعندما وُجد ابن عمر أبو شهمة فى حالة سُكْر علنى لم يُعامل معاملة خاصة، وإنما جُلد الحدَّ كاملاً ـ ثمانين جلدة، فمات بسببها.

لقد ازْدرى عمر زخارف المُلْك، والثروة. لقد كان معتادًا على أن يوقفه الناس فى الشوارع والطرقات ليطلبوا حكمه ورأيه فى بعض أمورهم his judgement. وكان الزوّار الأجانب يندهشون عندما يجدون أنه لا حُجّاب على بابه ولا حرّاس يحرسونه ولا مستشارو بلاط ولا صالات استماع، وكان يُقال لهم دائمًا: «لا باب بينه وبين الناس. يمكنك التحدث معه طوال اليوم فى الطرقات وفى المسجد». وذات صباح حيّاه أبو لؤلؤة فيروز، وهو عبد مسيحى من أصول فارسية . وكان يرغب فى أن يشكو إليه المعاملة التى كان يلقاها تباعًا من سيده (مولاه his master) الذى ولاّه عمر ـ مؤخرًا ـ أمْر الكوفة. وكان أبو لؤلؤة قد وقع فى الأسر خلال الحرب فى العراق إلاّ أنه قد أُتيحت له فرص العمل بحرية، وأُتيح له أن يقيم فى المدينة (المنوّرة) مقابل أن يدفع لسيدة (مولاه) درهمين فى اليوم (من حصاد كسبه). **ومما يُذكر أنّ الرّق فى العالم العربى لم يكن يشبه الرق فى الأمريكتين وإنما كان أقرب ما يكون إلى نظام أسرى الحرب.** لقد سأل عمر أبا لؤلؤة عن المهارات التى يتقنها، فأجاب أبو لؤلؤة أنه نجّار ودهّان painter، فقال له عمر إن هاتين المهنتين تدرّان أرباحًا تتيح له أن يدفع لسيده (مولاه) درهمين فى

اليوم، وتتيح له (لأبى لؤلؤة) أن يعيش معيشة طيبة فى المدينة (المنورة). ورغم رضا أبى لؤلوة لأنه أفضى بأحزانه ومتاعبه لخليفة المسلمين، إلاّ أنه ظل يكظم غيظه. فحقيقة الأمر أنه كان قد نال نصيبه كاملاً من سوء الطالع: فقد كان قد أُسر وهو طفل خلال الغزو البيزنطى، ثم عاد فأُسر مرة أخرى فى أواخر حياته على أيدى مقاتلى جيش المسلمين - إن إلقاء نظرة على ملف الأسرى الكئيب فى بلدته الفارسية نهاوند قد أحيا لديه الذكريات المريرة وأسلمه لدموع الحزن.

وفى صبيحة اليوم التالى دبّر أبو لؤلؤة أن يكون من بين أوائل الداخلين للمسجد. وعندما سجد عمر، وثَبَ أبو لؤلؤة عليه، وطعن عمرًا ذا الأعوام البالغة ثلاثة وستين بكل ما أوتى من قوّة ست طعنات، قبل أن يتمكن المصلون الآخرون من إبعاده، وحتى هذه اللحظة لم يتمكن أحد من إحكام قبضته على أبى لؤلؤة الذى راح يطعن الجموع المحيطة به، قبل أن يطعن نفسه طعنة نجلاء عميقة.

كانت الطعنات التى أُصيب بها عمر أعمق من أن تُضمّد، لكن الخليفة المحتضَر ارتاح عندما أخبروه أنَّ مهاجمه لم يكن مسلمًا مضطهدًا، وإنما هو أسير مُحبط. وسأل عمر - بصوت واهن - عمّن يجب أنْ يخلفه. إنّ نبىّ الله لم يعيِّن أحدًا يخلفه، بينما فعل أبو بكر ذلك. وبعد ذلك قال إنه لو كان أبو عبيدة حيًا لطلب منه أن يحمل عبء خلافته (كان عمر قد عيّن أبا عبيدة قائدًا عامًا فى الشام، لكن أبا عبيدة مات فى وباء الطاعون سنة ٦٣٩). واستبعد عمر - غاضبًا - اقتراح أحد أتباعه المتملقين بأن يكون ابنه (عبد الله بن عمر) خليفة صالحًا من بعده. وأخيرًا تذكَّر عمر أن رسول الله تحدث أمام المسلمين عن ستة من الصحابة هم من أهل الجنة (المبشّرين بالجنّة)، فأمر أن يجتمع هؤلاء الستة بعد موته ليختاروا من بينهم من يخلفه، على أن يكون هذا فى غضون ثلاثة أيام. وأوّصى من سيخلفه بأن يخاف الله ويُراعى حقوق السّابقين للإسلام من المهاجرين والأنصار، وأن على من سيخلفه أن يأخذ من الأثرياء ليعطى الفقراء، وأن يعامل غير المسلمين (أهل الذمّة) فى إمبراطورية المسلمين معاملة طيبة وأن يحفظ عهده (يلتزم بكلمته).

وبعدها استدار نحو ابنة عبد الله وطلب أن يُسمح بدفن جثمانه إلى جوار جثمان النبى فى أرضية غرفة عائشة (ضُمت الغرفة للمسجد بعد توسعته)، وقد أجابت عائشة بأنها كانت قد حجزت هذا الموضع لتُدفن فيه هى، لكنها استدركت قائلة إنها

تُؤثر عمر على نفسها. وعندما حان الحين (عندما أتت النهاية) طلب من ابنه عبد الله أن يوجّهه للقبلة، وهمس وهو يلفظ أنفاسه طالبًا من الله أن يشمله برحمته وغفرانه.

ومن المعتقدات الشائعة فى الإسلام أنّ المرء إذا مات تعرّض فى الليلة الأولى فى قبره لامتحان على يد مَلكين (بفتح اللام) يسجلان ما عَمِل، **ولا أحد من هؤلاء الأموات ينجو من لوم أو عقاب (فى القبر).**

إلاّ أن عمر بن الخطاب عاش حياة خصبة عامرة بما يستحق عليه المكافأة. وُلد عمر بعد حوالى اثنتى عشرة سنة من مولد النبى فى سنة ٥٨٣. وعادةً ما كان النبى يناديه بابن الخطاب، أما الذين يكنّون له قدرًا أقل من الصداقة فكانوا يهمسون ناسبيه إلى أمه قائلين: (يا بْنَ خَطْمة) وخطمة هذه هى أمّه. وكان أبو عمر من عشيرة عَدِىّ من قريش، وقد عُرف بنو عَدِى بمهاراتهم فى التّفاوض خاصة مع القبائل البدوية، لضمان مرور آمن للقوافل عبْر الصحراء. ولم يكن عمر دبلوماسيًا، فقد عُرف فى مكة قبل الإسلام Pagan Mecca بأنه مصارع وخطيب. وكان معاديًا عنيفًا للإسلام، واتسمت معاداته للإسلام بعنف الشباب، وبلغ من السخط فى لحظة من اللحظات أن أعلم المجتمع المكى أنه بات مُصممًا على قَتْل محمد نفسه. وامتلأ عمر بأفكار عن نَبالة التضحية بالنفس وأعلن مقاصده فسخر منه أحد الظرفاء فى الطريق مقترحًا عليه أن يمنع أهل بيته من اعتناق الإسلام أولاً، وسارع عمر بالتوجه إلى حيث أخته فسمع أخته وزوج أخته يرتلان القرآن بهدوء فدخل البيت منفعلاً هائجًا لدرجة أنه ضرب سعيدًا زوج أخته، بل إنّه هجم على set upon أخته بعنف، فلما هدأ انفعاله نظر خجلاً مما فعله بوجه أخته، فنظرت إليه مُعلنة: نعم. لقد أسلمنا فافعل ما تشاء. فجلس عمر وطلب منها أن تُريه ما كانا يرتّلانه، وأرادت أخته أن تتأكّد من طهارة يديه قبل أن تقدّم له قطعة الرَّق (الجلد المرقّق) فقرأ عمر - بصوت عالٍ - آية، فوجد نفسه متأثرًا ببلاغتها وسحرها، قبل أن يعلن إيمانه بعقيدة محمد. ولم يُضع هذا المسلم الجديد وقتًا فرتَّب اعترافًا علنيًا بهذه العقيدة أمام زعماء القبائل، بل واشترك مع حمزة عم النبى ورجله القوى، فى حراسة المسلمين وهم يصلُّون جماعةً علنًا، وعندما حان وقت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة، هاجر عُمر بطريقته. إنه لم يهاجر بهدوء عند الغَسَق ولم يموّه بدعوى أنه ذاهب (للمدينة) فى رحلة تجارية، وإنما هاجر فى رائعة النهار حاملاً سلاحه متحديًا: إنّى مُهاجر، فمن أراد أن تثكله أمه (تبكى لموته) فليلقنى خلف هذا الوادى.

وترك عمر زوجتيه؛ الثانية والثالثة وكل نسله (بمن فيهم خمسة أولاد) خلفه فى مكّة الوثنيّة رغم أنه لم يطلّقهما رسميًا إلاّ بعد أن أصبح المسلمون قوة يُعمل لها حساب، فى سنة ٦٢٨. ولم يحتفظ لهذا الجزء من أسرته (نصف أسرته) سوى باحتقار على البعد رغم أنّ ضررًا بليغًا، ربما كان مدفونًا بين طيّات اعتزازه بنفسه، فقد كان عمر ذا كبرياء مهولة his fierece pride. أما زوجته الأولى زينب فقد ماتت قبل الهجرة، لذا فلم يصحبه للمدينة سوى أبنائه الثلاثة منها، وكان عمر والدًا صارمًا مستقيمًا بالنسبة لهؤلاء الأبناء الثلاثة: عبد الله، وعبدُ الرحمن، وبطبيعة الحال، حَفْصة. هؤلاء الأبناء الثلاثة هم وحدهم الذين اعتنى بهم عمر، وكلهم بدوا شخصيات صغرى winor (غير أصحاب نفوذ) فى تاريخ الإسلام الباكر. وكانوا جميعًا ـ بشكل استثنائى ـ أسرة متعلّمة تجيد القراءة والكتابة، فلم يكن عمر بن الخطاب وحده من بين السبعة عشر مسلمًا الأوائل الذين يجيدون القراءة والكتابة، وإنما عمد عمر إلى تشجيع ابنته حفصة على تَعلّم هذه المهارة النادرة. وقد أدّت صرامة عمر فيما يبدو إلى إبعاد زوجتيه المسلمتين؛ أم حكيم وجميلة بنت قاسم، فقد غادرتا منزل عمر بعد أن أنجبت كل منهما طفلاً، وإذا طُبق قول النبى الذى يعنى: إن أردت أن تعرف شخصية رجل، فانظر إلى صحّة زوجاته، فإن الخليفة العظيم عمر، قد لا يحصل على تقدير مرتفع، وعلى أية حال، فإن عمر فى أواخر عمره طلب من على بن أبى طالب أن يزوّجه ابنته أم كلثوم، إلاّ أنَّ عليًا كان غير راغب فى السماح لابنته الشابة أن تقضى أيامها فى بيت عمر الصارم، لكن فى هذه المرحلة المتأخرة من حياته (حياة عمر) (بعد الانتصارات المدوّية فى اليرموك والقادسية) تعلّم عمر بعض اللّين، وكان دائمًا يطلب من الله أن يرزقه اللِّين. لقد كان عمر حاكمًا لكلِّ الشرق الأوسط؛ لذا كان من الصعب على علىّ بن أبى طالب أن يرفض طلب عمر عقد حِلف زواج (مصاهرة) بحفيدة النبى محمد، وقد انجبت أم كلثوم من عمر بن الخطاب فى فترة السنوات الخمس التى قضتها معه طفلين، وهما رقيّة وزيد، فامتزجت سلالة النبى بسلالة الخليفة الثانى (عمر)، تمامًا كما يرقد جثمانهما ـ الآن ـ جنبًا إلى جنب، أو بتعبير آخر كان لعمر سلالة من ابنة بنت رسول الله فتقارب النَّسَبان (السلالتان) كما تقارب جسداهما فى القبر (إلى الآن).

تعليقات المترجم

(١) سبق - فى حاشية سابقة - أن ذكرنا أن القرآن كان يُدوّن حال نزوله، وأنه كان للقرآن كتبة عُرفوا بكتبة الوحى، وكل ما فعله عثمان بن عفان هو جمع القرآن لا تدوينه.

(٢) المفردات التى ذكرها المؤلف وردت فى كتب التراث التقليدية المعروفة، لكن بعض تحليلاته مختلفة تمامًا، وهى فى رأينا تحليلات صحيحة، لكن هذا لا يمنع من إيراد السياقات كما وردت فى الكتب التراثية عن عهد الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب. نقلاً عن أزمنة التاريخ الإسلامى لعبد السلام الترمانينى، وهو عرض مسطّح كما يلاحظ القارئ:

«... كان أوّل ما فعله عمر أن جهّز جيشًا بقيادة أبى عبيْد بن مسعود الثقفى وأرسله إلى العراق مددًا للمثنّى بن حارثة وأمر المثنّى أن يسلمه قيادة الجيش فأطاع. وكان الفرس قد حشدوا جيشًا ضخمًا فى موقع قريب من الحيرة يُسمّى قس النّاطف على الشاطئ الغربى لنهر الفرات، ووقف جيش المسلمين فى الطرف المقابل فى موضع يسمّى المروحة، وبين الفريقين جسر عبره المسلمون والتقوا مع الفرس فى معركة ضارية استشهد فيها أبو عبيد بن مسعود الثقفى، فذعر المسلمون.. وأخذوا يتراجعون عبر الجسر إلى الطرف الآخر من النهر، وغرق منهم عدد كبير، فقام رجل من ثقيف هو عبد الله بن مرثد فقطع الجسر فلم يجد المسلمون بدًا من مواجهة الموت... وتولّى قيادة الجيش المثنّى بن حارثة فجمع الجيش وواجه الفرس فهزمهم.. ثم تبع المسلمون الفرسَ إلى مكان يُدعى البويب فقاتلوهم وانتصروا عليهم.. وبلغ عدد من قُتل من المسلمين فى تلك المعارك أربعة آلاف بينهم جماعة من الأعلام والأبطال.

ولما علم عمر بمقتل أبى عبيد بن مسعود الثقفى وما أصاب المسلمين فى موقعة الجسر، عزم على أن يجهز جيشًا يقوده بنفسه فأثناه عبد الرحمن بن عوف عن عزمه وأشار عليه بتعيين سعد بن أبى وقاص قائدًا للجيش، فخرج بجيشى عدته ثمانية آلاف رجل فلما وصل أعاد تنظيم الجيش وأختار قوّاده من السابقين إلى الإسلام واستبعد من القيادات من سبق له الارتداد عن الإسلام تنفيذًا لأمر عمر (لاسترخاء إيمانهم بالردّة) ونزل سعد بالقادسية وكان الفرس قد نصَّبوا يزدجرد ابن شهريار ملكًا عليهم... ونشب القتال بين المسلمين والفرس فى القادسية فى معركة استمرت ثلاثة أيام انتهت بدحر الجيش الفارسى ومقتل قائده رستم.. وطارد المسلمون فلول الجيش واستولوا على برسى وبابل وبهرسين وغيرها من المدن، وفى صفر ١٦ هـ فتح المسلمون المدائن ودخل سعد بن أبى وقّاص إيوان كسرى وصلّى بالجند صلاة العيد وجعل الإيوان مسجدًا للأعياد، وتتابعت هزائم الفرس فى جلولاء والأهواز ورامهرمز، وجرت فى تَسْتر معركة أسر الهرمذان قائد الفرس وجرى إرساله للمدينة فأسلم وعفا عنه عمر ورتب له نصيبًا من بيت المال. ودفع عمر بلواء خراسان إلى الأحنف بن قيس ودفع ألوية الأقاليم الفارسية الأخرى إلى قادة آخرين.. فانطلقوا ، وكان من أشد المعارك هَوْلاً معركة نهاوند على سفوح جبل ألبرز وسُميت بفتح الفتوح... وفر يزدجرد ملك فارس ضاربًا فى الآفاق حتى فتك به أحد أتباعه.. وبذا خضعت بلاد فارس لسلطان المسلمين...».

الفصل الثامن

عثمان : الخليفة الثالث

حمل صحابة النبى المقربون جثمان عمر بعد لفِّه فى كفنه إلى حيث دُفن فى غرفة عائشة القديمة بجوار سيده (النبى) وأبى بكر. جعلوا وجهه موجهًا إلى القبلة (مكة)، جاعلين رأسه بجوار كتف النبى. ثم تجمع الباقون فى قيد الحياة من صحابة النبى الحميمين عاقدين مجلسًا وقورًا، فقد كان عليهم أن يختاروا من بينهم قائدًا جديدًا يكون على رأس إمبراطورية العرب النامية والرجل الذى سيؤمُّهم فى الصلاة فى المسجد الجامع كل يوم وسيكون على رأس حجيجهم كل عام. لقد كانوا مجموعة مترابطة من قبيلة قريش من السابقين للإسلام، عانوا جميعا عقدا من الاضطهاد فى مكة وعقدا من الحروب ضد مكة، وقد عاشوا عقدا من الفتوح الظافرة بقيادة عمر. وقد حاول المفسرون شرح الصدع السنِّى الشيعى فى تاريخ الإسلام بتقسيم هذه المجموعة إلى أقسام بناء على الانتماء العشائرى. وهذا ليس توجها صحيحا لأنه بحلول سنة ٦٤٤ كانت الروابط بين هؤلاء الستة: على والزبير وسعد وعثمان وطلحة وعبد الرحمن - قد أصبحت علاقات حميمة من الصعب فك عُراها. فعلى والزبير وسعد كانوا جميعًا ذوى قرابة لصيقة (أولاد عم بالمعنى الواسع للكلمة وأحيانًا أولاد عمات Cousins) بالنبى، وكان طلحة هو ابن عم أبى بكر، بينما زادت الزيجات المختلفة هذه الروابط عمقا. فعلى سبيل المثال وجدنا روابط الدم تتضح فى أبناء أسماء (بنت عُمَيْس)، فبعد موت زوجها الأول، جعفر (أخو علىّ الأكبر) تزوجت من أبى بكر الذى أنجبت منه ابنًا، وبعد موت أبى بكر (الخليفة الأول) انتقلت إلى أسرة على (أى تزوجها

على). أو لننظر إلى الارتباطات الزوجية لإحدى أخوات عثمان: فى البداية تزوجت من زيد (ابن النبى بالتبنّى) ثم بالزبير، ثم بعبد عبد الرحمن قبل أن تنتقل لفاتح مصر - عمرو بن العاص. ومن بين الارتباطات الزوجية الكثيرة الأخرى بين هذه المجموعة (الستة الآنف ذكرهم) نجد زواج أسماء (أخت عائشة لأبيها) من الزبير، بينما أصبح علىّ حما عمر (والد زوجة عمر) بعد أن تزوج عمر قريبةً لمحمد النبى بالنسب.. وهكذا، فإن التحالفات عن طريق الزواج ربطت كل الشخصيات الرئيسة فى جماعة المسلمين الأولى.

وفيما يتعلق بالمجد العسكرى داخل مجموعة الستة الآنف ذكرها، وجدنا سعداً قد حقق شهرة عظيمة بعد انتصاره فى معركة القادسية، وكان الزبير قد أبدى كثيرا من ضروب البطولة فى مصر المفتوحة حديثا، أما على فكان محاربا لا يُشق له غبار خلال حياة النبى.

وكانوا جميعًا يُدْعون لتقديم المشورة والنصيحة للخليفة، بل إن الخليفة عين بعضهم ليكون قاضيا أو واليا أو جنرالا (قائدا عسكريا). وعندما غادر عمر المدينة ليزور القدس ويتفقد جيش الشام، جعل عليا نائبا له على المدينة، كما فعل النبى من قبل. كان على هو الخليفة الطبيعى الواضح على وفق نقطة التقاطع التى تشترك فيها كل حكاياتهم. لكن ربما لا يزال هناك اهتمام كامن مؤداه أنه إذا أصبح علىّ خليفة لأصبح منصب الخلافة من الآن فصاعدا فى أبناء على؛ لأنهم الذرية الذكورية الوحيدة من نسل محمد النبى (عن طريق فاطمة ابنته وابن عمه على)؛ ولأن المناقشات بين المُنتخِبين (بكسر الخاء) استمرت أكثر من ثلاثة أيام فقد اتضح الآن أن الاختيار أصبح محصورا بين على وعثمان، لكن أحدا منهما لم يحصل على الأغلبية (الأصوات الأكثر) بين الخمسة، لأن (الناخب) السادس وهو طلحة كان فى مهمة جعلته خارج المدينة فلم يحضر هذا الاجتماع الانتخابى، وكان على شابًا صغيرًا يمكنه أن ينتظر فرصة أخرى لتولى القيادة (الخلافة)، أما عثمان فكان قد وصل السبعين من عمره فى ذروة الوقار العربى التقليدى، بلحيته الرمادية - لحية الشيخ الوقور. ولا بد أن الناخبين قد وضعوا فى اعتبارهم أن عليا هو أكثر المرشحين استقامة وأن مزيدًا من الحرية أصبح مطلوبا بعد عشر سنوات من حكم عمر الصارم أخلاقيا (حكم عمر البيوريتانى). وفى اجتماع صباحى عاصف، عُقد فى المسجد الجامع فى اليوم الثالث، وجه عبد الرحمن سؤالا واحدًا لكلا المرشحين: أتتعهد بالسير على وفق كلمة الله (القرآن) وسنة رسوله وأن تنهج نهج الخليفة الأول والخليفة الثانى؟ كانت اللدغة أو اللسعة Sting كامنة فى هذه

الإضافة التى انطوت عليها العبارة الأخيرة التى أثارت على غير ما هو متوقع، قضية إضافة القرارات السياسية التى اتخذها الخليفتان السابقان لتكون جنبا إلى جنب مع النصوص المقدسة (القرآن والسُّنَّة Sacred texts). وقد أجاب على مخلصا وبحياء ممتزج بالتواضع: آمل أن أفعل هذا، سأعمل ما هو أفضل على وفق ما أعلم وأقدر. أما عثمان فأجاب ببساطة عندما سُئِل السؤال نفسه: نعم.

وعلى هذا اعتبر عبد الرحمن أن إجابة عثمان هى الأكثر إقناعًا، وقال لعثمان: «ابسط يدك لأبايعك».

لستَ فى حاجة لأن تكون شيعيًا كى تحس برائحة التلاعب (★) فى إجراءات هذه الدقيقة الأخيرة بقصد إنكار قيادة على(١)، مرة أخرى. وعلى أية حال، فإن عليًا تصرف مرة أخرى تصرف المعصومين impeccable ولم يكوِّن مجموعة معارضة ولا اعترض على النتيجة، بل لقد كان من بين أوائل من قدموا أيديهم لمبايعة عثمان. لقد تذكر على التقدير الشديد الذى كان النبى يكنُّه لعثمان؛ إذ كان (أى النبى) يرى فيه هدوء إبراهيم (الخليل)(؟) The countenance of An Abrahem.

وبعد أن تلقى عثمان البيعة العامة من كل المسلمين فى المسجد الجامع فى ذلك اليوم، ألقى خطبة قصيرة من فوق المنبر تعهد فيها باتباع خُطَى من سبقه، وأن يلتزم بالقرآن والسنة، ثم ألجمته المشاعر التى جاشت فى نفسه هذه اللحظة فقال: «أيها الناس، ليس من السهل أن تسيطر على حصان جديد. إن أراد الله وكتب لى الحياة فسأتحدث إليكم فى مناسبات أخرى لا أستطيع أن أتحدث إليكم أكثر من هذا، فكلكم تعلمون أننى لم أكن فى وقت من الأوقات أُحسِن الخطابة».

(المترجم: النص كما ورد فى الطبقات الكبرى لابن سعد: «أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أيامًا، وإن أعش تأتيكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله») ولابد أن الحشد المجتمع قد ابتسموا ابتسامة متعاطفة لأن عثمان الوَقُور ظهر معقود اللسان أمامهم، وهو فى هذا يختلف بشكل لافت للنظر عن عمر البارع فى الخطابة بشكل لا جدال فيه، لكنه كان نادرًا ما يتخلَّى عن سوطه.

(★) ليس هناك رائحة تلاعب، وإنما شعور بالأمانة فى ضوء إجابة كل من الرجلين، ثم إن الفراغ السياسى يستوجب أن يملأه المسئول عنه فى مثل هذه الأوقات الصعبة التى لا تحتمل التأجيل بكل مخاطره. (المعلق).

ودائما ما كان عثمان منعزلا شيئا ما عن الصحابة المقربين من رسول الله. فقد كان عثمان مميزا باعتباره أميرا تاجرا مهذبا يجيد القراءة والكتابة بين جماعة مكونة فى غالبها من فقراء أتقياء متحمسين لدينهم. وحتى النبى اعترف لعثمان بهذه الوضعية، فعائشة زوجة النبى تذكرت بحيوية أن النبى كان متكئا مسترخيا فى غرفتها وهو يتحدث مع أبى بكر وعمر على راحته وبوضعه هذا، لكنه اعتدل فى جلسته عندما قيل له إن عثمان قد وصل. وفى وقت لاحق سألت السيدة عائشة زوجها (النبى) لِمَ تصرف تصرفا مختلفا مع عثمان، تصرفا مخالفا لما تصرف به مع والدها (أبى بكر) ومع عمر، فأفاد النبى أن عثمان متواضع حَيّى خَجُول، فكان النبى يخشى إن وجده عثمان فى وضع أُسَرى، أن يخجل فلا يتحدث فى الأمر الذى جاء من أجله، فعثمان رجل تستحى منه الملائكة.

وكان عثمان ـ بسبب حيائه وتواضعه ـ حسن المنظر. وكان وقت تحوله للإسلام رجلا أنيقا عريض الأكتاف متوسط الطول وربما كان فخذاه ممتلئين شيئا ما، لكن جلد وجهه الذهبى الشاحب تؤطِّره لحية فخمة، وتتدلى من رأسه خصلات شعر لتصل إلى أدنى أذنيه: حقيقة لقد كان يُقال إن وجهه جميل لدرجة لا تجد لها نظيرا فى رجال آخرين... وعلى كل حال، فإنك عندما تقترب منه فستلاحظ أن خدَّيه فيهما آثار طفيفة من مرض الجدرى الذى أصابه فى طفولته. وإذا ما ابتسم أصبح ذا «فم ذهبى» بالمعنى الحرفى؛ ذلك لأن أسنانه رُبطت معًا بأسلاك ذهبية رفيعة صنعها له طبيب أسنان مشتغل بالمعادن النفيسة[٢] Jeweller Dentist.

ولد عثمان فى عبد شمس أقوى عشائر مكة التى كان منها ـ عادة ـ زعماء قريش، وكان عثمان أيضًا من بين العدد المكى القليل الذى يجيد القراءة والكتابة تمامًا. والأكثر أهمية بالنسبة لرفاقه المكيين، أنه كان رجل أعمال ومفاوضًا ماهرًا ومبرِّزًا.. حقيقة إنه ـ كابن وحيد ـ ورث ثروة كبيرة وهو فى العشرين من عمره، إلا أنه نمَّى هذه الثروة الموروثة ليكوِّن ثروة أعظم. ولم يكن عثمان مجرد رجل أموال banket مقيم يتسم بالمكر والبراعة، وإنما بدأ بداية كاملة مع مشاق طرق القوافل وأخطارها، فقد كان مصاحبا لأبيه عفان فى رحلاته جيئة وذهابا منذ أن كان صبيا. لقد اختزنت ذاكرة عثمان ذكريات كاملة عن الشراء بأسعار رخيصة فى اليمن وعن البيع فى الشام، والأهم أنه تعلم فضيلة الصبر سواء فى السوق أم فى مركز دفع الجمارك أو رسوم المرور، وفضيلة أن يكون عمل المرء أهم من قوله (اهتمامه بالأعمال أكثر من اهتمامه بالأقوال).

لكن الوقار والتصرف المهذب لا يكفيان فى بعض الأحيان تاجرا مكيا أميرا ناشئا gledfing، فقد حدث أن اؤتمن عفان والد عثمان على ممتلكات أحد زملائه مات أثناء الرحلة. وقد اعترضت جماعة من البدو المحاربين القافلة، مقدمين أدلة زائفة للمطالبة بأموال المُتوفَّى باعتبارهم ورثة له. وقد رفض والد عثمان دعواهم ولم يقدم لهم قطعة عملة نحاسية a bent Copper coin، وكان هذا الرفض يعنى أن تشق قافلته طريقها بالقوة (بالحرب) عبر الصحراء؛ مما تسبب فى قتلى كثيرين. وقد أرعب هذا قريشا فسيَّرت على الفور جيشًا لشن غارة ثأرية على هؤلاء البدو، رغم أن الأمور سُويت فى النهاية بدفع دِيَة القتلى. لكن، بشكل عام، فإن مثل هذه المغامرات كانت بمثابة بهارات تضفى حيوية على حياته المريحة.

وربما كان عثمان أصغر من النبى بحوالى ست سنوات رغم أنه لم يشارك النبى محمدًا فى طفولة غاصَّة بالحرمان (الفَقْد) والصرامة. لقد ولد عثمان فى الطائف وليس فى مكة، لأن أمه أروى مثلها مثل زوجها (وكلاهما: الزوج والزوجة من عبد شمس) فضَّلا الهرب من حرارة الصيف الشديد فى مكة ليقضوا فترة الحر المكى القائظ (ما بين يوليو وسبتمبر dog days) بين ظلال البساتين والنخيل التى يمتلكانها فى هذه المدينة المسورة، وكانت الطائف أيضا منتجعا صيفيا لذوى الثروات الكبيرة من قريش.

وبعد موت والد عثمان قبل الأوان premature death، تزوجت أم عثمان من عقبة فكونت أسرة ثانية كان عثمان يكنُّ لها دائمًا المودَّة. وكان عثمان ـ دائمًا ـ مرغوبًا فى سوق الزواج (كان بضاعة رائجة فى سوق الزواج أى كان مرغوبًا فيه)، فالأمر بالنسبة له لم يكن كتجربة النبى محمد من حيث تفكيره المرهق الذى استغرق سنوات طوالاً لجمع مهر العروس أو التطلع لفتاة قبلت من هو أكثر ثراء look at girlfriend doomed to be offered to another-better connected hand، لقد تزوج عثمان من فتاتين مكيتين أرستقراطيتين أنجبتا له ثمانية مواليد على الأقل نعرف عنهم. وكانت زوجته أسما ابنة زعيم مخزوم، وقد سمح وصول المولود الأول بسرعة لعثمان أن يستمتع بما يستمتع به كل العرب إذا رُزقوا بمولود ذكر، فأُضيف إلى اسمه كلمة (أبو) ليكون هو عثمان أبو عمرو Amr.

أما دخول عثمان فى الإسلام فهو الأكثر مدعاة للدهشة. ذلك أن تحوله للإسلام لم يكن ليُكسبه شيئًا، بل كان مدعاة ليخسر كل شىء، وذلك إذا وضعنا فى اعتبارنا طبيعة

مجريات الأمور فى هذه الدنيا، مع هذا فعثمان كان من الستة الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام، عندما كان - أى الإسلام - لا يزال أمرا خاصا private مقتصرا على الأقرباء القريبين لمحمد النبى. وفيما يتعلق بتحول عثمان للإسلام، فإنه خاض تجربة مباشرة فوق العادة لم تقم على تأثير سحرى للقرآن ولا على مثال مبهر beguiling من حياة النبى، وإنما قامت على تجربة شخصية خاضها ذات ليلة عندما كان على بُعد أسابيع من مكة، فى مركز من مراكز توقف القوافل بين الزرقاء ومعان فى بادية الشام. كان عثمان نصف نائم (عوان بين النوم واليقظة) متخذا من الرمال سريرا، وراح يحملق فى ليل الصحراء حيث هذا العرض المدهش من النجوم، ومجموعة النجوم التابعة المتألقة والمَجرَّة (درب التبَّانة) فى الأفق الأسود وكأنها تشق طريقا فى السماء heaven.. مثل هذا المنظر يمكن أن يكون إيحاء مرعبا فى مساحة واسعة غير محددة، بالنسبة للذين نشؤوا فى المناطق الشمالية فيناموون هاربين من الأبدية والخلود وقد غطتهم الأسقف والسحب، لكن هذا لا يكون بمثل هذا التأثير (المرعب) لابن الصحراء عثمان، رغم أنه تذكر أنه راح يفكر فى أنه حتى النجوم، لا بد أن يكون لها سيد master (رب). لقد فكر فى هذا قبل أن يوافيه النوم. واستيقظ بفعل صوت يصيح فى سكون ليل الصحراء: استيقظوا أيها النيام لأن أحمد قد ظهر فى مكة. ولم يدر عثمان ماذا يفعل حتى انضم إلى القافلة بعض التجار الآخرين القادمين من الشام، كان منهم طلحة ابن عم Cousin أبى بكر (أى مثله من عشيرة تيم). وعندما وصلا إلى مكة أخيرا، وذهب كلاهما إلى أبى بكر فصحبهما على الفور للقاء النبى فشهدا الشهادة الدالة على دخولهما فى الإسلام.

وفى وقت لاحق عندما انصبَّت كراهية المكيين على النبى وأسرته، قام الرجلان القرشيان اللذان تزوجا ابنتَى النبى محمد بتطليقهما (أم كلثوم ورقية)، إلا أن هذا الصدع الذى أحدثاه أصلحه عثمان بطلبه الزواج من رقية، وكان عثمان عزيزا فى قومه (فى المجتمع المكى)، وهكذا أصبح عثمان زوج ابنة النبى Son- in low، وهى علاقة أقوى فى شبه جزيرة العرب من العلاقة بوالد الزوج Father in- low، وفى حفل عقد القران راح الضيوف يغنون للزوجين: رقية وعثمان أحلى زوجين يراهما إنسان!

لقد هربا من الاضطهاد الذى حاق بالمسلمين فى مكة بأن قادا طليعة مكونة من أحد عشر رجلا وأربع نساء وهاجروا جميعا إلى حيث الأمان فى إمبراطورية الحبشة

المسيحية. ومن المحتمل أيضا أن يكون عثمان قد تلقى تعليمات من النبى بمواصلة تجارته، لأن ثروة جماعة المسلمين فى مكة كانت قد تناقصت بسرعة بسبب المقاطعة. وفى ظل أمان إمبراطورية أكسوم الحبشية أنجبت زوجة عثمان ابنًا أسماه عبد الله، إلا أن هذا المولود الجميل مات بعد سنتين بسبب جروح فى وجهه أحدثتها نقرات ديك صغير. وقد أثرت هذه المأساة المروعة ـ بشكل دائم ـ فى رقية التى لم تعد بعد ذلك قادرة على الإنجاب أبدا. وفى حوالى هذه الفترة اتخذ عثمان زوجة أخرى. إنها رملة الأرستقراطية التى دفع لها أربعة آلاف درهم مهرًا.

وعندما سمع عثمان أن حماه (النبى) قد أصبح ـ الآن ـ آمنا وموقرا فى واحة المدينة ترك الحبشة وعاد إلى شبه الجزيرة العربية، مع أسرته. فى البداية أقام بأسرته مع أوس أخى حسان بن ثابت الشاعر المشهور. وذلك قبل أن يشترى دارا (مستقلة). وكان المهاجرون دائما عُرْضة للإصابة بالحمى فى واحة المدينة ذات الأرض الزراعية، ولم تكن رقية ابنة النبى استثناء من هذا، فقد مرضت مرضا شديدا لدرجة أن النبى سمح لعثمان بالبقاء معها لتمريضها، بينما توجه هو ـ أى النبى ـ مع بقية المسلمين إلى بئر بدر (حيث غزوة بدر المشهورة). ويُقال إنه بينما كانت هتافات الابتهاج بالنصر تتصاعد فى السماء كانت آلام رقية وصراخها قد انتهى بإسلامها الروح. وعندما عاد النبى لبيته فى المدينة، كان من أوائل اهتماماته أن يحاول إراحة فاطمة التى كانت تبكى منحنية على جسد أختها البارد (الذى فارقته الحياة). لقد سحبها ورفعها من فوق جسد أختها وجفف دموعها بشفقة بطرف ثوبه. وصلى النبى على ابنته رقية ودفنها، وقال عند المقبرة إن دفن ابنة عمل محزن شاق. وكان النبى مدركا أن عثمان كان زوجا معتبرا غير عادى كما أنه ظل مفيدا مُعِينا لجماعة المسلمين الصغيرة، فزوَّجه ابنته الثالثة أم كلثوم بالمهر نفسه الذى زوج به أختها رقية For the same dower and the same way of living. وكما تذكَّرت أم أيمن (ذات التأثير الهائل الذى لا يمكن محوه، على حياة محمد ـ وكانت جارية حبشية اسمها بركة قبل أن تتزوج زيدا بن ثابت ابن محمد بالتبنِّى، وقد أنجبت له وريثه أسامة)، فإن النبى طلب منها أن تجمِّل أم كلثوم وأن تذهب بها إلى زوجها (عثمان)، وأن تُضرب الدفوف (جمع دُفّ) فى هذه الأثناء. وفى الليلة الثالثة من زواجها زارها النبى ليسألها عن حال زوجها معها، فقالت إنه أفضل الأزواج، وفى وقت لاحق أسماه النبى ذا النورين (عثمان ذو النورين): لأنه تزوج اثنتين من بنات النبى. وقد أثبت عثمان أنه مصدر مستمر للتخفيف من شظف العيش

الذى كان يعانيه المفلسون المكيون (المهاجرون). لقد حفر بئرا لتزويدهم بالمياه النظيفة مجانا. وأحضر مؤنا للمدينة أيام المجاعة، وأرسل أربعة عشر جملا محملة بالطعام لجيشٍ غازٍ نفدت مؤنه، واشترى الأراضى المقابلة لمنزل النبى لتوسيع المسجد الجامع الذى أصبح لا يستوعب عدد المسلمين الذين زاد عددهم، عند أدائهم الصلاة الجامعة. واشترى محلا لبيع التمور فى الواحة ثم جعله صدقة لإطعام المسلمين. وعندما جرى إعدام رجال بنى قريظة واسترقاق نسائهم (سنة ٦٢٧) بعد اتصالهم بأعداء المسلمين أثناء حصار المدينة (غزوة الخندق)، تحرك عثمان بسرعة ليحل المشكلة. لقد اشترى كل النساء الأسيرات وأودع ثمن الشراء فى الخزانة المشتركة، فأصبح فى وضع يمكِّنه من العناية بالأرامل الحزانى وبأطفالهن، وأطلق - وهو سعيد - سراح من اعتنقت الإسلام منهن، لكن روح التاجر أو رجل الأعمال، لم تتخلَّ عنه إذ باع الباقيات ليغطى بعض تكاليف العملية.

إن عثمان مثال حى لأفضل ما فى الإسلام فقد كان رحيما وكريما بغير حدود، ودبر أموره ليمزج بين التجارة والكفاءة الإدارية والصدقات والصلاة والدراسة وحب الحياة الأسرية. وعلى أية حال، فقد كان هناك كعب أخيل Achilles heel (أو ذريعة) جعل عملية (انتخاب) عثمان خليفة فى منطقة شاسعة شملتها فتوح المسلمين، مسألة تدعو للدهشة، فرغم أن عثمان اتسم بالرحمة والروح الإنسانية والثقافة والنشاط والإخلاص، فإنه لم يخطئ أبدا فى إدراك قيمة قادة المعارك، فقد قدَّر خالدًا وعَمْرًا وابن حارثة، أولئك الذين قادوا جنوده على جبهات القتال فكسب احترامهم وولاءهم. أما هو - أى عثمان - فقد كان يتجنب الذهاب إلى جبهات القتال، فقد تجنب عمليا كل معارك (غزوات) الإسلام الأولى. ومن المعروف على نطاق واسع أنه ولَّى الأدبار فى غزوة أُحُد، إلا أن النبى سامحه لفعلته هذه بعد ذلك.

ولا بد أن عثمان كان يعرف أنه لن يكون محبوبا من جند الإسلام الأشداء hardened، فكان لديه على أية حال، برامج لكسب احترام رعاياه الجدد وتقديرهم، بالرحمة والكرم وحسن الإدارة. وبسبب افتقاده الكامل للخبرة العسكرية كان لا بد أن يثبت أنه حاذق بدرجة كافية فى التعامل مع الاستراتيجيات الكبرى لإمبراطورية المسلمين العربية، فبدأ بإيماءة علنية بزيادة المعاشات السنوية (الرواتب) مائة درهم، وفى الوقت نفسه بدأ - بحذر - تدعيم إشراف الحكومة المركزية على شئون المدن التى بها حاميات عسكرية،

وبدأ التفتيش اليقظ على الحسابات ومراجعة ديوان الرواتب. واستقصى حسابات الولايات وفوائضها (الفائض فى ميزانياتها) وطلب تقديمها لخزانة المدينة، وواصل ما كان يفعله عمر بن الخطاب فى تقليص السلطة المتعاظمة لحكام الولايات، تلك السلطة التى زادت لأنهم ـ أيضًا ـ كانوا قادة عسكريين. وقد تمكن من تحقيق كل هذا بفضل مجموعة من الإداريين الماليين تخصصوا فى عوائد الضرائب tax revenue ولا شىء سواها. وقد اضطُر للسماح ببقاء الكتبة (أو الموظفين الإداريين clerks) ومعظمهم كان ميراثا عن الإمبراطورية البيزنطية والساسانية ـ لمواصلة عملهم، لكن بمرور الوقت وعندما سمحت الظروف كُتبت الحسابات باللغة العربية وجرى استخدام الأعداد العربية.

وجرى إصلاح نظام الزكاة المفروضة على كل المسلمين، فشملت العبيد والخيول واستقرت عند نسبة ٢,٥٪ من قيمة رأس المال capital value (قيمتها النقدية). ورغم أن دفع الزكاة مسألة إجبارية (مفروضة)، إلا أن الفرد المسلم (صاحب الأموال والممتلكات) هو الذى يحددها self-assessted وإن كانت السلطات المعينة من الحكومة هى التى تجمعها. ومقدار الزكاة يُعتبر قليلا مقارنة بالأعشار tithe السنوية المفروضة على الأرض الزراعية، وبضريبة الرأس السنوية (الجزية) المفروضة على كل أهل الكتاب داخل إمبراطورية المسلمين. وكما كان متوقعا، كان على عثمان أن يتصدى للاعتراضات غير المعلنة من الولاة القائمين على أمور الولايات، ومسئولى الأموال (الجباية) والموظفين الذين رأوا أن سلطانهم القديم صار يضعف تدريجيا. وكان لدى عثمان القدرة والإصرار على مراقبة أبعاد هذه الأعمال الإدارية الروتينية. لقد كان من الضرورى مراجعة قوائم (الرواتب والمعاشات) بعد موت الجيل الأول من المحاربين، لتقرير حقوق الأرامل ومكافآت المجندين الجدد. فخلال سنوات قلائل استطاع الخليفة ـ بإعادة تنظيم الديوان divan وبزيادة العوائد الضريبية من الولايات ـ أن يزيد الرواتب والمعاشات السنوية للجميع على قدم المساواة across the board بنسبة ٢٥٪، وسمح بأن ترث الأرامل اللائى مات أزواجهن فى الحرب ١٠٪ من قيمة الرواتب التى كان أزواجهن يتقاضونها قبل وفاتهم، وأمر بدفع مبلغ رمزى لكل مولود ذكر ولد فى المدن التى بها حاميات عسكرية. كان الإبقاء على هذا النظام ـ دفع حوالى ١٠٠ ألف راتب ـ أو معاش ـ سنوى فى شهر المحرَّم من كل عام ـ مسألة مدهشة لتجار مكة القرشيين الماليين ذوى الفطنة.

ولتنفيذ هذا بدأ عثمان فى إيجاد سكرتارية دائمة، فعيَّن ابن عمه الشاب الموهوب الذكى مروان ليشرف على هذه المهمة وينظم سجلاتها. ومن الواضح أن عثمان طور أيضا نظاما لحفظ الملفات (ترتيب المعلومات) يتيح له الاطلاع على الأوامر المكتوبة التى سبق أن أصدرها عمر بن الخطاب عندما كان يراسل قادته وولاته.. ولأن المدينة ومكة قد اتسعتا مساحة وزادتا سكانا، فقد أسَّس عثمان مكتبا (مقرا) لمفتشى الأسواق (المُحْتسِبين) يتقاضون أجورا، وقد أصبح هذا النظام معمولا به فى أية مدينة من مدن المسلمين وسينمو هذا النظام ليصبح المُحتسب بمثابة محافظ له دور حيوى Virtual mayoralty. ومرة أخرى نجد أنه شغل (أى عثمان) هذا المنصب بواحد من أبناء عمومته الشباب الموهوبين from his pool of talented young cousins.

واندفع عثمان أيضا فى تنفيذ مشروعات عامة طموحة موَّلها بفضل إدارته المتسمة بالكفاءة ـ من الخزانة المركزية (بيت المال). وأقام عثمان السدود والجسور لتحمى بيوت المدينة التى امتدت امتدادا كبيرا، من السيول الدورية، التى كادت فى بعض العقود تتحول إلى سيول جارفة ملأت الأودية الحصبائية الجافة. وبدأ عثمان أيضا عملا منتظما بتزويد السكان الذين زاد عددهم بالمياه النظيفة فحفر آبارا جديدة فى المدينة ومكة ورمَّم ـ وعمَّق ـ الآبار القديمة.. وبالإضافة لهذا كله بقى واحد من أعظم أعماله المتسمة بالسخاء الشديد للصالح العام: إنه الحاكم المسلم الذى قدم المياه النظيفة لشعبه مجانا، حتى إن الشعراء ربطوا ربطا حرفيا ـ أى دون تشبيهات أو استعارات ـ بين جهوده هذه وماء نبع زمزم فى مكة.

وأسس عثمان كذلك بنًى للسلوك الفخم (الملكى Regal) بأن اشترى أراضى وشيد أسواقا تُخصص إيجاراتها لإطعام الفقراء. ولأن متطلبات الدولة زادت وكانت هناك حاجة لتعيين مزيد من الموظفين secretaries والمراسلين (حَملَة الرسائل وعمال البريد)، فقد استخدم عثمان موارد الخزانة المركزية (بيت المال) ليشترى مزيدًا من الأراضى حتى يمكن توفير المراعى الملائمة لقطعان الدولة من الخيول والجمال السريعة. وكان عثمان ـ دائما ـ كريما فى هذه التعاملات إذ كان يبادل العقارات الفخمة فى كل مكان فى الإمبراطورية الواسعة، ليتأكد من وجود مساحات كافية من الأراضى بالقرب من مراكز الحكومة الرئيسة (مقار المسئولين). وفى وقت لاحق، عندما أصبحت أراضى الرعى هذه واسعة ممتدة بما يكفى، أمر بتسويرها ومنع القبائل من الرعى فيها كيفما

اتفق. وبعد ذلك أسَّس إسطبلات لخيول الدولة ومساكن للضيوف ليستخدمها المسافرون والمراسلون والحجاج الفقراء. وحذا حذو عمر بن الخطاب فى توسيع المسجد الجامع فى المدينة ومسجد الحرم المكى. ولم يكن هذا دون معارضة، ذلك لأن بعض المواطنين رفضوا أن يبيعوا، لكن عثمان حذا حذو عمر قبله إذ واصل حثهم على البيع، فقد أصبح واعيا بأنه حتى المعارضة الضارية أو الدؤوبة يمكن شراؤها (لها ثمنها). وعلى أية، حال فإن عاصفة الاعتراض خمدت عندما دخل المصلون المسجد الجديد (التوسعة الجديدة) فى المدينة. لقد أُزيحت الآن جذوع النخل وحلت محلها أعمدة من حجر منحوت. ووجَّه عثمان عقله المنضبط العملى إلى البحر، فقد كان منذ فترة طويلة غير راضٍ عن المرفأ (الميناء) الذى يصل منه المسافرون والبضائع إلى مكة، ونعنى به مرفأ الشعَيْبة Shuaiba فأسس مرفأ جديدا فى جدة (حيث قبر حواء)، وقد ظل هذا الميناء بعد ذلك هو بوابة مكة والمدينة على البحر الأحمر.

وفى الوقت الذى كان فيه عثمان يدير جهاز الدولة، بدأ يخفف من وطأة تقشف عمر. فقد منع عمر أن يمتلك أى شخص أكثر من أربعة مساكن (مسكن لكل زوجة)، وألا تزيد مساحة المسكن عن مساحة المسكن الذى شيده النبى لنفسه (أى تكون أبعاده هى الأبعاد المتواضعة نفسها لغرف أو مساكن النبى) وأن تقتصر المساكن على طابَق واحد. وكان عمر بالإضافة لهذا قد حدد عدد الجوارى الأجنبيات المسموح بهن فى المدينة، كما كان قد منع الصحابة من مغادرة الواحة (المدينة) إلا لأداء فريضة الحج إلا بإذن واضح منه، والأكثر أهمية وحسمًا أن عمر منع بيع أىٍّ من أراضى البلاد المفتوحة. ولقد تخلَّى عثمان ـ تدريجيا ـ عن كل هذه الإجراءات المانعة (المحاذير).

لقد كان عمر راغبا فى أن يظل المسلمون العرب جيشا فعالا متحركا مؤمنًا فقيرًا (لا تفسده الثروة)، كما كان راغبا فى الإبقاء على الصحابة فى المدينة تحت عينيه المراقبتين ليكونوا مجموعة تقية متفرغة للدراسة (الفتوى) ذات مكانة وقورة تحظى بالتشريف. أما عثمان، فقد أدت ليبراليته إلى إيجاد أرستقراطية جديدة، إذ وجه العرب المسلمون القادة (ذوو المكانة) الأموال التى يتلقونها وأموال رواتبهم السنوية، ناهيك عما تلقَّوه من غنائم الفتوح الأولى) ـ وجهوها لامتلاك الأراضى والعقارات خاصة فى المناطق التى طال اشتهاؤهم لتملكها فى أطراف الشام والعراق. لقد ظهر بعض الصحابة الأساسيين مثل الزبير وعبد الرحمن كنبلاء grandees جدد فى

إمبراطورية المسلمين. لقد امتلك الزبير عددا كبيرا من العبيد، وعددا كبيرا من الخيول (١٠٠٠ حصان) وامتلك بيوتا فخمة فى كل المدن الرئيسة فى الإمبراطورية؛ فى دمشق والمدينة ومكة والكوفة والبصرة. بل إن بيته الذى شيده فى هذه المدينة الأخيرة (البصرة) كان متقنا جميلا مميزا؛ حتى إن زوار المدينة ظلوا يعتبرونه علامة مهمة طوال الأربعمائة عام التالية. أما عبد الرحمن، فقد أنشأ أيضا بنايات ذات طابع ملكى وامتلك أراضى، وبلغت قيمة ممتلكاته هذه ٤٠٠ ألف درهم وامتلك ألف جمل، و١٠ آلاف من الخراف والماعز. وقد بدأ عثمان نفسه ببناء مقر إقامة فخم فى المدينة (الزَّوْراء Zawar) على حافة الكتلة السكانية التى يتوسطها المسجد الجامع (المسجد النبوى). وكان هذا المبنى علامة على عصره (عصر عثمان) ببساتينه المسورَّة ومنازله متعددة الطوابق وبواباته وجدرانه المُجصَّصة المزخرفة وأعمدته الرخامية. وفى الداخل خُصصت غرفة لكل زوجة من زوجاته ولكل ابن من أبنائه ليعيشوا معا، بالإضافة إلى مساحات خصصت لغير الأسرة، كالمساعدين (السكرتارية) ليمارسوا أعمالهم المنوطة بهم، ومطابخ لطهى الطعام لإطعام كل من يأتى للخليفة: زوار ومراسلون وسفراء وحتى الفقراء وعابرو السبيل. لقد اختلف الوضع عما كان عليه أيام عمر الذى منع أيًا من أتباعه من ركوب حصان غريب مزين أو ارتداء ثياب فاخرة أو تناول أطعمة من دقيق منخول (أى بدون رَدَّة sifted flour)... كل هذه الممنوعات أصبحت مباحة فى عهد عثمان.

لقد انتهت أيام الطعام البسيط الذى كان يفضله النبى، والذى فرضه عمر بن الخطاب على الناس. لقد أصبح هذا من أمور الماضى، فبدلا من أقراص دقيق الشعير غير المختمر، راح العبيد والمحرَّرون يعدون أرغفة فاخرة من دقيق القمح المُنكَّه بالبذور، وراح الطباخون الأسرى من أرمينيا والأناضول يخبزون على الصاجات الرقائق والمُعجَّنات. وربما لم تكن اللَّبْنة (اليوجرت) ودشيشة القمح قد وصلتا بعد إلى شبه الجزيرة العربية من آسيا الوسطى، ولا المبروم (الكُسْكاس couscous) من الشمال الأفريقى ولا الأوبرجن aubergine اللذيذ من الهند، رغم أن أطباق الأرز المنكه (المعطر) الفارسية قد أصبحت مألوفة بالفعل (فى شبه الجزيرة العربية)، بالإضافة إلى حساء المعكرونة ذى الأصل البيزنطى وأطباق الحليب المتخثر. أما اللحوم، فقد أصبح العرب ـ الآن ـ يخلطونها بالدقيق والقرفة والقرنفل والزنجبيل والكمُّون والفلفل، تلك البهارات المجلوبة من كوشن Cochin فعرفوا بذلك اللحم المفروم والمتبل، وأتاهم الملح

الصخرى من تدمر والمعجنات المقلية المخلوطة بالزبيب، والعنب البناتى (الذى لا بذر له Currant) والتين المجفف والجوز واللوز.. ولم يكن السكر قد ظهر بعد فى مطابخ القصور فى بواكير الإسلام، لكنه لم يكن مفتقدا افتقادا كاملا، فقد كان هناك عسل النحل كما كانت خلاصة التمور المضغوطة لتكون على هيئة سائل، مستخدمة بكثرة. وكانت هناك عصائر العنب المعدة بشكل خاص والرُّمَّانية (عصير الرُّمان). وكان هناك الكَمأة السمراء من صحراء شبه الجزيرة العربية، والزيتون معتدل المرارة من تدمر (الزيتون التدمرى)، وثمار نباتات من الفصيلة الزنبقية (من دمشق خاصة)، والكرَّات (سواء الكرات النبطى أم الشامى)، والتفاح المُزّ (الحامض)، والبصل الأبيض والجزر والنعناع والطرخون tarragon والعدس والفاصوليا واللوبيا والليمون الحامض والخل وزيت الزيتون والأجبان المملحة ـ كل هذا أكمل قائمة طباخ المدينة Madena chef بمقومات الطبيخ الأساسية. وكان لا بد من تمليح الأسماك حتى لا تفسد فى جو الصحراء، وعادة ما كان يُجفف، وفى بعض الأحيان كان يُقدم مصحوبًا بما يشبه صلصة الصثويا a garam- like Soya sauce latter called blattes de Bysance . ورغم تقديم أنواع مختلفة من الحلويات والخضراوات المجففة والحوامض Sour Courses والأسماك المجففة والحَسَاء التى كان يجب تقديمها لجعل المأدبة شهية، فإن الزَّرَب Zarab التقليدى الناتج عن اللحم المشوى (خاصة لحم الخراف والماعز) ببطء على الأحجار الساخنة ما زال هو المفضل؛ إذ كان مدعاة للفخر عند تقديمه. وكان استيراد الفاكهة مكلفا لتعرُّضها للفساد عند المرور بها فى الصحراء رغم أن الأعناب التى تنتجها الواحات، وكذلك البطيخ والخيار وتمور المدينة المشهورة كان يمكن تقديمها مع الأقراص (الكعك) التقليدية فى الصحراء للمسافرين الجوعى، تلك الأقراص المعمولة من بقسماط مطحون ومضغوط مع تمور ولوز وفستق.

وكان عثمان من الناحية العقائدية محافظا تماما، فقد أدى اهتمامه بالدراسات الدينية إلى محاولة العودة إلى المثل الأول الذى ضربه النبى بأدائه ركعتين إضافيتين غير الركعتين التقليديتين أثناء الوقوف بعرفة ـ أحد شعائر الحج ـ وقد نتج عن هذا جدال كثير فاق الجدال الذى نشأ من أىٍّ من مقترحاته. ورغم أن هذا الخلاف ربما أصبح الآن هامشيا ضئيلا، إلا أنه يبين كيف أن المسلمين الأوائل كانوا يراعون ـ بدقة ـ الالتزام بالشعائر القائمة. ومن إصلاحات عثمان الإدارية الأخرى فى ممارسة الصلوات اليومية التى كانت أقل إثارة للنزاع ودخلت بعد ذلك فى نُظُم العبادة الإسلامية

واستمرت حتى الآن، أمره بأذان ثانٍ فى ظهيرة يوم الجمعة للتأكيد على المسلمين بضرورة حضور هذه الصلاة الجامعة (صلاة الجمعة)، وعثمان هو الذى بدأ تقديم وجبات الطعام فى شهر رمضان مع زيادة الأنصبة (الحصص) اليومية. واستخدام أموال بيت المال (خزانة الدولة) لصيانة المساجد وترميمها، وإنشاء مساجد جديدة (وكان هذا ابتداعا جديدا مهما إذا قورن بما كان فى عهد النبى محمد، عندما كان القائمون على بناء المساجد وترميمها يفعلون ذلك تطوعا أى بدون أجر، وقد أُقيم المسجد النبوى بجهود جماعية تطوعية من جماعة المسلمين). وعيَّن مؤذِّنين يتقاضون أجورا، أما قبل ذلك فكان عمل المؤذن تطوعيا وشرفيا. وكان عثمان أول من عين أربعة مؤذنين بأجر منتظم لمسجد المدينة الجامع (المسجد النبوى)، وكان يشترط فى المؤذن أن يكون تقيا موضع ثقة قادرا على تحديد مواقيت الصلوات دقيقا منضبطا. وكلما اتسعت إمبراطورية المسلمين زاد عددهم وتناقصت قيمتهم (أوضاعهم)، لدرجة أنه لم يعد من غير المألوف أن يكون هناك ثلاثة مؤذنين يؤذنون فى شرفة المئذنة، كل واحد يؤذن فى اتجاه. وقد سجل ابن بطوطة رحَّالة العصور الوسطى الشهير أنه كان هناك سبعون مؤذنا مُعيَّنون للأذان فى مسجد دمشق الجامع، بينما وجدنا فى القرن السادس عشر أن مآذن المساجد العثمانية الكبرى النحيلة الشبيهة بالأقلام قد زُوِّدت كل واحدة منها بالعديد من الشرفات (حيث يقف المؤذنون لإقامة الأذان). أما المسجد الأزرق الذى أنشأه السلطان أحمد فى إسطنبول ففيه ذروة الإسفاف (المبالغة)؛ إذ حوت مآذنه الستُّ، ستَّ عشرة شرفة. ويتيح وجود شرفة المئذنة فى موقع مرتفع، للمؤذن، أن يطَّلع على ما فى الأحواش الخاصة بل والأجزاء الممنوع اطلاع الغرباء عليها فى البيوت for-bidden quarters، وفى بعض المساجد يتدرب المؤذن على الصعود إلى شرفة المئذنة وهو معصوب العينين أو أن يقسم على كتمان السر، وفى بعض الأحيان يتم تعيين العميان أو أنصاف العميان (ضعيفى النظر جدًا) كمؤذنين، وذلك على سبيل الإحسان (اعتبار ذلك عملا يُقصد به وجه الله). وتم تعيين موظف رسمى فى المسجد هو الميقاتى، أى المختص بتحديد مواقيت الصلاة، وبالنسبة لتحديد مواقيت الصلاة فقد كان فى الأزهر - أخيرًا - ست مزاول (جمع مِزْوَلَة sundials) لمعرفة الوقت، واحتفظ الأزهر بميزة رفع أذان الصلاة لأول مرة (بمعنى أن مآذن الأزهر كانت هى أول مآذن ينطلق منها الأذان) وبعدها ينطلق الأذان من مختلف مساجد المدينة. وفى داخل المسجد حيث تُقام الصلاة كان المؤذن غالبًا ما يجلس فوق دكَّة (مقعد) مرتفعة بين عمودين من

أعمدة المسجد، ليؤذن مرة أخرى بين المصلين لصلاة الجمعة ولتلاوة القرآن فى المناسبات الدينية وخلال شهر رمضان. ومن المفترض أن المؤذن وحده هو الذى يبدأ الأذان ووجهه إزاء القبلة (أى فى اتجاه مكة)، ثم يقيم الأذان متوجهًا ذات اليمين ثم متوجها ذات الشمال. وكان أول مؤذن فى المدينة وهو بلال (المترجم: وكان أيضا هو أول مؤذن فى مكة) قد أضاف عبارة: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله عند الأذان لصلاة الفجر. وبعد موت النبى لم يعد بلال راغبا فى مواصلة عمله (الأذان) وإنما تطوع لخوض الحرب فى الجبهة الشامية قبل أن يستقر بشكل دائم فى دمشق فحثه عمر على رفع الأذان مرة أخرى، فلما سمع القادة (الجنرالات) والولاة والفاتحون صوته النقى تذكروا أيام البراءة الأولى - عندما كان الإسلام ناشئا فىْ الواحة (المدينة)، ففاضت أعينهم بالدموع. وفى المدينة كان المؤذن يخاطب أبا بكر قائلا: يا خليفة رسول الله، أما عمر وعثمان فكان يُشار إليهما عند رفع أذان الفجر بعبارة أمير المؤمنين - لقد تطورت تبريكات الصباح هذه لتُعتبر اعترافا حيويا بسلطة الحاكم فى مجتمع المسلمين. وفى قرون تالية انتشرت عادة ذكر حكام الولايات بعد ذكر السلطان عقب ذكر الخليفة القابع بعيدا فى بغداد، وعندما حكم صلاح الدين الأيوبى ألغى كل هذا وأعاد الأذان إلى النص الذى كان يؤذن به بلال. لقد أزاح صلاح الدين من الأذان عبارات النفاق هذه، واثقا من نفسه مكتفيا بأن يسمع الصلاة والتسليم على محمد النبى. ورغم أن المؤذن أصبح شخصية مميزة واضحة المعالم فى تحديد ملامح الإسلام خاصة فى نظر غير المسلمين، إلا أنه فى عهد عثمان لم يكن أكثر من موظف يتقاضى أجرا، ولم يكن يتمتع بأية وضعية كهنوتية (ذات ظلال مرتبطة بالبركة وما إلى ذلك).

لقد كانت شخصية عثمان مختلفة بشكل واضح عن شخصية كل من أبى بكر وعمر. لقد كان أثره فى مستقبل الإسلام واضحا وحاسما decisive. ومن المدهش أن نتذكر كيف أنجز هذا الشيخ ذو اللحية التى وخَطها الشيب كل هذا، مع أنه تولى الخلافة وهو فى السبعين من عمره. لقد أُصيب عثمان بالرعاف (النزف الأنفى) خلال العام الأول من حكمه، وكانت الإصابة خطيرة لدرجة منعته من أن يكون على رأس الحجاج فى ذلك العام، وكان هذا الداء منتشرا فى شبه الجزيرة العربية فى ذلك العام. لكن عُمْر عثمان وإصابته لم يوهنا من عزيمته فأنجز كل هذه الإنجازات رغم الحرب المستمرة على كل جبهات الإمبراطورية طوال عشر سنوات. لقد سمع عثمان وهو يشارك فى دفن عمر من يقول: مَنْ منَّا مثل عمر (أى ليس فينا من هو فى مثل تقوى عمر ونقائه و... إلخ).

ولقد شارك العالم كله هذا القائل فى قوله، فعندما انتشر خبر موت الخليفة العظيم (عمر) قامت على الفور ثورات revolts؛ إذ رأت الأمم المفتوحة والتى أصبحت ضمن إمبراطورية المسلمين، أن الفرصة سانحة لاستعادة استقلالها. لقد نشبت فى فارس بشكل خاص، تمردات محلية لا حصر لها لدرجة أنه فى الفترة من ٦٤٤ إلى ٦٤٩ دخل جيشا المسلمين الكبيران فى كل من الكوفة والبصرة فى سلسلة من المعارك. أما الولايات الأكثر بُعْدًا فى المناطق الجبلية فى أرمينيا وأذربيجان والقوقاز، فسرعان ما استعادت استقلالها Self-dominion. لقد قاوموا الهجمات العربية المضادة الدؤوبة ودمروا ـ على الأقل ـ جيشين عربيين، كان أحدهما يضم على الأقل ٤٠٠٠ رتل Column من المقاتلين المسلمين الأشداء سيذكرون بذلك أنهم شهداء نموذجيون iconic martyrs؛ لأنهم عندما حاصرهم الخزر الأتراك khazars واصلوا القتال معبرين عن عقيدتهم بالهتاف: الله أكبر، حتى سقط آخر شهدائهم. لقد اتصل القتال طوال خمس سنوات على الأقل (معارك ومعارك مضادة)؛ حتى تم أخيرا ترسيخ سلطة المسلمين على أرض الإمبراطورية الفارسية القديمة. وبحلول سنة ٦٥٠، أصبحت جيوش المسلمين ـ مرة أخرى ـ فى وضع هجومى واندفعت متوغلة فى أواسط آسيا (آسيا الوسطى central Asia) فوصلت للمدن القديمة مثل هيرات (حيرات) وَمرْو وبَلْخ وكابول، وجعلت منها مواقع متقدمة (أمامية) Outposts. لقد كان ما فعلوه صورة طبق الأصل للجبهة التى وصل إليها الإسكندر الأكبر. وبعد ذلك بعامين تم اغتيال يزدجرد آخر وارث للعرش الساسانى فى كوخ طحَّان بسبب جواهر قليلة كان لا يزال هذا الملك اللاجئ يحتفظ بها. وقد كانت هذه النهاية الحزينة لأسرة مالكة كبيرة محل تذكُّر دائم من الكنيسة النسطورية التى استفادت من تسامح الساسانيين وتنوُّرهم، بينما ظل الپارسيون parsis وهم بقايا الثقافة الزرادشتية القديمة التى استمرت ألف سنة، يتمسكون حتى الآن بتقويمهم الحديث الذى يبدأ من موت يزدجرد.

ومصر أيضًا ثارت فى سنة ٦٤٤، وهو العام الأول من حكم عثمان، مدعومة بهجوم مضاد شرس شنته الإمبراطورية البيزنطية التى أرسلت أسطولا من ثلاثمائة سفينة إلى ميناء الإسكندرية الكبير، فهب سكان الإسكندرية الناطقون باليونانية دعما للأسطول البيزنطى وقتلوا ١٠٠٠ (ألف) جندى من جنود الحامية العربية. عندئذ قاد الجنرال البيزنطى مانويل Manuel جنوده فى حملة مصممة لإعادة احتلال الدلتا، وبدا فى بعض الأوقات قادرًا على طرد كل العرب من مصر. لقد كان الموقف ذا خطر مزدوج

بالنسبة لعثمان. فقد كان عثمان قد عَمَد إلى إبعاد الجنرال (العائد) عمرو الفاتح الشهير وعيَّن بدلا منه عبد الله المعروف بكفاءته فى الأمور المالية، وكان عثمان يهدف من هذا إلى زيادة العوائد المالية التى تحصِّلها جهة الإدارة فى مصر. لكن بعد هذا الغزو البيزنطى المضاد عهد عثمان إلى عمرو بالقيادة العسكرية فاستقر الوضع لصالح المسلمين، فعمرو بخبرته القتالية الطويلة فى مصر، نجح فى استدراج مانويل وجيشه جنوبا حيث المناطق التى تستطيع فيها الجيوش العربية أن تتحرك بسرعة. ومرة أخرى اختار عمرو نيكيو Nikiou على الحافة الغربية للدلتا لتكون هى ميدان القتال. وتشير الروايات الباقية إلى أن المعركة الثانية فى نيكيو Nikiou كانت شرسة فى بدايتها، لكن الجيش العربى المسلم بقيادة عمرو، والبالغ عدده ١٥ ألف مقاتل، أستطاع السيطرة فى النهاية. وأدت سلسلة من الاشتباكات إلى دفع مانويل إلى الخلف ليصل إلى حيث أمان أسوار الإسكندرية، رغم أن عمرو استطاع مرة أخرى بالخداع أو الحصار أن يدخل المدينة فاتحًا فى سنة ٦٤٦. فى هذه المرة لم يكن هناك مَنْجًى للمواطنين المتمردين سوى الذبح أو الاسترقاق على وفق هوى الفاتحين. الذين دمروا ـ أيضا ـ نصف المدينة ونهبوها قبل أن يأمر عمرو بوقف أعمال النهب. لقد كان الهدف هو ألا تعود الإسكندرية صالحة بعد ذلك لأن تكون قاعدة آمنة للجيش البيزنطى، فقد سُوِّيت كل الأسوار المواجهة للشرق بالأرض. وفيما بعد الحرب قدم بنيامين بطريارك الكنيسة القبطية المصرية قضية شعبه بمنطق مقنع. لقد ساق الحجج المؤيِّدة لشعبه قائلا إنهم حقيقة قد قاوموا عَمْرًا بشجاعة عند الغزو العربى الأول لكن هذه الثورة (التمرد) كان هجمة سرية شنتها الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية اليونانية (ذات المذهب الأرثوذكسى اليونانى)، ولم يكن شعب بنيامين بقادر على أن يفعل شيئا. واقتنع عمرو لدرجة أنه وافق على احتفاظهم بممتلكاتهم، بل ووافق على رد ما كانوا يدفعونه من جزية (ضريبة رأس) لأن الجيش العربى المسلم فشل فى تنفيذ تعهداته بحمايتهم من الغزو الخارجى.

وبعد أن تأكد انتصار المسلمين، أظهر عثمان مرة أخرى تصميمه على سياسته بعد شىء من التعديل؛ إذ أصبح من الممكن أن يبقى عمرو البطل المنتصر فى معارك الفتح الثانى لمصر ـ كقائد عام ووالٍ Governer-General ومقره الفسطاط، على أن تكون الأمور المالية تحت الرعاية المباشرة المستقلة لعبد الله. واعترض عمرو قائلاً: «هل أقبض أنا على قرنَى البقرة ليحلبها غيرى؟!» فها هو عمرو الآن قد أصبح مُقلَّص

السلطات بينما يترسخ عبد الله من جديد، وقد امتدح أحد المؤرخين المسلمين عبد الله واصفًا إيَّاه بأنه أذكى قرشى، لكنه - أى عبدالله - وجد صعوبة كبيرة فى فرض سلطته المعنوية (المدنية) على جيش المسلمين الذى استاء من سوء معاملة قائدهم البطل عمرو. لذلك ربما كان أمر عثمان بشن غارات على الشمال الأفريقى فى العام التالى، مجرد تدبير سياسى داخلى أكثر من أى شىء آخر.

وهكذا تجمعت قوة عسكرية معتبرة، وأرسل عثمان ٢٠ ألف جندى لينضموا إلى الجيش الموجود فى مصر بالفعل والذى وصل عدده إلى ٢٠ ألفًا وفى سنة ٦٤٧، قاد عبد الله هذه القوات فى اتجاه الغرب عابرا ليبيا التى كان عمرو قد ضمها منذ خمس سنوات مضت. وخرج حاكم (والى) تونس البيزنطى من مدينته المسوَّرة قرطاج ليقيم بجيشه فى سُبَيْطلة المدينة المركزية الواقعة فى السهوب الجنوبية. تحول المعبد الرومانى الثلاثى الرائع فى الساحة الواسعة إلى قلعة بيزنطية. هنا أسَّس جريجورى نائب الإمبراطور مقره الذى أقام فيه مع ابنته الرائعة. وكانت السهوب الجنوبية مكانا مناسبا تماما لجيش العرب سريع الحركة المكون فى الأساس من الفرسان، لكن كان لنائب الإمبراطور البيزنطى أسبابه لاختيار سبيطلة مكانا للقاء، فعند هذه الحافة الجنوبية لولايته جمع فرسانا من المناطق الجبلية حيث البربر الأشداء الذين يدافعون عن استقلالهم بضراوة ومن السهوب الصحراوية ليساعدوه فى الدفاع عن الشمال الأفريقى. ولمزيد من التشجيع لقادة البربر المعتزين بأنفسهم، وعد بتزويج ابنته لمن يحضر له رأس عبد الله قائد جيش المسلمين العرب. وكان سكان تونس قد غرقوا فى أفكار ألفيَّة (متعلقة بعصر قادم سعيد) بالتبشير بمُخلِّص هو آبوت مكسيموس Abbot Maximus. كانت معركة سبيطلة معركة قاسية على الطرفين المتحاربين، لكن الجيش العربى القوى المكون من ٤٠ ألفًا هو الذى سيطر على الموقف فى النهاية. وتراجع رهان جريجورى على ابنته على يد عبد الله، ذلك لأن ابنة نائب الإمبراطور أصبحت محظية للرجل (عبد الله) الذى قطع رأس أبيها. وأرسل عبد الله الذى حارب ببسالة ليزف أخبار النصر للخليفة فى المدينة (المنورة). ورغم تدمير الجيش البيزنطى إلا أن عبد الله كان حذرا فلم يدخل فى عمليات حربية أخرى ضد قبائل البربر فى الجبال أو ضد المدن المسورة على الساحل التونسى، وبدلا من ذلك فقد سمح لنفسه أن يحصل على جزية كبيرة من بساتين الزيتون التونسية الشاسعة. وعاد إلى مصر محملا بالأسرى والغنائم وبسمعة أحسن نسبيا عن ذى قبل بين جنوده. وعلى أية حال، فقد

نشب نزاع بعد ذلك حول هذه الغنائم، لأن عثمان بن عفان أعطى خُمْسها لعبد الله من باب الكرم، واشتكى الناس لأن مروان ابن عم الخليفة وسكرتيره الشاب قد حقق أرباحًا كبيرة جدًا بمضاربته بشكل خاص على نصيب الدولة من هذه الغنائم.

وعلى أية حال، فقد أقنعت هذه المعركة عبد الله بحاجة العرب إلى أسطول، ذلك أن ركوب الخيول (وغيرها من الدواب) على طول الساحل الأفريقى الشمالى الذى كان آنئذ يحوى كثيرا من الموانئ المسورة والحصون المتباعد بعضها عن الآخر، يجعل من المستحيل فتح هذه الأنحاء دون أسطول، بالإضافة إلى أن القوى البيزنطية فى كريت وصقلية وقبرص والجنوب الإيطالى ستكون دائما - قادرة على شن هجوم مضاد وتحريض البربر على العصيان بمجرد تحرك الجيش العربى واختفائه عن أنظارهم beyond horizon. وكان الهجوم البيزنطى المضاد على مصر وسرعة احتلالهم الإسكندرية للمرة الثانية، مثالا حيا كامنا فى ذهنه. ورغم أن عمر بن الخطاب سبق أن أصدر أوامر واضحة بألا يسمح جيش من جيوش المسلمين لنفسه بأن يعزله بحر عن حضن الصحراء الحامية، إلا أن عثمان بدأ يصغى لموضوع إنشاء أسطول، الذى كان يؤيده بفاعلية - أيضا - معاوية والى الشام. فقد كتب معاوية إلى قريبه الخليفة عثمان ليؤكد له أن البيزنطيين الذين يحكمون جزيرة قبرص قريبون جدًا من سواحل الشام بحيث يمكنك من هذه السواحل سماع نباح كلابهم. ومن المؤكد أن هذا أمر حقيقى، ففى يوم صافٍ صفاء شديدًا بشكل استثنائى يمكنك أن تلمح - مجرد لمحة - جبال الشام من الطرف البعيد لشبه جزيرة كارپاس Karpas القبرصية، لكن الطريقة الوحيدة التى يمكنك بها سماع نباح كلب فى قبرص، بينما أنت فى الشام، فهو أن تلتقط الصدى من هدير البحر. وقد اقتنع عثمان لكنه اشترط شرطين: ألاَّ تضم أول غارة بحرية يقوم بها المسلمون سوى المتطوعين، وإذا كان قائد الأسطول متأكدًا من النصر فعليه أن يصحب زوجته معه، ليؤكد له (لعثمان) جديته.

والهجمة المشتركة التى قام بها معا كل من عبد الله ومعاوية، مع بحارة مصريين وسوريين قادوا السفن التى صُنعت فى الإسكندرية وعكا، أما المقاتلون العرب فقد كانوا على ظهر السفينة - وقد حققت هذه الهجمة نجاحا وأنجزت انتصارا. لقد فتح العرب قبرص فى سنة ٦٤٩، وجرى الاتفاق على أن تدفع للخليفة الضريبة نفسها التى كانت تدفعها للإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية وقيمتها سبعة آلاف درهم فى السنة.

لم تحدث اشتباكات بالمعنى الحرفى للكلمة، فالإصابة الوحيدة التى حدثت هى ما جرى لرُمَيْشة بنت ملحان إذ تعثر بغلها على شاطئ بحيرة لارناكا Larnaca، وعلى وفق ما ذكره المؤرخ ابن الأثير فانكسرت رقبتها الشفافة pellucied، وأسلمت روحها المنتصرة وتم دفنها فى هذه الجزيرة التى تفوح عطرا. لقد رقدت بنت ملحان بين أنصاب حجرية تعود لفترة ما قبل التاريخ، بينما كان زوجها الثانى ـ رئيس القضاة فى إحدى الحاميات فى فلسطين يتلو الدعوات (يؤمُّ المصلين). لقد كان دفنها بمثابة عُرْس سعيد لأن رميشة كانت صحابية (حقيقة إن زوجها الأول كان زعيما لإحدى العشائر المهمة فى المدينة وكان من أوائل المستشهدين)، وكانت قريبة لأنس (بن مالك) أحد الصحابة المقربين للنبى. وكانت رميشة قد رأت حلما موحيا يفيد أن لها قصرا فى الجنة وأنها شهيدة لكن فى غير ميدان المعركة. وأخيرا تحقق الحلم وأصبح مفهوما (بموتها فى قبرص فى غير معركة). وقد أقام العثمانيون فى موضع دفنها مسجدا جميلا ذا قبة على حافة بحيرة مياه مالحة ترفرف فوقها طيور البشروس (الفلامنجو)، ويحيط بالقبة شريط أسود (علامة الحداد)، والموضع محاط بأشجار الليمون والنخيل، وبذا ظل مقاما (قبرا) Shrine لا يزال معطرا (تفوح منه ريح طيبة)، ويُعرف محليا باسم قبر أم حرام أى قبر الأم التقية(٣) pious mother.

وظل الأسطول العربى الجديد ينتظر المزيد من التجريب، وحدث هذا بعد ثلاث سنوات عندما وصل أسطول بيزنطى جديد مهددًا سواحل الإسكندرية، فقدم بذلك الأدلة الكافية على صحة الاهتمامات الاستراتيجية لكل من عبد الله ومعاوية. وسرعان ما تم إنزال الأسطول العربى غير المدرب إلى البحر ليشتبك مع الأسطول البيزنطى الأكثر منه خبرة بكثير. ولم تكن المعركة حاسمة، رغم أن العرب كان يمكنهم الاحتفاء بهذا اليوم باعتباره نصرا لهم لأن الأدميرال البيزنطى أعطى إشارة لأسطوله للتوجه إلى حيث أمان سيراكوز Syracuse. وهنا اعترى الغضب أهل صقلية للخزى الذى حاق بالجيش البيزنطى، فدخلوا قصر الأدميرال وأعدموه فى حمَّامه دون محاكمة. واعتبر معاوية أن جزيرة قبرص المسالمة قد خرقت بنود المعاهدة وساعدت البيزنطيين فى هذه العملية البحرية، لذا فقد أمر فى العام التالى ٦٥٣ بإنزال برى آخر فى الجزيرة، وتم نهب المدن الساحلية وحملت السفن العربية عددا كبيرا من الأسرى، وتمت مَرْكَزة حامية دائمة من ١٢ ألف مقاتل فى الجزيرة. لم تكن هذه سوى مناورات مبدئية للتحول الكبير فى تاريخ البحر المتوسط، عندما خاض أسطول المسلمين معركة ضد الأسطول

البيزنطى فى وَقْعة ذات الصوارى عند الساحل الليسيانى Lycian لتركيا. لقد عوض العرب النقص فى خبرتهم البحرية بشجاعتهم الفائقة، وبمناوراتهم لجر أعدائهم لتحويل الحرب البحرية إلى حرب برية. فحضور أخى الإمبراطور قسطنطين الثانى (حفيد هرقل) لم يكن ذا تأثير فى ذلك اليوم الذى شهد ميلاد قوة بحرية عربية. وبعد النصر، ظهر عبد الله بن قيس كأول بطل مسلم مقاتل فى البحر (قرصان عربى). لقد انتصر فى خمسين معركة. إنه هو الذى بدا مثل تاجر لكنه قدم هدايا لا يقدمها إلا الملوك، وأخيرا سينهى أيامه معلقا على المشنقة بعد أن حاصره أعداؤه وهو يتجسس على ميناء بيزنطى آخر وكان متخفيا (مرتديا قناعا). لقد ألقى الدور الملحمى (البطولى) لعبد الله بن قيس بظلاله على القراصنة سيئى السمعة الذين سيظهرون فى هذه المياه نفسها بعد ألف سنة، مثل بارباروسا والريس دراجوت والريس تورجوت، أما أعمال عبد الله بن قيس نفسها فقد أظلتها رائحة بطولات الأوديسة. إن هذه المآثر والأعمال الجليلة كالتى قام بها عبد الله بن قيس، هى التى مهدت الطريق للمحاولة البطولية المتمثلة فى محاصرة القسطنطينية (٦٧٤ - ٦٧٩) بعد أقل من جيل من نزول المقاتلين العرب مضمار الحرب البحرية.

لم تكن كل المبادرات العسكرية التى قامت بها الخلافة محققة لمثل هذا النجاح. فقد انتهت الغزوات الأولى للساحل السودانى والإثيوبى (أثناء خلافة عمر) بتحطم الأسطول العربى على سواحل البحر الأحمر، وفى العام نفسه ثار بركان قديم خارج المدينة (المنورة). وفى عهد عثمان جرت محاولة أخرى لفتح السودان، رغم أنه كان على الجيش فى هذه المرة أن يتجه جنوبا بمحاذاة النيل. فالچنرال (القائد) الذى ركب مع مقاتليه الدواب عبر الصحراء الأفريقية الكبرى فاتحا فزّان الليبية، ونعنى به عقبة بن نافع، قام بعد ذلك بفتح بطولى مجتاحا تونس والجزائر والمغرب الأقصى، لكنه توقف أمام رماة السهام archers من أهل النوبة، وبعد ذلك بسنوات قلائل قاد حاكم مصر العسكرى عبد الله حملة أكبر فى السودان، لكن العرب وجدوا أنفسهم مرة أخرى بلا حول ولا قوة أمام قذف الرماح الدقيق والمحكم الذى امتاز به أهل النوبة عند دفاعهم عن سهوب بلادهم. وعندما انسحب الجيش العربى إلى صعيد مصر كان من بين صفوفه نسبة كبيرة من العميان؛ لأن رماة السهام ورماة الرماح النوبيين كانوا يتعمدون إصابة أعين مهاجميهم. وتم عقد هدنة ووافق الطرفان على ترسيم الحدود. وتم أيضًا توقيع اتفاق تجارى رسمى يسمح بشراء ٣٦٠ عبدًا سنويًا مقابل غلال مصرية. (وسيبقى السودان

وعقيدته المسيحية القبطية مستقلا عن مصر التى يحكمها المسلمون طوال خمسمائة سنة أخرى، حتى استطاع سلاطين المماليك أن يمدوا حدود الإسلام والسلطة جنوبا فى القرن الرابع عشر).

إلا أن أعظم إنجازات عثمان وأكثرها بقاء ليست هى الإنجازات العسكرية أو السياسية أو الإدارية، وإنما تمثل هذا الإنجاز الأعظم فى إقراره إيجاد نص مكتوب محدد (ومتفق عليه) للقرآن المُوحَى به. فى البداية بدا هذا العمل مجرد استمرار لجهوده الخاصة، كجزء من تكريس حياته بإخلاص لمحاولة فهم الرسالة التى أُوحيت للنبى فهما كاملا. لكنه عندما أصبح خليفة للمسلمين بدأ يرى أن دراساته الخاصة وتأملاته لا بد أن يشاركه فيها كل عالم المسلمين. وربما يكون قد توقع أن تأتى فترة يزداد فيها التنافس بين معسكرات الجيش المختلفة، وكان هذا بالفعل قائما بين قارئى القرآن المتنافسين مما قد يتطور إلى اختلافهم حول النص.

بادئ ذى بدء، عيَّن عثمان لجنة داخلية لتحرير النص القرآنى جاعلا على رأسها زيد بن ثابت أكبر الذين كتبوا لمحمد النبى (أكبر سكرتيرى النبى) يساعده عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث يساعدهم فى عملهم كل الصحابة الذين كانوا وقتها فى قيد الحياة. وطلب عثمان إحضار كل ما يمكن إحضاره من كتابات لآيات أو سور قرآنية من حاميات الولايات ومن مكتبات المنازل فى المدينة (المنوّرة) ومكّة. إلاّ أنه لم يتم تسليم كل هذه الكتابات، رغم أنَّه تسلم بالفعل عددًا كبيرًا من هذه الرّقاع الثمينة (★) وبعضها كُتب على عظام أكتاف (الإبل مثلاً)، وبعضها على ألواح حجرية وبعضها على جريد النخل... وسجل زيد ولجنته أسماء مرتّلى القرآن الذين يباشرون بالفعل هذا العمل. وبالإضافة لهذا كان هناك نسخة أقدم ـ proto فى حوزة حفصة ابنة عمر التى هى أيضا إحدى زوجات النبى التى كانت هى الأكثر دقّة وانضباطا. ويُعتقد أن نسخة حفصة هذه كانت تشتمل على بعض من أقدم ما كتبه كُتَّاب الوحى (أقدم ما كتبه النبى وسكرتيروه).

(★) على فرض صحة أنه لم يتم تسليم كل الكتابات فقد وضعت اللجنة شروطًا لكتابة كل آية قرآنية فى المصحف وهى شهادة أربعة، وقد استوفت شروطها ووثائقها مما وصل إليها من كتابات وشهود: حتى إنهم دقَّقُوا فى آخر آية فى سورة التوبة حتى اكتفوا بشهادة ثلاثة كان الرسول ﷺ من قبل قد زكَّى شهادة أحدهم فجعلها بشاهدين، فعملوا بالحديث واكتفوا بشهادته مع اثنين فصارت أربع شهادات. (المعلق).

وكان جُمَّاع القرآن متحفظين تمامًا ورفضوا تدوين أى تناقض مهما قلّ بين بعض الآيات أو فصل أية سور بدا أنها مزج (خلط) بين سورتين أو ثلاثة من الوحى التاريخى (المقصود : كما نزل على النبى)، فعلى سبيل المثال كان من المعروف أن السّورة التاسعة نزلت فى المدينة فيما عدا الآيتين الأخيرتين منها، فقد كانتا تُتليان منذ بادئ الأمر فى مكّة. وأدخل المحررون أيضا بعض العلامات النصيّة textual marks (ربما من نسخة حفصة) لم يتم اكتشاف معناها أبدا. وبسبب الممارسة الإسلامية الباكرة ـ ممارسة ترتيل القرآن طوال الليل، لم يكن هناك نص مكتوب محرّر؛ لأن التلاوة الصحيحة للقرآن كانت قد اكتملت بالفعل خلال حياة النبى. وهناك إشارات لهذا فى النص القرآنى نفسه كما فى السورة ٧٣ (المزمل، الآية: ٤) ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (لا علاقة لهذه الآية بالمعنى الذى يريد المؤلف إثباته: He put together and arranged well... وكما فى السورة (١٦، الآيات: ١٠١- ١٠٣) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَة وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ (١٠٣)﴾ سورة النحل (١٠١- ١٠٣)، وفى السورة ٢٥، الآية: ٣٢ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ (الفرقان: ٣٢). (المترجم : معنى الآية كما أورده المؤلف مختلف : لقد رتبناه بشكل صحيح We have arranged in right order)، وفى السورة ٢٣، الآية: ٣٢ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٣٢)﴾ (المؤمنون: ٣٢). (المترجم : لا علاقة لهذه الآية الكريمة بالسياق المطلوب إثباته ويبدو أن المؤلف أخطأ فى الاستشهاد). ولا يجب النظر لعثمان ولفريق العمل الذى عمل معه باعتبارهم محرّرين، فحقيقة الأمر أنهم كانوا مجرّد نسّاخ دقيقين لحدّ الوسوسة meticulous.

وبحلول سنة ٦٥٠، كان عثمان قد أكمل الإشراف على أول نسخة كاملة من القرآن: ٧٧ ألف كلمة تم تجميعها فى ٦٢١١ آية قُسِّمت على ١١٤ سورة (فصلاً)، وتم ترتيب السّور على وفق طولها ولم يحاول الجامعون ترتيب السور على وفق تاريخ نزولها. وسيتضح أن هذا الترتيب العشوائى (★) كان ذا أهمية كبيرة جدًا فى العصور التالية.

(★) ترتيب القرآن ليس ترتيبًا عشوائيًا، وليس على وفق طول السورة أو قصرها، وإنما هو ترتيب توفيقى أى مُوحًى به من الله عز وجل إلى محمد ﷺ: ولذلك لا دخل للبشر بمن فيهم محمد ﷺ نفسه أىَّ دخل فى هذا الترتيب. (المعلق).

ولا يمكن النظر لأية سورة باعتبارها منفصلة عن السور الأخرى ولا باعتبارها أكثر تحديدا من غيرها لأن أحدا لا يدرى إن كانت نزلت متأخرة أم سابقة، وحتى إذا أمكن هذا فهذا لا يعنى شيئا لأنها جميعا نزلت من عند الله وبالتالى لابد أن تكون جميعا صحيحة وموثوقا بها. فكل القرآن متساوٍ فى قيمته وهمينته؛ مما يجعل الآيات التى تبدو متناقضة مجال اهتمام غير عادى. فعلى سبيل المثال، فإن بعض سور القرآن تضم إجابات إلهية، لكنها لا تضم الأسئلة التى وجّهها البشر فكانت تلك الإجابات mortal question. والقرآن هو سلسلة من الإجابات عن سلسلة من الدعوات prayers والتأملات meditations والمشكلات الاجتماعية كان النبى يبحث عن إجابات لها، (فأتته الإجابة من عند الله، فكان القرآن). وراح العلماء المسلمون من كل العصور يعملون على إنشاء تفاسير شاملة يحاولون فيها استخلاص معانٍ محدّدة من السياق القرآنى، إلاّ أن هذه الجهود (التفاسير) رغم فائدتها الكبيرة يمكن أن تُستخدم ـ وبعمق ـ كأداة لاهوتية (كأداة لفهم العقيدة) theological، (وبذا تكون مصدرا ثانيا إلى جانب النص القرآنى flawed as a thoological tool) وبذا يصبح ما يقوله علماء الدين ـ مرّة أخرى ـ فوق مستوى الوحى الإلهى. وثمة قول شائع (بل آية قرآنية ـ المترجم) يلخص بعض الإحباطات للتحذيرات والتوضيحات التى لا نهاية لهما التى يقدمها الفقهاء وعلماء التوحيد Jurists & theologists ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مدَادًا لكَلمَات رَبِّى لَنَفدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بمثْله مَدَدًا (١٠٩)﴾ (الكهف، الآية: ١٠٩) (المترجم : المعانى التى أوردها المؤلف مختلفة بعض الشىء كالتالى: if all the grains of sand to paper the rivers of the world were turned to ink and there would still not be enough material to write down al the different meaning of the koran. وأهم الاختلافات فى المعانى أن الآية القرآنية أشارت إلى «كلمات ربى»، أما فى النص الإنجليزى فمعانى كلمات القرآن).

وهناك آخرون دلّلوا على أنه لكون القرآن وثيقة إلهية شديدة التعقيد، ولأن القرآن نزل لكل البشر ولكل الأزمنة ولكل المستويات الروحية وعلى وفق قدرة الناس بمختلف قدرتهم على الفهم ـ فلا يجب على المرء أن يهتم كثيرا بالأسئلة وإنما عليه التركيز على الحقيقة (الحقائق) الواضحة الظاهرة. وبعض الآيات لم يحن بَعْدُ أوان فهمها حق الفهم (لم تُفهم حتى الآن فهما كاملا) أو تنتظر حاجة الناس الذين تخاطبهم. لا بدّ أن تثق فى نفسك ودع روح الكتاب كله (القرآن) يدخل فى قلبك كى تستخدمه دليلا روحيا

يقرِّبك إلى الله. وبهذه الطريقة فى قراءة القرآن، لن تربكك التناقضات (★). وإنما ستكون طريقا لفهم أوسع. لقد فهم عثمان الأهمية الحيوية المطلقة للثقة فى القرآن، فلم يحاول أن يقوم إزاءه بدور المحرّر المنهجى ولم يحاول أن يقلصه ليجعل منه مجرد مصدر للشريعة a mere Law Code.

أما بالنسبة لقداسة النص القرآنى فقد تأكدت وحُفظت عن طريق البداية الشعائرية (الطقسية)، إذ لا يتم البدء فى قراءة أى نص قرآنى إلاّ مبدوءًا بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإذا ما انتهت القراءة خُتمت بعبارة «صدق الله العظيم».

وسورة الفاتحة الصغيرة التى لا تتعدى آياتها سبع آيات هى السورة التى يكررها المسلمون أكثر من غيرها؛ إذ يقرءونها فى كل الصلوات اليومية، وهى موضوعة فى بداية المصحف، ويُشار لها أيضا بعبارة (أُمّ الكتاب mother of the book) وباعتبارها جوهر الإسلام أو خلاصته:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

الحمد لله رب العالَمين، all worlds (أى كل العوالم وليس عالمين فقط)

الرحمن الرحيم،

مالك يوم الدين

إياك نعبد وإياك نستعين،

اهدنا الصراط المستقيم،

صراط الذين أنعمت عليهم،

غير المغضوب عليهم،

ولا الضالّين».

ولم يتم تجميع القرآن وكتابته على سلسلة من لفائف البردى، كما كان الحال بالنسبة للنصوص التقليدية المقدسة فى اليهودية، وإنما على صحائف من الرّق

(★) ليس القرآن شديد التعقيد ولا يتضمن آيات لم تُفهم بعد أو آيات تتناقض مع آيات أخرى. وإلا تعطلت غاية القرآن والغرض من نزوله «هدى للناس» والمعنى مكشوف وواضح ومتسق بعضه مع بعض فى كل عصر، ويمكن أن يزداد وضوحًا بزيادة الثقافة والعلم. لكن معرفة المراد منه بدرجة كافية متيسِّر فى كل زمان ومكان. (المعلق).

(بتشديد الراء وفتحها)، تُضم معا لتأخذ شكل كتاب، أى بالطريقة نفسها التى حفظ بها المسيحيون أناجيلهم. وهناك اختلاف مهم وهو أنّ اللغة العربية تُكتب من اليمين إلى الشمال. وبالنسبة للأثرياء الذين يمتلكون قطعانا كثيرة العدد، فإن امتلاك نسخة من الرّق (الجلد المرقق) يعد دليلاً مهمًا يشير إلى وضعيتهم، ذلك أن كلّ ورقة تمثل حيوانا غالى الثمن بعد أن تمت معالجة جلده معاملة خاصّة بتبييضه وتشميسه (تجفيفه فى الشمس)، ويُعمل الرّق من جلود الخراف أو الماعز. وعلى أية حال، فالقرآن منذ البداية يُعامل على أنه كتاب الكتب book of books؛ إذ يجب وضعه فى مكان يكون أعلى من كل ما حوله وأن يُلف فى قماش ليحمله المسافر الذى وضعه دائما فى مستوى فوق خاصرته، ولا يفتحه إلاّ وهو فى حالة طهارة طقسية (ألاّ يكون جُنُبا وأن يكون متوضّئا). وإذا كان المسلم مرتاحا بجلوسه على الأرض (بدون مقعد)، فالمصحف ـ دائما ـ يكون على كرسى خاص (فوق مستوى الأرض). ورغم أن كل سورة أو آية تحمل الآن رقما لتسهيل الرجوع إليها، إلاّ أنّ هذا ابتداع حديث. كما أن أسماء السور (سورة النحل، سورة البقرة.. إلخ) قد أُضيفت فى وقت لاحق a little later، باعتبار ذلك أداة للتذكّر كانت شائعة بين محبّى الشعر من العرب. وقد عرف اليهود أداة مشابهة لإنعاش الذاكرة عندما كان الملك داود يرتّل الآية المشهورة المعروفة باسم The Bow، مع أنها تضم مديحا وإطراء دبَّجه الملك داود تشريفا لشاول Saul ويوناثان Jonathan.

ولم يكن فى النص القرآنى الأول أية علامات ترقيم ولا نقاط ولا علامات صوتية diacritical، مما شاع بين النسّاخ العرب المحدثين. وقد أدّى هذا إلى اختلاف مثير فى قراءة بعض الكلمات، لأن بعض الحروف العربية لا يتحدد نطقها إلا بمثل هذه العلامات.. والأجيال اللاحقة من ناسخى المخطوطات كتبوا النص القرآنى كما وصل من نسخة عثمان بدون أى تغيير، بالحبر الأسود، أما ما أضافوه من تحديد للعلامات الصوتية ونقاط لتحديد نهايات الآيات فبلون آخر: الذهبى والأحمر والأصفر. هذه الاختلافات البسيطة ستُقنن بعد ذلك لتكوِّن القراءات السبع، التى ارتبطت أحيانا بلهجات القبائل حول مكة والمدينة أو بالقراء السبعة المشهورين فى مدن الحاميات (المدن التى تضم حاميات عسكرية مهمة). **ولم يؤدِّ هذا الاختلاف فى القراءات إلى أية تنافسات (صراعات) عقائدية أو لاهوتية (متعلقة بالتوحيد) أو أية أمور متعلقة**

بالسلالات الحاكمة تكون سببا فى حدوث صدع فى الإسلام بعد ذلك، ولم يكن هذا الاختلاف فى القراءات وراء الصدع الشهير بين السنة والشيعة، ولم يؤد إلى ظهور نصوص قرآنية مختلفة (★).

والروايات التقليدية تفيد أن عثمان طلب من النساخ إعداد أربع نسخ نقلا عن النسخة الأم فى غضون أربعة أشهر لإرسالها للآفاق (شرقا وغربا وشمالا وجنوبا)، فكانت هذه النسخ الأربع هى أساس الآلاف المؤلفة من النسخ (المصاحف) التى كُتبت فى القرون التالية. ليس هناك قطعة رق واحدة من المصحف العثمانى الأصلى يمكن التأكيد ـ إيجابيا ـ بأنها موجودة الآن، إلا أنه توجد بعض المصاحف الباكرة ـ ربما تعود لنهاية القرن السابع ـ محفوظة فى المسجد الكبير فى صنعاء باليمن وفى المسجد الكبير فى دمشق (★★).

لقد كان هذا العمل الذى قام به عثمان عملا عظيما مكسوا بالقداسة، عملا تم إنجازه بسرعة ودقة وموثوقية، ومع هذا فقد كان هناك بعض الاعتراضات. لقد سرت إشاعات بأن هناك آيات معينة (خاصة المتعلقة بازدراء العشيرة الأموية ـ عشيرة عثمان، والحط من قدرها)، وقال آخرون إن إحدى الماعز أكلت بعض السعف والجريد كان مكتوبا عليها بعض الآيات، وعلى أية حال فإن هذه الحكايات راجعة للخلط بين القرآن وأحاديث النبى.

بل إن عددًا قليلاً من الصحابة الأقدم سنًا اعترضوا حتى على فكرة تدوين القرآن فى حد ذاته، مفضلين أن يُتلى شفاهة ليكون نصا قرآنيا حيا مسموعا. وبعض القراء المشهورين الذين ارتبطوا بالمساجد الكبرى فى المدن التى بها حاميات عسكرية، كانوا بطبيعة الحال مزدرين لعملية التدوين التى رفعت الآن من قيمة النص المكتوب فوق ذاكرتهم (قدرتهم على تذكر النص القرآنى) لكن أحدا لم يكن فى مقدروه أن ينكر إنجاز عثمان الأعظم. لقد جمع كل المسلمين حول مرجع عام شامل يرجعون من خلاله إلى كلمة الله كما تلاها محمد النبى. وبعد أعوام، عندما سمع علىّ من بعض أتباعه فى الكوفة انتقادا لعمل عثمان لجمعه القرآن فى مصحف (إمام)، أسكتهم قائلا لهم

(★) هذا إنصاف من المؤلف أن القرآن بالفعل لم يؤدِّ إلى صراعات على الإطلاق ولا حتى الفرَق الإسلامية وتفسيراتها المختلفة، أدت إلى فُرْقة بين الأمة؛ لأن التفسيرات رغم اختلافها لم تؤد إلى خلاف جذرى لا بين السنة والشيعة ولا بين غيرهم. (المعلق).

(★★) وتوجد نسخة فى الأزهر الشريف وفى دار الكتب المصرية تضارع هذه النسخ فى القدَم. (المعلق).

بحماسة وحرارة: إن عثمان ما فعل هذا إلا بمشورة كل الصحابة، ولو كنت خليفة للمسلمين وقتها (أى علىّ) لفعلت ما فعله عثمان. إن عليًا الذى اعتبره البعض عدوًا لعثمان لإساءة فهمهم، يمتدح عثمان لجمعه القرآن.

وكان عام ٦٥٠ هو عام الذروة ـ ذروة الهدوء والإنجازات ـ فى حكم عثمان. لقد ظل حتى هذا التاريخ (٦٥٠) يحكم طوال ست سنوات مليئة بالإنجازات والسعادة والكرم، وفى العام التالى وقع حادث صغير عكر صفو حياته، فبعد هذا الحادث كانت إمبراطورية المسلمين الشابة وطوال السنوات الست الباقية من خلافة عثمان على شفا حرب أهلية. لقد كان الخليفة العجوز مهتما مرة أخرى بتأمين وصول الماء النقى للناس فى الواحة (المدينة) وكان هو نفسه على رأس مجموعة من العمّال لتعميق بئر أريس، وانحنى عثمان ممسكا بأصابعه الجدار الحجرى للبئر فلما حرك يده اليمنى ليشير لبعض الأحجار التى تحتاج لتثبيت أكثر انزلق من إصبعه الخاتم (الحلقة) القديم، وهوى فى الأعماق. ووقف عثمان مذعورا. لقد سقط من يد الخليفة الخاتم الختم Singer ring الذى كان يستخدمه النبى، وطوال الأسابيع التالية تم تفريغ البئر، وتمت إزاحة الطين منها للبحث عن الخاتم المفقود، دون فائدة، وكلما زادت فترة البحث (بدون جدوى) تعمقت الأحاسيس المتشائمة. لقد ضاع خاتم محمد. ضاع خاتم النبى! ورغم الفزع الخرافى (اللاعقلانى)، فقد كان المراسلون الذين يصلون للواحة لا يحملون معهم سوى الأخبار الطيبة عن جيوش المسلمين على الجبهة الفارسية. ففى كل شهر وفى كل عام كانت عَظَمة تُضاف إلى عظمة، ذلك أن جيوش الخلافة كانت تندفع دوما لتوسع حدود سلطة العرب وسلطان الإسلام أعمق وأعمق فى اتجاه الشرق. ولم يحدث إلا فى زمن لاحق كثيرا أن فُسِّرت هذه الحادثة (ضياع خاتم النبى الذى كان عثمان يضعه فى إصبعه) على أنها حد فاصل بين مرحلتين من مراحل خلافة عثمان، ست سنوات طيبة قبل ضياع الخاتم وست سنوات سيئة بعد ضياع الخاتم الذى كان منقوشًا عليه «الله خير الحاكمين».

كانت السنوات الست من حكم عثمان (٦٥١ - ٦٥٦) سنوات اضطرابات. لقد فشل عثمان فى اتباع نموذج عمر الحكيم، ذلك أن عمر عمد فى أواخر أعوام حكمه إلى تحجيم sacking الجنرالات الولاة (القادة العسكريين الذين عيَّنهم ولاة) حتى يظل محتفظا بسيطرة الحكومة المركزية على المدن البعيدة ذات الحاميات، وليوقف شخصيات مثل خالد بن الوليد عند حدهم حتى لا يظهروا أبطالا بين جنودهم. لقد كانت آخر تعيينات عمر التى لم تكن معتادة بالنسبة له، هو تعيينه الشرير الداهية

المغيرة بن شعبة، ذلك لأن حكم العرب كان فنا يتطلب مثل دهاء المغيرة وشره، **وقلما** توجد مثل هذه الصفات بين الصالحين والبسطاء والأتقياء. ولم يكن عمر وحده هو الذى اقتنع بهذا الرأى، فكل الناس فى شبه الجزيرة العربية يعلمون أن السياسات ما هى إلا إدارة أعمال قذرة. حقيقة إن عمر دبر الأمور ليضع مبدأ غير هذا المبدأ الآنف ذكره، ورفض علنا أن يعين صحابة النبى خشية تلوثهم فتتضاءل قيمتهم الروحية. **وهذا الاتجاه لا يزال واسع الانتشار بين كثيرين من المسلمين والعرب حتى أيامنا هذه، فلا بد أن تكون بعيدا عن السياسة إن أردت أن تحتفظ بشرفك وأن تبقى ملتزما بدينك صادقا معه، هذا** التشاؤم القائم فى محله (الصحيح) **مرتبط بالإدراك الدقيق بأن أولئك الذين ارتفعوا بالسيف، بالسيف سيسقطون، ساعد فى جعل سياسات العرب متسمة ـ على نحو خاص ـ** بالزئبقية (التقلب) **بشكل يفوق الحد (مكثف)، فأفضل الرجال** هو من **يبتعد عن المجال السياسى تاركا هذا المجال فى أيدى الكولونيلات الشباب الطموحين ورؤساء الشرطة والانتهازيين النشيطين. لأنه مقابل الحفنة الضئيلة من أبطال السياسة الملتزمين بالأخلاق الفاضلة** من العرب ممن هم على شاكلة صلاح الدين وأبى بكر وعمر، هناك آلاف مؤلفة من القادة العرب اتخذوا تراثا (طريقا) بديلا كالطريق الذى اتبعه المغيرة بن شعبة. وربما كان عثمان واعيا ـ كما وعى عمر قبله ـ بحقائق توازن القوى، فوقع فى مأزق كبير آخر، مأزق ارتبط بالسياسات العربية وهو ألا تثق إلا فى عشيرتك الأقربين وفى أسرتك.

وكان المغيرة انتهازيا من الطراز الأول (منذ تنفس هواء هذه الدنيا). لقد ارتبطت مهامه المنطوية على الدهاء والمكر بأسلوب حياته الصاخب المتهور وبارتباطات جنسية لا تعرف الحياء. إنه الرجل الصاخب الذى سُلطت عليه الأضواء فى بواكير الإسلام. إن حياته ومهامه تُقرأ وكأنها رواية تاريخية قلما تكون موضع ثقة. وقد وصفه وليم موير Muir «أنه شخصية ذات جوانب فجة بغيضة، لم تستطع زوجاته الأربع ولا محظياته العديدات أن يرضين نزعات عواطفه غير المنضبطة». لقد ظهر المغيرة فى حياة النبى محمد أول ما ظهر كلاجئ رقيق الحال احتمى بالمدينة (المنورة) بعد هروبه من بلده (الطائف) حيث أصله ومنزله، إذ كان أهل الطائف يطاردونه (للقبض عليه) لقتله ثلاثة عشر رجلا، وكان مُطالَبا بدية مقدارها ١٣٠٠ بعير (جمل). وباعتناق المغيرة للإسلام، برهن على أنه انتهازى أصيل ليس ـ فقط ـ لأنه حصل من النبى محمد على براءته لأن «الإسلام يجبُّ ما قبله» أى يلغى الآثام التى ارتكبها الإنسان قبل أن يدخل فيه. وإنما أيضا لأن الطائف (٦٣٠) ظلت معقلا للوثنية فنصح المغيرة محمداً النبى ذاكرًا له طبيعة

الانقسامات العشائرية داخل قبيلة ثقيف فى الطائف، وكانت هذه المعلومات مفيدة جدًا لدبلوماسية النبى محمد. وعندما تم حصار الطائف فى العام التالى كان فى استطاعة المغيرة الذى تاب وترك حياة التشرّد والانحراف errant أن يعود إلى مسقط رأسه لا من أبوابها الخلفية، وإنما دخلها شامخ الرأس باعتباره واحدا من ثلاثة سفراء ـ ولاة للإسلام ـ three ambassador governors of Islam. وكان المغيرة هو الذى دبر أمر تحطيم وثن السيدة اللات (الليدى لات) فى الطائف، وكان وثنا (أو ضريحا shrine) يبجله أهل الطائف، وقد أُشيع أنه ربح كثيرا من الاستيلاء على النذور الموضوعة فى الضريح (أو عند هذا الوثن)، والتى كانت تُدفن فى حرم الضريح (أو الوثن) طوال قرون.

وكان للمغيرة دائما لمسة سياسية رشيقة، فقد وجدناه فى وقت لاحق يساعد النبى فى صياغة معاهدات المسلمين مع اليمن والشام. بينما أتاح اتفاق السلام الذى توسط هو لعقده مع الطائف ـ أتاح لها (للطائف) الأمان أثناء حروب الردَّة. ولم تكن شجاعة المغيرة موضع شك رغم أنه كان ذا عين واحدة قادرة على الرؤية. فبعد معركة (يوم بستان الموت) فى سنة ٦٣٣ لم يعد يرى إلا بعين واحدة. وقد أتى تعيينه كقائد عام فى البصرة فى سنة ٦٣٨ فى لحظة حاسمة فى سياق الحرب مع الفرس، لأن القائد المنتصر عقبة كان قد مات لتوِّه، وكان عمر فى حاجة إلى بديل، وسرعان ما أثبت المغيرة أنه الإدراى المطلوب رغم عدم تقواه. ورغم أنه كانت لديه أربعون محظية جميلة ومرغوبة وأربع زوجات رائعات (هن الباقيات من ثمانين زوجة سبق أن تزوجهن على التوالى بحيث لا يجمع أكثر من أربع زوجات فى آنٍ واحد، أى أنه كان دائم الزواج والطلاق)، إلا أنه تطلع إلى أم جميل وهى بدوية مشهورة سيئة السمعة مستقلة العقل (تعمل ما يخطر ببالها). وقد اطَّلع على علاقتهما الجنسية بعض خصومه، فتوجهوا بعد ذلك للمسجد الجامع وأنزلوه من فوق المنبر باعتباره من الزناة. وسرعان ما وصلت التهمة إلى عمر، فاستدعى ـ على الفور ـ المغيرة إلى المدينة للتحقيق معه فى هذه التهمة. كان مطلوبا أربعة شهود، وقد أدلى ثلاثة بالفعل بشهادتهم وأقسموا أنهم رأوا مباشرة (رأى العين) عملية زنى، وجاء دور الشاهد الرابع (وسنكتب عنه المزيد فى وقت لاحق) فأحدث تغييرا طفيفا فى شهادته؛ إذ قال إنه رأى معه امرأة محجبة بحجاب أسود لكنه لا يستطيع أن يقسم الآن على أنها أم جميل. وبذا انهارت القضية، وكان عمر مضطرا للحذو حذو النبى (إقامة حد القذف على الشهود) ولم يكتف بتبرئة

المغيرة. لقد جلد كل شاهد من الشهود الثلاثة ثمانين جلدة لكل واحد منهم. وسرعان ما استعاد المغيرة توازنه بسرعة مدهشة، فقد غمرته البهجة وراح يحثُّ منفِّذى الحد (الجلادين) على أن يجلدوا بقوة: «اضرب بسوطك بقوة لتريح قلبى». وكان هذا أكثر من أن يتحمله عمر، فأمر المغيرة مُغْلظا له القول بأن يهدأ فقد كادت جريمة الزِّنى أن تثبت عليه ليُرجم حتى الموت. وبعد هذه الفضيحة عُزل المغيرة من ولايته، ورغم أنه كان نشيطا جدا ومحللا سياسيا بارعا إلا أنه لم يعد مستشارا ذا قيمة للخليفة. وبعد ذلك بسنوات قلائل عزل عمر ـ كما هى عادته ـ سعد بن أبى وقاص المنتصر من ولاية الكوفة وعين بدلا منه رجلا تقيا مخلصا سابقا للإسلام، لكن هذا التقى لم يستطع أن يباشر سلطته على عشرات الآلاف من الجنود المقاتلين المحنكين أبناء الحرب. لذا وجد عمر ـ مرة أخرى ـ أنه مضطر وعلى مضض منه لتعيين رجل صارم قوى يمكنه السيطرة على المقاتلين النزَّاعين للتمرد فى الكوفة، فعين المغيرة بن شعبة واليًا عليها.

وعندما تولى عثمان الخلافة بعد وفاة عمر، أبقى على المغيرة واليًا على الكوفة لمدة عام ثم عزله وجعل مكانه سعدا بن الوقاص. وتذكَّر الخبثاء أن سعد بن أبى وقاص كان فى مجلس شورى الصحابة (كان من أهل الشورى) الذين عيَّنهم عمر، والذين اختاروا عثمان خليفة بعد ذلك. ولاكت ألسن الخبثاء أن اختيار سعد بن أبى وقاص واليا على الكوفة إنما هو مكافأة له لاختياره عثمان خليفة بعد موت عمر. وإذا كان الأمر أمر مكافأة فلا ينبغى أن يبقى سعد فى منصبه طويلا. وحدث نزاع بين سعد والمسئول المالى الصارم فى الولاية الذى لم يستطع أن يتسامح فى تقديم قروض غير مأمونة من الخزانة، وقد كان هذا أمرا معتادا. وعلى هذا عين عثمان فى العام التالى، الوليد بن عقبة واليًا على الكوفة، ولم يكن هذا اختيارا موفقا.

كان الوليد بن عقبة أخا عثمان من أمه، ورغم أنه كان مثل معظم أقرباء عثمان من بنى أمية، موهوبا ذكيا واثقا من نفسه، إلا أنه كان مسلما متصدعا وبعمق ـ ربما أكثر من المغيرة. فقد كان والده القوى واحدا من الذين اضطهدوا المسلمين بشدة فى مكة قبل الهجرة، وقد أسره المسلمون فى غزوة بدر فأمر النبى بقتله. وصرخ عقبة مستنجدا متسائلا: ومن لأولادى بعد موتى؟! من يعتنى بهم؟! فأجابه النبى «النار» أى أن كل أولاده الوثنيين (المشركين) سيكون مصيرهم النار. بل إن الوليد لم يرسخ قدمه فى الإسلام ولم يكن سبَّاقا إليه، فقد أسلم فى اللحظة الأخيرة بعد فتح مكة.. ومع هذا فقد عهد

إليه النبى كرما منه بأن يكون على رأس أحد وفود التفاوض مع قبيلة بنى المصطلق. وعلى أية حال، فحتى فى هذه المهمة أثبت أنه غير جدير بالثقة إذ ضُبط وهو يتهمهم على غير الحقيقة بالتمرد.

وعلى هذا فقد أتى وليد للكوفة مدموغا بعلامات خاصة، كما أن صداقته مع شعراء مسيحيين موهوبين متحررى الفكر دائمى الشراب مثل أبى زبيد الطائى (من قبيلة طيء) لم تكن دافعًا له كى يكون تقيا. وفى واقعة شهيرة قضى الوليد الليل بطوله يعبُّ الخمر ثم توجه ليؤم المصلين فى صلاة الفجر ورائحة الخمر تفوح منه. وثمة روايات أخرى تتهمه بأنه تقيأ فى طريق عودته للبيت، رغم أن القصة التى مؤداها أنه كان مريضا منطرحا فوق أريكة ثم خرج بينما كان الخطيب يخطب لصلاة الجمعة فى المسجد الجامع - قصة مبالغ فيها، وضعها أعداؤه. وفى مناسبة أخرى وجدوه وقد فقد وعيه من جراء شرب الخمر أو من جرَّاء التعب مما مكَّن أعداءه من نزع خاتمه من إصبعه ليرسلوه للمدينة لأخيه غير الشقيق (الخليفة عثمان). وتم استدعاء الوليد وحُكم عليه لكن سرعان ما عُفِى عنه؛ لأنهم أعلنوا على الملأ أنهم لم يجدوا شخصا مستعدا لتنفيذ عقوبة الجَلْد (ثمانين جلدة) على شاربى الخمر. وهذا يناقض سياسة عمر الذى كان ينفذ الحدود (العقوبات) بدقة وبدون تمييز.

وفى الوقت نفسه، عزلت البصرة واليا لتنتخب واليا آخر وتعينه مكانه، ولم تكن استجابة عثمان للحدث مناسبة، فلا هو عين شخصا من (مدرسة) المغيرة السياسى المحنك كبير السن، ولم يعين صحابيا كبيرا جليلا. لكنه لجأ - مرة أخرى - للتعيين من أقربائه المقربين. لقد عين اثنين من أبناء عمومته كلاهما فى الخامسة والعشرين): عبد الله بن عامر وسعيد بن العاص حاكمين (واليين) على البصرة والكوفة. هذان الشابان (وقد أثبتا أنهما قائدان ممتازان) قد أصبحا أكثر قرابة لعثمان بتزوجهما من ابنتيه. ومن وجهة نظر عثمان؛ فإنه قد عين أخيرا قائدين على قدر كبير من الكفاءة سيستجيبان لتعليماته بحكم القرابة والنسب. لكن الوضع كان مختلفا تماما فى نظر من هم غير قريبين له (من الدوائر البعيدة عن حاشيته المُقرَّبة).

فحيثما وجد عثمان فى مجموعة كفاءة وسرعة ومقدرة، وجد الناس فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية أنها مجرد مجموعة أموية - أى مجرد مجموعة تحقق أغراض بنى أمية القرشيين. فالأمويون قد أصبحوا الآن يشغلون كل المناصب العليا فى

الإمبراطورية.. فسكرتير الدولة (الوزير الأول) فى المدينة هو مروان الأموى، والمُحتسِب (مفتش الأسواق) فى المدينة الحارث بن الحكم الأموى، ووالى الشام هو معاوية الأموى، ووالى مصر هو عبد الله الأموى، والآن (بعد التعيينات الجديدة) أصبح والى الكوفة أمويا ووالى البصرة أمويا. وأدت ترتيبات الزيجات بين هذه المجموعة الحاكمة إلى ما هو أسوأ، خاصة أن أسرة عثمان كانت قادرة على تقديم مهور أعلى وعلى إقامة حفلات زواج أفخم مما هو متاح لأية عشيرة أخرى. وقد أنفقت عشيرة عثمان الأموال فى شراء عقارات واسعة فى البلاد المفتوحة. وانطلقت الألسنة بأن هذه الأموال ما هى إلا من أموال الدولة (بيت المال أو الخزانة العامة) وكان هذا بالتأكيد غير صحيح.

والحقيقة المالية الفعلية هى أنه كانت هناك قروض رسمية يمنحها الخليفة من الفائض فى خزانة الدولة (بيت المال) أو يقدمها هو نفسه ـ هبات كرم من موارده المالية الخاصة، وما كان هذا ليوقف عاصفة الشك المتجمعة ضد بنى أمية، ولو من باب الحسد. لقد ظهرت الخشية من احتكار السلطة ـ إنها الخشية نفسها التى شجعت ـ بالتأكيد ـ صحابة كبارا على إنكار خلافة علىّ مخافة سيطرة بنى هاشم (الهاشميين) على دولة الإسلام. وما هو أسوأ فى رأى المعترضين هو أن سيطرة الأمويين رغم ذكائهم ولماحيتهم وسرعة خاطرهم، كان يمكن أيضا اعتبارهم ـ وبشكل أساسى ـ غير إسلاميين Un- Islamic. فلا يكاد يوجد أموى واحد يخلو من عيب من العيوب التى أطاحت بالمغيرة إلى الظل.

فمروان، سكرتير الدولة (الوزير الأول لعثمان بن عفان) لم يتحول إلى الإسلام إلا فى اللحظات الأخيرة بعد فتح مكة. وحقيقة الأمر أن أسرته ارتبطت ارتباطا مباشرا بقلب المعارضة الوثنية للإسلام، لدرجة أن أباه (الحكم) قد أُبعد إلى الطائف بناء على تعليمات النبى نفسه. لقد أيد كل من أبى بكر وعمر هذه اللعنة التى حاقت بمروان وأبيه؛ حتى إنه كان يطلق على مروان كُنية ابن الطريد، وقد عفا عثمان عن الحكم فعاد من منفاه الداخلى (فى الطائف)، وفى بداية الأمر استخدمه فى إنجاز أمور أسرية باعتباره عمًا له، لكن، فى وقت لاحق بدا الحَكَم ـ على نحو ما اتهم بنو أمية ـ يخرق السنَّة (لا يحذو حذو النبى ولا حذو الخليفتين، الأول والثانى).

أما عبد الله، والى مصر، فيمكن أن يكون شاهدا حيا آخر على العبقرية الشريرة لبنى أمية، كان عبد الله بن أبى السرح أخًا لعثمان من الرضاع وكان قد ارتد عن الإسلام فى وقت باكر. وكان النبى قد وضع مواهبه الفكرية التى لا جدال فيها فى خدمة الإسلام، وقد وثق به النبى لدرجة أنه جعله يسجل بعض الآيات القرآنية التى

نزلت فى وقت باكر. وعلى أية حال، فإن عبد الله تخلى عن المسلمين وعاد إلى أحضان وثنيى مكة وأعلن أن النبى مخادع (دجال fraud)، وربما كانت دعاية عبد الله بن أبى السرح السوداء وراء كل الحكايات الساخرة عن نبوة محمد كحكاية الطائر الذى جرى تدريبه على التقاط الحبوب من أذنه، وأن جبريل ليس هو الذى يأتى له بالوحى وإنما ربِّى يهودى مشلوح (عُزل من منصبه الدينى) أو راهب مسيحى. وقد أدت خيانة عبد الله بن أبى السرح للنبى إلى استثنائه من العفو العام عند فتح مكة لأنه قد استُتيب ثلاث مرات (طُلبت منه التوبة) فلم يتب (لم يرجع إلى الإسلام)، ومع هذا فقد استطاع عثمان أخيرا أن يجعل محمدا النبى يعفو عنه. هذا هو الرجل الذى وضعه عثمان على رأس الجيش (العربى) فى مصر لدرجة أنه (أى عثمان) عزل مرتين عمرو ابن العاص مع أنه القائد الفاتح. وقد أدى خلع عمرو من ولايته لمصر أيضا إلى إيجاد عدو آخر قادر على مناوأة الأمويين.

أما معاوية، والى الشام الخبير، فكان محل إعجاب الأمويين جميعا، رغم أنه كان ابن زعيم أعداء محمد. فمعاوية هو ابن أبى سفيان من زوجته هند الشبيهة بالساحرات التى فقدت وقارها ولاكت كبد عدوها (بعد مماته)، إلا أن هذا لم يكن أبدًا ـ إلى حد كبير ـ مأخذًا ضده (ضد معاوية)، لأن النبى تزوج أثناء حياته ابنة أبى سفيان، واستخدم النبى اثنين من أبناء أبى سفيان (معاوية وأخاه الأكبر يزيد) وقبل تحول أبى سفيان للإسلام لدرجة أنه أرسله إلى اليمن مبعوثا من قِبَله. وعلى أية حال، فإن المسلم المخلص قد يمكنه التسامح مع وجود أحد الأمويين الذين دخلوا الإسلام مخلصين حاكما على الشام (واليا للشام)؛ لكنه لا يتسامح مع السماح لهذه العشيرة (بنى أمية) باحتكار قيادة كل جيوش المسلمين. فإذا كان المزيد من القذائف مطلوبا لتدعيم المعارضة ضد الأمويين فلنذكِّر الناس إذًا بأن والد حاكم الكوفة الأموى الجديد كان قد حارب ضد المسلمين فى غزوة بدر.

ومع أن عثمان كان نشيطا ذكيا astute فى مختلف توجهاته، إلا آن هذه القضية كانت استثناء، لقد بدا فيها أعمى تماما لا يدرك حقائق الأمور. لقد حذره الصحابة ـ بشكل شخصى وبود وإخلاص ـ بألا يسمح لعشيرته ولأقربائه أن يبدوا مسيطرين على دولة المسلمين، كما أن أمهات المؤمنين حذرنه من الأمر نفسه. لا تفسير لهذا فيما يمكن للمرء أن يخمِّن سوى ضعف عثمان وفشله فى شبابه فى أن يكون محاربا، فلم يختره

النبى أبدا لقيادة تجريدة أو غارة ولم يشترك فى حروب الردَّة ولا الفتوح؛ مما جعله واعيا وعيا زائدا بسيطرته على الجيوش. فافتقاده لأدنى قدر من كارزما المجد العسكرى (الحربى) ربما جعله راغبا فى إيجاد وكلاء عنه يثق فيهم ويعتمد عليهم للقيام بهذا الدور.

ومهما كانت دوافعه، فقد وجد نفسه غير قادر على مواجهة الانتقادات التى بدأت تتكتل وكأنها سحب تعوق الرؤية - ومع هـذا لم يُرْضِ المنتقدين حتى ولو بعزل واحد ممن عيَّنهم. ولقد كان التاريخ الشخصى لكثيرين من القريبين منه (أو تاريخ آبائهم) خاصة الوليد وعبد الله ومروان، قد مكَّن منافسيهم - بسهولة - من اعتبارهم تهديدا لكل الطبيعة الإسلامية للدولة. والتعليقات العرضية لواحد من الولاة الأمويين الذى كان يشير فيما مضى للأراضى الزراعية الشاسعة فى العراق على أنها (بستان قريش) - جعلت أعداءهم يكررون هذه الأقوال ويضيفون إليها وكأنها أصبحت السياسة الرسمية. لكن الأمويين أثبتوا أيضا أنهم أكفاء فلا مجال للشك فى مهارتهم العسكرية (قيادتهم أو چنراليتهم Generalship)، فقد واصلوا توسيع حدود الإمبراطورية على كل الجبهات: فى بحر إيجة وعلى طول سواحل الشمال الأفريقى وفى آسيا الوسطى وفى المناطق الحدودية للهند نفسها. وعندما أتى الانتقاد من أسرات هى بالفعل غنية وقوية غنى وقوة يفوقان أكثر الاحلام غلوا وتطلعا استطاع عثمان أن يصبر ويتحمل. ربما ساقوا الأدلة على أنه لا أحد ممن هم من غير الأمويين، أو ممن هم من غير الأقرباء المقربين لعثمان يمكنه أن يطمع فى شغل منصب سامٍ رفيع، وكان يمكن لعثمان أن يجيب على هذا بأن كثيرًا من التعيينات مثل تعيين معاوية واليًا على الشام وعبد الله واليًا على مصر، إنما تمت أول ما تمت على يد الخليفة العظيم عمر، وكان فى قوله هذا بعض الدقة.

وعلى أية حال، فقد كان هناك منتقدون آخرون ممن هم فقراء ولا حول لهم ولا قوة فعلا - وكان هؤلاء هم الذين يشكلون التهديد الأقوى والأخطر. وأكثر هؤلاء تميزا ووضوحا، هو أبو ذر الغفارى، أحد المتحولين الأوائل للإسلام والذى ظل صادقا ملتزما بسنة النبى من حيث التقشف والبساطة والكرم الذى يفوق حد المعقول reckless generosity. وعندما زار هذا القديس العجوز (أبو ذر الغفارى) الشام لم يستطع أن يكف لسانه عن الوعظ منتقدا تحول العرب تحولا غير عادى، فقد أصبحوا يسكنون القصور ينتظرهم مئات العبيد، وأصبحوا محاطين بكل مظاهر الرفاهية، فراح أبو ذر يقول لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ (سورة التوبة، الآيتان: ٣٤- ٣٥) فأنفقوا الآن مما كنزتم ويكفيكم خبز يومكم وإلا ستكون أموالكم عليكم وبالا يوم الحساب.

إن كل هذه المعلومات التى تذكِّر بضرورة الاحتذاء حذو الرسول (الالتزام بسنته) وكل ما يذكِّر بما اعتاد عليه عمر بن الخطاب، لا بد أن تهز كيان السادة الجدد فى الشام وتحث على تأديبهم لتكبرهم. وقام معاوية من ناحيته بوضع هذا الشيخ المتقشف المتحمس (أبى ذر) على المحك بأن أجرى له اختبارا صغيرا، ذلك بأن أرسل له كيسا (صرة) بها ألف قطعة من قطع العملة، وبعد أيام قليلة تظاهر بأنه أرسلها على سبيل الخطأ وطالب بردها، لكن الدهشة الشديدة اعترته إذ وجد أن الواعظ الصالح (الداعية) كان يتبع قوله العملَ. وأنه قد أنفق هذه الثروة كلها فى ليلة اليوم نفسه الذى أرسلها له معاوية فيه. وتأكد معاوية أن مثل هذا الرجل لا يمكن أن يسكت مقابل ذهب يدفعه له كما هو الحال بالنسبة للآخرين. فأرسله إلى ابن عمِّه عثمان فى المدينة محذرا الخليفة - بصفة شخصية - من أن أبا ذر وإن كان أمينا، إلا أنه لا يسير فى طريق الصواب misguided. وفى المدينة، حذر أبو ذر الناس: لقد تخليتم عن نهج النبى صلى الله عليه وسلم فأنتم بعد أن جمَّعتم الثروة، تطاولتم فى البنيان وأصبحتم ضحايا الإسراف والترف. سأخبركم بأيام عصيبة قادمة، فقد قال النبى إنه إذا امتدت المدينة (المنورة) حتى يصل بنيانها إلى جبل سَلَع Salaa ستحدث بين الناس فتنة. وفى إحدى قاعات الاستقبال فى قصر الخليفة سرعان ما تنازع الرجلان (عثمان وأبو ذر) لأن عثمان راح يكرر حججه، قائلا إنه ما أدى الناس التزاماتهم المقدسة (الدينية) فأنا لا أملك سلطة إجبارهم على أية تضحيات أخرى. وعندما التفت عثمان إلى كعب عالم البلاط (المستشار الدينى فيه)، وهو يهودى مثقف تحول للإسلام، ليقدم مزيدا من البراهين على التسامح مع الثروات التى تم تجميعها من مصدر حلال، من كُتُب اليهود والنصارى، هب أبو ذر غاضبا وضرب كعبا فى بطنه، وصاح قائلا: «اخرج مع نفسك يابن اليهودى. ماذا يُجْدى النقاش معك؟». ونتيجة هذا الاختلاف العلنى، جرى نفى أبى ذر خارج المدينة (المنورة) ليعيش فى الربذة فى الصحراء، فهناك يمكنه أن يحيا حياة التقشف التى يطالب بها. ولقد كان هذا اضطهادا معتدلا وكافيا، رغم أن موت أبى ذر بعد ذلك بعامين جعل منه شهيدا جديدا قويا فى ناظرَيْ كل الذين يعارضون

اكتناز الثروة والتباهى بها من الطبقة الحاكمة الجديدة. وقد ترحم عليه عثمان بعد وفاته بكلمات كريمة إذ قال: «رحم الله أبا ذر. لقد كان روحا عظيما. إنه أهل لأن يكون من أبناء الآخرة أكثر من كونه ابنا لهذه الدنيا». لكن المشكلة هى ظهور آخرين راحوا يرددون الآن ما كان يقوله أبو ذر، مثل عمار الذى راح ينتقد الخليفة عثمان انتقادا عنيفا لبدعته الشريرة التى سمحت ببيع أراضى الدولة وسمحت بإيجاد طبقة حاكمة جديدة. وقد أغضبت الطريقة التى خاطب بها عمار الخليفة الوَقُور كبير السن (عثمان) الحاشية المكونة من أبناء عمومته الأمويين، فأحاطوا به وهم فى حالة غضب شديد، وسحبوه بعيدا عن الأنظار وضربوه ضربا مبرحا لوقاحته. هذه الأفعال التى وجدوا لها ما يبررها، ملأت الجنود العرب فى الحاميات، بالغضب مخافة أن يكون الأمويون قد أسسوا بلاطا ملكيا لهم فى المدينة (المنورة).

لقد بدأ يظهر فى داخل مدن الحاميات نفسها جيل جديد. فكما لقى الصحابة كبار السن والقادة العسكريون الكبار (الفاتحون) ربهم، كذلك ذوت بذهابهم الحماسة الدينية المتأججة للمسلمين الأوائل. فجيل المحاربين العرب الشباب، ذلك الجيل الجديد لم يكن يعرف شيئا عن أعوام الاضطهاد التى صهرت المسلمين الأوائل وجعلت منهم كيانا واحدا متماسكا. فبالتدريج راحت الهُوِيَّات القبلية القديمة تطل برأسها وتؤكد ذاتها، وقد قويت هذه الدوافع القبلية _ وتأثلت، داخل المدن التى بها حاميات عسكرية، وهذا أمر عجيب بما فيه الكفاية، ذلك أن كل حى من أحياء هذه المدن (مدن الحاميات) كان مشغولا بقبيلة محددة. لقد قُسِّمت الأحياء تقسيما قبليا منذ البداية، حتى لو كان الحى لا يضم سوى بضعة خيام وأكواخ.

وأكثر من هذا، فقد كان هناك انفجار سكانى هائل فى شبه الجزيرة العربية، ذلك أن المحاربين المنتصرين راح الواحد منهم يجمع ـ بحماس ـ بين أربع زوجات شرعيات وعدد من المحظيات والجوارى اللائى حصل عليهن من غنائم الحرب. وقد سمح القرآن بوضوح للسيد أن يقيم علاقات جنسية مع النساء المقيمات فى بيته his household، لكنه قدم طرائق (أساليب شرعية) لتحريرهن إذا أنجبن إذ يُقال للواحدة منهن عندئذ إنها (أم ولد). من بين السلالات الباقية فى قيد الحياة بدا من المألوف أن يكون لدى الرجل من هذا الجيل الثانى، عشرون ولدًا، بل وهناك منهم من هو أكثر حيوية وطاقة، مثل المغيرة بن شعبة ـ الذى كان لديه ثمانون من الذرية.

لقد كانت مدن الحاميات مصانع لتفريخ الذرية، ففى غضون الثلاثين سنة الأولى تضاعف عدد سكانها ثلاثة أضعاف. وفى أثناء هذه العملية فقد المحاربون البدو أبناء

الصحراء جانبا من حريتهم الفوضوية (الأنارشية) القديمة، لأن أسرات بهذا الحجم لا يمكن تمويلها وإعاشتها من خلال الرعى فى السهوب الجرداء. لم تعد مشكلة أن تركب دابتك عائدا إلى الصحراء إذا حصلت على ما يكفيك من الحرب أو من الخليفة؛ لأن هذه الأسرات الكبيرة فى مدن الحاميات كانت معتمدة على الرواتب السنوية والمعاشات لتعيش عيشة ذات مستوى عالٍ. وفى الوقت نفسه، فإن الهوية العرقية للقبائل قد تغيرت هى أيضا، فأصوات البربر والفرس والترك والأرمن، والقوقازيين واليونانيين والمصريين والشوام والأرمك Armaic قد أصبحت الآن تُسمع فى مدن الحاميات العربية من خيام الآلاف المؤلفة من المحظيات اللائى أنجبن والجوارى المقيمات فى المعسكر، واللائى تجدهن عند النبع وفى الأسواق وعند الخبازين، هل يمكن لهؤلاء الأطفال المخلصين الذين أنجبهم آباء عرب أن يكونوا قادرين على وراثة أوضاع آبائهم فى الجيش وفى ديوان الرواتب؟ أيمكن أن يكون للأرملة أية حقوق للإيواء؟ هل أصبحت هذه الأسئلة أكثر إلحاحا بالنسبة لهذه الطبقة الصاعدة من المحاربين المحترفين الذين يتقاضون أجورا. لقد بدأت مدن الحاميات فى إمبراطورية المسلمين تقلق بشأن مستقبلها المالى، وقد تملكتها الغيرة من المدن المنافسة وتملكها الحسد من الحكام المتمركزين فى المدينة (المنورة).

وشيئا فشيئا كانت خميرة الثورة قد ربَت نتيجة الاستياء، خاصة فى معسكرات حامية الكوفة ومعسكرات حامية الفسطاط، إذ كان الحكام الأمويون يُلعنون علانية. وقد أتاح ـ أيضًا ـ موسم الحج السنوى لكثيرين من العناصر المستاءة لعقد الاجتماعات ومناقشة اهتماماتهم المشتركة. لقد تم إبعاد مجموعة من عشرة ساخطين من حامية الكوفة إلى الشام بناء على أوامر مباشرة من عثمان، لكن إجراء أقوى كان مطلوبا، فهُرع سعيد قائد (والى) الكوفة المرعوب إلى المدينة لمناقشة الأمر مع رئيسه (الخليفة)، وفى أثناء غيبته تسلل إلى الكوفة واحد من المبعدين وحرض سكانها بكلماته البليغة، ذاكرا كل الجرائم الجماعية والمظالم التى جرت على أيدى بنى أمية. إنه مالك بن الأشتر، وعندما عاد سعيد من المدينة (المنورة) بعد محادثاته مع الخليفة وُوجه بقوة من ألف مقاتل تجمعت فى موضع معركة القادسية الشهيرة (ولهذا دلالته الرمزية) وهددوه بالقتل إذا حاول العودة للكوفة. وعندما وصلت هذه الأخبار للمدينة بدأ عثمان الذى نيَّف على الثمانين (٨٢ سنة) يتراجع عما صمم عليه. ولم يلق مساعدة بدون شك من الوفد القادم من الفسطاط ـ فى الوقت نفسه الذى ثارت فيه أزمة الكوفة ـ طالبا إعادة واليهم غير المحبوب عبد الله. وقد وجد عثمان لمتمردى الكوفة عذرا وعزل سعيدا

وعين بدلا منه أبا موسى الأشعرى ذلك المحارب القديم veteran، لكن عثمان لم يقبل طلب وفد الفسطاط.

ومرة أخرى كان الحج إلى مكة فى سنة ٦٥٥، وقاد الخليفة وفود الحجيج، وانتهز الفرصة لعقد اجتماعات غير رسمية مع كل الولاة المهمين وكل مستشاريه لمناقشة الأحوال فى هذه الظروف المضطربة. أشار البعض بعمل هجومى كبير لاستئصال شأفة المعارضين، وأشار آخرون بأنه يمكن كسبهم بالمال، بينما دلل فريق ثالث على أن المسألة ـ ببساطة ـ تحتاج إلى إدارة تتسم بالكفاءة. وعندما جاء دور عمرو لمخاطبة المجتمعين، قدم نصيحة فظة صريحة مخاطبا عثمان: «يا أمير المؤمنين، لقد أخضعت الأمة كلها لبنى أُميَّة. لقد ضللت السبيل، وكما ضللت ضلَّ الناس فإما أن تُعْمِل عقلك لتكون عادلا، أو أن تترك الخلافة» لقد ألقى عمرو بكلمته التى مثلت تحديا عاما. كانت كلماته بمثابة شعار سرعان ما ردده الجميع.

وفى موسم الحج هذا نفسه (٦٥٥)، عقدت وفود من الساخطين فى الجيوش العربية فى الفسطاط والكوفة والبصرة اجتماعا مشتركا، اتفقوا فيه على خطة مؤداها أن يصلوا إلى المدينة قبل حوالى ثلاثة أشهر قبل ميعاد الحج فى العام القادم (قبل موسم الحج القادم بثلاثة أشهر) ليطالبوا الخليفة (عثمان) بعزل أقربائه (أبناء عشيرته) غير المحبوبين، أو أن يتنحى عن منصبه (يتخلى عن الخلافة). وربما تلقى معاوية شيئا من المعلومات عن هذه المؤامرة (رغم أنه لم يكن من بين المتآمرين من واحد من حامية الشام التابعة له)، فراح يضغط على الخليفة كبير السن عثمان كى ينتقل إلى حيث الأمان فى دمشق أو أن يسمح له بوضع حامية عسكرية شامية موالية وموضع ثقة فى المدينة (المنورة). وانتاب عثمان الذعر من هذا الاقتراح رغم أنه حقيقة ـ سيؤمِّن له بعض الحماية، وذلك لأن هذا الاقتراح نفسه سيكمل إحكام قبضة بنى أمية على إمبراطورية المسلمين.

وفى سنة ٦٥٦، نفذ الساخطون خططهم بسرعة وكفاءة. لقد تظاهر ثلاث مجموعات من المقاتلين أنهم فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج بعد أن غادروا حاميات المدن التابعين لها. وفى مصر، كانت ولاية عبد الله مهتزّة هشّة؛ لدرجة أنه قرَّر بسرعة أن يترك منصبه وأن يبحث عن الأمان فى حامية فلسطين التابعة لسلطة معاوية. وما إن وصل الساخطون (القادمون من مصر) للمدينة حتى اتخذت القوات الثائرة الثلاث مواقع منفصلة بعضها عن بعضها الآخر فى الأراضى المخصصة لإقامة المعسكرات فى الشّعاب المحيطة بالواحة (المدينة)، لقد عسكر رجال الكوفة لدى الأوس

وعسكر أهل البصرة فى ذى خُشُب وعسكر القادمون من الفسطاط فى ذى المروة. لم يجر استخدام العنف لكن وصول الفرق المسلحة، كان صدمة لأهل المدينة (المنوّرة). وأرسل الثوار rebels وفودًا إلى عدد من الصحابة الموقَّرين (مجلس شورى الصحابة أى المكوّن من الصحابة): على وطلحة والزبير وكان عبد الرحمن قد توفّاه الله. فى البداية لامهم الصحابة لمجيئهم مسلّحين إلى المدينة المنوّرة، ورفضوا أن يساعدوهم فى أىّ شىء، ولما استحكم الأمر وافق على بن أبى طالب على السَّعى بينهم وبين عثمان لعزْل عبد الله عن ولاية مصر باعتبار هذا الإجراء كافيا لعودة الثوار (المتمردين) لمعسكراتهم. وكانت هذه السياسة (التسوية) قد حظيت بموافقة عائشة. وبحماس شديد، ويالها من صدفة، لقد راحت عائشة تسوق الحجج لتأييد الرأى القائل بأنه لو عاد عمرو إلى ولاية مصر لاستقر الوضع، إلاّ أن المتمردين القادمين من حامية مصر طالبوا الآن بمطلب آخر: لقد طالبوا أن يكون الوالى عليهم واحدًا منهم وهو ابن أبى بكر الأصغر: محمد بن أبى بكر (ربيب على)، ووافق عثمان مضطرا، فبدأ المتمردون ـ من ناحيتهم ـ يخلون خيامهم استعدادا للعودة إلى مصر وتنهّدت واحة المدينة للخلاص من هذه الأزمة، واستعد كثيرون منتهزين الفرصة للتوجه إلى مكة قبل أن يستفحل الزحام. وبعد ثلاثة أيام من مغادرة المتمردين (الثوار) القادمين من مصر، المدينة (المنورة) فى طريقهم للفسطاط، رأوا عبدًا أفريقيًا راكبا دابة من الدواب السريعة التى تحمل البريد، فاستوقفوه، فوجدوا معه خطابا مختوما بخاتم عثمان الجديد، فى جيبه الجلدى (المعمول من الجلد)، فلما فتحوا الخطاب وجدوا فيه أمرا لعبد الله بالقبض على قادة المتمردين وإعدامهم بمجرد وصولهم (مع أن الحقيقة هى أن عبد الله كان قد هرب إلى الرملة فى فلسطين ولم يعد واليا على مصر). فلما قرأ المتمردون هذا الخطاب استُثيروا وجدّوا السير عائدين للمدينة (المنورة)، وانضموا إلى إخوانهم من متمردى البصرة والكوفة. ومرة أخرى قام علىّ بدور الحَكَم، رغم أنَّه طلب منهم طلبًا ينُم عن الذكاء الشديد، فإذا كان هذا الخطاب الذى قدموه صحيحا فكيف استطاعوا أن يتصلوا ـ بمثل هذه السرعة ـ بمتمردى الكوفة والبصرة، مع أن اتجاههما (للشمال الشرقى) هو عكس اتجاه المتمردين القادمين من مصر. ولم يتلق علىّ إجابة مُرْضية عن استفساره، وعندما واجه وفد المتمردين (الثوار) عثمان بن عفان، ذلك الخليفة الهَرِم، مواجهة مباشرة، أنكر أىّ علم له بهذا الخطاب، لكنّه أقرّ أن العبد الأفريقى الذى وجدوا معه الخطاب من بيته، وقال : نعم، هذا الخطاب مختوم بخاتمى. ولم يتم كشف الغموض المحيط بهذا الخطاب رغم أنه نُسب ـ على نطاق واسع ـ إلى أحد المتمردين

المزوّرين أو إلى مروان (الأموى) الوزير الشاب لعثمان؛ إذ إنه فى هذه الحالة يكون قد اتَّخذ قرارات من وراء ظهر الخليفة، وقد يكون هذا الخطاب أحد ألاعيب (مكائد) عمرو بن العاص.

ومهما كانت النتيجة المقصودة من هذا الخطاب، فقد أدّى بالفعل إلى التشدّد، فقد أصبح قادة المتمردين (الثوّار) يخشون الآن على حياتهم إن هم تركوا المدينة وعثمان متربع على عرش الإمبراطورية (خليفة)، فصاحوا فيه متهمين إيّاه بالكذب وأنه رجل عجوز خَرِف لا يحكم بما يمليه عليه الإسلام وإنما بما تمليه عليه أسرته الخائنة (بنو أميّة)، واتهموه بأنه لا يوفى بوعوده. وقالوا إنه لم يعد حاكما عليهم (خليفة): لا بد أن يستقيل من منصبه (يتخلّى عن الخلافة) فإن رفض فسيعودوا إليه ليقتلوه.

وتصرّف عثمان بكل الوقار وبكل حكمة عمره. لقد وعدهم أن يستمع إلى مظالمهم (شكاويهم) لكنه لا يستطيع أن يترك الخلافة؛ لأن الله هو الذى أعطاه إيّاها «ما كُنتُ لأخْلع قميصا قَمَّصنيه الله» وقال لهم أيضا إنه أبدا لن يفكر فى أن يحارب مسلمين، ولو أنه أراد ذلك لجعل نفسه على رأس جيش فى المدينة (المنورة) لكنه يفضّل أن يموت على إراقة دماء إخوانه المسلمين. باختصار، لقد غادر المتمردون بيت عثمان لكنهم رفضوا أن يغادروا المدينة (المنورة) وعسكروا فى حى الأصواف Asfaf فى الواحة (المدينة)، وتركوا عددا لا بأس به يُطوّق منزل عثمان بشكل مباشر واضح، وعددا آخر بالقرب من المسجد الجامع (المسجد النبوى). وفى يوم الجمعة التالى ثار النزاع مرّة أخرى عندما دعا عثمان الناس فى خطبة الجمعة ألاّ يأبهوا بالمتمرّدين وذكَّرهم بأن هؤلاء المتمردين آثمون عندما هاجموا خليفة رسول الله. ولم تنته الخطبة على خير؛ إذ راح المتمردون، يقذفون عثمان وداعميه الأقربين بالأحجار، وأُصيب عثمان وكان لا بد من حمله إلى بيته وسط جماهير ساخرة منه مستهزئة به. ومنذ الآن منعه المتمردون (الثوار) من الذهاب للمسجد وفرضوا عليه الإقامة فى بيته.

ووجد عثمان أنه من المحال أن يقود قافلة الحجاج إلى مكة فعين عبد الله بن عبّاس، ابن عم علىّ، ليكون القائد الرسمى للحجيج ذلك العام. لقد راح المتمردون يسعون لإجبار الخليفة على الاستقالة أو على الأقل طرد مروان. ولم يكن داخل بيت عثمان بئر خاصة به، وبالتالى فسيؤثر الحصار الشديد تأثيرا ضارا جدا بقاطنى البيت، وما كان على ليتحمّل هلاك بيت عثمان فأرسل ثلاث قِرب مملوءة ماء. وكان ثمة وساطة أخرى لهدف إنسانى إذ حاولت أم حبيبة، إحدى أرامل النبى، أن توصل بغلاً

محملاً بقرب الماء لبيت عثمان، وكانت هى نفسها التى تقود البغل، لكن ـ ويا للمرارة ـ فحتى إحدى أمهات المؤمنين المبجّلات منعوها من تقديم واجب فرضته عليها الرحمة.

وأرسل على والزبير وطلحة أبناءهم لحراسة باب عثمان اتّقاء أى هجوم مباشر، لكن عليهم أن يتجنَّبوا معارضة الحصار بشكل فعَال عملاً بما ورد فى السورة رقم ٤٩ ، الآية رقم ٩ فى القرآن الكريم ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَان مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ (الحجرات، الآية: ٩). ومن الناحية السياسية فإن معنى موقفهم هذا أنهم وقفوا فى ممر ضيق، ذلك أنهم رغم معارضتهم للتمرّد وسعيهم لعدم قتل الخليفة بوضع أبنائهم على بابه، فإنهم بلا شك كان يسعدهم أن يقوم عثمان بإزاحة أسرته الأموية ومنعهم من احتكار السلطة. وأيًا ما كانت الحقيقة الكامنة وراء الخطاب المختوم، فقد كان معظم الناس يعتقدون أنّ مروان (وزير عثمان) وراء هذا التزوير، وكان المطلوب فى أقل القليل أن يُعلن الخليفة سخطه على ابن عمّه الشاب (مروان) والتخلّى عنه.

لقد كانت فسحة الوقت المتاحة لإبرام تسوية مُرضية، تمر بسرعة، لأن المتمرّدين تلقوا أنباء تفيد أن معاوية قد أرسل قوّة من صفوة الفرسان راحت تندفع فى سلسلة متوالية (يعقب بعضها بعضًا) لإنقاذ الخليفة العجوز. كما تلقّوا أيضًا تقارير موثوقًا بها بأن بعض القوات الموالية قد خرجت من البصرة. وبحلول منتصف شهر يونيو أصبح معلومًا أنَّ قوات الإنقاذ relief columm القادمة من دمشق أصبحت على بعد ١٢٠ ميلاً لا غير، وأنها عبرت وادى القرى، فإذا لم يضرب المتمردون ضربتهم الآن وقعوا فى شَرَك. لقد فشل هجومهم الأول على بيت عثمان؛ إذ راح رماة السهام يوسعون الطريق بقذفهم السهام على الأسطح المحيطة، فتصدى لهم بشجاعة الحسن بن على ومحمد بن طلحة. وخشى المتمردون ـ الآن ـ أن يثيروا ضدهم أقوى عشيرتين فى المدينة لإصابتهم الحسن بن على ومحمد بن طلحة بجروح. وعلى أية حال، فقد أدى موت نيار بن إياد الذى كان يدعو عثمان للاستقالة (التخلى عن منصبه) جرّاء إسقاط أحد العبيد المقيمين فى بيت عثمان حَجَرًا عليه ـ أدّى هذا إلى إشعال الموقف مرّة أخرى. وفى تلك الليلة (١٦ يونيو) أُوقدت النيران حول بيت عثمان لدعوة المتمردين للتجمع. وفى الصباح بدءوا هجوما منسّقا، فبعضهم ضغط فى اتجاه البوابة، وبعضهم

الآخر تمركز فوق أسطح القصر مستخدمين سلالم تُفضى إلى قصر عثمان من منزل مجاور هو منزل ابن خزم، وآخرون تقدموا حاملين شعلات للإضاءة فى يد ولفافات مملوءة نفطا (مادة حارقة) فى اليد الأخرى، لصبّه على البوّابات أو الأسطح الخشبية.

وأثبت عثمان أنه عظيم وشهم فى الساعات الأخيرة من عمره. لقد أمر كل المدافعين عن بيته بعدم المقاومة ـ لأنّه هو وحده هدف المتمردين، وأمرهم بالاهتمام بأسرهم. فأطاع معظم أتباعه وألقوا أسلحتهم، بينما فضَّل آخرون أن يتّبعوا مروان الذى نظَّم أمر المقاومة المسلّحة. حقيقة لقد استطاع مروان فى لحظة من اللحظات أن يصد مجموعة مهاجمة ويخرجها من البوّابة التى دخلت منها، ثم أحكم إغلاقها، ثم خرج مع بعض أتباعه من باب جانبى ليشن هجوما مضادا عنيفا على المتمردين، وسقط مروان بضربة سيف أصابت رقبته، وتركه ضاربه ليموت ووسط هذا الاضطراب ألقت فاطمة بنت أوس مُرضعته العجوز البدوية بنت الصحراء بجسدها عليه، وكانت تعتقد أنه مات لكنها كانت راغبة فى حماية مَنْ أرضعته صغيرا مِنْ أى تمثيل بجثته، واستطاعت بعد ذلك أن تسحب جسد مروان إلى بيتها وراحت تمرّضه بصبر فعاد للحياة بعد أن كان الظّن أنّه مات.

لم يعُد أمام عثمان مهرب، فانتظر المتمردون حتى نودى لصلاة الجمعة. كان عثمان وحيدًا يقرأ القرآن بهدوء فى غرفة زوجته نائلة. جذب محمد بن أبى بكر الخليفة العجوز من لحيته قائلاً له: أخزاك الله أيها الرجل الخَرِف. فقال عثمان: لستُ خَرِفًا إنما أنا عبد الله. فردّ محمد: لن ينفعك ـ الآن ـ مروان ومن هم على شاكلته. فناشده عثمان قائلاً: يا ابن أخى، اترك لحيتى فأبوك ما كان ليلمس لحيتى التى تقبض أنت عليها الآن. فأجابه المتهجم عليه: لو أنّ أبى رأى أفعالك لعابك وانتقدك.. لكننى سأقدم لك علاجًا أقوى من مجرّد جذب لحيتك. وما كاد محمد بن أبى بكر ينهى حديثه حتى كان قد غرس نصل سيفه فى جبهة عثمان فصاح الخليفة العجوز: أطلبُ العون من الله. فعاجله محمد بن أبى بكر بسيف آخر وراء أذنه فظهر نصل السيف من حنجرته. وكان أمام عثمان نسخة القرآن التى جمعها، ليصبح عمله هذا (جمع القرآن) عملا عظيما يدعو للفخر. لم تتمزق النسخة ولم تتناثر صحائفها وإنما ظلت مفتوحة على مقعدها المرتفع، لكنها تبلَّلت بدماء الخليفة.

وبينما كان جسد الخليفة مسجّى جلس أحد القتلة فوق صدره وخرّق ملابسه (قميصه) تسعة خروق، فألقت زوجته نائلة بنفسها عليه لتحمى جثّته من أن يُمثَّل بها أكثر من هذا. ونائلة زوجة عثمان هذه من قبيلة مسيحية بدوية من الشمال الشامى.

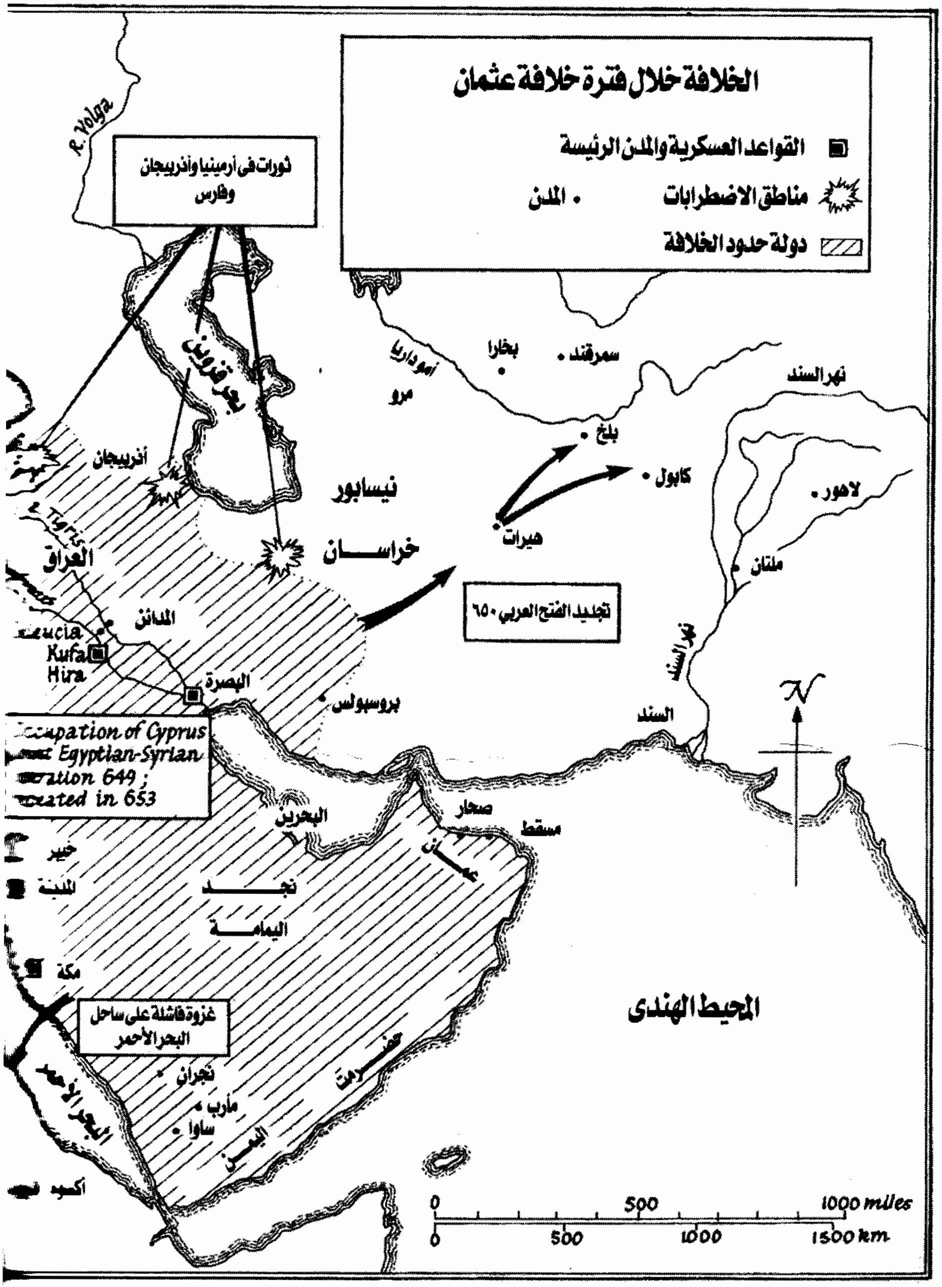
وظلت نائلة صامدة حتى بعد أن قطع السيف إصبعين من أصابعها. ولم يسمح المتمردون بدفن عثمان فى مقابر بقيع الغرقد التى دُفن فيها كل الصحابة وإنما أجبر المتمردون حاملى نعشه، وكانوا اثنى عشر شخصًا من أصدقائه المحبّين، على دفنه فى أرض مهملة كان يستخدمها اليهود - أى فى مقابر حبش كوكب. واختفت العشيرة الأموية وعملاؤها عن أعين الثوار (المتمردين) وكأنما ابتلعتهم الأرض. وامتلأ بيت حبيبة بنت أبى سفيان، إحدى أرامل النبى باللاجئين (طالبى الأمان) فاضطرت لإيواء بعض أقربائها فى مخزنها الذى كانت تخزن فيه الحبوب. وفى هذا السياق تذكر الناس حديثًا للنبى لم يكن معناه واضحًا تمام الوضوح يفيد أن لله سيفًا يظل مغمودًا فى غمده طالما كان عثمان فى قيد الحياة، فإذا ما قُتل عثمان ظل هذا السيف مُشْرعًا إلى يوم القيامة. لقد حارب الإسلام نفسه منذ لطّخ دم عثمان صحائف القرآن البيضاء المعمولة من الرَّق.

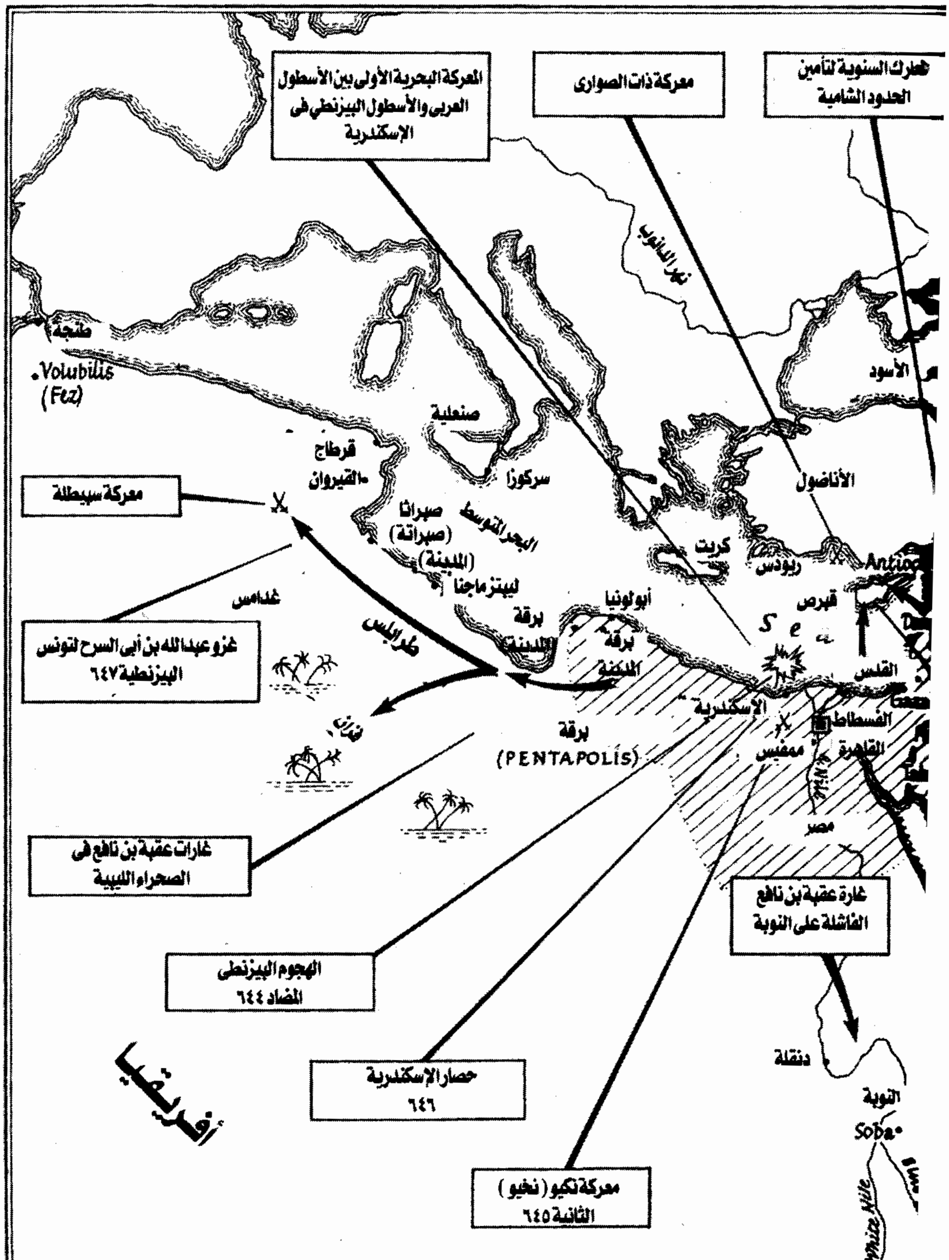
لقد أثبت عثمان أنه كان صادقًا مع نفسه ومع فكرته عن الإسلام. فرغم المعارضة التى أثارها فقد تذكر الناس فى وقت لاحق أنه لم يأمر بقتل أىّ مسلم خلال فترة حكمه الطويلة. ولم يستجب عثمان لدواعى العنف وسفك الدماء مفضّلا الموت على هذا الخيار. لقد رفض - وقد غمره السلام مع النفس - أن تتولى فرق مسلّحة حمايته، ومنع - بشجاعة - خدمه من القتال دفاعًا عنه، ففى خاتمة المطاف لم يتولَّ حمايته سوى عقيدته وزوجاته.

تعليقات المترجم

(١) لا يخرج ما ذكره المؤلّف هنا عمّا ورد فى كتب التراث الإسلامى إلاّ فى الأسلوب والصياغة اللذين تناول بهما الموضوع مستخدمًا مصطلحات سياسية أو محايدة. ومن باب الاحتياط نورد هنا ما ورد بشأن هذا الموضوع فى تاريخ الطبرى من خلال نصوص موجزة:

«فلما أصبح عمر دعا عليًا وعثمان وسعدًا وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوّام، فقال : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس.. ولا يكون هذا الأمر إلاّ فيكم.. إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس.. فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم..».


الخلافة خلال فترة خلافة عثمان
القواعد العسكرية والمدن الرئيسة
مناطق الاضطرابات
المدن
دولة حدود الخلافة
ثورات فى أرمينيا وأذربيجان وفارس
R. Volga
بحر قزوين
أذربيجان
Tigris
العراق
المدائن
Kufa
Hira
البصرة
بروسبولس
نيسابور
خراسان
تجديد الفتح العربي ٦٥٠
هيرات
بلخ
كابول
بخارا
سمرقند
أموداريا
مرو
نهر السند
لاهور
ملتان
نهر السند
السند
of Cyprus
Egyptian-Syrian
649 ;
in 653
البحرين
صحار
مسقط
عمان
خيبر
المدينة
نجد
اليمامة
مكة
غزوة فاشلة على ساحل البحر الأحمر
نجران
مأرب
ساوا
اليمن
حضرموت
البحر الأحمر
أكسوم
المحيط الهندى
N
0 500 1000 miles
0 500 1000 1500 km


المعركة البحرية الأولى بين الأسطول العربى والأسطول البيزنطي فى الإسكندرية
معركة ذات الصوارى
المعارك السنوية لتأمين الحدود الشامية
نهر الدانوب
الأسود
طنجة
Volubilis (Fez)
صقلية
قرطاج
القيروان
سركوزا
الأناضول
معركة سبيطلة
صبراتا (صبراتة)
البحر المتوسط
(المدينة)
كريت
ريودس
Antioc
لبتز ماجنا
أبولونيا
قبرص
غدامس
برقة (المدينة)
برقة المكشة
S e a
غزو عبدالله بن أبى السرح لتونس البيزنطية ٦٤٧
القلس
الإسكندرية
الفسطاط
القاهرة
برقة (PENTAPOLIS)
ممفيس
مصر
غارات عقبة بن نافع فى الصحراء الليبية
غارة عقبة بن نافع الفاشلة على النوبة
الهجوم البيزنطى المضاد ٦٤٤
دنقلة
حصار الإسكندرية ٦٤٦
أفريقيا
النوبة
Soba
معركة نكيو (نخيو) الثانية ٦٤٥
White Nile

- وقال عمر : «تشاوروا ثلاثة أيام ولا يأتين اليوم الرابع إلاّ وعليكم أمير منكم» «وطلحة شريككم فى الأمر».
- «وليحضر الشورى عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شىء».
- وإن أنقسم المجلس بالتساوى «فاختاروا القسم الذى فيه عبد الرحمن بن عوف».
- قال عبد الرحمن بن عوف : أيكم يُخرج منها نفسه..؟ فلم يجبه أحد.
- «.. فقال عبد الرحمن: إنى قد ناظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط عليكم سبيلا، ودعا عليًا فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ فقال على: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى. ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى قال عثمان : نعم، فبايعه.
- خافت قريش من مبايعة على فقال: «إن وَلِى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدًا، وإن كانت فى غيرهم من قريش تداولتموها بينكم».

(تاريخ الطبرى، جـ ٢، ص ص ٥٨١ – ٥٨٣ / نشر دار الكتب العلمية / بيروت) والواقع أن مؤلّف كتابنا عرض صورة الصحابة الأجلاء بشكل أكثر وقارًا مما عرضه الطبرى الذى ساق روايات عن «تآمر» و «تكتل» واختلاف ... إلخ.

(٢) فيما يتعلق بالصفات المادية لعثمان رضى الله عنه، فما ذكره المؤلف لا يخرج فى مجمله عما ورد فى كتب التراث التقليدية : السيرة النبوية لابن هشام والطبقات الكبرى لابن سعد وتاريخ الطبرى. أما فيما يتعلق باستخدامه الذهب لتقويم أسنانه فوارد بوضوح فى الطبقات الكبرى لابن سعد (المقال الخاص بعثمان).

(٣) من الواضح أن المؤلف قد فهم معنى أم حرام فهمًا خاطئًا، فأم حرام تنتمى إلى عشيرة ابن حرام وليس معناها المرأة التقية. والشخصية التى أشار لها المؤلف حتى ـ كما ورد فى: أزمنة التاريخ الإسلامى، جـ١، ص ص ٩٧٠ - ٩٧١ «هى أم حرام بنت ملحان بن زيد البخارية الأنصارية. صحابية كانت تحرج مع الغزاة وتشهد الوقائع. حضرت فتح قبرص مع زوجها عبادة بن الصامت فسقطت عن بغلتها فاندق عنقها وماتت ودُفنت فى الجزيرة. وهى أخت الرميضاء بنت ملحان وخالة أنس بن مالك. كان الرسول يكرمها ويزورها فى بيتها ويُقيّل عندها ودعا لها بالشهادة» .

(٤) المصادر العربية التراثية تصف المغيرة بن شعبة بالدهاء لكن بعبارات رقيقة، ومن ذلك «لو أنّ مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخرج من باب منها إلاّ بمكر لخرج من أبوابها كلها». والمغيرة قد اعتزل النزاع بين علي ومعاوية. وكان له بلاء حسن فى فتح الشام ومعركة اليرموك والقادسية ونهاوند.. إلخ. (الأعلام للزِّركلى، تاريخ الطبرى، جـ ٦ / ص ١٣١).

الفصل التاسع

الإمام علىٌّ الخليفة الرابع

.. وتجمَّع الناس فى صباح اليوم التالى فى باحة السُّوق ليُبايعوا عليًا خليفةً للمسلمين. لقد أصبح علىّ الآن، من الناحية الاسمية الرسمية قائدًا Commander (خليفةً) على كل الإمبراطورية العربية التى تمتد شرقًا عبْر العراق وفارس إلى المناطق الحدودية فى أفغانستان وآسيا الوسطى، وتمتد غربًا عبر مصر وليبيا، وتمتد شمالاً لتشمل كل سوريا والأردن وفلسطين وقبرص وكثيرًا من أراضى أرمينيا. لقد أصبحت كل هذه الأنحاء تحت إمرته وعلى وفق ما يُصدر من أوامر (توجيهات).

كان علىّ مستودعًا للفضائل: كان علىّ فى هذه الفترة هو صهِر النبى الوحيد الباقى فى قيد الحياة (زوج ابنة النبى) وهو والدُ صغيرَى الرسول المحبوبين، وابن عمه الأوَّل، وابنه بالتبنِّى (١) (لأنَّ عليًا نشأ فى بيت النبى) وأوَّل من أسلم من الذكور، وحوارىُّ النبى المقرب (أقرب صحابة النبى إليه) وبطل الإسلام المقاتل دفاعًا عنه، والذى ظهر فى العقد الماضى خبيرًا أساسيًا فى الشريعة وفهم القرآن. وقدَّم على بيعته لرجالٍ كانوا نظريا أقلَّ استحقاقًا منه بالخلافة. لقد بايع أبا بكر ثم عمر ثم عثمان، فليس هناك ـ الآن ـ أى مجال لشك فى أنَّه يستحق قيادة مجتمع المسلمين.

وكان علىّ أيضًا هو ـ الآن ـ رجل السَّاعة. لقد كان هو الوحيد الذى يثق فيه المتمردون (الثوار) المعسكرون فى الواحة (المدينة) والقرشيُّون المكِّيون والجيوش المتمركزة فى مدن الحاميات البعيدة، بالإضافة لأهل المدينة. حقيقة إن الأنصار (أهل

المدينة) الذين كانوا رائعين وحاسمين فى تقديم الدَّعم لمحمد النبى اللاجئ إلى واحتهم (المهاجر إلى واحتهم)، كانوا يعتبرون عليًا رجلهم المناصر لهم (كانوا يعتبرونه واحدًا منهم)، فقد كان أبو بكر وعمر وعثمان قد اختاروا چنرالاتهم (قادتهم) وولاتهم من قريش أو من القبائل البدوية المتحالفة معها (أحابيش قريش)، وقلَّما كانوا يختارون لهذه المناصب العليا واحدًا من أهل المدينة. حقيقةً إن الإجراء الحاسم الذى كان من نتيجته تولية أبى بكر الخلافة يمكن اعتباره رد فعل طبيعى instinctive ضد التهديد الذى تمثِّله عشائر المدينة بمحاولتها تأكيد ذاتها.

فى اليوم التالى كان هناك اجتماع عام (١٨ يونيو سنة ٦٥٦) فى صحن الجامع فى المدينة، ذلك المسجد الذى اتَّسع اتساعًا كبيرًا، وقدَّم المؤمنون بيعتهم لعلى ـ بيعةً كانت صورة طبق الأصل من بيعتهم للنبى تحت شجرة الشوك فى الحديبية قبل ذلك بثمانية وعشرين عامًا. وكان طلحة والزبير (٢) من بين من أقسموا يمين الولاء لعلى فى ذلك اليوم. وكان طلحة والزبير من بين أعضاء مجلس الشورى الستة الذين اجتمعوا بعد موت عمر فى سنة ٦٤٤. أما عبد الله، ابن عمر بن الخطاب، فقد أعلن إعلانا مشئوما مصرِّحا أنَّه لن يبايع حتى يبايع الناس، وكان يقصد بهذا عودة الرجال الأقوياء ذوى النفوذ من قريش بعد أدائهم الحج. ولم يسمح على لمؤيّديه المسلَّحين بإجبار هذا الرجل (عبد الله بن عمر) على المبايعة بغير رغبته، أو بتعبير آخر عدم إجباره على النفاق قائلاً: دعوه، فإننى سأحميه، فَوَالله ما عرفته إلاَّ سيئ الطباع صغيرًا وسيئ الطباع عندما كَبُر (٣).

كان هناك ثأر [illegible] بين على وأبناء عمر، فمنذ حوالى اثنى عشر عامًا طالب على بتطبيق الشريعة الإسلامية بكل صرامتها على عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذى قتل خمسة من المسلمين الفرس الأبرياء، انتقامًا لقيام أبى لؤلؤة النجار الفارسى بقتل أبيه (عمر بن الخطاب). لقد طالب علىّ ساعتها بتطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها وإلاَّ ستعلو قيم الشرف القبلى على قيمة شريعة القرآن، وهذا ما لم يكن ليقبله عمر نفسه لو كان حيًا، لكن عثمان رفض حجة على وقرر أن يكون رحيمًا مع ابن عمر، وطلب منه أن يدفع ديّات من قتلهم، بل وكان كريمًا فدفع هذه المبالغ من جيبه (أى من ماله الخاص).

كان لعلى ـ دائمًا ـ نصيبه من الأعداء أو بتعبير آخر، كان يُوحد الأعداء لنفسه. بسبب تطلُّعه للحقيقة أو بتعبير آخر بسبب التزامه التزامًا مطلقًا بالحق. **لقد كان**

هناك شىء فى طبيعته الصالحة الطيبة النقية his saintly nature يدفع إلى التعاطف الشديد معه أو إلى الخوف الشديد منه، لأنّ عليًا ظل دائمًا راديكاليًا ومثاليًا شارك النبىَّ محمدًا فى الإيمان المطلق بعظمة الله وملازمته لكل شىء، وقربه رغم تساميه all-pervading immanence of God وخوفه المطلق الحاضر دائمًا من العقاب الإلهى. **لقد ناصر قيام الخلافة بدور عسكرى لتكون أداةً لترسيخ عقيدة الإسلام** بشكل أعمق وتوجيه سلوك المؤمنين فى الطريق الصحيح. **وربما كان بعض أعدائه** (مناوئيه) **يخشون أيضًا أن يُحاول ادّعاء بعض من السلطان الدينى للنبى. وذلك لوجود تراث مُلح فى الإسلام يفيد أن النبى قد نقل لعلى وفاطمة ـ بشكل شخصى ـ بعض الدعوات والصلوات والشعائر والأفكار التى رأى ـ أى النبى ـ أنها لازمة اللزوم كله للمؤمنين العاديين.** هذه المعتقدات نسَّقها الشيعة فيما بعد وبلوروها فى الاعتقاد بأنَّ عليًا هو الإمام المُعيَّن وهو وحده الذى له حق تفسير القرآن وتأويله. **وعلى النَّهج نفسه سارت الطرق الصوفية المختلفة، فكلها تتطلَّع إلى على كرأس نبع يستمدون منه تراثهم their tradition وتعاليمهم السرّيّة** (**الباطنية esoteric**)، ومهما قيل عن على، فإنه قد واجه معارضة مُصمِّمة منذ الأيام الأولى لتولِّيه الخلافة.

وقد تمحورت هذه المعارضة حول شخصية واحدة. إنّها عائشة. عندما سمعت عائشة ـ للمرّة الأولى ـ تولّى منافسها القديم على منصب الخلافة، كانت فى محطة يُقال لها سرف (٤) لراحة القوافل وتمويلها بالعلف والمؤن، وهى (الصريف) على بعد اثنى عشر ميلاً إلى الشمال من مكَّة. لقد كانت عائشة عائدة إلى بيتها فى المدينة بعد طوافها طواف الوداع منهية مناسك الحج فى ذلك العام، لكنها ما إن سمعت بتولِّى علىّ الخلافة حتى أمرت على الفور قافلتها بالعودة أدراجها إلى مكة. لم تواصل عائشة طريقها إلى المدينة لتواجه حقيقة أنّ عليًا أصبح خليفة، لكنها توجّهت إلى مكة لتضع نفسها على رأس المعارضة العلنية لعلى. ولولا موقفها هذا الملتهب كُرهًا لعلى، لكان من المحتمل تمامًا ألا تتكتَّل المعارضة المكيّة ضد تولّى علىّ الخلافة. لكن ما إن ظهرت الزوجة الأساسيَّة، أم المؤمنين عائشة، ورفعت لواءها، حتى سارعَ المتشككون وأصحاب المآرب بالالتفاف حولها(★).

(★) كل الدلائل تثبت أن عائشة رضى الله عنها خرجت لكى تُصلح ما بين على من جهة، وطلحة والزبير من جهة أخرى، وليس هناك ما يثبت أنها خرجت للحرب أو أن هناك عداوة بينها وبين على ومحال ألاّ يشعر الرسول ﷺ بهذه العداوة، أو يشعر بها ويسكت عنها فى بيته. وشخصية على وشخصية عائشة فوق كل هذه الظنون والأوهام . (المعلق).

كان أول ما فعلته عائشة هو **إبعاد نفسها عن المجموعة التى عارضت حكم عثمان طوال السنوات الست الأخيرة** من حكمه (كانت عائشة تعارض حكم عثمان فى هذه السنوات علنًا وكان لها دور مهم فى هذه المعارضة). لقد بدأت عائشة تغير رأيها وبدأت تعيد تقييم الأحداث؛ إذ أعلنت أننا كنّا نلوم عثمان لبعض الأمور، لكنه تخلَّى عنها (تاب وأناب) وسال ربه الغفران. وقبل المسلمون توبته فلم يكن أمامهم خيار آخر. واتهمت عائشة عليًا بالتلاعب بمجريات الأمور السياسية بحيث تؤدى لمقتل عثمان، مع أن «إصبعًا واحدة من أصابع عثمان أفضل من على[٥]» كله بشحمه ولحمه، على وفق تقديرها السّامى. لقد كانت دعاية عائشة ضد على دعاية نشيطة مُتقنة تجاهلت بعناية وإتقان دور على بقيامه بالوساطة بين عثمان والمتمردين وازدرائه الواضح لموقف المتمرِّدين. وتجاهلت هذه الدعاية أيضًا حقيقة أنَّ عليًا ظل فى المدينة ليحمى عثمان وأن ابنه الحسن بن على جُرح أثناء دفاعه عن بيت الخليفة. ولم تقف عائشة موقفًا مدافعًا عن عثمان، رغم مناشدة مروان وعثمان .

وما إن دخلت عائشة حلبة النزاع حتى تحدَّدت خطوط المعركة بسرعة. خرج طلحة والزبير من المدينة (المنورة) لينضما إلى (معسكر) عائشة فى مكة. لقد تنكّرا الآن لبيعتهما (ليمين الولاء الذى أقسماه إذ ادَّعيا أنهما لم يبايعا عليًا إلاَّ خوفًا من المتمردين. وقد رأى البعض أنَّ موقفهما هذا إنما هو مجرد طموح مُحبط (خائب) ذلك أنَّه إذا أمكن عزل على أو عَقْد مجلس لانتخاب خليفة، لأصبحت فرصة انتخاب واحد منهما لمنصب الخلافة أمرًا قائمًا.

وقد سيقت الأدلَّة لفترة طويلة لإثبات أنَّ عائشة تآمرت سرًا لترشيح ابن عمها طلحة (زوج أختها أم كلثوم بنت أبى بكر / المترجم) للخلافة، إلاَّ أنّ حقيقة الأمر هى أنَّ الروابط العشائرية فى هذه الفترة كانت قد أصبحت مضطربة ومختلفة بشكل مؤكد لا سبيل لإنكاره، فلم يعد من الممكن أن نتحدث عن هذه الفترة بلغة الوحدات العشائرية Clan units، فعلى سبيل المثال. نجد أنَّ أخا عائشة من أبيها الوقور أبى بكر، كان هو نفسه شديد الولاء لمن عاش فى بيته وتربّى عنده (على بن أبى طالب)، لكن محمدًا بن أبى بكر القاتل الرئيس لعثمان كان مصدر إزعاج كامن لكلا الجانبين.

وفى منزل عائشة بمكة عقد المتآمرون اجتماع حرب. ولم يكن أمامهم فيما يبدو إلاَّ ثلاثة خيارات: أن يوجِّهوا وبسرعة قوّة لضرب على فى المدينة، أو أن ينضموا لجيش معاوية فى الشام أو أن يطلبوا دعما من إحدى مدن الحاميات الأخرى garrison cities. لكنهم لم يكونوا أقوياء بدرجة تكفى لتنفيذ الخيار الأول (مهاجمة المدينة) كما أنهم

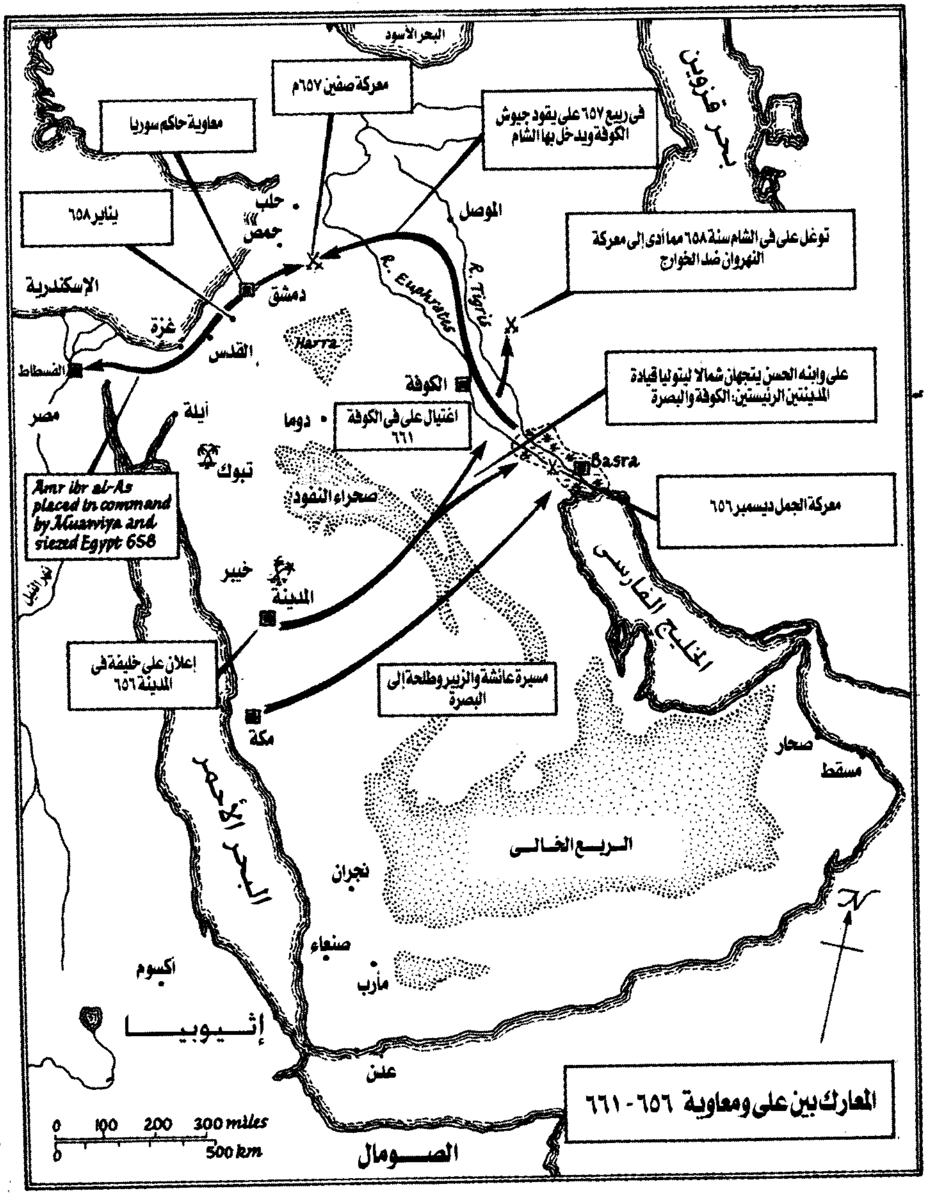
خشوا ـ عن حق ـ أن يُقال إنهم أوّل من أطلق سهما فى حرب أهلية : بينما كانوا معارضين لأن يكونوا مُعْتمدين على معاوية، ذلك الشاب الطموح ابن عم الخليفة المقتول. لم يكن أمامهم إذًا إلاَّ الخيار الثالث الذى بدا عمليا. ولأنّ أنصار على عُرفوا بأنهم أقوياء متحمسون فى كلٍّ من الفسطاط (مصر) والكوفة (العراق الأوسط)، فإنَّ المتآمرين لم يكن أمامهم خيار عملى سوى التحرك بسرعة ناحية البصرة (العراق الجنوبى) وأن يقبضوا على زمام قيادة الجيش هناك، وعجَّل لهم هذه المهمة وسهَّلها الوالى المخلوع الذى كان عثمان قد عيَّنه بدفعه مبلغ ٤٠٠ ألف درهم لتمويل الحرب to the war chest.

كان عدد الذين انخرطوا فى فعاليات أوّل صدع داخل الإسلام، صغيرًا فغالبية المسلمين فزعوا من خوض حرب ضد إخوانهم المسلمين، مفضلين عدم الانضمام إلى أى جانب. فبينما كان لدى دولة المسلمين جيوش قوية قوامها ٤٠ ألف مقاتل، جرت العادة أن تتحرك لتخوض حروبًا متزامنة على جبهات ثلاث، ربما كان قوام الجيش الذى خرج من مكة بقيادة حكومة الثلاثة، عائشة وطلحة والزبير لا تزيد على ٩٠٠ رجل. وقد رفضت أم سلمة الأكثر حكمة وسياسة من بين كلِّ زوجات النبى أن يورّطها أحد فى هذه الأمور، وأصرَّت على العودة للمدينة لتبايع عليًا، وكذلك رفضت حفصة أن تسمح باستخدام اسمها فى أيَّة مؤامرة يكون محورها أنَّ عليًا كان مسئولا عن قتل عثمان، وحثَّت عبد الله بن عمر للوقوف على الحياد. وسرت إشاعات أنَّ معاوية كان قد أرسل بالفعل وكلاء عنه لتقديم مقترحات بدعْم الزبير فى مطالبته بالخلافة إذا تمّ عزل على، إلاَّ أنَّ طلحة والزبير رفضا الانجرار إلى هذه اللُّعبة الخطرة التى قد تؤدِّى لشق صفوفهما (انقسامهما)، وقاما بالدعوة علانية إلى الشورى لتكون الخلافة من نصيب (واحدٍ منّا) أيًا من كان، مادام قد وقع اختيار الناس عليه.

أمّا على فقد تصرَّف بإخلاص كما كان متوقَّعًا منه. لقد وزّع بعناية كل الاحتياطى على الفقراء والمتقاعدين pensioners فلم يُبق على قطعة عملةٍ فضِّية واحدة فى الخزانة. لقد كان على يقصد العودة بمجتمع المسلمين إلى الثقة فى كرم الله أكثر من الاعتماد على الرواتب والمعاشات المتوقِّفة على كفاءة الإدارة الإمبراطورية (الدولة). وكانت أول خطبة ألقاها على فى جموع المؤمنين بعد مبايعته بالخلافة بعد يومين فقط من موت عثمان، خطبة غير معسولة. لم تكن خطبة رجل يسعى للحصول على إجماع

سياسى عريض. لقد أطلق تحذيرات شديدة عن أخطار التواكل والإهمال وعدم الولاء، ونقص الإخلاص فى دين الله(٦). ويُلاحظ أنَّ عليًا لم ينتقد الخليفتين السابقين فحسب وإنما كال لهما المديح باعتبارهما نماذج يحتذيها المسلم الحق. ولم يحاول على أن يُبرر قتل عثمان ولم يحاول أيضا انتقاد قاتليه؛ لكنَّه أكد رأيه ذاكرا أن الخليفة الراحل قد أثار الناس بأفعاله غير العادلة. وتُشير أسماء المسئولين الجُدد الذين عيّنهم على إلى ميلاد نظام جديد يستوعب كل المسلمين العرب بصرف النظر عن انتمائهم للعشائر النبيلة فى قريش. لقد كان القائد الوالى governor-general الجديد الذى عيَّنه علىّ على البصرة من الأنصار (من أهل المدينة)، وكان رجلا ذا معارف كثيرة (تتسم بالتكامل)؛ إذ كان عمر بن الخطاب قد عيّنه مسّاحا للأراضى. أما بالنسبة لوالى مصر وحامية الفسطاط فقد راعى على مطالب الثائرين على عثمان، وكانوا جميعا من شيعة على partisans for Ali فعيَّن عليهم واليا جديدا من أهل المدينة هو قيس الخزرجى (من الخزرج)، وفى هذه الفترة الحرجة عُقد اجتماع خاص بين على وذلك الشرِّير المكّار العجوز الأعور ـ المغيرة بن شُعبة. وقد تذكّر أحد أبناء عمومة النبى وهو عبد الله بن عبَّاس، بعد ذلك بأعوام ما جرى فى هذا الاجتماع (بين على والمغيرة). لقد حاول المغيرة مكيافيلّى السياسة الإسلامية الباكرة (وكان أيضا بمثابة كازانوفا)، حاول توجيه النصيحة لعلى مبينًا له كيف يكون فاعلا مؤثِّرا على الصعيد السياسى. نصحه المغيرة أن يُرسل على الفور رسائل لتثبيت الولاة القائمين فعلا، «واكتب لهم وداهنهم وأَرْضِ أطماعهم وكبرياءهم، وأعطهم وعودا تُنفّذ فى المستقبل حتى لو لم تكن تنوى تنفيذها. وفى الخطابات نفسها التى تثبتهم فيها وتقوّى مراكزهم أصدر تعليماتك بأن يتلقّوا قسم البيعة والولاء للخليفة علىّ من الجنود» (٧) ساعتها سيكونون مطيعين خانعين كالخراف. فقال على ردًا على هذه النصيحة: إن هذه النصيحة قد تكون فعّالة ومؤثّرة، لكن هذا ـ والله ـ لا يمكن أن يكون. لقد كان على ملتزما بما هو حق وصحيح ومرتبطًا بمهمة دينية، وملتزمًا بتعاليم القرآن. واستمع المغيرة لما قاله على باحترام صامت. لقد استمع إلى رجل لا يمكن مساومته. استمع إلى رجل مبادئ. لكن المغيرة ـ بعد ذلك ـ انسلَّ خارجًا من المدينة (الواحة) وركب دابته متوجها شمالا إلى الشام؛ لأنه كان يعرف أنَّ معاوية سيكون أكثر استعدادًا لتثمين نصائحه.

وفى هذه الأثناء راحت القوّة الخارجة من مكة، والتى قوامها ٩٠٠ مقاتل، تتجنَّب طرق القوافل المارَّة بالقرب من المدينة (المنوّرة) وأصبحت على مشارف الحدود



البحر الأسود
معركة صفين ٦٥٧م
معاوية حاكم سوريا
فى ربيع ٦٥٧ على يقود جيوش الكوفة ويدخل بها الشام
بحر قزوين
يناير ٦٥٨
حلب
حمص
الموصل
توغل على فى الشام سنة ٦٥٨ مما أدى إلى معركة النهروان ضد الخوارج
الإسكندرية
دمشق
R. Euphrates
R. Tigris
غزة
القدس
Harra
الفسطاط
الكوفة
على وابنه الحسن يتجهان شمالا ليتوليا قيادة المدينتين الرئيسيتين: الكوفة والبصرة
مصر
أيلة
اغتيال على فى الكوفة ٦٦١
دوما
Basra
تبوك
Amr ibn al-As placed in command by Muawiya and siezed Egypt 658
صحراء النفود
معركة الجمل ديسمبر ٦٥٦
خيبر
المدينة
الخليج الفارسى
إعلان على خليفة فى المدينة ٦٥٦
مسيرة عائشة والزبير وطلحة إلى البصرة
مكة
صحار
مسقط
البحر الأحمر
الربع الخالى
نجران
صنعاء
مأرب
اكسوم
إثيوبيا
عدن
المعارك بين على ومعاوية ٦٥٦ - ٦٦١
0 100 200 300 miles
0 500 km
الصومال

العراقية، فقابلهم وفد محذّر قادما من حامية البصرة، ليسأل السيدة عائشة ـ باحترام ـ عما إذا كانت (أى السيدة عائشة) قد قدمت بناء على رأى بدا لها أم بناء على حديث قاله النبى. فأعلنت عائشة أنها لم تقرر القيام بما قامت ـ وستقوم ـ به إلاَّ بعد أن سمعت قصة موت عثمان. لقد وافقت عائشة على أن مسلمين كثيرين كانوا غاضبين من الخليفة الراحل عثمان لبيعه أراضى الدولة وبتعيينه أقرباءه ولا غيرهم ولاة، ولمعاقبته المخلصين، لكن المتمرّدين قد انتهكوا ثلاث حُرُمات: سلطان المدينة (المنورة) وقداستها، ووقار الخليفة، بالإضافة لحرمة شهر رمضان.

لكل هذه الأسباب فإنهم أتوا ليطلبوا دعْم جيش البصرة؛ ليثأروا من قَتَلَة عثمان ولعقد اجتماع شورى ليختاروا خليفة. ولم تكن هناك أية إشارة لكراهية عائشة لعلى بن أبى طالب كراهية شديدة. ولم يقتنع الوفد القادم من البصرة تمام الاقتناع، لكنهم كانوا سعداء بأن يُقيم هؤلاء الصحابة الكبار خيامهم بجوار خيامهم فى باحة سوق المِرْبد خارج البصرة، فهنا عسكر التسعمائة مكّى فى مساحة كان المعتاد أن تشغلها قبيلة بنى سليم. وكانوا قادرين على الدعوة لقضيَّتهم والترويج لها طوال اليوم قبل أن ينقلوا معسكرهم فى منتصف الليل إلى المساحة المخصَّصة لعشيرة بنى طاهية من قبيلة الأزد لأنها أكثر ولاء. وقد سمح لهم الوالى الجديد الذى عيَّنه على بالإقامة حتَّى يصل الخليفة ليتولى أمر المفاوضات. وكان الوالى الجديد قد أرسل له فعلاً.

وفى الليلة التالية ضربت مجموعة عائشة ضربتها فحاصرت الوالى الجديد وهو فى طريقه للمسجد، وجرت إهانة الرجل التَّعِس (الوالى) فَجُلد أربعين جلدة، وبعدها نتفوا شعر وجهه بما فى ذلك حاجباه ورموشه قبل أن يُلقوا به فى السجن. وأَمَّ المصلين فجرا فى المسجد الجامع طلحة والزبير وكأن شيئا لم يحدث. وحاصروا المبانى العامة، وكانوا مضطرين لصَرْع الجنود الموالى الموالين ذوى الأصول السِّندية (تحولوا للإسلام حديثا وهم من المناطق الجنوبية فى باكستان)؛ لرفضهم التخلّى عن مواقعهم فى حراسة الخزانة العامة (بيت المال) للولاية ومخازن الحبوب.

لو أنَّ المكّيين المنتصرين ـ الآن ـ نجحوا فى مدِّ سيطرتهم على حامية البصرة وحامية الكوفة، لانهارت سلطة على ولم يَعُد خليفة للمسلمين . وراحت الخطابات وراح المبعوثون جيئة وذهابا فى اختلاط مشوّش عجيب بينما على مُقيم فى المدينة، وعائشة وطلحة والزبير فى البصرة يراسلون مؤيّديهم الأساسيين فى الكوفة. وكان الوالى الفعلى

فى الكوفة هو أبى موسى الأشعرى، وكان رجلا صارما مستقل الفكر وكان قد سبق له العمل فى خدمة الخلفاء الثلاثة السابقين. لقد نصح أبو موسى جنوده بالوقوف على الحياد وأن يبتعدوا عن أىّ نشاط سياسى يمكن أن يؤدِّى إلى إضعاف وحدة الإسلام. أما الشخصية الأساسية الأخرى فهو زعيم قبيلة ابن سعد الذى أعلن أنه لن يحارب ضد أم المؤمنين (عائشة) ولا ضد ابن عمّ النبى، وقام بسحب جنوده البالغ عددهم ٦٠٠٠ من قبائل مختلفة إلى موضع محايد فى الصحراء.

لا بد أن نركِّز هنا مرةً ثانية على أنَّ **مجموعات صغيرة ناشطة سياسيًا هى التى أحدثت أوّل صَدْع فى الإسلام**. ذلك أنه عندما غادر الخليفة على المدينة (المنوّرة) كانت قوّاته أكثر كثيرا من قوات عائشة والمتحالفين معها. لقد كانت قواته مكونة من سبعمائة رجل من عشائر المدينة (الواحة) القديمة، مثل عشيرة بنى النجار وعشيرة الخزرج. وبينما سار علىّ مباشرة نحو أراضٍ يُعسكر فيها من بين المدينتيْن ذواتَى الحاميات (الكوفة والبصرة)، أصدر التعليمات لابنه الحسن أن يتوجه مباشرة إلى الكوفة حيث استطاع بنفوذه الروحى باعتباره حفيد النبى أن يحجب سلطة الوالى، وأصبح قادرا على قيادة ٧٠٠٠ رجل معظمهم من البدو إلى معسكر والده (معسكر الإمام على).

وبحلول شتاء سنة ٦٥٦، راحت كل قوة من القوتين تتقدّم بغير حماس لملاقاة القوّة الأخرى فى المساحة المتّسعة التى شيَّد فيها - فيما بعد - زياد قلعته. ولمدّة ثلاثة أيام راح علىّ وطلحة والزبير يتفاوضون داخل خيمة دائريَّة.

وفى صبيحة الثلاثاء ٣ ديسمبر، غادر على الخيمة لانتهاء المفاوضات دون الوصول لحل. وعند الظهيرة تقدّم الجيشان لخوض المعركة، لكن يتضح من الحكايات المتفرقة عن هذا اليوم المشهود والتى جرى تنقيحها بعد ذلك، أنَّ عددا قليلا جدا من المقاتلين على كلا الجانبين هم الذين حاربوا بحماس، أما الغالبية العظمى من المقاتلين (هنا وهناك) فقد كانت آسفة لقيام هذه الحرب they had not any real heart for the conflict؛ إذ راح كل واحد من المقاتلين يتوقع فيما بينه وبين نفسه أن يتم الاتفاق وينتهى الأمر فى آخر لحظة. هذه الرغبة - أى الرغبة فى تحقيق السلام بين الطرفين فى الدقائق الأخيرة - هى وحدها التى تفسّر لنا حكاية أنَّ عليًا بدل أن يتقدَّم الصفوف إلى جوار حامل اللواء وهو ابنه محمد بن الحنفية، راح يمشى وقد اعتراه الاضطراب وراء صفوف حَمَلَة الرماح من أعدائه (من الجيش المواجه) وكيف أن الزبير ترك ميدان

المعركة فقتله ثلاثة من البدو التابعين لجيشه هو. إنه ليبدو مستحيلاً أن الزبير وهو واحد من أشجع صحابة النبى يمكن أن يرتد جبانا (هاربا من المعركة).. لا تفسير إلاّ أنه رفض إراقة دماء إخوانه المسلمين.. وعندما جرى إحضار رأسه وسيفه إلى الخليفة علىّ أبدى أسفه ذاكرا أنه يعرفه جيدا فلطالما حارب إلى جواره فى الصفوف الأولى حمايةً لرسول الله. أما طلحة الذى نزف حتى الموت جرَّاء سهْم اخترق وريده، فإن مَقتله يمكن اعتباره حادث نزاع (أو مبارزة) أكثر من اعتباره اعتبارًا كاملاً من فعاليات المعركة. لقد ظهرت روح الشهامة والفروسية فى نهاية هذا اليوم: إذ تحلَّق القتال بعد العصر حول هوْدج الجمل الذى تجلس فيه عائشة. إذ راحُ مُناصِر إثْر مُناصر من أتباعها يتقدم ليحوز شرف الدفاع عنها وليقترب من موت مؤكد بالقبض على زمام رسن (لجام) جمل أُمِّ المؤمنين ليكون هو الفارس الحامى. وراح فارس إثر فارس يسقط جرَّاء السهام المنهالة. لقد كانت هذه المعركة حول الجمل وكأنها معركة من معارك الجاهلية (قبل الإسلام). وتم ذبح كعب والقرآن حول عنقه ثم جاء دور ابن عتاب الذى يطلق عليه أتباعه لقب «سيّد قريش» ليسقط (حول الجمل) ليتبعه أحد أبناء طلحة، ثم عبد الله بن الزبير ابن أخت عائشة (لم يُقتل عبد الله بن الزبير فى وقعة الجمل) (٨). وأعقب هؤلاء الترشيين الفخورين مقاتلون آخرون بسطاء لكنهم مُصمِّمون، ونعنى بهم مقاتلى قبيلة بنى دبَّا Dabba من حامية البصرة. يُقال إن أربعين منهم لاقوا حتفهم أيضا عند قتالهم حماية لجمل عائشة قبل أن يُصدر علىّ قراره الحاسم بقطع أوتار أرجل الجمل، وعندما سقط علىّ الأرض تقدم محمد بن أبى بكر المقاتل فى صف على ابن أبى طالب حتى لا يكشف أحد غيره عن أخته الكبرى (عائشة). وهمس لها أخوها الأصغر من خلال الدرع الجلدى المحيط بالهودج، هل أُصبت؟ فأجابت عائشة بسرعة: نعم، أصابنى سهم فى أعلى ذراعى، فأدخل أخوها (محمد بن أبى بكر) ذراعه فى الهودج وسحَب نصل السهم ـ برقَّة ـ من ذراع أخته، ولم يُسمع صوت صراخ كثير أو أنين صادرًا من الهودج.

واقترب على ضاربًا بيده على جلد الهودج قائلاً: « من المؤكد أن هنا فى الهودج حُمَيراء إرم التى أرادت أن تقتلنى كما قتلت عثمان بن عفّان». كانت كلمات علىٍّ مليئة بالإشارات ذات المعنى: فإرم هو اسم لبستان لأناس عاشوا قبل الإسلام (فى العصر الجاهلى)، فسد وتحطم نتيجة أعمال غير صائبة (طائشة) قام بها واحد منهم. أما حميراء فهو تصغير حمراء، وهو اسم تدليل كان يطلقه النبى على زوجته الحبيبة

(عائشة). أما آخر كلمات على فحوت إشارة إلى أن مقتل عثمان الذى ولْولت عائشة علانية مُظهرةً أنه سبب أحزانها، فقد عَزّاه علىّ لها upon her own head. وقد أجابت عائشة بخنوع: «لقد كسبت الحكم (أصبحت خليفة) يا بْنَ أبى طالب، فاصفحْ...».

وأصدر على الأوامر أن يصحبها أخوها من أبيها إلى منزل فى البصرة وبعدها تتجه مع جماعة إلى منزلها فى المدينة. ثم أمر على بعض أتباعه أن يذيعوا نبأ الانتصار:

من نزع سلاحه فهو آمن.

فلن نتتبّع مغادرًا أرض المعركة

ولن نقتل جريحًا.

لقد تسامح على بطيبته المعروفة ودفن الموتى، لكنه استولى على السلاح والدواب باعتبارها غنائم حرب، ولم يسمح على بأن يُسترق أىّ مسلم ووعد ورثة القتلى بأنهم لن ينالوا أىّ عقاب. وليُرضى رجاله الذين هَزَموا عدوّه فقد كافأهم مكافأة كريمة، بصرف ٥٠٠ درهم لكل واحد منهم من خزانة البصرة والعدو الوحيد الذى كان لابد أن يُعدم فهو ذلك الذى تلفَّظ بعبارة «دين على»؛ لما تحويه هذه العبارة من فصل بين «دين على» ورسالة النبى. لقد أحنقت هذه العبارة عليًا.

وركب علىٌّ إلى الكوفة. ورفض للمرة الثانية أن يُقيم فى قصر واليها الرَّحب، إذ وصفه بأنه قصر الخبث (قصر الفساد Castle of Corruption) وإنما أقام فى باحة متواضعة. أما أبناء عثمان وعشيرته الأقربون، فقد كانوا بالفعل قد نقلوا (عُزلوا) من مناصبهم، وقد عفا عنهم على ولم يُقيد حريتهم. وأحلَّ علىّ محلهم أفرادًا من عشيرة النبى المخلصين، فتم تعيين عبد الله بن عباس (ابن عم النبى) واليًا على البصرة، وعيَّن عمَّارا Umar ابنه بـ نبى واليا على البحرين. وكان تعيينه لمحمد بن أبى بكر (الذى تربَّى فى حجر على) واليا على مصر، هو التعيين الأكثر مدعاة للجدل، لأن محمد بن ى بكر كان أحد قتلة عثمان. وعلى أية حال، فقد شعر على بإحساس يقينى أنَّ محمدا ابن أبى بكر كان يُشاركه ـمامًا رؤيته بالعودة بالدولة الإسلامية إلى نقاء سنواتها الأولى وبساطتها وتقشّفها poverty.

بقيت مسألة مهمة كان لا بد من إقرارها قبل أن يصبح على حرًا فى مغادرة مقره المؤقت فى الكوفة، والعودة للمدينة (المنوّرة). لقد كان عليه أن يحسم مصير معاوية الرجل الذى حكم الشام معظم العقدين.

نصح المغيرة بن شعبة عليًا أن يُهادن وأن يتحالف مع القائد الوالى القوى (الحاكم الجنرال) لكن عليًا رفض النصيحة. طوال الشهور الستة بين تولّى على الخلافة فى شهر يونيو، ومعركة الجمل فى شهر ديسمبر لم يعمل أىٌّ من الجانبين (على ومعاوية) على نزع فتيل التوتّر، وكان معاوية لا يزال يأمل فى اتفاق سلام يؤدى إلى تثبيته فى ولاية الشام.

وكان لمعاوية أسباب صحيحة وواضحة تجعله يعتقد أنه سيبقى بعد موت عثمان، فرغم أن معاوية هو ابن عم عثمان إلاَّ أنه كان مُستثنى ـ على نحو خاص ـ من سخط المعارضة العامة ضد عثمان وأقربائه، لأن معاوية لم يصل إلى السلطة (الولاية) من خلال عباءة ابن عمه الخليفة وإنما وصلها من خلال قدراته وجهوده. فبحلول عام ٦٥٦ كان هناك عدد قليل جدًا من المسلمين كان يمكنهم أن يُباهوا بخدماتهم الطويلة والمميَّزة للإسلام، وكان معاوية من بين هؤلاء. وعلى أية حال، فمعاوية لم يكن من بين المهاجرين أو من بين السابقين للإسلام، فلم يُسلم إلاَّ بعد فتح مكَّة، ولا جدال فى أنه ابنٌ لأب وأم عاديا النبى معاداة شديدة، فأبوه هو أبو سفيان الزعيم المكِّى الوثنى وأمه هى هند آكلة الأكباد، إلاَّ أنه (أى معاوية) فى هذه الأثناء كان طفلا يعيش فى بيت والده. وعندما كبر معاوية (دخل مرحلة الرجولة) وثق فيه النبى لدرجة أنه أوكل إليه بين الحين والآخر بعض المهام فى المدينة (المنورة)، (جعله سكرتيرًا له فى بعض الأحيان). وشارك معاوية فى كل معارك الخلافة الباكرة فحارب إلى جوار أخيه الأكبر يزيد بن أبى سفيان الذى وثق فيه أبو بكر، فأوكل إليه القيادة العليا عند فتح الديار المقدسة Holy Land (فلسطين) ورقَّاه الخليفة العظيم عمر، فجعله واحدًا من القادة (الولاة) الأربعة فى الشام Governer-generals of Syria. وكانت مواهبة التنظيمية تتجلَّى سنويًا فى ساحات الحروب ضد البيزنطيين، مما جعله ينجح بسرعة فى صدِّ هجومين مضادين كبيرين.. كل هذا جعله بالتدريج يسيطر على القادة العسكريين الثلاثة فى سوريا وفلسطين، وأثناء حكم عثمان، مدّ معاوية حدود إمبراطورية المسلمين إلى جزر البحر المتوسط وإلى أرمينيا ، والأهم أن ولايته كانت هى الولاية الوحيدة التى ظلت مستقرة فى السنوات الست الأخيرة من حكم عثمان، فى الوقت الذى شاع فيه الاضطراب فى مختلف أنحاء إمبراطورية المسلمين. فلو أنّ معاوية أُتيحت له الفرصة لمواصلة خدمته

فى ظل حكم على كما كان الحال مع الخلفاء الثلاثة السابقين لكان سعيدًا بهذا مرحّبًا به، لكن إصرار علىّ الخليفة على إزاحته وإحلال والٍ آخر مكانه، وإصراره على نزع أبَّهة الثروة والسلطان منه (من معاوية).. هو الذى جعل معاوية بالتدريج ـ يصبح عدوًا (لعلى).

ولا بد أنَّ وصول اللاجئين الأوائل من بلاط عثمان ـ ذلك البلاط الذى ساءت سمعته ولكونه فى الأساس مكوّنًا من عثمان ـ إلى دمشق، قد سبَّب إرباكًا لمعاوية. ومن المؤكَّد أن أخا عثمان ـ وهو الوليد الذى عُزل من ولاية الكوفة لأنه شرب الخمر علنًا ـ كان عبئًا ثقيلا على معاوية، إذ راح الوليد يحثّ معاوية علنا على الثأر لعثمان. «والله لن تكون ابن هند إذا مرَّ اليوم دون أن تثأر لعثمان. هل يمكن لعبدٍ أن يقتل سيّده دون أن تقتصّ منه؟

ألا ليت أمك (يا معاوية) كانت عاقرًا

ليتها لم تلدك.

قَسَمًا لو قتلناهم لما استطاع أحد أن يردّنا

فهم يرون أنَّ عجلة الحظ قد دارت لصالحك».

ولا بد أنَّ أن هذه المعانى كانت مثيرة، وكان الوليد هو أقرب الأقرباء الذكور لعثمان، ومع هذا فقد راح يضع الثأر على كاهل ابن عم القتيل، بمعنى أن الأخ هو الأوْلَى بالثأر لأخيه من ابن العم (معاوية). إن لغة هذه المناشدة ذات رائحة جاهلية. **لقد كانت انتكاسة بعيدة عن النظام الأخلاقى الذى أقرَّه الإسلام**. وفى الأشهر الستّة بين يونيو وديسمبر ٦٥٦ رغب معاوية أن يظل صديقا مواليا لكل المطالبين الرئيسيّين بالخلافة، على أمل أن يبقى هو الحاكم الفعلى de facto ruler للشام. وكان الوليد فى تلك الفترة أيضًا يحاول ـ مع عمرو بن العاص ـ الترويج لقضية الثأر، وكان معاوية يعرف أن عَمْرًا حليف يمكن التعويل عليه مستقبلاً، كما أثبت فيما مضى. لقد كان عمرو ـ بعد مقتل عثمان ـ يُشار له باعتباره واحدًا من المتَّهمين الرئيسين، ليس فقط لاختلافه مع عثمان منذ عام مضى وتطليقة لأخت عثمان إمعانًا منه فى تعميق الخلاف بينهما، لكن أيضًا لأن الجنود القدامى فى حامية مصر وكان معظمهم لا يزالون موالين لقائدهم القديم ـ

عمرو، كانوا هم الذين وقفوا فى طليعة سلسلة أعمالٍ سرعان ما حوّلت الساخطين من مجرّد معترضين مقدمى التماسات إلى قَتَلة.

وعلى أية حال، فبحلول شهر ديسمبر اتضح لمعاوية تمام الوضوح أنّ عليًا قد أصبح الآن هو قائد إمبراطورية المسلمين دون معارضة. لقد هُزمت عائشة فى معركة الجمل وجنحت للسّلم. ومات طلحة والزبير. فعلى لم يعد مجرّد منتصر وإنما رافضٌ لكل عروض التفاهم وكان يستعد لغزو الشام فى ربيع سنة ٦٥٧ ليعيِّن واليًا جديدًا عليها من اختياره هو. وعلى هذا، فإذا كان معاوية راغبًا فى مقاومته فلا بد أن يُرسى دعائم وضعه السياسى لكى يهز شرعيَّة على. وكان السبيل الوحيد المفتوح أمامه هو أن يُنصِّب نفسه مطالبًا بالثأر لعثمان. لقد أصبح أقرباء عثمان (عشيرته) يحظون ـ الآن ـ بالتكريم والتشريف فى دمشق بعد أن كانوا مصدر ضيق لمعاوية. وأرسلت أخت معاوية، أم حبيبة، وهى إحدى أمهات المؤمنين، فى الوقت نفسه مجموعة من ذخائر الأسرة (أشياء ذات قيمة معنوية أو مادية) إلى دمشق لتُحفظ هناك فى مكان آمن. وطاف الطائفون «بقميص عثمان» الملطَّخ بدمائه فى مختلف أنحاء الشام لإثارة حميّة الحاميات، قبل أن يعلَّق فى منبر المسجد الجامع الكبير فى دمشق. أما أصابع نائلة زوجة عثمان الشامية التى قطعها قَتَلةُ عثمان وهى تدافع عن جسد زوجها، فقد ألهبت المشاعر بشدَّة. وأصبحت الآية رقم ٣٣ من السورة رقم ١٧ هى محور (شعار) معركة معاوية: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣)﴾ (الإسراء : ٣٣).

وكان قيام على بتعيين محمد بن أبى بكر واليًا على مصر عاملاً مهمًا خدم دبلوماسية معاوية الهجومية الجديدة. فرغم أن معاوية لم يجرؤ على الادّعاء ـ بشكل مباشر ـ بأن عليا كان ضالعا فى قتل عثمان، إلاَّ أنه يستطيع القول أنَّ واحدا من المشاركين فى قتل عثمان وهو محمد بن أبى بكر قد أصبح الآن عضوا مكرّما مشرَّفا فى إدارة (حكومة) علىٍّ الجديدة. لقد فتح هذا الباب لمعركة من الغمز واللمز والتعريض والافتراء شعرا (ونثرا)؛ مما أمدّ معاوية بشىء من الأمان السياسى. لقد أصبح فى مقدور معاوية الآن أن يطالب علنًا بالعدالة أى بالقصاص من قتلة عثمان، وهو يعلم (أى معاوية) أنّ عليا يستحيل عليه بالفعل، تنفيذ هذا المطلب. لقد أصبح لدى معاوية ـ الآن ـ

سبب قوىّ (حديدىّ) يمكن أن يبرّر به رفضه التخلّى عن ولاية الشام بناءً على طلب الخليفة الجديد (على). وعلى حد قول معاوية: إنَّ أهل الشام لن يقبلوا أية أوامر (تعيينات جديدة) إلاَّ بعد أن تُسلِّمهم قَتَلة عثمان.

كان معاوية مصلحيا نفعيا (برجماتيا) من الطِّراز الأول، فقد كان يعلم أنَّ علىَّ بن أبى طالب لا يزال موقَّرا محترما من المقاتلين المسلمين والمسئولين العسكريِّين، وقد تجلَّى مكر معاوية فى إقراره لعلى بأنه «يعرف أصالته فى الإسلام وقرابته لرسول الله ومكانته فى قريش». كل هذا أقرَّ معاوية أنَّه لا يُنكره. وفى هذه الفترة التى لم يكن معاوية يتطلَّع فيها للخلافة بأية حال من الأحوال، قنعَ بأن يحاول حثَّ المرشّحين المحتملين للمنصب (الخلافة) ليقفوا فى صفّه. لقد أرسل مبعوثين من دمشق ليكسب إلى جانبه عددا قليلا من الصحابة بأن وعدهم بالكثير promising them with earth وقرر فى إحدى مراسلاته لعبد الله بن عمر بن الخطاب أنَّه لا يريد أن يحكمهم (أى الصحابة)، وإنما يريد أن يكون الحكم له (أى لعبد الله بن عمر). وعاد له مبعوثوه وقد ملأت آذانهم عبارات استهزاء وتوبيخ «إنَّ معاوية ليس إلاَّ واحدًا من الطلقاء (الذين عفا عنهم النبى بعد فتح مكة) وأنه ابن من شنَّ حربًا على النبى، فكيف يختاره الصحابة الفضلاء خليفة؟!». ولا بُدَّ أن نضع فى الاعتبار أن قادة الإسلام فى هذه المرحلة كانوا لا يزالون يقيمون فى المدينة (المنورة) تحديدًا. حقيقة إن عمر بن الخطاب كان قد منعهم من مغادرة المدينة إلاَّ بإذن منه، إلاّ أن عثمان ـ بطبيعة الحال ـ قد حررهم من هذا القيد وسمح لهم بشراء أراضٍ فى أىّ مكان، إلاَّ أنّ غالبية الصحابة كانوا دائما منجذبين للمدينة (الواحة) المليئة بما يُذكِّرهم بما هو مُحبّب ومؤثّر بعمق، عن محمد، بالإضافة للأماكن التى شهدت نزول الوحى. وكانت مقابر المدينة قد امتدت ـ الآن ـ وكانت تضم رفات معظم أبطال الإسلام فى مرحلته الأولى فى المدينة، كما كان لا يزال هناك اعتقاد أنَّ يوم الحساب بات وشيكا: على الأكثر بعد أعوام فلا مجال للحديث عن عقود أو قرون. وقد صوَّر القرآن يوم الحساب بطريقة تبعث على الخوف الشديد. لقد كانت هناك رغبة عارمة لدى المسلمين فى أن يكونوا إلى جوار النبى حتى بعد أن مات، نظرًا للفهم المخيف المتمكن من الناس بقرب نهاية الدنيا وحلول يوم القيامة المرعب. وعندما ذكر معاوية أنَّ الشام ينبغى أن يكون لها صوت فى مجلس الشورى القادم الذى ينتخب (يختار) الخليفة، أجاب على إجابة مهلكة إذ قال إنه ليس فى الشام من يستحق أن يكون فى مجلس الشورى، وكان على قادرًا أيضًا على تذكير معاوية أنه فى سنة ٦٣٢

أتى والد معاوية (أبو سفيان) لعلى ـ بصفة شخصية ـ ليبايعه فى الوقت الذى كان فيه أبو بكر يتبوَّأ منصب الخليفة. «لكننى رفضت لأنَّ الناس كانوا قريبى عهد بالكفر فخفت أن يحدث انشقاق بين أهل الإسلام. فها هو أبوك كان أكثر استعدادًا للاعتراف بحقى منك». وهناك مشايعون آخرون لعلى لا يحترمون البواعث السياسية أو لا يضعون اعتبارًا لها، لذا فهم يعيدون للذاكراة أن عليًا قتل فى غزوة بدر (٦٢٤) ثلاثة من أقرباء معاوية: أخوه الأكبر حنظلة وخاله وجده لأمّه، بل إن معاوية نفسه مقدَّر له أن يقع يومًا فى مطال سيف على مثل بقية أفراد أسرته. وعقد على اجتماعا عاما للشخصيات المهمة ـ رؤساء العشائر فى المدينة والقرشيين المكيين ليطلب منهم النصيحة (لمشاورتهم فى الأمر). وكان من رأيهم جميعا مهاجمة أعدائهم فى الشام الذين غَرّتهم الدنيا وحركهم الجشع، بل لقد أعلن محارب قديم أنَّ حرب هؤلاء الناس أفضل عنده من الحرب ضد الوثنيين الترك وضد البيزنطيين (الروم)، وأعلن من هم أكثر حكمة أنهم مع على: إن سالم سالموا وإن حارب حاربوا، لكنهم نصحوه أن يكون حذرا وأن يكسب إلى صفّه دعم أهل الكوفة كاملا، فهذا سيكون أمرًا حاسمًا بالنسبة له (أى سيحسم الأمر لصالحه).

وفى الشام، عقد معاوية اجتماعا مماثلا اتُّخذت فيه قرارات أكثر عقلانية وأكثر إحكاما من الناحية التكتيكية. لقد سوّى أموره مع الإمبراطور البيزنطى بعقد هدنة، بل وافق على أن يدفع له مبالغ مالية tribute ليكون (أى معاوية) قادرا على تجميع أكثر ما يمكنه جمعه من الجنود ليخوض بهم تجربته القادمة مع على. وبعدها أرسل كل الجنود الذين كان قد أعدّهم لمواجهة على (خاصة من كان منهم من أصول يمنية) ليحرسوا هذه الجبهة البيزنطية، وبعدها راح يدبِّر لتأمين علاقته ـ التى كانت قوية ومتينة بالفعل ـ بزعماء قبائل الشام، فعفا عن واحد منهم كان قد استولى على إحدى الخزائن المالية المحلية، ورقَّى ابن زعيم آخر. كل هذا ليضمن دعم القبائل الأساسية فى المناطق الصحراوية الحدودية بين الشام والعراق. وساعدت هذه المناورات أيضا فى تقوية حدة التنافس (القائم حقيقة وبشكل ملموس) بين حاميات المسلمين فى كل من العراق والشام، بإثارة النعرات القديمة بين مملكة العرب الغسَّانية التابعة للبيزنطيين ومملكة العرب اللَّخميّين الموالية للفرس. وتمَّ إحياء أشعار الفخر القديمة التى قالها شعراء الأسرتين الحاكمتين السابقتين اللتين ظلتا فى حالة تنافس طوال قرون، ولم يُدفن هذا

التنافس إلاَّ منذ حوالى عشرين سنة أى بعد الفتح الإسلامى. كان الهدف هو استغلال إحياء هذا التنافس لخدمة الصراع القادم:

أرى الشامَ نافرة من العراق

وأهلَ العراق نافرين من الشوام.

وبدأ معاوية أيضًا يخطب ود عمرو بن العاص لجذبه لصالح قضيته، رغم ما كان معروفًا من ضلوع عمر بدورٍ ما فى مقتل عثمان. لقد نحّى معاوية هذه الإشاعة العنيدة جانبًا حتى يمكنه التركيز على الموضوع الأهم المتعلق بمستقبل مصر، فقد وعد معاوية، عمرو بن العاص بمساعدته فى استرداد ولاية مصر التى فتحها (أى عمرو) مرتين لصالح الإسلام. وليبرهن معاوية على حُسن نواياه، بدأ على الفور فى القبض على مبعوثى على ووكلائه أثناء مرورهم عبر فلسطين وهم متجهون إلى مصر أو عائدون إلى المدينة (المنوّرة). كان تعيين على لمحمد بن أبى بكر واليًا على مصر بمثابة عقد ميثاق تحالف بين معاوية وعمرو بن العاص، وكلاهما قائدان (جنرالان) ذوا خبرة طويلة.. وكان هناك آخر قلَّما كانا يُطلعانه على تفاهمهما السرِّى. إنَّه المنسوب ـ مثله فى ذلك مثل عمرو ـ إلى النظام العشائرى فى مكة، ليكون ابنًا شرعيًا، فأصبح اسمه هو السهمى بن العاص بن وائل الذى كان واحدًا ممَّن لهم صلة بأُمِّ عمرو تلك المرأة الجذّابة، وقت أن حملت به. والذين كانوا يُحبون أن يهينوا عمرو بن العاص يذكِّرونه علنًا بأن أباه غير مؤكَّد أو غير معروف على وجه اليقين ولا ينسبونه لأىّ رجل، ذلك أن أمّه أتت إلى مكة جارية وعملت فى مجال البغاء قبل أن تحصل على حريتها (قبل أن يعتقها سيّدها) وكانت هى التى تختار عشَّاقها her lovers. ويُقال إن أم عمرو هى التى اختارت السّهمى بن العاص بن وائل ليكون هو الأب الشرعى لطفله؛ لأنه كان أكثر رقة وكرمًا معها. وكلما كَبُر عمرو، بدت نظراته وسماته القيادية وقدراته العسكرية مماثلة ـ بغير شك ـ لنظرات، وسمات، أبى سفيان الذى كان معروفًا تمامًا أنه واحد ممَّن لهم صلة بأم عمرو، لذا فهناك احتمال كبير أن يكون معاوية وعمرو أخوين، لهما أب واحد هو أبو سفيان(٩). ومهما كانت روابطهما الأسرية فقد كانا بالتأكيد أخوين فى الطموح، وعندما كبرا فى العمر، وحَّدتهما الرغبة الشديدة فى حكم واحدة من المملكتين العريقتين فى الشرق الأوسط القديم اللتين فتحاهما باسم الإسلام.

وفى مايو سنة ٦٥٧، قاد علىّ جيشه خارجًا من الكوفة سائرًا عبر الأراضى الخصبة فى العراق الأوسط محاذيًا نهر دجلة، وما إن وصل إلى الموصل حتى اتَّجهت طوابيره البالغ عدد مقاتليها عشرة آلاف غربًا فوصلت لنهر الفرات عند الرقة. هنا تُفضى تربة السّواد الخصبة إلى السهوب الجرداء المنخفضة التى تمتد عبر صحراء وتلال مُحْصَوْصبة (تكثر فيها الحصباء). إنها منطقة جيدة للرعى. لقد أصبح وادى الفرات وكأنه شق أخضر لا يزيد عرضه على مئات قليلة من الياردات، فلم تعد هناك معوِّقات خطيرة تعوق حركة آلاف الفرسان. ومع هذا فقد جعل علىّ خطوط إمداداته آمنة بأن أصدر الأوامر بإقامة جسر من القوارب حتى يستطيع التقدّم، عبر الفرات إذا دعت الحاجة، إلى المناطق الوسطى فى بلاد الشام. وعند صِفِّين، وهى سهل فيضى قديم على الجانب الغربى من النهر، أصبح الجيشان الكبيران وجهًا لوجه. واعترض جيش على تقدُّمَ جيش معاوية إلى النهر (أى منع عنه الماء)؛ لكن روح الفروسية جعلت عليًا يسمح بإتاحة المياه لدوابهم.

وقدّم كل من على ومعاوية عروضًا للتفاوض، لكن اتضح أنه لم تعد هناك أية فرصة للتسوية. عندئذ تحدَّى علىٌّ معاوية أن يحلاّ مشاكلهما بشكل فردى، أى أن يُبارز كل منهما الآخر حتى لا تُراق دماء المسلمين الأبرياء. ورفض معاوية هذه الدعوة المهلكة. وبدلاً من هذا راح المتبارزون من الجيشين، يتقدَّم كل منهم لملاقاة خصم بعينه من الجيش الآخر. وفى إحدى هذه المبارزات تحدَّى عبيد الله بن عمر(١٠)، محمدًا بن على، أن يصحب معه جماعة صغيرة من جماعته ليبارزه. وبينما كان عبيد الله بن عمر خارجًا من صفوف جيش معاوية لملاقاة محمد بن على حيَّاه الجنود صائحين: «معنا رجل صالح ابن الرجل الصالح. ابن عمر»، أما الأعداء (جيش على) فقد صاح جنوده: «معكم الفاسد ابن الرجل الصالح» وسقط عبيد الله فى ذلك اليوم. وفى نور الليل غادرت امرأة شابَّة محجّبة راكبة بغلاً ومصحوبة بخدمها معسكر معاوية متقدّمة بلا خوف نحو معسكر على. إنها بحريّة Bahriyya ابنة قبيلة ربيعة التى أبلى مقاتلوها بلاءً حسنًا فى المبارزة ضد عبيد الله بن عمر ومن معه من الفرسان الشوام ذوى الدروع الكثيفة. لقد أتت لمعسكر علىّ لتمتدح رجال عشيرة ربيعة (عشيرتها) لشجاعتهم فى ذلك اليوم. وبعد أن أدت هذا الواجب ـ وبعدها فقط ـ طلبت جثّة زوجها عبيد الله، كما توسَّل پارِس Paris لأخيل Achilles طالبًا جسد (جثة) هكتور Hector. وراحت تمسح الدم والتراب عن جثة زوجها بينما كان خدمها يحفرون قبرًا، وبعد أن دفنته استشهدت

ببيتين من الشعر من قصيدة رثاء قبل أن تركب بغلها عائدة فى جُنح الليل إلى المعسكر الآخر (معسكر معاوية).

وعندما ظهر القمر الجديد منيرًا ليل الصحراء (فى ١٩ يونيو)، انتهت فترة المبارزات الفردية مع نهاية شهر المحرّم. وكان هذا الشهر من الأشهر الحُرم أى شهور الهدنة والتجارة الحرّة، قبل الإسلام، ورغم أن المسلمين لم يعودوا يأخذون بهذا إلاّ أن الجيشين تحاشيا خوض معركة كاملة فى شهر المحرَّم. ويمكن اعتبار الأسبوع الأول من شهر صفر (١٩ -٢٥ يوليو) إلياذة عربية، إذ راح المقاتلون يومًا بعد يوم يتجهون إلى خطوط العدو ليلعنوا أعداءهم وليفخروا بما سيحققونه من نصر طالبين منهم أن يخافوا الله وأن يُسلموا بما هو حق.

وعلى وفق الروايات التقليدية بدأت معركة صفِّين فى اليوم الثامن من شهر صفر (يوم الأربعاء ٢٦ يوليو). قاد عليٌّ جيشه من المركز (الوسط) وكان يحيط به رجال من المدينة (المنوّرة) وجيش الكوفة يشكل جناحًا، وجيش البصرة يشكل الجناح الآخر. واستمرت فترة القتال «ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وصباح». وكان اليوم الأوّل لصالح الشوام، أما اليوم الثانى فشهد تراجعهم وانسحابهم إلى معسكرهم. أما اليوم الثالث «فهو يوم السيف» إنّه اليوم الأكثر دمويَّة ولم يكن حاسمًا بالنسبة لكلا الطَّرفين، واستمرت المواجهات على نحو مضطرب فى ليلة الدمدمة (ليلة الهدير) rumble. وبحلول فجر الصباح الرابع للمعركة، وعلى نحوٍ شبيه إلى حدّ ما بما جرى فى معركة القادسية التى انتصر فيها العرب على الفرس ـ بدا أنَّ أنصار على هم وحدهم القادرون على القيام بهجوم عنيف إثر هجوم عنيف. وفى منتصف الصباح بدا واضحًا أنّ جيش على أثبت أنّه هو المنتصر.

عند هذه النقطة الحاسمة، عندما تقرّرت إمبراطورية الإيمان Empire of faith وترسَّخت بساعة أخرى جرى فيها ذبح المناوئين بلا رحمة، حدث شىء غريب غير متوقَّع بالمرّة. لقد اخترقت مجموعة من الفرسان الشوام خطوط القتال، وقد حمل كل واحد منهم نسخة من القرآن الكريم (مصحفًا) مفتوحة مربوطة على سنّ رمحه. وراحوا يصيحون: «كلمة الله. دعوا كلمة الله تحكم بيننا وبينكم. من يحمى مدن الشام إن ذبحتمونا؟! ومن يحمى أهل العراق بعد رحيلكم؟ دعوا كتاب الله يحكم بينكم وبيننا». ولا بد أنّ هذا كان له صداه فى الرغبات الكامنة فى صدور جنود جيش علىّ، لأنهم

راحوا منذ هذه اللحظة يرفعون شعارًا مؤدّاه أن هذه المعركة الجديدة دعوة للسَّلام. وخشى على ومساعدوه الأساسيون أن تكون عملية رفع المصاحف هذه، خدعةً من معاوية، وشَرَكًا لتأخير هزيمته العاجلة، وحثَّ علىّ رجاله على مواصلة القتال. لكن يبدو أنه من الممكن أن يكون قرار رفع المصاحف أتى عفوًا وتلقائيًا، وهو قرار مسَّ شغاف قلوب المقاتلين فى الجيشين، رغم أن بعض المؤرخين يرون أصابع عمرو بن العاص وراءه. أما قراء القرآن نصف المحترفين الذين شكَّلوا نوعًا من التشكيلات الحارسة فى كلا الجيشين فقد تحمّسوا بشدّة للاحتكام لكتاب الله. وغضب على ومستشاروه المقرَّبون على مقاتليهم لكن كان من الصعب إثناؤهم الآن. فأرسل على مبعوثًا إلى معاوية الذى ابتهج لعقد هدنة فى وقت كان فيه جيشه على شُفا الهزيمة. والآن صاح رجال جيش على، وكان معظمهم من الكوفة والبصرة مطالبين بأن يكون المندوب عنهم فى جلسة التحكيم هو قائدهم القديم أبو موسى الأشعرى. واعترض على قائلاً إنّ أبا موسى محايد وليس من بين مؤيّديه المدافعين عن قضيته. أما معاوية فسارع بتعيين عمرو بن العاص مفاوضًا عنه. وكان عمرو كما تمثَّل فى معلومات المسلمين، مثله أبى موسى، بطلاً حارب لصالح الإسلام منذ أيام الفتوح، وكان واليًا وقائدًا عسكريًا يحظى بالاحترام. ولم يكن عمرو محايدًا أبدًا، فقد كان أبعد ما يكون عن الحياد لأنه قاد بمهارة أحد أقسام جيش معاوية طوال الأيام الأربعة التى استغرقتها معركة صفِّين. ونعلم أيضًا أنّه كان قد عقد اتفاقًا سريًا مع معاوية لدعم قضية هذا الأخير مقابل أن يُعيده واليًا على مصر. إلاَّ أنَّ هذا الاتفاق السرِّى لم يكن قد أُفشى بعد. فى هذه الساعات القليلة التى لم يتوقّع أحد ما جرى فيها، فى عزِّ شمس الظهيرة، وفى وسط حشد من الجنود المرهقين والمشوَّشين بسبب الأحداث التى أدّت بهم إلى محاربة إخوانهم المسلمين، بدأت خلافة على التى طال انتظارها تنفك عراها. لم يكن قد مضى سوى عام منذ تلقَّى البيْعة من الجموع فى باحة السوق فى المدينة (المنوّرة).

بعد يومين ركب عمرو عابرًا ميدان المعركة ليدخل معسكر جيش على، مسلّحًا بسلطته الجديدة كواحد من المفاوضيْن (المحكّمين) اللذيْن حازا ثقة الجيشيْن للحكم، على وفق كلمة الله. جلس عمرو لترتيب بروتوكولات التفاوض. وعندما بدأ الكتبة (السكرتيرون) فى كتابة المسوَّدة الأولى ذكروا عبارة على شاكلة «هذا ما تم الاتفاق عليه بين أمير المؤمنين Commander of the Fathful ومعاوية ...»، فتدخّل عمرو بن العاص مقاطعًا طالبًا أن يُكتب ما يفيد أنَّ عليًا هو قائد جيشه وأن معاوية هو قائد جيشه أى

ما يفيد أنّ الطرفين على قدم المساواة، ذلك أنه لو كان هناك اعتراف من الطرفين بأنّ عليًا أمير للمؤمنين لما كان هناك داعٍ للتحكيم، وبهذه الطريقة أدار عمرو بمهارة إجراءات التحكيم ليُسْقط بالتدريج إمارة المؤمنين عن علىّ، وليجعل معاوية وعليًا طرفين متساويين. وفى نهاية الجلسات sesions فى ٢ أغسطس ٦٥٧، كان نص التحكيم كما وجَّهه عمرو هو أن «الطرفان قد اتفقا على تحكيم كتاب الله، فإذا لم يوجد فى كتاب الله نص التزم المسلمون بقبول قرار الحكمين اللذين ألزما نفسيهما بالحكم بما هو حق». وتظل الهدنة سارية حتى يتمكّن المحكّمان من الاجتماع فى موضع وسط بين دمشق والكوفة. وبينما جيشا الكوفة والبصرة يتجهان جنوبًا عبر مزارع العراق، اتضح لجنود الجيشين بجلاء ما عانوه أثناء معركة صِفّين وكيف واجهوا بشجاعة صعوبات المسير إلى ميدان المعركة وصعوبات خوض غمارها. وتدبّروا أمرهم فلا هم عادوا منتصرين مما يبرّر جروحهم scars التى أُصيبوا بها، ولا حتى عادوا بوصفهم جيش الله الذى خاض حربًا فى سبيل الله تحت لواء الخليفة. فرسخ فى عقولهم أكثر فأكثر بسبب هذه الهدنة أنهم لم يكونوا غير طرف فى حرب أهلية. لقد قادهم علىّ صوب الشمال بوصفه أمير المؤمنين بلا منازع وقادهم فى حرب ليقمع طموح والى الشام الذى رفع راية العصيان. أما الآن، وهم راجعون عبر سواد العراق - تلك الأراضى السوداء الخصبة - فقد تحقَّقوا من أنَّ عليًا قد أصبح الآن - على نحو ما - خاضعا مُنزَّل المرتبة فى انتظار قرار الحكَمَيْن (المعنى أنه جعل إمارته للمؤمنين مرتبطة بقرار المحكّمين لا بالبيعة التى قدمها المسلمون له فى المدينة المنوّرة).

وما إن وصلوا لضواحى الكوفة فى سبتمبر من هذه السّنة حتى شعر ثلث الجيش على الأقل أن نتائج هذه الهدنة مُخْزية. لقد كانوا هم أكثر الداعمين لحق علىّ فى الحكم، كما كانوا هم الأكثر امتعاضًا من المجموعة الثرية التى احتكرت السلطة وفُرضت عليهم فى السنوات الست الأخيرة من حكم عثمان. لذا فقد رفضوا أن يضربوا خيامهم مع بقية الجنود العائدين إلى الكوفة (فى موضع عَسْكرة الحامية القديمة) وإنما أقاموا لأنفسهم معسكرًا مستقلاً فى حروراء، وفى وقت لاحق انضمّ لهم جنود من قوّة البصرة فكَّروا فى الأمر على نحو ما فكّر هؤلاء الحروريّة. وعُرف هؤلاء المنشقون عن حاميتَى الكوفة والبصرة، والسّاخطون على قبول على لهذه الهدنة باسم الخوارج ascederes. لقد كانوا معارضين بشدَّة وسخط مصحوب بالمرارة، لفكرة التحكيم مدلِّلين على هذا بأنه «لا حُكم إلاّ لله» وتحدّثوا عن انتخاب (اختيار) حاكم -rul

er لهم. وعاملهم علىّ برفق وأرسل لهم عبد الله بن عباس البليغ الفصيح المناصر له، قبل أن يذهب إليهم بنفسه. لقد ذكّرهم بيوم صفِّين وكيف أنه طالب جنوده بمواصلة القتال فلم يستجيبوا له، وكانت مطالبته بمواصلة القتال بدون جدوى. ووضّح لهم على أنهم هم الذين رغبوا فى الاستجابة لصيحات جند الشام الذين علَّقوا المصاحف على أسنّة رماحهم، فعاد معظم الخوارج إلى بيوتهم. ولتأكيد الاتفاق الجديد (بين على والخوارج)، تقرَّر تكرار قَسَم الولاء الذى تلقّاه على عندما كان شابًا، ونعنى به ذلك القسم المشهور فى غدير خُم الذى عقده النبى لعلى فى العام الأخير من حياته (حياة النبى). ففى ١٦ مارس سنة ٦٣٢، وعند محطة من محطات توقف القوافل، تُسمَّى محطة غدير خم، أثناء عودة النبى من حجة الوداع، طلب من أتباعه أن يُقسموا لعلى أن يوالوا من والاه ويعادوا من عاداه. وقد طلب على علنًا من الشهود الأحياء الذين شهدوا ما حدث فى غدير خم أن يتقدَّموا ليعلنوا شهادتهم، فتقدم اثنا عشر صحابيًا شهدوا ـ بوقار ـ بما كان، وعلى هذا حدّد جنود البصرة والكوفة يمين الولاء الذى تلقّاه على فى غدير خم منذ خمسة وعشرين عامًا. لقد جرى تجديد الولاء لعلى على النحو المذكور آنفًا فى باحة مترية خارج المسجد الجامع (المركزى) فى الكوفة.

وفى يناير سنة ٦٥٨، اجتمع الحَكَمان رسميًا فى أذرح Udrah فى الأردن. وصحب عمرو أربعمائة من أتباعه، وكذلك صحب أبو موسى أربعمائة أيضًا، كما حضر جمع من الصحابة وحَفَظة القرآن ليشهدوا جميعًا عقد هذا السّلام العظيم. وبدأ الاجتماع المَهيب بملاحظةٍ ميمونة مبشّرة بالنجاح. لقد أعلن أبو موسى بوقار أنّ كل المسلمين لابد أن يتطلعوا لإنهاء الحرب الأهلية وأن يسعوا للوحدة. وقد انضم إليه عمرو فى ترديد الدعوات بتقوى وإيمان. وراح أبو موسى يأمل إيجاد شكل قانونى «يجعل من مقتل عثمان عملية «قَتْل عمد»» ويتم التعامل معه على هذا الأساس، ويجب بعد هذا عقد مجلس شورى لتثبيت معاوية فى ولايته بالشام. وأن يتم إعلان علىّ خليفة. وتظاهر عمرو بالموافقة، لكن شيئًا فشيئًا جرى رفض إجراء تسوية لكلا المرشّحين، وأصبح كل ما يمكن الاتفاق عليه أن ينسحب (يتراجع) كل من على ومعاوية، ليتركا الاختيار للناس، وأشار عمرو بلباقة إلى أن أبا موسى هو الأكبر سنًا لذا فمن حقّه أن يبدأ هو الإعلان عن هذه الأفكار باسمهما معًا (أى باسم عمرو وأبى موسى). وفعل أبو موسى ما طُلب منه، وبعدها وقف عمرو ليؤكد قرارهما المشترك كما اتفق مع أبى موسى من قبل، لكنه بدلاً من هذا أعلن أنه يؤيد أبا موسى فى عزله (نزعه) لعلى، أما هو (أى عمرو) فيؤيد

معاوية ويثبّته خليفة حقيقيًا للمسلمين ووارثًا لعثمان وصاحب الحق فى الثأر له من قاتليه.

كان ما حدث عملية اغتصاب من النوع الثقيل، وهكذا تحطَّم مؤتمر التسوية والسلام وانتهى بالشتائم واللّعنات والتوبيخات المريرة. وأصبح أبو موسى الآن محل احتقار باعتباره غبيا ساذجا، فى نظر عمرو ومعاوية، واعتبره مناصرو على خائنا، فاتجه وحيدا إلى مكة حيث عاش أيامه الأخيرة تقيا متعبِّدا دائم الصلاة. أما عمرو، فاعتُبر ما قام به خداعا سوقيا، رغم أن معاوية شعر الآن وأخيرا بالثقة الكافية فأعلن نفسه خليفة. ففى شهر مايو سنة ٦٥٨، تلقى البيعة من جنوده المطيعين فى مسجد دمشق الكبير. أمّا على الذى لم يتوقَّف مؤيدوه عن الاعتراف به خليفة، فكانت استجابته لما حدث هو إضافة صيغة رسمية لِلَعْن معاوية ومن والاه فى كل صلاة صبح(★). وعلى أية حال، فقد أثار ما جرى من خداع مشئوم فى عملية التحكيم، الخوارج بعمق، رغم أنّ معظمهم قد سالَموا عليًا إلاّ أنَّهم ما إن سمعوا بنتيجة التحكيم حتى هجروا مساكنهم فى البصرة والكوفة مبتعدين وحاولوا أن يؤسِّسوا مجتمعًا بين خرائب فارس، قبل أن يتحركوا شمالا إلى موقع موعود على ضفاف نهر دجلة عند النهروان، بالقرب من موقع بغداد (مدينة السلام) الحالية. ورغم أنهم شاركوا عليًا رغبته فى إقامة مجتمع من المسلمين الحقيقيين، إلاّ أنهم شعروا بالإحباط الشديد من جرّاء المغالطة والخداع اللذين أدّيا إلى انقلاب سياسى فى مسيرة الأحداث، فقرروا إنشاء مستقرات (مستوطنات) مستقلة يحكمونها بأنفسهم Self governing. وتم انتخاب (اختيار) مجلس من رجال صالحين لتسيير أمور الإدارة (حكومتهم) يومًا بيوم، وعيّنوا منهم إمامًا ليؤمّهم فى الصلوات، وليقودهم عند القتال ، إذا لزم.

وبحلول شهر مارس ٦٥٨، صمّم على مرة أخرى على قيادة جيش الكوفة والبصرة شمالا ليجرّب ـ بشكل حاسم ـ قوّة مغتصب الخلافة (معاوية). وحاول على ـ مرة أخرى ـ أن يحثّ الخوارج على الانضمام لجيشه مرة أخرى، فقد كانوا فيما مضى من بين أشد مناصريه قَوَّةً وحماسًا. وقد أدّت بعثاته السلمية لهم وخطاباته وعظاته المشفوعة بالعفو عنهم إلى انضمام عدد كبير منهم إليه بينما أصر ٢٠٠٠ من ٤٠٠٠ على أن يظلوا خوارج كما هم. وعلى أيَّة حال، فقد أصبح هذا الصَّدع الداخلى فى جبهة على (الخوارج)

(★) لم يثبت أن عليًا بدأ بلعن معاوية أو غيره فى المساجد. (المعلق).

خطيرًا، لأنهم ـ أى الخوارج ـ تخلوا عن اعتدالهم وأصبحوا، أكثر فأكثر، تنظيما عسكريا، وبدءوا يشنّون الغارات على المناطق المحيطة، وما كان على ليتجاهل هذا خاصة وهو لا يستطيع ترك الناس بلا حماية إذا قاد جيوشه خارج العراق.

وفى منتصف شهر مايو (أو منتصف يوليو كما ذكر بعض المؤرخين)، حدث صدام بين الجيشين خارج النهروان، وقاتل الخوارج الباقون وعددهم ١٨٠٠ بشجاعة انتحارية، وانقضُّوا على جيش علىّ الذى يزيد عدد مقاتليه على عشرة أضعاف مقاتليهم على الأقل. وهلك معظمهم وعلى شفاههم الصيحة التى ردَّدوها أثناء القتال «إلى الفردوس .. إلى الفردوس».

وبموتهم انطفأ أيضا جانب من روح جيش على. لقد كان من بين القتلى فى هذا اليوم من هو والد وأخ وابن، واشترك الباقون فى قيد الحياة جميعًا فى الحداد لفقد كثيرين من المؤمنين الصالحين المتحمسين الأتقياء جدًا. لقد مات فى معركة النهروان كثيرون ممن حاربوا ببسالة إلى جوار على فى معركة صِفين، أو حاربوا ببسالة إلى جانب على فى معركة الجمل أو ممن عانوا كثيرا من عشيرة عثمان المتكبِّرة. إن ما حدث فى معركة النهروان حرب أهلية داخل الحرب الأهلية. لقد كانت حربا ليست ضد على، بكل محتوى العبارة، وإنما كانت حربا يائسة شنّها الخوارج ضدّ الفساد السياسى الذى سرعان ما غمر حُلْم النبى محمد عن إسلام نقى يمكن فى ظلاله أن يعبُد الناس ربّهم، ليكون كل إنسان حرًا فى التوجُّه لله (سبحانه) وليستطيع قائد المسلمين (خليفتهم أو إمامهم) أن يفخر صادقًا بفقره.

وقد أدان المؤرخون السنّة والشيعة معًا هؤلاء الخوارج بأنهم أول المنشقّين وأكثرهم عنفًا. كما أن معتقدات الخوارج وسَّعت الصَّدع بين الفرقتين الأساسيتين (السنّة والشيعة) لأن زعماءهم أعلنوا أنهم «مع الشيخين» أى أنهم مرتبطون بأبى بكر وعمر، لكنهم لا يربطون أنفسهم أبدًا بمقترفى الآثام أو فاعلى الشر evil doers ويقصدون عثمان وعليًا. كما كان الخوارج فى الأساس نتاج الثقافة البدوية، حيث تنطلق القرارات بسرعة، وحيث يتم عزل العشيرة أو فصلها عن القبيلة فى حالة السخط عليها، ويتم هذا بشكل طبيعى، وكأنه عملية انتقال من مرعى إلى مرعى، لكن الخوارج كانوا أقل ارتباطًا بالطبيعة الحضَريّة urban المتزايدة فى مدن الحاميات الكبيرة. والخوارج مختلفون عن السنة والشيعة معًا من حيث أنهم لم يرفعوا أحاديث النبى لتكون أساسًا

للشريعة والثقافة، فهم لا يثقون إلاّ فى القرآن(★)، وظلوا مبتهجين محتفين بالتراث الشفهى التقليدى للعرب البدو الزاخر بالأشعار، وكانوا خطباء بارعين.

وبالنسبة لعلى، فقد كانوا يرون كارثة فى قبوله التحكيم بعد أن كانوا ـ تقريبًا ـ قد أحرزوا النصر فى صفِّين. أما الآن فهم (الخوارج) مصرّون على أن يعودوا أولاً إلى مدن الحاميات التى كانوا فيها قبل أن يفكروا فى غزو الشام. لأن سهامهم قد استُهلكت وسيوفهم قد تبلّدت ونصال (جمع نَصْل) رماحهم قد مالت إلى أعمدة الرماح «تكسّرت النصال على النّصال»، وكانت هذه المعانى تنطوى على إشارات بلاغية حادة تعنى أن حماسهم قد خمد وأرواحهم قد فترت من جرّاء ذكرياتهم عما حدث فى معركة النهروان، وعندما أصدر علىٌّ أوامر بعقد اجتماع للتفاهم بشأن حرب فى آخر الموسم لم تكن الاستجابة مشجعة؛ فألغى على أية فكرة عن حرب هجومية فى ذلك العام.

أما من ناحية معاوية فكان مصممًا على أن يكون فى أمان، فقد سمح لجيشه فى الشام أن يقوم بغارات كر وفر على وادى الفرات الأعلى فى العراق، لكنه حذر من الدخول فى معركة كبيرة حاسمة مباشرة. كانت هذه الغارات مجرّد مناورات أو ساتر دخانى لتحقيق هدف معاوية الحقيقى فى ذلك العام، وهو إحكام القبضة على مصر. وما إن أدرك أحد أتباع على المخلصين وهو الأشتر ما يُحاك لعلى فى مصر، حتى سارع بالركوب عابرًا شبه الجزيرة العربية واستقل سفينة وعَبَر البحر الأحمر ليتحاشى وكلاء معاوية فى فلسطين والشام، قاصدًا مصر ليساعد حامية علىٍّ فى مصر. وما إن وصل سالمًا إلى مصر حتى قوبل بالترحاب من مسئول الجمارك الذى قدَّم له شراب عسل نحل مخفَّف بالماء البارد. لقد كان ما قدّمه له سُمًّا. فقضى الأشتر نحبه.

وفى هذه الأثناء كان وكلاء معاوية الآخرون يجنِّدون حلفاء من بين رجال عمرو القدامى فى مصر ومن بين القلَّة التى استفادت من حكم عثمان، فراحت تتذكَّر أيام حكمه (خلافته) مصحوبة بمشاعر طيبة. وكان لعمرو أيضًا مكافأة إذ جعله معاوية على رأس ستة آلاف رجل ليتقدم بهم ـ الآن ـ عبر فلسطين، ليقترب من مصر، وشعر محمد ابن أبى بكر (والى مصر من قِبَل على بن أبى طالب) بوجود مؤيدين لعمرو بين الجنود العرب المسلمين فى حامية الفسطاط. وعلى كل حال، فقد أحبط عمرو بقسوة كل محاولاته الدفاعية، وبعد هذا التراجع الباكر لبقية جيش محمد بن أبى بكر، راح

(★) الحق أنهم يثقون أيضًا فى الحديث النبوى، ولا يكتفون بالقرآن فقط. (المعلق).

الجنود يرحبون ترحيبا مصحوبا بصخب بعودة عمرو، الذى راح مرة أخرى يتجوَّل «فى فسطاطه» بعد أن عاد إليها منتصرا. وأصدر عمرو الأوامر بالقبض على محمد بن أبى بكر وإحضاره حيا، لكن الجنود الذين وجدوه مختبئا فى منطقة خرائب قديمة كانت لديهم أفكار أخرى (لم تكن قد وصلتهم أوامر عمرو)، ففى البداية طوّقوه حتى تفْتر قواه لعدم وجود مياه لديه، ثم أثاروه رغم قبولهم استسلامه، كى يقتلوه بدعوى مقاومته عند القبض عليه. ووضعوا جثته داخل جثة حمار (أو لفوها فى جلد حمار) ودفنوه. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى عمرو غضب، ولما علمت عائشة فى المدينة المنورة اعترضت على ما حدث وحزنتِ لموت أخيها الأصغر وللطريقة غير الشريفة التى قُتل بها، ولعنت عَمْرًا ومعاوية وطالت فترة جدادها عليه، وراحت ترعى أسرة أخيها. وقد عاش قاسم بن محمد بن أبى بكر فى بيت عائشة فى المدينة (المنورة) ليصبح واحدًا من علماء الإسلام الكبار. وتجنب عمرو أية إشارة إلى دوره باعتباره أخذ بالثأر من قاتل عثمان فى معركته التى انتصر فيها فى مصر. ذلك أن أصحاب الذاكرة المزعجة قد يتذكرون أن عَمْرًا كان ـ ولا يزال ـ واحدًا من المشتبه فيهم الأساسيين فى التآمر ضد عثمان. ودبّر على نجدة حربية قوامها ألفا مقاتل لإرسالها لمصر. لكنه استدعاها بعد خمسة أيام فقط من خروجها، بعد أن وصلته أخبار مقتل الأشتر ومحمد بن أبى بكر.

ولم يتغيّر علىّ وظل يحلم بحكومة صالحة رغم أن المسرح السياسى وصل لهذه المرحلة الفظَّة. لقد طلب على أن يطلّع على كل حسابات البصرة ومصادر الدخل فيها وتفاصيل المصروفات ومعرفة القائمين على ذلك كله ـ لقد طلب هذا من والى البصرة وهو ابن عمه عبد الله بن عبّاس، وقد أدّى هذا إلى قيام على بعزل ابن عمه (عبد الله ابن عباس) من منصبه كوالٍ للبصرة مع أنّه من القلّة الباقية المتحالفة معه سياسيًا. لقد أصّر علىّ على أنه لا هو شخصيا (الخليفة) ولا عبد الله بن عباس والى البصرة يجوز له أن يأخذ مالاً أكثر مما يأخذه أى مسلم آخر. فطالما أنَّ آل النبى (أسرة النبى) يمكنهم أن يثبتوا جدارتهم بعلمهم بالقرآن وفهمهم له، وبالاحتذاء حذو الرسول (العمل بسنته)، كان لهم الحق كاملاً فى أن يكونوا أئمة للمسلمين. وعندما سأل أتباع علىّ عن شعوره الحقيقى بالنسبة لأبى بكر، أكدّ علىّ لهم أنَّ أبا بكر وضع الإسلام نُصب عينيه وقدّمه على مصالحه الشخصية، وأنه ـ أى على ـ بايع أبا بكر وساعده فى حرب المرتدّين وقدّم له المشورة المخلصة. وفيما يتعلق بعمر الخليفة الثانى، فقد أعلن علىّ أن مسلك عمر كان يدعو للرضا وأنه نجح فيما أُوكل إليه. وقد كتب علىّ فى وقت لاحق

لابنه يقول له: لقد تحوّل الناس عن أبيك وارتموا فى أحضان معاوية، لا لشىء إلاَّ لأن أباك عامل الناس على نحوٍ سواء عندما وزَّع حصص الرواتب (والأعطيات). لقد كانت حكومة على شفّافة نقيّة، لدرجة أن أخاه عقيل بن أبى طالب غضب غضبًا شديدًا لأن أخاه عليًا رفض أن يُغدق على أسرته من أموال المعاشات والقروض ورفض أن يُتيح لهم وضعيات عالية، لذلك فقد سارع عقيل إلى بلاط معاوية.

لقد فضّل معاوية أن يضرب ببطء وهدوء بعيدًا عن مركز سلطة على، فقدم المناصب للسّاخطين وضاعف الرواتب لجنود الحاميات ووضح لأتباعه تكتيكاته عن الكيفية التى يصبح بها حكمه مفيدا (مربحا) لكل من يهمهم الأمر. لقد امتدت مملكة معاوية من قاعدتها فى دمشق لتشمل الآن مصر (حيث أصبح عمرو واليا عليها) والشام وفلسطين وأرمينيا، بينما ظلّت خلافة على الشرعية تسيطر على شبه الجزيرة العربية والعراق وفارس والبلاد المفتوحة حديثا فى آسيا الوسطى وأفغانستان. ومن بين كل هذه المناطق كان الوضع فى شبه الجزيرة العربية هو الأكثر تعقيدًا، فالزيادة الهائلة فى عدد سكان المدينة (المنورة) ومكة جعلت الحاجة إلى الطعام ملحّة، فلم تعد المدينتان بعد هذه الزيادة السكّانية بقادرتيْن على الاكتفاء الذاتى. ومن الناحية العملية أصبحت مكة والمدينة (المنوّرة) معتمدتين بشدّة على استيراد الطعام والأعلاف من مصر التى صارت الآن تحت حكم عمرو الذى أقسم يمين الولاء لمعاوية.

واستمر معاوية انطلاقًا من قواعده فى الصحراء الشامية الشرقية فى شن الغارات على المناطق الشمالية فى العراق؛ لكنه كان حريصًا أيضًا على ألا يُخاطر القادة التابعون له بخوض معركة جرّاء تهديدهم للكوفة أو البصرة. وخلال عامَىْ ٦٥٨ و ٦٥٩ كان علىّ مشدودًا إلى جبهته الشرقية، وبذا كانت الكوفة والبصرة هما المركزين المؤثرين فى حكومته رغم اعتزامه ـ بحنين جارف ـ العودة للمدينة (المنورة) بمجرد انتهاء الحرب الأهلية (الحرب مع معاوية). وقد رفعت إحدى فرق الخوارج الباقية راية العصيان فى فارس، فى البداية فى فارس Fars وبعد ذلك فى كرمان. وقد جذب الخوارج إلى صفوفهم عناصر محليّة كثيرة، وذلك يرجع فى جانب منه إلى أنَّ الفرس المعتزين بأنفسهم كانوا مهتمين بمساندة أىّ تمرد ضد الغزاة (الفاتحين)، بالإضافة إلى أنَّ عقائد الخوارج عن الإمام المختار (المُنتخَب) Elective Imam كانت تمثل دعوة تحظى بتعاطفهم. وأخيرًا فى وقت لاحق، قام زياد بمحق المتمردين. وقد شق زياد طريقه فى

المجتمع لا بدعم عشيرة ولا بدعم قبيلة، لأنه كان ابنًا غير شرعى أنجبته سميّة، وهى من الطائف كان من المفترض أنها تزوجت من عبد يونانى مُعتق. وقد عاش مع المغيرة بن شعبة فى منزل واحد فى الطائف، واشتركا معًا فى ذكريات الطفولة، واشترك زياد مع المغيرة فى أن كليهما خارج عن القانون، وكانا يجنحان فى حياتهما السياسية إلى الواقعية. إن ابنَى الطائف (المغيرة وزياد) بكل ما فيهما من مثالب، اعتبرهما المؤرخون بعد ذلك من بين عباقرة السياسة العرب، أى جعلوهما جنبًا إلى جنب مع معاوية وعمرو.

وكان عام ٦٦٠ هو عام البيعتين (الولاءين)، ففى البداية دخل جيش عربى مسلم من حامية الشام شبه الجزيرة العربية وأجبر سكان المدينتين المقدستين؛ المدينة ومكة، وأهل اليمن على تقديم الولاء (البيعة) لمعاوية قهرا وبحدّ السيف. وسرعان ما أعقب هذا مسيرة عسكرية مضادة بخروج رجال من حامية الكوفة الذين وإن كانوا قد فشلوا فى اعتراض جيش معاوية، إلاّ أنهم ـ على أية حال ـ وازنوا مسيرة الأحداث بتقديمهم بيعة جديدة أخرى للخليفة الشرعى، علّى. وعلى أية حال، فإن عليًا رأى أن هذا النوع من التنافس يقوّض العقيدة الحقّة ويهزّ الثقة فيها. وبنهاية العام تبادل الطرفان الرسائل لترسيخ هدنة غير رسميّة. سيُدير (يحكم) معاوية مصر والشّام وفلسطين، بينما يتولى علىّ العراق وفارس وآسيا الوسطى وشبه الجزيرة العربية. لقد فُرضت الآن اتفاقية غير مكتوبة بإعادة الحدود (الجبهات) على النحو الذى كانت عليه فى الشرق الأوسط، بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية.

لقد اشمأزَّ المؤمنون ذوو السَّبق إلى الإسلام من وجود بيعتيْن (ولاءين) متناقضيْن فُرِضا على مسلمى شبه الجزيرة العربية بواسطة جيشيْن متنافسين (جيش معاوية وجيش على)، كما أثار هذا من جديد غضب ثلاثة من الخوارج ـ من كان منهم يؤدى فريضة الحج وجدوا أنفسهم وسط عالم مشتّت غير منضبط ملىء بالنفاق والتسويات السياسية. وفى نهاية موسم الحج عقدوا اجتماعًا وألزموا أنفسهم بالتحرك. لقد نذروا أنفسهم لأن يضربوا ضربتهم لتحرير الإسلام مرّة أخرى من الاضطهاد بالإطاحة بعلى وعمرو ومعاوية، فى السنة الأربعين للهجرة، تمامًا كما هاجر النبى من مكة إلى المدينة تخلصًا من اضطهاد مكة وخلوصًا إلى أمان المدينة المنوّرة.

وحدّدوا موعدًا لضربتهم ـ خلال صلاة الجمعة فى الأسبوع الثانى من شهر رمضان فى المساجد الجامعة الثلاثة: فى الفسطاط ودمشق والكوفة، فمن المؤكدّ أن عَمْرًا ومعاوية وعليًا سيؤمّون المصلين فى هذه المساجد. فى الفسطاط، سقط الإمام المتدثّر بثياب بيضاء كالثور بضربة سيف قوية أنجزها أحد القتلة. ولم يكن عمرو هو المقتول فلم يؤم المصلين فى هذا الصباح، واستطاع عمرو أن يقتل القاتل فى اليوم نفسه. وفى دمشق، ركع معاوية وهو يؤم صفوف المصلين، وتحرك حارسه بسرعة عندما لاحظ حركة غير عادية بين جموع المصلين، فأنقذ سيده (معاوية) إلاّ من إصابة عارضة.. وفى الكوفة، كمن الخارجى ابن ملجم فى ظل الممر المؤدى لباب منزل علىّ المتواضع مع غيره من طالبى الحاجات، وهوى بسيفه العريض على رأس علىّ. لقدْ كان هجومًا غير متوقَّع فلم يجد من يوقفه (يتصدّى له). وعانى الخليفة الرابع، الإمام على من الآلام، ورغم أنه لم يمت إلاّ بعد يومين، ظل أثناءهما واعيًا، إلاّ أنه كان فى حكم الميت فقد كانت الضربة شديدة. مات الإمام وهو فى العام الثالث والستّين من عُمره، وهو العمر نفسه الذى مات بعده سيّده المبجّل، محمد رسول الله، وخليفته أبو بكر ومن بعده عمر بن الخطاب. وغسّل أبناء على الثلاثة؛ الحسن والحسين ومحمد (ابن الحنفية) جسد أبيهم، وشاركهم فى غسله ابن أخيه عبد الله بن جعفر. وقد خشوا أن يُدنّس أعداؤه قبره فلم يكشفوا عن قبره (موضع دفنه). لذا؛ فلعلىّ قبر فى كل مكان فى عالم المسلمين طولاً وعرضًا، ففى أفغانستان هناك مزار شريف، وفى الهند هناك حيدر أباد، رغم أن احتمال دفنه فى النجف على بعد نصف يوم ـ للراكب دابة ـ من الكوفة، هو الأقرب للصحّة ـ حيث القبَّة الذهبية ومآذن المسجد الكبير الذى يضم الضريح.

ورغم أنّ قاتل علىّ تعتبره غالبية المسلمين، سنّة وشيعة، قاتلا آثما منشقا، إلاّ أن مجتمع الخوارج الصغير اعتبره بطلاً، ولا يزال الخوارج موجودين فى ثلاث مناطق متباعدة جغرافيًا فى عالم الإسلام. وسرعان ما نُسجت حول ابن ملجم الأساطير فقيل إن مهمته كانت نتيجة تحريض قطم وهى عروس من الخوارج قُتل أبوها وأخوها فى معركة النهروان، فقامت بدور سالومى المعروفة فى التراث اليهودى إذْ طلبت من ابن ملجم ثلاثة آلاف درهم وعبديْن ورأس على مهرًا لها قبل أن تقبل الزواج منه. لكن بقية مسلمى العالم الإسلامى سرعان ما تحقّقوا من أن الخوارج قد قتلوا المسلم الكامل (عليًا)، فمع كل يوم يمر أصبحت فضائل على أكثر وضوحًا: أمانته الكاملة، التزامه التام بالإسلام التزامًا لا هوادة فيه، واتّسامه بالرحمة والكرم. يمكنه أن يقول صادقا

وأمينا إنه يعلم رسالة النبى وسنَّته أكثر مما يعرفهما أى إنسان آخر، وراح الناس يتذكرون إعلان النبى بأنه مدينة العلم وعلىّ بابها، فكل من يبغى علمًا لا بد له أن يمر أولاً من هذا الباب. وكانت الأجيال التالية تشير لعلى ـ أحيانًا ـ بالباب، والمقصود أنه الباب الذى لا بد أن يمر من خلاله الصوفيون (الباطنيون) والشعراء والمفكرون فى أمور الدين بأمل الاتصال بخبرة النبى محمد. لقد وقف على رأس الدياجرام المعقَّد الذى حفظه الشيوخ الصوفية الذى يوثِّق انسياب المعارف الباطنية والممارسات الروحية خلال كل جيل من أجيال الإسلام (المسلمين)، تمامًا كما أنه رأس نبع كل المنتسبين للنبى. وهو أيضًا السيد المرشد ـ بامتياز ـ والنصير الموقَّر، والدليل الشارح لكلّ حرفة ومهنة: صانعى السلال المتواضعين، والخطّاطين والمعلمين والجنود. فكل هؤلاء يسيرون فى ظلال علىّ.

لقد امتلك على النبالة التى يمكن اعتبارها أيضًا غباء foolishness، فرفضه الدخول فى اللعبة القذرة المتمثّلة فى سياسات القوى القبلية، قد حال بينه وبين أن يكون زعيمًا سياسيًا ذا تأثير على العرب. وهذا جزء من الجمال الحقيقى الذى تحلّى به الرجل (على)، فعلىّ شاهد ودليل على أن أجمل المُثُل على الإطلاق لا بد أن تتلاشى فى العالم القذر لدنيا السياسة. لقد اختار علىّ طريق المعاناه مفضّلا إياه على طريق التسويات. إنه أول فارس كامل حقيقى للإسلام. إنه الرجل الذى لم يكن يخشى أن يقاتل منفردا فى الصف الأول، وأن يعمل الساعات الطوال فى بناء المواقع ونزح المياه من الآبار، وأن يقول الحقيقة مفضّلا هذا على ربح أو كسب يأتى عن طريق الرياء والنفاق والرشوة. إنه الرجل الذى يُشرك جيرانه وسيده (النبى) فى طعامه الهزيل. إنه الرجل الذى لم يطمح إلى مال أكثر مما يحتاجه لسقف يؤويه ولباس يستر بدنه وطعام يكفى ليشاركه فيه كل صاحب حاجة مهما كانت رتبته (مكانته).

وعلىّ أيضا نموذج يمكن أن يكون موضوعا لقصة رومانسية إسلامية، فحبُّه لفاطمة (بنت النبى) انتهى إلى زواج نموذجى كامل، فكانت فاطمة هى زوجته وهى أيضا صديقته الحقيقية، كانا صديقين فى مرحلة الطفولة وتعانقت روحاهما، وكانا متساويين وابنَىْ عم. وكانا بطبيعة الحال بشرًا فاختلفا كأى زوجين، لكن عليًا كان دائمًا صادقًا معها، فقد زوَّجها له النبى شريطة أن يعيش معها على وفاق on good terms.

وعندما طلبت فاطمة هبةً لأولادها لم يقدم لهما النبى خيولا أو سيوفا ثمينة، وإنما بارك الحسن ودعا له أن يُلهمه الصبر، ويهبه طلعة بهيّة وطباعا حسنة، وبارك الحسين

ودعا له أن يهبه الله الشجاعة والكرم. وفى مناسبة أخرى طلبت فاطمة من أبيها هبةً لها ولعلى تعينهما على ما يعانيانه من فقر، فخيّرها النبى بين خمس نعاج وخمس دعوات (تبريكات). ورغم معاناتها هى وعلىّ من الجوع إلاّ أنها اختارت هى وعلىّ أن يدعو لهما النبى ويباركهما : يا الله أنت الأوّل والآخر، أنت المالك القوى، رحيم الفقراء والمساكين. أنت رحيم على من يرحم. وعندما انطلق على فى سفر طويل، طلبت فاطمة من النبى أن يقدم لعلى ما يعينه على سفره، لكن النبى لم يقدم تمرًا ولا قربة جديدة وإنما قدم له دعاء السفر: اذهب محفوظًا برعاية الله، غفر الله لك ذنبك وهداك للصلاح والتقوى أينما ذهبت. وفى العام الأخير من حياة محمد تطلَّع على إلى جويرية، لكنه علم أنها قد لا تكون اختيارًا مناسبًا لأنّ أباها هو أبو جهل الذى كان من بين أعدى أعداء الإسلام. لم يمنع النبى عليًا لكنه حذره أنه إن أراد الاقتران بجويرية بنت أبى جهل فليطلق فاطمة. والحقيقة أنّ عليًا لم يتخذ زوجة ثانية أبدًا وفاطمة فى قيد الحياة، وفى أواخر حياة على بدا على شيخا وقورا ذا لحية كثة بيضاء مع ارتفاع معتدل فى بطنه، وكان فى جبهته النبيلة علامات من أثر السجود لكن شيئًا ما لم يُغَيّر من طبيعته الشافة الصريحة وكرمه الصادق وعينيه اللتين تتألّقان ذكاء. وعلى فراش موته تحلّق حوله أربع زوجات (من بينهنَّ أُمامة حفيدة النبى من خلال ابنته زينب) وأحد عشر ابنًا، وست عشرة جارية وخمس عشرة ابنة. لقد كانوا يعلمون أنه لم يعد الخليفة أو القائد أو أمير المؤمنين وإنما هو الآن أبو تراب. وأبو تراب هو الكنية التى كنّاه بها النبى عندما وجده يُصلّى فى المسجد بعد يوم عمل، وكان يرتدى عباءة كانت قد تدلّت على الأرض دون عناية، فرفعها النبى بسرعة ونفض عنها التراب ثم جلس إلى أن أنهى صاحبه الشاب صلاته، وبعدها حيًّا النبى عليًا بن أبى طالب بن عبد المطلب واصفًا إيَّاه بأنّه أبو تراب ودعا له لأنه مثل محمد يمكن أن يدعو الله بقلب صادق: اللهم اجعلنى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين.

إنّ عليًا هو محور كل حكاية ورثة النبى، وهو شخص صيغ من أنقى مبادئ الشرف والحق والشجاعة والإيمان. إن أشخاصا من هذا النوع لا يُقدّر لهم أن يزدهروا فى دنيانا الفاسدة الغاصَّة بالطموحات غير المعلنة، والمخاوف والغيرة.. كل المسلمين يوقّرون عليًا فهو الأكثر تنويرًا وروحانية بعد النبى محمد. الكل يعترف به خليفة للمسلمين. وكل المسلمين متفقون على أنه باغتيال علىّ فى سنة ٦٦١ انتهى عصر القداسة فى مجتمع المسلمين. وعلى هذا فما كاد يمضى جيل على وفاة محمد النبى فى سنة ٦٣٢ حتى

انتهى حكم الخلفاء الراشدين (ورثة محمد المتنوِّرين). لم تمض سوى ثلاثين سنة وبعدها عاد الجنرالات (القادة العسكريون) والسياسيون الماكرون Scheming ورؤساء الشرطة وزعماء العشائر - مرة أخرى للسلطة. فبحلول عام ٦٦١ انتصر رجال من شاكلة معاوية وعمرو والمغيرة على إمبراطورية المسلمين. لا أحد يشك فى هذا سواء كان مسلمًا سنيًا أم مسلمًا شيعيًا. هذه الفكرة: كيف ضلَّل البشرُ الإسلام بسرعة وأخرجوه من مساره - مسار النبى محمد؟ هذه الفكرة كامنة وراء كل الخلافات حول طبيعة الإسلام. وهذا هو الفرق الأساسى بين تيَّارَى الإسلام. لفترة وجدنا غالبية السنة السلفيين Orthodox Sunnis ينصّون على أربعة خلفاء راشدين (متنورين) : أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ، بينما يُدلّل المؤرخون الشيعة على أن هناك خليفة راشدا (وارثا) واحدا حقيقيا هو علىّ.

وبالنسبة للشيعة، فإن الخداع فى وراثة محمد يبدأ فى الساعات القلائل بعد وفاة النبى، أما السنّة فيرون أنه رغم تسلّل الدمار - ببطء - إلى القيم الروحية، فإن الجيل الأول من ورثة النبى يمثل نموذجا يمكن أن تكون دراسته مفيدة للبشرية، ذلك أنَّ المثال المكتمل الممثل فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ (وغيرهم من صحابة النبى) يكوِّن نموذجا بطوليا، كما أنه المصدر الثانى الذى تستلهمه جماعة المسلمين.

ويركِّز الشيعة على طاقتهم الروحية بمعنى أن البشر سرعان ما ضلّوا عن الرؤية الإلهية divine vision، ويسوقون (أى الشيعة) الحجج للتدليل على أن عليًا وحده هو الذى كان مؤهّلا للرفع من شأن القيم الروحية التى تُعزِّز روح الإسلام وجوهره. وهذه نظرة سوداوية melancholic، رغم أنها من ناحية أخرى، نظرة تسمح للشيعة أن يتطلَّعوا لإقامة دولة قدسية (مباركة) Holy state كالتى كان علىّ يرنو لتأسيسها على هذه الأرض (فى هذه الدنيا). وعلى أية حال، فقد كان الثمن الذى دفعوه مقابل هذا الطموح الروحى، ثمنا باهظا لأنه كان عليهم أن يديروا ظهورهم لكثير من الإنجازات البطولية التى أنجزها الجيل الأول من ورثة النبى. وكان عليهم أيضا أن يعتنقوا إعلان إيمان قابلا للتجريب، وهو أنَّ تتابع الحكام فى الإسلام لابد أن يمر من خلال الذرية الذكورية المباشرة لعلى بن أبى طالب. والشيعة - مثلهم فى هذا مثل اليهود - ينتظرون مَهْديَّهم المنتظر الذى طال تأخّره (مسيحهم المنتظر)، وهم أيضا كالمسيحيين يترقبون تحقيق الأحداث المرعبة كالتى تنبأ بها يوحنا فى سِفْر الرؤيا، وهم ينتظرون - بصبر - المجتمع العادل بوصول الإمام الحقيقى إلى الحكم (السلطة).

ولكى نفهم الأحزان الحقيقية للشيعة، لا يمكننا أن ننهى قصة ورثة النبى بموت علىّ فى سنة ٦٦١، فهناك انحراف مأسوى أبعد مدًى لقصّة المعاناة، فهناك من أحرق الكعبة (بيت الله) وهناك من أراق دماء ورثة النبى مرّة أخرى على تُربة العراق.

تعليقات المترجم

(١) غنى عن القول أن هذه العبارة كتبها المؤلف على سبيل المجاز، فعلى كرّم الله وجهه معروف الأب والأم. إنه على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم.

(٢) نظرًا لتركيز المؤلف تركيزا شديدا على دور عائشة رضى الله عنها، لزم هنا أن ننبّه إلى أن طلحة هو زوج أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق أى أنه زوج أخت عائشة. أما طلحة فهو ابن عبيد الله بن عثمان القرشى التيمى. وهو أحد الستة الذين جعل عمر بن الخطاب الشورى فيهم. أما الزبير بن العوام، فأُمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم. ومن زوجاته أسماء بنت أبى بكر أخت عائشة من أبيها، وهو ابن عمة النبى. أحد الستة الذين اختارهم عمر للشورى.

(٣) النص كما ورد فى الطبرى : «قال ابن عمر: لا أبايع حتى يبايع الناس.. قال الأشتر: خلّ عنى أضرب عنقه. قال على: دعوه! أنا حميله. إنّك ما علمتَ ـ لسيّئ الخلق صغيرا وكبيرا». (تاريخ الطبرى / جـ ٢ / ص ٦٩١ / حوادث سنة ٣٥ هـ).

(٤) تاريخ الطبرى، جـ ٣، ص ٦/ حوادث سنة ٣٦ هـ.

(٥) لم ترد هذه الصياغة بكل حدتها فى تاريخ الطبرى، وهذه كلمات السيدة عائشة عندما يتولى على الخلافة. قالتها فى مكة المكرّمة: «.. أيها الناس، إنّ الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإرْب واستعمال من حدثت سنّه، وقد استُعمل أسنانهم قبله.. فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادوا بالعدوان.. فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام، **والله لإصبعُ عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم**...».

(تاريخ الطبرى / جـ ٣ / ص ٧ / حوادث سنة ٣٦ هـ).

(٦) نص خطبة على بن أبى طالب عند البيعة الأولى له كما أوردها تاريخ الطبرى (جـ٢ / ص ٦٩٧ / أحداث سنة ٣٥ هـ / طبعة دار الكتب العلمية): «إنّى كنتُ كارها لأمركم، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم. ألا وإنه ليس لى أمر دونكم . ألا إن مفاتيح مالكم معى. ألا وإنه ليس لى أن آخذ منه درهما دونكم. رضيتم» قالوا : نعم. قال: «اللهم اشهد». نص نصيحة المغيرة للإمام على كما وردت فى تاريخ الطبرى: «... إنّ لكَ علىَّ الطاعة

والنصيحة. وإنّ الرأى اليوم تُحرز به ما فى الغد. وإنّ الضياع اليوم تضيّع به ما فى الغد. أقْرِر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمّال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيّعة الجنود، استبدلتَ أو تركت. قال على: حتى أنظر» (تاريخ الطبرى/ حوادث ٣٥ هـ/ جـ ٢/ ص ٧٠٣).

(٨) لم يُقتل عبد الله بن الزبير بن العوام فى موقعة الجمل، وعبد الله بن الزبير هذا أُمُّه أسماء بنت أبى بكر، وقد بويع له بالخلافة سنة ٦٤٠هـ عقب موت يزيد بن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام وجعل المدينة قاعدة ملكه. وظل خليفة حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان الأموى الذى سيّر له جيشا هزمه وقتله. (أزمنة التاريخ الإسلامى، جـ ٢ ، ص ٧٢١).

(٩) كتب التراجم الحديثة مثل الأعلام لخير الدين الزركلى لا تورد عن عمرو بن العاص سوى معلومات محدّدة، مثل:

- هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهم القرشى السهمى. ويُلاحظ أن السّهمى هنا أتت بعد القُرشى.
- أسلم سنة ثمانٍ للهجرة هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة إذ قدموا المدينة جميعا مسلمين.
- ولاّه عمر بن الخطاب قيادة جيش فلسطين والأردن بعد موت يزيد بن أبى سفيان ثم سيّره لفتح مصر، وأقرّه عثمان على ولاية مصر ثم عزله وولّى بدلاً منه عبد الله بن أبى السّرح العامرى، وكان هذا بدء النزاع بين عمرو وعثمان.
- لما قُتل عثمان سار عمرو إلى معاوية وشهد معه صفّين، وكان حكمًا له.
- ولاّه معاوية مصر وأطلق له خراجها ست سنين فجمع أموالا طائلة.
- كان أحد الدهاة المقدمين فى المكر والرأى والدهاء.
- تُوفّى فى مصر وله من العمر ٩٣ سنة ودفن بالمقطّم. (الأعلام لخير الدين الزركلى/ مادة: عمرو، أزمنة التاريخ الإسلامى، جـ ٢ ، ص ٧٨٩).

(١٠) المقصود فى هذا السياق هو عبيد الله بن عمر بن الخطاب وليس عبد الله بن عمر بن الخطاب. والأستاذ المؤلف يخلط أحيانا بين الشخصيتين وفى السطور التالية ما يبين الفرق بين الشخصيتين:

- عبيد الله بن عمر، وهو الشخصية المقصودة هنا. ولد فى حياة النبى وأسلم بعد إسلام أبيه. قتل الهرمزان بعد مقتل أبيه. رحل إلى الشام فى خلافة على وانضم إلى معاوية، وحارب معه ضد الإمام على، وقُتل فى معركة صفين.
- أما عبد الله بن عمر، فقد أسلم مع أبيه وهو صغير وهاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة. لما قُتل عثمان رفض بيعة من بايعه بالخلافة. تُوفّى فى مكة فى سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م.

الفصل العاشر

معاوية الأُمَوىّ
والإمام الحَسَن والإمام الحسين

«من أراد مُلْكًا لزمه أمران،
شىء مصقول أزرق وآخر بلون الزعفران،
أحدهما من ذهب مدموغ باسم الملك،
والآخر أزرق مصقول فى اليمن.
كل من يرنو للمُلْك
لابد أن يكون ذرب اللسان، سخى اليد،
وأن يكون ذا قلب عامر بالحق والحب
نعم، الرغبة فى الانتقام والحب معًا..».

دقيقى Daqiqi

انحنى الحَسَن ليقبل حاجب أبيه، وكان فى ذلك الحاجب جرح واضح، ثم خرج من البيت ليعلن لأهل الكوفة موت إمامهم. كان شهر رمضان لا يزال حالاً، لذا فقد كانت الشوارع حول المسجد الجامع والممرات داخله وحوله، غاصَّة بالمسلمين الذين كانوا يستمعون للقرآن الذى استمرت تلاوته طوال الليل، وهذا ملمح من ملامح شهر الصيام. **وكان الحسن قد وُلد بعيب خفيف فى النطق**، لكنه تغلب على ثقل لسانه (فى هذه المناسبة) ليصبح متحدثًا متقن الحديث رغم بطئه. كانت خطواته المحسوبة متناقضة تناقضًا مؤثرًا مع معاصريه الذين سارعوا بالكلام وتحركت ألسنتهم بشدة وشملهم

الانفعال الشديد. لقد وصف الحسن أباه فى هذه الليلة بأنه صاحب أعمال لا تُبارى وستظل دائما كذلك. لقد ذكَّر الجموع بشجاعة أبيه وكيف أنه كان فى معظم الأحيان يفدى النبى أثناء الغزوات. وذكر الحسن مقررا للناس باعتباره الوصىّ الشرعى (المقصود من أوصى له على Legal legatee) أن عليا ليس مَدينا للحكومة بشىء، وليس مطلوبا منه أن يعيد أية سبائك ذهبية أو فضية فلم يترك سوى كيسٍ به ٧٠٠ درهم كان قد ادَّخرها من مرتبه بقصد استئجار خادم يخدم أسرته. إن الرجل (عليًا) جدير بأن يكون الآن إلى جانب أبى بكر وعمر لفرط استقامته وعدالة إدارته، ووجد الحسن البالغ من العمر الآن سبعة وثلاثين سنة من يحثه على الاستمرار فى الحديث. لقد بكت الجموع من أجله، وبعد أن انتهوا من رثاء والده وقف عبيد الله بن عباس ودعا الناس إلى بيعة لحفيد البشير، وابن النذير warner، وابن من استدعاه ربه (سبحانه وتعالى)، وابن مَنْ كان مصباحا يُستضاء به بإذن الله تعالى، ولم تكن الجموع المحتشدة فى حاجة لكل هذا، فقد كانوا جميعا يوقرون الحسن ويحبونه was adored by all.

وكان الحسن أيضا على وفق كل الحسابات صورة طبق الأصل من جده. وكان حلو الحديث لا يورد على لسانه شرا ضد أى إنسان (لا يذكر أحدا بسوء) كما كان زاهدا حقيقيا، وكان قد أدى فريضة الحج ـ بالفعل ـ خمسا وعشرين مرة قاطعا كل المسافة بين مكة والمدينة سائرا على قدميه (٢٥٠ ميلا). وكان واحدا من أبطال الإسلام العازفين عن الشهرة، مسالما عالما مستقل الرأى متعمقا فى طبيعة المسألة (القضية) التى ينظر فيها. وعلى وفق الروايات التقليدية، فقد كان الحسن هو حارس بوابة عثمان بن عفان حتى فوجئ بهجوم المتمردين. فرغم معارضة والده (الإمام على) للسياسة التى انتهجها عثمان فى السنوات الست الأخيرة من حكمه، إلا أن الحسن كان دائما ينظر إلى أبعد من الخلافات العابرة، **فقد كان (أى الحسن) يقدر إنجازات عثمان الرائعة**، كما كان متعاطفا مع عثمان لدماثته ونشاطه وحبه للعلم وتحفظه (عزوفه عن كثرة الكلام) كما كان الحسن يشارك عثمان بن عفان فى فهمه العميق لكون الإسلام قائما على الرحمة والتسامح والمودة. لقد كان إسلامه من النوع الذى لا يجعله يُلْحق أذى أو ضررًا بأى أحد(★)، وكان معجبا إعجابا شديدا بعثمان لاستعداده للموت فى سبيل ما يعتقده وعدم استعداده ـ فى الوقت نفسه ـ لأن يكون سببًا فى موت أى إنسان. وعندما كان

(★) الإسلام كله دين رحمة وسلام وتسامح وليس فيه نوع للتسامح ونوع آخر للضرر، وهو الذى جاء فيه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨). وقد أحسن الدكتور المترجم عندما علق على هذه الفقرة بأن الجهاد فى القرآن إنما هو للدفاع عن النفس. (المعلق).

يعظ نجده يركز على السلام لا على الحرب، وهو فى هذا مخالف لتعاليم القرآن[1] out of the teaching of the Quran وكان يركز فى مرات متوالية على أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، أما خوض المعارك الحربية فذلك هو الجهاد الأصغر، وكان يستشهد بالآية القرآنية ٢١٦ فى السورة الثانية (البقرة) **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٢١٦)﴾**.

كان الحسن على رأس زمانه فى رؤيته للإسلام باعتباره دين سلام - **وربما ظل متمسكا بمعتقده هذا لو أنه ظل يعيش بيننا هذه الأيام**. والآن راح جنود حامية الكوفة الذين سبق لهم أن رفضوا أن يحاربوا دفاعا عن والده (الإمام على) فى اليوم الرابع من معركة صفين، وبعد يوم النهروان المأساوى - لقد راحوا الآن يطالبون الحسن - غاضبين - بأن يقودهم ليشنوا حربا. إن ذلكما العقدين اللذين شهدا انتصارات عربية لا نهاية لها عندما غزت (فتحت) الجيوش العربية نصف العالم المعروف، قد اشتملا الآن على خلل خطير dangerous imbalance فى هذه المرحلة الباكرة من تاريخ الإسلام. **ذلك أن عددا كبيرا من المسلمين الشبان قد نشؤوا معتادين على فكرة انعكاس عقيدتهم فى الانتصارات العسكرية. لقد رأوا - على نحو خاطئ - الانتصارات العسكرية فى هذه الدنيا وتحقيق الشهرة والعظمة والثروة دليلا على صحة الإسلام**. إنهم لم يعودوا يفهمون أن رسالة محمد هى فى الأساس مرتبطة بالعلاقة بين الإنسان الفرد والله، وأنها لم تكن عَلَمًا (أو لواء) يحاربون فى ظله لغزو (فتح) العالم.

عبثًا دعا الحسن لمثل هذا ككل المسلمين الحقيقيين. عبثًا دعا للتخلى عن الأطماع الدنيوية، مؤكدا أنه لا يسعى للهيمنة الدنيوية وإنما لرحمة الله ولحقن دماء الناس. ولم تؤت دعوته ثمارها، فقد بدأ الجنود يسيئون معاملة أميرهم حتى تحولت انفعالاتهم إلى شغب. نهبوا بيته وسحبوا سجادته من تحته ونزعوا عباءته من فوق كتفيه. ولم ينقذ الحسن من الاستشهاد فى ذلك اليوم سوى تدخل المقاتلين الفرسان mounted **من قبيلة ربيعة أشياع على وأسرته، المخلصين**. ولم يزد هذا الشغب الحسن بن على إلا إصرارًا على إنهاء هذا الصدع فى الإسلام، وإنهاء المزيد من سفك الدماء بين المسلمين.

أما معاوية فسارع بالتحرك ببراعة حالما بدأ يقدر تقديرا كاملا أن الحسن لا يعد لخوض الحرب ولم يشرع فى الدعاية السابقة للحرب، وإنما يسعى حقيقة لصلح وسلام أخيرين. قاد معاوية جيشه خارجا من سوريا، لكنه أظهر صبرا وحكمة لمعارضيه

بينما هو يتقدم مقتربا من الكوفة والبصرة. لقد استجاب للتواضع التقى الذى أبداه الحسن لطلب السلام بأن أسقط عن نفسه كل الألقاب المنطوية على السيادة والادعاء، فأصبحت صيغة المراسلات بينهما: من الحسن بن علىّ إلى معاوية بن أبى سفيان أو العكس. ويذكر واحد من كتاب الحوليات (المؤرِّخين) أن معاوية أرسل خاتمه مرفقا بمسودَّة بالمعاهدة المقترحة، تاركا فراغات ليملأها الحسن على وفق الشروط التى يريدها. لقد وافق الحسن على التخلى عن كل السلطات لمعاوية على ألا يؤذى أحدا ممن دعموا عليًا بن أبى طالب، وعلى أن يحكم (أى معاوية) وفقا لكتابَ الله وسنة النبى، وقد تأكد هذا كتابة وشفاهة وشرح الحسن للجموع فى جامع الكوفة أنه تنازل عن حقه فى الحكم لصالح الناس وحقنا للدماء. واعترف معاوية بأحقية تولِّى الحسن الحكم من بعده (أى من بعد معاوية) إلا أن هذا الوعد سرعان ما طواه النسيان، ولتجنُّب أية نزاعات مستقبلية قرر معاوية تعيين الخليفة الذى يليه عن طريق مجلس رسمى انتخابى formal electoral Council، وأكد معاوية أحقية الحسن فى راتب سنوى مقداره مليون درهم سيساعد به كل أصدقائه وكل بنى هاشم وأتباع والده (الإمام على) القدامى.

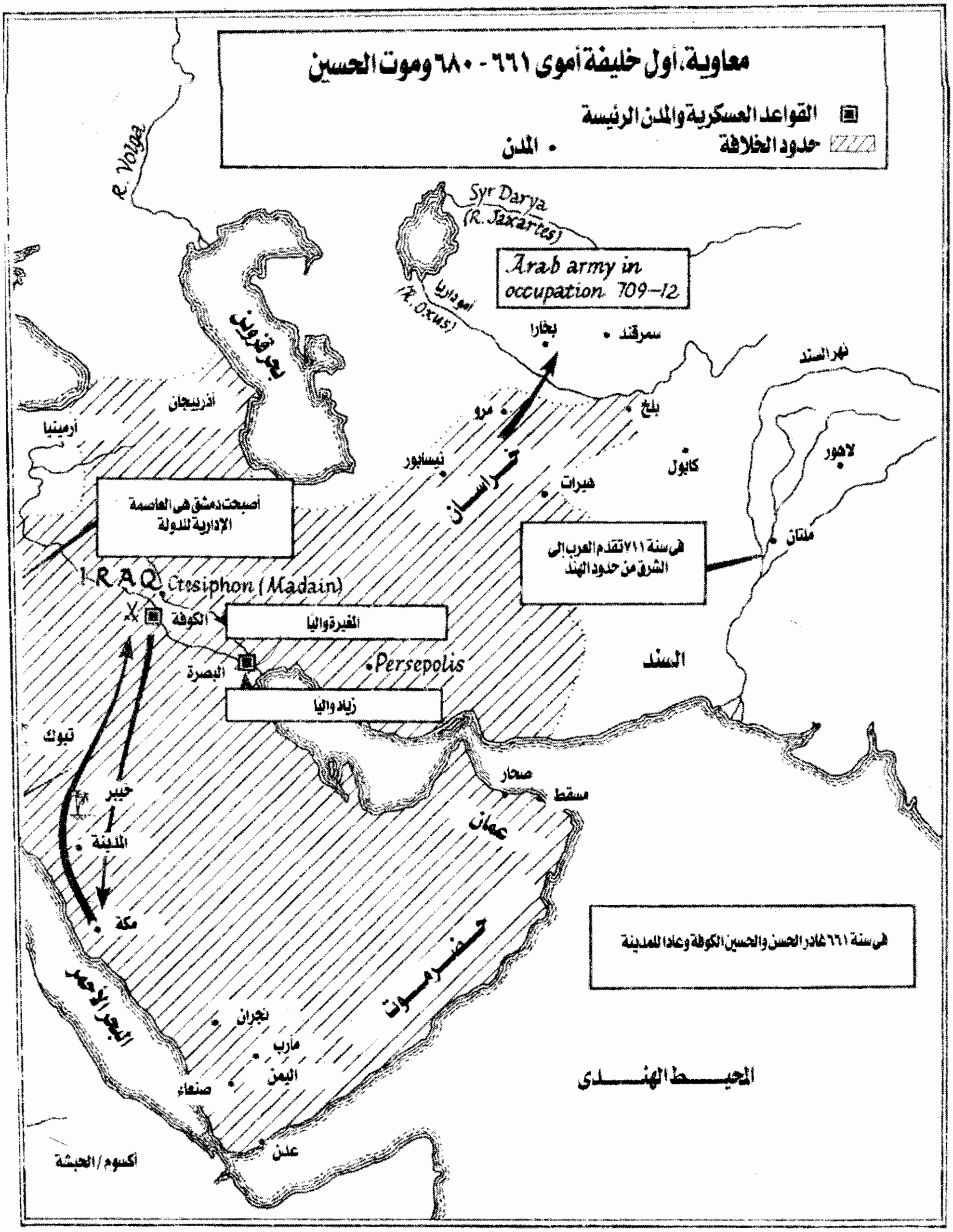
وفى يوليو سنة ٦٦١، ركب الحسن وأخوه الأصغر الحسين خارجيْن من الكوفة عائديْن للمدينة. حكم الحسن ستة أشهر كان العرب أثناءها ـ على حد رأيه ـ فى قبضة يده وكانوا مستعدين لخوض الحرب إلى جانبه ضد كل من يعلن الحرب عليه لكنه رفض الحرب مبتغيا وجه الله. وفى وقت لاحق حاول أعداؤه تشويه طبيعته المسالمة وطهارته بأن أطلقوا عليه صفات المطلاق (حسن المطلاق)، فهناك حكايات مبالغته فى كثرة الزواج والطلاق وعن المائة زوجة اللائى تزوجهن فى المدينة (مفهوم أنه لم يجمع بينهن) وفى بعض الأحيان لم تكن الزوجة تمكث معه أكثر من ليلة واحدة ثم يطلقها. إنها حكايات أشبه بحكايات «ألف ليلة وليلة». ورغم أن تفاصيل هذه الحكايات لا تزال تضفى نكهة على عناصر الثقافة الشعبية، إلا أنه لا بد من الاعتراف أنها بقايا دعاية سوداء يُقصد بها تشويه هذا الرجل المسالم (رجل السلام الحسن)، فالزيجات السبع وسلالته محددة تاريخيا ـ وهذا أمر استثنائى. وذلك لأن آلاف الأسرات الشريفة (الأشراف) التى تدَّعى أنها من سلالة النبى محمد، ترجع أصولها إلى واحد من ابنَى الحسن اللذين ظلا فى قيد الحياة بعد وفاة والدهما، ونعنى بهما زيدا والحسن.

(ملحوظة: الأسرات التى ترجع أصولها إلى الحسين يُطلق عليهم عادة اسم السادة - والمفرد سيِّد).

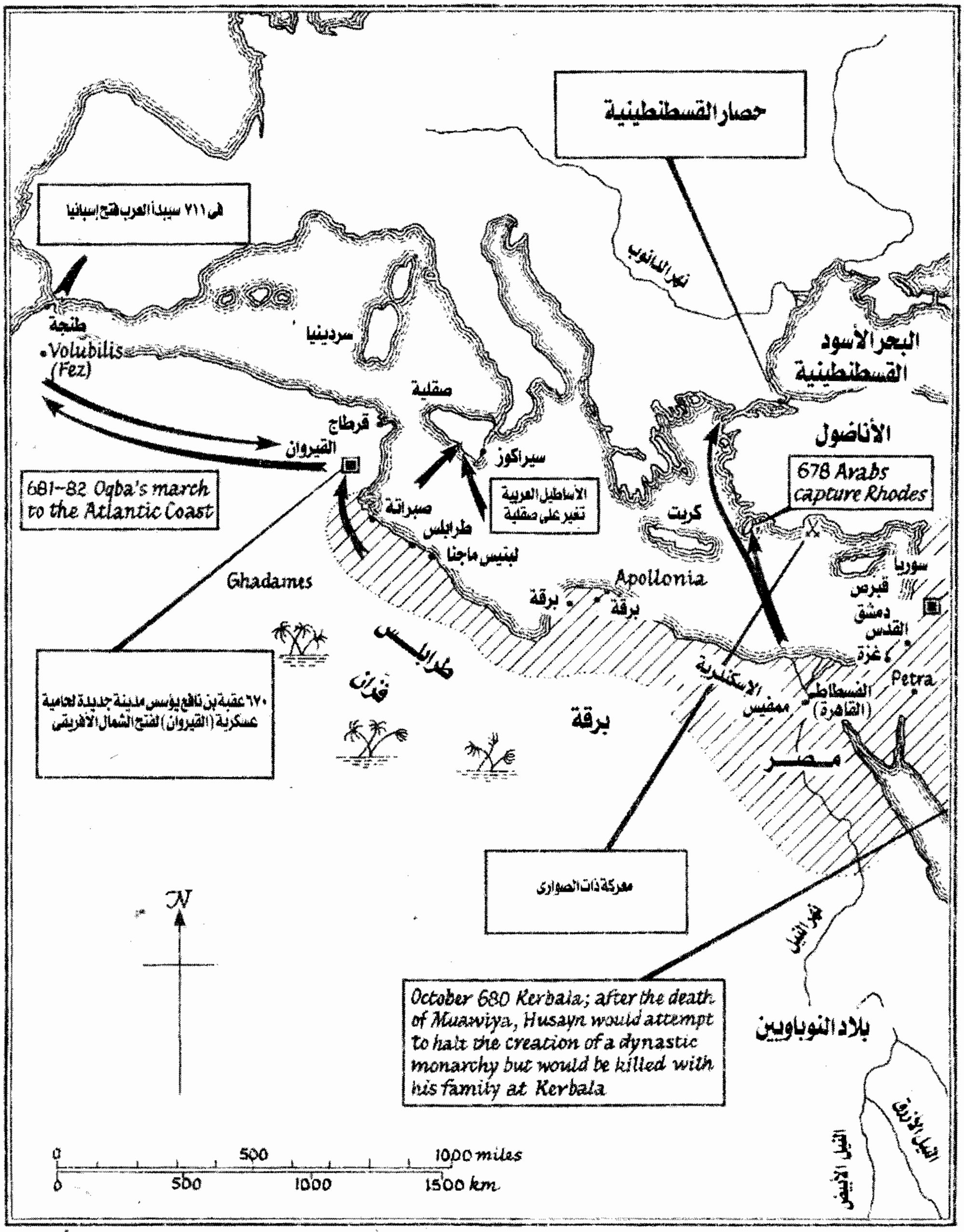
ودخل معاوية الكوفة باعتباره الخليفة الوحيد المعترف به للإمبراطورية العربية، ووعد بالعفو عن كل من كان فى حامية الكوفة؛ فسارعوا بتقديم البيعة له رغم أنه حذر من أن فترة السماح والحماية ستنتهى بعد ثلاثة أيام. كما وعد - أيضا - الجنود المحتشدين بآفاق رحبة جديدة تُرْضى طموحاتهم: توسع مستمر للإمبراطورية العربية بفتوح (غزو) يشهدها المستقبل. **ومنذ هذا الوقت فصاعدا سيتم دفع أجور العسكر ورواتبهم بشكل دقيق وفورى**، وسيكون ميدان المعارك هو أرض العدو مع وجود مواسم لشن غارات عبر الحدود تستمر ستة أشهر، بينما فى حالة الفُتوح الأكثر طموحا، كان يتعين على المحاربين أن يستعدوا للغياب عن قواعدهم وأسراتهم طوال العام.

وسرعان ما كانت جيوش الخلافة فى حالة حركة مرة أخرى لتوسيع حدود الإمبراطورية أكثر فأكثر. **فقد كان معاوية يؤمن دائماً أن إبقاء جيوش العرب مطيعة لا يكون إلا بجعلها مشغولة تماماً**. لقد أصبح على رأس الجيوش العربية رجل وصفه عمر وكأنما يتنبأ له بأنه (قيصر العرب). وكان معاوية - حقا - أميرا بين قريش؛ طويلا، مميزا، ضخم البنية hand some، وكان فيه أيضا من الصفات العامة لقيصر - القدرة على الجذب والحث والتفويض delegate ، فلم تكن المسألة بالنسبة له مجرد إصدار أوامر.

لقد نشأ معاوية فى البؤرة السياسية لمكة متمرسا تمرسا مفعما بالخبرة بالثقافة السياسية العربية: كان دوره محفوظا إذا كان المطلوب هو الإصغاء، وإذا استلزم الأمر الدخول فى مناقشات، وإذا حان حين الصبر. وقد أراد أكثر خصومه العسكريين لَدَدًا فى الخصومة - ونعنى به الإمبراطور البيزنطى الناطق باليونانية، أن يعرف طبيعة الرجل (معاوية) من خلال مراوغات مستمرة اتخذت شكل دبلوماسية إرسال السفراء. وعلى هذا فمن المخادعة - على نحو خاص - أن المؤرخ البيزنطى ثيوفانس Theo-phanes لا يطلق على معاوية «ملك العرب» ولا «إمبراطور العرب»، وإنما يصفه بأنه «مستشار العرب الأول» Their first Counsellor . فطالما كان معاوية قادرا على قيادة جيوش العرب وتوجيهها نحو النصر، أصبحت مشورته - بلا شك مقبولة لدى العرب، وكان معاوية قائدا عاما يتسم بالعبقرية، وكان من السهل أن يلاحظ المرء مدى رؤيته الاستراتيجية المدهشة.



معاوية، أول خليفة أموى ٦٦١ - ٦٨٠ وموت الحسين
القواعد العسكرية والمدن الرئيسة
حدود الخلافة
المدن
R. Volga
Syr Darya
(R. Jaxartes)
Arab army in occupation 709–12
أمو داريا
(R. Oxus)
بحر قزوين
بخارا
سمرقند
نهر السند
أذربيجان
أرمينيا
مرو
بلخ
كابول
لاهور
نيسابور
خراسان
هيرات
أصبحت دمشق هى العاصمة الإدارية للدولة
فى سنة ٧١١ تقدم العرب الى الشرق من حدود الهند
ملتان
IRAQ
Ctesiphon (Madain)
الكوفة
المغيرة واليا
البصرة
Persepolis
زياد واليا
السند
تبوك
خيبر
صحار
مسقط
عمان
المدينة
مكة
حضرموت
فى سنة ٦٦١ غادر الحسن والحسين الكوفة وعادا للمدينة
البحر الأحمر
نجران
مأرب
اليمن
صنعاء
المحيط الهندى
عدن
أكسوم / الحبشة



حصار القسطنطينية
في ٧١١ سيبدأ العرب فتح إسبانيا
نهر الدانوب
البحر الأسود
القسطنطينية
طنجة
Volubilis
(Fez)
سردينيا
صقلية
قرطاج
القيروان
681–82 Oqba's march to the Atlantic Coast
سيراكوز
الأساطيل العربية تغير على صقلية
صبراتة
طرابلس
لبتيس ماجنا
الأناضول
678 Arabs capture Rhodes
كريت
Ghadames
Apollonia
برقة
برقة
سوريا
قبرص
دمشق
القدس
غزة
Petra
الإسكندرية
الفسطاط
(القاهرة)
ممفيس
طرابلس
فزان
برقة
مصر
٦٧٠ عقبة بن نافع يؤسس مدينة جديدة لحامية عسكرية (القيروان) لفتح الشمال الأفريقي
معركة ذات الصواري
N
نهر النيل
October 680 Kerbala; after the death of Muawiya, Husayn would attempt to halt the creation of a dynastic monarchy but would be killed with his family at Kerbala
بلاد النوباويين
0
500
1000 miles
0
500
1000
1500 km
النيل الأبيض
النيل الأزرق

وعلى الجبهة الغربية جرى إرسال عقبة بن نافع (ابن خالة عمرو بن العاص) ليكمل فتح الشمال الأفريقى، ولتسهيل هذه المهمة تم إنشاء قاعدة متقدمة فى سنة ٦٧٠ فى وسط تونس، أى إلى الغرب من الفسطاط بحوالى ١٥٠٠ ميل، إنها قاعدة القيروان التى كانت وقتها معسكرا تتوقف فيه خيول الجيوش العربية، كان موقعها ملائما فلم تكن ـ فقط ـ تشرف على مراعٍ طيبة فى منطقة سهوب، وإنما أتاح موقعها لعُقْبة أن يقود جيوشه وكأنه يدق إسفينًا استراتيجيًا بين المدن البيزنطية المسورة على الساحل من ناحية، وبربر الجبال شديدى البأس من ناحية أخرى. وقد تطور هذا الموقع الذى اتخذه عقبة لاستراحة جيشه ليصبح مدينة القيروان المقدسة The holy city of kairouan.

وكانت هناك عقبات، ذلك أن عقبة ـ بعد موت خاله ـ عمرو ـ فى مصر، دخل فى نزاع مع الحاكم العام الجديد، فجرى عزله، كما سبق أن عُزل خاله من قبل، لكنه ـ مثل خاله أيضا ـ سعى للعودة إلى منصبه (تولِّى القيادة) ونجح بالفعل. وفى سنة ٦٨١، عبر السهوب الجنوبية فى الشمال الأفريقى. لقد كان عبورا استكشافيا ملحميا كبيرا، ولم يتوقف عقبة بن نافع إلا عندما وصل لنهاية الطريق ـ ساحل المحيط الأطلنطى الذى كان العرب يعرفونه باسم بحر الظلمات Sea of Obscurity فقال: «يا رب، لولا هذا البحر لمضيت مقاتلا فى سبيلك». وقُتل عقبة بن نافع فى طريق عودته على يد الأمير البربرى كُسيلة خارج واحة بسكرة Biskra (جنوب دولة الجزائر الحالية)، وبعدها أثارت الكاهنة ـ الأميرة الساحرة حاكمة المناطق الجبلية ـ قبائل البربر ليقوموا بثورة عارمة على نطاق واسع ضد المسلمين العرب. بهذه الأحداث الدرامية غير العادية أوجد الإسلام الشمال أفريقى ميثولوچيته التاريخية its own historical mythology.

وعلى الجبهة الشمالية وجدنا الأسطول العربى الذى كان معاوية قد أنشأه بتؤدة وصبر طوال العقدين الماضيين قد أصبح أخيرا يتحرك بحرية فى مياه بحر إيجة الجنوبية، وهاجم صقلية وكريت عدة مرات، واحتل جزيرة رودس فى سنة ٦٧٢. وثمة نقش باللغة العربية اكتُشف مؤخرًا فى أرضية كنيسَة فى كنيدوس Cnidus (على الساحل التركى المواجه لرودس) قد يعود تاريخه إلى هذه الأعوام المليئة بالفخر والاعتزاز ـ وفى هذه الحالة نلاحظ أن هذا النقش يُعد واحدا من أقدم النقوش العربية المعروفة. وتم إنشاء مستعمرة Colony عربية فى جزيرة رودس، وكون التجار المسلمون من هذا المجتمع الطليعى (الريادى) ثروات بصهرهم تمثال رودس Colossus of

Rhodes ـ وتمثال هليوس Helios النحاسى الضخم الذى كان قد سقط بفعل زلزال منذ حوالى ثلاثمائة سنة مضت.

وبدأ معاوية ـ بعد أن اتخذ من رودس قاعدة متقدمة ـ عملياته الأكثر طموحا. لقد بدأ فى شن غاراته الحربية البحرية على مدينة القسطنطينية المسورة بثلاثة أسوار يتلو أحدها الآخر، واستمرت هذه الهجمات البحرية التى شكلت حصارا عشر سنوات من سنة ٦٨٨ إلى سنة ٦٧٨. وتم إنشاء مسجد فى إيوپ(٢) Eyup– معسكر القاعدة خارج أسوار القسطنطينية مباشرة، وقد أعاد الأثريون العثمانيون اكتشاف هذا المسجد فى القرن الخامس عشر وأعادوا إنشاءه بأسلوب معمارى فخم ليصبح المسجد الجامع الأقدم فى كل أوروبا. لقد كان إنجازًا غير عادى أن يحتفظ العرب بجيش فى الميدان هذه الفترة الطويلة، وعلى هذه المسافة البعيدة. لقد كانوا معتمدين تماما على الهيمنة على الطريق البحرى، فعندما لاقى أسطول عربى الهزيمة أمام أسطول بيزنطى فى معركة Syllacum فى سنة ٦٧٨، كان معاوية حكيما إذ أمر بفك الحصار الذى كان يقوده يزيد، أول أبنائه. وأثناء عملية الانسحاب المنظمة هذه (فك الحصار) تم إبرام هدنة مع البيزنطيين استمرت طوال جيل كامل؛ إذ كان على العالم الإسلامى أن ينتظر ثمانمائة عام قبل أن يظهر قائد (مسلم) ينقضُّ على أسوار مدينة القياصرة. والجبهة البيزنطية البرية يتناثر فيها اثنتا عشرة قلعة حصينة تحمى كل الممرات المهمة عبر جبال طوروس، وقد ظلت هذه القلاع صامدة طوال فترة الحصار التى استمرت عشر سنوات. وقد عين معاوية لمواجهة هذه الجبهة أحد أبناء خالد الباقين فى قيد الحياة، وهو عبد الرحمن بن خالد ليكون واليًا على حمص وليقود غارات الصيف التى تشنها الجيوش العربية ضد هذه الحواجز (القلاع) الجبلية.

ولم يكن معاوية ليترك شيئا للصدفة فى الجبهة الشرقية المضطربة، فقد اختار سياسيَّين هما الأكثر مرونة (خداعا) وإدراكا لتوازنات القوى، فى تلك الأيام، ليحكما المدينتين العراقيتين، الكوفة والبصرة، وهما مصدر المتاعب (على هذه الجبهة). لقد اختار مرة أخرى المغيرة، ذلك الأعور ليحكم الكوفة، واختار رفيقه زيادًا ليتابع أمور البصرة، وزياد هذا من مواليد البصرة وكان يحظى بالرعاية. ولم يكن أى منهما يعوِّل على حسن إيمان أحد، لذا فقد عمدا إلى وضع أسس الدولة أو سلطتها من خلال قوة البوليس (الشرطة) والمحاكم والسجون ومسئولى الخزانة وحظر التجوُّل Curfews

وتعيين مندوبين لكتابة تقارير عن حالة الأسواق وما يقوله الناس عند أبواب المساجد. وفى ظل هذين المفوَّضين السياسيين (وبما اتخذاه من إجراءات)، تفرغت حاميتا الكوفة والبصرة لتوجيه طاقاتهما للفتوح المنضبطة والموجهة على طول الجبهات الشرقية داخل بلاد فارس. وقد ربط معاوية زيادًا به، فجعل ولاءه الشخصى له فوق كل شك، وكان معاوية ـ فى هذا ماهرا عندما مس مسألة الطبقة الاجتماعية لزياد، وهى مسألة حساسة (إذ كان زياد مجهول الأب)، إلا أن معاوية اعترف رسميا أن زيادًا هو أحد أبناء أبى سفيان المفقودين، وهكذا لم يعُد زياد مجهول الأب ولم يعد يطلق عليه (زياد ابن أبيه) وإنما زياد بن أبى سفيان، وأبو سفيان ـ كما هو معروف أحد سادة مكة العظماء. وقد أغدق معاوية ـ بعد ذلك ـ على زياد مزيدا من الجوائز والتُرقيات، فقد جعل من ابن «أخيه الجديد» هذا، وهو عبيد الله بن زياد قائدا لحامية خراسان التى كان قوامها ٥٠ ألف مقاتل من المقاتلين الأشداء، كما جعل من سعيد بن عثمان بن عفان قائدا على بُخَارَا (تكتب أحيانا بُخارَى) التى تم فتحها مؤخرا.

وخلال فترة حكم معاوية التى استمرت تسع عشرة سنة (٦٦١ - ٦٨٠)، كانت دمشق هى مركز السلطة الإدارية. ولم يعد مطلوبا من السفراء الأجانب والمسئولين والمفاوضين أن يقطعوا مسافات طويلة وشاقة إلى وسط شبة الجزيرة العربية ومنها للمدينة. وإنما أصبح عليهم ـ الآن ـ أن يشقوا طريقهم، كما كان الحال قبل ذلك ـ إلى العاصمة التجارية لسوريا (الشام) البيزنطية، التى تضاعف ازدهارها الآن فقد أصبحت هى العاصمة السياسية لإمبراطورية عالمية واسعة. وعلى أية حال، لم تكن هناك محاولة لفرض اللغة العربية لتكوين إمبراطورية متماسكة من هذه البلاد المفتوحة، فقد استمرت كل ولاية (منطقة) جرى فتحها فى استخدام لغتها وطبقة موظفيها (مسئوليها الإداريين المحليين) ومكاييلها وموازينها، وعُملتها ـ الدينار الذهبى البيزنطى والدرهم الفضى الفارسى. لم يعد هناك مجال الآن لبساطة عهد النبى سواء فى أسلوب الحياة أم فى أسلوب الحكم. لقد تغير (تحول) كل هذا تماما، فحتى مندوب أحد ولاة معاوية أصبح ـ الآن ـ محاطا بأبهة السلطة، فى محاكاة واعية لنمط البلاط البيزنطى والساسانى وكان فى مقدور السفير الأجنبى الزائر أن يلاحظ العِصىّ الفضية الكثيرة. وقارئ الرسائل lector، والحراس على بوابته، والبالغ عددهم خمسمائة جندى راكبين دوابّ.

وقد قام معاوية فى بداية حكمة ـ بوصفه خليفة للمسلمين ـ برحلة من دمشق لواحة المدينة ليتلقى البيعة (قَسَم الولاء والطاعة) من كل الصحابة الموقرين الكبار. ولم يأت له إلى المسجد سوى قلة منهم، ذلك أنهم وإن قبلوا ـ على مضض ـ كفاءته فى الإدارة واستمرار انتصارات جيوشه، إلا أنهم لم يكونوا ليهضموا اغتصابه (للخلافة) لذا لم يكونوا مستعدين لتقديم الدعم الإيجابى له، أو الدعاء له بالبركة. وقد استدعوا للذاكرة أن معاوية حاول أن يجبرهم على بيعته. لقد سأل معاوية: كيف أتى كل الناس لتقديم البيعة له ما عدا أهل المدينة؟ وكانت الإجابة الموجزة هى: «ليس لدينا جمال ولا نوق نركبها» (لنصل إليك). وكان معاوية يعلم جيدا أن كل الصحابة أصبح لديهم قطعان كثيرة الآن، فأجابهم بالروح الفظة (الخشنة) نفسها ساخرًا: «لكن كيف أصبحت حال كل هذه الإبل التى اعتدتم على استخدامها فى جلب المياه؟ لقد أصابها الكساح والعَرَج عندما طاردناكم وطاردنا آباءكم بعد غزوة بدر». لكنهم وصلوا لبيت القصيد بأن قالوا لمعاوية إن النبى قد حذرهم من حالة كارثية تحل بهم بعد موته وأمرنا ألا ننخرط فيها He Commanded us to be resigned. هذا كل ما كان على معاوية أن يتوقعه من ولاء (بيعة) من رجالات الإسلام المهمين ـ الاستسلام (الإذعان) المشوب بالصبر patient resignation . وهناك آخرون فى الواحة (المدينة) تذكروا أن محمداً كان قد تنبأ بأن هناك خلفاء له سيحكمون بعد موته مدة ثلاثين عامًا ثم يأتى من بعدهم مُلْك عَضُوض (مَلَكيَّة قاسية). وقد صيغت هذه العقائد بعد ذلك لإدانة الخليفة المغتصب، فقد تغنى أحد شعراء المدينة فى ذلك الوقت قائلاً:

تحية لأمير المؤمنين معاوية

فى هذه الرسالة من مدينة النبى:

سنظل صابرين حتى يأتى يوم نلقاه فيه

إنه يوم الحساب. يوم (سيلقى كل واحد نتاج ما قدمت يداه) بلا شفقة.

وحاول معاوية ـ مرة أخرى ـ فى أواخر حكمه أن يجعل رجالات الإسلام المهمين يقرون بحكمه. كانت الإمبراطورية تتوسع دون توقف فى كل الاتجاهات، وكانت رواتبهم السنوية تُدفع بلا مماطلة ولا تأخير، ومع هذا فعندما سمع المسلمون ذوو المكانة فى الجيل الثانى أن معاوية فى طريقه للمدينة مرة ثانية حتى صوتوا بأقدامهم they voted with their feet . فالحسين بن على وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير

وعبد الله بن عمر تلبَّثوا فى المدينة حتى علموا أن معاوية على بعد أيام قليلة من الواحة (المدينة)، فوضعوا الركائب على نوقهم وانطلقوا خارجين منها، فقد خشوا أن يكون قدومه لإجبارهم على قبول ابنه يزيد مرشحا ملائما للخلافة (من بعده). ليس دقيقًا أن يزيد كان فاسدًا مدمنًا، وإنما كان ـ كأبيه ـ إداريًا محنكًا وقائدًا عسكريًا أثبت مهارته كما كان شاعرًا ونصيرًا للعلم. أما ما كان يقلقهم ـ أكثر من غيره ـ فهو أن يفرض عليهم يزيد كأمير متوَّج كان قادة معاوية (الچنرالات التابعون لمعاوية) والولاة (الذين عينهم معاوية) يؤدون له تحية التبجيل والتقدير hailed by فى بلاط دمشق بشكل ذليل متملق Sycophantic. لقد تم استبعاد (تهميش) مجلس الشورى المكون من الصحابة فى المدينة، كما تم استبعاد كل دعاويهم المرتبطة بالمكان المبجل honoured place فى المجتمع الجديد. حقيقة إن كل الخلفاء الراشدين الأربعة قد جرى الاعتراف بهم والإقرار بخلافتهم منذ البداية من قِبَل أهل المدينة، لكن هذا الحق وذاك الواجب قد جرى إزاحتهما والتخلى عنهما لصالح رجال الحاشية (البلاط) فى دمشق. وكان معاوية أيضا قد أخلَّ بمبدأ الشورى محطما بذلك تعهده his solemn pledge (للحسن ابن على عند إبرام السلام (المصالحة) بينهما. ولم يفكر واحد من الخلفاء الراشدين الأربعة السابقين فى فرض أحد أبنائه على جماعة المسلمين، ولم يراعوا سوى مصالح إخوانهم فى الدين ناظرين إلى ما هو أبعد من المصالح الضيقة لأسرهم. لقد حول معاوية نظام الحكم إلى مَلَكيَّة وراثية قائمة على القوة العسكرية انطلاقا من سوريا (الشام) البعيدة. ومن هنا، فإن هؤلاء الشباب ورثة صحابة النبى الكبار والخلفاء الراشدين الأربعة، قرروا فى النهاية ألا يقبلوا التنزيل من مكانتهم، وراح كل منهم يستعد للموت على وفق طريقته. وهذا هو ما سيشكل الفصل (الفعل) الأخير الأكثر مرارة فى تراچيديا (مأساة) ورثة محمد.

وفى سنة ٦٨٠، دُفن معاوية عن عمر يناهز سبعة وسبعين عامًا، وقد زُين جسده بعناية ببقايا مختزنة ذات طابع قدسى (دينى) ـ بقايا ظفر من أظفار النبى وشعيرات من رأسه ولحيته. إنه شىء كالطوطم لجلب الوقار (لجثة معاوية)، وما حدث كان سيقلق النبى (يروِّعه). (ما زال قبر معاوية قائمًا فى دمشق القديمة رغم أن هذه البقايا النبوية قد تدميرها على يد منافسى الأسرة الأموية بعد دفنه بثمانين عامًا). وفى دمشق، تم إعلان يزيد «خليفة لرسول الله» من قِبَل كل من وَالَى أباه: الولاة والقادة (الچنرالات) ورؤساء الشرطة والمسئولون الماليون الذين قادهم معاوية قرابة نصف عمره.

وفى المدينة غُصَّ المسجد الجامع بالهمهمات والدموع الصامتة (المشوبة بالحسرة والسخرية groans)، بسبب الظهور الحاسم لعرش ملكى لأسرة حاكمة منتصرا على دين الله. ومن الكوفة توالت سلسلة من الرسائل والمبعوثين تدعو حسينًا قاطن المدينة أن يركب دابته ويتجه شمالا ليقودهم ضد مغتصب العالم الإسلامى usurpation of the Islamic world يزيد بن معاوية ذى السبعة والثلاثين عاما، وليعلن ـ أى الحسين ـ حقه فى أن يكون على رأس جماعة المسلمين (حقه فى تولِّى الخلافة). وتناقش الحسين مع وجهاء المدينة وقرر أن يستجيب لدعوتهم وأن يسير على خُطَى والده (الإمام علىّ)، فخرج من الواحة (المدينة) مؤملا قيادة جيوش الإسلام الحَقَّة. لقد دعوا آخر أحفاد النبى ليقودهم منقذا إياهم من العبودية، إلا أنهم ـ الآن ـ فشلوا فى أن يوفوا بعهودهم، فقد كانت شرطة الوالى العنيد وجواسيسه تراقبهم فلم يستطع رجل أو شاب واحد منهم أن يخرج من هذه المدينة التى تشكل حامية (الكوفة) لينضم لركب trail الحسين فى الصحراء. بل إن مسلم (بن عقيل) الشاب ابن عم الحسين الذى كان قد تم إرساله سرًا للكوفة لتدبير محل لإقامة الحسين (عند وصوله) تعرض للخديعة. لقد قبضت الشرطة عليه مع مُضيِّفه هانى، وسيق (مسلم) للإعدام.

الآن قد أحس الوالى عبيد الله (الذى كان قد خلف أباه زيادا على كلٍّ من الكوفة والبصرة) بالأمان، فأمر جيشه (التابع له he own) بالخروج للصحراء ولم يرغب الحسين وجماعة المؤمنين قليلة العدد ممن معه فى التراجع عن مهمتهم their mission. كانوا مجموعة قليلة العدد بلغت حوالى ثلاثين فارسا وأربعين راجلاً. أما القبائل التى مر الحسين بمضاربها فكانت تنظر بحب لخليفتهم الشاب المرتقب، لكن واحدًا من مشايخ هذه القبائل لم يسلم الحسين أحدًا من رجال قبيلته ليكون فى نصرة القضية الحقة، خاصة بعد أن سمع هؤلاء الشيوخ القبليون بصمت الكوفة Silence at Kufa. ورغم أن الفرزدق الشاعر المخلص لقضية الحسين أسرع لتحذير الحسين من خيانة الكوفة قائلاً إن **قلوب** أهل الكوفة معك لكن **سيوفهم** ضدك، إلا أن الحسين واصل مسيرته.

ظهرت الآن مَفْرَزة (كتيبة) من الفرسان بقيادة الحر (التميمى) من حامية الكوفة ليعترض الطريق المباشر إلى الكوفة، وأيضا ليوقف قافلة الحسين الصغيرة ويمنعها أيضا من العودة إلى مكة. وبعد ذلك بأسابيع قليلة خرجت من الكوفة قوة أكبر بكثير

قوامها أربعة آلاف فارس (لتحاصر الحسين ورجاله، الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على إقامة معسكرهم فى كربلاء على بعد خمسة وعشرين ميلا من الكوفة، على شاطئ الفرات. وكان على رأس هذه القوة القادمة الجديدة عمرو أحد أبناء سعد بن أبى وقاص الذى سبق له أن حقق الانتصار فى معركة القادسية. وكان عمرو قد تلقى أوامر من عبيد الله بن زياد أن يمنع الحسين ومؤيديه من الوصول للماء؛ حتى يعلنوا خضوعهم ويقدموا البيعة دون قيد أو شرط. ولم يطلب الحسين سوى أن يقابل يزيد وجها لوجه، فإن استحال ذلك، كان عليه أن يسمح له بالالتحاق بالمجاهدين ضد أعداء الإسلام فى أية جبهة منسيَّة. ورغم العطش الشديد المفروض على أفراد أسرته صغيرى السن، والعدد القليل من المؤمنين الذين صحبوه، رفض الحسين أن يقدم ما طُلب منه من بيعة غير مشروطة (استسلام مطلق). لقد بدأ وقار الحسين ومسلكه يؤثر الآن فى موقف عمرو بن سعد، بمعنى أنه بدأ يقصِّر فى مهمته الموجهة أساسا ضد الجيش. وعلى أية حال، فقد شد من عزم الجيش وصول شمَّر (بن ذى الجوشن) وهو ممثل محل ثقة من عبيد الله، حاملا تعليمات بأن يتولى هو القيادة إن اتضح خَوَر عزم عمرو. وفى هذا المساء أصبح معسكر الحسين الصغير فى كربلاء تحت حصار محكم، ذلك المعسكر المكون من عدة خيام ليس من دفاعات حولها سوى ما تم جلبه من أشواك وفروع شجيرات جافة تم جلبها من المناطق القريبة المحيطة.

لقد أصبح الحسين الآن يخشى مما هو أسوأ. وفى مساء اليوم التاسع من شهر المحرم (٩ أكتوبر ٦٨٠) أمر أقرباءه الأقربين وصغار أسرته بمغادرة المعسكر ليلتمسوا ملجأ عند العدو. لكنهم أبوا، وكان ابن الحسين الصغير (وهو على بن الحسين بن على) يعانى من حمى مرهقة وليس من قطرة ماء متاحة لتريح شفتيه الجافتين - شفتَى الطفل حفيد النبى prophet's infant-great grandson. وفى هذه الليلة اختلطت صرخات الأطفال الكظيمة المكتومة muffled ببكاء النسوة بأصوات أحجار السَّنِّ التى استخدمتها هذه المجموعة الصغيرة من المحاربين المنهكين لسَنِّ سيوفها ورماحها لخوض معركتها الأخيرة. وفى الصباح رتبوا صفهم للمعركة. كانوا سبعين رجلا فى مواجهة ما يزيد على أربعة آلاف مقاتل، ومرة أخرى قدم الحسين بثبات وكبرياء شروطه. وبينما هذه المجموعة الصغيرة تتقدم (مجموعة الحسين) اعترضهم رماة

السهام فأطلقوا عليها وابلا إثر وابل بطريقة لا رحمة فيها pitiless، فراحت السهام تسقط ـ وتصيب ـ مجموعة الحسين الصغيرة وكأنها عاصفة مهلكة. لم ينج من مجموعة الحسين بن على بن أبى طالب أحد، لا قاسم ذو السنوات العشر ولا ابنه الطفل، فقد سقطت كل أسرة النبى واحدا واحدا ـ تتلوى على الأرض، وقام الخيَّالة (الفرسان) بوطء الجرحى منهم، وقام حملة السيوف بقطع رؤوسهم. وقبل أن يحل الغسق (ظلمة أول الليل) على كربلاء، كان سبعون رأسا قد تم إخراجها من أجولة جلدية ملوثة بالدم لتُلقَى على أرضية قصر والى الكوفة. وبينما عبيد الله يحيل هذه الرؤوس ـ بعناية ـ إلى موظفيه، صاح واحد من القضاة كبار السن ممن يعملون فى بلاطه: «رفقًا. إنه حفيد النبى. أقسم بالله أننى رأيت نبى الله ﷺ وهو يقبل هاتين الشفتين» يقصد شفتَى الحسين.

إنها ذكرى هذا اليوم المرعب(★) هى التى تؤجِّج مشاعر الأسى والأسف وتجريم الذات فى كل عام فى عاشوراء ـ أى فى العاشر من شهر المحرم. وهى ذكرى يعترف بها كل من السنَّة والشيعة، إقرارًا بأن يوم عاشوراء هو يوم حِداد، إلا أن إحياء ذكرى عاشوراء بطريقة عاطفية هو أحد معالم المجتمع الشيعى.

لقد أحدثت أخبار كربلاء موجات من الرعب فى العالم الإسلامى كله. ففى المدينة ومكة وجدنا عبد الله بن الزبير يقود ـ الآن ـ علنا المعارضة ضد المسئولين الذين عيَّنهم معاوية، والذين راحوا يعملون على تقوية حكم ابنه يزيد، ولإكمال التراجيديا المميتة التى تأكدت فى كربلاء لم يبق إلا تلويث المدينتين المقدستين. فبعد واقعة كربلاء بثلاث سنين، أى فى سنة ٦٨٨، أُرسل جيش من دمشق **تدعمه كتيبة (فرقة) من المسيحيين الشوام** فذبحت المدافعين عن المدينة فى معركة جرت وقائعها فى تلال حَرَّان البركانية، وشقوا طريقهم خلال عاصمة الإسلام (المدينة) فنهبوها وسلبوها واستباحوها لمدة ثلاثة أيام. وحاصروا مكة المكرمة ذاتها. لقد تعرضت للهجوم طوال شهرين، فاحترقت الكعبة وسُوِّيت بالأرض بفعل قذفها بالسهام والرماح والمزودة رؤوسها بالنفط naphtha والتى قذفها المحاصرون. أما الحجر الأسود الذى كان قد ثُبِّت فى جدار الكعبة أثناء

(★) الوحيد الذى بقى حيًا من الرجال هو ابن الحسين ـ المسمَّى على زين العابدين الذى كانت الحُمَّى قد أنهكته فظل طريحًا فى خيمته؛ لكنه شُفى فى وقت لاحق.

فترة بلوغ النبى محمد (قبل بعثته)، فقد تكسر وأصبح ثلاث قطع بفعل لظى نيران النفط التى قذفها المحاصرون. ويُعتقد أن هذا الحجر كان مذبحًا(★) altar لإبراهيم (الخليل) وقد ضُمَّت أجزاؤه (بعد التكسير الآنف ذكره) بشرائط ومسامير من فضة rivet of silver. وفى حوالى هذا الوقت الذى جرت فيه هذه الأحداث كان الخليفة يزيد البالغ من العمر أربعين عامًا والذى وجَّه هذا الصراع وأمر به يقبع فى قصره المنعزل الذى أقامه ليكون منطلقًا لرحلات الصيد التى يقوم بها، فى الصحراء السورية. وقد ذكَّرنا شاعر فارسى مبدع بموته فى أبيات شعرية لم تمت:

جسد يزيد ميِّت فارقته الروح،

مُسجَّى فى حوران حيث قصر ملذَّاته.

والكأس إلى جوار وسادته،

والزق (وعاء الخمر) لا يزال يقطر من مَصبِّه.

وعندما وصل خبر موته إلى جيشه، تم رفع الحصار واستعد للعودة إلى دمشق.

لقد مضى على موت النبى محمد خمسون سنة وزد قليلاً، راحت خلالها ملايين العملات الذهبية والفضية، تتراكم ملايين إثر ملايين فى خزانة الخليفة فى دمشق ومنها تنساب خارجة لتقديم الرواتب للطبقة الحاكمة. آلاف المقاتلين العرب يسكنون الآن داخل ست مدن تمثل الحاميات garrison الأساسية فى الإمبراطورية، يقطنون بيوتا مريحة مزودين بأجمل finest الأسلحة والدروع والخيول يعتنى بهم ـ وبكل هذا ـ عبيد وخدم. لقد أصبحوا يعيشون حياة تفوق كثيرًا أحلام أجدادهم. وفى مكة كان بيت الله (الكعبة) مخرَّبًا مُحرَّقًا، وفى أرض كربلاء كانت جثث أسرة النبى قد دفُنت بلا رؤوسها. لقد بدا الأمر كأن الدنيا استغرقت الناس ونسوا مملكة السماء (الحياة الأخرى Kingdom of heaven).

لقد شعر كل المسلمين بالرعب من هذه التحولات. لقد شعروا بالفساد يدب تدريجيًا فى حكم الله الذى وضع أُسُسَه نبى الله محمد، ليصبح مجرد إمبراطورية دنيوية يحكمها ورثة معاوية (الأسرة الأموية). هذا المثال المحظور يساعدنا فى فهم القدرية

(★) المذبح هنا يعنى مكان تقديم الأضحيات، والكلمة altar يستخدمها المسيحيون بهذا المعنى.

(الجبريَّة) السياسية التى غالبًا ما تضعها مجتمعات المسلمين فى اعتبارها. إذا كان هذا هو الحال ولم تمض سوى خمسين سنة على وفاة النبى، فما الذى يضمن عدم حدوث مزيد من الفساد ومزيد من التخلى عن الدين؟ ألم يعلن النبى نفسه أن الناس فى جيله هم الأفضل ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم؟ أليس صحيحًا أن هذا العالم (هذه الدنيا) خُلق لأمثال معاوية والمغيرة وعمرو وزياد أكثر مما خلقت للصالحين Saints؟

لنقرر بأمان الفترة القصيرة للإسلام الحقيقى فى هذه الدنيا (على هذه الأرض)، نجد أن غالبية المسلمين استمروا فى التطلع لفترة حكم الخلفاء الأربعة الراشدين (أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ٦٣٢ - ٦٦١).

هذا هو موقف أهل السنة، وهناك آخرون يعتبرون حتى هذه الفترة انحرافًا عن الإسلام الحقيقى، وأنها تمثل صدعا أو شقا فيه، وراحوا ـ بدلا من هذا ـ يتخيلون شكل دولة للمسلمين يحكمها القادة الروحيون الحقيقيون ـ على وأبناؤه ـ ليوجهوا جماعة المؤمنين. هذا هو الفرق بين نظرة السنة والشيعة لقصة ورثة النبى. فانطلاقا من تفاصيل صغيرة، لكنها عاطفية، تطور هذان المساران داخل الإسلام، حول الوارث الحقيقى للنبى، وانطلق كل مسار من هذين المسارين من تاريخه الخاص. **ليست هناك أية مجموعة داخل جماعة المسلمين الكبيرة، سواء الآن أو فى القرن السابع الميلادى، ترى فى انتصار معاوية وفريقه الذكى البارع سياسيًا ـ المغيرة وعمرو وزياد ـ سوى تراجيديا (مأساة) عميقة.**

أما الذين ولدوا خارج نطاق التراث الإسلامى (الموروث الإسلامى)، **فهم أحرار فى تقدير كلا الاتجاهين وأن يتذكروا أن هذين الاتجاهين يمكن أن يكونا اتجاها واحدا، وما زالت إمكانية هذا التوحُّد قائمة.** فقول السنة إن النبى مات ورأسه على حِجْر عائشة، وقول الشيعة إنه مات على كتف علىّ، قولان ليسا متناقضين بالضرورة.

وقبل أن يموت النبى محمد بعشرة أيام ذهب للمقابر ودعا للموتى: «السلام عليكم يا أهل القبور. اهنؤوا فى قبوركم فحالكم أفضل من حال من هم على قيد الحياة الآن. سيأتى الشِّقاق والنزاع كقطع الليل المظلمة..». إن هذا القول دليل يوقع الكآبة فى النفس، ساقه قائد ملهم ناجح فى أواخر حياته التى حقق فيها كل الانتصارات التى كان يتطلع إليها، لكن فن القيادة كما صار عليه الحال مستقبلاً وكذلك التنظيم السياسى لم

يكونا أبدًا من بين أهدافه(★). ففى القرآن (٤٢: ١٥).. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾ (سورة الشورى، الآية:١٥).

إذا نظر المرء ليجد الوارث الحقيقى للنبى محمد، فعليه ألا ينظر للعروش وألا ينظر للأسرات الحاكمة وقوائم الملوك، وألا ينظر للانتصارات والفاتحين العظماء، وألا ينظر إلى السياسيين الشعبيين بابتساماتهم ووعودهم. **ذلك أن وارث محمد هو المتصل دوما بالله، أو بتعبير آخر هو المرتحل فى سبيل الله، Journeys towards God** .

تعليقات المترجم

(١) لا يرد الحضُّ على القتال فى القرآن الكريم إلا إذا كان مقرونًا بالدفاع عن النفس أو العِرْض أو المال، وترك الشرك وعبادة الأوثان.. فالجنوح للسِّلم هو روح القرآن الكريم.

(٢) نسبة إلى أبى أيوب الأنصارى (خالد بن زيد بن كُلَيْب من بنى النجار). شهد العقبة. لما غزا يزيد وحاصر القسطنطينية، صحبه أبو أيوب غازيًا. دُفن فى أصل حصن القسطنطينية، ولا يزال قبره هناك (الأعلام للزركلى، ج ٢، ص ٣٣٦).

(★) مقولة إن فن القيادة والتنظيم السياسى لم يكونا أبدًا من أهداف رسول الله ﷺ أو من غايات القرآن كلام تنقصه الحقيقة ؛ لأن القيادة والتنظيم السياسى داخل فى أغراض الإسلام وفى دائرته الواسعة. الشاملة. صحيح أن الأمور الدنيوية متروك فيها جانب كبير للعقل الإنسانى والخبرة الإنسانية لكن فى إطار القواعد العامة والمبادئ الكلية للإسلام، ثم إن المسألة ليست إما أو.. بمعنى إما أن تكون على دين وتقوى، وإما أن تكون فاسداً. بل يمكن أن يكون الإنسان على دين وصلاح وقيادة حسنة وتنظيم جيد معًا. (المعلق).

الملاحق

الملحق الأول

ورثة النبى السياسيون

بعد موت الحسين

بعد اغتيال علىّ فى سنة ٦٦١م ومقتل الحسين فى سنة ٦٨٠م، استقرت السلطة السياسية فى قبضة الأمويين الصارمة. فستحكم هذه الأسرة العالم الإسلامى من قاعدتها دمشق طوال مائة سنة، لكن طوال هذه الفترة وجدنا أن هذه الأسرة الحاكمة كانت مُهدَّدة باستمرار باستثناء فترة حكم الخليفة عمر الثانى (ابن عبد العزيز) التى لم تمتد سوى من سنة ٧١٧ إلى سنة ٧٢٠م، أمَّا إذا صرفنا النظر عن هذا الاستثناء وجدنا أنَّ الأمويين واجهوا تمردات من الورثة الحقيقيين لصحابة النبى (فى المدينة ومكة)، ومن الخوارج العنيدين ساكنى الصحراء (الذين نجحوا فى تحويل ولاء بربر الشمال الأفريقى لقضيتهم) ومن الذين دافعوا عن حق علىّ وأسرته فى الخلافة (عادة ما تمركز هؤلاء فى المدينتين العراقيتين: البصرة والكوفة أو فى بلاد الفرس). لقد بقى الأمويون فى الحكم بسبب قدراتهم العسكرية والإدارية، لكنهم فى خاتمة المطاف سقطوا بسبب ثورة انطلقت من فارس بقيادة أبى مسلم، تلك الشخصية التى لا تزال غامضة مبهمة تكتنفها الأسرار mysterious. تلك الثورة التى كان قوامها مقاتلين من مدينة مَرْو وولاية خُراسان (تُكتب فى المراجع الأوروبية بطريقتين: Khorassan أو Khu-rasan). لقد انطلق هؤلاء المقاتلون ترفرف فوقهم **أعلام سود للدلالة على تأييدهم لقضية علىّ (بن أبى طالب) وأسرته**، وقد أحرزوا نصرا حاسما فى شهر يناير سنة ٧٥٠م على ضفاف الزَّاب zab رافد نهر دجلة Iraq's Tigris. وعلى أية حال، فما إن تحقق النصر حتى قدم أبو مسلم دعمه وتأييده للعباسيين - سلالة العباس المالى

الحكيم عمّ النبى: Mohammad Canny banking uncle - وليس للعلويين (سلالة على بن أبى طالب). **هذا الخداع الشهير (التاريخى) الذى لم تتكشف تفاصيل المؤامرة فيه حتى الآن فلا يزال أبعد ما يكون عن الوضوح** - أدى إلى أن يحكم الخلفاء العباسيون إمبراطورية المسلمين الشاسعة من عاصمتهم الشهيرة فى العراق الأوسط، سواء أكانت تلك العاصمة هى بغداد أم الرقة أم سامراء. وحقيقة فإنه رغم أن العصر العباسى كان هو العصر الذهبى للحضارة الإسلامية خاصة فى مجالات العمارة والزراعة والتجارة والآداب، كما كان عصرًا ذا روح فكرية متوثبة - إلا أنه كان أيضًا متسمًا بنوع من الاضطهاد الشديد، تعرض له المخالفون فى أمور العقيدة والدين(★). **ورغم أن الخلفاء العباسيين كرسوا أنفسهم ظاهريًا لمناصرة سلالة علىّ وأعلنوا هذا فى سياساتهم العامة، إلا أنهم** (وكان من بينهم شخصيات شهيرة على مستوى العالم كالخليفة المنصور والوزير جعفر وهارون الرشيد) **دبروا بهدوء خططًا لاغتيال سلالة علىّ**، ورغم أنهم - أى الخلفاء العباسيين - كانوا يُظْهِرون تعاطفهم معهم علنًا. **لهذا لم يمارس أحد من سلالة ورثة النبى محمد من خلال ابنته فاطمة وابن عمه علىّ (السلالة العلوية) أىّ سلطان سياسى خلال الحقبة الطويلة التى حكم فيها العباسيون**، من سنة ٧٥٠ إلى سنة ١٢٥٨.

ومع هذا، فإن جماعة الشيعة بجَّلوا فيما بعد سلالة علىّ التى لا نفوذ لها واعتبروهم الأئمة الحقيقيين لهذه الفترة، وأنهم هم الذين كان ينبغى أن يتولوا الحكم. ووفقًا لهذه النظرة العالمية (الشاملة World View)، لم يتم إدراج أبى بكر وعمر وعثمان فى قائمة الأئمة الحقيقيين، فضلاً عن الأمويين المجرمين Criminal Umayy-ads الذين حكموا من دمشق، والخلفاء العباسيين الذين خططوا (للاستيلاء على الحكم) وحكموا من العراق الأوسط (بغداد). لقد بدأت سلسلة الأئمة من على ومن ثَم بالحسن، ابنه الأكبر (فهو الإمام الثانى)، ثم بأخيه الأصغر الشهيد الحسين (الإمام الثالث) ثم استمرت من خلال ابن الحسين وهو على زين العابدين (الإمام الرابع). وكل الشيعة مهما اختلفت عقائدهم ومذاهبهم يعترفون بهذا التسلسل لكنهم اختلفوا فى

(★) أبدًا لم يتعرض المخالفون فى العقيدة فى العصر العباسى للاضطهاد، بل كان عصر نهضة وتسامح شارك الكل مسلمين وغير مسلمين فى بناء الحضارة والترجمة وأعمال الدواوين والإدارة دون اضطهاد. والذى يقرأ المراجع الأجنبية فى هذا يدرك ذلك بوضوح، مثل قصة الحضارة تأليف ول ديورانت. والحضارة العربية الإسلامية تأليف آدم متز. (المعلق).

الأئمة بعد على زين العابدين بن الحسين إلى اثنتى عشرة فرقة a dozen traditions of loyality، إلا أن التيار الغالب (الفرقة السائدة) تجعل محمداً الباقر هو الوارث العلوى فى الجيل التالى، أى تعتبره الإمام الخامس. وهناك آخرون هم الزيدية (أو الخَمسيَّة Fivers نسبة إلى الإمام الخامس)، يجعلون الإمامة لأخيه زيد (أخى محمد الباقر) **وقد قبل الزيدية فى وقت لاحق أن الإمامة الحقة فى الإسلام الصحيح لا تقتصر على الذين هم من سلالة النبى**، وقد بقوا دائماً جماعة (فرقة group) عسكرية سياسية داخل مجتمع المسلمين، تمخضت عن عدد من الدول المستقلَّة تدَّعى الشرعية (لأحقيتها فى الحكم) مثل اليمن تحت الحكم الإمام الزيدى.

والتيار الرئيس فى الإسلام الشيعى يوقر أتباعه **جعفر الصادق** بوصفه **الإمام السادس**. والإمام جعفر هو العالم المتعمق فى العلوم الباطنية الذى اختفى فى سجون دولة بنى العباس حيث قُتل فى حوالى سنة ٧٦٣م. وبعد موته ظهرت انشقاقات أخرى كبيرة بين الشيعة: فبعضهم رأى أن الإمامة انتقلت إلى إسماعيل الابن الأكبر لجعفر (الذى كان قد مات فى حياة أبيه) وآخرون رأوا أن الإمامة لا بد أن تنتقل إلى ابنه الذى كان فى قيد الحياة، عند موت أبيه - أى موسى الكاظم. وهذا الخلاف هو أساس الانشقاق بين الشيعة السبعية Sevener (القائلين بسبعة أئمة) والشيعة الاثنى عشرية، أى بين الإسماعيلية من ناحية والتيار الشيعى الذى ساد بعد ذلك **(الاثنى عشرية) الذى تابع أنصاره سلسلة الأئمة العلويين من خلال موسى الكاظم** طوال أربعة أجيال: على الرضا ومحمد الجواد، وعلى النقى Al- Naqi وحسن العسكرى، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا سوى أفراد لهم مكانة خاصة private citizens فى ظل الدولة العباسية التى كانت توقرهم علناً (أمام الناس) وتقتلهم دون علم أحد. فعلى سبيل المثال، وجدنا أن الخليفة المأمون زوَّج أخته لمحمد الجواد (الإمام التاسع)؛ غير أنه دبر فى وقت لاحق وسيلة لإيراده موارد التهلكة بأن جعله يفرط فى تناول كميات كبيرة من العنب. أما موت حسن العسكرى (الإمام الحادى عشر) غير المفهوم فى يناير ٨٧٤ م، فقد اعتُبر - على نطاق واسع - مثالاً لاغتيال آخر ناجح دبره العباسيون بأوامر مباشرة - هذه المرة - من الخليفة العباسى المعتمد. ولم يترك حسن العسكرى وريثاً معلناً no public heir رغم أن الجماعة الشيعية الرئيسة (الاثنى عشرية) يعتقدون أنه أنجب من سريَّة له بيزنطية Seeret marriage تُسمى نرجس خاتون، وأن هذا المولود هو إمامهم الثانى

عشر والأخير وهو محمد المهدى المنتظر. ولإحباط جهود الوكلاء السريين العباسيين (المكلفين بقتل الأئمة) قضى هذا الإمام الحقيقى الأخير (آخر الأئمة) حياته مختبئا وعُرف بالإمام المحجوب أو المُخبّأ أو المَخْفىّ Hidden Imam. وفى البداية واصل توجيه المؤمنين من خلال وكلائه (نوابه)، لكن بعد أربعة أجيال من هؤلاء النواب، أى فى سنة ٩٣٩ غاب الإمام المحجوب أو المختفى. لقد استتر ولم يعد أحد يراه Passed into occultation من البشر العاديين (القابلين للفَناء).

وهذه الفترة، بين موت حسن (العسكرى) فى سنة ٨٧٤ واستتار الإمام الثانى عشر فى سنة ٩٣٩، كانت فترة حاسمة فى إيجاد وضع لاهوتى (عقائدى Theological) وتاريخى كامل كَمَنَ وراء المعتقدات الشيعية الأساسية. وفى هذه الفترة نفسها تمركز النشاط الفكرى الإسلامى الواسع المدى والنشط فى بغداد، العاصمة العباسية العظيمة، فأدى هذا إلى وضع أسس Corner stones الفكر الإسلامى. لقد كانت هذه الفترة قد بدأت فى سنِى الستين من القرن الثامن للميلاد مع ظهور السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق، وأعقب ذلك ظهور مجموعات كثيرة من الأحاديث (أقوال النبى). ولقد كانت هذه الفترة هى أيضًا التى شهدت تجميع القواعد النحوية، وكتابة تفاسير للقرآن، وأيضًا كتابة مؤلفات تاريخية موسعة.

وكانت عودة الإمام المستتر بوصفه هو المهدى المنتظر مسألة ينتظرها ـ بصبر ـ المؤمنون الشيعة، ويعتبرون ظهوره فجر عصر جديد من الطهارة والنقاء والأعمال الصالحة والاعتقاد القويم ـ أى يعتبرون ظهوره هو الظهور النهائى للإسلام الحقيقى قبل نهاية العالم (الدنيا).

ولدعم هذا الاعتقاد وتأييده جرى تجميع عدد كبير من الأحاديث كقول النبى ما يفيد بأنه حتى إذا لم يبق على قيام الساعة سوى يوم واحد، فإن الله سبحانه سيطيل هذا اليوم حتى يرسل للدنيا رجلاً من عِترة النبى محمد وبيته واسمه محمد كاسم النبى (عليه الصلاة والسلام) ليملأ الدنيا عدلا وإنصافا بعد أن كانت قد مُلئَت فسادا وطغيانا. وثمة حديث آخر يجرى الاستشهاد به بشكل أكثر، حيث سأل علىٌّ محمداً قائلاً: يا نبى الله، متى يظهر القيِّم (Qaim) support من أسرتنا (من بيتنا)؟ فأجاب النبى: إن أمره كأمر الساعة (يوم القيامة) أشار إليها القرآن الكريم (السورة ٧، الآية ١٨٧) ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَ

هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ (سورة الأعراف/ مكية، الآية: ١٨٧). وهناك حديث آخر يفيد أن قدوم الساعة سيكون عندما يشيع الجهل بالدين وتختفى المعرفة ويكثر القتل.

والاعتقاد فى المهدى القائم على ما ورد فى أحاديث والذى لم يرد نصًا فى القرآن، يُعد عنصرا محوريا فى العقائد السائدة لدى الشيعة. حقيقة إن المنطق التاريخى لتوقيرهم (وتبجيلهم) للحكم المفتقد للأئمة الأتقياء (أو الحقيقيين pure Imams) بدءًا من على بن أبى طالب فصاعدًا، يتطلب فرض حكم عادل باعتباره مكافأة طال انتظارها لصبرهم وطول تحمُّلهم. **وهذا المعتقد سرعان ما استوعبته أيضًا وبالتدريج مخيلة أهل السنة؛ لأنهم أيضًا اضطروا لتحمُّل حكم خلفاء غير جديرين بالخلافة وحكام غير صالحين منذ موت خليفتهم الرابع، على بن أبى طالب، فى سنة ٦٦١م.** بينما نجد أنه فى عالم الطرق الصوفية الأكثر سموًا من الناحية الروحية، الذين لا يعترفون بوجود فواصل عقائدية بين السنة والشيعة (any more than they acknowledge the confessional boundaries between Judaism, Hinduism or Christianity)، فالصوفية ـ حقيقة ـ سيفتحون ذراعَى الإسلام لمعانقة كل شعوب العالم ـ بالإضافة إلى أن عقائدهم (أى الصوفية) أكثر شعبية وشيوعًا.

ومن هنا، فقد كان لتراث الشيعة الاثنى عشرية جذور عميقة فى المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية والمناطق الجنوبية من العراق ومعظم بلاد فارس. مع أن عقائد الشيعة الاثنى عشرية لم تظهر كدين رسمى للدولة (الفارسية) إلا بعد ظهور شاهات الأسرة الصفوية الفارسية فى القرن الخامس عشر للميلاد. وقد حمل العلماء والدارسون الذين حافظوا على تراث الاثنى عشرية ـ بعد ذلك ـ رُتَبًا (دينية)، بدءًا من **مجتهد** (وهى رتبة دينية تعنى من يبذل الجهد للوصول إلى الحكم الشرعى الصحيح) وصولا إلى **حُجَّة الإسلام** وآية الله الذى قد يحمل اللقب المبجل المُبرَّز، ألا وهو **آية الله العظمى**.

ورغم أن منافسيهم أهل السنة، غالبًا ما يتهمون حملة هذه الرتب الدينية بأنهم لا يَعْدُون أن يكونوا طبقة Class من المفكرين الدينيين مفروضة على الناس، إلا أنه سيتضح أن آية الله الخمينى (١٩٠٥ ـ ١٩٨٩) هو الذى قاد ثورة شعبية أطاحت بشاه

إيران فى سنة ١٩٧٩ وأسست جمهورية إسلامية. وبعض التأييد الحماسى لحكم الخمينى أتى من الاعتقاد واسع الانتشار فى أنه حقًا وصدقًا من سلالة النبى محمد، لذا فقد يكون أيضًا هو (أى الخمينى) **المهدىَّ** الذى طال انتظاره.

فإذا عدنا للقرن الثامن (الميلادى) وما جرى من انشقاق بين الاثنى عشرية والسَّبْعية (القائلين بسبعة أئمة فقط) حول من هو الإمام الحقيقى، فإننا نستطيع الآن التركيز على السبعية المعروفين أيضًا بالإسماعيلية لدعمهم لاعتبار إسماعيل هو الإمام السابع، وليس أخاه موسى. ربما كانت هذه مسألة أكاديمية (نظرية)، حيث إن هذه السلالة Line لم تبق بعد احتجاب أو استتار الإمام الثانى عشر (عند الشيعة الاثنى عشرية) إلا أن هذه السلالة Line لا تزال محورًا لولاء شديد حتى اليوم Focus of inlense lóy-alty today (المقصود إسماعيل الذى أنكر الإسماعيلية موته) فالإسماعيلية بقيادة أئمتهم بَقَوْا فعَّالين بشكل لا يلين، رغم أنهم يبحثون أيضًا عن حل تاريخى مع وصول المَهْدىّ المنتظر Mahdi/ Messiah.

حقيقة إن قضية الإسماعيلية كان لابد أن تتفجر بشكل درامى مثمر مع ظهور الدولة الفاطمية، وفى الوقت نفسه كان علماء الشيعة الاثنا عشرية يفضلون التمسك بفكرتهم عن الإمام المستور Hidden Imam. لقد زخرت كتب التاريخ بكتابات عن الفاطميين منذ سنة ٩٠٩، عندما أوجدوا إمبراطورية شيعية حية Living انطلاقا من قاعدتهم فى جبال الشمال الأفريقى. حقيقة أنه خلال فترات طويلة من القرن العاشر الميلادى بدا الفاطميون فى وضع يسودون فيه العالم الإسلامى، رغم مناوئيهم مُمثَّلين فى بقايا الدولة الأموية فى إسپانيا (خلافة قرطبة) والخلافة العباسية من قاعدتها فى العراق وفارس. وأخيرًا كان يمكن للإمبراطورية الفاطمية أن تتخذ قاعدة (عاصمة) لها فى مدينة القاهرة الجديدة العظيمة، وقد حكمت الإمبراطورية الفاطمية فى ذروتها كل الشمال الأفريقى ومصر والشام ومعظم شبه الجزيرة العربية Arabia.

وسقطت الدولة الفاطمية فى سنة ١١٧١ على يد البطل السنى الكبير صلاح الدين (وفى الأصل الكردى)، الذى وحَّد مصر والشام ليكوِّن منهما دولة وصلت من القوة إلى درجة مكَّنتها من طرد الصليبيين من الديار المقدسة The Holy Land. وأعاد صلاح الدين تأكيد حق الخلفاء العباسيين الذين قبعوا ضعافًا فى بغداد فجعل منهم المصدر الشرعى للسلطة السياسية، رغم أن سلطانهم الحقيقى قلَّما كان يمتد خارج أسوار قصورهم التى كانت بمثابة سجون لهم palace prisons.

وانطلاقًا من عظمة أيام الإمبراطورية الشيعية الفاطمية (٩١٠ ـ ١١٧١)، وجدنا تطور اتجاهات traditions روحية ثلاثة محددة. الاتجاه (التراث) **الدُرْزى** فى جنوب الشام الذى ظهر فى بواكير القرن الحادى عشر، ولا يزال الدروز يعودون بذاكرتهم للخليفة الفاطمى السادس الحاكم (بأمر الله) باعتباره **المهدى المنتظر** الذى سيعود مستقبلاً ليحقق الخلاص redemption. وبينما وجدنا أنه جرى فى سنة ١٠٩٠ نزاع حول وراثة الإمامة succession dispute بين اثنين من أبناء الخليفة الفاطمى الحاكم (هما المُسْتَعْلِى ونزار Nizar) قد أدى إلى استقطاب فى مجتمع الشيعة الإسماعيلية، فقد كان الظن أن غالبية المستعلى الحاكمة The ruling Mustali majority قد اختفت بعد قيام صلاح الدين بتمزيق الدولة الفاطمية، إلا أنهم عاوُدوا الظهور بعد ذلك بعدة قرون مرتبطين **بالبَهَرة** Bahra فى الهند. أما الجناح النزارى (النزارية، نسبة إلى أخى المستعلى)، فقد كان هو الجناح العقائدى الأكثر فاعلية من حيث النضال السياسى، فقد خرج النزاريون بالفعل من أراضى الدولة الفاطمية قبل أن تسقط فى يد صلاح الدين. ورغم قلة عدد النزاريين إلا أن تمسكهم بمعتقداتهم كان شديدا، فلم يكن يعتريهم شك فى صحة اعتقادهم. وانتشرت القلاع (الحصون) النزارية التى كان يُطلق عليها أيضًا اسم حصون الحشَّاشين Assassins عبر جبال لبنان والشام وفارس، ودخلت منذ ذلك الوقت تاريخ العالم وفرضت نفسها عليه تمامًا كما كان الحال لدى أناس آخرين (أو جماعات أخرى) تمسَّكُوا بعقائد متسمة بالانفعال الشديد والعاطفة الشديدة والحماس العميق المُتَّقد passionate faith كطائفة الكاثر Cathar (المسيحية)، وطائفة الزيلوت Zealots (اليهودية).

ورغم أن قلاع الشيعة الإسماعيلية النزارية قُدِّر لها أن تسقط، فإن عقائدهم ظلت حية، ولا تزال قائمة تحت زعامة أئمة يتوارثون الإمامة Hereditary Imams. إنهم لايزالون مكرسين لتحسين الدنيا (جَعْل العالم فى وضع أفضل) رغم أنهم الآن ـ معروفون بمناصرتهم لأنماط العمارة الإسلامية وحقوق المرأة المسلمة والإسكان الشعبى Social Housing وإصلاح التعليم. وكان إمامهم معروفا على الصعيد العام فى بلاد الغرب باسم أغاخان، وهو لقب أطلقته عليه شاهات القاجار فى القرن التاسع عشر. وقد أكد حكم محكمة فى بومباى فى القرن التاسع عشر دعواهم بأنهم ينحدرون من نسل محمد النبى عن طريق ابنته فاطمة والإمام على (بن أبى طالب)، وأكدت الإدارة القضائية البريطانية فى القرن نفسه، صحة هذه الدعوى أيضًا.

وعندما نتفحص الممارسات (العبادات) الدينية للمسلمين السنة والمسلمين الشيعة نجد أن الفروق ضئيلة small، فالسنة والشيعة يعترفون بالقرآن نفسه (النص عند كليهما واحد)، وهم يصلون الصلوات الخمس اليومية، ويتبعون تقويما Calendar واحدا، وصيامهم يلتزمون فيه الالتزامات نفسها، وكلاهما يحج ملتزما بالطقوس (الشعائر) نفسها. أما نقاط الخلاف فهى ـ بشكل أساسى ـ أن الشيعة ينهون صيامهم (يفطرون) بعد السُّنة بدقائق قليلة (أى بعد مغرب الشمس بدقائق معدودة) وغالبًا ما يجمعون بين صلاتَى الظهر والعصر، وبين صلاتَى المغرب والعشاء وذلك ليترددوا على المسجد ثلاث مرات فى اليوم بدلا من خمس مرات. والشيعة يُباح لهم أيضًا زيارة مشاهد (أضرحة) أئمتهم الذين استُشهدوا وأضرحة سلالة النبى، ولكن أى فرد ذى خبرة بالحياة الدينية لأهل السنة فى الشمال الأفريقى والهند والغرب الأفريقى والسودان ومصر سيتحقق من أن عادة الصلاة (أو الدعاء) بالقرب من مقابر (مشاهد أو مقامات) شهداء الإسلام وأبطاله، عادة منتشرة على نطاق واسع، وبالتالى فهى عادة يشترك فيها السنة والشيعة على سواء. إلا أن الممارسة الأكثر تمييزًا للشيعة هى روضة ـ خانى rawdah- khani وهى على وفق تعبير سيد حسين ناصر «تجمع بين الخُطب والعظات، وتراتيل من آيات القرآن، وإنشاد للأشعار وأعمال درامية تصف المآسى التى تعرَّض لها مختلف الأئمة خاصة الإمام الحسين». وغالبًا ما تعقد الروضة ـ خانى فى صالات (باحات) للأحزان (التعازى) mourning halls التى وُجدت فى فارس والهند والمناطق الجنوبية فى العراق والمناطق الشرقية فى شبه الجزيرة العربية. وغالبًا ما تُعقَد فى مساء يوم الخميس طوال العام، لكنها تصل لذروتها العاطفية (الانفعالية) كل عام فى شهرَى المحرَّم وصَفَر لإحياء ذكرى الموت المأساوى (الشهادة) للحسين بن على فى كربلاء. هذا هو الوقت الملائم طوال العام لإقامة شعائر التّعزية عن الآلام التى تُشْعل مرّة أخرى معنى الأسف التاريخى (الأسف لما حدث) ومعنى المأساة التى جرت قضاء وقدرا (المأساة القَدَريّة)، ومعنى الإحباطات السياسية التى لا نهاية لها الكامنة فى عمق قلوب الشيعة، فالمواكب العامة التى تَزْخر بها الشوارع والأناشيد التى تحرك العواطف، والصيحات الحزينة المعبّرة عن اللوعة والأسى، بل إن ما يحدث ـ أحيانًا ـ من قيام شباب الشيعة بإيقاع الأذى بأنفسهم self- miutilation ـ كل هذا يُعيد للأذهان الآن, ما تعرّض له علىٌّ وآله Alids من غدر وخداع.

أما التراث السّنى فهو الاعتقاد السائد لدى غالبية المسلمين فى العالم. ولا يجب على أىّ منّا أن يخطئ باستبعاد السنة باعتبارهم بديلاً مطابقًا (مماثلاً) للشيعة، ذلك أنّ السنّة لديهم تراثهم الملىء بكراهيتهم للحكّام الظلمة والاعتراض عليهم ولديهم ـ أى أهل السنة ـ شهداؤهم، كما أنهم دخلوا فى مناقشات عنيفة حول المثالية idealism (المقصود نظم الحكم المثالية). ورعاة السلفية السنية Sunni Orthodoxy (المقصود التزام المسلمين بما كان عليه السلف الصالح) ليسوا هم الأئمة الذين يتوارثون الإمامة، وليسوا هم وكلاء الأئمة، بل وليس هم الخلفاء. فأهل السنّة يلجؤون إلى مجلس Coun-cil (أو جماعة أو أهل الحلّ والعقد) يضم أعضاء من العلماء المسلمين ذوى المكانة، ليُقدموا لهم الرأى والفتوى ويدلّوهم على هذه العقيدة أو تلك، هل هى صحيحة أم لا، وفى بعض الأحيان ظهر هؤلاء العلماء فى جامعة محترمة، كجامعة الأزهر فى القاهرة، وأحيانًا يتم تثبيتهم فى مواقعهم (مناصبهم) كأعضاء فى مجلس العلماء بواسطة الحاكم المقبول accepted ruler فى هذه الفترة.

وحتى سنة ١٢٥٨ كان يجرى الاعتراف بالخليفة العبّاسى المقيم فى أحد القصور القديمة فى بغداد باعتباره حاكما شرفيا titular ruler (أو اسميا) لكل المسلمين السنة فى العالم أجمع. حتى لو كانت السلطة الفعلية بمنأى عنه وإنما فى أيدى أسرات حاكمة أخرى محلية، كالسلاطين السلاجقة مثلاً. وفى سنة ١٢٥٨، طُوى هذا النظام (ولم يعد الخليفة العباسى حاكما شرفيا لكل السنّة فى مختلف أنحاء العالم)، وذلك عندما محا المغول بغداد مخلّفين وراءهم أبراجًا من جماجم مئات الآلاف من المسلمين الذين ذبحوهم، لقد كان ما فعله المغول محرقة (هولوكوست) للمهارات القديمة وللمعلم والمتعلمين تماثل ما حدث عند سقوط روما، وتثير الشجون نفسها التى يحسها العالم الغربى عنر تذكّره لذلك (سقوط روما). وعلى وفق المروّيات الشائعة، فقد وضع المغول آخر الخلفاء العبّاسيين فى جوال من قطيفة وظلّت خيول المغول تطؤه بحوافرها حتى مات، وهناك رواية تفيد أنه جرى لفّه فى سجّادة وظلوا يضربونه بالهراوات حتى مات، حتى لا تسقط آية نقطة من دمه على الأرض، لكن استمرت سلالة العباسيّين فى القاهرة (تحت حماية المماليك) من سنة ١٢٥٩ حتى فتح السلطان العثمانى سليم The Grim مصر والشام وأزاح المتوكّل (الخليفة العبّاسى فى مصر) فى سنة ١٥١٧، وبذا يكون المتوكّل هو آخر خليفة عبّاسى شرفى (أو اسمى أى بغير سلطة فعلية). وجرى الاعتراف فى أجيال لاحقة بالسلاطين العثمانيين باعتبارهم الحكام الأعظم لعالم

المسلمين، رغم أن ادّعاءهم الخلافة لم يظهر إلاَّ فى سنة ١٧٧٤ نتيجة كلمة عابرة (جرت بالصدفة) فى معاهدة وقَّعتها الدولة العثمانية مع روسيا. ولم يكن ادّعاء الأسرة العثمانية للخلافة مقبولا دائما خارج نطاق ممالكهم الواسعة، ذلك لأنه لم يكن فيهم نقطة دماء عربية واحدة، وبالطبع لم يكن لهم أن يدَّعوا أنهم من سلالة النبى محمد. وقد أزاح كمال أتاتورك آخر خليفة عثمانى فى سنة ١٩٢٤، لكن بعد ذلك، أبدى خديو مصر ونظام Nizam فى حيدر أباد، ورأس الهاشميين فى مكة، بعض الاهتمام بإحياء اللقب (خليفة)، رغم أنَّهم لم يصلوا أبدًا إلى اتفاق على هذا الأمر من الناحية الرسمية. ولا يزال كثيرون من أهل السنّة يرنون إلى عودة الخلافة لتكون مركزًا تتحلَّق حوله القلوب لتحقيق وحدتهم السياسية والثقافية. ورغم أنَّهم (أى أهل السنة) منذ موت على ـ آخر الخلفاء الأربعة الراشدين ـ فى سنة ٦٦١، لم ينظروا لأىّ من حكّامهم باعتباره مرشدًا دينيًا أو بتعبير آخر موجِّهًا لهم فى أمور دينهم For Religious Guidance ، فأهل السنّة مثلهم فى ذلك مثل كل المسلمين يعتقدون فى أولوية القرآن الذى تساعد على تفسيره أحاديث النبى، وهم أيضا يعتقدون أن الحَذْو حذو الخلفاء الراشدين الأربعة ـ أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ـ أمر مفيد باعتباره رافدًا جانبيًا (يأتى فى المقام الثانى) فى أمور الدين والحكم. والمسلم السنّى قد يواصل اعترافه بالخلفاء الأمويين والعباسيين والسلاطين العثمانيين «كأمراء للمؤمنين» وقد يوقّرونهم باعتبارهم نماذج ملهمة لقيادة الشعب المسلم، شهدها التاريخ لكنهم (أى أهل السنة) لا يعتبرونهم ذوى طاقات روحية أو أخلاقية (لا يعتقدون فى سلطانهم الروحى أو الأخلاقى).

فالشخصيات المؤثرة (القائدة) فى التراث السنّى ليست هى شخصيات الحكام، وإنما شخصيات العلماء والمؤرخين وقضاة الإسلام؛ خاصة أولئك الذين يعودون للقرن الأول والقرن الثانى للهجرة، فهؤلاء هم الذين ساعدوا على الحفاظ على نقاء التراث الإسلامى وقنَّنوه Codify it فى هذه الفترة الحرجة المهمّة التى كُتبت فيها أوّل سيرة للنبى على يد ابن إسحاق فى بغداد، والتى جُمّعت فيها أحاديث النبى لأول مرّة من المصادر الشفاهية فى المدينة حيث تم استدعاء هذه الأحاديث من الذاكرة الجمعيّة لأهل المدينة. وكانت هذه الفترة أيضا هى التى شهدت تجميع تراجم (سِيَر) المسلمين الأوائل الأتقياء وصحابة النبى بالإضافة إلى أخبار القضاة الأوائل والمعلمين وعلماء الشريعة، كل هذا جرى تمحيصه فى إطار المذاهب الفقهية الأربعة أو المرويّات التى لاتزال تتردّد فى عالم المسلمين السنّة. وكانت الفتاوى decisions الباكرة التى قال بها

قاضى (فقيه) المدينة الموقَّر مالك بن أنس (ت ٧٩٥) هى الأساس الذى قام عليه المذهب المالكى (التراث الفقهى المالكى). ومن تراث الكوفة المختلف والأقل عمقًا Slightly، صاغ أبو حنيفة وهو عالم رقيق الحاشية (چنتلمان) فارسى الأصول ذو خلفية تجارية، مذهبه الحنفى(★). وكانت مصر وتراث الفسطاط تلك المدينة العريقة ذات الحامية العسكرية، هى الساحة الجغرافية التى انطلق منها المذهب الشافعى، الذى وضعه وجمعه الشافعى (وهو فتى يتيم من فلسطين اتّسم بالعبقرية بين أقرانه وتفوّق تفوقًا يفوق عمره الزمنى). وكان للشافعى تأثير مفيد وكبير على الفكر الإسلامى، لقد حاول الشافعى أن يُوجد شريعة إسلامية مُتَّفَقًا عليها (مقبولة من الجميع) Unanimously accepted Islamic law. لقد رسّخ الشافعى أولويات محَدّدة بالنسبة لمصادر التشريع الإسلامى داخل الإسلام السنّى، قائمة على الأولوية المطلقة للقرآن الكريم يليه الحديث النَّبوى. وفى الوقت نفسه، فقد أصرَّ الشافعى على أنَّ الالتزام بنسق حياة النبى مسألة لها الأولوية، ذلك النسق الذى يمكن الاستئناس - عند توضيحه - بحياة الصحابة والخلفاء الأربعة الراشدين، شريطة أن تكون المرويَّات صحيحة Carefully kept.

وفى بغداد نفسها تطورَّت مدرسة رابعة (مذهب رابع) من التعاليم الخلافية (المثيرة للجدل Controversial) التى قال بها أحمد بن حنبل الذى عانى من الاضطهاد على يد السلطات العبَّاسيَّة والذى وافته منيّته فى سنة ٨٥٥ . لقد ظل يُناضل طوال حياته ضد «خلق» أىِّ نظام شرعى أو أى نظام حكم مدعوم لسلطة إكليريكية أو ثيولوچية (دينية أو لاهوتية). لقد ساق ابن حنبل الحُجَج للتدليل على أنَّ الإسلام الحق لابد أن يكون مصدره الأوّل هو الوحى - القرآن الكريم، والمَثَل الذى ضربه النبى أثناء حياته (ما ورد عن النبى من قول أو فعل أو تقرير)، **وعلى أية حال، فإن هذه الرسالة الديناميكية الجاذبة خدعت أو ضلَّلت ببساطتها العلماء الحنابلة فى أحيان لاحقة عندما انخرطوا فى مناقشات** وحجج متشابكة، فوقفوا مكانهم ولم يستطيعوا التقدم (غاصوا bogged down)، ذلك أنَّ هناك تناقضات متأصِّلة بين مسائل فقهية (قضايا) تتكرر كثيرًا فى كل المدارس الفقهية السنية (مذاهب أهل السنة) حتى بالنسبة للقرآن الكريم، وهناك قضايا (مسائل) كثيرة تعتمد على أحاديث صحيحة pure وأخرى غير صحيحة. وهناك

(★) على خلاف ما يرى المؤلف كان مذهب الإمام أبى حنيفة شديد العمق والأصالة فى نفس الوقت، فهو إمام مدرسة أهل الرأى فى العراق وفقهه قائم على العقل ودوره العميق فى فهم النصوص القرآنية والنبوية. (المعلق).

دائمًا ـ أيضًا ـ خطر لا يزال قائمًا وهو أنَّ هيئة علماء الدين المسلمين Learned schol-ars of religion)، بمن فى ذلك علماء الحديث (الخبراء فى الحديث النبوى exports in hadith) **قد يتورط الواحد منهم بالتدريج بما يقترب من أن تكون خدمة المصالح الذاتية self-serving أو الوصول إلى مرتبة العصمة والكهانة يربطها بشخصه هى** هدفه. وهذا بطبيعة الحال يتناقض تناقضًا شديدًا مع تعاليم محمد النبى ويتناقض التناقض نفسه مع روح الإسلام بشكل عام، فالإسلام يربط البشر برباط روحى مع الله Spiritual Communion with deity.

ورغم هذه التوتّرات الكامنة فى المذهب الحنفى، فقد خرج من بين معتنقيه اثنان من المصلحين هما الأكثر تأثيرًا من بين مصلحى أهل السنّة. ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨) وهو لاجئ فرَّ إلى دمشق هربًا من الدمار الذى ألحقه المغول فى بلده العراق، وحاول ابن تيمية العودة إلى روح المساواة الحقيقية فى الإسلام، لكن تعاليمه هذه أدت إلى تعرضه للاضطهاد على يد حكّام كل من الشام ومصر. وبعد ذلك بأربعة قرون ظهر عالم له العقلية نفسها، وكان هو أيضًا يعتنق المذهب الحنبلى. إنه (محمد) بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢) الذى ظهر محققًا شهرة فى وسط شبه الجزيرة العربية. وعلى أية حال، فإن إصلاحات ابن عبد الوهاب كان ينقصها العاطفة والحساسية Compassion اللتان كان يتحلى بهما ابن تيمية (الذى رأى أنه بدلاً من الإصرار على رجم الزناة غير التائبين unrepentant، ناضل من أجل عودة المهر للنسوة المسلمات المطلقات) (Who instead of insisting on the stoning of unrepentant adulterers had Campaignes for the return of dowries to divorced Muslim Women).

والأسوأ هو ما أتى بعد ذلك عندما كان على الحركة الوهابية أن تعوّل على طموحات سماسرة (وسطاء) السلطة المحليين، كأمراء آل سعود وآل الرشيد فى وسط الجزيرة العربية gifted on to the ambitions of such local power- brokers as the Saudi & Rachidi emirs of Central Arabia. لقد ظهرت الدولة الوهابية الطُّمُوح من اتحاد الإسلام الإصلاحى مع الطموح السياسى، لكن هذه الدولة تعرضت للغزو (أو الفتح) على يد القوات المسلحة للمملكة المصرية الوليدة وعلى رأسها محمد على، الذى أرسل ابنه إبراهيم باشا ففتح مكة والمدينة فى سنة ١٨١٣ .

لقد عاود الوهابيون الظهور كقوة يُحسب لها حساب بعد ذلك بمائة سنة، عندما أكمل أمير سعودى فتوحاته فى وسط شبه الجزيرة العربية واستولى على المدينتين

المقدستين من الهاشميين فى سنة ١٩٢٦ . لقد شهدت هذه الفترة أيضًا ظهور جماعة الإخوان المسلمين ذات التأثير فى مصر، وهى جماعة أسَّسها حسن البنَّا. لقد كانت حركة إصلاحية تطمح إلى تعليم الفقراء والعمال والطلبة ليعودوا إلى طريق النبى. لقد كانت حركة الإخوان المسلمين مثل كل الحركات الإصلاحية السنية تتطلع إلى فترة ورثة النبى أى الخلفاء الراشدين الأربعة، معتبرين هذا هو واحة أمان، مفضلة إياها لتحقيق الوحدة الإسلامية والفكر الصحيح. **واستعارت حركة الإخوان المسلمين من التنظيمات التى أخذت بها الطرق الصوفية، كما استعارت من التنظيمات الفكرية التى مارستها الأحزاب الشيوعية والماركسية.** وكان الإخوان المسلمون، بما انبثق عنهم من فروع مختلفة، من أكثر القوى صمودًا وبقاء بين القوى السياسية الإسلامية خلال أواخر القرن العشرين، رغم أنهم ـ بين الحين والحين ـ كانوا يتعرضون لحرب وحشية قاسية بمجرد أن يبدوا فى موقع (أو موقف) ينطلقون منه للسلطة. حدث هذا فى سوريا ومصر والجزائر. لم يأتِ وقتهم بعد خاصة إذا استمرت الممارسات habits الديمقراطية تمد جذورها ببطء رغم وجود تيارات إصلاحية جديدة، قائمة على العودة للجذور ممثلة فى الأيام الأولى للإسلام، والعودة الكاملة لحكم القرآن واستبعاد كل الأحكام الفقهية التى قامت على الأحاديث النبوية ولا سواها.

الملحق الثانى

كيف يمكننا أن نعرف؟
تراث عائشة (رضى الله عنها) بين رواة المدينة

أدى انتصار معاوية فى سنة ٦٦١ إلى انتقال السلطة السياسية من المدينة ـ تلك الواحة. ورغم أن المدينة سُلبت دورها المحورى كمركز للخلافة، بما يعنيه هذا من أبعاد سياسية ومالية وإدارية، إلا أنها ظلت كعاصمة بديلة للفكر of the mind. فلم يغادر المدينة سوى عدد قليل من الأسرات المنحدرة من أقرباء النبى وصحابته، ذلك العدد القليل الذى فضَّل الإقامة مع الأمويين فى الشام، فقد فضلت الأكثرية منهم الإقامة فى الواحة (المدينة) ذلك المكان المعطر بما لا يُحصى من الارتباطات بالنبى محمد، والمقدس باعتباره واحدا من الموضعين اللذين اختارهما الله للاتصال بنبيِّه (المقصود إنزال القرآن)، فالمدينة ـ بالنسبة للأتقياء من المسلمين ـ متوهجة بارتباطات محببة وتذكّر بشكل إيجابى بأيام النبى، وليست المسألة مسألة قبور الذين كان لهم دور عظيم فى نشر العقيدة، فحسب، وإنما المسألة أيضًا أن المدينة كانت مكانًا سُلِّمت فيه آيات القرآن الكريم فوصلت لأهل الأرض. لقد فضل هؤلاء السكنى مع هذا الماضى المقدس، بدلاً من أن يُدَنِّسوا أنفسهم بالتزاحم فى بلاط مُحْدِثى النعمة arriviste بين جامعى الضرائب ورؤساء الشرطة ورجال السكرتارية المسيحيين والجنرالات (القادة العسكريين) الذين تجمعوا حول بنى أمية. وكانوا (أى الذين بقوا فى المدينة) يتقاضون رواتب Salaries تتناسب مع دورهم الريادى فى الإسلام ومع كونهم من سلالة الصحابة، وأدى هذا إلى أن كوَّنوا نخبة فكرية وروحية داخل مقر إقامتهم (الواحة أو المدينة).

وقد فضلوا أيضًا أن تتم زيجاتهم من بين نظرائهم equals الذين تربطهم بهم بالفعل روابط العقيدة والقرابة السلالية واللغة، وقد قويت بالفعل كل هذه الروابط بزواجهم بعضهم من بعضهم الآخر. ولنأخذ مثالا واحدا: عندما اعتزل الحسن (ابن على) لاجئًا للمدينة متخليًا عن الخلافة، كان من بين زوجاته أم إسحاق التى لم تكن فائقة الجمال فحسب وإنما كانت من سلالة إسلامية Islamic blood مميزة؛ لأنها كانت ابنة طلحة من ناحية وحفيدة أبى بكر من ناحية أخرى. وبعد موت الحسن تزوجت أخاه الأصغر الحسين وحملت منه بفاطمة، التى ستكون بدورها خطيبة betrothed لأحد أحفاد أبى بكر.

وعندما ننظر إلى زيجات بنات الحسين ـ مثل أم عبد الله التى تزوجت ابن عمها الأول، علىّ بن الحسين، أو أم سلمة التى زوجوها لحفيد الزبير ـ نجد أن الصورة نفسها تظهر: إنها شبكة من الارتباطات الوثيقة توثّق عُرَى الأسرات ذات التأثير lading معًا (وبصرف النظر عن السلطة (النفوذ) بل وعن الثروة، لم يعد مثيرًا للدهشة أنهم يعيشون أحداث الماضى التى لعب فيها آباؤهم وأجدادهم وأعمامهم وعماتهم الأدوار الريادية) هذه الحكايات أصبحت هى دم الحياة فى الواحة (المدينة)، وأصبح شهودها يتذكرونها ويرددونها، بل وأصبح يغنيها مغنون محترفون، وأيضًا بعض المشاركين فيها أنفسهم. إننا نعرف أن عائشة (رضى الله عنها) وأم سلمة عاشتا فى هذه الواحة (المدينة) حوالى ست وأربعين سنة بعد وفاة النبى وكانتا طوال هذه المدة تحكيان ـ وتعيدان حكاية ـ حكاياتهما الأثيرة المفضلة لأناس شغوفين بسماعها لأنهم تحولوا حديثًا للإسلام، أو لأناس كانوا فخورين لأنهم من المؤمنين القدامى الذين التقوا بهاتين الرَّاويتيْن المبجلتين فهما من أمهات المؤمنين. **لا يمكن للرجال أن يأملوا فى منافسة النساء فى سرد تفاصيل حياة النبى محمد الشخصية**، فقد كان الرجال يفضلون الحديث عن الحكايات البطولية فى الغزوات والسرايا الأولى Compaigns. لقد كانت المدينة تعج بهذه الحكايات فلم تكن هناك حاجة لجمعها أو تدوينها، فقد كانت هى دم الحياة فى الواحة (المدينة) وكانت هى موضوع الأحاديث والمناقشات.

وبعد هزيمة عائشة (رضى الله عنها) على يد على بن أبى طالب فى معركة الجمل فى سنة ٦٥٦ انسحبت ـ أى عائشة ـ تمامًا من الخوض فى التعبير عن آرائها السياسية؛ لكنها ـ مع ذلك ظلت شخصية فعالة فى الواحة (المدينة). لقد راحت ترتدى

ثيابا مرقَّعة patched وكرست حياتها لتقديم الصدقات وأعمال الخير والعناية بأقربائها خاصة ابنَى ابن أخيها her nephew محمد بن أبى بكر، وهما القاسم وقُرَيْبَة Quraiban، وكانت تنتقد نفسها بصوت عالٍ (تبدى ندمًا). لقد راحت تنبش مذكِّرة raked over بكل تفاصيل دورها فى الأحداث المتضاربة حول موت عثمان (ابن عفان)، إلى حد تذكيرها بدعوة مروان الشخصية لها لتمكث إلى الخلف لإصلاح الأمر وإحلال الوفاق to patch tqgether a peace لأنها هى «التى كانت قد أجَّجت النار ضدى فلما علا لهيبها ابتعدت had set the Country afire aigainst me and then when it was ablaze ran away». لكن وراء ندمها على مجرى الأحداث المأسوية التى ساعدت على تأجيجها، كان هناك أيضًا بهجة حقيقية فيما ترويه. بل إن عائشة (رضى الله عنها) جعلت نفسها فى خِضَمٍّ خبرة كبيرة أثناء معركة القادسية التى جرت فى العراق على بعد بعيد من المدينة. لقد دُفن خلافها rivalry مع على بن أبى طالب؛ خاصة بعد انتصار معاوية فى سنة ٦٦١ تحت مشاعر ندم حقيقى وقاسٍ abject؛ لكنها ـ مع هذا ـ لم تفقد شيئًا من مكانتها باعتبارها السيدة الأولى فى الإسلام (المقصود ذات المكانة الأولى) ولا فقدت مكانتها فى أعين الآخرين. فعلى سبيل المثال، عندما ماتت سودة فى سنة ٦٧٤ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين، خلال فترة حكم معاوية، تركت منزلها القديم الذى تزوجت فيه وشاركت فيه النبى المعيشة ـ لعائشة وقد نالت عائشة مزيجًا فاتنًا من الاعتزاز بنفسها والتقوى حتى أيامها الأخيرة رغم ملابسها المتواضعة وأحزانها. لقد راحت تعدد مزاياها: فقد كانت البِكْر (العذراء) الوحيدة التى تزوجها النبى، وأنزل الله على محمد النبى قرآنًا بحضورها ومات النبى بين ذراعيها وفى بيتها وفى ليلتها ودُفن فى بيتها. بل إنها عندما كانت تُحتضَر فى صيف سنة ٦٧٨ عن عُمُر يناهز الرابعة والستين، سُمعت وهى تعبر عن مشاعرها القلبية متمنية أنها لم تكن قد وجدت من قبل وأنها كانت نسيًا منسيًا. إنها لم تجد أى معنى للاحتفاء بحياتها التى عاشتها، بل وعبرت عن عدم جدارتها بالدفن فى منزلها إلى جانب والدها أبى بكر وزوجها النبى محمد. واستمر الخلاف rivalry القديم بين عائشة وعلى بن أبى طالب، قائمًا ـ بعد ذلك ـ لدى الأجيال التالية، سواء ساعدت عائشة أثناء حياتها ـ بشكل مباشر ـ على هذا الاستمرار أم لا، ذلك لأن ابنة أختها niece وسَمِيَّتها (أى التى لها الاسم نفسه) وهى ابنة قريبها طلحة The daughter of her young **half- sister** and her Kinsman Talha كانت واحدة من المعترف بهما أنهما (لؤلؤتا قريش) **ظلت طوال**

عمرها فى حالة منافسة (غَيْرَة) مع سُكَيْنة، حفيدة على بن أبى طالب حول المكانة الأولى فى مجتمع واحة المدينة. لقد تنافستا (أى عائشة بنت طلحة وسكينة) حول رعاية المغنين والشعراء والرواة الأكثر مكانة فى المدينتين الأكثر قداسة (مكة والمدينة)، اعتمادًا على الأموال المقدمة والهبات والنفوذ (التأثير). ولم تكن هذه المنافسة قَصْرًا على الواحة (المدينة)، ذلك أن هذه المدينة (الواحة) كان لها تأثير (صدًى) فى الإمبراطورية الإسلامية كلها، فقد كان مرتّلو القرآن يجرى إرسالهم إلى المدينة لضبط ترتيلهم، كما كان - أيضًا - يتم إرسال الجوارى المغنيات ليتعلمن آلاف الأبيات الشعرية قبل أن يتفرقن فى كل ولاية وكل مدينة من مدن حدود الخلافة، باحثات عن الشهرة والثروة.

وفى هذه الفترة نفسها أصبح حوالى اثنى عشر عالمًا داخل مجتمع المدينة مُعترفًا بدقة رصدهم للأحداث التاريخية وبحسن تمييزهم. ونعرف بعضهم بالاسم. عُروة وهو أحد أبناء الزبير، وأبان وهو أحد أبناء الخليفة عثمان، والمتفرِّد شرحبيل وهو عضو حميم فى الأسرة العلوية وقد عمّر فزاد على المائة عام. وكان فى إمكان عُروة أن يفخر بأن أمه هى أسماء بنت أبى بكر وأن جدّته هى صفيَّة عمَّة Aunt النبى، وأن عائشة هى خالته وأن خديجة هى عمته، وجرت العادة أن يلتقى بعد أداء الصلوات وبعد تناوله طعام العشاء فى مسجد المدينة مع أصحابه ليتحدثوا عن الأيام الذهبية (الرائعة) فى الماضى. وقد تذكَّر أحد أصدقاء عُروة كيف أنه انتقد زائرًا شابًا كان قد وصل لتوّه من بلاط دمشق محمّلاً بالمكافآت والطرائف والترقيات Promotion التى منحها له البلاط الأموى. لقد أعلن له عُروة: أنا لا أريد هذه الأشياء التى تريدها أنت، فكل ما أريده هو التقوى فى هذه الدنيا ونصيب من الفردوس بعد الموت، وأن أنقل (هذا العلم) للأجيال القادمة. لقد نشأ عُروة بين العرب وكان يزوره الخلفاء وهم فى طريقهم لأداء الحج (فى طريقهم إلى مكة). حقيقة أن جلسات الحوار العلنية (القائمة على السؤال والجواب) مع عبد الملك والتى دوّنها كتبة البلاط (الأموى) قد أصبحت أقدم «تاريخ» مكتوب باللغة العربية، رغم أن هذه الجلسات قد جرت بغير تدبير مسبّق. وقد نصح عُروة فى وقت لاحق اثنين من أبنائه - بشكل شخصى أو على انفراد - وهما هشام والزهرى أنهما سيصبحان ضروريين لا غنى عنهما إذا هما نقلا ما يقوله من معلومات إلى الجيل التالى له. ولم يكن عروة يشك أبدًا فى صحّة رواياته التى نقلها مباشرة عن عائشة. وعندما كان يمتدحه أحد الزوّار قائلاً إنه لم ير من قبل مَنْ يستوعب أكثر من عروة،

فإنه ـ أى عُروة ـ سرعان ما كان ينكر هذا قائلاً: وما قيمة ما أرويه مقارنةً بما ترويه عائشة، فما إن يُعرض عليها أمر (أو رواية) حتى تفيض فى الحديث Nothing Came in touch with her on which she did not recite an ode. وفقط بعد أن بدأ هذا الجيل فى الاختفاء (جيل أبناء المشاركين الرئيسين فى أحداث ورثة النبى محمد)، حتى بدأنا نجد أول مجموعات جادة من القصص أو الحكايات (الروايات Stories). لقد ظهر رجال على شاكلة جابر الكوفى الذى كان قد قضى فترة فى الكوفة، يجمع حكايات عن علىّ بن أبى طالب، وقد مات جابر هذا فى سنة ٧٣٠، وكان سعد بن إبراهيم هو الأقرب للبنية الاجتماعية لأهل المدينة، فقد كان بوصفه أحد أحفاد الصحابة (عبد الرحمن بن عوف) فى وضع مناسب تمامًا لجمع الروايات Stories القديمة. وهناك شخصية ذات طبيعة غير عادية، على نحو أكثر من غيره، ونعنى به العالم الزاهد وهب بن منبه الذى أتى من المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية وهو من جماعة الأبناء، نصف فارسى ونصف يمنى، وطائفة الأبناء هؤلاء شغلوا المناصب الإدارية (فى اليمن). وكان يتقن لغات كثيرة ويجيد قراءة العديد من النَصوص Scripts، وقد استقى معلوماته المهمة من التراث التاريخى اليهودى والمسيحى والفارسى واليمنى ووضع كل هذا فى السياق الإسلامى السَّائد. وبحلول هذه الفترة استقرت الروايات Stories الشفاهية فى شكلين أساسيّين: أحاديث **الرجال** عن المغازى (حروب النبى)، وأسباب النزول (المقصود نزول القرآن الكريم) الذى نشأ عن الذكريات المحبّبة لكل من عائشة وأم سَلَمَة.

والجيل التالى من العلماء Scholars وجامعى الروايات Stories من أسرات المدينة القديمة ضَمَّ عبد الله بن أبى بكر (كان والد جدّه great-grand Father أحد المبعوثين الذين بعثهم النبى إلى اليمن)، وقاسم (الذى كان جده أحد حَمَلة الألوية فى غزوة حنين). ورغم أنهما كانا موضع احترام باعتبارهما مصدرين أوّليين، إلاّ أنّ معاصرهما محمد الزهرى (من بنى زُهرة) كان يمثل نقطة حاسمة إذ جرى تحويل مرويات المدينة المنقولة شفاهة إلى تاريخ مكتوب. لقد عمل الزهرى على تكوين مجموعة من أحاديث النبى وكتب سيرة رسمية له ووضع شجرة أنساب محدّدة لقبائل شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها. وهذه المشروعات الكبيرة والطّموح لم يتم إنجازها أبدًا، رغم أن الرجال الشباب الذين عملوا معه راحوا من ناحيتهم يكملون ما بدأه أستاذهم.

لا أحد من هؤلاء الشباب (موسى بن عقبة، معمر بن رشيد ومحمد بن إسحاق) الذين عملوا للزهرى، كان من الدوائر القريبة من مجتمع سلالة صحابة النبى فى المدينة، لقد كانوا جميعًا من سلالة عبيد جرى عتقهم ex-slaves أو عبيد غير مُعْتَقين bondsmen أو موالٍ. فعلى سبيل المثال، فإن يسار جد ابن إسحاق كان عربيًا مسيحيًا من العراق جرى استرقاقه خلال غارات المسلمين الباكرة فى الإمبراطورية الفارسية. وتم إرسال يسار إلى المدينة، ولم يجبره أحد على التحول للإسلام، فقرر أن يقيم فى المدينة تلك الواحة التى كانت تمتد (تتسع) وتنمو بسرعة فى هذه الفترة. وعلى هذا، فإن أولاده الثلاثة ولدوا جميعًا مسلمين ونشؤوا مسلمين وعاشوا فى المدينة وكان أكثرهم اهتمامًا بالدراسة هو إسحاق الذى جمع أحاديث النبى، ومن بعده ابنه محمد (ابن إسحاق) الذى نشأ فى رحاب أسرة مهتمة بالعلم. وبدا من الواضح أيضًا أن الطبقة الاجتماعية غير الراقية low التى انتمى إليها ابن إسحاق جعلته يشعر ببعض الامتعاض ممن هم أعرق أصلاً better bron منه فى مجتمع المدينة. فذات مرة جرى حلق شعره وتم ضربه بالسياط بناء على أوامر حاكم المدينة، لأنه كان دائم المداعبة للنساء فى مؤخرة المسجد. وبعد أن تعلم كل ما أمكنه تعلُّمه من الرواة الثلاثة العظام فى زمنه (عبد الله وقاسم، وبطبيعة الحال من أستاذه الزهرى)، راح يتتبع مئات آخرين فى المدينة ممن هم أقل موثوقية ليسمع منهم. وفى وقت لاحق ارتحل إلى الإسكندرية والفسطاط والكوفة ليسمع من علماء آخرين ويلتقى بهم. لقد غادر المدينة (ربما بسبب الغيرة العلميَّة وأقام منزلاً فى العاصمة العراقية بغداد) وقبل أن توافيه منيته عام ١٥٠هـ كتب سيرة النبى، وهى لا تزال موجودة حتى أيامنا هذه ولا تزال هى مصدرنا الأساسى المكتوب. ورغم أن ابن إسحاق كتب السيرة النبوية فى مدينة بغداد العالمية Cosmepolitan، فإن عمله العظيم هذا مكون من تراث (مرويات) المدينة الشفاهى المتفرد. وكان تراث المدينة (مروياتها) يشكل أيضًا الخلفية التى استقى منها مَنْ كتب من المعاصرين الآخرين المشاهير والأصغر سنًا من ابن إسحاق، مثل السندى والواقدى (الأكثر حرفية ونزاهة من بين كل المؤرخين الأوائل).

ومع كتابة هذه السيَر والتواريخ الثلاثة الأولى، تكون المدينة قد حققت هدفها التاريخى. فقد كانت - أى المدينة الواحة - هى «عاصمة ظلّ Shadow Capital» بسبب طبيعة سكانها المتميزة الذين نأوا بأنفسهم عن السياسة، بل كانوا يتكونون من أسرات بارزة (ذات مكانة) احتفظت بسيرة النبى وأيام الإسلام الأولى للأجيال القادمة.

وبرهنت الذاكرة الجمعية على إصرارها الملحوظ على كل الأحداث التى حدثت داخل المدينة (الواحة). وأنت أيها القارئ عند قراءتك هذه الفقرة الأخيرة تكون قد أصبحت جزءًا من هذه السلسلة من الروايات التى تعود إلى ابن إسحاق، وتعود من ابن إسحاق إلى ما قبله من عدد كبير من الرجال (الرواة) الذين أحبوا أن يلتقوا فى الأمسيات فى مسجد المدينة، وكان أهم هؤلاء هو عروة الذى كان يرفض المديح الموجَّه له، فماذا عساه أن يقدم مقارنة بعائشة!

قائمة بأهم التواريخ الواردة بالكتاب

(عن الأحداث السياسية والعسكرية

فى الخمسين سنة التالية لوفاة النبى : ٦٣٢ـ ٦٨٣)

(لاحظ من فضلك أن تواريخ المعارك المهمة (الفتوحات) لا يمكن أن تكون محددة (دقيقة تماماً)، فقد يتراوح الاختلاف فيها حتى أربع سنوات).

٦٣٢: وفاة النبى بينما كان جيش بقيادة أسامة بن زيد (ابن زيد الأصغر) يُجمَّع لشن غارة فى الشام ليثأر لهزيمة لحقت بالمسلمين فى مؤتة فى سنة ٦٢٩ .

- أبو بكر يتولى الخلافة فأصر على أن دفع الزكاة سيظل معياراً لقبول القبائل للإسلام. اتساع نطاق المعارضة.
- موت فاطمة، فمكث علىٌّ ليعتنى بابنيهما : الحسين والحسن.

٦٣٣ : حروب الردة. أبو بكر يعين خالد بن الوليد لمحاربة (المرتدين) فأحرز ثلاثة انتصارات.

- معركة بُزاخَة Buzakha: هزيمة غطفان وحلفائها.
- معركة عقربة Aqraba «يوم حديقة الموت»: هزيمة بنى حنيفة وموت نبيهم مسيلمة.
- معركة ...س Ullais «نهر الدم»: ضد قبائل عربية موالية للإمبراطورية الفارسية

٦٣٤: فتح الأرض المقدسة holy land بأربعة جيوش عربية انطلقت ثلاثة منها من المدينة، وانطلق الجيش الرابع من الجبهة العراقية بقيادة خالد بن الوليد. أحرز العرب ثلاثة انتصارات عسكرية فى فلسطين، ووادى العربة وأجنادين وداثن Dattin وانتصار فى سوريا، مرج الصُّفَّر al Suffar.

- موت أبى بكر فى فى شهر أغسطس، وتولِّى عمر الخلافة من بعده.

- على الجبهة العراقية هزم جيش فارسى قوات المسلمين فى معركة الجسر على مشارف الحيرة Hira.

٦٣٥: الجيوش الإسلامية تتمركز فى مدن رئيسة فى سوريًا (الشام) وفلسطين. على الجبهة العراقية، ابن حارث يدبر لصد هجوم فارسى مضاد فى معركة بويب.

٦٣٦: الجيوش العربية تتخلى عن كل مكاسبها الإقليمية فى سوريا (الشام) وفلسطين، عندما تم إرسال قوات الإمبراطورية البيزنطية كلها لتخوض المعركة.

- فى منتصف أغسطس دمر خالد بن الوليد الجيش البيزنطى الميدانى فى معركة اليرموك الحاسمة وأعاد احتلال كل الشرق الأدنى بسرعة.

٦٣٧: هجوم مضاد يشنه الجيش الإمبراطورى لفارس الساسانية. يزدجرد (آخر الأباطرة الساسانيين) يعاين انسحاب قائده رستم فى معركة القادسية التى استمرت أربعة أيام.

- بعد الانتصار احتل المسلمون كل العراق، بينما انسحبت القوات الساسانية إلى الجبال الفارسية.

- تسليم البطريارك سوفرونيوس Sophronius القدسَ للخليفة عمر.

٦٣٨: الجيوش العربية المسلمة تندفع فى العراق الشمالى وتتقدم فى فارس، والمناطق الشمالية من الشام.

٦٣٩: عام الطاعون والمجاعة.

٦٤٠: الخليفة عمر يترأس مؤتمرًا لقادة الجيوش فى الجابية.

- عمرو بن العاص يقود تجريدة فى مصر البيزنطية، بينما راحت قوات المسلمين تتقدم فى الأناضول وفارس.

- انتصار على الجيش البيزنطى فى مصر فى معركة هليوپولس.

- عمرو يتقدم فى مصر شمالاً فى دلتا النيل ويخوض معركة Nikiou ويحاول محاصرة الإسكندرية.

٦٤١: موت الإمبراطور هرقل Heraclius.

- هجوم بيزنطى مضاد فى الشام وتمرد بين القبائل العربية فى الصحراء السورية.

٦٤٢: عمرو بن العاص يتسلم الإسكندرية من سيرل Cyril. عمرو يؤسس الفسطاط ويجعلها مركزًا للحامية ومركزًا إداريًا لمصر.

- انتصار المسلمين فى معركة نهاوند فى فارس.

٦٤٤: اغتيال عمر على يد أبى لؤلؤة فيروز وكان أسير حرب ساخطًا (رقيقًا). اختيار عثمان خليفة من قِبَل مجلس (جماعة) مكون من ستة من الصحابة البارزين.

- عمرو وابن خالته عقبة بن نافع يواصلان الفتوح غربًا بفتح أجزاء من ليبيا والصحراء الكبرى Sahara.

٦٤٥: تمردات واسعة النطاق ضد إمبراطورية المسلمين فى فارس وأرمينيا وأذربيجان ومصر، وقد شجعها وصول الأسطول البيزنطى. الجنرال مانيُول Manuel يعاود احتلال دلتا النيل.

٦٤٦: عمرو (الذى سرعان ما أُعيد تعيينه قائدًا) يقود قوات لإعادة فتح مصر ويخوض معركة Nikiou الثانية ويحاصر الإسكندرية وينهبها.

٦٤٧: والى مصر من قِبَل عثمان بن عفان يقود جيشًا قويًا من ٤٠ ألف مقاتل متجهًا إلى الغرب ليهزم حاكم تونس البيزنطى فى معركة سبيطلة Sbeitla.

٦٤٨: الأسطول العربى يناوش - بنجاح - أسطولاً بيزنطيًا أمام الإسكندرية.

٦٤٩: المسلمون يحتلون قبرص. حاميات عربية مشتركة من مصر والشام تشترك فى عملية الفتح.

٦٥٠: اكتمال عملية كتابة مصحف كامل فى المدينة. الجيوش العربية تؤسس قواعد متقدمة فى مدن آسيا الوسطى، مثل هيرات، ومرو، وبلخ، وكابول.

٦٥١: عثمان يفقد خاتم النبى.

٦٥٢: موت يزدجرد.

٦٥٣: بعد تهديد مجدد من الأسطول البيزنطى يُعاد فتح قبرص بغزوة ثانية فى العام نفسه الذى يؤمِّن فيه الجيش العربى موقفه فى أرمينيا.

٦٥٤: الأسطول العربى يغير على رودس.

٦٥٥: معركة ماستس Masts: وهى معركة بحرية قبالة ساحل ليسيا Lycia فى بحر إيجة، كان من نتيجتها إحكام الهيمنة العربية على هذا البحر.

٦٥٦: اغتيال عثمان بن عفان فى المدينة على يد منشقينَ من الحاميات العسكرية فى الفسطاط والكوفة والبصرة.

- إعلان على بن أبى طالب خليفة (الخليفة الرابع).
- عائشة تدبر تمردًا فى مكة يدعمه طلحة والزبير.
- عائشة والمتحالفون معها يُحْكِمون قبضتهم على حامية البصرة. الحسن بن علىّ يتولى أمر حامية الكوفة.
- معركة الجمل خارج البصرة. مقتل طلحة والزبير. عودة عائشة إلى المدينة بعد أن اعترفت بخلافة علىّ.

٦٥٧: على بن أبى طالب يرشح محمد بن أبى بكر واليًا على مصر.

- على يتوجه إلى الشام لخلع معاوية من ولايته.
- معركة صِفِّين التى استمرت أربعة أيام تنتهى بقبول التحكيم، وكان هذا قرارًا غريبًا.
- الخوارج يحاولون الخروج عن خلافة علىّ لقبوله التحكيم.

٦٥٨: عمرو بن العاص يخدع أبا موسى فى مؤتمر التحكيم بالأردن.

- إعلان معاوية خليفة على يد مؤيديه فى دمشق.
- على يخوض معركة النهروان ضد الخوارج.

٦٥٩: عمرو يتولى إمارة مصر للمرة الثالثة فى حياته بدعم من معاوية. وفاة محمد بن أبى بكر.

٦٦٠: معاوية يجدد الهجمات على الإمبراطورية البيزنطية.

٦٦١: اغتيال على فى الكوفة.

- إعلان الحسن بن على خليفة، لكنه تنازل عن الخلافة لمعاوية حقنًا للدماء.

٦٦٢: حكم (ولاية) زياد والمغيرة على البصرة والكوفة، وكان حكمهما يتسم بالواقعية والارتباط الكامل بمعاوية.

٦٦٣: العرب يغيرون على صقلية للمرة الأولى.

٦٦٩: المسلمون يحاصرون القسطنطينية برًا وبحرًا.

٦٧٠: تأسيس القيروان قاعدة متقدمة لفتح الشمال الأفريقى، وقد أسسها عقبة بن نافع ابن خالة عمرو بن العاص.

- تأسيس مرو قاعدة جديدة متقدمة لفتح آسيا الوسطى وخُرَاسان.

- موت الحسن بن على فى المدينة.

٦٧١: تمرد الخوارج فى العراق بدعم من زياد.

٦٧٨: هزيمة أسطول عربى فى معركة Syllacum؛ مما أدى لرفع الحصار عن القسطنطينية.

- الإمبراطوريتان تعقدان اتفاق سلام مدته ثلاثون عامًا.

٦٨٠: موت معاوية وخلافة ابنه يزيد.

- الحسين يستجيب لدعوة جنود حامية الكوفة ليقودهم ضد العرش (الخلافة) التى أصبحت وراثية. لكنهم تخلوا عنه مع أنه أتى لمساعدتهم، فقتله جنود يزيد مع جماعة من أقربائه وأتباعه فى كربلاء. وفى المدينة ومكة، قاد عبدالله بن الزبير ثورة ضد يزيد.

٦٨١: عقبة بن نافع يصل إلى ساحل المحيط الأطلنطى فى مراكش.

٦٨٣: جيش أموى يتقدم من دمشق إلى المدينة لينتصر فى معركة حرَّان Harran ويتم نهب المدينة وتدميرها، ثم يواصل الجيش تقدمه ليحاصر مكة ويحرق الكعبة ويسوِّيها بالأرض.

- موت يزيد.

أهم الشخصيات
فى فترة حياة محمد النبى

العبَّاس: عم النبى محمد. كان رجلاً ثريًا ذا نفوذ، وهو أخو أبى طالب (غير الشقيق) وإليه انتسبت الأسرة الحاكمة العبَّاسية.

عبد الله بن العبَّاس: ابن العباس، وبذا فهو أول ابن عم لعلى بن أبى طالب. وكان عبد الله أحد مستشارى على بن أبى طالب وواحدًا من مؤيديه وداعميه أثناء خلافته؛ لكنه أُزيح أخيرًا عن منصبه كوالٍ للبصرة.

عبد المطلب: جد النبى محمد. وكان محبَّبًا إلى نفس النبى، وكان عبد المطلب تاجرًا ناجحًا وشيخًا لعشيرة بنى هاشم، إحدى عشائر قريش.

عبد الرحمن بن عوف: من أوائل من تحول للإسلام، وكان واحدًا من الصحابة الستة الذين تكونت منهم لجنة اختارت عثمان بن عفان خليفة فى سنة ٦٤٤.

عبد الله بن أُبَى: أحد زعماء المدينة قبل هجرة النبى محمد إليها.

أبو بكر: والد عائشة. تم إعلانه خليفة بعد موت النبى. يُقال إنه أول من تحوَّل للإسلام من الرجال وكان صديقًا صَدُوقًا للنبى محمد. وهو الرجل الوحيد الذى صحب محمدًا عند فراره (هجرته) إلى مكة. اختاره النبى ليصلى بالناس (يؤمُّهم فى الصلوات) فى الأسبوع الأخير من حياته (عندما اشتد به المرض)، مما أعطاه - أى أعطى أبا بكر- حُجِّية حاسمة Crilical edge ليكون خليفة معترفًا به بعد وفاة النبى.

أبو جهل: كان شخصية مهمة فى مكة قبل الإسلام Pagan Mecca، وقد عادى محمداً النبى مبكرًا (منذ بداية الدعوة).

أبو لَهَب: أحد أعمام محمد النبى halh- uncles وكان النبى حريصًا على إسلامه لكنه لم يسلم.

أبو موسى الأشعرى: قائد عسكرى موقر وتقى حارب على الجبهة الفارسية، وتولى أحيانًا ولاية البصرة والكوفة. جرى اختياره ليكون ممثلاً (وكيلاً) لعلى بن أبى طالب بعد معركة صفين فى سنة ٦٥٧ فخدعه عمرو بن العاص.

أبو سفيان: أحد نبلاء مكة، ظل طوال عشر سنوات يقود المعارضة الوثنية للإسلام الباكر بعد هجرة محمد للمدينة. وبعد قبوله للإسلام، أصبح مواليًا لمحمد معتمدًا على أنَّ محمدًا كان زوجًا لابنته (أم حبيبة) وعمل واليًا Provincial governer فى اليمن فى عهد أبى بكر وعمر، وفى المرويات أنه حارب فى معركة اليرموك. وهو الأب الحقيقى Legitimate ليزيد ومعاوية وربما لآخرين، كعمرو ابن العاص وزياد.

أبو طالب: والد علىّ وعم محمد، وهو الذى رعاه وحماه حتى آخر نَفَس فى حياته رغم أنه لم يسلم أبدًا.

أبو عُبَيْدة: اختاره عمر بن الخطاب قائدًا أعلى لجيوش المسلمين فى الشام. ولولا أنه مات فى طاعون سنة ٦٣٩ لأسند عمر إليه الخلافة لثقته فيه.

عائشة: ابنة أبى بكر، وأمها هى أم رومان. كانت جميلة، وقد تزوجت محمدًا النبى بعد موت زوجته الأولى المحبوبة خديجة بثلاثة أعوام. كانت من بين زوجات النبى الكثيرات، هى الأكثر عاطفة وغيرة وحيوية، وكانت مصدرًا حيويًا للروايات **كما كانت شخصية سياسية مهمة.**

علىٌّ: ابن العم الأصغر للنبى (فهو الابن الأصغر لأبى طالب). نشأ فى بيت النبى. أول من قبل الإسلام وأعلنه. إنه بطل المجتمع المسلم فى بواكيره، سواء بوصفه محاربًا أم بوصفه مُناصرًا لعقيدة حيَّة. تزوج فاطمة ابنة النبى، وهو أبو الحسن والحسين وهو الخليفة الراشد الرابع كما يعترف أهل السنة، أما عند الشيعة فهو الخليفة الأول الحقيقى True Heir of the prophet والإمام الوحيد Sole Imam.

آمنة: ابنة وهب من زُهَرة، وهى أم النبى.

عمرو بن العاص: نبيل مكى ذو نفوذ. حارب ضد المسلمين فى المدينة، لكنه اعتنق الإسلام بعد ذلك ووصل بسرعة إلى مكانة مهمة فى ظلاله.

بَـــرَكة: (تُعرف أيضًا باسم أم أيمن). جارية ورثها النبى محمد عن والده. وكانت شخصية وَدُودًا رعت محمدًا فى طفولته وقد منحها حريتها (أعتقها) يوم زواجه بخديجة، وبعد ذلك بسنوات طويلة أصبحت إحدى زوجات زيد بن حارثة. ورغم أنها - ولا بد - كانت أكبر منه بحوالى عشرين سنة، إلا أنها رُزقت منه بمولود هو أسامة.

بلال: عبد حبشى تحول للإسلام فى زمن باكر. عذَّبه سيده الوثنى لكن أبا بكر اشترى له حريته (اشتراه وأعتقه). تم اختياره أول مؤذن فى الإسلام.

المقوقس Cyrus (قيرس): مسئول بيزنطى غير بارع حَكَم مصر بوصفه حاكمًا مدنيًا وبوصفه حاكمًا دينيًا؛ لأنه كان هو البطريارك الأورثوذكسى اليونانى المسئول.

ذو القناع: شخصية عسكرية يمنية مؤثرة. قاد المقاومة الوثنية ضد الإسلام بعد موت النبى محمد.

فاطمة: (تُكتب فى المراجع الأجنبية Fatimah أو Fatima). إحدى بنات محمد الأربع اللاتى أنجبهن من خديجة. وهى زوجة على وأم الحسن والحسين. وكانت من أُولَيات المؤمنين. وكانت بصبرها وتواضعها وتقواها وإخلاصها تقدم دورًا لامرأة مسلمة بديلاً لنموذج عائشة.

حفصة: هى الزوجة الرابعة للنبى وابنة عمر بن الخطاب. وكان زوجها الأول قد مات فى معركة (غزوة) بدر فتركها أرملة فى الثانية عشرة من عمرها. ولأنها كانت معروفة بتوقد الذهن واستقلالية التفكير بالإضافة لمعرفتها للقراءة والكتابة، فقد أودعوا عندها صحائف القرآن الأولى، وكانت هذه الصحائف هى أساس عملية الجمع الكبرى التى أتمها عثمان بن عفان فى وقت لاحق.

حليمة: أم النبى محمد بالرَّضاع، وهى من عشيرة هوازن من قبيلة بنى سعد.

حمزة: عم النبى محمد المرح boisterous. كان مقاتلاً عظيمًا، وقناصًا وشارب نبيذ Wire drinker، وقد جمع الفرس بعد موته بقرون كل ما ارتبط به من حكايات (أساطير).

الحَسَن: أكبر أبناء عليّ من زوجته فاطمة، وهو حفيد محمد وخامس الخلفاء. أظهر الإسلام بأنه دين السلام حقًا.

هاشم: جَدُّ محمد الأعلى: كوَّن نسله الكثير عشيرة بنى هاشم التى كانت تتوارث رعاية أمور الكعبة فى مكة لقرون، وظهرت منهم الأسرة الحاكمة الهاشمية.

الحُسين: الابن الثانى لعلى وفاطمة. وهو حفيد النبى. وبعد موت الحسن أخيه الأكبر حمل على عاتقه قضية العَلَويِّين، واستجاب لدعوة أهل الكوفة ليقودهم طلبًا للحرية لكنهم تخلوا عنه فاختار الاستشهاد فى كربلاء مفضلاً إيّاه على هزيمة تلحق به rather than dishqneur .

ابن حارثة، المُثنَّى: زعيم بنى بكر الذى حارب ضد الفرس شابًا، وأصبح مواليًا عسكريًا لخالد فى غاراته الأولى فى العراق. حارب فى معركة أُلَّيس Ullais والجِسر وبويب.

جبلة بن الأيهم: آخر أمير من أسرة الغساسنة. حارب دفاعًا عن الإمبراطورية البيزنطية فى معركة اليرموك فى سنة ٦٣٦.

جعفر: ابن عم النبى وهو أصغر أبناء أبى طالب وقد دخل الإسلام مبكرًا، وكان ممن لجأ (هاجر) إلى الحبشة المسيحية. وقد استُشهد مع زيد فى غزوة مؤتة ٦٢٩، (أى استُشهدا معًا).

جُويرية: زوجة النبى وابنة زعيم قبيلة بنى المصطلق.

خديجة: أول زوجات النبى وكانت أكثر منه ثروة وأكبر منه سنًا، وهى أم أربع من بناته: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة) وأم ابنين من أبنائه ماتا فى مرحلة الطفولة. كانت محل ثقة النبى وموضع اطمئنانه فى بواكير فترة بحثه (ترقبه) للدين (الجديد). وهى أول من اعترف به نبيًا من عند الله.

خالد بن الوليد: كان قبل الإسلام نبيلاً من نبلاء مكة الوثنيين. حارب ضد المسلمين فى المدينة قبل أن يتحول للإسلام ويتبوأ فى رحابه مكانة مهمة باعتباره أكثر قواد المسلمين كفاءة فى بواكير الإسلام، حتى النبى نفسه كان يقدره. وقد أدى تتابع انتصاراته الثلاثة خلال حروب الرِّدة إلى اكتسابه خبرات فى المناورات العسكرية تجلت مُلهمةً خلال فتحه للأرض المقدسة Holy land، فحقق أعظم

إنجازاته بانتصاره الحاسم فى معركة اليرموك. لكن عمر بن الخطاب عمل بعد ذلك على التقليل من مكانته، ونُسبت إليه أمور مخزية Prosecuted into dis-grace.

مارية أو ماريا أو مريم: مَحْظيَّة قبطية أهداها المقوقس حاكم مصر للنبى وأُرسلت للمدينة، وقد أعتقها النبى بعد أن أنجبت له إبراهيم، ومع هذا فلم تتشرف بلقب أم المؤمنين كزوجات النبى الأُخريات.

ميمونة: زوجة النبى وهى أخت زوجة العباس بن عبد المطلب الثرى الماهر فى أمور المال - عم النبى.

معاوية: مُؤسِّس الأسرة الحاكمة الأموية. كان سياسيًا عبقريًا وقائدًا عسكريًا. إنه قيصر العرب. وهو الابن الثانى لأبى سفيان من زوجته هند. وعمل معاوية كاتبًا للنبى بعد دخوله الإسلام، وذلك (أى عمله كاتبًا للنبى) فى العامين الأخيرين من حياة النبى. وقد ظهر على مسرح الأحداث متخذًا مكانة مهمة عندما ساعد أخاه الأكبر يزيد فى فتح الأراضى المقدسة Holy land وتولّى هو القيادة بدلاً من أخيه الذى مات بالطاعون. وقد اعترف عمر وعثمان بمواهبه العسكرية والتنظيمية فتركاه يتولى أمور القيادة العليا فى الشام. وقد رفض علىّ تجديد ولايته على الشام، وكان هذا الرفض من بين الأمور الأساسية الكامنة وراء الحرب الأهلية التى انتهت بانتصار معاوية.

المغيرة بن شُعْبة: من قبيلة ثقيف بالطائف (النص: renegade from the Thaqif tribe of tife ولسنا نفهم Renegade فى هذا السياق) وقد استفاد كثيرًا من التحول الباكر للإسلام، ورغم عدم التزامه الأخلاقى فقد جعلته بصيرته السياسية مستشارًا لا غنًى عنه للنبى ولعمر، وقد سعى لخدمة على قبل هزيمته. ووافته منيته وهو على رأس عمله - واليًا على الكوفة يرهبه معاوية.

محمد بن أبى بكر: آخر أبناء أبى بكر. نشأ فى بيت على، زوج أمه الحبيب إلى نفسه. وكان واحدًا ممن شاركوا فى قتل عثمان. عينه على واليًا على مصر.

مُسَيْلِمَة: نبى قبيلة بنى حنيفة فى الجانب الشرقى من شبه الجزيرة العربية. قُتل فى معركة عقربة فى سياق حروب الرِّدَّة.

عمر بن الخطاب: هو الخليفة الثانى فى تاريخ الإسلام. وهو شخصية كبيرة ومهمة فى تطور حضارة المسلمين، فقد أشرف على تولية أبى بكر الخلافة (بعد وفاة النبى)، وكان هو - أى عمر - الخليفة عند إحراز المسلمين انتصاراتهم على الإمبراطوريتين: البيزنطية والفارسية. وعمر هو والد حفصة زوجة النبى، وكان زاهدًا متشددًا، وواضعًا (مهندسًا) للشكل السياسى للإمبراطورية الإسلامية كلها.

عقبة بن نافع: ابن خالة عمرو بن العاص، وغالبًا ما ارتبطت به الحكايات الأسطورية عن فتوحات المسلمين الأولى. لقد شارك فى فتح مصر، وكان على رأس المغيرين الذين تغلغلوا فى الصحراء الليبية، وقد تعرقلت مسيرته للسودان (تم صده عن التوغل فى السودان) قبل أن يجد فى مدينة القيروان قاعدة لفتح الشمال الأفريقى.

رُقيَّة: ابنة النبى محمد من زوجه خديجة، تزوجها عثمان. ماتت فى المدينة يوم انتصار المسلمين فى غزوة بدر.

سعد بن أبى وقَّاص: تحول للإسلام فى وقت باكر وكان من بين السبعين مسلمًا الأوائل الذين هاجروا للمدينة، وكان أول من رمى سهمًا فى سبيل الله. وظل طوال السنوات العشر التالية بعد هجرته يحارب ضد الوثنيين فى مكة. كان على رأس جيش عربى ضخم حقق النصر الحاسم على الإمبراطورية الفارسية فى معركة القادسية. وقد جعله عمر بن الخطاب من بين الصحابة الستة الذين كان عليهم أن يختاروا (ينتخبوا) الخليفة التالى (الذى يخلُف عمر بعد موته).

سعد بن عُبَادة: كان سيد (الخزرج) فى المدينة (ملحوظة: النص الإنجليزى غير واضح وها هو: ...Chieftain of Medinah Saidah Clan) كان متعاطفًا مع النبى منذ وقت باكر، وكان داعمًا له، وهو الذى دعا لاجتماع أهل المدينة بعد وفاة النبى (اجتماع السقيفة).

صفية: زوجة النبى. وهى ابنة الشيخ حُيَىّ زعيم عشيرة بنى النضير فى المدينة، وهم عرب يهود Jewish Arab. وكانت قبل زواجها من النبى زوجة لشيخ يهودى كبير قُتل فى غزوة خيبر.

سَوْدَة: الزوجة الثانية للنبى إذ تزوجها بعد موت خديجة. وكانت عندما تزوجها النبى أرملة فى الثلاثين من عمرها فكانت ربيبة بناته. وكانت واحدة من أوائل المسلمين الذين فروا من اضطهاد وثنيّى مكة إلى الحبشة.

شُرَحْبيل بن حَسَنَة: واحد ممن عينهم أبو بكر ليقودوا الجيوش الثلاثة لفتح الأراضى المقدسة Holy Lands، أما القائدان الآخران فهما يزيد بن أبى سفيان وعمرو ابن العاص.

سوفرونيوس Sophronius: البطريارك الأورثوذكسى اليونانى (البيزنطى) للقدس، الذى رتب أمر تسليم المدينة المقدسة (القدس) للخليفة عمر.

طلحة بن عبيد الله: ابن عم أبى بكر. اختاره عمر ليكون بين الصحابة الستة الذين يختارون من يخلفه. انضم مع الزبير إلى عائشة فى ثورتها ضد على.

أُمامة: حفيدة النبى محمد، فهى ابنة ابنته زينب من زوجها أبى العاص بن الربيع.

م حبيبة: زوجة النبى. ابنة أبى سفيان شيخ قريش الكبير، وقد سادت هذه القبيلة مكة قبل الإسلام.

أم سَلَمة: زوجة النبى. كانت أرملة ابن عمه (أبو سلمة) الذى مات بسبب إصابته بجروح فى غزوة أُحُد. كانت من المهاجرات (المهاجرين إلى الحبشة)، وكانت قد أحضرت ابناءها إلى بيت النبى ليكونوا فى حمايته. وكانت نصيحتها الحكيمة وراء انتهاء العصيان الذى لم يطل فى الحديبية.

أسامة: حفيد محمد النبى عن طريق تبنّيه لأبيه زيد (لأن زيدًا كان ابنًا لمحمد النبى بالتبنى، فأسامة هو حفيد النبى بهذا المعنى). كسب ود عائشة بدعمها عندما كانت فى حاجة لدعمه، وكان النبى قد وضعه على رأس جيش فى آخر شهر من حياته (المقصود من حياة النبى). وقد أحدث هذا التعيين شيئًا من الخلاف.

عثمان بن عفان: الخليفة الثالث فى تاريخ المسلمين وهو الذى أشرف لأول مرة على جمع القرآن وتدوينه، وهو من السابقين للإسلام وكان عالمًا ثريًا نشطًا وهو من إحدى عشائر مكة الأكثر نبالة. وكان أهلاً للثقة لدرجة أنه تزوج ابنتين من بنات النبى، كما تم اختياره خليفة ثالثًا (بعد موت عمر) فى سنة ٤٤٦ نظرًا لمهاراته الإدارية. وكان قد وقع فى خطأ كبير جدًا باعتماده على أسرته وعشيرته، وربما

كان هذا لأنه لم يكن يصلح للقتال (فشله فى أن يكون محاربًا)، ولو كان كذلك لدافع عن نفسه عند قتله He would yet redeem himself in the manner of his death.

يزدجرد: آخر إمبراطور ساسانى للإمبراطورية الفارسية، وعقيدتها الزرادشتية.

زيد بن حارثة: أسر فى غارة بدوية وكان صبيًا وتم إحضاره إلى سوق عكاظ الذى كان يُعقد سنويًا فى مكة وبيع فى مزاد، وأعطاه لخديجة أحد أبناء عمومتها (أو أبناء أخوالها) الأثرياء. وقامت خديجة - بدورها - بإعطائه لمحمد هدية منها عند زواجه منها Wedding gift، وفى وقت لاحق منح النبى زيدًا حريته (أعتقه) وتبنَّاه، ثم زوّجه جاريته بركة فأنجب منها ابنًا هو أسامة، الذى كان واحدًا من أكثر أتباع محمد إخلاصًا. وبعد ذلك أصبح زيد واحدًا من القادة العسكريين المهمين فى بواكير الإسلام، حتى مات فى معركة مؤتة.

زينب (ابنة محمد): تزوجت واحدًا من أبناء أخوالها، وهو أبو العاص الذى كان وسيمًا، وقد ظل وثنيًا فى مكة وغالبًا ما استمر على وثنيته إلى النهاية. وهى - أى زينب بنت محمد - أم أُمامة.

زينب (ابنة خزيمة): الزوجة الخامسة للنبى، وهى ابنة زعيم قبيلة عامر المهم. وقد تزوجها النبى بعد وفاة زوجها فى غزوة بدر. كانت مشهورة بآرائها وتقديمها الصدقات للمساكين. ماتت بعد زواجها من النبى بثمانية أشهر.

زينب: ساحرة يهودية من خيبر، حاولت الانتقام لقومها Her Community بمحاولة قتل النبى بالسم to poison the prophet.

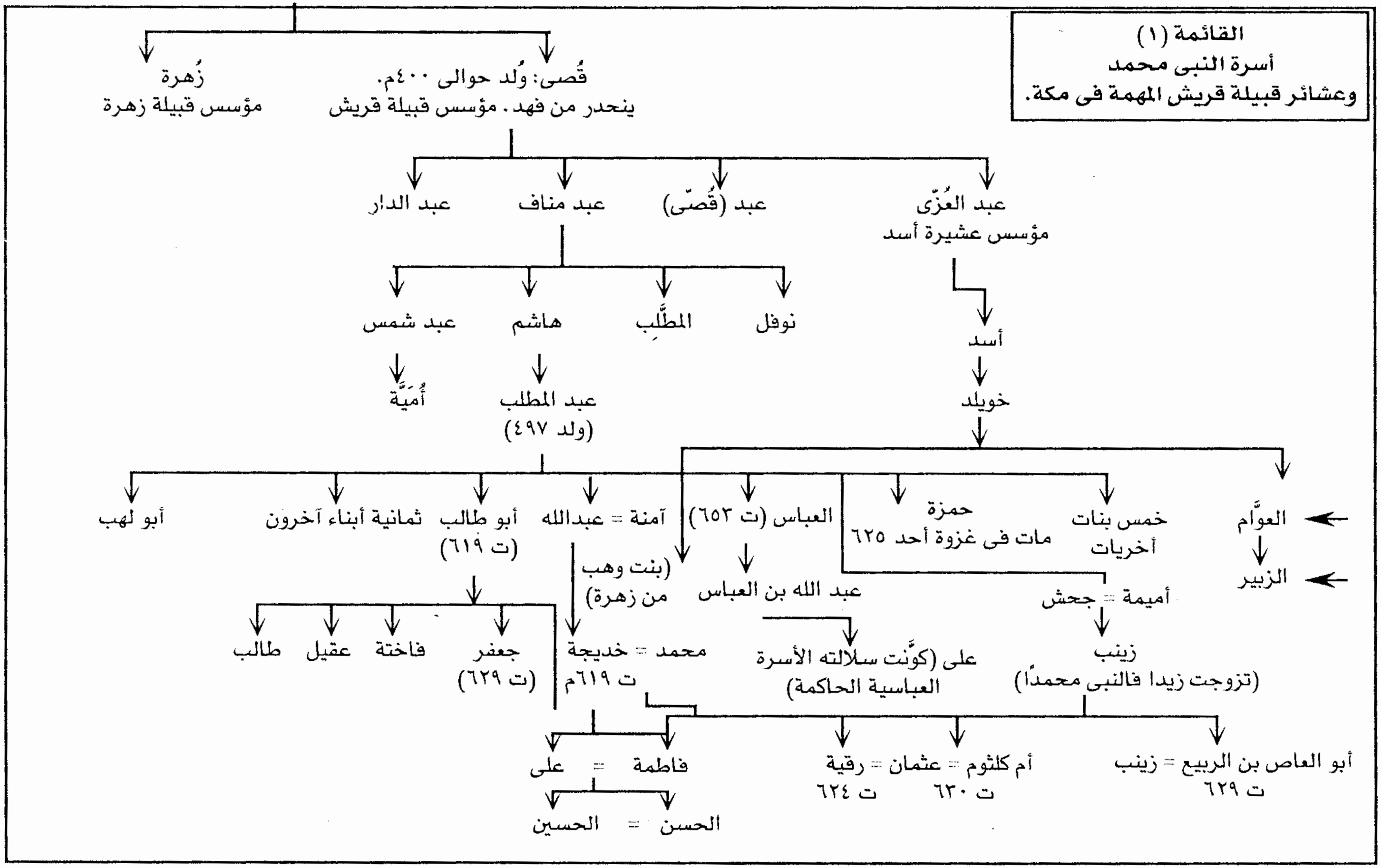
زينب بنت جحش: هى الزوجة السادسة للنبى، وكانت متزوجة من زيد ابن محمد بالتبنِّى، وقد ورد فى القرآن الكريم ما يفيد صحة الزواج من زوجة الابن بالتبنى إن طلقها.

زياد: سياسى داهية، وهو ـ مثل المغيرة ـ من قبيلة ثقيف فى الطائف. وباعتباره ابنًا غير شرعى، لم تكن له مكانة اجتماعية أو ولاء عشائرى يسانده فى الحياة، ومع هذا فقد ارتفع شأنه: فقد أصبح موضع ثقة معاوية الذى جعله سكرتيرًا (كاتبًا) له، ثم عيَّنه واليًا، بل وجعله واليًا للبصرة والكوفة معًا، بل وولاه أمر فارس كلها.

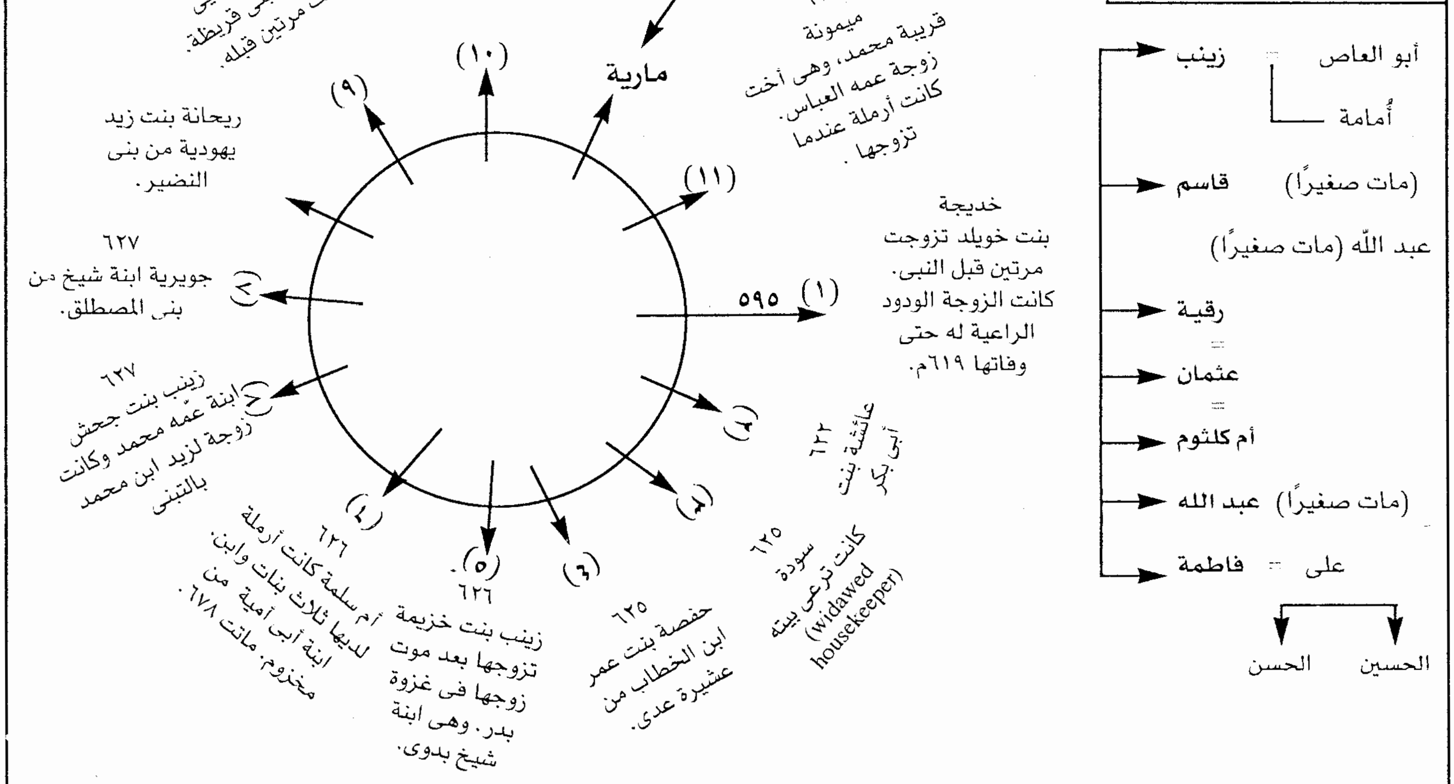
ومن الناحية الرسمية (الشكلية) استوعبت (تبنَّت) أسرة معاوية زيادًا، وكوفئ أولاده بمناصب أقل. وقد أدى كل هذا إلى ارتباط أسرة زياد بالولاء الكامل للأمويين. وكان عبيد الله ـ أحد أبناء زياد ـ واليًا على الكوفة، وكان هو العقل المدبر لسلسلة الأحداث التى أدت إلى المأساة التى حدثت فى كربلاء.

الزبير بن العوَّام: من المؤمنين الذين دخلوا الإسلام مبكرًا، وقد أوكل إليه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الذى أرسله لدعم عمرو بن العاص فى فتحه لمصر. وقد اكتسب شهرة بين رجاله بقيادته هجومًا على حصن بابليون البيزنطى. كان واحدًا من الصحابة الستة الذين اختارهم عمر لاختيار الخليفة الذى يخلفه (أى يخلف عمر). انضم الزبير إلى عائشة فى ثورتها her revolt ضد علىّ بن أبى طالب.

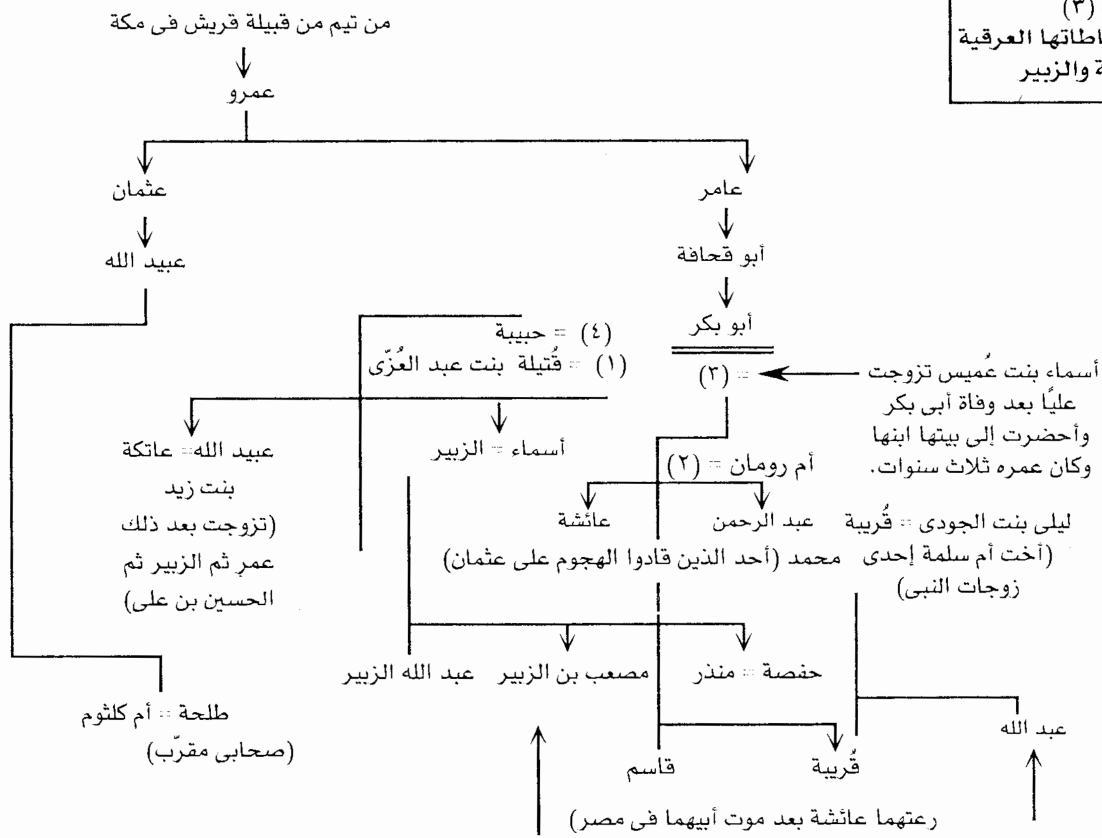
القائمة (١)
أسرة النبى محمد
وعشائر قبيلة قريش المهمة فى مكة.



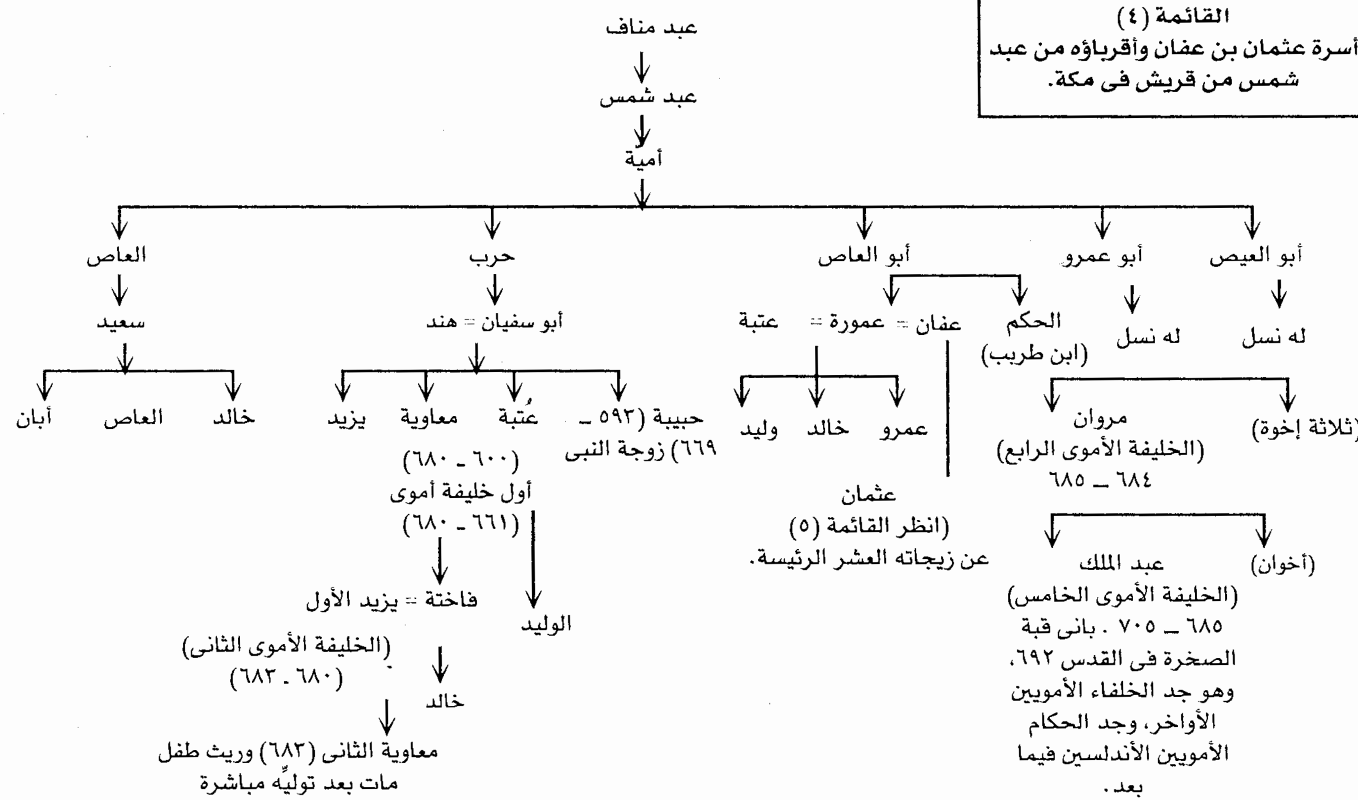
القائمة (٢)
زوجات النبى وأبناؤه

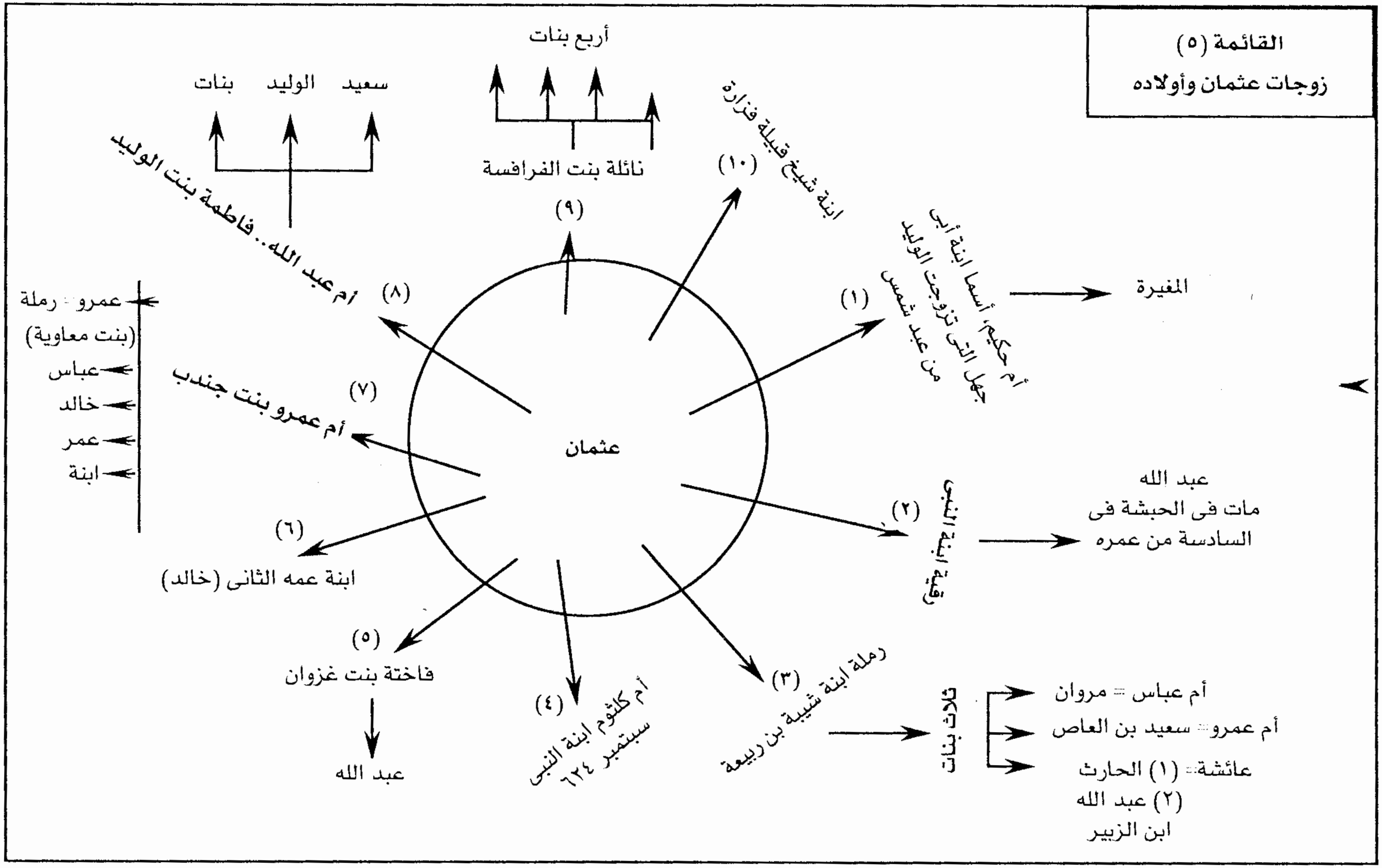


القائمة (٣)
أسرة أبى بكر وارتباطاتها العرقية بأسرة طلحة والزبير

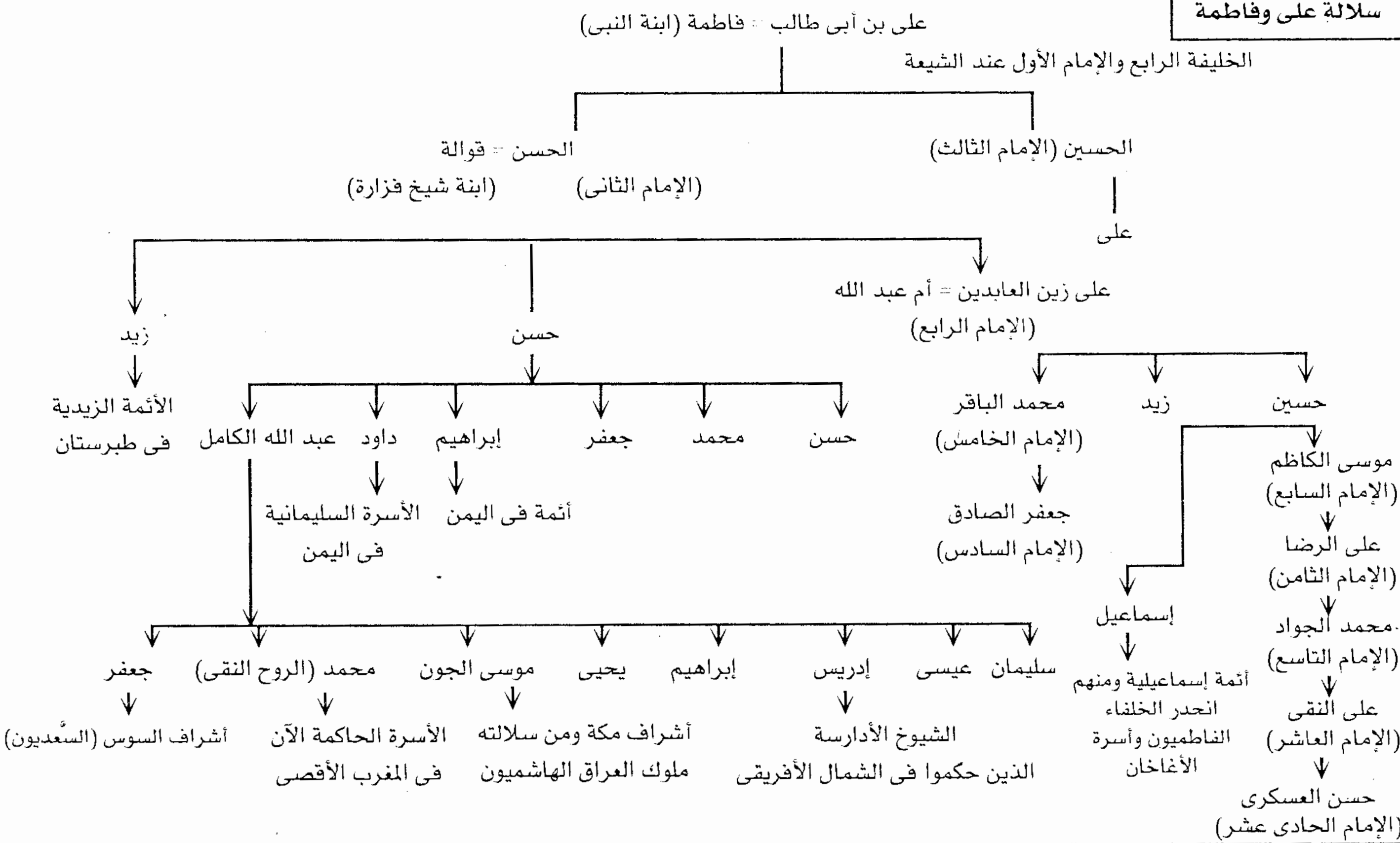


القائمة (٤)
أسرة عثمان بن عفان وأقرباؤه من عبد شمس من قريش فى مكة.

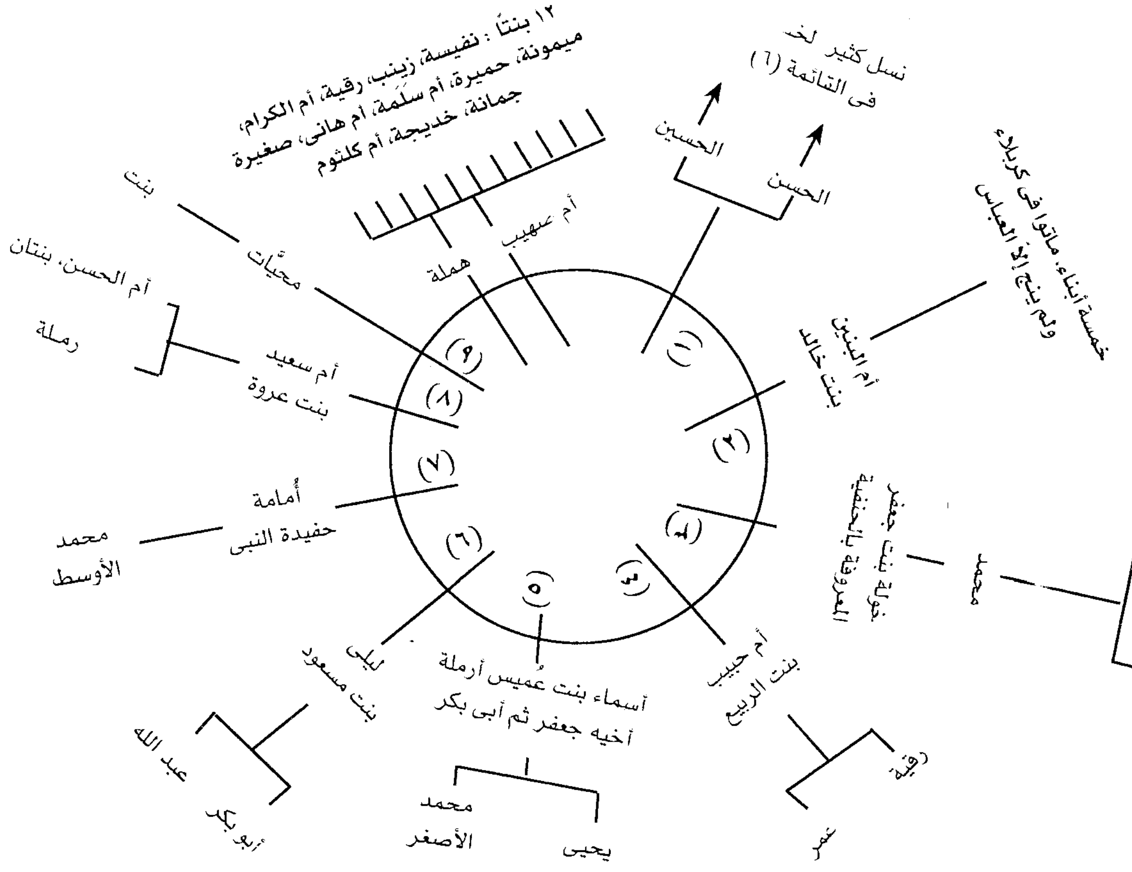



القائمة (٥)
زوجات عثمان وأولاده
عثمان
(١) أم حكيم، أسما ابنة أبى جهل التى تزوجت الوليد من عبد شمس
المغيرة
(٢) رقية ابنة النبى
عبد الله
مات فى الحبشة فى السادسة من عمره
(٣) رملة ابنة شيبة بن ربيعة
ثلاث بنات
أم عباس = مروان
أم عمرو = سعيد بن العاص
عائشة = (١) الحارث
(٢) عبد الله
ابن الزبير
(٤) أم كلثوم ابنة النبى
سبتمبر ٦٢٤
(٥) فاختة بنت غزوان
عبد الله
(٦) ابنة عمه الثانى (خالد)
(٧) أم عمرو بنت جندب
عمرو = رملة
(بنت معاوية)
عباس
خالد
عمر
ابنة
(٨) أم عبد الله.. فاطمة بنت الوليد
سعيد
الوليد
بنات
(٩) نائلة بنت الفرافسة
أربع بنات
(١٠) ابنة شيخ قبيلة فزارة

القائمة (٦)
سلالة على وفاطمة



القائمة (٧)
سلالة على (١٥ ولداً وبنتًا) من فاطمة وزوجات أخريات ومحظيات اتخذهن بعد وفاة فاطمة



منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤كورنيش النيل – رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ ـ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ـ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ـ التوفيقية ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ـ الحسين ـ
القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان ـ السيدة زينب
أمام دار الهلال ـ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ـ حلوان خلف مبنى
الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ـ ميدان الجيزة ـ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ـ بالحرم الجامعى
بالجامعة ـ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ـ محطة المساحة ـ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة ـ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ـ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ـ نهاية ش ٢٦ يوليوو
من أبوالفدا ـ القاهرة

مكتبة الإسكندرية

٩٤ ش سعد زغلول ـ الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك ـ المرحلة الخامسة ـ عمارة ٦

مدخل (أ) – الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى ـ بكلية الزراعة ـ

الجامعة الجديدة ـ الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ ـ بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى ـ أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ش الجمهورية ـ أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب ـ المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب ـ جامعة المنيا ـ

المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة ـ عمارة سينما أمير ـ

طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا ـ المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى ـ دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى ـ توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة ـ المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير ـ الزقازيق

ت : ٠٥٥/٢٣٦٢٧١٠

ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢

علوم اجتماعية

سلسلة تعنى بنشر الحقول المعرفية، التى تهتم بدراسة الإنسان وتاريخه وطبيعته وبيئته وقدراته الإدراكية وواقعه الاجتماعى والثقافى والسياسى، بالإضافة إلى النواحى المختلفة من النشاط البشرى وما ينشغل به البشر من إشكاليات حياتهم ومجتمعهم، وأنساق ثقافاتهم وقيمهم فى علوم مختلفة مثل: التاريخ والفلسفة والأنثروبولوجيا والاقتصاد والنقد الأدبى والقوانين والتشريع والعلوم السياسية إلى غيرها من المعارف العامة، التى يترقبها المتلقى، ويحرص على متابعتها؛ لتساعده فى تكوين مرجعيته الثقافية العامة.

ISBN# 9789779102580
6 221149 036048

مكتبة الأسرة ٢٠١٥

٦ جنيهات